دكتور محمد عباس

إني أرى الملك عارياً



رسائل ابن عباس :

وعموم الناس

إني أرى الملك عاريا

الكتـــاب : إنى أرى الـمَـلِك عاريا
الكــاتب : الدكتور محمد عباس
الطبعـــة : الأولى ١٩٩٩
الناشـــر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ - فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤

دكتور محمد عباس

إني أرى الملك عاريا

رسائل ابن عباس: إلى الحكام وعموم الناس

الناشر

مكتبة مدبولى

١٩٩٩

قائمة بالمحتويات

الرسالة الأولى : أوقفوا التعذيب

الرسالة الثانية : الشرطة خدم السلطان

الرسالة الثالثة : جلالة الملك فخامة الرئيس

لن يجد أحد يرغب في مهاجمتنا بقلمه ناشرا ينشر له..

كون المؤلفين مسئولين أمام القانون سيضعهم في أيدينا و ما من أحد سيكون قادرا دون عقاب على المساس بعصمتنا السياسية ...

إن حكمنا سيبدأ في اللحظة التي يصرخ فيها الناس الذين مزقتهم الخلافات وتعذبوا تحت إفلاس حكامهم - وهذا ما سيكون مدبرا على أيدينا - فيصرخون هاتفين : اخلعوهم وأعطونا حكما يستطع أن يمنحنا السلام والراحة ، لكن لكي يصرخ الجمهور بمثل هذا الرجاء لابد أن يستمر في كل البلاد اضطراب العلاقات القائمة بين الشعوب والحكام ، اضطراب يستثمر العداوات والحروب والكراهية والموت استشهادا أيضا ، هذا مع الجوع والفقر ، وسيستمر كل ذلك إلى الحد الذي لا ترى شعوبهم الأمل في أي مخرج من المتاعب غير أن يلجأوا إلى الإحتماء بأموالنا وسلطتنا الكاملة .

"من بروتوكولات حكماء صهيون"

مقدمة

هل أستطيع - أيها القارئ أن أنقل إليك مدى خطورة ما أتحدث فيه ومدى صدقه ، ومدى ضرورة أن تتخذ فيه قرارا، و ألا تظل بعد قراءته كما كنت قبل قراءته، و ألا تكتفي بالدموع آملا أنها تطهرك من إثم يطولك بصمتك، إثم صمت شيطان أخرس؟ .

هل أستطيع أن أوصل إليك - و إلى الأمة كلها - فداحة ما يحدث من فساد ومن تعذيب لإخوة لنا في البشرية، كي تخرج من صمتك وسلبيتك وسكونك، فأنت - إن اتحدت مع الباقين - القادر على إرغام الجلادين على كفٍّ ذئابهم - كلاب النار - عن نهش أبناء هذا الوطن .

هل أستطيع أن أبلل صفحات هذا الكتاب بالماء أو بالدموع وأن أصلها بالكهرباء كي يتكهرب القارئ إذ يقرأ ليفهم ويحس ويعي أي نوع فظيع من العذاب يعانيه أولئك الذين يعذبونهم بالصعق بالتيار الكهربائي.

هل أستطيع أن أجعل من السطور سياطا و أسلاكا مجدولة تنهال على وعي القارئ ليحس بشيء شبيه لما يعانيه الضحايا ؟.

وهل أستطيع أن أستعمل في كتابته دم الضحايا الذي سفكه الباطش الجبار وسفحه الضحايا بدلا من الحبر الذي دنسته أقلام كثيرة .

هل أستطيع أن أوقد تحت القارئ نارا، ليحس بما يحس به الضحية وهو معلق كالخروف المشوي فوق النار .

هل أستطيع أن أجعل القارئ يقرأ هذا الكتاب وهو معلق من

قدميه فى سقف منزله، أو وهو معلق من رسغيه معكوسا وقد ربطت فى كل قدم من قدميه " أنبوبة بوتاجاز "، أو وهو يُسحل على الأرض .

هل أستطيع أن أصوغ من تلك الحمم المنصهرة المنثالة من داخلى تمثالا يحرق لامسه ويعمى الناظر إليه، أو أن أرسم بألوانها الدامية لوحة تتحرك فيها الجمادات وتصرخ .

هل أستطيع أن أجعل تلك الصفحات تشتعل بين يدى القارىء، أو تنوح وتلطم .

هل أستطيع أن أبث الروح فى تلك الحروف المتراصة الميتة فتنفجر بالحياة من الألم فتنقل للقارىء فى نفس اللحظة التى يقرأ فيها صرخة إنسان يُعذب .

هل يمكن أن يسمع القارىء وعيناه تجريان على هذه السطور صوت سوط، صوت العظام وهى تتهشم، والمفاصل وهى تنخلع، والنفوس وهى تنكسر .

هل يمكن أن يرى القارىء ولو لثانية واحدة ضابط الشرطة الذى يعبث بأصابعه وبأدوات أخرى فى هنى امرأة، فى عورتها وعفتها، بعد أن أخذوها - وهى البريئة - رهينة ، هل يمكن أن يرى القارىء ذلك و أن يخصف على مشهد العار الداعر فى خياله الدامى صفحات هذا الكتاب .

هل يمكن . . . .

هل يمكن . . . .

ياقارئى : إن ما يحدث فى ربوع أوطاننا جرائم مروعة تؤكد أن النظام كله مختل و أن المجتمع كله مريض، الكبار والصغار، المتَّهمون والمتهمون، ولعل مادة هذا الكتاب التى نشر الكثير منها كمقالات فى الأعوام الخمسة الماضية تشكل صفحات من التاريخ تقطر دما . . وكرامة . . وألما . . . و أملا مسفوحا . . . ولعل ما نشر، و ما لم يتسع الهامش الديموقراطى فى بلادنا لنشره، لعلها جميعا تتشكل كديوان للوطن فى مخاضه الدامى، ولعل ذلك ما كاد

يدفعني لتقسيم هذا الكتاب لا إلى رسائل وأجزاء و أبواب وفصول . . بل إلى أشلاء . .

شلوا إثر شلو . .

و إن كان هذا الكتاب يركز في مباحثه على مصر، فما ذلك إلا لأنها البلد الوحيد - فيما أظن - الذي يمكن أن يسمح بصدور مثل هذا الكتاب، ثم أنها وطني الذي أراه أكثر مما أرى سواه، والذي أستطيع أن أزعم - رغم البشاعة والألم - أنه أفضل حالا من معظم البلاد الأخرى، فالناس هنا مازالت تملك بعد حق الصراخ والاحتجاج والألم، وهي أمور تعد من المحرمات المطلقة في معظم أوطان العالم الإسلامي، حيث يتعذب الناس ويموتون في صمت كصمت القبور، دون صرخة احتجاج أو ألم، وليس هذا انحيازا لوطني، ولا مجاملة لحكومتي، بل إنها التقارير الموثقة لمنظمات حقوق الإنسان.

ويستطيع قارىء هذا الكتاب قراءته من الخلف أو من الأمام أو من أي جزء فيه في دائرة جهنمية لا تكف عن الدوران والتكرار، وأن أي جزء فيه، بغض النظر عن تاريخ كتابته، وعن مناسبته، يصلح للأمس صلاحيته للغد، فما من شيء يتغير وما من شيء يتطور وما من هم يزول في هذا الوطن . . لا الوطن الصغير الذي تحده على الخرائط خطوط تتوسطها كلمة " مصر، بل إلى عوالم العرب و الإسلام والمسلمين، من أجل ذلك انطلقت باحثا ومنقبا عما جعل الأمم تتداعى علينا كما تتداعى الأكلة على قصعتها، مدركا أن السبب ليس في ضراوة الأعداء، بل السبب فينا نحن . .

ولا يزعم هذا الكتاب أنه يقدم حلا، فالحل الذي يقدمه كتاب أو فرد ليس سوى وهم ورقة يانصيب لا تفوز أبدا، إنما يدعي أنه يحاول دعوة الأمة كلها و دعوة الآخر أيضا، لأننا لو جمعنا ستين مليون عقل، أو حتى عشرين، أو حتى مليون واحد، أو حتى ألف فقد تستطيع إخراجنا من الوهدة التي أغرقنا الحكام فيها، ومن ناحية أخرى فلعل واحدا ممن يقرؤونه الآن يصبح حاكما ولو بعد نصف قرن، مصطحبا معه عبر السنين شعور المواطن والوطن بالألم الفادح التي تسببه تصرفات الحكام، ولعله حين يحكم يرعوي

عنها.

هذا الكتاب أيضا ليس كتابا أكاديميا و إن اعتمد على مئات المراجع، وليس سيرة ذاتية كما أنه ليس رواية، ولكنه محاولة لرصد حال الوطن فى حقبة شديدة السواد والألم.

ولأن هدف كل كاتب الوصول إلى عقل قارئه وقلبه، فلقد حاولت أن أصل بالعقل إلى العقل وبالقلب إلى القلب، وسيلاحظ القارىء أننى توسعت فى الاستشهاد بنصوص أدبية وشعرية، ولم أكتف بمجرد الإشارة إليها، وما حيلتى إن كان خريجو الجامعة لا يعرفون نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ولا من أين ينبع نهر النيل ولا متى بُنى السد العالى!، فكيف كان يستساغ أن أستشهد فى إيجاز بعبد الرحمن منيف أو أحمد مطر؟!.

ولقد نتج عن وحدة الموضوع وتباين التناول تداخل بين الأجزاء وبعضها، نفس التداخل الذى يحدث بين الأشلاء فلا تستطيع بالدقة فصل جزء عن جزء أو شلو عن شلو، ولإن بدا للعين العابرة أن تلمح تكرارا هناً وهناك فلعل ذلك يكون مقصودا بنفسه، فالتعذيب مستمر والتزوير مستمر والاستبداد مستمر، ولا توجد صرخة لضحية تشبه صرخة أخرى لضحية أخرى،مهما توهمت الأذن العابرة من تشابه.

لقد كنت أتصور أن يكوّن كل جزء من هذا الكتاب كتابا منفصلا، لكن الناشر والأصدقاء رأوا أن يضم الأجزاء الثلاثة كتاب واحد، فقد لاحظوا أن كل أجزائه تدور حول محورين أساسيين، هما التعذيب والتزوير، إنهما آباء السفاح لكل جرائم المجتمع الأخرى، ولقد تناول الكتاب هاتين الظاهرتين فى جزئه الأول بالرصد والمتابعة و إبراز الأمثلة، ولقد كان طبيعيا أن يتطرق فى تناوله ذاك إلى جرائم أخرى، هى النتاج الطبيعى للتعذيب والتزوير.

فى الجزء الثانى عمد الكتاب إلى أداة الدولة فى التزوير والتعذيب، إلى جهاز الشرطة، فالشرطة خدم السلطان، ولقد كان الكاتب يزمع أن يقسم هذا الجزء إلى قسمين، قسم يتناول انعكاسات أعمال الشرطة على الأدب، والقسم الآخر يتحدث عن

ممارسات الشرطة فى الواقع، لكنه اكتشف أثناء الكتابة -للمأساة- أن هذا الفصل فوق أنه متعسف فإنه غير ممكن، فمعظم الأعمال الأدبية التى تناولت الشرطة كتبها ضحايا من الكتاب والأدباء، وقعوا فى براثن الشرطة ذات يوم، فكان ماكتبوه تجارب شخصية واقعية لا نستطيع تناولها كقيمة أدبية مجردة!!.

فى الجزء الثالث، يصرخ الكاتب مناديا جلالة الجلالات وفخامة الفخامات فما كان كل هذا التعذيب والتزوير- بكل التداعيات المروعة - يمكن أن يحدث دون مباركة كاملة منهم. لذلك كان على الكتاب أن يقدم صورة شاملة للنتائج الوبيلة التى تمخضت عن اتخاذ حكامنا للتعذيب والتزوير دينا يدينون به. وفى هذا الجزء، تنقسم كل مقالة رئيسية إلى مقالتين فرعيتين، كل منهما تكمل الأخرى، رغم اختلاف الموضوع، تماما كما يكمل لحنين معزوفة.

لقد كان واضحا أمام الكاتب أنه مع جرائم التعذيب والتزوير التى تمارسها السلطة، والتى بلغت تداعياتها إلى نسف منازل مواطنين لمجرد الشك فى مناوأتهم للدولة. إنه لم يكن البيت هو الذى انهدم، بل كان الوطن هو الذى انهزم، وكان الشعب هو الذى انقسم، وكانت الأمة هى التى تشتت شذر مذر.

كان ذلك واضحا، فلا خير فى وطن يكون السيف فى يد جبانه، والمال فى يد لصوصه، والقلم فى يد منافقيه.

إننى في النهاية أكاد أعتذر للقارىء عن حجم الألم فى هذا الكتاب، ذلك أن ألمى قد برى قلمى، كما أنكم تعرفون أنه ما من عملة رائجة فى سوق الصدق مثل الألم.

لقد حاول هذا الكتاب أن يعثر على السبب فيما نحن فيه، ولقد وصل إلى مسئوليتنا جميعا،فالأمة كالساعة، لكى تنضبط لابد أن ينضبط كل ترس فيها.

السبب فينا

السبب فينا . . والعلة . . والمرض . .

و النظام كله مختل و المجتمع كله مريض .

الرسالة الأولى

أوقفوا التعذيب

" إن التعذيب المادى وصل إلى حد وضع قطع خشبية في دبر بعض المتهمين ، فذكر أحدهم ذلك ، ولعل الآخرين أمسكوا عن هذا القول بالذات ، صيانة لأعراضهم من الفضائح . إن ضمير المحكمة ليفزع ، وضميرها يجزع ، وهى ترى أن أي متهم قد تعرض للتعذيب المادى أو النفسى أو العقلى ، ويزداد الفزع ويتضاعف الجزع، أن التعذيب حدث بصورة وحشية فظيعة، كوضع قطع خشبية فى دبر المتهمين ، وهو أمر وصفته محكمة النقض فى الثلاثينيات من هذا القرن بأنه " إجرام فى إجرام "، ولا تجد المحكمة فى عصر حقوق الإنسان وزمن حرية الوطن والمواطنين وصفا ملائما تصفه به ، ولا تريد أن تتدنى لتصفه بوصفه البشع ، غير أنها ترى فى التعذيب عموما عدوانا على الشرعية من حماة الشرعية..."

"من حيثيات حكم محكمة مصرية . !!."

إنى أرى الملك عاريا

يُحكى أن ملكا استمتع بنفاق حاشيته وجبن شعبه حتى السأم، وفى الاحتفال السنوى أراد أن يسخر من الجميع، وبدلا من الخروج إلى موكبه لابسا أفخر ثيابه ومتقلدا أرفع أوسمته ؛ خرج عاريا تماما، كما ولدته أمه، وراحت الحاشية تقول : ما أفخر الثياب وما أرفع الأوسمة !!، والشعب يردد خلف الحاشية ما تقول، وظل الموكب يطوف شوارع المدينة والحاشية تقول والشعب يردد، وفجأة صرخ طفل : ولكننى أرى الملك عاريا !!.

لم تنقل لنا الأسطورة - يا نخب الأمة ويا حكامها -ماذا فعلوا بذلك الطفل، لكننى الآن أزاكم بعينين بريئتين كعينيه : عــــــراة!!.

بنص حكم محكمة مصرية حمل مستشارها عنا عبء استعمال الكلمة وعواقبها عندما وصف ما يقوم به بعض أفراد جهاز الشرطة من عدوان على الشرعية والمفروض أنهم حماة الشرعية بأنه " إجرام فى إجرام "، لم يقل ذلك فقط، لكنه قال ماهو أكبر هولا وأشد إدانه، لأنه قال أنه عندما حدث شىء مثل هذا منذ ستين عاما وصفه القضاء المصرى بأنه إجرام فى إجرام . وكان الذى حدث أقل بكثير مما يحدث اليوم، تحت نير الاستعمار وملك أجنبى وحكومات عميلة .

الذى لم يورد المستشار تفاصيله، أن ضابط الشرطة المصرى، عندما هتك عرض مواطن منذ ستين عاما ، فقتله هذا المواطن، فنشبت أزمة سياسية كبرى انتهت باستقالة رئيس الوزراء فى ذلك الوقت، لا لأن المواطن قتل الضابط الذى هتك عرضه، بل لأن

ضابطا يمثل سلطة الدولة هتك عرض مواطن .

منذ ستين عاما كان هذا وضع حقوق الإنسان فى مصر، وكان هذا هو رد الفعل على انتهاكه .

اليوم ، أمامكم لا حيثيات حكم واحد بل عشرات وعشرات، ومئات أيضا من تقارير الطب الشرعى عن التعذيب وتفاصيله .

أما رد فعل السلطة فلا شيء .

ولعلنا إذ نتناول ظاهرة التعذيب نبادر إلى ما يسميه إخوتنا اللبنانيون " الكلام الساكت " فنتحدث كثيرا ولا نقول شيئا، نوهم الآخرين أننا نمسك كبد الحقيقة، ونرشو ضمائرنا بذلك، ونبتعد عن مكامن الخطر ومرأى الدم فنتجادل فى أحدث ما وصلت إليه نظريات علم الإجرام الجديد ممارسين بصورة فاجعة عجز الصفوة عن التعامل مع الواقع، ومكررين بطريقة محزنة قول مارى أنطوانيت الأبله لشعب لا يجد الخبز أن يأكل الجاتوه.

لعلنا نهرب من المشكلة فنستعيد - بنفس منطق مارى أنطوانيت – وننتقد نظريات و أفكار هيرمين مانهايم و أوجست كونت وجاروفالو ولسلن وسذرلاند وابن خلدون وتوماس الإكوينى وتوماس هوبز وجان جاك روسو وسيزار بكاريا وسيزارى لومبروزو و أنريكو فيرى وتشارلز جورنج وأرنست هوتون ودوركايم وكيتيليه وجرسبينى وروبرت ميرتون وجيرمى بنثان وجبرائيل تارد وفرويد وجون لوك وعشرات وعشرات وعشرات .*

ولعلنا نعرف الجريمة والإجرام، بالتعريفات القانونية والاجتماعية والنفسية والدينية، فنتكلم عن القانون الطبيعى والقانون المدنى ومفهوم الصراع ونظرية المخالطة الفارقة ومناهج البحث فى علم الإجرام ، ونسترجع مدارس علم الإجرام من النظرية التقليدية والنظرية الوضعية وما اشتق منهما من

---

* راجع مقدمة في الانحراف الاجتماعى، الدراسات الاجتماعية والأنتروبولوجية. د.مصطفى عبد المجيد كاره- معهد الإنماء العربى-بيروت ٨٥- و الجريمة، أبو زهرة، دار الفكر العربى، القاهرة. و علم الإجرام وعلم العقاب يسر أنور و آمال عثمان، القاهرة ١٩٨٠. وعلم النفس الجنائى علما وعملا، محمد فتحى ، القاهرة ١٩٤٩.

فروع، و نشرح النظرية الفسيولوجية وعلم الفرينولوجيا والنظرية النفسية وعناصر الشخصية والجريمة وعلاقتها بالمرض النفسي والعقلي.

لعلنا نتجاوز المدارس القديمة، متناولين الجريمة كظاهرة اجتماعية، ممحصين أسبابها وعلاقتها بالمجتمع، متحدثين عن نظريات التفكك والتحييد والتقليد والوصم لكي نصل إلى علم الإجرام الجديد الذي يرى بعض فقهائه جميع الجرائم والمجرمين من منطلق سياسي و إداري دون سواه .

و لكننا ونحن نفعل ذلك كله لا نلقي بالا إلى ما يحدث أمامنا.

إننا بهذا نشبه طفلا يرى أمه على فراش الموت، فلا يسعفه خيال الطفل إلا بأنه سيكبر، سيصبح طبيبا كبيرا، وسينقذها من الموت، دون أن ينبئه خياله القاصر، أنه عندما يحين ذلك الوقت، ستكون أمه قد شبعت موتا.

فهل يمكن أيها السادة أن نكف عن الهرب و أن نواجه.

هل يمكن أن أعرض شيئا آخر غير ما تحفل به صحفكم وأبحاثكم من متاهات نظرية .

شيء آخر . . . . تجيبون بعده يا نخبة الأمة على سؤالي . . . . .

ما أود أن أعرضه عليكم هو أنماط التعذيب التي تمارس في مصر على أعتاب القرن الحادي والعشرين ، ولو أن ضمائر البشر لها آذان تسمع وعيون ترى و أنوف تشم لسمعتم الآن صراخ الضحايا ولذابت أصواتكم وحياتكم في دمائهم ودموعهم ، ولهالكم منظر المجزرة البشرية ولطغى على رائحة الشواء الشهي للمآدب الحافلة التي تلتهمونها في البيوت أو المطاعم الراقية رائحة اللحم البشري وهو يُشوى، أعرض عليكم أيها القراء نماذج التعذيب كما توردها مصادر عديدة منها تقارير المنظمة المصرية لحقوق الإنسان والصحف، وكتب كثيرة منها كتاب قيم للصحفي النابه أيمن نور*:

---

* أيمن نور – مجدي شندي، العسكري الأسود، زكي بدر، الشركة العربية الدولية للنشر، القاهرة، ١٩٩٠.، وعمر خفاجي، ملف عبد الحليم موسى، دار سفنكس للطباعة والنشر،١٩٩٣. كذلك إصدارات صحف المعارضة خاصة صحيفة الشعب المصرية.

١ - عصب العينين والتجريد من الملابس .

٢ - التعليق من الأيدى والتعليق فى فلكة .

٣- الضرب بالعصى والأسلاك الكهربائية .

٤- الجلد بالسياط والعصى المفتولة من الجلد .

٥ - إجبار الضحية على الوقوف عاريا لفترات طويلة.

٦- سكب الماء البارد على رأس الضحية .

٧- إطفاء السجائر المشتعلة فى الجسم .

٨- الصعق بالتيار الكهربائى .

٩- الركل بالأقدام والضرب بقبضة اليد .

١٠- إطلاق الكلاب المسعورة على السجناء.

١١- إجبار الضحية على الجلوس فوق خازوق .

١٢- الحرمان من الغذاء والدواء.

١٣- الإلقاء فى بيارة دورة المياه .

١٤- التهديد باغتصاب الضحية أو ذويه.

١٥- إسماع الضحية صراخ وعويل الضحايا الآخرين أثناء تعذيبهم لإرهابه .

١٦-تقييد الأيدى والأرجل من الخلف وتحويل جسم الضحية إلى شكل دائرى .

١٧ -نزع الأظافر والسحل .

١٨- النوم على البلاط دون أغطية وإغراق الزنازين والضحايا فيها بمياه المجارى .

١٩- استخدام وسائل حادة مثل المطواة وقطع الزجاج فى إحداث الإصابة بالمتهمين .

٢٠- الكى بالنار .

٢١- إرهاب الضحية بالثعابين الحية وإرغامهم على تقبيل عضو

المذكورة للضابط القائم بالتعذيب .

فى لقاء شخصى مع أحد الضحايا كنت أسأله عن تفاصيل التعذيب وكان يجيب ، وفجأة انفجر غضبا وألما صارخا فى وجهى: ماذا تعنى الكلمات بالنسبة لكم، إنكم تفهمون ما يحدث لكم خارج السجن لأن خبرات حياتكم تحوى ما يضاهيه أو يفسره، عندما يقول لك قائل : أحلى من السكر فأنت قد ذقت السكر، وعندما يقول لك أمر من العلقم فأنت تعرف العلقم، لذلك فأنت تفهم بالقياس، أما عندما أقول لك أن ما شهدته أقسى من الموت فلا أنا ولا أنت نستطيع إدراك ذلك لأننا لم يسبق لنا الموت، من أجل ذلك فعندما أقول لك أنهم ضربونى بالسياط، ربطونى بطريقتهم الجهنمية الرهيبة التى يسمونها : الخروف المشوى، أو علقونى مقلوبا على الباب من معصمىّ ساعات وساعات حتى انخلع كتفى، أو . . . أو . . . أو . . . كيف تفهم شيئا من هذا وكيف تحسه .

أحسست بالخزى ياقراء...

أحسست بالامتهان والإهانة والمشاركة بجريمة الصمت .

ربما هذا هو مايقصده فقهاء علمى الاجتماع والإجرام عندما يتحدثون عن رد فعل المجتمع على الجريمة، عن أن الجريمة ليست موجهة إلى ضحيتها فقط بل إلى المجتمع كله .

الآن أسألكم :

هل توافقون حيثيات حكم المحكمة الذى أوردته فى صدر هذا المقال بأن مايحدث إنما هو إجرام فى إجرام ؟ وهل توافقون على أن لكل جريمة مجرم ؟ وهل المجرم هو : كل من يدان أمام محكمة الجنايات ؟ أم أنه كل من يرتكب الجريمة طاله القضاء أم أفلت منه. هل تجدون يا صفوة المجتمع ونخبته أى مبرر للأداة الأولى فى مكافحة الجريمة - وهى بعض قطاعات الشرطة - يسوغ لهم أن يفعلوا مايفعلونه، أم أنكم ترون، لا مع حيثيات حكم المحكمة فقط، بل معنا، مع الإنسان فى كل زمان ومكان وتحت أى شريعة أن ماحدث إنما هو إجرام فى إجرام . . . . . . وقيام حماة الشرعية

بالعدوان عليها، واعتداء على حقوق الإنسان ممن واجبه الحفاظ على حقوق الإنسان .

يقول سذرلاند :" إن الجريمة لا توصف كذلك بناء على صدور عقوبة ضدها، بل بناء على حقيقة أنها معاقب عليها ."

أيها القراء :

سوف تجدون في بلادنا المتخلفة المسحوقة من ،يؤكدون أن مايحدث ليس إلا مكافحة للإرهاب . لذلك، فسوف أتجنب تناول مايحدث لمن يسمونهم بالإرهابيين، ليس موافقة على ما يحدث لهم، وإنما فضحا لتلك النفوس الخسيسة المجرمة التي تتخذه تبريرا . غير متجاهل في الوقت ذاته، أن ثمة قضية كبرى لم تظفر من مجتمع المثقفين المكبل بالخوف والرعب والنفاق وإيثار السلامة بما تستحق من اهتمام، فبعض قطاعات الشرطة مدعمة بالسلطة لم تكتف باغتصاب حرية ضحاياها وانتهاك أعراضهم وأعراض نسائهم وبيوتهم وذويهم، بل إنها تقوم أيضا – وهذا لا يقل شرا عن كل ما سبق – بانتهاك اللغة واغتصابها بإطلاق الأسماء الخطأ التي ترددها أبواقها حتى ترسخ في أذهان الناس في النهاية، يتبعون مبدأ : إكذب واكذب ثم واصل الكذب فسوف يصدقك الناس في النهاية، إفعل أي شيء ضد السلطة وستكون إرهابيا، إرفض تزوير الإنتخابات أنت إرهابي ، تصد لقضية فساد أو تكلم عن الفساد أو عن اللصوص الكبار : أنت إرهابي، إختلف مع سياسات نظام الحكم: ليس في مواقف جوهرية توجع السلطة لأنها تكشف عارها كحرب الخليج مثلا، بل في مواقف فرعية، كاشتراك إسرائيل في معرض الكتاب : أنت إرهابي .

جهاز ذو إعلام فاشيستي يكرس الكذب ويعاقب من يكذبه ويسفهه ويشهر به .

وليت الضحية تذهب بعد ذلك إلى نيابة أو قضاء لا تمارس السلطة عليهما كل وسائل الضغط والتعمية. ثم أن النيابة مع كل محاولات التأثير عليها مقيدة بقانون والقضاء بطيء ويتحرى الدقة فيبرئ ألف مجرم كي لا يتورط في إدانة برئ، لكنه في نفس الوقت، وبحسن النية كلها، بتدليس بعض قطاعات الشرطة

والسلطة، يبرىء المجرمين ويجرم الأبرياء الذين صيغت اعترافاتهم تحت سياط لا يستطيعون إثباتها، وقد تعثرت محاولات إفساد القضاء الطبيعى رغم الاستمرار والالحاح الذى يفسد بعض آثاره قيام بعض الشرفاء والمفكرين بالتصدى له، أولئك الشرفاء الذين لا تتورع السلطة عن تلفيق تهمة إهانة القضاء لهم أو لمن يدافع عنهم، فالسائر فى هذا الطريق يخوض فى حقل الغام قد ينفجر فيه فى أية لحظة .

النيابة مقيدة والقضاء عصى، فلتقم الشرطة اذن بمهامهم جميعا وبمهمة الجلاد ايضا .

يصرخ بيان من بيانات المنظمة المصرية لحقوق الانسان معاتبا النيابة (... إلا أن النيابة لم تبدأ حتي الآن التحقيق مع الضباط المتورطين على الرغم من أن عددا من المتهمين - كما أثبتت النيابة - قد تعرضوا للتعذيب عقب كل جلسة تحقيق أجرتها معهم، ولم تقدم حماية قانونية لهم لوقف التعذيب الذى تم تحت سمعها وبصرها من خلال أقوال المتهمين ومشاهدة آثار التعذيب على أبدانهم) .

لقد قبضوا ذات يوم - على سبيل المثال - على ضمير عظيم من ضمائر مصر، هو الدكتور حلمى مراد رحمه الله ، وأودعوه مع المجرمين والقوادين ومنعوا عنه الدواء، وهم الذين ملأوا الدنيا ضجيجا مدلين على إجرام من لم يرع حرمة عمر نجيب محفوظ، ولم يراعوا هم عمر الكاتب الكبير والوزير الأسبق منذ ربع قرن، ولقد أدعو أسبابا شتى للقبض عليه وهناك فى السجن بين قاع المجتمع، أدرك المجرمون - فمتى تدركون يامثقفين ؟!- القابعون فى التخشيبة كذب ادعاءات السلطة وكذب أي اتهام مدركين تماما أنه هناك معهم بسبب قلمه وضميره وتعريته للسلطة، وموقفه من التعذيب وانتهاك القوانين وانتقاداته للنائب العام ودفاعه عن استقلال القضاء ومحاولته كشف فساد السلطة، أدرك حتى القوادون والنشالون واللصوص والقتلة ذلك مهدرين كل مجهود السلطة فى الكذب على الناس فسألوا الدكتور حلمى مراد والذين معه، سألوه عن كاتب هذا الكتاب : لماذا لم يُسجن معه ؟ !!!!

لقد اعتقلوا وحبسوا وسحلوا وعذبوا، وفى الغالب الأعم لم تكن هناك قضايا .

كان كل ذلك بهدف الترويع فقط . بهدف قمع كل فكرة وكل محاولة للتصدى للفساد .

على الرغم من ذلك كله، فسوف أتجنب تناول ما يحدث لمن يسمونهم بالإرهابيين، ليس موافقة على ما يحدث لهم، فحتى لو كانوا مجرمين فإن عقابهم يجب أن يتم من خلال القانون لا من خلال ذلك الادعاء الذى أصبح يثير من السخرية قدر ما يثير من الاشمئزاز، أنهم جميعا يبادرون السلطة بإطلاق النار فترد عليهم فتصرعهم، لقد نشرت صحيفة الأهالى - وهى من أعدى أعداء الجماعات الإسلامية - وتواترت أخبار عديدة، أن ثمة شائعات قوية تذكر أن بعض قطاعات الشرطة بعد القبض علي ضحاياها واستجوابهم وتعذيبهم لمدة أيام أو أسابيع، تنقلهم مكبلين بالأغلال الى مزارع القصب تطلق عليهم الرصاص .

يقول الكاتب الكبير الدكتور محمد السيد سعيد - وهو بالمناسبة مصنف عند الأمن من الشيوعيين وليس من الجماعات الاسلامية - إن الصراع لم يعد صراعا بين الدولة والإرهاب وإنما بين جماعتين مسلحتين تفتقد كل منهما الشرعية .

على الرغم من ذلك كله، سوف أترك الصراع السياسى كله، لا موافقة للشرطة على ما تفعله، إنما فضحا لتلك النفوس المجرمة التى تتخذه تبريرا . لكننافى ذات الوقت نقرر أننا نعلم أن العالم كله وقطاعا عريضا من الأمة يدرك أن قطاعات الجهاز المتورطة فى القتل والتعذيب لم تترفع عن الكذب، وفى خلال هذا الاطار نتلقى بياناتها .

لنترك ذلك كله، لنترك السياسة بما فيها ولنتناول نمط تعامل ضباط شرطة مع مواطن، ليس حتى متهما بالسرقة، بل أمره الضابط بالانصراف من حفل زفاف فتلكأ الشاب فصفعه الضابط فرد الشاب على الضابط صفعته، فألقى الضابط القبض عليه وعذبه حتى الموت .

ليس الأمر أمر صراع سياسى وليس مكافحة للإرهاب .

لقد أصدرت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان تقريرا تقول فيه : إن أغلبية الحالات التى تعرضت لإساءة المعاملة والتعذيب فى أقسام الشرطة هى لمواطنين لم يتهموا بممارسة السياسة، فضلا عن العنف والإرهاب، مما يكشف مدى شيوع أسلوب التعذيب والقسوة فى العمل الشرطى، بل إن إثنين على الأقل من خفراء الشرطة قد لقيا مصرعهما خلال عام مضى من جراء التعذيب على يد ضباط الشرطة .

ليس الأمر أمر إرهاب إذن، ولا محافظة، علي أمن الحاكم أو الدولة . . . بل إجرام فى إجرام.

يذكر الكتاب المروع الذى أصدرته المنظمة المصرية لحقوق الإنسان ما حدث لمواطن خجل من ذكر اسمه لكن وثائقه لدى المنظمة : " احتجز بقسم شرطة باب الشعرية بسبب خلاف بينه وبين ضابط مباحث القسم، وتعرض للتعذيب لتأديبه، حيث أجبره ضابط المباحث علي خلع الملابس كلها، وعقب ضربه لفترات طويلة بالكرباج أجبره على تقبيل حذائه وحذاء مساعده الضابط عدة مرات، وكان التعذيب قد بدأ بجولة من بث الرعب النفسي وذلك بإستخدام ثعبان حي يطلق عليه الضباط (لولو) ويستخدم في إرهاب الضحايا الذين لا يعلمون أن أسنانه منزوعة وقد وضعوا الثعبان داخل قميص الضحية، ويزعم الضحية في شهادته أن ضباط المباحث أمر بعد ذلك ثلاثة من المحتجزين بالقسم بالإعتداء عليه جنسيا مقابل الإفراج عن كل من يغتصبه، وقد حاولوا ولكن عندما عجزوا بسبب المناخ الإرهابي السائد قام ضابط المباحث بخلع بنطلونه وسرواله وأجبر الضحية على إتيان أفعال منافية للآداب العامة – ثم تكرر ذلك مع مساعده، ثم أجبر على التحدث والرقص والغناء بطريقة النساء، وقد أصيب الضحية بحالة هستيرية، ونقل إلى المستشفى للعلاج من أثر التعذيب وتقدمت أسرته ببلاغ إلى نيابة باب الشعرية التي حفظت البلاغ.

وبعد أن يورد الكتاب نماذج عديدة، تتقدم المنظمة بالاعتذار إلى الرأي العام لاضطرارها لتقديم صور بها بعض التفصيل الجارح

للشعور، و أنها حاولت قدر الإمكان استخدام أخف الصياغات، وتجنبت لأجل ذلك الكثير من التفاصيل المفزعة التى تثير الغثيان.وتستدرك المنظمة أن الصدمة الحقيقية للشعور العام هو أن ذلك يحدث فى مصر، و أن مرتكبيه لا يجدون من يحاسبهم، بل يستشعرون الحماية فيطلقون العنان لنفسيتهم المريضة المشوهة، وينتقلون من ضحية إلى أخرى دون وجل.

إن الشرطة قد أضحت فوق القانون، بل وعلى حساب النظام القضائى ذاته، وقد صار التعذيب خلال السنوات الأخيرة جريمة لاعقاب عليها .

إن المنظمة الباسلة لم تكتف بسماع الضحايا، بل ذهبت إلى النيابة تسأل، لماذا لم تلحق بالجناة المجرمين العقاب، لماذا لم تحق الحقّ وتقيم العدل، وكانت الإجابة مروعة، فالنيابة لم يعد بمقدورها مساءلة ضباط أمن الدولة حول جرائم التعذيب، بنصوص فى القانون دست عليه، و أقرها مجلس الشعب . رغم أنهم لم يكونوا بحاجة حتى إلى تلك القوانين التى لا يحترمونها أصلا، حتى لقد وصل الأمر إلى أن أشار رئيس نيابة إلى أنه فى الجرائم المتهم فيها ضباط شرطة، يقوم بنقل الملفات معه إلى المنزل عند مغادرته المكتب، حتى لا تتعرض للسرقة .

لم يكن الأمر قط حماية لنظام الحكم، ولم يكن مكافحة للإرهاب بل إجراما فى إجرام .

لم يكن من أجل حماية النظام ومكافحة الإرهاب ما حدث للمواطن مخلوف عبد العال الذى تعرض للتعذيب فى قسم شرطة الظاهربالقاهرة، فقأ ضابط المباحث عينه وهتك عرضه وحطم عظامه، وظل يعذبه حتى الموت، و ذكر تقرير الطبيب الشرعى د.فخرى محمد صالح إلى وجود كسور بالجمجمة وضلوع الصدر والجبهة والرسغ الأيسر و آثار نزيف بالفم . ولم تكن القضية سياسية .

ليست مكافحة الإرهاب إذن ولا حماية النظام الحاكم، وإنما إجرام فى إجرام .

فلم يكن أيضا مكافحة للإرهاب ولا حماية للنظام قتل خفير الشرطة إبراهيم محروس على أيدى ضباط شرطة نقطة شنوان بشبين الكوم، وأشار تقرير الطبيب الشرعى إلى أن الوفاة نتجت عن كسور بالضلوع وتهتك بالرئة اليسرى وتجمع نزفى جسيم نتيجة الضرب بجسم صلب .

ولم يكن مكافحة للإرهاب ولا حماية لنظام الحكم ماحدث للمواطن لطفى الساعاتى الذى تعرض للتعذيب حتى الموت بقسم شرطة شبرا الخيمة و أثبت تقرير الطبيب الشرعى رقم ٥٤٨٥ آثار التعذيب بجسم صلب ولكمات قوية .

يذكر تقرير لمنظمة حقوق الإنسان أن كثيرين من ضحايا التعذيب قد شاهدوا ضباط الشرطة يتفاخرون بزهو أثناء تعذيبهم، ويتباهون بمدى السطوة التى تتمتع بها الشرطة، و أنها صارت : " الكل فى الكل " و أن " رقبة البلد والحكم فى إيدها " و أن " لديهم شيك على بياض بحمايتهم بكل الوسائل دون معقب " .

لو أننى صرخت : لا أمن الوطن ولا أمن الحاكم يقتضيان هذا بل أمن الشيطان فى نفوس أشد دنسا من الشيطان ذاته، فهل أكون قد عبرت بما يناسب ما قرأتم . هل يعبر ذلك عن كم العذاب والألم الذى يزلزل كيان هذه الأمة المقهورة المنكوبة ببعض أبنائها أكثر من نكبتها بكل أعدائها.

دعونى إذن أشهد أمامكم ، والكلمات ذوب رصاص منصهر، والحروف أشد مرارة من سم زعاف، والاعتراف أشد قسوة من الموت أشهد : أن ما يحدث الآن ببلادى تحت ظل حكم أبنائها الوطنى لم يحدث حتى تحت ظل الاستعمار الغربى لبلادنا، أقولها و أشهد بها رغم إدراكى أن حضارة الغرب بشهادة مؤرخهم الكبير أرنولد توينبى هى أكثر الحضارات إجراما فى التاريخ .

يـــــــــــــاه .... !!!!

أخيرا أقرّ بها و أعترف ....

لطالما رغم الأسى والحزن والقهر كتمتها، لا عن شفتى فقط بل عن قلبى أيضا، ولشدما أدنت نفسى حينما كانت تطوف بها كمجرد

خاطرة أسارع بطردها والاستغفار عنها كأنها رجس من عمل الشيطان .

أقولها أخيرا، مجبرا أقولها، مضطرا أعترف بها، فالزمن يسير إلى الوراء .

كنت أتمنى الموت قبل أن تنفرج عنها شفتاى .

لكنها خلاصة اليأس والعجز والألم .

مستقطر الدموع .

قطع الدم المتجلطة على جبين ضحية .

صراخ معذبين أناء الليل و أطراف النهار لا يدركهم حاكم ولا محكوم.

أنين عرض يئن لانتهاكه .

وصراخ طفل يعذبونه وهو لا يعرف لماذا يعذبونه .

لن أتحدث عما يحدث للمعتقلين السياسيين، بل دعونى أحدثكم عما يحدث للأطفال فى بلادنا، الأطفال، الذين لم يكونوا محتاجين أبدا لعام للطفل تباركه السيدة الجليلة قرينة الرئيس الجليل، بل فقط ألا يفعل بهم ما سأرويه لكم على الفور :

" قامت قوات كبيرة من الضباط والجنود المسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة باعتقال ثمانين طفلا تتراوح أعمارهم بين ست وعشر سنوات فضلا عن عدد من المشرفين على رحلة هؤلاء الأطفال. كان هؤلاء الأطفال يقضون فترة نصف أسبوع فى معسكر ترفيهى بمدينة الإسكندرية، ويعمل آباء العديد منهم أعضاء فى هيئة التدريس بكلية طب جامعة المنوفية، وقد استأجر منظمو الرحلة عددا من الشقق المفروشة لإقامتهم . . . .

فى فجر اليوم الرابع، وقبل نهاية الرحلة قامت قوات الأمن بمداهمة أماكن إقامتهم ونقلت الأطفال والمشرفين وسط مظاهر الذعر والترويع إلى قسم شرطة المنتزه بالإسكندرية حيث أجبرتهم على قضاء بقية الليل على بلاط غرفة الحجز دون أغطية، وفى الساعة العاشرة صباحا نُقلوا إلى مؤسسة رعاية الأحداث

بالإسكندرية، ثم قاموا بالتحقيق معهم فى مديرية الأمن التى قامت بنقلهم إلى مديرية أمن القاهرة التى قامت بنقل بعضهم إلى قسم بولاق الدكرور و البعض الآخر إلى قسم بوليس بندر شبين الكوم ، و بعد قضاء يومين فى التخشيبة استجوبتهم فيهما مباحث أمن الدولة ، وتركزت التحقيقات معهم على الاستفسار عن مظاهر تدين أسرهم، تم تسليم الأطفال إلى ذويهم بعد أن حصلوا على إقرارات منهم بعدم اشتراك أبنائهم فى مثل هذه الرحلات مرة أخرى ."

تم الإفراج عن الأطفال واستبقى المشرفون الذين اتهمتهم مباحث أمن الدولة بتكوين تنظيم سرى يقوم بغسيل مخ الأطفال .

يا معشر القراء... يا أمة ...

إن ما تقرأونه الآن ليس فيلما سينمائيا لهيتشكوك أو بيرجمان، ولا قصيدة شعر لأمل دنقل، ولا مسرحية لأنطونيو باينجو، ماتقرؤونه واقع حدث، منشور فى مصادر عديدة، منها تقرير عن حقوق الإنسان أصدرته المنظمة المصرية لحقوق الإنسان.

ما تقرؤونه حدث، يفوق أى خيال مهما بلغت بشاعته لكنه حدث.

ما تقرؤونه فى جلسة استرخاء أمام شاشة تلفاز تنقل لكم عبر الأقمار كل ماهو مبهج حدث . .

حدث و أنتم صامتون . .

لعلكم تلجأون إلى مواقف و تفسيرات واحتمالات شتى كى تبرروا جريمة صمتكم .

أولها أن تتوقفوا عن قراءة ما أكتب، لأننى أوشك على المضى فى سرد التفاصيل، ماذا حدث للأطفال وذويهم ومشرفيهم، هناك، من الشرطة، فى احتفالات عام الطفل، كانت الشرطة تشارك بطريقتها فى الاحتفال الدامى .

يقول الأطفال الذين وقعوا ضحية لهذه العملية البشعة ، الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والعاشرة ، يقولون أن رجال الشرطة قد أساؤوا معاملتهم ، ووجهوا لهم شتائم بذيئة، وحجزوهم فى غرف احتجاز ضيقة بدون أى تجهيزات، ولم تقدم

لهم أطعمة وتعرض بعضهم للضرب بالأيدى والركل بالأقدام .

يقول الطفل أحمد عماد محمد عبد الوهاب، البالغ من العمر ثماني سنوات، أن معاملته كانت قاسية للغاية وشملت سبابا شديدا والضرب والركل . وقد تكررت نفس المعاملة فى حالة الطفل هانى محمد على بشير : ١٠ سنوات، والطفل عمر محمد شحاتة : ٧ سنوات .

هذا ما حدث للأطفال، أما المشرفين فقد تم اعتقالهم بأمر من وزير الداخلية، حيث تعرضوا للضرب والسباب، للتجريد من الملابس والتعليق من الأيدى ومن الأرجل، للصعق بالكهرباء فى أماكن حساسة من الجسم ، لمنع الطعام والشراب وللعزل تماما عن العالم وفقا لأمر الاعتقال المستند إلى قانون الطوارئ .

لم يسكت آباء الأطفال .

كان معظمهم من أساتذة كلية الطب لذلك تقدموا بشكوى إلى نقابة الأطباء، فعقدت النقابة مؤتمرا صحفيا حضرته منظمات عديدة ومندوبو الصحف ووكالات الأنباء، وشارك فى المؤتمر الأطفال الذين تعرضوا للتعذيب، و أدلوا بشهاداتهم .

قبل المؤتمر بذلت الشرطة جهودا مكثفة لمنعه، وحين فشلت ترصدت الحاضرين حتى انتهى المؤتمر، وعند الخروج منه قامت الشرطة باختطاف ثلاثين شخصا، احتجزوا بقسم قصر النيل، حتى تم استصدار قرارات اعتقال لبعضهم، وكان ضمن الذين تم إلقاء القبض عليهم : الدكتور ثروت محمد اسماعيل الذى اختطف أثناء مغادرته للمركز الثقافى الفرنسى فى شارع مواز لمقر النقابة . وفى فجر اليوم التالى قامت الشرطة بالقبض على عشرات الأشخاص من بيوتهم بالقاهرة وخارجها .

ولم تكن الحادثة السابقة استثناء بل القاعدة .

فى حادثة أخرى تذكر صحيفة الوفد أن الشرطة قامت بإلقاء القبض على ١٤ طفلا مابين الثانية عشرة والرابعة عشرة من أعمارهم، بتهمة انتمائهم إلى تنظيم إسلامى، وقضى الأطفال ثلاثة شهور فى قسم شرطة البدرشين - جنوبى القاهرة - فى غرفة

واحدة مظلمة ورطبة تحت الأرض مع عدد من المجرمين الجنائيين، وتعرضوا خلال ذلك للضرب والسب.

يا معشر القراء، يا أمة : لم تكن الحادثةالسابقة استثناءبل القاعدة .

في ١٩٩٢/١٢/٢٠ نشرت صحيفة الجمهورية شبه الرسمية أن الشرطة أفرجت في يوم واحد عن ٢٧ طفلا تراوحت أعمارهم بين ٨-١٢ عاما بعد أن احتجزتهم لفترات مختلفة، مالم تذكره صحيفة الجمهورية أن هؤلاء الأطفال صرحوا بأنهم تعرضوا لتعذيب مروع للإدلاء بمعلومات عن أماكن اختفاء أقاربهم .

يامصريين يا عرب يا مسلمين، يا عالم : هذا هو الشر من أجل الشر.

ليست حوادث فردية :

" احتجزت الشرطة والدة وشقيقتي وشقيقي المتهم الهارب عنتر الزيات محمد و أشرف الزيات : (١٥ و ١٦ عاما)، تعرض الشقيقان للضرب لفترة طويلة في الدور الثاني بقسم إمبابة لإجبارهما على الإدلاء بمعلومات عن مكان اختفاء شقيقهما ثم جرى ترحيلهما إلى مقر معسكر الأمن المركزي على الطريق الصحراوي وأودعوا بعنبر يطلق عليه : " عنبر العيال "، وهناك تعرضا لتعذيب مبرح استمر ٢٣ يوما شمل الضرب بأسلاك مجدولة، والتعليق في أوضاع مختلفة، والصعق بالكهرباء في الأعضاء التناسلية ".

إقرؤوا أيضا :

توجهت قوة من الشرطة إلى منزل الطفلين : (...... : ٩ أعوام) و (.....: ١٢ عاما) للبحث عن شقيقهما الهارب، ووجه أحد الضباط مسدسه إلى الطفل الثاني لاستخدامه كدرع واق لحمايته من أي هجوم محتمل ، وجرى سؤالهم عن مكان اختفاء شقيقهم، وتعرض الأول لضرب مبرح لإنكاره معرفة مكان اختفاء شقيقه، ثم اقتادهما رجال الشرطة حفاة وبملابس النوم إلى أقاربهم الذين يُحتمل اختفاء شقيقهم لديهم، ولما لم يجدوه اصطحبوا الجميع إلى قسم شرطة إمبابة، وفي الطريق إلى القسم غمس أحد الضباط

وجه الطفل الأول فى حائط مطلى بالبوية حديثا، وفى قسم الشرطة احتجز الجميع وتعرضوا للضرب . يقول الطفل الأول : " ضربونى بالأقدام فاصطدمت بالباب وسقطت على الأرض، ثم قام الجنود برفع أقدامى إلى أعلى وضربونى بعصا عليها كثيرا، ثم وضعوها فى الفلكة، وبعد أن ضربت طلبوا منى الجرى حتى لا تتورم قدماى، وبعد أن انتهوا وضعونى فى حجرة و أغلقوا علىّ الباب رغم صراخى لمعرفة مصير شقيقي الصغير الذى وُضع فى مكان آخر ". وفى المساء قبضت الشرطة على الشقيق الهارب، و أدخلوا الطفلين المحتجزين عليه، حيث شاهداه وهو معلق ويتعرض للتعذيب، ويضيف الطفل : " رأيت أخى ينزف دما من فمه، وكان لا يستطيع الوقوف على قدميه، وكان أحد الضباط يضربه بخشبة.."

هل قرأتم؟ .

هل قرأتم أيها المخدوعون، الذين تدافعون عن ممارسات النظام .

هل تحتاجون إلى مزيد ؟.

لدينا منه الكثير جدا، لكننى أشعر بالاشمئزاز والقرف، بالانسحاق.

و كواجب ثقيل أجد لزاما علىّ أن أنهى إليكم ماكان يحدث للأطفال فى معسكرات و أقسام الشرطة، فى عهد زعموا أنه عهد الديموقراطية التى لا تصادر رأيا ولا تكسر قلما، بينما كان الواقع أنها تصادر الحياة وتكسر الرقاب، اقرأوا معى إذن ماذا كان يحدث لهذا الطفل إبان اعتقاله، اقرؤوا ما ورد فى شهادة أحد المحتجزين بقسم شرطة قصر النيل فى أعقاب ندوة نقابة الأطباء عما سمّى بتنظيم الأطفال :

" كان هناك نحو خمسين شخصا فى حجرة لا تتعدى مساحتها ٤×٥ أمتار مما اضطر البعض للنوم فى دورة المياه القذرة . من بين المحتجزين لاحظت انفراد شخص واحد ضخم الجثة بنحو ربع مساحة الحجرة يتمدد فيها ويحيط نفسه بمساحة خالية يتصرف فيها، بينما تكدس بقية المحتجزين فى المساحة المتبقية فى وضع القرفصاء، وكان لهذا الشخص الذى يبدو من عتاة المجرمين سطوة

بالغة على كافة المحتجزين، وينادى على بعضهم بأسماء مؤنثة، فيلبون النداء بسرعة بالغة خوفا من بطشه ، كان هذا البلطجى صاحب الكلمة النافذة فى شئون الحجز، ويقوم بتأديب بعض المحتجزين فى حالة مخالفتهم لأوامره وأحيانا دون سبب واضح تحت سمع وبصر المسئولين عن القسم من ضباط وجنود الشرطة . بعض المحتجزين، من أصحاب الأسماء المؤنثة كانوا يضطرون لتلبية رغبات البلطجى بممارسة الجنس بالإكراه معهم أمام بقية المحتجزين، و أغلب هؤلاء الضحايا صبية لا تتجاوز أعمارهم ١٥ أو ١٦ عاما "

يا أهل مصر :

نحن لا نتحدث عن الدكتور علاء محيي الدين ولا عن المحامى عبد الحارث مدنى ولا عن السنانيرى ولا عن البلتاجى ولا عن حاتم ماهر وعشرات وعشرات، فأولئك جميعا ستتشدق أفواه مجرمة لتتهمهم - حتى دون حكم محكمة - بأنهم إرهابيون، وما دام ضابط الشرطة - وليس القاضى أو حتى وكيل النيابة - قد حكم على أحد بأنه إرهابى، حتى دون دليل، فإنه يفقد على الفور كل حقوقه كإنسان ويهدر دمه دون عقاب .

لا أتحدث عنهم، وليس الحديث عنهم عيبا بل عدم الحديث عنهم جريمة، لكننى أريد أن أثبت أمامكم، أننى وقد بتُّ أرى الملك عاريا، أواجه ادعاءات بعض قطاعات الشرطة عن ضحاياها بأنهم مجرمون لذلك يفعلون بهم مايفعلون، أريد أن أثبت أمامكم، أمام العالم، أن الضحايا ليسوا هم المجرمين بل ذلك النمط من رجال الشرطة الذين يعذبونهم هم المجرمون .

لذلك لا أتحدث عن أى من المعتقلين السياسيين ، بل أذكر أناسا بسطاء سلبيين فى الغالب، ينشدون السلامة، وينأون قدر استطاعتهم عن كل مايمكن أن يزعج السلطة والشرطة .

أتحدث عن القبض على الأطفال وتعذيبهم والاعتداء عليهم جنسيا داخل أقسام الشرطة .

أتحدث عن الأستاذ الدكتور زكريا الشامى الأستاذ بجامعة قناة

السويس عندما احتكت سيارته بسيارة ضابط شرطة، فتعرض للضرب والصفع على الوجه والنقل فى الصندوق الخلفى لسيارة الشرطة إلى القسم حيث تلقى جرعة إضافية من التعذيب .

أتحدث عن ميرفت عبد الحميد : المضيفة الجوية التى تعرضت للتعذيب الوحشى بقسم شرطة مدينة نصر بواسطة رئيس المباحث واثنين من معاونيه لإرغامها على الاعتراف بالسرقة رغم تبرئة النيابة لها مما أدى إلى محاولتها الانتحار بالقفز من نافذة غرفة رئيس المباحث خاصة بعد تهديدها بتجريدها من ملابسها فأصيبت بارتجاج فى المخ وكسور بالأسنان وعظمة الترقوة .

أتحدث عن الاختفاء القسرى لأناس لم تجد الشرطة مايدينهم ولكن سلوكهم لم يعجبها فاختطفتهم . . . وبعدها اختفوا . . . !!!

أتحدث عن السيدة (. . .) التى حاول ضباط شرطة قسم أول الزقازيق إجبارها على شهادة الزور فى قضية سرقة، فرفضت، فخلعوا عنها ملابسها، وضربوها ضربا مبرحا،وقام أحد الضباط القائمين على تعذيبها بإيلاج قضيب حديدي فى شرجها عدة مرات.

أتحدث عن الطالب : (. . .) الذى قبض عليه فى تظاهر سلمى للطلاب كى يعبروا فيه عن رأيهم فى مؤتمر مدريد، فنقلوه إلى مقر مباحث أمن الدولة فى بور سعيد حيث جرى تقييد يديه ووضع عصابة على عينيه، ونزع ملابسه ، وجرى صعقه بالكهرباء فى حلمتى الثدى والخصية و أماكن أخرى، وعلق كالخروف المشوى فوق نيران مشتعلة، وضرب بالكرباج لفترات طويلة، ثم نزعوا سرواله ووضع أحد رجال الأمن أصابعه عدة مرات فى فتحة الشرج بعنف، ثم وضع خوازيق لا يعرف طبيعتها، وعقب ذلك قام بالاعتداء عليه جنسيا .

أتحدث عن اعتقال نوارة الانتصار أحمد فؤاد نجم لاحتجاجها على اشتراك إسرائيل فى معرض الكتاب .

أتحدث عن مصطفى محمد عبد الحميد الطالب بالسنة الثالثة بكلية طب الزقازيق والذى تعرض للتعذيب بشكل وحشى، ثم اختفى، ويعتقد شهود العيان أنه عذب حتى الموت، لكنهم أخفوا

جثته عن أهله.

أتحدث عن نصرة فتحى ابراهيم التلميذة المنقبة بمدرسة السلام ثانوية بنات بحدائق القبة، و كان آخر مكان شوهدت فيه مقر مباحث أمن الدولة فى لاظوغلى، ولم يرها أحد بعد ذلك .

أتحدث عن انتهاك قرى بأكملها، اعتقال رجالها ونسائها وأطفالها وتعذيبهم بمنتهى القسوة والعنف لمجرد خلاف عادى مع ضابط شرطة .

أتحدث عن مواجهة إضرابات العمال من أجل مطالب وظيفية، وتجمعات الطلاب من أجل التعبير عن رأيهم بالضرب بالرصاص حتى الموت.

أتحدث عن تعرض النساء للتعذيب المروع، وخلع ملابسهن والعبث فى أعضائهن التناسلية من قبل ضباط الشرطة .

أتحدث، و أتحدث، و أتحدث . . . . وبالرغم من ذلك ليس حديثى سوى نزر يسير مما ورد موثقا فى تقارير منظمات حقوق الإنسان الذى ينص على : " أن ظاهرة التعذيب أكبر من الطاقات المحدودة للمنظمة على التقصى والتحقيق والتوثيق، و أن ما تنشره المنظمة هو مجرد قطرة من محيط، هو مجرد حالات نموذجية موثقة ومحققة تشير إلى أبعاد الظاهرة ومدى شيوعها دون أن تستطيع الإحاطة بكل مظاهرها، والوصول إلى كل ضحاياها ."

يا أهل مصر . . يا قراء . .

ثمة أسئلة تحيرنى . . . . .

ما هو الدافع لكل هذا الإجرام . لماذا هم مجرمون إلى هذا الحد ؟

هل هو عنصر خلقى، أو وراثى، أم مرض عقلى أم نفسى، أم تغلغل الجريمة واختلاطها بالدم .

هل هو النظام السياسي ؟

هل هى الحماقة فى الدفاع عن الذات ؟

المستشار الذى أصدر الحيثيات التى صدرت بها هذا الجزء أو الشلو من الكتاب والذى وصف ما تقوم به الشرطة من تعذيب بأنه

إجرام في إجرام ليس أيضا معارضا ولا متعاطفا مع الجماعات الإسلامية وليس حتى - أيضا - ضد إسرائيل، فهو المستشار محمد سعيد العشماوى .

هل عرفتم الآن منبع الإرهاب ومن هم السبب فيه ؟.

إننى قد أفهم - ولا أوافق - ما يحدث للمتهمين السياسيين على ضوء قول الدكتور محمد السيد سعيد أنه صراع على السلطة من جماعات تفتقد كلها إلى الشرعية، وقد أفهم - ولا أوافق - أن السلطة تدافع عن نفسها ضد معارضيها دفاع حياة أو موت، وقد أفهم - ولا أوافق - عنف بعض رجال السلطة والشرطة الحاليين لأنهم يدركون ماذا يمكن أن يحدث لهم إذا تولت الحكم فئة أخرى -أى فئة أخرى- طبقت عليهم قانون العقوبات العادى .

أفهم أيضا أن تنفرد الوحوش البشرية - وليس ثمت وحش حتى يعذب وحشا - بضحاياها فى أقبية السجون تمارس النشوة القذرة فى تعذيب أناس لاحول لهم ولا قوة، لا لحماية النظام، فهم فى حوزتهم، ولا لحملهم على الاعتراف فهم أول من يعلم أنهم يلفقون و أن القانون يهدر اعترافات التعذيب، و إنما لأن نفوسهم المريضة المشوهة تدفعهم إلى الإبداع فى القسوة، والتجديد فى التعذيب، والتنافس فى العنف، ليس لمجرد إرضاء رئيس، ولا الحصول على ترقية، وإنما هو الشر من أجل الشر، أفهم أن يفعلوا كل ذلك، لأنهم يدركون أن ضحاياهم حتى لو أفرج عنهم وخرجوا من السجن أحياء فسيكونون محطمين ، غير قادرين على فضح كل ما حدث لهم .

أفهم كل ذلك ولا أوافق عليه . . .

الذى لا أفهمه، هو لماذا يحدث ذلك مع الناس العاديين الذين يجبرهم حظهم التعس على المثول فى قسم شرطة . لماذا تطلق السلطة للشرطة العقال لكى يمارسوا هناك نفس الشيء ؟ .

هل هو المرض الذى أصبح وباءً؟. هل تلوثهم السلطة كي يكونوا طوع بنانها؟، ذلك أن ضابط الشرطة الذى يتعود على امتهان كرامة الجسد البشرى بتعذيبه لن يتردد حين يؤمر بانتهاك إرادته بتزوير صوته، أو بغض الطرف عن لص، أو ملاحقة شريف، أم أن

السلطة تدرك أن قيام ضابط الشرطة بالتعذيب ضد كل طبيعة بشرية، وقيمة دينية، ضد كل عرف وثقافة وحضارة وسلوك طبيعي، و أنه يحتاج جهدا هائلا للتغلب على كل هذه القيم، و أن هذا الجهد لابد أن يتم فى أقسام الشرطة فيُستبعد من تبدو منه لمحة دين أو خلق أو ضمير، أما أولئك الذين يثبتون أنهم قادرون على التحول إلى كائنات أكثر شرا وبطشا من الوحوش فإنهم يختارونهم للعمل فى مجال التعذيب، تماما كما ينشرون ممارسة الرياضة فى المدارس، كى ينتقوا المتميزين بعد ذلك أبطالا فى النوادى الكبرى.

يا قوم :

لعل من حق الأجانب - لكنه أبدا ليس حقكم أنتم - أن يتساءلوا فيما بينهم فى عجب : أين مجلس شعبهم وشوراهم ؟ أين شيخ أزهرهم ومفتى ديارهم ؟ أين مجالس جامعاتهم ومثقفوهم ؟ أين الأمة ؟. لعلهم - هم وليس أنتم - يقررون فى دهشة - إن حق أن يدهش العالم- أنه إن كانت كل هذه الأجهزة والهيئات والمؤسسات عاجزة عن رد كل هذا الذى يحدث فلا حاجة لنا بها، ولعلهم يتهامسون فى أسى مختلط بالنشوة مغتبطين أنهم ليسوا من أهل هذه البلاد التى تعامل رعاياها بأسوأ مما يعاملون حيواناتهم ، ولعلهم فى حيرة من أمرهم : أما من وزير استقال احتجاجا، أو محافظ رفض أن تحدث هذه الجرائم على أرض محافظته .

أعترف لكم أن موقف الأمة تجاه التعذيب - خاصة معظم مثقفيها - كان مخزيا، كان وما يزال ، لينظر كل كاتب إلى ما يكتب، هل هو أهم من مواجهة هذا الذى يحدث ؟ بل كيف تطيب لنا حياة ونحن تاركوهم يفسقون بالأمة كل هذا الفسق ويفجرون بها كل هذا الفجور ويجرمون بحقها كل هذه الجرائم ، كيف نستطيع النوم، والسير فى الطرقات مختالين، كيف يستطيع المرء منا مداعبة طفله، وثمة طفل يعذبه فى نفس الآن ضابط شرطة، أو يناديه بلطجى فى تخشيبة قسم شرطة باسم أنثوى كى يعتدى عليه جنسيا ، أمام الناس، كيف نستطيع أن نضحك أو حتى نبتسم فى وقار زائف وثمة امرأة تصرخ فى نفس الوقت

لأنهم يهتكون عرضها ؟ كيف استطعنا أن نتلذذ بطعام وهم يعلقون شخصا فوق النار فى وضع الخروف المشوى ؟ ؟ ؟ كيف وكيف وكيف وكيف .

ربما كانت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان هى الجهة الوحيدة التى قامت بدور بطولى فى هذا الصدد .

فهل تعلمون ماذا فعلت الشرطة إزاء جهود هذه المنظمة الشجاعة النبيلة الباسلة عقابا لها على كشف الممارسات البشعة للشرطة، على كشف كل هذا الإجرام ؟! . . . . .

لقد ألقت القبض على بعض أعضائها .. وتعرضوا لنفس التعذيب..

كان من المقبوض عليهم الدكتور محمد السيد سعيد، الباحث المرموق المعروف على النطاق العالمى، والمحاضر فى عدد من الجامعات فى مصر والخارج، والمراكز البحثية وبينها الأكاديمية العسكرية التابعة لوزارة الدفاع، والمعهد الدبلوماسى التابع لوزارة الخارجية، وله عديد من المؤلفات وعشرات من الدراسات والمقالات المنشورة .

لم يشفع لمحمد السيد سعيد ذلك، لم تشفع له قيمته، ولا أهمية المؤسسات التى ينتمى إليها، فالشرطة فوق الجميع، ولن تغفر له الشرطة أبدا تلك الجريمة التى ارتكبها عندما أعد بحثا حلل فيه ورصد أسلوب العقاب الجماعى الذى توسعت الشرطة المصرية فى ممارسته ضد القرى والتجمعات السكانية .

كان سلاح محمد السيد سعيد القلم والفكر، وكان ردهم عليه جرعات مكثفة من التعذيب . تعرض خلالها للإغماء أكثر من مرة بسبب عنف التعذيب، سحلوه من قدمه اليمنى عشرين مترا على أرض السجن . أجبر على غمر وجهه أكثر من مرة فى برميل مملوء بالمياه القذرة . استعملوا معه ومع زملائه العصى العادية والكهربائية والهراوات والكرابيج بالإضافة إلى الضرب بالأيدى والركل بالأقدام وتعرضوا لتهديدات بينها الاعتداء الجنسى فضلا عن توجيه أقذر أنواع السباب لهم، استعملوا كذلك الكلاب

البوليسية لإرهابهم . أثناء التعذيب الذى قام به عشرون ضابطا يرتدون ملابس عسكرية بين رتبة العميد والملازم أول، فضلا عن عدد مماثل من الضباط يرتدون ملابس مدنية . وكان ثمة ضابط يحمل رشاشا فى تهديد صريح بالموت.

أجبر محمد السيد سعيد وزملاؤه على المرور بين صفين من جنود الشرطة والكلاب البوليسية وراح الجنود يتناوبون ضربهم بالأيدى والأقدام والهراوات والعصى المكهربة .

و تصادف أن وفدا من نقابة الصحفيين قد توجه لزيارة زملائهم المسجونين بعد ساعة واحدة من ضربهم بهذا الشكل الوحشى . وحاولت إدارة السجن عرقلة الزيارة، لكن ربما كانت مناصب وأسماء الوفد أكبر من أن تمنع عنوة، وربما – وهذا هو المحتمل أكثر – أن الشرطة أرادت أن تثبت لأعضاء الوفد أنهم هم الدولة، أنهم فوق كل شىء ولا يأبهون بأى شىء . قيل أن مكرم محمد أحمد نقيب الصحفيين آنذاك، وكان معه أسامة سرايا والسيد ياسين وأسامة الغزالى حرب وعبد المنعم سعيد وجهاد عودة ، قيل أنهم أصروا على عدم مغادرة السجن حتى يتمكنوا من مشاهدة الدكتور محمد السيد سعيد ... رئيس ... وعضو ... ومسئول ... الباحث ... المحاضر ... الـ ....

اضطر وفد الصحفيين للانتظار ساعتين حتى تتم إفاقة محمد السيد سعيد من الإغماء.

وشاهدوه، بالدم والجراح والانسحاق شاهدوه .

ربما أحس مكرم محمد أحمد ساعتها أن مصر هى الجريحة و أن الوطن هو المهان و أن الأمة هى المعذبة و أن الكرامة فى معناها المجرد هى المسفوحة و أن المستقبل هو المعتقل فى سجن "أبوزعبل"، و أنه يتم هناك تحطيمه .

يا إلهى ... هل هم فعلا كما يقولون : " الكل فى الكل " و أنهم هم الدولة ؟؟.

قيل أن مكرم محمد أحمد – وهو من كبار المؤيدين للنظام – أصيب بنوع من الانهيار العصبى، و أنه انصرف إلى بيته عازما

على الاستقالة من مناصبه احتجاجا صارخا على ما رأى.

لكن السلطة والشرطة صالحاه ، و أفرج عن محمد السيد سعيد دون محاكمة، فلم تكن هناك قضية.

فى اللقاء السنوى فى معرض الكتاب بين الرئيس والمثقفين، كان عبد الستار الطويلة يعاتب الرئيس مبارك على تجاوزات – لا جرائم – بعض أجهزة الأمن مناشدا الإفراج عن عادل حسين ومذكرا بما حدث للدكتور محمد السيد سعيد.

و ضحك الرئيس، وقال لعبد الستار الطويلة تعليقا على الحدث: " ما هو صاحبك اللى عمل كده "، منوها بصداقة كانت تربط بين وزير الداخلية آنذاك وبين عبد الستار الطويلة .

لشدما غضبت وسخطت على وسائل الإعلام .

حتى لو قيل ذلك، فما كان يجب أن يعلن .

يظل الرئيس بالنسبة للأمة ملاذ أمل أخير، وهم يعزّون أنفسهم دائما بأن الحاشية حوله تحجب عنه تفاصيل مايحدث ، و أنه لو عرف، لقامت الدنيا وما قعدت .

ليت جهازا ما أشاع ولو على غير الحقيقة أن قرارا صدر من أعلى مستوى بالتحقيق الصارم ومعاقبة الجناة .

ليت . . . . وليت . . . . وليت . . . .

ينفجر مخزون الذكريات والألم ...

يا إلهى. . . . ما كان أبهى عهد الرئيس مبارك فى بدايته .

ما أكثر ما حملناه من أمل .

لكن تقرير المنظمة المصرية لحقوق الإنسان يقرر أن التعذيب قد عاد إلى الظهور فى مصر منذ عام ٨١ . . . وهو عام بداية ولايته.

يا قوم ... يا كتاب يا قراء

من ناحيتى، سوف أكتب للنائب العام ، مستعطفا مسترحما متوسلا ولائذا، فماذا ستفعلون أنتم .

و . . ليت الطفل لم ير الملك عاريا. . !!.

السيد النائب العام:

يحذرنى الخلان من الكتابة إليك ....!!

و أنت تعلم أن منصبكم الجليل قد اقترن دائما فى وعى الأمة بالرهبة والخوف ...

والإنسان مذ يولد حتى يموت يغالب خوفه . . . .

وثمة درجات من الخوف لعلك توافقنى أن أسماها هو الخوف من الله الواحد القهار الجبار المتكبر المهيمن المعز المذل . . . المنتقم . . . المهيمن ... الملك ...

وينبثق عن هذا الخوف الجليل النبيل الخوف من الضمير، ومن التاريخ، ومن الوقوع فى الخطأ.

وثمة مخوّفات أخرى، كالعقاب، والسجن والتعذيب والوحوش الضوارى والأفاعى السامة والكوارث و بعض قطاعات الشرطة والجن .!!

عندما كتبت عن الشرطة حذرنى الخلان أيضا . . . .

وقلت لهم لقد كتبت إلى الرئيس مبارك نفسه رسالات مستفيضة *ربما تجاوزت فيها الهامش المتاح، فكيف تخشون من كتابتى إلى كبار رجاله، وأعوانه، أو إلى خدمه، حيث يعرف الفيروزبادى الشرطة بأنهم خدم السلطان، و أجاب الخلان أن ثمة فرق بين أن تهاجم الأسد نفسه، وبين أن تهاجم مخالبه . . !!

والحقيقة ياسيادة النائب العام أننى أظنهم على صواب . . . . !!!

الفيروزبادى يراهم خدما للسلطان، بينما أرى بعض قطاعاتهم خدما للشيطان .

وعلى الرغم من ذلك ، أو على الأحرى من أجله أكتب إليك . . . .

فقد اقترن منصبكم منذ آماد بعيدة فى الوعى الجمعى للأمة لا

---

* راجع :للمؤلف : من مواطن مصرى للرئيس مبارك، الشركة العربية للطباعة والنشر.

بالخوف و الرهبة والتقدير فقط، بل وبالحب أيضا .

ولطالما استمتعنا بأحلام اليقظة فى طفولتنا، والخيالات بالنسبة لنا وقائع، والأوهام حقائق، رحنا ننسج حكاية الطيب والشرير على منوال خيالنا، فنتخيل الشرير رجل شرطة باطش جبار كبير ضخم قبيح مخيف لكنه لا يكاد يعرف الخوف، لكن هذا الغول الشرير يرتعد فرقا أمام وكيل النيابة الخيّر وهو شاب حديث السن لا يرتدى ملابس الشرطة مثله بل مثل ملابسنا يلبس، و كانت خيالاتنا الصغيرة تجسدالخيال فنكاد نرى بعيوننا ونسمع بآذاننا كل محاولات الضابط الشرير الذى عركته السنون لخداع وكيل النيابة الشاب، الذى كالشاطر حسن، والسندباد، و أبى زيد الهلالى، يكشف كل حيلة، ويفسد كل خدعة، لينقذ الضحايا من براثن الوحش، فى اللحظة الحاسمة . . . . .

وكانت خلف الضابط الشرير سلسلة طويلة تمر حتى بالملك، وتنتهى بالشيطان .

لكن وكيل النيابة أيضا كان يظفر بدعم سلسلة طويلة لا تنتهى بالنائب العام فى العاصمة، الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يقول للملك : لا، و أن يحبسه أيضا، لم تكن السلسلة تنتهى به، فقد كانت مدعومة بالعدل الإلهى ذاته .

كنا نعرف ذلك ، رغم أن شيوخ المساجد الصغيرة التى كنا نصلى فيها لم يكونوا قادرين على الجهر بالأحاديث النبوية عن الشرطة . استطعنا أن نقرأها نحن بعد ذلك . .

فى الحديث النبوى الشريف ورد ذكر الشرطة مرارا، وفى الغالب الأعم كان التحذير والإدانة هما المعنى . قال صلى الله عليه وسلم : " سيكون فى آخر الزمان شرطة يغدون فى غضب الله ويروحون فى سخط الله، فإياك أن تكون من بطانتهم "، ثم يحذرنا صلوات الله وسلامه عليه من " إمارة السفهاء وكثرة الشرط "، ثم يكون القول المرعب القاسى على كل ظالم يطيع المخلوق فى معصية الخالق : " الشرط و أعوان الظلمة كلاب النار ".

الروائى العربى الكبير عبد الرحمن منيف يفتتح روايته

المروعة : الآن أو هنا (أو : شرق المتوسط مرة أخرى) بحديث آخر: جاء فى كتاب حياة الحيوان الكبرى :" روى عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :" أدخلت الجنة فرأيت فيها ذئبا، فقلت أذئب فى الجنة ؟ فقال أكلت ابن شرطى ، فقال ابن عباس : هذا وانما أكل ابنه فلو أكله رفع فى عليين " .

وبرغم أنني أعتقد أن الحديث موضوع، فلم أجده كالأحاديث السابقة له فى كتب أحاديث الأئمة المعتمدة من الأمة، لكن الحديث حتى لو كان موضوعا، فإن كاتبا فحلا مثل عبد الرحمن منيف يعتمده، كما تناقلته كتب للتراث تعبر بصورة ما، عما في قلب الأمة تجاه بعض قطاعات الشرطة .

ورحنا يا سيادة النائب العام ننخلع من جنات طفولتنا، ونُفطم على مرارات علقمية ، ونتسلق الطرق الوعرة، ونكبر، والفكرة تكبر معنا وتتطور، وتكتسب أبعادا جديدة ومرارات مختلفات وآفاقا أخرى.

فى ذلك الوقت، لم نكن قد قرأنا بعد قول أفلاطون : " من يقتل الناس ظلما وعدوانا، ويذق بلسان وفم دنسين دماء أهله ويشردهم ويقتلهم . . فمن المحتم أن ينتهى به الأمر إلى أن يصبح طاغية ويتحول إلى ذئب !!.

ولم نكن أيضا قد قرأنا قول جون لوك فى كتابه الحكم المدنى : "الشرطى الذى يجاوز حدود سلطاته يتحول إلى لص أو قاطع طريق، كذلك كل من يتجاوز حدود السلطة المشروعة سواء كان موظفا رفيعا أم وضيعا، ملكا أم شرطيا، بل إن جرمه يكون أعظم إذا صدر عمن عظمت الأمانة التى عهد بها إليه . . ".

و فى نفس الوقت الذى رحنا نقرأ فيه ذلك عن بعض قطاعات الشرطة، ونشاهد ونسمع مايُروى، كنا نكن للقضاء جالسه وواقفه كل تمجيد، حتى أننى أصبت بالدهشة وعدم التصديق ذات مرة، حين كنت أجالس أحد كبار المستشارين، وراح يحكى لى عن عمله، وفجأة، انبثق فى عينيه ذلك الخوف النبيل وهو يقول : " فى مثل عملنا : إما أن يكون الإنسان أفضل من الملائكة، أو أشد سوءاً من الشياطين " ودهشت، لأننى لم أتخيل قبل ذلك وجود الصنف

الثاني قط بين من يحملون على كواهلهم شرف تحقيق العدل : قضاءً أو نيابة، و أدرك دهشتي فواصل قائلا : " إن الله يحيى ويميت، كذلك القاضي الذى بكلمة منه يستطيع أن يحكم بالموت أو يمنح الحياة للمتهم الواقف أمامه، إن لم يكن إيمان هذا القاضي بالله كأعمق مايكون فإن مالديه من سلطة سيدفعه لأن يكون أسوأ من الشياطين ."

بعد ذلك عرفنا من الحديث النبوى الشريف أن قاضيا فى الجنة وقاضيين فى النار، و أدركنا لماذا كان أئمتنا يهربون من القضاء هروبهم من الوباء ومن الموت، و أنهم كانوا يفضلون الجلد بالسياط، والسجن حتى الموت، عن أن يتولوه فيبوؤوا بغضب الله.

نفس المعنى أقره لى نائب عام سابق أثناء توليه، حين التمع ذات الخوف النبيل فى عينيه وهو يحدثنى : " منصبى شديد الوطأة علي نفسي، فليس لى من مرجع أرجع إليه إلا الله، ولا رقيب عليّ سواه، وما من أحد له سلطة عليّ، ولا يستطيع إعفائى من منصبى سوى الموت، حتى رئيس الجمهورية لا يستطيع، وذلك كله يجعل من مسئوليتى أمام ضميرى و أمام الله هائلة، إن أخطأت فلا أحد يشاركنى الخطأ، كما أن سكوتى عن أى خطأ لأى سبب ليس إلا فسادا فى خلقى وشرا يخالط روحى، لن أجد تبريرا، ففى منصبى : لا عذر لوزر ".

وطفقت أردد خلفه: لا عذر لوزر، إلا نفس تقمصها الشيطان.

لأن الله هو الأول والآخر ياسيادة النائب العام، وهو العدل، ولإدراكنا أن القائم بمنصبك، والجالس فى مقعدك مكلف بإقامة العدل، فقد أدركنا أن الرهبة التى يتسم بها منصبك، ووكلاؤك، هى رهبة العدل لا رهبة الخوف، وقوة الحق لا سطوة البطش، وهى مشاعر كما لابد ترى لاتقتصر على شخص بل تسبغ طوفان جيشانها على المنصب ذاته .

لذلك . . . .

ما أشد ماروُّعت ياسيادة النائب العام عندما قرأت تقارير

منظمات حقوق الإنسان، وبعض الصحف والكتب التى تذكر ما يحدث في مصر لا فى الغابة، الآن لا فى عصور البداوة والهمجية والتوحش، تحت بصر القانون المدنى، وليس فى إطار قوانين محاكم التفتيش .

حين قرأت تلك التقارير رحت أستعيد - ياسيادة النائب العام - أسطورة ذلك الطفل الذى صرخ أنه يرى الملك عاريا، وطفقت أفكر كم تعذب هذا الطفل، وهو يرى الأشياء عارية .

حجم الوقائع مخيف، وتكرارها مروع، والإصرار عليها مذهل، وعدم اتخاذ موقف منها يحاول أن يهدم يقينا طالما حاولت الحفاظ عليه .

يورد التقرير وتذكر الكتب النماذج المروعة للتعذيب وموقف النيابة منها .

هل تجاوز التقرير حده عندما اتهم النيابة فى بعض الأحيان بالتواطؤ؟ ؟.

هل تجاوز التقرير الصدق عندما أعلن أنه أبلغ مكتبك -يا سيادة النائب العام - بمئات التقارير الموثقة عن حالات التعذيب وإهدار القانون دون رد ؟.

يكاد الطفل القديم يصرخ : كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . شوهوا كل شيء واطعنوا كل شىء إلا النيابة والقضاء، فهما الملاذ والحصن، ولو تطرق إليهما ماعم باقى الأجهزة فى بلادنا فقد خسرنا كل شىء، إلا النيابة والقضاء، فهما القادران على تعديل الدفة المنحرفة، و إنقاذ السفينة التى توشك على الغرق . وددت أن أكذب التقرير، أن يكذبه وزير الداخلية مقيما الدليل، أن يكذبه الرئيس، أن يكذبه العالم، أو أن تكذبه أنت ياسيادة النائب العام .

لم يتحدث إلا ابرهيم سعدة، تحدث متهما من يثيرون قضية التعذيب بأنهم عملاء للـ .C.I.A وأنهم يهددون الأمن القومى فقلت لنفسى " رمتنى بدائها وانسلت " !

لكننى أعلم ياسيادة النائب العام أن هذه الوقائع لايمكن أن

تكون قد اتصلت بعلمك، لا دون رد فقط، بل دون أن تقلب الدنيا على رؤوس الجبابرة .

لقد أرغم النائب العام الأمريكي رئيس جمهوريتها على الاستقالة لأسباب أقل من هذا بكثير .

فمن سواك لها . . . . يامحامى الأمة الساهر على حقوقها، المروّع دائما بمسئوليتك المبهظة عن كل مظلمة تصيب أيا من أفرادها، بل أيا من حيواناتها، ولو كانت شاة فى الصعيد ظُلمت .

من غيرك يستطيع .

تستطيع الأمة أن تستدرك أى خلل يصيبها من خلال سلامة أجهزتك .

أنت الحكم والفيصل والميزان .

ولا تستطيع الأمة مجرد تخيل أن بالميزان ميل .

عندما استبد بى - ياسيادة النائب العام - **الألم**، وغرقت فى لجج الحيرة، لأنه من المستحيل أن أشك فيما يمثله منصبكم، ومن الصعب أن أشك فى صدق تقارير المنظمة، التى كان من الممكن أن أشك فيها لو أن قرارا هائلا صدر من مكتبكم بإحالة جميع أعضائها إلى المحاكمة بتهمة تشويه أنبل مافى الأمة، ولو نجحت - لا قدر الله - هذه المحاولة لتحطمت قلاع شامخة لايجب أن تميد، ولانحطمت قيم راسخة التى لا نحتمل أن تبيد .

وفى خضم الحيرة بين صدق واجب وصدق واقع ياسيادة النائب العام لم أملك إلا الشك فى المنطق.

تعلمت الشك فى المنطق منذ بدايات دراساتى فى الفلسفة . واستبدلت الشك فى تقارير المنظمات وفى رد فعلك بالشك فى منطقى، فى فهمى وفى عقلى .

تعلمت أن العقل البشرى محدود، وقاصر، و أنه فى قمة توهجه، وفى صميم ميدانه، فى عالم المعادلات الفلسفية والرياضية قد يقع فى أخطاء فادحة، فلننظر إلى هذه المسألة الرياضية مثلا :

نصف أعمى = نصف مبصر .

وبضرب طرفى المعادلة فى رقم ٢ تكون النتيجة :

أعمى = مبصر !!

وهى نتيجة يرفضها المنطق بالطبع حتى و إن قالت بها قوانين الفلسفة أو معادلات الرياضة.

لكننى بالشك فى منطقى ياسيادة النائب العام حللت جزءاً من مشكلتى، بلا منطق ، وإن بقيت فى نفسى غصة .

وفكرت، أن آفتى، كآفة أمتنا، هى الاعتماد على عقل واحد قد يعجز عن حل مسألة، ربما لو تصدى لها ستون مليون عقل لاستطاعوا حلها .

ومن هنا كان قرارى ياسيادة النائب العام أن أعرض ما حيرنى وما أهمنى على الأمة كلها، علّنى أجد جوابا وحلا .

أعرض المشكلة على الأمة كلها، مدينا أشد الإدانة كل كاتب وكل مفكر فى هذا البلد لم يعط للمشكلة الهائلة حقها. مدينا أيضا كل مسئول وكل هيئة وكل جهاز كان يستطيع أن يفعل فلم يفعل، أو كان يملك أن يمنع فما منع، أو كان يستطيع أن يقول فلم يقل .

أعرض المشكلة على الأمة كلها، أسرد عليها بعض ماورد فى تلك التقارير، و أعرضها عليك أيضا، فقد يكون شرطى شرير، حجب هذه التقارير عنك، استولى عليها قبل أن تصلك، لأنه لم يتخيل هو الآخر أنها يمكن أن تصلك دون رد فعل منك .

يقول تقرير منظمة حقوق الإنسان المزلزل : " إن تقاعس النيابة فى إجراء تحقيق سريع وعاجل فى بلاغات التعذيب ، أو طول المدة التى تستغرقها التحقيقات ، وتأخر عرض المجنى عليهم على الطب الشرعى يؤدى إلى إفلات المسئولين المتورطين فى جرائم التعذيب من المساءلة والعقاب الرادع، كما يؤدى إلى إهدار حق المجنى عليهم فى إثبات آثار التعذيب، حيث أفضى تقاعس النيابة في هذا الصدد من جانب ومماطلة مصلحة السجون فى الإحالة إلى مصلحة الطب الشرعى من جانب آخر إلى زوال المعالم الإصابية أو التئامها . . . "

ويضيف التقرير أنه رغم شيوع التعذيب فى بلادنا، والذى

أثبتته تحقيقات النيابة نفسها، و أثبتته أيضا تقارير الطب الشرعى، وحيثيات أحكام المحاكم، إلا أن الضحايا محرومون من مقاضاة جلاديهم، فالقانون يشترط أن يتعرفوا على شخصية الجلادين القائمين بالتعذيب من ضباط وجنود الشرطة الذين يحترزون لذلك بعصب أعين ضحاياهم، وفى الحالات النادرة التى يتمكن فيها الضحية من التعرف على جلاده، تسلبه المادة رقم ٢١٠ من قانون الإجراءات الجنائية حق مقاضاة جلاده أمام المحاكم، يقصر القانون ذلك الحق على النائب العام والمحامى العام، فإذا تقدم الضحية إلى النيابة بشكواه ضد معذبيه، وقررت النيابة حفظ التحقيق، لا يملك الضحية الحق فى استئناف قرار النيابة .

يا إلهى . . . . لست إذن المسئول الأول فقط . . . بل والأوحد أيضا... و حق كل معذب أمانة فى عنقك أمام الله يوم القيامة .

فى حالات عديدة، قررت النيابة حفظ التحقيق بأنه لا وجه لإقامة الدعوى لاعتبارات المحافظة على مستقبل الضابط الوظيفى!!.

مستقبل الضابط الوظيفىّ !! . كل المجرمين والخونة والسفاحين واللصوص لهم هم الآخرون مستقبل فلماذا لا نحافظ عليه هو الآخر؟!!.

منذ عام ١٩٨٦ لم تقدم النيابة قضية تعذيب فى قضايا الرأى إلى المحكمة .

لقد قامت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان بجهد بطولى، وطرقت كل الأبواب لوقف التعذيب : " أصدرت المنظمة خمسة تقارير خاصة عن ظاهرة التعذيب فى مصر، الأول فى يناير ١٩٩٠ حول التعذيب فى مقار مباحث أمن الدولة، والثانى فى نوفمبر ١٩٩٠ حول التعذيب فى أقسام الشرطة، والثالث فى أغسطس ١٩٩١ حول التعذيب فى بعض السجون المصرية، والرابع فى ديسمبر ١٩٩٢ حول التعذيب فى معسكرات الأمن المركزى، والخامس فى مارس ١٩٩٣ وتضمن حالات التعذيب التى رافقت الحملة الأمنية التى قامت بها السلطات بمنطقة إمبابة "

فى نفس الفترة أصدرت المنظمة ٢٨ تقريرا موجزا ونداءً عاجلا بحالات محددة من التعذيب وسوء المعاملة، كما تقدمت بثمانية وسبعين بلاغا إلى سيادتكم بحالات التعذيب الفردية والجماعية التى نمت إلى علمها، واحد فقط من هذه التقارير الثمانية والسبعين كان يضم أربعة وثلاثين وثلاثمائة ضحية للتعذيب .

ولقد أبلغت المنظمة مكتبكم ياسيادة النائب العام، كما أبلغت وزير الداخلية أيضا .

ولم تتلق أى رد .

بل و تزعم منشورات المنظمة ياسيادة النائب العام أن ثمة تعليمات منكم ألا يتم التصرف فى الجرائم المنسوبة إلى أى من رجال الضبط - ضباط مباحث أمن الدولة - ضد الأفراد إلا من خلال مكتبكم . ثم تردف :" إن هذه التعليمات تغل يد باقى أعضاء النيابة عن التصرف فى تلك القضايا وهم ما يمثل استثناء ينافى أبسط مقتضيات العدالة والمساواة بين الأفراد .

إن المادة ١٤٠ من قانون الإجراءات الجنائية تقضى بأنه : " لا يجوز لمأمور السجن أن يسمح لأحد من رجال السلطة بالاتصال بالمحبوس داخل السجن إلا بإذن كتابى من النيابة العامة وعليه أن يدون فى دفتر السجن اسم الشخص الذى سمح له بذلك، ووقت المقابلة وتاريخ ومضمون الإذن ".

برغم القانون فإن كل ما يتعلق بالسجناء السياسيين يخضع لمباحث أمن الدولة، للدرجة التى خصص لهم مكاتب يقيمون فيها إقامة شبه كاملة على مدار اليوم، و أنه يتم فيها بعض طقوس التعذيب .

لا يقتصر الأمر على ذلك فقط، بل إن ضباط مباحث أمن الدولة يقومون - ضد القانون - بسحب المعتقل من السجن واقتياده إلى المقر المركزى لمباحث أمن الدولة فى لاظوغلى أثناء الليل حيث يتعرض لجرعات متكررة من التعذيب قبل أن تتم إعادته إلى السجن فى الفجر، ولا تدون حركة الخروج والعودة فى سجلات السجن بالمخالفة للقانون .

إن النيابة العامة تحت رئاسة سيادتكم هى الجهة المسئولة عن التفتيش على السجون و أماكن الاحتجاز والتأكد من عدم وجود أى مخالفات للقانون، والاستماع إلى شكاوى المسجونين، كما أن المادة ١٧٤٧ من تعليمات النائب العام تقضى بتفتيش السجون مرة فى الشهر على الأقل دون إعلان مسبق حتى تستطيع الوقوف على حقيقة ما يجرى بداخلها.

هذا هو القانون . لكن العديدين ممن عذبوا يقرون بأنهم طوال شهور عديدة لم يلتقوا قط بأعضاء النيابة العامة .

يقول التقرير : لقد تخلت النيابة عن مسئوليتها التى أناطها القانون بها من تحقيق فى شكاوى التعذيب، لتكتفى فى أحسن الأحوال بإثبات آثار التعذيب فى محاضرها، دون - حتى - أن تقدم مبررا لوجود هذه الآثار المثبتة بتقارير الطب الشرعى فى كثير من الحالات .

و لقد تجلى تخلى النيابة عن اختصاصاتها بالتحقيق فى وقائع التعذيب فى اضطرار محكمة أمن الدولة العليا طوارىء - فى قضية اغتيال الدكتور رفعت المحجوب - إلى ندب عضو اليمين بالمحكمة للتحقيق فى وقائع التعذيب التى تعرض لها المتهمون على ذمة هذه القضية . ولقد ثبت هذا التعذيب حين أيدت تقارير الطب الشرعى أقوال الضحايا، و أثبتت هذه التقارير أيضا أن هذا التعذيب قد حدث بالكيفية وفى الوقت الذى حدده المتهمون فى أقوالهم بالنيابة، ولقد سجلت النيابة أقوالهم، وتفضلت بإحالتهم إلى الطب الشرعى كما يقضى القانون، لكنها أغفلت متابعة تنفيذ قراراتها، مما ترتب عليه أن الضحايا لم يُعرضوا على الطب الشرعى إلا بعد أسابيع من وقوع التعذيب .

و يصرخ تقرير المنظمة: " إن تقصير النيابة فى القيام بمسئولياتها لا يقف عند حد الاكتفاء بإثبات آثار التعذيب أو التراخى فى عرض الأشخاص الذين يدعون تعرضهم للتعذيب على الطب الشرعى قبل أن تندمل الآثار الإصابية التى لحقت بهم، بل يمتد هذا التقصير ليشمل تقاعس النيابة عن تحريك الدعوى الجنائية ضد المسئولين المتورطين فى أعمال التعذيب ."

فى عام ١٩٨٦ حكمت محكمة جنايات عابدين ببراءة ٤٤ متهما من ضباط الشرطة المتهمين بالتعذيب، لا لأن التعذيب لم يحدث، لكن لأن الضحايا عجزوا عن تحديد أي من المتهمين هو الذى قام بتعذيبهم لأنهم كانوا معصوبى الأعين طيلة فترة تعذيبهم واستجوابهم .

و نعت المحكمة على النيابة تقصيرها فى التحقيق فى وقائع التعذيب .

ولقد اضطرت محاكم كثيرة إلى إهدار كافة الاعترافات المنسوبة إلي المتهمين نظرا لمناخ التعذيب والإكراه الذى تعرضوا له والذى: " تمثل فى الضرب المتكرر و إدخال عصا و إصبع فى الشرج " .

وفى حكم آخر تقول حيثيات حكم المحكمة : " إنه تيقن لها أن المدعى قد لاقى صنوفا من العذاب أثناء فترات اعتقاله متمثلة فى ضربه بالعصى والسياط والأسلاك الكهربائية، والحرمان من الطعام والشراب و إطفاء السجائر المشتعلة فى جسده مع تعريضه لصدمات كهربائية فى الأماكن الحساسة فى جسده، وكذا تهديده بالقيام بأعمال غير مشروعة مع زوجته ووالدته " .

يا إلهى . . . .

إن الأمر يزداد صعوبة، فإن المنظمة تستشهد بأحكام المحاكم وتقارير الطب الشرعى .

يواصل التقرير :المتهمون فى القضية ٥٤٦ حصرأمن دولة عليا المعروفة إعلامياً بقضية اغتيال الدكتور رفعت المحجوب : وعددهم ٢٧ متهما بينهم عشرة هاربون وقد قضت محكمة أمن الدولة العليا طوارىء فى أغسطس ١٩٩٣ بتبرئة المتهمين جميعا من تهمة الإغتيال . وطبقا لما هو موثق بمنطوق الحكم . فقد أكدت المحكمة " إن القاضى الجنائي فى تقديره لإقرار المتهمين فى التحقيقات يجب أن يضع فى إعتباره الظروف والملابسات التى صدر خلالها هذا الاقرار مادام لم يصدر من المتهم تحت سمع وبصر القاضى، والأوراق تنطق بأن المتهم محمد النجار كان مهيئا للخوف والهلع بعد أن سقط فى قضية الشرطة أمام سور مبنى كلية الهندسة

بجامعة القاهرة فى ٢٧ أكتوبر ١٩٩٠.بعد أن شاهد زميليه يسقطان قتلى برصاص أجهزة الأمن تحت قدميه وبعد أن تلقى هو الآخر رصاصة فى رأسه فضلا عن التعذيب الذى تعرض له وهو فى كنفهم فصنعوا منه راويا للأقوال التى يلقنونها له ليدلى بها فى التحقيقات .. وصنعوا منه دليلا ومرشدا لأوكار المتهمين بعد وعده بتسفيره للخارج أو وعيده بالتعذيب الذى سيلحق به إذا خرج عن الدور المرسوم له كما قرر هو نفسه فى التحقيقات " .

يا إلهى . . . . لقد زورت الشرطة التحقيقات، ولفقت التهم، فأين كانت النيابة ؟!

يضيف منطوق الحكم" أن المحقق قد أثبت إصابات المتهم منذ استجوابه وأن جميع المتهمين الماثلين لم ينج أحدهم من التعذيب وأثبت المحققون إصابات بهم كما أكدت التقارير الطبية تعرضهم لابشع أنواع التعذيب من ضرب بالسياط وتوصيل شحنات كهربائية على أجسامهم وموطن العفة منهم وتعليقهم وهم معصوبو العينين بقصد انتزاع الاعترافات منهم، وتكرارها بعد كل استجواب " وانتهت المحكمة إلى استبعاد كافة الأدلة المستمدة من اعترافات المتهمين باعتبارها قد " صدرت تحت وطأة التعذيب بهذه الصورة النكراء التى وردت بتقارير الطب الشرعى " .

ويقول تقرير الطب الشرعى رقم ٧٢٥الخاص بالمتهم ابراهيم اسماعيل عبد المجيد علام بوجود كدمات داكنة بالوجه والظهر والكتف والساعدين والفخذ واليد وسحجات رقيقة وسطحية منتشرة أعلى وحول حلمتى الثديين وثمرة القضيب بأوضاع مختلفة وإن هذه الكدمات تحدث من المصادمة بأجسام صلبة رضية وإن سحجات تحدث من مثل ملامسة الجسم لمصدر كهربائى . وأضاف التقرير بوجود اعاقات كاملة في حركة الطرفين العلويين تحدث من مثل الضغط والشد كمثل التعليق من خلف، وإن البؤرات النزفية الموصوفة حول الثديين ومقدمة القضيب تحدث نتيجة تقريب جسم أو أجسام مكهربة لسطح الجلد.

ويقول تقرير الطب الشرعى رقم ٧٢ الخاص بالمتهم عادل قاسم سيد شعبان بوجود كدمات بالوجنة اليمنى والظهر والطرف

العلوى الأيسر والفخذ الايسر واليد اليمنى وحذوذ بأسفل الرسغين وسحجات طولية حول حلمتى الثديين والقضيب وأن الإصابات الاولى تحدث من المصادمة بجسم صلب والإصابات التى أسفل الرسغ من القيود الحديدية والسحجات من ملامسة الجسم لتيار كهربائي . ويشير تقرير آخر لذات المتهم بوجود خدل شديد بالطرفين العلويين واعاقة كاملة فى حركتهما الارادية وبؤرات نزفية تحت الجلد حول منطقة الثديين وثمرة القضيب، وإن الإصابات الأولى ناتجة عن الضغط والشد على الأطراف كمثل التعليق من خلف وإن الاصابات الثانية تحدث نتيجة تقريب جسم أو أجسام مكهربة لسطح الجلد .

كما يشير تقرير الطب الشرعي رقم ٧١٧ الخاص بالمتهم صفوت عبد الغنى بوجود بؤرات نزفية متقاربة ومتجمعة تحت الجلد في حجم رأس الدبوس حول الثدى الأيمن وأسفل جدار البطن وحول القضيب التناسلى، تحدث مثلها نتيجة تقريب جسم أو أجسام مكهربة لسطح الجلد، ومـا ينجم عن ذلك عادة من تغيرات باثولوجية بالشعيرات الدموية الدقيقة .

وعلى الرغم من تعرض هؤلاء المتهمين للتعذيب، ومناظرة النيابة والطب الشرعى، إلا أن النيابة لم تباشر أى تحقيق مع الضباط المسئولين عن أعمال التعذيب، مما دفع محكمة أمن الدولة العليا (طوارىء) التى تنظر قضية اغتيال الدكتور رفعت المحجوب، الى أن تقرر فى يوليو ١٩٩١، ندب عضو بها - بدرجة مستشار للتحقيق فى وقائع التعذيب .

وقد رصدت حيثيات الحكم فى هذه القضية تقاعس النيابة فى تحقيق وقائع التعذيب حيث جاء بنص هذه الحيثيات أنه " رغم أن المحكمة أحالت وقائع التعذيب التى تعرض لها المتهمون إلى النيابات المختصة لتحقيق هذه الوقائع، إلا أنه حتى تاريخ حجز الدعوى للحكم، أى بعد ٣ سنوات من التعرض للتعذيب، لم ترد هذه التحقيقات من النيابة العامة ولم تشأ المحكمة الانتظار أكثر من ذلك حتى لا يتعطل الفصل فى الدعوى " .

وأكدت هيئة المحكمة بنص حيثياتها على " إن جرائم التعذيب

التى تمس الكرامة وسلامة الجسم بل والحق فى الحياة توجب تدخل المشرع بالنص صراحة على مسئولية رئيس الجهاز الذى يعمل به المتهم القائم بالتعذيب حتى ولو كان مجهولا أو تعذر على المعذب التعرف عليه لأنه كان معصوب العينين أو كان الذى قام بتعذيبه يخفى وجهه أو شخصيته، فإن افتراض المسئولية الجنائية قبل رئيس الجهاز الذى وقع التعذيب فيه كفيلة بمنع التعذيب لأن التهديد بعقاب الرئيس الذى له الإشراف والرقابة يحمله على إحكام الرقابة والحيلولة دون وقع جريمة التعذيب لأنه هو فى الغالب الذى يخلق الظروف التى توحى به والإقدام عليه ".

ما أرق و أدق حكم المحكمة .

لكننا دون رقة ودون دقة نرى أن مسئولية رئيس الجهاز ليست مفترضة بل هى حقيقة واقعة، و أنه يأمر بالتعذيب ويشارك فيه ويخطط له ويأمر باستيراد الأجهزة الجهنمية له من الخارج . إنه كما يقول جون لوك أكثر جرما من مرؤوسيه. أجل : الرئيس هو المسئول وهو المجرم .

أستميحك عذرا ياسيادة النائب العام - مؤقتا - عن الاستمرار فى سرد وقائع التعذيب التى أثبتتها المحاكم وتقرير الطب الشرعي والتى يقول تقرير منظمة حقوق الإنسان أن النيابة لم تقم حيالها بعمل . لأننى لو رويت كل ما هو منشور لما كفت كل صفحات هذا الكتاب، لكننى أرغب أن أنهى هذه الوقائع بواقعة فادحة صارخة، كانت المحكمة، والنيابة نفسها هم الشهود الرئيسيون عليها.

فثمة متهمون آخرون قرروا أمام هيئة المحكمة في جلساتها بتاريخ ٢٥ / ٩ / ١٩٩٣ تعرضهم للاعتداء بالضرب فى ١٩٩٣/٩/٢٣ بمحبسهم بالسجن شديد الحراسة بمنطقة سجون طرة . ويؤكد مندوب المنظمة المصرية لحقوق الإنسان الذى تابع الجلسة أن المتهمين حضروا من محبسهم وقد ظهرت عليهم آثار إصابات واضحة وكانت ملابسهم ملطخة بالدماء وبعضهم جاء بالملابس الداخلية ملطخة بالدماء أيضا.

وقد قامت هيئة المحكمة بنفسها بمناظرة إصابات المتهمين

السبعة عشر، وكانت معظمها عبارة عن كدمات حمراء وزرقاء تغطى منطقة الظهر بكامله أو جزء منه وحول العمود الفقرى تحديدا وأيضا بمنطقة الصدر والبطن والساقين والذراعين إضافة للجروح فى الرأس والوجه والتورم بالأعين.

وقد قرر المتهمون إن هذه الإصابات نتجت من اعتداء قوات إدارة السجن وما صاحبها من القوات الخاصة عقب اقتحامهم للزنازين فى ٢٣ / ٩ / ١٩٩٣ وضربهم للمتهمين بالعصى والخراطيم المطاطية والعصى الكهربية إضافة للسب والركل بالأقدام وإجبارهم على الانبطاح أرضا بوجوههم ثم السير عليهم بالأقدام.

كما قرر بعض المتهمين أنه قد تم استدعاؤهم لمباحث أمن الدولة مساء بنفس اليوم حيث لاقوا قسطا آخر من التعذيب .

اللهم رحمتك وعفوك .

حتى أمام النيابة، وحتى فى حضرة المحكمة يذهب المتهمون مضرجين بدمائهم .

أين محاضر تحقيق النيابة . . . . ؟؟.

أين القضية الهائلة التى فجرتها النيابة لتسفر فى النهاية عن إسقاط حكومة عاطف صدقى، لقد فعلتها النيابة منذ أكثر من ستين عاما فى قضية أقل بكثير، و أسقطت حكومة الطاغية الجلاد إسماعيل صدقى .

أين . . . . ؟؟؟؟؟!!!!!

لكن حيثيات حكم المحكمة تقرر عدم اطمئنان ضمير المحكمة إلى محاضر تحقيقات النيابة، و إلى أن وكيل النيابة بدا كما لو كان يمنع عن المتهم الاستعانة بمحام، وأن المطاعن التى كانت توجه إلى محاضر تحريات مباحث أمن الدولة، قد استطالت حتى وصلت محاضر تحقيق النيابة، مثل الاتهام بعدم الحيدة، وعدم إثبات كل الأقوال، والتهديد بالإيذاء، ومجاملة رجال مباحث أمن الدولة .

يا إلهى . . . .

حيثيات حكم محكمة يتهم النيابة بكل هذا .

لقد ناظرت هيئة المحكمة التعذيب أحيانا بنفسها، و أثبتته .

لم تُعلن أبدا نتائج التحقيقات المفترض أن النيابة العامة مسئولة عن إجرائها فى جرائم التعذيب .

إن حيثيات أحكام المحاكم لم تكتف كتقارير النيابة بإسناد تهمة التعذيب إلى مجهول، بل يذكر أحدها صراحة : " كثير من المتهمين وقع تعذيب عليهم من ضباط مباحث أمن الدولة ".

سامحنى يا سيادة النائب العام على جرأتى التى تجعلنى من فرط الألم أغامر بأمنى، وحريتى، وربما بحياتى بترديد ماذكره تقرير منظمة حقوق الإنسان، أغامر، رغم علمى أننى قد أمثل غدا أو بعد غد أمام أحد وكلائك، ليأمر بحبسى، لأحبس فى محبس لا يقوم وكلاؤك فيه بواجبهم فى التفتيش عليه طبقا لتعليماتك، محبس يتواجد فيه ضباط مباحث أمن الدولة ليل نهار ضد القانون . لكننى اخترت منذ زمان طويل ياسيادة النائب العام، أنه إذا كان هذا العالم ينقسم إلى جلادين وضحايا، يتفرج عليهم شياطين خرس أو متواطئون، أو مشاركون بجريمة الصمت عن الجريمة، لو كان العالم ينقسم إلى ذلك، وليس ثمت اختيار آخر، فقد اخترت أن أكون ضحية .

سامحنى، بل و أتوسل إليك، أن يصدر مكتبك بيانا فوريا تفصيليا يكشف لنا ماغُمّ علينا .

فمن المستحيل أن تكون الأمور بكل هذه البشاعة التى توردها تقارير منظمات حقوق الإنسان، وتؤكدها حيثيات أحكام المحاكم وتقارير الطب الشرعى لا مجرد أقوال الصحف .

أتوسل إليك، من أجل هذه الأمة، وفى سبيل الله، و أتوسل أيضا إلى رئيس الجمهورية ومجلس القضاء الأعلى، والمحكمة الدستورية العليا، ومحكمة النقض، و أتوسل إلى كل كاتب ومفكر فى هذا البلد .

فما يحدث لو كان يحدث حقا، ولو استمر، فلن تقوم لهذه الأمة قائمة.

ياسيادة النائب العام :

عندما اخترت منصبكم العالى لأوجه إليه مظلمة الأمة، لم أكن أقصده وحده، كنت أقصد الجهاز القضائى كله، والجهاز التنفيذى والتشريعى، بل و أقصد أيضا المفكرين والكتاب والمثقفين، فهم قضاة ضمير العدالة إذ أنتم قضاة نصوصها، أقصدكم، لا مطالبا بتقويض الحكومة بل مطالبا بحكومة !!، ولا مهددا للدولة بل محاولا إنقاذها من الفناء والتلاشى، فقد أصبحت كالرجل المريض، الذى بلغ من سوء حالته فى نظر أعدائه وبعض القائمين على الأمر فيه، أن أصبح لا يحتمل حتى العلاج، بله البتر، فكل حديث صريح أو صحيح إنما هو بعينه الخوض فى حقل ألغام قد ينفجر فى أى لحظة، والأسلم والآمن ترك هذا المريض يموت، ليحصل كل على ميراثه من تركته، غير مدركين أن العدو الجاثم قد رهن المغانم منذ زمن، ولم تبق إلا المغارم . الصراحة إذن مخاطرة غير محسوبة يقدم عليها من تروعه احتمالات فناء الأمة، فهو إذ يقاوم، لا يقاوم العدو فقط، ولا المرض فقط، بل أولئك الأبناء السفهاء، الأوغاد، الذين لا يأبهون من الوطن إلا بما ينالونه منه، ماينهشونه من لحمه، وما يغتصبونه من جسده، ويستنزفونه من دمه، حتى آخر رمق .

ثمة عناء آخر للكاتب وهو يعبر عن مواقفه و آرائه ، فكم هو معذب - إذا جاز لنا استعمال لفظ العذاب فى هذا الصدد بعد ما أوردنا من صور للعذاب - أن يحاول الكاتب اختيار منهج الكتابة ونوع الألفاظ وشكل الجمل وحتى الحروف وعلامات الترقيم التى يصوغ بها موضوعه، كى يتناسق الشكل مع الموضوع . فالكتابة مثل اللحن السيمفونى، و كالألوان، ونحن لا نستطيع أن نعبر عن الحزن بلحن مرح، ولا عن الفرح بلون أسود .

يجب أن يبحث الكاتب أيضا عن مفردات اللغة التى يكون معناها واحدا بينه وبين قارئه، فذات اللفظ قد يحمل معانى مختلفة باختلاف موقع وثقافة سامعه، وعلى سبيل المثال فإن كلمة " النار " تعنى لرجل الدين معنى يختلف تماما عن المعنى الذى تعطيه نفس الكلمة لشرطى المطافىء أو لصانع الخبز أو لربة بيت أو لعالم فى معمل، أو لجلاد منفرد بضحيته فى لاظوغلى.

يجب على الكاتب ألا يكتُب قبل أنْ يعايش، ليحاول بعد ذلك قدر جهده أن ينقل لقارئه بتجرد و أمانة ما أحسّه وعايَشه .

لكن . . . . هل أستطيع الآن أن أفعل ذلك ؟؟.

هل أستطيع ياسيادة النائب العام أن أنقل إليك مدى خطورة ما أتحدث فيه ومدى صدقه ، ومدى ضرورة أن تتخذ فيه قرارا ؟.

هل أستطيع أن أوصل إلى القارىء – و إلى الأمة كلها – فداحة ما يحدث، كي يخرج من صمته وسلبيته وسكونه، فهو – إن اتحد مع الباقين – القادر على إرغام الجلادين على كف ذئابهم – كلاب النار – عن نهش أبناء هذا الوطن .

هل أستطيع أن أبلل صفحات ذلك الكتاب بالماء أو بالدموع وأن أصلها بالكهرباء كي يتكهرب القارىء إذ يقرأ ليفهم ويحس ويعي أي نوع فظيع من العذاب يعانيه أولئك الذين يعذبونهم بالصعق بالتيار الكهربائي.

هل أستطيع أن أجعل من السطور سياطا و أسلاكا مجدولة تنهال على وعي القارىء ليحس بشيء شبيه لما يعانيه الضحايا ؟ .

وهل أستطيع أن أستعمل بدلا من الحبر الذي دنسته أقلام كثيرة دم الضحايا الذي سفكه الباطش الجبار وسفحه الضحايا .

هل أستطيع أن أوقد تحت القارىء نارا، ليحس بما يحس به الضحية وهو معلق كالخروف المشوي فوق النار .

هل أستطيع أن أجعل القارىء يقرأ هذا الكتاب وهو معلق من قدميه في سقف منزله، أو وهو معلق من رسغيه معكوسا وقد ربطت في كل قدم من قدميه " أنبوبة بوتاجاز "، أو وهو يُسحل على الأرض .

هل أستطيع أن أصوغ من تلك الحمم المنصهرة المنثالة من داخلي تمثالا يحرق لامسه ويعمي الناظر إليه، أو أن أرسم بألوانها الدامية لوحة تتحرك فيها الجمادات وتصرخ .

هل أستطيع أن أجعل صفحات هذا الكتاب تشتعل بين يدي القارىء، أو تنوح وتلطم .

هل أستطيع أن أبث الروح فى تلك الحروف المتراصة الميتة فتنفجر بالحياة من الألم فتنقل للقارئ فى نفس اللحظة التى يقرأ فيها صرخة إنسان يُعذب، صرخة تلاشى منها كل كبرياء وانهدمت فيها كل إرادة، طويلة مشروخة مذهولة مرتعبة منسحقة يائسة آملة مذبوحة راجية خاضعة ذليلة متوسلة معترفة بما لاتعرف تائبة عما لم ترتكب صاخبة جياشة هادرة مهدورة مرتجفة بالخوف والكهرباء عمياء بما يعصب العينين، غير مدركة من أين يجيئها العذاب ولا سببه، صرخة لا يُتخيل أن مثلها يمكن أن يصدر من عضو بشرى كالحنجرة و إنما كل خلية فى الجسد الإنسانى تصرخ صرختها الخاصة فخلايا الحنجرة تصرخ وخلايا القلب تصرخ وخلايا الكبد تصرخ وخلايا الدم تصرخ، وخلايا الجلد التى تقابل خلايا السوط فى العرس الدامى تصرخ، وخلايا الجسد كلها تتحول إلى خلايا للألم تستقبله وتعبر عنه مسقطة كل أبجديات اللغة فلا يبقى من كل حروف كل لغات العالم سوى حرفين هما : آه، ويذوب الموصوف فى الصفة منصهرا تحت حرارة اللهيب فإذا الآه ليست تعبيرا عن الألم بل هى الألم ذاته وقد استدعته نداءاته ليقود كالمايسترو فرقة الخلايا الصارخة مطلقة جميعا فى تناغم وحشى سيمفونية الألم المروع التى تعزفها خلايا الجسد الإنسانى المعذب الذى فقد ذاكرته ففقدت أفعال اللغة أزمانها ولم يعد لديه ماض ولا حاضر ولا مستقبل، لم يبق إلا فعل الأمر : إضرب، إحرق، إنتهك، عذّب، إركع، إعترف، إنسحق، تلاش، إعترف، وهو لا يستطيع وبين العذاب و العذاب عذاب أن يجيب، فخلايا الذاكرة قد فقدت الذاكرة لتطلق هى الأخرى صرختها المجردة من الزمان ، فكأنما هزيم الصرخات يغطى الوجود الإنسانى عبر كل تاريخه المعذب بين جبروت الجلادين الفجرة وعذاب الضحايا وعجزهم وذلهم .

هل يمكن أن يسمع القارئ وعيناه تجريان على هذه السطور صوت سوط، صوت العظام وهى تتهشم، والمفاصل وهى تنخلع، والنفوس وهى تنكسر .

هل يمكن أن يرى القارئ ولو لثانية واحدة ضابط الشرطة الذى يعبث بأصابعه وبأدوات أخرى فى هنى امرأة، فى عورتها وعفتها، بعد أن أخذوها - وهى البريئة - رهينة ، هل يمكن أن يرى

القارئ ذلك و أن يخصف على مشهد العار الداعر فى خياله الدامى صفحات هذا الكتاب .

هل يمكن . . . . هل يمكن . . . .

و هل تغنى هذه الدموع التى يذرفها القارئ الآن وهو يقرأ، وهل تجدى فى إطفاء النار المشتعلة فى ضحية واحدة .

هل أنجح فى أن أجعل القارئ يحس بثوان فقط من ذلك العذاب الوحشى الهمجى المجنون الذى يعانيه الآن - فى نفس هذه اللحظة - واحد من آلاف الضحايا فى باستيل مصر فى لاظوغلى، أو فى فروعه المنتشرة كالعنكبوت أوالإخطبوط على ساحة الوطن ، ثوان فقط، تجعله حتى، دون أى احتجاج أو تمرد أو ثورة، يلجأ إلى سريره ينشد الراحة من الإنهاك الذى سببه له تخيل الإحساس بالعذاب، وهى راحة لايظفر بمثلها الضحية، فهناك، فى باستيل مصر، فى لاظوغلى، لا يجد الضحية أى فرصة للراحة من العذاب، فبعد كل عذاب عذاب أشد .

هل يمكن أن أنقل إلى القارئ شيئا من مشاعر اللهفة المحمومة والأمل المجنون الذى يعتمل فى نفس ضحية يترقب وكيل نيابة يفاجئ الجلادين كى ينقذه من عذابه، ويبلغ النائب العام على الفور ليتفضل بإصدار قراره بإحالة جلاديه المجرمين إلى التحقيق .

لقد علمتمونا يا سيادة النائب العام أنه لا يوجد متهم برئ ومتهم مذنب، فكل المتهمين أبرياء حتى تثبت إدانتهم فى محاكمة عادلة . وبالرغم من ذلك، فإن ضحايا التعذيب والقتل، معظمهم أبرياء لم تصدر بشأنهم أحكام . يكفى أن يصرح الشرطى أن الضحية متهم كى يسام العذاب أو يفقد حياته.

لعلك تلاحظ ياسيادة النائب العام أننى لم أتطرق إلى الأسباب التى تدّعيها بعض قطاعات الشرطة - وكتاب السلطة - تبريرا لجرائمها، بل لقد تعمدت أن يكون معظم حديثى عن أناس لا علاقة لهم بالسياسة، ولا حتى بالدين، حتى أن بعضهم يلتمس البراءة أمام المباحث مقيما الدليل على براءته بأنه لا يقيم الصلاة، ذلك

مذكور ومنشور وموثق، لم أتطرق أيضا إلى ماتنشره الصحف الأجنبية عنا من أن المشكلة فى مصر ليست مشكلة إرهاب بل مشكلة صراع سياسي اختارت السلطة أن تحله بالرصاص والعنف وانتهاك حقوق الإنسان بدلا من حله باللجوء إلى صندوق انتخابات لا يُزوّر . لم أتطرق إلى الأبعاد الدينية و التاريخية والثقافية و الاجتماعية والاقتصادية للمشكلة الكارثة، ولم أتطرق أيضا إلى هوية الضحايا وانتماءاتهم وأحزابهم، ولا إلى وجهة نظرهم، ودفاعهم عن أنفسهم، لم أسرد لك مايدور فى العالم عن فساد النظام فى بلادنا، عن أنه يستعمل كل هذا البطش لا ليحمى الوطن من الإرهاب بل ليحمى نفسه وفساده ومتعه الحرام . . . . الحرام قانونا لا دينا، لم أتطرق إلى ذلك كله، لأن ما يحدث للمتهمين الضحايا بغض النظر عن أى سبب وكل سبب جرائم مروعة، أجل . . . جرائم مروعة، حتى لو كان كل المتهمين مجرمين . جرائم مروعة تؤكد أن النظام كله مختل و أن المجتمع كله مريض .

جرائم مروعة ياسيادة النائب العام، المسئول عنها رئيس الجهاز الذى تُرتكب الجريمة فى كنفه وتحت حمايته وبأوامره، المسئول هو الرئيس، أيا كان موقعه . ولأنها جرائم ياسيادة النائب العام فهى تقع فى دائرة اختصاصك .

لقد شاهدت النيابة نفسها بعضا من الإجرام الذى يحدث .

ودعنى ياسيادة النائب العام أسرد على مسامعك تلك الواقعة التى أشعلت فى الطفل القديم حنينه الجياش لعدل النيابة وشجاعتها :

احتجزت الشرطة المتهم : عبد الناصر عبد الغفار على : ٣٤ عام فى قسم أول الزقازيق لسؤاله في جريمة قتل، حيث أجبر على خلع ملابسه، وتم تعصيب عينيه بقطع قماش وتقييد يديه من الخلف وتعليقه على باب و الضرب بعصا خشبية – ساق كرسى – وخرطوم سميك مبطن على الرأس والظهر والمؤخرة والقضيب الذكرى والقدمين وقصبة الساقين . وتنقل مذكرة النيابة عن الضحية قوله إنه تم " وضع وإدخال عصا في دبره ثلاث مرات متفرقات فى يوم واحد "، و أن الضباط غرسوا إبرة معقوفة فى

معصم يده اليمنى ثم قاموا بتوصيلها بالكهرباء، مما سبب آلاما مبرحة، كما صعقوه بالكهرباء، خلف الأذنين وفى حلمة الثديين والأعضاء التناسلية .

وعلى إثر بلاغ تقدمت به أسرته إلي نيابة الزقازيق، انتقل رئيس النيابة إلى قسم أول شرطة الزقازيق إلا أن الضباط قاموا بتهريب الضحية إلى نقطة شرطة بردين المجاورة، وعندما علمت النيابة بذلك بادر رئيسها بمفاجأة نقطة الشرطة حيث شاهد بنفسه الضحية وهو معلق علي الباب فى حالة يرثى لها . ويوثق التقرير الطبى رقم ٤٨٨ الصادر من مصلحة الطب الشرعى التابعة لوزارة العدل آثار التعذيب .

فهل كان يمكن ياسيادة النائب العام أن تجد النيابة علي شيوع التعذيب دليلا أوضح من ذلك ؟؟.

هل كان يمكن ؟؟!!.

وهل هو ممكن ألا تتخذ قرارا تهتز له الأمة كلها، لا إزاء هذه القضية فقط بل إزاء جريمة التعذيب، والمجرمين المرتكبين لها، والمجرمين المتسترين عليهم ؟.

إننا لا نريد أن نصدق ما أوردته صحيفة متحالفة مع الحكومة، وبرغم ذلك تقول أنه بات من الصعب التفريق بين النيابة والشرطة، لا فى التستر فقط، بل وفى الظلم أيضا !!.

السيد النائب العام :

الساحة عابسة عابثة يائسة ميئسة . . .

وعنت الجباه . . .

ليس لله الواحد القهار - وليتها - بل للطاغية الباطش الجبار...

وزير الداخلية يصرح : " أى مكان فيه تجمعات أو محاولات لابد أن تطهر لأنها مثل السرطان لابد أن يستأصل بالكامل "، و أخشى أن يكون هذا يا سيادة النائب العام تصديقا لمن بات يحسب أن الشرطة استولت الآن على مهام النيابة والقضاء، و أنها تستأصل فعلا من لم يدنهم القضاء ومن لم تقدمهم النيابة إليه . وكنا نأمل

من الوزير أن يتحدث عمن يموتون من التعذيب فى أقسام الشرطة ومباحث أمن الدولة والأمن المركزى، والذين تحدثت عنهم منظمات حقوق الإنسان، التى يعترف بها العالم وتعترف بها الأمة، وإن أنكرها الوزير .

لطالما ساءلت نفسى ياسيادة النائب العام إثر بعض اللقاءات مع ضباط شرطة : من الذى زين لهم مايفعلون، وكنت فى محاولة لطمأنة نفسى، لتقليل حجم الكارثة أعزى نفسى بأن الكارثة محدودة، و أن زكى بدر كان استثناءً، فكيف أحتفظ بالطمأنينة والعزاء ووزير الداخلية يتحدث عن الاستئصال ويعتبره من توفيق الله ولا يجد من يقوِّمه، والأمل الذى كان من المفترض أن ينعقد بناصية مجلس الشعب فى أن يدافع عنا ويستجوب الوزراء ويسقط الوزارات يتحول إلى كابوس، حين يصدر المجلس قانون الصحفيين الأخير وهو قانون يمنعنا فيه حتى من الصراخ، قانون وصفه أحد أعضاء المجلس بأنه : " اختلاس "، قانون يخلق داخل كل منا شرطىّ ورقيب .

ليتهم يصدرون قوانين مباشرة بإلغاء جميع أحزاب المعارضة، وإغلاق جميع صحفها، لأن ذلك إن تم، سيتيح لنا معشر الكتاب الاحتفاظ ولو بقدر ضئيل من الشرف، فساعتها حين لا نكتب، وحين لا نصرخ بكلمة حق فى وجه سلطان جائر، سنستطيع الزعم أمام أنفسنا بأننا لا نكتب لأن صحفنا مغلقة، ولا نصرخ لأن ألسنتنا منزوعة، لكن، والأمر كما حدث، فعلى كل كاتب أن يدرك أن النظام العظيم قد ترك له كل الصحف وكل الأحزاب و على الرغم من ذلك فهو لا يكتب لأنه جبان رعديد خائف، و هذا الإحساس باحتقار الذات سوف يقضى على الكتّاب ليبقى الكتبة، كما أنه سيعطى أى نظام غاشم الحق فى أن يدّعى أن صمت الكتاب دليل رضاهم، و أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

حين تلقى الشرطة القبض علىّ ياسيادة النائب العام، وتحيلنى بعد أيام أو أسابيع إلى وكيلك، فإننى أحسب أن بعض اتهام سيوجهه إلىّ هو محاولة قلب النظام .

ويعلم الله أننى إلى قلبه لا أسعى . . . .

بل وجدته – لفرط الأسى والذهول – مقلوبا . . . .

و أحاول – من خلال القانون – أن أعدله . . . .

أجل . . . النظام مقلوب . . . .

التعذيب الهمجى الوحشى المجنون المجرم للناس نظام مقلوب ....

وتزوير الانتخابات نظام مقلوب . . . .

و إهدار أحكام القضاء وتحديها نظام مقلوب . . . .

قدرة بعض كبار المسئولين على الكذب الصريح البواح نظام مقلوب .

لا أحد يحاسب أحدا نظام مقلوب . . . . .

تخريب الاقتصاد نظام مقلوب . . . .

حماية اللصوص دون الأبرياء نظام مقلوب . . . . .

. . . . . . لوسى أرتين نظام مقلوب . . . .

. . . . . . حبس مجدى حسين نظام مقلوب . . . .

حبس الدكتور عصام العريان ورفاقه نظام مقلوب

. . . . يوسف والى نظام مقلوب . . . .

قوانين الصحافة نظام مقلوب . . . .

الصحف القومية التى تخلت عن وظيفتها من أجل ذهب المعز نظام مقلوب...

موقف النيابة من التعذيب نظام مقلوب ...

الطبيب المصرى محمد كامل خليفة الذى انتهك الناظر السعودى براءة الأعوام السبعة فى طفله، فاشتكى الطبيب واستغاث فجلدوه بتهمة الافتراء هو رمز لما يحدث على مستوى الأمة حيث تنتهك أعراضنا و حرياتنا فإن اعترضنا قتلنا بتهمة الإرهاب أو جلدنا بتهمة الافتراء وذلك نظام مقلوب.

الجهر بالسوء واعتباره توفيقا من الله افتراء على الله و نظام مقلوب.

إهمال الرد على ما نثيره رغم خطورته ويهدم - إن صح - كل شرعية مدّعاة نظام مقلوب . . . .

احترام قرارات الأمم المتحدة على ليبيا والعراق و إهدارها مع إسرائيل و فى حقوق الإنسان نظام مقلوب . . . .

العلاقات مع إسرائيل لا مع إيران والعراق نظام مقلوب . .

عجز الحكام عن سد الفجوة التى تتسع كل يوم بين قوتنا وقوة أعدائنا نظام مقلوب . . . . .

تطويع القوانين لصالح هوى الحكام ضد مصلحة الأمة نظام مقلوب .

الاعتداء على النقابات نظام مقلوب . . . . .

ادعاءات التنوير تحت القهر والسياط والبطش نظام مقلوب . .

إنتاج إسرائيل أكثر من إنتاج مصر وسوريا والأردن ولبنان نظام مقلوب . . . .

انضمام بعض العرب إلى أمريكا و إسرائيل لسحق وحصار العرب نظام مقلوب . . . .

التخاذل والهوان والذل المفروض علينا فى الداخل والخارج نظام مقلوب . . . .

التهليل لمن يهاجم القرآن مدعيا وجود أخطاء به ومدعيا أن المعنى من الله والكلمات من الرسول صلى الله عليه وسلم و أنه يجوز تغييرها -نشرت مجلاتنا ذلك - والبطش بمن ينتقد الحكام نظام مقلوب . .

لست أسعى ياسيادة النائب العام إلى قلب النظام . . . .

علمنى الزمن، والقهر، والتاريخ وخيبة الأمل مع كل عهد أن التغيير ليس تغيير فرد و إنما تغيير منهج، انتهت خرافة القائد الزعيم البطل الملهم الذى ينقذ أمته من الخراب ويقودها إلى الانتصار، الأمة هى وحدها القادرة على إنقاذ نفسها من الخراب والدمار، فقط : أن نحطم الأغلال التى تقيدها، أن تسحب التفويض التى استلبه منها من يزورون إرادتها . . . .جريمةٌ أن تُختزل الأمة

فى فرد، أو فى عصابة . .

لطالما ذل كبرياء الطفل الذى رأى الملوك عراة وهو يرقب ذاهلا الهزيمة الحضارية والعسكرية الشاملة لأمة تعدادها أكثر من مائتين وخمسين مليونا وراءهم ألف مليون آخرين أمام أمة تعدادها أقل من خمسة ملايين . لطالما عجز عن الفهم، ولطالما اجتر الألم .

وما أشد بؤسه عندما اكتشف كيف امتهنوا عقله وخدعوه وغالطوه فى الحساب .

لم يكونوا خمسة ملايين ضد مائتين وخمسين مليونا بل كانوا خمسة ملايين عقل ضد اثنين وعشرين عقلا . . والإثنان وعشرون عقلا كانت متعارضة متضاربة . . . . لم تكن مجتمعة . . . .

كل منهم اعتبر الآخر سرطانا يجب استئصاله، وفى سبيل ذلك أغفل الدين والعقل والقانون والضمير.

ولم يكونوا نخبة عقول الأمة ولا خلاصة فكرها، بل إن معظمهم وصل إلى مكانه بالصدفة أو الوراثة أو الغدر ليمثلوا فى النهاية أشكالا كاريكاتورية لعيوب الأمة ونقاط ضعفها لا لمزاياها ومكامن قوتها .

كنا صفرا، أو أكثر من الصفر بقليل . . . . وكانوا خمسة ملايين . .

الآن يفهم الطفل سر انتصاراتهم الكاسحة وانكساراتنا الفادحة...

كثرتهم كاسحة . . . . و قلتنا فادحة . . . . . .

هناك، حيث لا زعيم ملهم، ولا قائد عبقرى، ولا منقذ، ولا خليفة لله على الأرض، ولا خادم لحائط المبكى، ولا حاكم يرزح على قلب أمته لا ينقذها منه إلا الموت .

هناك حيث يستعمل كل فرد من الخمسة ملايين عقله لرفعة أمته لا لتأليه حاكمه . . . .

هناك حيث يمكن لعضو واحد فى مجالسهم المنتخبة أن يسقط الحكومة كلها . . . .

هناك حيث يكرسون كل قوتهم وجهدهم لرفع شأن أمتهم

واحترامها وسط العالم، لا لقهر شعوبهم وفرض احترام رجال السلطة فيها ومنع نشر جرائمهم بالقوانين والسياط والرصاص .

هناك حيث يستطيعون فرض إرادتهم والذل علينا، فلا يملك من يمارسون دور الذئاب علينا والنعام عليهم إلا الشكوى، أما كيف نشكو القاتل الأجير إلى السفاح فهى كشكوى الطبيب ضد الناظر سوف نُجلد بعدها من الصديق والشريك فى نظام مقلوب .

هناك حيث يقول قائلهم : لو خيرت بين حكومة بلا صحف حرة وصحافة حرة بلا حكومة لاخترت الثانية على الفور، هناك . . . . وهنا، هناك كان من حقهم النصر وهنا كان من حقنا الهزيمة . . . . وما الله بظلام للعبيد .

هذا النظام المقلوب ياسيادة النائب العام تستطيع أنت وأقرانك أن تعدلوه، بقرارين فقط : منع التعذيب ومنع تزوير الانتخابات، تأمّل إذن : إن إنقاذ أمتك مرهون بقرارين منك !!.

من المحزن ياسيادة النائب العام أن هناك جرائم لا أستطيع -رغم فداحتها -إبلاغك بها، لا أستطيع إبلاغك مثلا بجريمة قتل روح الأمة، وجريمة تشويه وجدانها . دفع الناس إلى الذل والخنوع والسلبية والخوف والرضى بالظلم . وذلك الذى حدث فى ظل حكامنا الوطنيين لم يحدث حتى تحت ظلال الاحتلال ، الذى لم يستطع رغم جبروته وطغيانه إطفاء جذوات النخوة والكرامة فى نفوس الناس . قارن يا سيادة النائب العام بين رد الفعل الذاهل الميت فى عصرنا وردود الفعل الحية فى عصر سابق .

منذ أكثر من ستين عاما . . . وكان ثمة وزير داخلية جلاد -إسماعيل صدقى- يحكم مصر بسياسة الحديد والنار ، وفى قرية أخطاب مارس الطاغية الباطش الجبار إحدى نزواته الإجرامية، عندما أصدر تعليماته للملازم أحمد فريد التهامى ملاحظ نقطة الشرطة لحشد أهالى القرية لتحية فريق من وزرائه كانوا سيمرون بالقرية . كانت إخطاب وما يجاورها من القرى من مناطق نفوذ سعد زغلول، وكان إجبار أهل القرية على الخروج لتحية وزراء الطاغية الجلاد نوع من الإذلال المقصود .

وخـرج أهالى إخطاب إلى الطريق الذى سـيـمـر به الوزراء بلافتاتهم وحميرهم . . ووقفوا ينتظرون مرور موكب الوزراء، وقبل دقائق من مروره، علق الأهالى اللافتات على حميرهم، ثم تسربوا فى خفة إلى الحقول المحيطة بالطريق الزراعى، وعبر الموكب، ودهش الوزراء حين لم يجدوا بشرا يستقبلونهم، بل وجدوا صفا من الحمير يحمل كل حمار منها لافتة تقول : " نحن نؤيد حكومة جلالة الملك " . . . بينما كانت ضحكات مكتومة تتصاعد من أهالى إخطاب المختفين فى الحقول . واستشاط الجلاد الطاغية غضبا، وأمر بتأديب القرية، فقاد الملازم أحمد فريد التهامى حملة التأديب وأمر بحظر التجول فى القرية، وتعرض ٣٠٠ من الفلاحين لضرب مبرح وتعذيب مهين .

استثار فعل الطاغية الجلاد الإجرامى مشاعر الأمة . . وبرغم كونه وزيرا للداخلية . . مدعما بالملك وسلطات الإحتلال . . لم يستطع التأثير علي نائب عام عظيم و لا على قضاء مصرى شامخ وجليل . . ولم يستطع أن يحول دون محاكمة الملازم أحمد فريد التهامى . . فعاقبته محكمة جنايات المنصورة بالسجن مع الأشغال الشاقة خمس سنوات وقضت على آخرين من رجال الشرطة بعقوبات أخرى . .

يا سيادة النائب العام . . حدث هذا فى مصر . . منذ أكثر من ستين عاما كما ينقله لنا صلاح عيسى فى كتابه القيم " حكايات من دفتر الوطن".

لو عزلنا حيثيات حكم المحكمة التى قضت على الضابط المجرم بالأشغال الشاقة عن سياقها التاريخى لبدت وهى الاستثناء فى زمانهم تعبر عن القاعدة فى زماننا . . . . تقول الحيثيات :

" ومتى انتهكت الحرمات على هذه الصورة، لم يقم للنظام في أمة قائمة، أليست فى هذه الأعمال الشنعاء احتقار للشعب بتمامه . . وإذلال لطائفة لم تألف الإذلال . . وتعويد للناس على الاستخفاف بسلطة القانون، يسهل لكل فريق يود أن يتمادى فى غيه إرضاء لشهوات حزبه؛ أو لتنفيذ مآرب له فيها مساس بالحريات العامة " . . " إن هذه الأعمال هي أفظع من الاعتداء على

الحياة لأن الأمة لا تكون أمة حقا، إلا إذا تكاملت أخلاقها، وتمتعت بحريتها فى حراسة القانون " .

ياسيادة النائب العام :

لقد كانت حيثيات الحكم تقول للطاغية الجلاد المجرم، ولكل طاغية جلاد مجرم يحذو حذوه ويفعل فعله فى أى زمان و أى مكان، أن الحكومات إنما هى هيئات نظامية تخضع للقانون وليس لهوي الذين يحكمون، وأن تخلى الحكومة عن صفتها النظامية، وخروجها عن القانون في معاملة الذين تحكمهم، هو إذنٌ لهؤلاء المحكومين بالخروج عن القانون، فيتحول المجتمع من هيئة نظامية إلي عصابات تتبادل أعمال العنف، ويتحول الوطن إلى غابة " . كانت هذه يا سيادة النائب العام مواقف النيابة والقضاء منذ ستين عاما . .

ولقد تكرر الموقف العظيم للقضاء - بعد ستين عاما - فى أحداث قرية الكوم الأحمر بمركز أوسيم في الجيزة . . حين بدأت الأحداث بصدام بين مواطن وضابط شرطة بعد مسابقة بين سيارتين، كان ضابط الشرطة يركب إحداهما . . واستفز ضابط الشرطة الناس مستعرضا قوته وفتوته شاهرا سلاحه مطلقا الرصاص فجرده الناس منه - ربما خوفا من إصابة أحد - وألقوه في ترعة مجاورة . . و انتقاما، قامت حملات هائلة من قوات الأمن باجتياح القرية واقتحام مسجدها وتخريب الممتلكات واعتقال المئات فى معسكرات الأمن المركزى، تم اقتحام المنازل والمساجد وتدمير القرية بأسرها، وقتل البعض أما وسائل النقل والركوب من عربات أجرة وملاكى وجرارات بلغ عددها ١٤٣ فقد دمرت وتلفت .. . كانت قوة الحملة البوليسية تكفي محافظة بأكملها . . لكى تفرض إرهابا شاملا على القرية .

رحمك الله يا إسماعيل صدقى، ورحم الله جلالة الملك !!!*.

---

*نشرت فى صحيفة الشعب المصرية.

ردان من النائب العام ووزارة الداخلية

رد النائب العام:

طالعتنا جريدة الشعب فى عددها رقم ٨٤٩ الصادر يوم الجمعة ٢٨-٥-١٩٩٥ بمقال تحت عنوان :"إنى أرى الملك عاريا بقلم الدكتور محمد عباس تعرض فيه الكاتب - من وجهة نظره - لجرائم التعذيب التى يرتكبها رجال الشرطة وخص بالذكر واقعة احتجاز وتعذيب عبد الناصر عبد الغفار بقسم أول شرطة الزقازيق لاتهامه فى جريمة قتل ... واختتم مقاله بعبارة نصها :"أنه بات من الصعب التفريق بين النيابة والشرطة" . . وحرصا منا على أن يقف قراء جريدة الشعب علي حقيقة ما أثاره الكاتب نوضح الآتى :

إن الواقعة حدثت فى الفترة من ٥-١١-١٩٩١ حتى ٢١-١١-١٩٩١، وهو ما أغفل الكاتب الإشارة إليه، بما يشير إلى تعمده هذا الإغفال، وقد بادرت نيابة مركز الزقازيق إثر إبلاغها بواقعة حجز عبد الناصر عبد الغفار بمباشرة التحقيق فى الواقعة و إجراء تفتيش مركز شرطة الزقازيق ونقطة شرطة بردين، وقامت بإثبات إصابات المجنى عليه وعرضه على الطب الشرعى وسألت الضباط والشرطة السريين الذين أشار إليهم المجنى عليه بإصبع الاتهام وقيدت الواقعة برقم ٤٧٦ لسنة ١٩٩٢ جنايات مركز الزقازيق، وقدمت المتهمين من الضباط والشرطة السريين الذين اقترفوا الواقعة وفق الاتهام المقدم من المذكور، إلى محكمة جنايات الزقازيق بعدة اتهامات هى: جناية تعذيب المجنى عليه عبد الناصر عبد الغفار لحمله على الاعتراف بجريمة قتل إحدى السيدات، جناية هتك عرضه بالقوة،جنحة القبض عليه وحجزه فى غير الأحوال التى تصرح فيها القوانين واللوائح. وقضت المحكمة حضوريا بجلسة ٢١-٤-١٩٩٤ ببراءة المتهمين مما هو منسوب إليهم، لعدم اطمئنانها إلى أدلة الثبوت التى قام عليها الاتهام..

ونذكر أن النيابة العامة شعبة من شعب السلطة القضائية ونائبة عن المجتمع وممثلة له،فهى تسعى دائما إلى تحقيق موجبات القانون على جميع أفراد المجتمع سواء كانت التبليغات أم الشكاوى التى تتلقاها متعلقة بأحد رجال السلطة العامة أو غيرهم من الأفراد، وكان الأحرى بكاتب المقال أن يذكر الحقيقة كاملة بالنسبة للواقعة التى ذكرها دون أن يقف عند القدر الذى أراد أن يذكر للقارىء.. ولا يغفل جهد النيابة العامة فى ممارستها عملها مما لا تسمح بأن يكون مجالا للتشكيك فيه. .

و إزاء ما تقدم نطلب منكم نشر هذا التوضيح فى ذات المكان ومراعاة عدم تكرار مثل هذه المقالات التى لا تتحرى الدقة فيما تنشره .

وتقبلوا تحياتنا . . .

النائب العام

المستشار رجاء العربى

* * *

رد وزارة الداخلية

رجاء الإحاطة بأن جريدة الشعب سبق أن نشرت فى عددها الصادر بتاريخ ٢٦-٥-١٩٩٥مقالا للدكتور محمد عباس تحت عنوان (إنى أرى الملك عاريا) والذى تضمن فى نهايته احتجاز المواطن عبد الناصر عبد الغفار على لسؤاله فى جريمة قتل بقسم أول الزقازيق وتعرضه للضرب وهتك العرض والتعليق على الباب وكهربته واستعمال الشرطة معه جميع أساليب التعذيب .

وتود الإدارة العامة للإعلام والعلاقات إحاطة سيادتكم علما بأنه فور عرض ما نشر على السيد وزير الداخلية ضمن تقرير الصحافة اليومى أشار سيادته بسرعة دراسة موضوع الشكوى وعرضها بأية تجاوزات تكون قد حدثت فى هذا الشأن.

وقد تبين من الفحص أن الواقعة التى تضمنها المقال ترجع وقائعها إلى عام ١٩٩١، حيث اتهم المواطن : عبد الناصر عبد الغفار على ضباط مركز شرطة الزقازيق بتعذيبه لإجباره على الاعتراف بقتل المدعوة هنية محمد أحمد بغدادى، وقد تحرر عن ذلك المحضر رقم ٤٧٦ جنايات مركز الزقازيق سنة ١٩٩٢ وتولت النيابة التحقيق، حيث أعيد قيد القضية برقم ٨٨٣ كلى الزقازيق سنة ١٩٩٢ " استعمال قوة " وحكم فيها بالبراءة بجلسة ١٢-٤-١٩٩٤.

و إضافة إلى ما تقدم أود الإحاطة بأنه بتاريخ ١٨-٥-١٩٩٥ فى إطار حملة أمنية،قامت بها مديرية أمن الشرقية وقسم تنفيذ الأحكام لضبط المحكوم عليهم الهاربين تم ضبط المدعو عبد الناصر عبد الغفار على لصدور عدة أحكام ضده ومعه المحكوم عليه هشام السيد إبراهيم غنيمى فى الجناية رقم ٣٤٠ لسنة ١٩٩٤ جنايات مركز الزقازيق " مخدرات".

هذا وقد تم عرض المحكوم عليه عبد الناصر عبد الغفار على فى الأحكام الصادرة ضده فى القضايا الآتية :

١- القضية رقم ٨٥٢٥ جنح مركز الزقازيق سنة ١٩٩٠.

٢- القضية رقم ٤٩٤٠ جنح مركز الزقازيق سنة ١٩٩٠.

٣- القضية رقم ٦٩٦٧ جنح مركز الزقازيق سنة ١٩٩٢.

القضية رقم ٦٠٤٣ جنح مركز الزقازيق سنة ١٩٩٤.

هذا وقد عارض المذكور فى القضايا السابقة لجلسات ٦-١٠-١٩٩٥، ١٦-١٠-١٩٩٥ ، ١٦-٧-١٩٩٥. وبعرضه على منطقة تجنيد الزقازيق تبين أنه مطلوب بعد عمل بطاقة له وقد أخلى سبيله فى ٢٥-٥-١٩٩٥ بعد التضمين عليه من رجال الإدارة لاستخراج بطاقة تحقيق الشخصية .

ويتبين مما تقدم أن طرح مثل هذه الموضوعات بهذه الصورة من خلال جريدتكم الموقرة من شأنه الإساءة إلى وزارة الداخلية وجهودها التى تقوم بها حاليا من أجل التواصل مع المواطنين وتحقيق المعادلة الصعبة التي تهدف إلى خلق تلاحم فعلى وحقيقى

بين الشرطة والجماهير.

وتأمل الإدارة العامة للإعلام والعلاقات مراجعة قطاع الإعلام بالوزارة قبل نشر مثل هذه الأمور للتأكد من صحتها بدلا من تكذيبها بعد ذلك من قبل الأجهزة المختصة بالوزارة، وذلك حفاظا على العلاقة التى تربط بين الإدارة وجميع أجهزة الإعلام والتى تهدف أولا و أخيرا إلى تحقيق الصالح العام.

رجاء التفضل بالنظر ونشر هذا الرد.

ويسعدنى أن أنتهز هذه المناسبة لأعرب لكم و لأسرة تحرير "الشعب " عن خالص التهانى بمناسبة العام الهجرى الجديد.

وتفضلوا بقبول موفور التحية .

اللواء رؤوف المناوى

* * *

تعقيب على رد وزارة الداخلية :

لا يزال الملك عاريا !!

لا يقل الشكل فى رد السيد اللواء رؤوف المناوى مدير الإدارة العامة للإعلام والعلاقات بوزارة الداخلية أهمية عن المضمون، وكم نود فى الشعب أن تسود هذه الطريقة الحضارية المهذبة والدمثة فى كل تعاملاتنا. لذلك نجد لزاما علينا أن نحيى من الأعماق وزارة الداخلية عليه، راجين أن يستمر، و أن يتناول كل ما يثيره المواطنون من أحداث رهيبة ومروعة تتعلق بممارسات بعض رجال الشرطة، بل وراجين أيضا أن يثبت كذب كل ادعاء عن التعذيب وإهدار حقوق الإنسان والتستر عليه، وساعتها ستكون الشعب أول من يرحب بذلك، وكم سيسعدنا أن نعتذر عما تورطنا فيه إذا ثبت حقا أننا تجاوزنا الصدق .

إننا مع اللواء رؤوف المناوى نهدف إلى الصالح العام، لكننا لو

رجعنا إليه فى هذه الواقعة بالذات لنشرنا نفس ما نشرناه، فسيادة اللواء وقد صاغ رده بذكاء حقيقي، رغم إشارته للتكذيب، لم ينف الواقعة ولا حدوث التعذيب، وتلك نقطة أخرى نحييه عليها، ونقدر له ترفعه عن الدفاع عن ممارسات فئة منحرفة فى وزارته بغير الصدق .

وعندما نعود إلى تفاصيل الواقعة نجد أن الشرطة قد احتجزت المتهم المذكور حيث تم تعذيبه بوحشية، وتنقل مذكرة النيابة عن الضحية قوله إنه تم" وضع وإدخال عصا في دبره ثلاث مرات متفرقات فى يوم واحد " . وعلى إثر بلاغ تقدمت به أسرته إلي نيابة الزقازيق، انتقل رئيس النيابة إلى قسم أول شرطة الزقازيق إلا أن الضباط قاموا بتهريب الضحية إلى نقطة شرطة بردين، وعندما علمت النيابة بذلك بادر رئيسها بمفاجأة نقطة الشرطة حيث شاهد بنفسه الضحية وهو معلق علي الباب فى حالة يرثى لها .

ويوثق التقرير الطبى رقم ٤٨٨ الصادر من مصلحة الطب لشرعى التابعة لوزارة العدل آثار التعذيب : التئام لجروح على الكتف والأذن والإلية والذراعين والساق والقدم اليسرى ، كما لاحظ المدير العام لمصلحة الطب الشرعى - الذى أعد التقرير - عدم قدرة الضحية على تحريك الذراع الأيمن، وإعاقة بالذراع الأيسر .

لم يكذّب اللواء رؤوف المناوى كل ذلك، لكنه ذكر فقط أن المحكمة قد حكمت بالبراءة على الضباط المتهمين . وهذا الحكم بالبراءة، إنما هو إدانة أشد، تطول رؤوسا عديدة فى وزارة الداخلية وخارجها، فالجريمة قد حدثت، ولم تكن النيابة مجرد شاهدة عليها بل كانت هى التى ضبطتها فى وضع التلبس، وتقرير الطب الشرعى وهو جهاز من أجهزة الدولة لا المعارضة يثبت التعذيب . فهل يمكن أن نجد أدلة أكثر من ذلك لإثبات الجريمة ؟ .

لم يجد اللواء رؤوف المناوى سوى حكم المحكمة لا ليرد به بل ليستتر خلفه، وهو يعلم تماما أن المحكمة تحكم بما ترى لا بما تعرف، و أن معنى ذلك الحكم، أن قوة باغية باطشة قد دلست على المحكمة الأدلة، وشهدت أمامها بالزور، قوة كانت ألحن من دفاع المتهم،

والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه يقول : " إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلىّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هى قطعة من النار ".

حكم المحكمة – الذى لم يذكر الرد حيثياته – إذن ليس نفيا للتهمة ولا شهادة براءة من الجريمة ولا تكذيبا لما نشرته الشعب، بل إن هذا الحكم كان يستلزم من وزارة الداخلية أن تعيد بحث تفاصيل ما حدث كله، لا لمجرد اكتشاف الجناة، بل لاكتشاف من ساعدوهم بطمس الأدلة وشهادة الزور كي يفلتوا من عقاب جريمة مؤكدة . لقد نهانا الحديث النبوى الشريف عن قول الزور مقررا أنه من أكبر الكبائر، بل وجعله معادلا للشرك بالله والقتل، وفى حديث عن أنس رضى الله عنه وضعه فى مرتبة أكبر من الشرك بالله، ويذكر الحديث النبوى الشريف أيضا أن من كتم شهادة إذا دعى إليها، كان كمن شهد بالزور.

بقيت عدة نقاط نود أن نختتم بها تعقيبنا :

١– كون الضحية متهم بعشرات التهم لا ينفى عنه صفته البشرية التى صاغها الله فيه، ولا يسوغ مهما كان إجرامه تعذيبه .

٢ – أن الاتهام الموجه إلى الضحية بقضية مخدرات يستدعى إلى الذاكرة ما نشر منسوبا إلى اللواء مصطفى الكاشف الذى عمل لفترة طويلة فى قطاع المخدرات والذى يقرر أن الغالبية العظمى من قضايا المخدرات التى تضبطها الشرطة ملفقة، لا يهدف منها الضباط سوى الحصول على مكافآت، وكنا نأمل أن يشمل رد الوزارة هذه النقطة.

٣– إن سلسلة المقالات التى ترد عليها وزارة الداخلية قد أوردت مئات النماذج الموثقة للتعذيب، وكنا نود أن يشملها الرد، فمعنى عدم الرد خطير.

٤– أن هناك قضيتان على وجه التحديد كنا نود أن يستفيض الرد فى دحضهما، أو فى الاعتذار عنهما، وهما قضية اعتقال الأطفال وقضية الدكتور محمد السيد سعيد.

٥- لم يتطرق الرد الذى استند على حكم المحكمة بالبراءة فى هذه القضية على عشرات من أحكام المحاكم التى أثبتت التعذيب، وذكرت بالنص :" وضع قطع خشبية فى دبر المتهمين "، ووصفت هذه الممارسات بأنها إجرام فى إجرام .

٦- أن الشعب، حين تدين هذه الممارسات الإجرامية الشاذة، إنما تنطلق من تقديرها العميق لدور الشرطة وحرصها على ألا تتسلل إليه لتشوه صورته مثل هذه النماذج السرطانية التى لا علاج لها سوى البتر، مؤكدين أننا بمهاجمتها نعنى أنها شذوذ واستثناءً للقاعدة العريضة من رجال الشرطة، و أن الدفاع عنها إهانة للشرطة، لأنه يعتبرها هى القاعدة.

٧- أننا إزاء دماثة الرد و الأسلوب الحضارى الذى ورد به، كنا نريد أن يتوّج بما تتحلى به النفس اللوامة من حرص على الصدق ولو على النفس ومن اعتراف بالخطأ وعلاجه بالتوبة عنه، لم يكن سيضير وزارة الداخلية أن تعترف قدر ما يضيرها أن تنكر ما يعرفه الكافة، فلو أننا بذلنا فى الوصول إلى الحق عشر مانبذله من مجهود فى الدفاع عن الباطل لرأينا جزءاً من رضوان الله على الأرض .

إلا أن ذلك كله لا يقلل من أهمية رد وزارة الداخلية، وامتناننا وتقديرنا له.

السيد رئيس الجمهورية :

أرفع إليك اختلافى مع سيادة النائب العام لتحكم فيه

هل أنا مضطر يا سيادة الرئيس أن أبدأ حديثي معك بالمديح فيك ؟؟.

هل أنا مرغم على ذبح كينونتى الإنسانية، وإحساسى ككاتب وكمواطن بالكرامة كى أقدمهما قربانا بين يديك ؟؟.

وهل استنزل الرحمات على عصور خوالٍ، لو أننى عشت فيها لتمكنت أن أطلب من فرعون أو قيصر أو كسرى الأمان فيمنحنيه فأقول ما أريد، دون أن تكون آخر كلمة ينطق بها لسانى، هى بالضبط آخر كلمة مسطورة فى كتاب حياتى .

هل الكاتب هو خليفة مهرج الملك إن فشل فى إرضائه وإسعاده وإضحاكه، أو أغضبه، حكم عليه بالموت أو أمر بإلقائه فى غياهب السجون .

وهل أستطيع يا سيادة الرئيس أن أناشدك، لا أن تمنحنى أنا وحدى الأمان، ولا للكتاب والصحفيين فقط، بل لأمتك جميعا .

هل يمكن يا سيادة الرئيس أن تكسر بيت شعر الشاعر – لا قلمه ولا عنقه – فيتحول باب الحرية عن لونه الدامى، ويفتح مغاليقه لأياد غير مضرجة بالدماء.

هل يمكن أن أكتب إليك، و أن أفتح لك قلبى بينما يقبع داخلى شرطى ورجل قانون وسجان، يتربصون بى، لا مجرد أن أتجاوز فى كلمة، بل أن نختلف فى رؤاها كى يطبقوا علىّ القوانين الأخيرة، وهم الذين تجاهلوا القانون وحطموه، عندما كان تطبيق القانون يفيد الأمة، كما حدث فى قضايا التعذيب، وتزوير الانتخابات وإهدار أحكام القضاء، وتجاهل حيثياتها .

هل يمكن يا سيادة الرئيس أن أكتب إليك دون خوف ، فلكم هو مذل ومهين ومدمر أن يخضع الكاتب إذ يكتب لخوف غير خوف خالقه، ولسلطان غير سلطان ضميره، فهو والأمر كذلك إما أن يسجن أو يتحول من كاتب إلى إرهابى، أو إلى مسخ بشرى، لا مبدأ له، ولا حرام عنده، ولا ضمير .

الكاتب يا سيادة الرئيس هو عين أمته الذى بها ترى، و أذنها التى بها تسمع، ووسائل إحساسها الذى بها تحس، وعقلها الذى تستشرف به المستقبل وتخترق الدياجير المدلهمة، فماذا ترى العاقبة لأمة تسمل عينها، وتصم أذنها، وتكبت إحساسها ، وتسجن عقولها .

هل يمكن أن ألجأ إليك، رغم اختلافى معك، فهذا الاختلاف لم يجعلنى أجهل قط، أنك أفضل من كل من حولك، و أن الخلاف معك، بل ومهاجمة سياساتك، أكثر أمنا من الاختلاف مع معظم مرؤوسيك أو مهاجمة سياساتهم .

أنت كبير يا سيادة الرئيس، نحن نراك كذلك، ولذلك نهاجم بمنتهى العنف أولئك الذين لايرونك كبيرا كما نراك فلا يألون جهدا فى محاولة دفعك إلى صدامات لا تنتهى مع فئات الأمة، صدامات لا تستفيد منها الأمة ولا أنت .

أنت كبير يا سيادة الرئيس لكن الله أكبر منك، و إن كان لك علينا حق الطاعة، فإن ذلك مشروط بأن تشاورنا فى الأمر . و أنت مكلف بالعدل فينا حتى و إن عارضناك، مكلف بالعدل حتى فيمن يحمل عليك سيفه فكيف بك مع من لايملك إلا قلمه .

فهل يمكن أن ألجأ إليك، فى اختلاف مع السيد النائب العام، الذى أكن لمنصبه الجليل ومقامه العالى كل إجلال واحترام، ولله الحمد من قبل ومن بعد، أن خلافنا ليس على مظلمة خاصة أو مصلحة شخصية، ولكنه أبعد من ذلك بكثير ، وقد يكون الخطأ فى جانبى، قد يكون لسانى عييًا، وقد يكون بيانى أبيًا وقد تكون حجتى ضعيفة ومنطقى متهاويا، وقد يكون ذلك كله هو السبب الذى جعلني أفشل فى إقناع سيادة النائب العام بخطورة القضية التى لجأت إليه فيها، حين وجهت له عديدا من المقالات، كى يسهم من

أجل الله والوطن والأمة، فى مسح وصمة عار التعذيب عن جيلنا .

لقد كتبت ياسيادة الرئيس - حتى الآن - عشر مقالات متتالية، ست منها فى صحيفة الشعب، وفوجئت على غير توقع برد من سيادة النائب العام ومن وزارة الداخلية . كانت لى مآخذ كثيرة على الردين لكنها لم تنل من قيمة تطور محمود فى الرد بدلا من التجاهل، كان من المآخذ مثلا أن الرد قد اقتصر على حادثة واحدة مما أوردته، حادثة واحدة لم تشغل سوى سطور محدودة، حادثة واحدة من مئات الحوادث، وكنت قد نوهت فى المقالات على أننى لا أنشر سوى نزر يسير مما احتوت عليه كتب وتقارير منظمات حقوق الإنسان، والتى تنوه هى الأخرى أنها لم تنشر سوى نزر يسير مما يحدث فى الواقع ، يقول أحد تقارير المنظمة : " إن ظاهرة التعذيب أكبر من الطاقات المحدودة للمنظمة على التقصى والتحقيق والتوثيق، و أن ما تنشره المنظمة هو مجرد قطرة من محيط، هو مجرد حالات نموذجية موثقة ومحققة تشير إلى أبعاد الظاهرة ومدى شيوعها دون أن تستطيع الإحاطة بكل مظاهرها، والوصول إلى كل ضحاياها "، أى أن مانشرته فى عشر مقالات طويلة، لم يشمل سوى نزر يسير من قطرة فى محيط ، ورغم ذلك لم يشمل الرد سوى سطور محدودة، وفى هذه السطور القليلة لم ينف الرد ما ذكرت، لم ينف التعذيب، كما لم يتعرض مطلقا لماورد فى بقية المقالات ، وبرغم أن رد وزارة الداخلية يعاتب برقة، ورد السيد النائب العام يديننى بحزم، ويحذر الصحيفة التى أكتب فيها، من نشر مقالات لا تتحرى الدقة فيما تنشره مثل مقالاتى مرة أخرى، مقالات تتعمد إغفال ذكر بعض الحقيقية، لاتنشر الحقيقة كاملة، دون أن تقف عند القدر الذى أراد الكاتب أن يذكر للقارىء، ولا يغفل جهد النيابة العامة فى ممارستها لعملها مما لا يسمح أن تكون مجالا للتشكيك فيه .

فى هذه المقالات التى تفضل سيادة النائب العام بالرد عليها كنت قد أوردت ياسيادة الرئيس نماذج مروعة للتعذيب، موثقة من جهات عديدة، منها حيثيات أحكام المحاكم، ومنها تقارير الطب الشرعى وهو هيئة حكومية، ومنها التقارير الصحفية، وتقارير

منظمات حقوق الإنسان، كنت أدرك أننى أخوض فى مجال خطر، الخوض فيه خطر والخطأ فيه أخطر، لا أمام القانون فقط بل أمام الله أيضا، لذلك كنت حريصا فى انتقاء الكلمات والحروف والجمل، لم أنقل إلا ماورد فى تقرير لمنظمة معروفة أو كتاب منشور، وكنت أدرك أن أي تجاوز لما هو منشور وموثق قد يدفع بى إلى السجن، وليس عيبا ياسيادة الرئيس أن يخاف الكاتب السجن وأن يسعى جاهدا لتجنبه، لكن العيب كله ألا يكون مستعدا فى أى وقت لدخوله فى سبيل إعلاء كلمة الله، فى سبيل الحق والعدل والخير والضمير، ثم أننى فى نفس الوقت كنت حريصا على أن يكون سجنى إذا سُجنت، لأنكم ظلمتمونى لا لأننى ظلمتكم.

حرصت أيضا فى معظم ماذكرت، أن أتجنب ذكر الانتماء السياسى، بل و أن تكون معظم النماذج التى أتعرض لها نماذج لا علاقة لها بالسياسة، وكنت أعلم أن التعذيب جريمة لا تسقط بالتقادم، لذلك أسقطت التواريخ، وكان حريا بى أن أسقط أسماء الضحايا أيضا، لولا أننى أردت أن أضرب الأمثلة، كى يبدو الواقع المروع فى صورته الدامية، لم تكن الأسماء تهم، ولا التواريخ، فالقضية ليست تعذيب فرد فى مكان وزمان معينين، بل قضية شيوع المنهج نفسه .

ذكرت فى المقالات بعض وسائل التعذيب التى تمارس -وسأكملها إن شاء الله فى حلقات قادمة - منقولة من كتب وتقارير منظمات حقوق الإنسان، ومن كتب أخرى منشورة، لم تكذبها الشرطة ولم تصادرها السلطة .

ذكرت قصة شاب عذب حتى الموت لعدم امتثاله لأمر ضابط شرطة طلب منه الانصراف من حفل زفاف فتلكأ، وكتبت عن خفيرين من رجال الشرطة ماتا من التعذيب من رجال الشرطة، وكتبت عن المواطن حسام الدين عبد الشافى الذى عذب بقصد انتزاع اعتراف منه بارتكاب جريمة سرقة، وقد قامت نيابة دمياط بمعاينة حجرة ضباط المباحث وأثبتت آثار الدماء الناجمة عن تعذيب المواطن المتهم، كما قامت بتصوير الجثة قبل تشريحها نظرا لبشاعة الإصابات الواضحة بالقتيل ، ومنها خروج جزء من

العين اليمنى للخارج ، وانفصال الساق اليمنى من عند الركبة من جراء التعليق لفترات طويلة، مع انتفاخ بالرقبة ، وكدمات بجميع أجزاء الجسم، وانفجار فى الخصيتين .

كتبت أيضاعما حدث لمواطن فى قسم باب الشعرية، وكتبت عن المواطن مخلوف عبد العال أحمد، وعمره ٢٢ عاما فقد اختطف - هكذا فى نص تقرير منظمة حقوق الإنسان - بواسطة ضباط مباحث قسم الظاهر بالقاهرة بدعوى تنفيذ أحكام صادرة ضده، وهناك تعرض لتعذيب وحشى تعرض فيه للضرب فى مؤخرة رأسه بكعب طبنجة ودبشك بندقية فضلا عن ركله بأحذية الثقيلة فى صدره، ويقول أهله أن ضابط الشرطة فقأ عينه وهتك عرضه وحطم عظامه، وساءت حالته ، فنقل فى اليوم التالى مباشرة إلى المستشفى القبطى، حيث مات . ويشير تقرير الطبيب الشرعى بشأن إصاباته أنها : " : كسر بالجمجمة وضلوع الصدر والجبهة والرسغ الأيسر بسبب الضرب بجسم صلب ".

وتحدثت عن القضية المعروفة بقضية الأطفال الذين ضربوا وأهينوا وحجزوا لمدة يومين، كانت أعمارهم يا سيادة الرئيس تتراوح مابين ست وعشر سنوات ورغم ذلك تعرضوا لذلك الهول كله .

تعرضت أيضا لما حدث لآباء الأطفال، وذكرت ما نشرته صحيفتا الوفد والجمهورية عن أطفال آخرين اعتُقلوا .

كتبت عن أماكن حجز المسجونين والأطفال أيضا، و أوردت ما ذكره تقرير للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان على لسان أحد المحتجزين بقسم شرطة قصر النيل فى أعقاب ندوة نقابة الأطباء عما سمّى بتنظيم الأطفال :" كان هناك نحو خمسين شخصا فى حجرة لا تتعدى مساحتها ٤ فى ٥ أمتار مما اضطر البعض للنوم فى دورة المياه القذرة . من بين المحتجزين لاحظت انفراد شخص واحد ضخم الجثة بنحو ربع مساحة الحجرة يتمدد فيها ويحيط نفسه بمساحة خالية يتصرف فيها، بينما تكدس بقية المحتجزين فى المساحة المتبقية فى وضع القرفصاء، وكان لهذا الشخص الذى يبدو من عتاة المجرمين سطوة بالغة على كافة المحتجزين، وينادى

على بعضهم بأسماء مؤنثة، فيلبون النداء بسرعة بالغة خوفا من بطشه ، كان هذا البلطجي صاحب الكلمة النافذة في شئون الحجز، ويقوم بتأديب بعض المحتجزين في حالة مخالفتهم لأوامره وأحيانا بدون سبب واضح تحت سمع وبصر المسئولين عن القسم من ضباط وجنود الشرطة . بعض المحتجزين، من أصحاب الأسماء المؤنثة كانوا يضطرون لتلبية رغبات البلطجي بممارسة الجنس بالإكراه معهم أمام بقية المحتجزين، و أغلب هؤلاء الضحايا صبية لا تتجاوز أعمارهم ١٥ أو ١٦ عاما ".

لقد تعمدت اختيار نماذج بعيدة عن السياسة، لأنني كنت أريد يا سيادة الرئيس أن أقول أن تعذيب أي إنسان مهما كان انتماؤه ومهما كانت جريمته، هو بنص حكم محكمة : إجرام في إجرام، وأن القائمين بالإجرام مجرمون.

تحدثت عما حدث للأستاذ الدكتور زكريا الشامي حين احتكت سيارته بسيارة ضابط شرطة، وتحدثت عن المضيفة ميرفت عبد الحميد التي حاولت الانتحار من قسوة التعذيب، وتحدثت عن الاختفاء القسري، وعن هتك عرض سيدة وطالب، وتحدثت عن نوارة الانتصار أحمد فؤاد نجم، وعن مصطفى محمد عبد الحميد، وعن نصرة فتحي ابراهيم، وعن العقاب الجماعي وانتهاك القرى وكيفية مواجهة العمال والطلبة، و أنهيت مقالي المنشور بتاريخ ٥ مايو بما حدث للدكتور محمد السيد سعيد، والذي كان قد أصدر بحثا قيما عن سياسة العقاب الجماعي التي تمارسها الشرطة، فقلت:

كان من المقبوض عليهم الدكتور محمد السيد سعيد، الباحث المرموق المعروف على النطاق العالمي، والمحاضر في عدد من الجامعات في مصر والخارج، والمراكز البحثية وبينها الأكاديمية العسكرية التابعة لوزارة الدفاع، والمعهد الدبلوماسي التابع لوزارة الخارجية، وله عديد من المؤلفات وعشرات من الدراسات والمقالات المنشورة .

كان سلاح محمد السيد سعيد القلم والفكر، وكان ردهم عليه جرعات مكثفة من التعذيب . تعرض خلالها للإغماء أكثر من مرة

بسبب عنف التعذيب، سحلوه من قدمه اليمنى عشرين مترا على أرض السجن . أجبر على غمر وجهه أكثر من مرة فى برميل مملوء بالمياه القذرة . استعملوا معه ومع زملائه العصى العادية والكهربائية والهراوات والكرابيج بالإضافة إلى الضرب بالأيدى و الركل بالأقدام وتعرضوا لتهديدات بينها الاعتداء الجنسى فضلا عن توجيه أقذر أنواع السباب لهم استعملوا كذلك الكلاب البوليسية لإرهابهم . أثناء التعذيب الذى قام به عشرين ضابطا يرتدون ملابس عسكرية بين رتبة العميد والملازم أول، فضلا عن عدد مماثل من الضباط يرتدون ملابس مدنية . وكان ثمة ضابط يحمل رشاشا فى تهديد صريح بالموت.

أجبر محمد السيد سعيد وزملاؤه على المرور بين صفين من جنود الشرطة والكلاب البوليسية وراح الجنود يتناوبون ضربهم بالأيدى والأقدام والهراوات والعصى المكهربة .

و تصادف أن وفدا من نقابة الصحفيين قد توجه لزيارة زملائهم المسجونين بعد ساعة واحدة من ضربهم بهذا الشكل الوحشى .

قيل أن مكرم محمد أحمد أصيب بنوع من الانهيار العصبى، وأنه انصرف إلى بيته عازما على الاستقالة من مناصبه احتجاجا صارخا على ما رأى.

لكن السلطة والشرطة صالحاه ، و أفرج عن محمد السيد سعيد دون محاكمة، فلم تكن هناك قضية .

لقد كنت حريصا يا سيادة الرئيس أن أتناول فترة زمنية واسعة، أدلل أن قد تم خلالها تعذيب مروع لمختلف فئات الشعب، ولم يكن ما أكتب حصرا لما تم، و إنما فقط، بلاغا إلى المسئولين بما علمت، و لأننى أعلم أن ما أنشره من وقائع بشع حتى أنه يعز عن التصديق، كما أن موقف الدولة من منظمات حقوق الإنسان قد يكون دافعا آخر لتكذيب ما تنشر، وهو موقف ليس له مايبرره، سوى الرغبة فى الهروب من اللجوء إلى الحوار والمصارحة فى مواجهة مشاكل الأمة . ومن أجل ذلك حرصت على تدعيم ما أقول بالعديد من حيثيات المحاكم وتقارير الطب الشرعى. وكان مما أوردت فى مقال بتاريخ ٢ مايو حيثيات حكم عن التعذيب جاء

فيه:

" إن التعذيب المادى وصل إلى حد وضع قطع خشبية في دبر بعض المتهمين، فذكر أحدهم ذلك، ولعل الآخرين أمسكوا عن هذا القول بالذات، صيانة لأعراضهم من الفضائح " .

" إن ضمير المحكمة ليفزع، وضميرها يجزع، وهى ترى أن أي متهم قد تعرض للتعذيب المادى أو النفسى أو العقلى، ويزداد الفزع ويتضاعف الجزع، أن التعذيب حدث بصورة وحشية فظيعة، كوضع قطع خشبية فى دبر المتهمين، وهو أمر وصفته محكمة النقض فى الثلاثينيات من هذا القرن بأنه " إجرام فى إجرام "، ولا تجد المحكمة فى عصر حقوق الإنسان وزمن حرية الوطن والمواطنين وصفا ملائما تصفه به، ولا تريد أن تتدنى لتصفه بوصفه البشع، غير أنها ترى فى التعذيب عموما عدوانا على الشرعيّة من حماة الشرعية . . . "

وتحدثت عن حيثيات حكم المحكمة فى قضية التعذيب المتهم فيها ٤٤ ضابطا، فحكمت المحكمة ببراءتهم، لأن الضحايا قد عجزوا عن تحديد أي من المتهمين هو الذى قام بالتعذيب، ونعت المحكمة على النيابة تقصيرها فى وقائع التعذيب .

وتحدثت عن منطوق حكم يقول " أن المحقق قد أثبت إصابات المتهم منذ استجوابه وأن جميع المتهمين الماثلين لم ينج أحدهم من التعذيب وأثبت المحققون إصابات بهم كما أكدت التقارير الطبية تعرضهم لابشع أنواع التعذيب من ضرب بالسياط وتوصيل شحنات كهربائية على أجسامهم وموطن العفة من أجسادهم وتعليقهم وهم معصوبو العينين بقصد انتزاع الاعترافات منهم، وتكرارها بعد كل استجواب " وانتهت المحكمة إلى استبعاد كافة الأدلة المستمدة من اعترافات المتهمين باعبارها قد " صدرت تحت وطأة التعذيب بهذه الصورة النكراء التى وردت بتقارير الطب الشرعى " .

سيادة الرئيس : حرصت فيما أكتب لسيادة النائب العام أن أنحى جانبا كل انفعال، و أن أبتعد عن تصوير ماكان يعتمل داخل نفسى من غضب هائل واحتجاج، تاركا لتقارير المنظمات والمحاكم

أن تعبر بأسلوب علمى عما أود قوله .قلت لسيادة النائب العام :

تزعم منشورات المنظمة أن ثمة تعليمات منكم ألا يتم التصرف فى الجرائم المنسوبة إلى أى من رجال الضبط - ضباط مباحث أمن الدولة - ضد الأفراد إلا من خلال مكتبكم . ثم تردف :" إن هذه التعليمات تغل يد باقى أعضاء النيابة عن التصرف فى تلك القضايا وهم ما يمثل استثناء ينافى أبسط مقتضيات العدالة والمساواة بين الأفراد .

يقول تقرير المنظمة المصرية لحقوق الإنسان : لقد تخلت النيابة عن مسئوليتها التى أناطها القانون بها من تحقيق فى شكاوى التعذيب، لتكتفى فى أحسن الأحوال بإثبات آثار التعذيب فى محاضرها، دون أن تقدم مبررا لوجود هذه الآثار المثبتة بتقارير الطب الشرعى فى كثير من الحالات .

و لقد تجلى تخلى النيابة عن اختصاصاتها بالتحقيق فى وقائع التعذيب فى اضطرار محكمة أمن الدولة العليا طوارىء - فى قضية اغتيال الدكتور رفعت المحجوب - إلى ندب عضو اليمين بالمحكمة للتحقيق فى وقائع التعذيب التى تعرض لها المتهمون على ذمة هذه القضية . جاء بنص هذه الحيثيات أنه " رغم أن المحكمة أحالت وقائع التعذيب التى تعرض لها المتهمون إلى النيابات المختصة لتحقيق هذه الوقائع، إلا أنه حتى تاريخ حجز الدعوى للحكم، أى بعد ٣ سنوات من التعرض للتعذيب، لم ترد هذه التحقيقات من النيابة العامة ولم تشأ المحكمة الانتظار أكثر من ذلك حتى لا يتعطل الفصل فى الدعوى " .

و تقول حيثيات حكم محكمة : " إنه تيقن لها أن المدعى قد لاقى صنوفا من العذاب أثناء فترات اعتقاله متمثلة فى ضربه بالعصى والسياط والأسلاك الكهربائية، والحرمان من الطعام والشراب وإطفاء السجائر المشتعلة فى جسده مع تعريضه لصدمات كهربائية فى الأماكن الحساسة فى جسده، وكذا تهديده بالقيام بأعمال غير مشروعة مع زوجته ووالدته".

ذكرت أيضا يا سيادة الرئيس تفاصيل نماذج تقارير الطب الشرعى عن آثار التعذيب .

وتوسلت إلى سيادة النائب العام فقلت : " سامحنى، بل وأتوسل إليك، أن يصدر مكتبك بيانا فوريا تفصيليا يكشف لنا ماغُمّ علينا . فمن المستحيل أن تكون الأمور بكل هذه البشاعة التى توردها تقارير منظمات حقوق الإنسان، وتؤكدها حيثيات أحكام المحاكم وتقارير الطب الشرعى لا مجرد أقوال الصحف . أتوسل إليك، من أجل هذه الأمة، وفى سبيل الله، و أتوسل أيضا إلى رئيس الجمهورية ومجلس القضاء الأعلى، والمحكمة الدستورية العليا، ومحكمة النقض، و أتوسل إلى كل كاتب ومفكر فى هذا البلد ."

قلت لسيادته : لكننى أعلم ياسيادة النائب العام أن هذه الوقائع لايمكن أن تكون قد اتصلت بعلمك، لا دون رد فقط، بل دون أن تقلب الدنيا على رؤوس الجبابرة .

سيادة الرئيس :

كان قلبى إذ أكتب لسيادة النائب العام ينزف، وكنت أدعو الله أن يستجيب لندائى، و أن يصدر بيانا شاملا جامعا يرد على كل هذا لا على واقعة واحدة، لم أتجاوز حين نشرتها الصدق قيد أنملة، والشاهد على صدقى فيها رئيس النيابة، لم يشمل الردان أيضا ما ذكرته منسوبا إلى تقرير منظمة حقوق الإنسان المزلزل : " إن تقاعس النيابة فى إجراء تحقيق سريع وعاجل فى بلاغات التعذيب، أو طول المدة التى تستغرقها التحقيقات ، وتأخر عرض المجنى عليهم على الطب الشرعى يؤدى إلى إفلات المسئولين المتورطين فى جرائم التعذيب من المساءلة والعقاب الرادع، كما يؤدى إلى إهدار حق المجنى عليهم فى إثبات آثار التعذيب، حيث أفضى تقاعس النيابة فى هذا الصدد من جانب ومماطلة مصلحة السجون فى الإحالة إلى مصلحة الطب الشرعى من جانب آخر إلى زوال المعالم الإصابية أو التئامها . . . "

تحدثت أيضا عن سحب المعتقلين من السجون، وعن تفتيش النيابة عليها، حيث يزعم العديد من المعتقلين أنهم طوال شهور عديدة لم يلتقوا بأعضاء النيابة العامة .

كتبت أيضا : " لقد شاهدت النيابة نفسها بعضا من الإجرام

الذى يحدث " .

ثم تحدثت عن الواقعة الأخيرة، وهى الواقعة الوحيدة التى تصدى لها الردان معا !، رد النائب العام ورد وزارة الداخلية، اتفق الردان على الاقتصار على نفس الواقعة فى مصادفة أصابتنى بالإحباط، وهى واقعة ما حدث للمواطن عبد الناصر عبد الغفار على، الذى قامت النيابة نفسها بضبط الشرطة أثناء قيامها بتعذيبه، وقلت :

احتجزت الشرطة المتهم : عبد الناصر عبد الغفار على : ٣٤ عام فى قسم أول الزقازيق لسؤاله في جريمة قتل، حيث أجبر على خلع ملابسه، وتم تعصيب عينيه بقطع قماش وتقييد يديه من الخلف وتعليقه على باب و الضرب بعصا خشبية - ساق كرسى - وخرطوم سميك مبطن على الرأس والظهر والمؤخرة والقضيب الذكرى والقدمين وقصبة الساقين . وتنقل مذكرة النيابة عن الضحية قوله إنه تم " وضع وإدخال عصا في دبره ثلاث مرات متفرقات فى يوم واحد "، و أن الضباط غرسوا إبرة معقوفة فى معصم يده اليمنى ثم قاموا بتوصيلها فى بالكهرباء، مما سبب آلاما مبرحة، كما صعقوه بالكهرباء، خلف الأذنين وفى حلمة الثديين والأعضاء التناسلية .

وعلى إثر بلاغ تقدمت به أسرته إلي نيابة الزقازيق، انتقل رئيس النيابة إلى قسم أول شرطة الزقازيق إلا أن الضباط قاموا بتهريب الضحية إلى نقطة شرطة بردين المجاورة، وعندما علمت النيابة بذلك بادر رئيسها بمفاجأة نقطة الشرطة حيث شاهد بنفسه الضحية وهو معلق علي الباب فى حالة يرثى لها . ويوثق التقرير الطبى رقم ٤٨٨ الصادر من مصلحة الطب لشرعى التابعة لوزارة العدل آثار التعذيب .

فهل كان يمكن ياسيادة النائب العام أن تجد النيابة على شيوع التعذيب دليلا أوضح من ذلك ؟؟.

هل كان يمكن ؟؟!!.

وهل هو ممكن ألا تتخذ قرارا تهتز له الأمة كلها، لا إزاء هذه

القضية فقط بل إزاء جريمة التعذيب، والمجرمين المرتكبين لها، والمجرمين المتسترين عليهم ؟.

إننا لا نريد أن نصدق ما أوردته صحيفة متحالفة مع الحكومة ، وبرغم ذلك تقول أنه بات من الصعب التفريق بين النيابة والشرطة !!".

ولأننى أدرك خساسية أجهزة الدولة تجاه صحيفة الشعب، و أن ما يُقبل من غيرها لا يُقبل منها، فقد ذكرت أن هذه الجملة مقتطفة من صحيفة أخرى، وبرغم ذلك كانت هذه الجملة محل عتاب فى رد السيد النائب العام، لم أشأ حين نشرها ذكر اسمها فالأهم هو فحوى ما ينشر ويقوله الناس .

سيادة الرئيس :

عندما وصلنى رد من وزارة الداخلية انشرح قلبى لما ذكره الرد من اهتمام وزير الداخلية شخصيا بما ورد فيه، وكنت معجبا أيضا بذكاء الرد الذي لم ينف واقعة التعذيب، وكان عتابى أيضا، والذى وددت أن يسفر الحوار البناء عن تلاشيه، أن الرد اكتفى بهذه الواقعة وحدها من كل مانشرت، وأنه لم يجب عن السؤال الجوهرى: من الذى عذب المتهم الذى شاهده رئيس النيابة وهو يعذب، والذى وصف تقرير الطبيب الشرعى مابه من إصابات ؟! وهل نجحت النيابة وقد شاهدت بعينها الجريمة فى أن تمسك بالمجرم ؟ السؤال الأهم هو : من المسئول أيضا عن التعذيب فى كل القضايا الأخرى، ليس مئات القضايا بل الألوف المؤلفة .

كنت أعلم أن ما أنشره يصيب بعض قطاعات الشرطة، وكنت مستعدا للقبول على المستوى الإنسانى بمحاولة لدحض ما أقول أو لتخفيف وقعه فى رد يأتى من الشرطة التى كنت أشكو بعض قطاعاتها . بل ورأيت فى مجرد الرد قبولا بالحوار، عدم اعتبار ما حوته سلسلة مقالاتى كفرا يعاقب عليه بالنار أو اعتداء على المحرمات أرجم بسببه .

وبقدر ماكانت سعادتى يا سيادة الرئيس برد وزارة الداخلية كان إحباطى من رد سيادة النائب العام، فهو المشكو إليه لا منه،

ولم يكن لى حيلة ياسيادة الرئيس فى ذكر صرامة حيثيات أحكام المحاكم عندما تعرضت للنيابة العامة ولم أكن أستطيع أن أخففها .

لست أخفى عنك ياسيادة الرئيس إحساسى على المستوى الشخصى بالجرح من سيادة النائب العام، إحساسى بأنه يزدرينى، ويتهمنى بالـ: " الإغفال المتعمد " ، و "عدم ذكر الحقيقة الكاملة "، و " عدم تكرار مثل هذه المقالات التى لا تتحرى الدقة فيما تنشره "، لكننى ياسيادة الرئيس تجاوزت سريعا عن الجرح الشخصى، محتسبا عند الله ما يحيق بى، ومدركا أن سيادة النائب العام لو أحالنى إلى المحاكمة طبقا لنصوص القانون الجديد الذى يرفضه الصحفيون والكتاب والأمة، ولو اقتنعت المحكمة بهذه الاتهامات لكان الحكم سجنا لا يقل عن خمسة أعوام . و أن سيادة النائب العام - من وجهة نظره - قد يكون رحيما بى وبمعشر الكتاب كأرحم ماتكون الرحمة، حين يقتصر على هذا الرد الحازم .

بيد أنى يا سيادة الرئيس حين تجاوزت الخاص إلى العام، إلى القضية التى بدأت هذه السلسلة من المقالات من أجلها، وجدت نفسى غير قادر على مواصلة الحديث إلى سيادة النائب العام، لالجرحى منه، بل لأننى أحسست بالعجز عن إقناعه، كما أن الأمر لايستقيم حين أكتب إليه ما اعتبره سيادته : مقالات لا تتحرى الدقة فيما تنشره . والحقيقة أننى أختلف مع سيادته فيما ذهب إليه، ولم أجد سواك يا سيادة الرئيس من أرفع إليه هذا الاختلاف ليحكم فيه .

لقد كان اقتصار الرد على واقعة واحدة من كل الوقائع التى كتبت عنها مثار إحباطى .

وكان توافق الرد مع رد وزارة الداخلية فى الاقتصار على واقعة واحدة من كل ماذكرت مثار دهشتى.

وكان اتهامى بالإغفال المتعمد لذكر تاريخ الواقعة - واقعة المتهم عبد الناصر عبد الغفار - مهيجا لشجونى، فأنا لا أعرف هذا المتهم قط، ولم أذكره بين مئات الأمثلة إلا لكى أثبت لسيادة النائب العام أن التعذيب يحدث، غير أن رد سيادته قد أضاف جزئية لم أكن أعرفها حين يذكر " أن الواقعة حدثت فى الفترة من ١٩٩١/١١/٥

حتى ١٩٩١/١١/٢١"، لقد حدثت الواقعة إذن، واستمر حدوثها ستة عشر يوما، ولقد كان موقف النيابة فيها عظيما ونبيلا، وقد أشرت إلى ذلك حين سردت الواقعة، ولقد قام رئيس النيابة بمفاجأة نقطة شرطة بردين التى هربه الجناة من رجال الشرطة إليها، وشاهده بنفسه معلقا، وفى حالة يرثى لها كما يذكر تقرير للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان، ولم ينف رد سيادة النائب العام كل ذلك بل يقول : أن النيابة بادرت بالتحقيق فى الواقعة و إجراء تفتيش... وقامت بإثبات إصابات المجنى عليه وعرضه على الطب الشرعى ... وقدمت المتهمين من الضباط والشرطة السريين الذين اقترفوا الواقعة إلى محكمة الجنايات ، لقد احتوى رد سيادة النائب العام على كل ذلك بل وما هو أكثر، فقد كانت التهم التى وجهتها النيابة للمتهمين من رجال الشرطة كما يتفضل خطاب سيادة النائب العام بسردها هى : جناية تعذيب، جناية هتك عرض بالقوة، جنحة القبض والحجز . ويذكر الرد أن المحكمة قد قضت حضوريا بجلسة ١٩٩٤/٤/١٢ ببراءة المتهمين مما هو منسوب إليهم، لعدم اطمئنانها إلى أدلة الثبوت التى قام عليها الاتهام .

لكن . . . . هل معنى حكم المحكمة أن الواقعة لم تحدث ؟؟!!

لقد تعرضت فى تعقيبى على رد وزارة الداخلية إلى أن القضاء يحكم بما يرى لا بما يعرف . وما يراه القضاة هو ما يقدمه إليهم رجال النيابة والشرطة من أدلة وشهود، ومن جهد لبتر كل من يحاول أن يؤثر على سير التحقيقات .

و أقرر هنا أن جريمة بهذه البشاعة تحدث، ويضبطها رئيس النيابة بنفسه ويراها بعينيه، ثم لا يتم التوصل فيها إلى الجناة تصيبنى بالرعب من عجز آليات المجتمع عن حفظ كرامة الإنسان و إقرار العدالة .

ماذا يحدث إذن فى الأماكن الأخرى . . ؟؟

سأقوله لك يا سيادة الرئيس، وسوف أعاتبك أيضا إن أذنت : ألم تكن هذه الجرائم المروعة، ومن يرتكبونها من حيوانات بشرية مجرمة أكثر قسوة وبشاعة من الوحوش الضوارى، أولى بتشديد قانون العقوبات بدلا من من قوانين تسجن الصحفيين و تغلق

النقابات؟!.

سيادة الرئيس :

أرجو أن تأذن لى بأن أوجه إليك مباشرة ما كنت أنتوى توجيهه إلى سيادة النائب العام، لا مجرد رد فعل للجرح الذى أصابنى من رد سيادته، ولا مجرد عزوف عن اختلاف مع النائب العام أدرك خطورته، ولكن الأمر أبعد من ذلك و أشد هولا، أمر يضعنا أمام إشكال قانونى خطير لا يملك البت فيه سواك يا سيادة الرئيس.

فالنيابة صادقة لا شك فى ذلك . .

وحيثيات أحكام المحاكم صادقة ولا شك فى ذلك أيضا، لكنها تشير فى إحدي القضايا إلى عدم اطمئنان ضمير المحكمة إلى محاضر تحقيقات النيابة، و إلى أن وكيل النيابة بدا كما لوكان يمنع عن المتهم الاستعانة بمحام، و أن المطاعن التى كانت توجه إلى محاضر تحريات مباحث أمن الدولة قد استطالت حتى وصلت إلى محاضر تحقيق النيابة، مثل الاتهام بعدم الحيدة، وعدم إثبات كل الأقوال، والتهديد بالإيذاء، ومجاملة رجال مباحث أمن الدولة (من كتاب : دفاعا عن حقوق الإنسان، الناشر المنظمة ومركز الحضارة العربية للإعلام والنشر،صفحة ١٣٤).

لا نلقى القول على عواهنه إذن يا سيادة الرئيس، وما نقول إلا الصدق، سيادة النائب العام يقرر أن النيابة قامت وتقوم بدورها، وحيثيات حكم محكمة تقول ما ذكرت، كلاهما صادق إذن، لكن ثمة تعارضا بين الصدقين، وهذا التعارض ينبىء عن فتق بالنظام لا يملك رتقه سواك، إنه ليس أمر النيابة والقضاء الآن بل هم الأمة ودعائم المجتمع الذى وليته، لذلك أرجوك و ألح فى رجائك، أن تشرك معك فى التصدى لهذا الخطب : المحكمة الدستورية العليا ومجلس القضاء الأعلى ووزير العدل والنائب العام وكبار المفكرين.

منذ ستين عاما يا سيادة الرئيس كانت قضية واحدة مثل هذه القضية كافية لإسقاط الحكومة كلها، فهل تأذن لى أن أروى لك ذلك.. إن يشأ لى قاهر الجبابرة . . المعز، المذل، المهيمن، الملك. . . الله الذى

لا شريك له والذى يأمرنى أن أقول، فهل تسمح؟ هل تسمع؟ هل تصدع؟.

وهل يتيح أبناء الأبالسة المتكأكئين حول كل سلطان لى المجال كى أقول ؟.

* * *

سيادة الرئيس :

ماذا أقول لك ؟.

ماذا أقول لك ؟!.

كيف أستطيع أن أسمعك صوتى وابن سبأ بينك وبينى . . . .

تتردد فى حنايا الذاكرة أصداء حوار حزين :

" والله ما أدرى ما أقول لك، ولا أعرف شيئا تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه، إنك لتعلم ما أعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه " . . . " فالله الله فى نفسك، فإنك والله ما تُبَصَّرُ من عمًى، ولا تُعلَّم من جهالة " . . . " و إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى فى جهنم فيدور فى جهنم كما تدور الرحى ثم يرتطم فى غمرة جهنم "

بدأت الفتنة الكبرى يا سيادة الرئيس فى تاريخ الإسلام والمسلمين بشيطان فى بطانة ذى النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان منع تواصل الحوار بينه وبين جمهور الأمة، شيطان تجسد فى بشر اسمه عبد الله بن سبأ، وشياطين آخرين أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف . كانوا فى بطانة ذى النورين، وهو من هو، فلا تستكبر ياعبد الله يا رئيس الجمهورية أن يكون فى بطانتك شياطين سوء يدفعوننا جميعا إلى حيث بئس المصير .

كم سيفا من سيوف آلة الشياطين تشحذ الآن لذبحى بعد قراءتهم صدر مقالتى لك، و أى شيطان سيزين لهم سوء ما يزمعون حين يعرفون أنى ما قلت إلا ما قاله إمام المتقين على بن أبى طالب لذى النورين عثمان بن عفان .

ليس السيف ملكك يا سيادة الرئيس بل هو مرتهن لديك، زمن لك و أزمنة عليك، فانظر لغدك ، فالحكم يتعشى به قوم ويفطر عليه آخرون .

إننى أضع أمر التعذيب الآن أمامك، لا أستطيع مجرد تصور أنك تعرفه وتسكت عليه، كما لا أقدر على خداع نفسى بأنك لا تعلم. فهو تعذيب يدمر الأمة ويزلزل دعائم مشروعية أى حكم . فى تعذيب أقل من هذا بكثير منذ نيف وستين عاما صرخ العملاق عباس محمود العقاد : " لقد فضح الحكم فى قضية البدارى شيئا قليلا من أوزار هذا الزمان، ولو افتضحت كل أوزاره لعجب الناس - فى غير هذه الأمة - كيف بقيت في نفوس المصريين سورة للعدل ونخوة للغضب الشريف " . وكانت حيثيات الحكم فى القضية تقول " متى انتهكت الحرمات على هذه الصورة لم يقم للنظام فى أمة قائمة، أليس فى هذه الأعمال الشنعاء احتقار للشعب بتمامة . . . . "

التعذيب هو الاحتقار حقا ياسيادة الرئيس وهو الازدراء بالشعب بتمامه وهو - لا حرية القول والنشر - مايجب أن يسهر مجلس الشعب حتى الصباح كى يسن القوانين لمنعه فيرفعها إليك فتمهرها لساعتك فينشرونها فى عدد خاص من الجريدة الرسمية فى نفس اليوم .

تواصل حيثيات حكم المحكمة قولها أن التعذيب :

" أفظع من الاعتداء على الحياة، لأن الأمة لا تكون أمة حقا إلا إذا تكاملت أخلاقها وتمتعت بحريتها فى حراسة القانون " .

ما حدث فى البدارى أيامها يا سيادة الرئيس لا يكاد يُقارن بما يحدث الآن ، فلا تندهش إذن للصخب والعنف بل اندهش لكل هذا الصمت، ترى هل دمر ما يحدث من بعض المنحرفين فى النظام ماحذر منه العقاد وما تنبأ به، وهل انتهت فى نفوس المصريين سورة العدل ونخوة الغضب الشريف .

كان أحمد جعيدى - كما يخبرنا صلاح عيسى - مواطنا من البدارى، مثل عبد الناصر عبد الغفار ومخلوف عبد العال وزكريا

الشامي وميرفت عبد الحميد وحسام الدين عبد الشافي ومحمد السيد سعيد ومحمد عفيفي مطر ومئات و آلاف ممن ذكرت وممن لم أذكر، وكان مأمور المركزضابط شرطة اسمه يوسف الشافعي. كان يسيطرعليه إحساسه -كمعظم أقرانه - بالتفوق والقوة والتعالي وربما الازدراء لمجتمعة، كان ضابطا كبيرا في جهاز الشرطة الذى يسود أفراده إحساس بأنهم السلطة الحقيقية والدائمة في الوطن، فالملك هو الملك، يتغير اسمه ورسمه لكنه يبقى هو الملك، والوزراء يأتون ويذهبون والمحافظون يتغيرون ويتبدلون أما الثابت الدائم مع الملك فهم تلك الشبكة من ضباط الشرطة التي تنتشر كخيوط العنكبوت فوق رقعة الوطن . وكان يوسف الشافعي كوزيره الجلاد اسماعيل صدقي حريصا علي أن يبدو أمام الجميع نموذجا للحاكم المخيف الذى يرهبه الجميع . ومن سوء حظ المواطن أحمد جعيدي أنه لم يعجبه فوضعه على قوائم المشبوهين، حيث كان يقاد إلي مبنى المركز ليتولوا عملية تأديبه، ليضرب بالسياط ومؤخرات البنادق ويجبر على أن يقول " أنا مرة " ويطلق عليه المأمور اسم حمدية ويجبره أن يجيب إذا نودى به، ويربط بالحبال إلى مرابط الخيل، ويوضع أمامه التبن ويؤمر بأكله ومضغه، ويمتطى الجنود ظهره، كما لو كان فرسا، ثم يضعون عصا في دبره .

وقرر أحمد جعيدى أن يثأر لكرامته . . فتربص بالمأمور وأطلق عليه الرصاص فقتله ..

وأحيل أحمد جعيدى إلى محكمة الجنايات التى حكمت باعدامه وأحيل إلى ملف القضية بعد الحكم بالإعدام إلى رئيس محكمة النقض : " عبد العزيز فهمي باشا، وكان من رعيل القضاة العظام الذين حفلت بهم مسيرة القضاء في مصر . . ولأسباب قانونية معقدة لم يكن من سلطة عبد العزيز فهمي باشا أن يلغى الحكم، فقبله على مضض ليوجه إلى الحكومة لطمة أصابتها فى الصميم . لقد عبر عن دهشته إزاء ما اعتبرته محكمة جنايات أسيوط من أن ما كان يفعله المأمور القتيل إنما هو من قبيل أداء الواجب، ووصفه بأنه " تعليل فاسد يقوم على أساس مرتبك غير صحيح " لأن محكمة الجنايات : " اعتبرت شذوذ المأمور القتيل الإجرامى من

قبيل قيام الموظف باداء واجبه مع أن البداهة تقضى بأنه شذوذٌ يُحْفظُ كل إنسان، ولو كان مجرما، ويدعو إلى معذرته والتَخفيف من مسئوليته إذا هو سلك سبيل الانتقام . "

وأضاف عبد العزيز فهمي باشا . . : " إن المعاملة التى كان المجنى عليه يعامل بها المتهمين هى إجرام فى إجرام، ومن وقائعها ما هو جناية هتك عرض يعاقب عليها القانون بالأشغال الشاقة، وكلها من أشد المخازى إثارة للنفس واهتياجا لها، ودفعا لها للانتقام " " إن مثله الذى أوذى واهتيج ظلما وطغيانا، والذى ينتظر أن يتجدد هذا الإيقاع الفظيع به، لا شك إذا اتجهت نفسه إلى قتل معذبه ، فإنها تتجه إلى هذا الجرم موتورة مما كان منزعجة مما سيكون، والنفس المنزعجة الموتورة هى نفس هائجة أبدا، لا يدع انزعاجها سبيلا لها إلى التبصر والسكون، حتى يحكم العقل هادئا متزنا، مترددا فيما تتجه إليه الإرادة من الأغراض الإجرامية التى تتخيلها قاطعة لشقائها . "

كان على ماهر وزير عدل . . – ترفع عن محاولات إفساد القضاء وعن لعب دور هارون الرشيد فى وصف بارع ورد على لسان المستشار يحيي الرفاعى – . . . وكان الطاغية الجلاد اسماعيل صدقى رئيسا للوزراء وزيرا للداخلية . وبدأت الأخبار تتسرب عن اختلافهما حول الطريقة التى تتعامل بها الحكومة مع حيثيات حكم محكمة النقض . أصر على ماهر على الاستجابة للمحكمة بالطريق القانونى الوحيدالمتاح وهو استصدار أمر ملكى بتخفيف العقوبة، ورأى الجلاد أن توصية محكمة النقض غير ملزمة . ولم يرضخ وزير العدل لضغوط رئيس الوزراء، وانفجرت الفضيحة على صفحات الصحف فلم تكن الممارسة ممارسة مأمور شرطة بل ممارسات النظام . . وبدأ الكاتب الجبار عباس محمود العقاد سلسلة من المقالات العنيفة ضد النظام كله ، ورفع وزير العدل التماسا إلى الملك بتخفيف الحكم . . وأمر بإجراء تحقيق فى كل ملابسات القضية يشمل الذين تولوا تحقيقها، ومن كانت لهم صلة بوقائعها من رجال النيابة أو الإدارة لتحديد المسئولية الإدارية والجنائية ومحاسبة الذين تثبت ضدهم تهمة التعذيب أو تهمة الإهمال فى تحقيق شكاوى المتهمين . . وعلى الفور بدأ

التحقيق، وحاول إسماعيل صدقى أن يتم التحقيق من خلال رجاله . . ومرة أخرى تصدى العقاد لما حاول به الطاغية الجلاد أن يجرى تحقيقا مزورا يبرئه . كان النظام هو المتهم وهو القائم بالتحقيق . وفجأة تحركت الأمة كلها . . وانهالت علي وزير العدل آلاف الشكاوى عن السلوك الإجرامى لبعض رجال الشرطة .

واحتدم الخلاف بين الجلاد وبين وزير العدل المصرٍّ علي موقفه من ضرورة التحقيق فى كل البلاغات وطلب الجلاد من الملك فؤاد التدخل، حاول الملك فعلا إثناء وزير العدل عن تشدده مع رئيس الوزراء . . فقال له على ماهر :

- إننى لو كنت مكان أحمد جعيدى، وفعل بى المأمور مافعله فيه، لقتلته أنا أيضا . .

ولم يشأ الملك فؤاد أن يتدخل فى سير العدالة . . . !!!

حتى الملك لم يشأ ياسيادة الرئيس أن يلوث عهده بدنس محاولة التأثير على القضاء . . حتى الملك . . .

أما موقف النائب العام فقد كان - ومايزال - وسام فخر ومنارة كبرياء أبىّ نبيل، يرى العدل الذى يمثله، الذى اؤتمن عليه، يسمو فوق كل هامة حتى هامة رئيس الوزراء والملك، و أبى الرضوخ لأي ضغط ولو حتى بمجرد تأجيل المحاكمات حتى تنتهى الأزمة .

وكان ثمة وزير آخر . . حقيقى . . هو وزير الخارجية الذى تضامن مع وزير العدل، وزير خارجية يا دكتور أسامة الباز، يا واحدا من أفضل الوجوه فى المؤسسة الحاكمة، يا سيد مدرسة إنقاذ ما يمكن إنقاذه، أيها الذكى الهادىء النظيف القادر حتى الآن على التجول فى شوارع القاهرة دون حراسة ودون خوف، وزير خارجية أدرك أن المسئولية فى الحكم متضامنة شاملة، و أن العار الذى يدنس أحد أطراف النظام الحاكم يمس كل أفراده ، فكلهم مسئول، وزير خارجية يا دكتور أسامة الباز . . . ويا دكتور عمرو موسى أيضا .. وزير خارجية رفض امتهان كرامة إنسان ولو كان قاتلا...

وإزاء موقف وزير العدل ووزير الخارجية اللذان رفضا المساومة

فى حقوق الإنسان رفضهما المساومة على شرفهما الشخصى، اللذان لم يستجيبا حتى لوساطة الملك، اضطر الجلاد إلى إعادة تشكيل الوزارة وإخراجهما معا من الوزارة الجديدة .

وراح الطاغية يحاول أن يثبِّت أركان حكمة الذى اهتز بعنف إزاء ما حدث . . لكنه إزاء المجهود العنيف والتوتر البالغ سقط مصابا بالشلل النصفى . . ليسقط بالوزارة كلها بعد ذلك .

يا سيادة الرئيس : لقد كان أحمد جعيدى قاتلا لضابط شرطة، ورغم ذلك سقطت بسبب تعذيبه الوزارة كلها وتغير نظام الحكم ، والملك فؤاد لم يشأ أن يصمه التاريخ بالتستر على تعذيب . .

ولقد ذكرت فى هذه المقالات أسماء أبرياء، فعل بهم أسوأ مما فعل بأحمد جعيدى مئات المرات . .

لا سلامتك - رغم أنها مطلب غال - ولا استمرارية النظام - الذى ندعو الله ونحاول بالقانون أن تنقطع - يا سيادة الرئيس كانتا تقتضيان ذلك، فبالعدل لا بالظلم يُؤمّن الحكم .

حتى الفرعون رع مس سو (رمسيس الثالث) عندما تعرض لمؤامرة أصيب فيها إصابة كبرى كادت تقضى على حياته جاء فى أمره لتشكيل المحكمة التى أمرها بمحاكمة محاولى اغتياله " نحن رمسيس الثالث سيد هليوبوليس وملك الأرض قاطبة فى الشمال والجنوب وسيد ما عليها من الناس والحيوان أقول : . . . .
وعند قيامكم بهذه المهمة عليكم أن تبذلوا الدقة والعناية حتى لا توقعوا العقاب ظلما بمن لا يستحق العقاب ."

لم أضرب لك الأمثال يا سيادة الرئيس بمثل مافعله عمر وعلى رضي الله عنهما، وهما يريان قاتليهما يمشيان على الأرض فلا يستحلان حتى اعتقالهما توقيا للاغتيال، لم أضرب الأمثال بذلك، ولن أقص عليك تفاصيله رغم أنه حقى وواجبك .

هل أقص الآن عليك يا سيادة الرئيس ما يحدث فى عهدك لمجرد الاشتباه، ما أوردته الكتب المنشورة لمنظمات حقوق الإنسان عما يحدث للمعتقلين فى معسكرات الأمن المركزى، ماحدث مثله أو بعضه أو كله أو غيره على سبيل المثال - سبيل المثال لاغير لأهالى

قرية الكوم الأحمر -، وهو بالمنطق أهون مما يحدث فى لاظوغلى أو فى السجون ، تقول هذه الكتب :

قبل التعذيب توضع الغمامة علي عيون الضحايا، ثم يجبرون على الجري بالضرب بالعصا فيسقطون على السلالم عدة مرات، وقبل دخول الغرفة المخصصة للتحقيق يجرى ما يسمى " تسخين الضحية " للتعذيب بالضرب على القفا والوجه والإلية بالعصا . وتستهدف أسئلة المحقق الحصول على المعلومات مع اللجوء إلى السب والتوبيخ والتهديد بهدف تحطيم المعنويات . ثم يبدأ التعذيب بعد نزع ملابس الضحية، وتستخدم الأساليب التقليدية المعروفة فى التعذيب من الضرب بالسياط والكابلات الكهربائية والتعليق في أوضاع مركبة من المعصمين لأعلي مع رفع القدمين قليلا عن الأرض، أو فى وضع " الشبح " أو " الذبيحة " أو " الخروف المشوى " واستخدام الصدمات الكهربائية فى أجزاء حساسة من الجسد كالخصية والأعضاء التناسلية واللسان وحلمتى الثدي وشحمة الأذنين ومقدمة الاصبع فضلا عن نتف اللحية وشعر العانة، وغالبا مايجري عقب جولات التعذيب أو ما بينها صب مياه ساخنة على جسد الضحية ثم إجباره على الوقوف عاريا أمام مروحة أو تيار هوائى .

تستخدم أيضا كهربة المياه كوسيلة فى التعذيب وذلك بوضع الضحية عاريا فى حجرة مغطاة بالمياه بارتفاع حوالى خمسة سنتيمترات بحيث تغمر أقدامه، ثم توصل المياه بالكهرباء، فتسرى الكهرباء في جسد الضحية المبتل، فيقفز لأعلي ليسحب قدميه من المياه لكنه سرعان ما يهبط، ليصعق مرة أخرى، وهكذا دواليك حتى يفقد اتزانه بفعل الكهرباء والإرهاق فيسقط بجسده كاملا في المياه فيصاب برعشات متتالية فيقطعون الكهرباء، ثم يجبرون الضحية على الوقوف مرة أخرى، لتتكرر دورة التعذيب .

ولكى لا يتعرف الضحية علي المكان الذى يعذب فيه فيما بعد يعمدون أحيانا إلي إيهامه بعلامات مختلفة فى الطريق بعد تعصيب عينيه، فيوهمونه أن أمامه سلك شائك يجب عليه أن يحنى رأسه ليتفاداه، ثم يجبر على المرور فى بركة مياه، ثم

يستقل عربة تجوب به داخل المعسكر نحو نصف ساعة لتضليله وإيهامه بأنه خارج المعسكر .

من الوسائل الشائعة أيضا فى التعذيب : " المرتبة الكهربائية " وهى عبارة عن مرتبة من الإسفنج مبللة بالماء يُربط بها الضحية ثم توصل بها الكهرباء فتسرى في جسده .

كما تستخدم المياه المثلجة في التعذيب خاصة فى الشتاء القارس حيث تصب على جسد الضحية ورأسه بعد تعرضه لجرعات مطولة من التعذيب لفترة قد تصل إلى ٨ ساعات . وعقب التعذيب يودع الضحية فى زنازين الحبس الإنفرادى بعيدا عن بقية المعتقلين لإدخال الرعب على الضحية الذى يكون بمعزل عن الجميع . ومن ناحية أخرى فإن طول غيابه يزيد من مخاوف زملائه المعتقلين الذين يجهلون مصيره . .

ومن وسائل التعذيب التى استخدمت في بعض المعسكرات تجريد الرهائن من زوجات الهاربين من ملابسهن، ووضعهن عراة مع متهمين عراة داخل حجرة مغلقة . . "

هل قرأت يا سيادة الرئيس، يا دكتور عمرو موسى، يا دكتور أسامة الباز، يا شيخ الأزهر، هل قرأتم ؟ .

أما من واحد، واحد فقط قرر الاستقالة احتجاجا .

آلة الشيطان هذه لم تكن مجردة لحماية سيادة الرئيس ولا النظام، ففى أحداث قرية الكوم الأحمر على سبيل المثال - المثال لا الحصر كيلا أفاجأ برد يقول أن الأحداث انتهت بحكم بالبراءة - توصلت المحكمة للتصور الصحيح للحادث وهو أن الأمر لا يعدو مشادة عادية حدثت بين ركاب السيارة الملاكى ومعهم الضابط النقيب نصر ابراهيم والسيارة الأجرة التى يركبها مواطنون ليس معهم ضابط شرطة . . ولولا الغطرسة التى أصابت ركاب السيارة الملاكى وبصحبتهم هذا الضابط لكان من الممكن أن يمر الأمر مرورا عاديا . . لقد تساءلت المحكمة : " ألم تصل إلي مسامع الشرطة صرخة المتهم الثامن وهبه كامل جمعه والأربعة عشر فردا من أسرته والذين يعولهم وبعدما أصبحوا دون عائل .

وذكرت حيثيات الحكم أن المحكمة ما كانت تتمنى أن تعرض عليها مثل هذه القضية أو غيرها التي تكون فيها كرامة المواطنين وحقوقهم فى كفة وهيبة الشرطة فى الكفة الأخري، وأنه فى جميع الأحوال لابد أن يسود حكم القانون، ولا تتردد المحكمة في إعطاء الحق لأصحابه، وفي هذه القضية كان الحق والقانون في جانب المتهمين . لقد اكتفت وزارة الداخلية باعتذار الأهالى للتنازل عن الدعوى، لكن القضاء الشامخ الجليل أبى إلا أن يدين ماحدث : "وإذا كان ما حدث هو أن وزارة الداخلية وأجهزتها اكتفت بمجرد اعتذار من الأهالى والمحامين فلماذا حدث كل ما جرى وما مبرره ؟ هل لأن حملة التأديب قد انتجت ثمارها وأتت أكلها من وجهة نظر الشرطة بعد البطش بالبلدة وأهاليها رجالا ونساء وبعدما حاق بالبلدة وأهليها من قهر وبطش، فأرادت أن تضيف إليهم مهانة الإعتذار وذل سؤال الصلح والغفران من جرم لم يرتكبوه حتى يكونوا عظة وعبرة لغيرهم من المواطنين الذين تسول لهم أنفسهم أن يجأروا بالشكوى ممن ظلمهم ونالو على يديه تنكيلا واضطهادا . ."

هكذا قالت المحكمة ياسيادة الرئيس فى حيثيات حكمها الذى صدر يبرىء جميع المتهمين ، أو على الأحرى الضحايا ، فاسمح لى أن أتساءل : هل أحالت النيابة إلى المحاكمة الطرف الجانى، الطرف الذى لم يكن الحق فى صفه، وهل حققت فيما حدث لأهل القرية من تعذيب، وهل نال المجرم جزاءه .

سيادة الرئيس : هل تريد جملة واحدة تجمع لك أسباب كل مايطلقون عليه كلمة الإرهاب، جملة تجعلك لا تستنكر المدى الذى بلغه الإرهاب بل تندهش لأنه لم يعمّ الوطن كله، جملة تجعلك تدرك ما أحس به وما يحس به غيرى من أن أى ادعاء بالقضاء على الإرهاب هو محض زيف، فهو رابض وكامن طالما لم نجتث بالدين و القانون والعقل والضمير ونظام الحكم القوى العادل الديموقراطى أسبابه، كامن ليكون انفجاره بعد حين أقوى : إليك بهذه الجملة يا سيادة الرئيس :

" إننى لو كنت مكان أحمد جعيدى، وفعل بى المأمور مافعله فيه، لقتلته أنا أيضا . .".

يا سيادة الرئيس : ربما يستطيع حتى الآن محبى جمال عبد الناصر و أنور السادات الادعاء بأن الرئيس أيامها لم يكن يعرف بتفاصيل ما يحدث فى المعتقلات، وهو ادعاء لا نستطيع التعليق عليه إلا ببيت الشعر الشهير :

إن كان يدرى فتلك مصيبة ... و إن كان لايدرى فالمصيبة أعظم.

ولكن محبيك ياسيادة الرئيس لن يستطيعوا استعمال هذا الادعاء الباطل بعدك، فنحن نشهد أن عهدك قد حفل بنوع من الحرية، يتميز به عن سابقيه، حتى لو قال البعض أنها حرية الصراخ، حرية : سندعكم تقولون ما تشاؤون فدعونا نفعل ما نشاء، وهذه الحرية تجعل تفاصيل التعذيب أمامك واضحة جلية يضج منها شعبك ويرتاع منها العالم وترددها وسائل إعلامه، و سوف يحين يوم بعدك تنفجر الأسئلة فيه كالنزيف وتنهمر كالسيل وتشتعل كالنار عن حجم التعذيب فى عهدك مقارنا بالعهود الأخرى، عن قسوته وبشاعته مقارنا بالعهود الأخرى، عن الأعداد مقارنة بالعهود الأخرى، عمن قُتلوا فى عهدك لا يعلم إلا الله من منهم فى الجنة ومن فى النار، عن عدد من أُعدِموا وروِّعوا واتُّخِذُوا رهائنا، هذا فضلا عن آلاف الأسئلة الأخرى .

هل تعتقد أن الإجابات سوف تكون فى صالح عهدك يا سيادة الرئيس .

دعنى أقولها لك فإننى والله واحد من قلة يصدقونك القول، دعنى أقولها لك فقد تغير فيك أمرا فتكون وجاءً لك من النار يوم القيامة، دعنى أقولها لك حين يمكن أن تنفع بدلا من أن يقولها الملايين للتاريخ ولات ساعة ندم، فدعنى أقولها لك عبر هذه القصة المحزنة :

لقد مكثت طويلا أرقب تساؤلا يثار كل آن و آخر، كان التساؤل يقول : فى ضوء المحصلة النهائية هل كان من الأفضل أن تقوم ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، أم كان الأفضل أن يستمر النظام القديم بكل عيوبه ليتم التطور الطبيعى من خلاله . منذ أربعين عاما كان النظر إلى من يثير هذا السؤال يشبه النظر إلى مهرطق زنديق،

منذ ثلاثين عاما تحولت الإدانة المطلقة ونفى الآخر إلى إدانة نسبية وثقة تدارى شروخها بازدراء السائل و " أعطونا الفرصة وسوف ترون "، منذ عشرين عاما تحول موقف الإدانة والهجوم إلى موقف تبرير ودفاع و إلقاء اللائمة على الظروف المعاكسة والآخرين، منذ عشرة أعوام تحول الدفاع والتبرير إلى صمت وذهول، الآن يا سيادة الرئيس، بعد كل ما حدث وكل ما يحدث، لم يكن هناك سائل ومجيب، لم يعد هناك سائل ومجيب، انكفأنا على نفوسنا، انفصمنا وانقسمنا، و أمسى السائل هو المجيب، كنت أحادث ضابطا من الضباط الأحرار الذين ضحوا ذات يوم بأرواحهم من أجل الثورة، وكان الرجل عظيما فى حزنه جليلا فى أساه وهو يقول:

لقد بكيت طويلا لأننى شاركت فى الثورة التى وصلت بالوطن والأمة والنظام إلى ماصاروا إليه، ليتنى ما شاركت فيها، ليتنا ما قمنا بها .

رحت يا سيادة الرئيس أواسى الرجل، ترددت فى مسامعى أصداء عزف ناىٍ حزين وكبحت دمعة، تخايلتْ لمرآىَ صورة التاريخ - وقد تجسد - تنزف، أحسست بجزء من قلبى يموت، وبعينى وقد أصابها البوار تُنْزَعْ، وبطرف من أطرافى وقد استشرى فيه السرطان والعفن ولم يعد - بموافقتى ورضاى - مناص من بتره . كان قلبى ينزف مع قلب الرجل وهو ينزف، لكننى لم أقل له أننى أتخيل الأمة كلها تفعل بنفسها مايفعله بعض الشيعة بأنفسهم فى عاشوراء من جلد وتعذيب للجسد وصرخات ندم ، فى ذكرى كربلاء، ورحت ياسيادة الرئيس أنادم الألم . . . . فى كرب و بلاء . . . . . !!!

أيحسب أن لن يقدر عليه أحد . . .*

لم أشهد ما حدث أخيرا، رواه لى الثقاة، حين جاء أحدهم مرتعبا مذهولا يقول وهو يرتجف :

– لقد رفض الرئيس رد قانون الصحفيين إلى مجلس الشعب، ولقد بدا فى التليفزيون معتدا بنفسه، صارما حادا باترا، بالغ القوة، مخيفا . . .

ثم أردف قائلا بعد صمت متوتر :

– تذكرت السادات بعد قرارات سبتمبر . . نفس القوة والثقة والعنف . . . . .

أفعمتنى المرارة، وغبت عن حديث الصديق فى خضم من الذكريات علقمى المذاق، أنا المقهور، العاجز ، حزين القلب، منكسر النفس، منعدم الحيلة، فاقد القدرة على التواصل معك يا سيادة الرئيس، العاجز – رغم محاولاتى – عن فهمك أو أن أجعلك – رغم أملى فيك – تفهمني . . لم يروعنى هاجس السادات فقط، فثمة ثقة أخرى، كانت جبارة ماحقة مطلقة، تلك التى كانت تبدو على وجه عبد الحكيم عامر وقادة الفرق قبيل الهزيمة الساحقة المروعة، والتى ظننت من حينها أن مصر قد تعلمت الدرس أبد الدهر، و أنها لن تسمح مرة أخرى بكبت رأى مهما كان تجاوزه، ولا بالخوف من شخص مهما كان جبروته ، و أنها إن عاقبت، ستعاقب ذلك الذى يُخفى رأيه، كى لا يحدث للأمة مرة أخرى كارثة مروعة مذلة ومهينة كهزيمة ١٩٦٧، والتى كنت أنت يا سيادة

* كانت الصدمة هائلة، فمن كنت أستغيث به، انضم إلى من أستغيث منه، بل وحمل هو الراية، ليصدّق على العصف بالصحفيين وجعل حبسهم وجوبيا إلى مدد تصل إلى خمسة عشر عاماولم يكن على الكاتب إزاء ذلك، إلا أن يرفع هو الآخر راية، الراية البيضاء.

الرئيس واحدا ممن مسحوا عنا جزءاً من عارها، و إن لم نستطع حتى اليوم أن نمحو آثارها . . . .

لست بمدع أن حبي لك في بدايات حكمك كان جليا، ولم أكن حينئذ ولم يكن معظم المصريين ينتظرون منك الكثير، لذلك لم نغامر بالإفراط فى الأمل فيك، فقد كان موت الأمل قد بات عندناأقسى من ألم الموت، لذلك لم نغامر، لكننا أيامها أحسسنا بأنك منا ، مصري عفيف طيب بسيط نزيه زاهد عازف عن السلطة، يعرف أن الكفن ليس له جيوب . . . كنت أرى في السادات "يزيد" فتمنيت أن تفعل مثلما فعل معاوية الثاني حين استُخلف بعده، فرفض الخلافة مقرا بأن بني أمية قد اغتصبوا الحق مَن أهله وليسوا له بأهل . . . ورحت - في خيالي - أستحثك كى تقدم لأمتك يدا ستذكرك بها أبد الدهر، بأن تنهي حكم العسكريين لمصر، ليتولاه مدنيون يكون الحوار معهم بالأفكار والكلمات لا بالسياط واللكمات، عندما لم تفعل ذلك ياسيادة الرئيس، لم أسارع إلي لومك، فقد كنت واثقا كما لو أنك وعدتني، من أنك ستتولى الحكم أعواما قليلة، عامين مثلا، أو ثلاثة أعوام على الأكثر، توقف فيها الإنهيار، وتتصدى للفساد، وتلغي القوانين السيئة السمعة، المسيئة إلى نظام الحكم، ستدرك الجيش، درعنا وحصننا وملاذنا، أنك لن تسمح أبدا أن تتسع الهوة بينه وبين جيش أعدائنا، خاصة، أنك توليت المسئولية وهو لا يقل عن الجيش الإسرائيلي قوة، بل لقد قلتم لنا أنه أقوى. قلت لنفسي أيضا، وأنك وقد ظللت الرجل الثانى على القمة أعواما، تدرك غوايات السلطة، وكم تُفسد، وكم تحوِّل الأتباع والخدم والحاشية إلى فاسدين ومفسدين، بل والأشقاء والأبناء والأصهار أيضا ، و قلت لنفسي أنك لن تسمح أبدا أن يحدث في عهدك مثل ذلك، وأيامها، أيد وجهة نظرى تلك، ما رحت تؤكد عليه، أنك عازم ومصمم على الاكتفاء بفترة واحدة فى الحكم...

وعندما أحلت آل السادات إلى المحاكمة بذات القوانين التي ابتدعها سيدهم لحمايتهم، هتفت في أعماقي : لا إله إلا الله سبحانه، يمهل ولا يهمل، وكنت واثقا من أنك وعيت الدرس كما وعته الأمة، وكان يسعدنى، ويدغدغ مشاعرى، أنك وقد وعيته لا

يمكن أن تقع فيه . كنت واثقا أيضا من أنك قد وضعت على عاتقك، وأقسمت بينك وبين نفسك، أن تطهر البلاد من الفساد ومن البذاءة والكذب، أن تقضي على الرشاوي، واستغلال السلطة والعمولات وإهدار المال العام التي راحت تنهش في جسد الوطن كما يأكل الصدأ الحديد .

ورحت أمنّي النفس بعهد زاهر، وأتخيل أن تقوم في بلادنا بين يديك أول انتخابات غير مزورة طيلة العهود الأخيرة . فأنت لابد قد أدركت، أن تزوير الإنتخابات هو الخطيئة الكبرى، وهو العار، والسبيل إلى كل المفاسد، وأن مزور الانتخابات والساكت عنها، أشد سوءا من الديوث الداعر، لأن أثر إثم الديوث الداعر عائد عليه، بينما أثر تزوير الإنتخابات اغتصاب للأمة بأسرها، كنت واثقا أنك في ظلال السلطة، قبل أن تتولاها، رحت ترقب وتدرك المتناقضات، وكنت أتخيل أنك رحت مثلي كي تطفيء الضريم المتأجج داخلك حزنا وغضبا واعتراضا على ما يحدث للوطن، أنك رحت تقرأ نفس الكتب التى طفقنا فى ذلك الوقت نقرؤها، تلمسا لعزاءٍ عزّ، أو أملا فى أن تفسر لنا بعضا من سبب الكابوس الذى نعيشه ..

رحت تقرأ مثلا قول نابليون : " إنني أرهب صرير الأقلام أكثر مما أرهب دوي المدافع "، ولعلك قلت لنفسك مثلما قلت لنفسي أنه لا يخشى حرية الصحافة إلا الطغاة الجبارين الذين يوردون أممهم موارد التهلكة، ولعلك رددت على مقولة نابليون بمقولة جيفرسون: " إنني أفضل أن أعيش في بلد ليس فيه قانون وفيه صحافة حرة على أن أعيش في بلد ليس فيه صحافة حرة وفيه قانون " .

قلت لنفسي أنك لابد مؤمن بأن الصحافة الحرة هي حارس الدستور، فإذا اختفى الحارس إمتلأ الدستور باللصوص . وأنه لا يلجأ إلى قمعها إلا أنظمة فشلت في تقديم رغيف الخبز والكرامة فتلجأ إلى حرمان الإنسان من الصراخ بأنه مظلوم و جائع . كنت واثقا يا سيادة الرئيس أنك ضد نظرية الصحافة السلطوية، التي ترى أن الشعب مخلوق تابع لسيطرة الحكام الذين يتمتعون بحق إلهي مقدس يعطيهم الحق فى التحكم والاستبداد بالعمل الاعلامي

للمحافظة على الوضع الراهن والقيادة السياسية في البلاد التى ترتكز الصبغة القانونية للحكم فيها على جند كثيف من الشرطة واحتياطى هائل من الجيش لقمع أي محاولة سلمية لتغيير النظام، وفى وضع كهذا، يصبح الرئيس -أو الملك - هو رئيس التحرير الفعلى فى صحف الدولة، وهو المسئول الأول عن كل عمل وكل قانونٍ وكل قرار، وكل أجهزة الدولة ومؤسساتها ليست إلا عرائس ودمىً يعبث بها ماشاء له الهوى ويحركها كيفما شاء ت إرادته .

كنت أعلم بصورة ما أن الرئيس يدرك أن الصحيفة ليست ورقة تقرأ ثم تطوى، ولا هى أبنية ومطابع، وإنما هى أولا وأخيرا -على حد قول د . جيهان المكاوى فى كتابها : حرية الفرد و حرية الصحافة : الهيئة المصرية العامة للكتاب - قصة كفاح بين السطور لتحويل المعانى المضطرمة فى قلب الكاتب وعقله إلى حروف، ثم لتحويل هذه الحروف فى ذهن القارىء مرة أخرى إلى معانى مضطرمة تصوغ وجدانه .

كنت واثقا أن الرئيس سيدعم حرية الصحافة لا طبقا لاقتناعاته الشخصية أو اقتناعات المحيطين به، بل طبقا للمعايير الدولية التى توردها المعاهد الدولية المتخصصة فى الصحافة، مثل المعهد الدولىّ فى زيورخ .لم أشك - أيامها - أنك يا سيادة الرئيس تعلم أن الدكتاتورية ليست أقل خطرا من الإرهاب والفوضوية، وأنه لا سبيل لقطع الطريق على الدكتاتورية سوى حرية الصحافة، ذلك أن القانون في المجتمعات الديموقراطية خادم للحرية بينما هو في المجتمعات الدكتاتورية سيف مسلط عليها، تدعمه صحافة خائنة تتفادى ذكر الحقائق أو تذكر أنصاف الحقائق أو أكاذيب فاضحة. وكنت واثقا ياسيادة الرئيس أنك تدرك أن دور الصحافة الحرة -وصحافة المعارضة على وجه خاص - هو دور المفتش العام الذي يراقب أعمال المؤسسات الأخرى لكشف إنحرافاتها وتقويمها، وأنك لن تسمح أبدا بصحافة خئونة لا تجرؤ على القيام بدورها خوفا من تدعيم السلطة للمنحرفين القادرين على إيذاء الصحافة والصحفيين بل واستصدار القوانين لقمع الكتّاب وإغلاق الصحف . وكنت أدرك ياسيادة الرئيس أن الوضع

في بلادنا وضع خاص، حيث حضارة الماضي العريقة وانحطاط الحاضر، فكل فئة من الفئات تستطيع أن تجد في الماضي مثلا أعلى وقيما معيارية ونوعا من الخبرة السابقة ما عدا الصحفيين، وذلك خطير، لأنه إذا انحرف أطباء اليوم ومهندسوه فإن أطباء ومهندسي الأجيال القادمة سيجدون في الماضي جذورا أما صحفيي المستقبل فلن يجدوا جذورا إلا في الصحفيين الحاليين، ومن هنا تأتي خطورة محاصرتهم، دفعهم إلى الذل والجبن والخنوع والنفاق إيثارا للسلامة.

وكنت ياسيادة الرئيس واثقا أنك لن تسمح أن تكون الصفوة المثقفة من الصحفيين الشرفاء معزولة، فهي محرومة من القبول الإجتماعي من الجماهير لأنها لا تؤثر على القرار إن كتبت أو تحدثت، ومن ناحية أخرى لا تظفر بثقة حكومات ومؤسسات يديرها أفراد لا يتمتعون بالكفاءة والنزاهة .

كنت على يقين من أنك تدرك أن الحرية ألزم للصحافة من الحبر والورق، وهي بدونهما مجرد حبر وورق، وأنها – حين تكون حرة – هي المعبر الحقيقي عن رأي الأمة، الذي يظل، حين لا يجدها، ينتظر الثورة أو تغيير الحاكم، ليتحول إلى رأي عام سلبي خاضع غير قادر على التعبير عن وجهات نظره تجاه مصالحه الأساسية .

ولابد أنك تعرف ياسيادة الرئيس أنه حتى ميكيافيللي نفسه قد تراجع عن رأيه بحكم الفرد المطلق الذي نادى به في كتابه " الأمير " ليقرر في كتابه " المحاضرات " أنه من أنصار الحرية وسيادة الشعب . ربما أدرك أن منع الحوار والحرية والنقد اغتيال للصالح العام ولمصالح الأمة . . . وأن عاقبة ذلك الحتمية هي الثورة كأسلوب عنيف للتعبير عن الرأي العام حين يرسخ في ضمير الناس أنه لا جدوى من الكلمات، حين يكون الحكام في واد ومصالح الأمة والوطن في واد آخر كما يقول الدكتور سعيد سراج في كتابه : " الرأي العام " . وحين رحت يا سيادة الرئيس تكتشف سلبية المواطنين ، حسبت أنك قد عرفت أسبابها وجذورها لا مجرد ظواهرها، فحين يسود القهر والتسلط وتفرض القيود على الحريات ويعجز الشعب عن التعبير عن وجهة نظره ، تتفشى

مظاهر رفض الأمة للنظام التسلطي، للحاكم الملك الرئيس الأمير الخليفة الذي يسعى إلى خلق رأي عام مزيف موالٍ لحكمة، يسعى إلى خلقه ثم فرضه على أمته بادعاء أنه يمثل الإرادة الحقيقية لأغلبية الشعب

وكنت أدرك أنك لابد تدرك أنه كلما تعطش الجمهور إلى الأخبار لحبسها عنه كلما راجت الشائعات .وكنت أمني نفسي أنك عندما كنت نائب رئيس قد قرأت كثيرا في مختلف فروع العلم والثقافة، ولابد أن يكون مما قرأته توصيف علم الإجتماع السياسي لأنواع الحكام، الذين يسوسون الأمم، بل و أنك لا بد قد أعملت قريحتك وذهنك المتقد لكى تضيف إلى القائمة الطويلة أنماطا أخرى من الرؤساء والملوك، فمنهم :

الزعيم : وهو الأب الروحي للشعب، باق في أذهان الجماهير عبر السنين بغض النظر عن وجوده علي مقعد الحكم أم لا،أو حتى حياته وموته .

القائد : درجة أقل من الزعيم، يحتاج إليه الشعب وقت الأزمة ليخرجه منها .

الموظف : لا يترك أي أثر في البلاد، شخص عادي ليس زعيما ولا قائدا، كل صفاته أنه يملك الأغلبية – التي قد تكون مزورة – التي أوصلته إلى الحكم . إنه ليس إلا مديرا للبلاد .

التابع : إنه أقل حتى من مدير كفء للبلاد . وصل إلى منصبه بالتعود دائما علي أن ينفذ أوامر رئيسه دون اعتراض، دون ابداء رأي، فقد القدرة على تكوين رأى مستقل، وعندما يتولى هذا التابع شئون البلاد متقلدا منصب الرجل الأول يصبح خطرا، إنه يظل دائما يبحث فى خياله عن رئيس. وفى الدول الديموقراطية تقوم المؤسسات بدور هذا الرئيس، أما فى الدول الدكتاتورية فإنه يبحث عن رئيس له فى الخارج، حتى لو كان عدوا للبلاد، يلبى أوامره، ويطيع تعليماته وينفذ مخططاته، ويكون مقياسه الوحيد في النجاح ليس رأي شعبه فيه ولا إنجازاته لوطنه بل تقدير رئيسه الجديد، الأجنبى، ذلك التقديرالذى يزداد كلما فرّط فى حقوق شعبه.

اللص : وهو أشد سوءا من رؤساء العصابات، فهو يملك الجيش والشرطة، ورجال الدين، والإعلام، قادر على أن يستر كل جرائمه، وأن يبطش بكل من يردد ما تنشره وسائل الإعلام في الخارج عن فساده، عن نهبه للمال العام وتخريب الإقتصاد .

كنت أتخيل يا سيادة الرئيس، عندما كنتَ نائبا للرئيس أنك رحت تعبّ من القراءة عبا، لتعرف الكثير عن نفسية الرئيس، لا السادات فقط، بل كل الرؤساء فى العالم، وأنه لابد أن يكون ضمن ما قرأت كتاب : " قطاع البطولة والنرجسية فى الذات العربية للدكتور على زِيعور – دار الطليعة بيروت " لابد أنك قد انبهرتَ به كما انبهرتُ، وأنت تتابعه وهو يشرح ذاتنا العربية، متابعا نفسية الرئيس في جذورها الأولى، فى شيخ البلد أوالعمدة أو شيخ القرية، حين يسير ليلا، وأمامه حامل القنديل وحوله دراويشه وأتباعه المطيبون، كلما نطق الشيخ كلمة هتفوا : "أحسنت" ، حين تكون لذة الشيخ والدرويش معا فى الطاعة العمياء والرضوخ الأكثر . ولابد أنك رحت تتابع المؤلف وهو يحاول التعرف على شخصية الرئيس، انفعالاته الواعية واللاواعية، أن تدرسه، تقرأ مشيته، استعماله ليديه،أقواله وأفعاله، صوره فى الصحف والمجلات والتلفزيون، ثيابه، طعامه، ابتسامته، تحياته، ملامح وجهه وانفعالاته، نوع العلاقة التى يقيمها مع اعوانه المقربين، مع المحكومين عموما، العلاقة فى سلوكه بين القول والتنفيذ، المثال والواقع، تعامله مع القوى مع الضعيف، صوته الذى يلقى به خطب، حين تسعى وسائل إعلامه باستخدام الأجهزة إلى أن يكون صوته يقرع كالسياط، ضخم أجش عال غليظ، فذلك يترجم في تراث اللاوعى إلى الرجل القوى القادر الخارق . ويغطى الرئيس بذلك على عجزه وعلى فشله .

ثم إن الإذاعة والتلفزيون يكرران خطاباته دونما ملل، نظرا لما فيها من فوائد للشعب، وتنوير للأمة، ثم تنشر الصحف كل ذلك وتعيد نشر مقاطع منها نظرا لأهمية المحتوى اجتماعيا ووطنيا وقوميا وبشريا، بل إن الصحف تنشر أن خطب سيادته تتصدر الصحف الأجنبية، ونشرات الأخبار ويواكب ذلك كله، تصفيق حاد، إستجلاب للإعجاب بالإكراه والإيحاء والحيلة واللامنطق . وهو في

الصحف الأجنبية، ونشرات الأخبار ويواكب ذلك كله، تصفيق حاد، استجلاب للإعجاب بالإكراه والإيحاء والحيلة واللامنطق . وهو في خطبه، مصطنع للمترادف، طنطنة وجعجعة وتطويل وإطالة، واستعمال اليد والإشارة والصوت إستعمالا تهويليا .

لابد أنك يا سيادة الرئيس دهشت - مثلي - من قراءة د. علي زيعور، ولابد أنك واصلت بعد دهشتك القراءة : إن الرئيس لا يمرض، وهو طويل العمر، عافاه الله، إن تعبه لا يكون بسبب عوارض الدنيا ولكن بسبب سهرة على راحة المواطنين . إنه يمشي في خيلاء، يلقي التحية باستمرار حتى لو لم يكن هناك أناس، ثم إن له صور متعددة، يأخذ الحجم المناسب في الوقت المناسب، وتكون الصور ضاحكة ومتجهمة، واعدة ومهددة، باسطة اليد دامغة الجبين، عزيزة مرهوبة، على الطوابع البريدية واللافتات والجدران، في الصحف والتليفزيون، وهذا الشبق الذاتي يتوازى مع العهر السياسي، ومع عهر الذات إزاء الذات، إنها دعارة فكرية وعوارض خصاء ذهني .

ثم يتحدث د . علي زيعور عن معاملة الرئيس لخصومه :

الآخرون أشرار ملاعين مشبوهون، مشهرون وزمرة ومجرمون وهم (الـ : ما يُسَمَّى)، إنه لا يذكر اسم العدو الداخلي إلا بنعت كريه يمجه الإنسان الدهمائي . تغطيه كلامية يقينية إطلاقية وإزاء ذلك العدو يصبح الوطن هو الرئيس : الوطن العزيز والوطن الشريف وعنوانه الحرية والكرامة والعزة والرفعة . . . وبمدح الوطن هنا يمدح الرئيس نفسه فهو رمز الوطن .

و عندما يهاجم خصمه نلحظ أن الرئيس يتكلم بلسان الجماعة فيقدم الخصم عدوا لتلك الجماعة وللوطن والأمة وللإنسانية، لا يؤخذ الخصم على أنه معاد للرئيس وللوطن فقط، بل على أنه محاول لاغتصاب الثروة والسعادة واللقمة والأمن من أفواه الجماهير، ودائما يكون الخصم ماكرا وسافلا ولئيما وخائنا ولصا ويكون هدفه زعزعة الجبهة الداخلية والوحدة الوطنية من جانب عناصر الفتنة وأهل البدعة والكفرة، إن أولئك الخصوم سفلة متعاملون مع دول أجنبية، ومعنى تعاملهم مع دول أجنبية إيحاء

للناس بالاحتماء بالوحدة الوطنية، والالتفاف حول السلطة القائمة لإحباط التآمر والفتنة والكرب والغمة والهدم، إنه يحتمي بوحدة الأمة . إنها تنفير من المعارض وجذب إلى ولي الأمر، في دفاع عن الذات . ويرى الرئيس بعد ذلك أن على الشعب أن يطيع، بل أن يذهب إلى ما بعد الطاعة . . . إلى التفاني والإخلاص في سبيل القائد البطل المنقذ .

وهذه العلاقة بين الرئيس / الملك والشعب هي علاقة غير متوازنة، فهي ليست مخلخلة لصالح الرئيس فقط، ففوق ذلك أيضا هى غير معقولة، يطلب أن يحبوه، يحترموه، أن يقبلوا به وأن يكرهوا خصومه، أن يؤمنوا بأقواله ووعوده وأن يتبنوا نظرته للوجود ولله وللسلطة، فكأن نوعا من السادية الذهنية موجودة عند الرئيس، يطلب اللذة في إكراه الآخرين على إقامة علاقة جيدة معه . .

ثم يواصل د. علي زيعور حديثه عن علاقة الرئيس بالقوى المختلفة :

علاقة الرئيس بالجيش غير متزنة فالجيش صديق وعدو، حام وغول، رغبة ورهبة، إن مصدر الأمن هو نفسه مصدر القلق، ويترتب على ذلك ثنائية متناقضة : تعزيز الجيش ونزع الذخيرة منه، يعيِّن قادة مخلصين : والكفاءة والإخلاص قل أن يجتمعا . في كل من رؤسائنا حجاج قابع أو وحش رابض، دائم الإستعداد للقفز والانقضاض جاهز باستمرار لشك مخالبه في الفريسة، إن ذلك التوتر الذي يشكو منه الرئيس هو عصابة الذي يبقه مشدودا .

أما عن العلاقة مع الأجنبي . . فلأن الأجنبي أقوى وأكثر تقدما فإن ذلك يترسب في وعي الرئيس ولا وعيه، وذلك التسلط والإكراه للأجنبي عليه وعلى وطنه يخلقان التوتر عند الرئيس . تخلخل إستقراره، تفقده الشعور بالرضا والكرامة . وكي يستعيد الرئيس التوازن فإنه يتشبه بقاهره . وهكذا يظهر الرئيس قويا متسلطا عنيفا . لكن على الضعفاء في شعبه، على خصومه الداخليين . إن الكلمات الرنانة والصوت الفخيم وعشرات الأحاديث للإذاعة والتليفزيون والصحافة تدل كلها على انشطار

وعجز داخلي وواقع أليم وانهزام، إنها رد على إحباط . تكييف تعويضي سلبي ملتو مع مشكلة الرئيس، وهي تكشف عن عدم توازنه وتستكشف طرقه اللاواعية في توفير السعادة لنفسه . إنه يقلد الأدوار، يجرحه الأجنبى ويستهين به فيجد العزاء والتعويض في أن يجرح من هم أضعف منه من بني وطنه . . إنه ينتقم لنفسه بأن يقسو عليهم .إنه يختزل الواقع إلى كلمات . والشعب إلى خادم مطيع . رئيسنا (هكذا فى النص) يزين الواقع لينسى العجز ويغطي الفشل . يحل وهميا كى ينتقع للحظة من المديح، يضخم كي يعزينا، ويكذب كي يهرب .

و يحيط بمثل هذا الرئيس نخبة كاتبة مطيعة : تخلق أوهاما وتمحو حقائق، تطمس وتزور وهم مزيفون أو مخلصون يؤمنون له حقه، أو يؤمنون له التغطية لما مضى والتبرير لما سيأتي أو سيفعله، إنهم يفعلون ذلك بروح الحماس المتقد، بتوقد وتوهج، ويكون الصدق قليلا وطلب ثقة الناس بالباطل للبطل كثيرا . ومن السهل على تلك الفئة تبرير الشيء ونقيضه سويا . ومن السهل أيضا انتقال تلك الفئة من بلاط رئيس إلى بلاط عدوه إذا تقلد الحكم، أو من أفكار معسكر إلى مواقف مناقضة تماما.

و إلى جانب هؤلاء نجد القابلين بالأمر الواقع والمسوغين له . يرتضون الظلم والقهر والحيف والظلم تحت وطأة الخوف من قدوم الأسوأ، أو من الانقسام في جسد الأمة . ثم أن الرئيس وقد أحيط بكل هؤلاء ضعيف الحس بالواقع، لا يرى . لا يستطيع بل ولا يود أن يرى الواقع ، لا يقبل أن يعرف أن الوقائع تجرى لا كما يود، بل وفق قوانين ترتبط فيها المقدمات بالأسباب بالنتائج، بالنتائج، إن الأكثرية لا توافقه فيمحوها، والديموقراطية تناقشه فيسجنها والحرية نور فيطفئها . يواكب هذا كله عملية غسل مخ منظمة بالكذب، تعمل الأجهزة على إحداث النسيان لحالات معينة وعلى توليد تذكرات جديدة، العمل على خلق ذاكرة جماعية تقدس الرئيس، لا تكتفي بمجرد قبوله . فالتقديس مطلب ملح لأنه يلغي النبض والحس الواقعي . لا مجالس شيوخ ولا أمة ولا شعب ولا شورى وإنما مجلس الأتباع والمؤيدين .

وفى ظل مثل هذا الرئيس تكون الانتخابات معروفة النتائج سلفا ، فهى تهدف إلى خدمة الرئيس . وتكون للزينة والاستعراض وإشغال الناس والتغطية .

كنت أتخيلك يا سيادة الرئيس معى فى كل هذا، تفهمه وتحسه لتتوقاه لا لتفعله . .

وكنت أقرأ معك أيضا كتاب الدكتور برهان غليون : مجتمع النخبة، حين يقول أنه أمام فشلنا العظيم ينبغى أن ينفجر النقد الذاتى قاسيا عاتيا وممزقا، فالنظام عندما يكون شرعيا منطقيا وأخلاقيا تكون المعارضة مساعدة له على تعديل نفسه بتذكيره بعيوبه، ودفعه إلى تجاوز نقائصه، لكن كلما كان النظام غير شرعى وضعيف، تزداد خطورة المعارضة على النظام .

لطالما ساءلت نفسى عما إذا كانت تلك النماذج التى يتحدث عنها علماء الاجتماع والسياسة موجودة فعلا، أيوجد ملك أو رئيس له تلك الصفات ؟ . كيف ؟ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟؟.

كنت واثقا ياسيادة الرئيس من أشياء كثيرة منها إيمانك وانتماؤك، وكانت مخيلتي ترسمك رابضا هناك بحكمة من يعرف أنه سيتولي الحكم ذات يوم فيروح يرقب ويتأمل كي يتجنب الأخطاء عندما يحكم . ولقد وضعت نفسي مكانك وجعلتك تفكر بعقلي وتهفو إلى الكمال بروحي وكان قلبي ينبض مع قلبك ورحت أنت - أنا - ترى حاشية السلطان سفينة نوح فيها كل الحيوانات، فيها الأسد والكلب والأفعى ورأيت أنت - أنا - أن حسنة الطاغية أن يموت، وإن الذئب يبقى ذئبا وإن لم يأكل غنمك، وإنه ينبغي عليك - عليّ - إن تحذر كل الحذر الكلب الذي لا ينبح، وأن الصدق عز والباطل ذل، وأن من يعرف كثيرا ينم قليلا وييأس كثيرا، وأن الشجرة لا تقع من أول ضربة فأس، وأن الكلمة كالرصاصة حين تنطلق لا تعود، وإن الغضب عندما يتزوج الثأر ينجبان الشراسة، وأن الطرق إلى المصائب كثيرة، وإنها عندما تطرق الباب يكون الأصدقاء نياما، وإن الدماء حين تجرى، فحيث تجري لا تنمو شجرة النسيان، وأن العين ترى كل شيء إلا ذاتها، وإن القوة أو السلطة تقبل كالسحلفاة ثم تهرب كالغزال، وإن

علامات السوط تزول وآثار القهر لا تزول . وأن من يخاف الله لا يخاف الإنسان، وأن الحق يعلو ولا يعلى عليه، كنت واثقا ياسيادة الرئيس إنك قد أدركتَ – وأدركتُ – إن لكل أول آخر، ولكل بداية نهاية . ولكل شمس مغرب، وإن الموت حين يأتي لا يستأذن، كنت واثقا من ذلك كله، وكنت بالأمل مفعما في ابتداء حكمك . . . .

. . . .

. . . .

الآن : لا تسلني عما يؤلمني : بل عما لا يؤلمني !

. . . . .

. . . . . .

ثم مر بنا الزمن ياسيادة الرئيس، مر علينا، سحقنا . . . .

وليست القوانين التى صدرت أخيرا هى أخطر ما حدث، ولا أشد ما أعاتبك فيه ، لكنها كانت هي القشة . . وكنتُ البعير الذي انقصم ظهره . . . .

. . . . .

كالطعنة النجلاء في صميم القلب ياسيادة الرئيس كان إحساسي بجملتين قلتهما أثناء حوارك مع الصحفيين : (هو إحنا بنبيع ترمس)، وأن : (زوار الفجر سيأتون ظهرا إن كان يخيفنا أن يأتو فجرا).

إننى أعرف ياسيادة الرئيس أن ثقافتك رفيعة و إحساسك رهيف، و أنك لا تقول الكلمات إثر انفعال عابر، بل لكل كلمة معناها و إن خفى علينا، ولقد أحسست – وربما أكون مخطئا أنك أردت أن تقول لهم أن أن من لا يلتزم بوجهة نظرك منهم يتصرفون على مستوى باعة الترمس و أنهم سيعاملون وفقا لذلك.

ترى هل ظلمتك ياسيادة الرئيس؟ هل أظلمك ؟ لقد جعلتك تفكر بعقلي وتحس بإحساسي، دون أي اتصال، ثم آتى الآن لأعاتبك لأنك لم تصل إلي نفس النتائج التي وصلت أنا إليها . إن كنت قد

ظلمتك فإني أسألك العفو . . لكن هاجسا مقيما يسيطر عليّ يشغلني عن الإلحاح في طلب عفوك أو حتى عن التفكير فيه، هاجس مقيم، مفزع، يروعني، لأنه يهددني ويهددك ويتهدد الوطن والأمة، إن الممارسات السياسية قد أدت في معظم بلادنا إلى فوضى ليس لها مثيل . وأصابع أعدائنا ليست بعيدة عن كل ذلك . من كان يتخيل أن ماذكرته بروتوكولات حكماء صهيون يتحقق بكل هذه السرعة والبراعة والإتقان في الشر . إن هذه البروتوكولات تعلن صراحة عن هدفها النهائي، وهو أن تدفع كل الشعوب إلى اليأس من حكامها وحكوماتها كي تلجأ إلى اليهود مطالبة بحكومة عالمية واحدة، يقول البروتوكول العاشر: إن حكمنا سيبدأ في اللحظة التي يصرخ فيها الناس الذين مزقتهم الخلافات وتعذبوا تحت إفلاس حكامهم – وهذا ما سيكون مدبرا على أيدينا – فيصرخون هاتفين : إخلعوهم وأعطونا حكما يستطع أن يمنحنا السلام والراحة، لكن لكي يصرخ الجمهور بمثل هذا الرجاء لابد أن يستمر في كل البلاد اضطراب العلاقات القائمة بين الشعوب والحكام، اضطراب يستثمر العداوات والحروب والكراهية والموت استشهادا أيضا، هذا مع الجوع والفقر، وسيستمر كل ذلك إلى الحد الذي لا ترى شعوبهم الأمل في أي مخرج من المتاعب غير أن يلجأوا إلى الإحتماء بأموالنا وسلطتنا الكاملة .

عندما أعدت يا سيادة الرئيس – بعد القرارات الأخيرة – قراءة بروتوكولات حكماء صهيون – أصابني الذهول الذي ما برح يصيبني كلما قرأتها : رغم إنني أقرأها الآن مرات في العام الواحد . أصابني الذهول، تقول البروتوكولات : لن نسمح للصحافة بأن تصف الحوادث الإجرامية، إذ سيكون من اللازم أن يعتقد الشعب أن المنهج الجديد مقنع وناجح إلى حد أن الإجرام قد زال، وكون المؤلفين مسئولين أمام القانون سيضعهم في أيدينا، ولن يجد أحد يرغب مهاجمتنا بقلمه ناشرا ينشر له، وما من أحد سيكون قادرا دون عقاب على المساس بكرامة عصمتنا السياسية، وسنكون سادة الأرض ولن نبيح قيام أي دين غير ديننا، إنهم جاهلون ولا يستطيعون ولو رؤية النتائج العاجلة لما هم فاعلون، إنهم عموما لا يفكرون إلا في المنافع الوقتية العاجلة ، ولا

يفطنون إلى أن الفكرة الأصلية لم تكن فكرتهم، بل كنا نحن أنفسنا الذين أوحينا بها إليهم . . إنكم لا تتصورون كيف يمكن دفع أمهرهم إلى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة بإثارة غروره وإعجابه بنفسه، وكيف يسهل من ناحية أخرى أن نثبط عزيمته وشجاعته بأهون خيبة، وبذلك ندفعه إلي حالة خضوع ذليل ذل العبد .

ياسيادة الرئيس : عندما يفقد المواطن إحساسه بالأمن والكرامة وحد أدنى من الطهارة وإحترام حقوق الإنسان وحقه في المشاركة والتأثير على القرار في انتخابات لا تزور . . فإنه سيندفع إلى الإيمان بحكومة عالمية يسودها الصهاينة .

ياسيادة الرئيس : إن ممارسات أي حكم ظالم تدفع بالأمة إلى هلاكها وبالدولة إلى فنائها .

يا سيادة الرئيس لقد كان أملي فيك هائلا، حتى أنني عندما كنت أتحدث عن الأمة كنت أعني الأمة الإسلامية كلها، ولقد رجوت الله أن تكون لها القدوة والمثل والمقيل من العثرات .

ياسيادة الرئيس : لقد حاولت قدر جهدي أن أتواصل معك . . أن أفهمك وأن أجعلك تفهمني . . أن أنصح وأن أحذر وأن أشارك وأن أدافع . . و أن أنقل لك كم نحن تعساء، نحن لا نَزدرِى، ولا نكذِّب، بل نُزدرَى ونُكذَّب، رغم أننا يعلم الله كم نعانى كى نحافظ على احترامنا لأنفسنا ونحن لا نقول كل الحقيقة، فالجبابرة يمنعون وسائل إثباتها عنا، ولو قلنا مانعلم دون إثبات لتلقفنا الزبانية، إنه ليس صراعا حزبيا ياسيادة الرئيس ولا رغبة فى الوصول إلى الحكم دونك ، . . بل هى مجردات ينبغى علينا أن نختلف فى دونها لا فيها . ولقد كتبت إليك، و أرجو أن تسمح لى بأن أواصل الكتابة، لا عنادا ولا جرأة، ولكن ثقة أن ثمة شىء خطأ، و أنك لا ترى الأمور كما نراها، و أننا لو نجحنا فى أن ننقل لك حقيقة ما يحدث، فلا يمكن أن تترك ما يحدث يحدث .

أربعة عشر عاما ياسيادة الرئيس ونحن كل يوم ننتظر منك أن تخفف ما ينقض ظهورنا فإذا بك بالقوانين الأخيرة المكبلة للحريات تضيف عليه، ولو أن غيرك فعلها لما كانت صدمتنا

كصدمتنا فيك، كنا ننظر إليك - رغم كل اختلاف - كملجأ أخير، فإذا بالطعنة تأتى منك، لقد نؤنا . . . . .

لقد رجونا دائما أن نتفق على كلمة سواء، ورجونا أن تسمعنا، أن تكون علاقتنا علاقة الحوار والتجاوب والمشاركة لا علاقة الإملاء.ولقد شكونا لك ممارسات بشعة مروعة، لكنك كذّبتنا، ويعلم الله أننا صادقون .

يارب . . . .

ماذا نفعل إن كان من نستجير به لا يجيرنا، ومن نشكو له الظلم يظلمنا . . .

لم تعد لنا حيلة، ولم يعد فى جعبتنا سهم . . .

وإن كان الاختيار المتاح أمامنا بين الصمت عما نحسبه الحق وبين السجن فنحن نختار الموت فيك.

يارب . . . . .

.. . إن كان غيرك كبير فأنت أكبر . . وإن كان سواك قوى فأنت أقوى . . وإن كان دونك قادر علينا فأنت أقدر عليه .

لك الحمد يا الله أن لم تجعل للشكاية إليك سبيلا سواك . . .

يارب : إنى أشكوه إليك . . . . فاحكم بيننا*.

* * *

سيادة الرئيس :

عندما بدأت هذه السلسلة من المقالات، عن بطش بعض جماعات منحرفة فى بعض قطاعات الشرطة بالناس، متهمين وغير متهمين، سياسيين وغير سياسيين، ذلك البطش، الذى وصفه حكم محكمة بأنه إجرام فى إجرام، كنت أنتوى ألا أكف عن الحديث فيه

---

* فى الأسبوع التالى وقعت المحاولة الأثيمة لاغتيال الرئيس، فرأى الكثيرون أن الله قد استجاب وحكم ، وكانت تركيبتى العقلية لا تستسيغ تفسيراتهم لأسباب عديدة أهمها أننى من مدرسة ذلك الشيخ الذى قال لأبنائه الذين فزعوا عندما ظنوا أن الملك سيقتله:" أبوكم أقل من أن يموت شهيدا :!!.

وفضحه وتعريته أمام الناس والعالم، والحقيقة، أننى وكأنما وقع السياط علىّ، ولهيب النار تحتى، والكلاب تنهشنى، كنت أود أن أواصل الكتابة، حتى يدرك كل كاتب فى هذا البلد أن كل ما يكتبه هراء وحقوق الإنسان تستباح بهذه الحيوانية والبشاعة، أنه ليس من حق مبدع أن يبدع، ليس من حق شاعر أن ينظم قصيدة، ولا روائي أن يكتب رواية، ولا قصاص أن تجود قريحته بقصة، ولا مثال أن ينحت تمثالا، ولا كاتب مقالة أن يكتب مقالة، ولا ناقد أن ينقد، ولا . . .، ولا . . . .، ولا . . . .وإخوتنا فى البشرية أيا كان مافعلوه يعانون هذا الذى نعرفه من الجلادين الذين لا نعرفهم .

وحتى عندما تمزقت نياط قلبى مع الطبيب المصرى محمد كامل خليفة، الذى انتهكت براءة الأعوام السبعة من عمر فلذة كبده، ثم جلد بالسياط وسجن وعذب لأنه تجرأ وتحدى الإجرام والقهر، قلت لنفسى فى مرارة أن العلة واحدة و أن الوباء عميم، وتساءلت، هل من حقنا أن ندين المملكة العربية السعودية على انتهاك حقوق مواطن مصرى ؟ دعونا من أى تقييم آخر لدور المملكة منذ نشأت وتأثيرها على الأمن القومى، وهل كان دورها إضافة إلى الأمة أم طرحا منها ؟، وهل لعبت دور النواة الصلبة التى تجمع حولها العرب والمسلمين وتحميهم من التفتت أم كانت حصان طروادة الذى نفذ من خلاله الأعداء إلينا ، دعونا من ذلك، دعونا أيضا من التساؤل هل هى أول مرة تنتهك فيها كرامة مواطن مصرى هناك، وتذكروا أننا عندما اختلفنا سياسيا مع العراق انتشرت حكاية النعوش الطائرة، وعندما اختلفنا مع اليمن انتشرت حكايات اضطهاد المصريين هناك، فدعونا من التساؤل ما هو الأصل وما هو الفرع، ماهى الخلفيات وما هى الحقيقة، دعونا من التساؤل فى كل ذلك، فليس للرعاع الدهماء من أمثالنا نحن الكتاب والمفكرين والصحفيين التساؤل عن تلك الشئون، شئون السادة، ولو أن أحدا هاجم السعودية منذ عام لاتهموه بتكدير العلاقات وتعريض العلاقات للخطر، ولو دافع عنها اليوم لاتهموه بخيانة أمه مصر، ونحن فى الحالتين، لا نعرف سبب المحبة الحقيقى حين تحابوا، ولا سبب البغضاء حين تباغضوا، وهل كان ذلك حبا فى الله أم فيمن سواه، انسوا ذلك إذن ، تذكروا فقط

كيف أغلقت صحيفتا صوت العرب ومصر الفتاة ولماذا، ثم عودوا معى إلى الطبيب المصرى الذى مزقت حكايته نياط قلبى، هل من حقنا أن ندين السلطات السعودية على انتهاك عرضه وكرامته وحقوقه ؟ هل من حقنا ؟ نحن الذين تنتهك أعراضنا وكرامتنا وحقوقنا كل يوم ؟ ألم تؤكد أحكام المحاكم التعذيب وانتهاك الأعراض ؟ ألم تؤكد انتشاره وذيوعه ؟ لماذا نلعن العار فى بيوت الآخرين وهو ملء بيتنا .

كنت حريصا على أن أظل أكتب عن التعذيب حتى يدرك كل كاتب فى هذا الوطن أنه مدان بالمشاركة بالصمت عن الجريمة، وأنه مجرم فعلا إن لم يتوقف عن الكتابة فى أى شيء إلا عن التعذيب فلا يتوقف الكتاب جميعا عن الكتابة عن الإجرام الذى يمارس ضد الإنسان فى بلادنا، لا يتوقفوا حتى يتوقف التعذيب .

أعددت مادتى وجمعت كتبى، يؤجحنى ضريم ويشعلنى عذاب، منتويا ألا أتوقف، ألا أسمح لأي عارض آخر مهما بدت أهميته أن يشغلنى عن وصمة العار التى تدنس كل واحد منا . . . .

وفجأة صدرت القوانين الأخيرة . . . . .

وفجأة أيدها الرئيس ودافع عنها . . . . .

كيف سيستجيب لى الكتاب إذن ليكتبوا عن إهدار حقوق الإنسان، وحقوقهم تهدر . . ؟

وكيف سأواصل أنا دعوة الآخرين إلى إطفاء النار فى بيوت الآخرين وبيوتهم تُحرق ؟

ولمن سأكتب إذن، وكيف أواصل الكتابة ؟

. . . .

ينساب إلىّ خيال حزين، ربما كان رؤيا، وربما كان من خلال أستار الزمن رؤية، عن فارس، ربما كان فى الأندلس أو فى العراق أو فى سيناء أو فى البوسنة والهرسك، فارس يحاول الدفاع عن قلعة تهدمت حصونها ونقبت ثغورها، وانشغل ولاتها الخونة عن الدفاع عنها بجمع ماسرقوه منها والهرب، ويقف الفارس حيرانا، هذا الثقب أولى بالدفاع أم ذاك النقب، تلك الثلة من فرسان

العدو أم تلك القلة، إلى اليسار أم إلى اليمين، إلى الأمام أم إلي الخلف، كلما اتجه إلى مكان اكتشف أن الخطر فى المكان الآخر أشد، وكلما عزم على أمر وجد أن فرصة تنفيذه قد ولت، تدور عيناه، تنسعر عيناه، يجرى لكن فى نفس النقطة من المكان، يلهث، يدور حول نفسه، يظل يدور، ويدور ويدور .

هل هذا خيال، أم أنه هو مايحدث للكتاب والمفكرين فى عالمنا العربى والإسلامى الآن، ما أن يتصدوا للدفاع عن قضية حتى يفاجأوا بقضية أهم منها، وما أن يتمترسوا لمواجهة مصيبة حتى تدهمهم مصيبة أشد . . . .

هل هو مخطط أن نظل نلهث هكذا، أن نظل دائما ندور حول أنفسنا، ألا نكمل دراسة موضوع، أو بحث أمر أو الدفاع عن قضية، أن يتسلل إلينا دائما من يفرق شملنا ويشتت انتباهنا، من يحرمنا من لحظة استقرار ننجز فيها أمرا.

فى بداية الخمسينيات، والوطن مشتعل بقضية الفساد والتحرير، والحركة الوطنية تتأجج، فاجأ موسى صبرى الأمة بمقال يطالب فيه بإباحة البغاء . عندما ندرس هذا الأمر الآن، عندما نمحصه، نكتشف أن الأمر لم يكن أمر البغاء الجسدى بل شغل الأمة عن قضيتها، فالبغاء مستمر، كان وهو كائن وسيكون، وليس محتاجا لقانون لإباحته، لكن هذا المقال استدرج الكتاب والمثقفين إلى قضية ليست قضيتهم، لدفعهم إلى الجرى والدوران حول أنفسهم فى نفس المكان .

باخت حماستى إذن، ووجدتنى أترك الثغرة التى حاولت سدها وهى ثغرة التعذيب، لأتحدث عمن كنت أستدعيهم لمعونتى فإذا بهم يحتاجون العون .

ووجدتنى مضطرا إلى اللهاث فى اتجاه آخر، حزينا، يائسا، وقد فقدت الأسباب علاقتها بالنتائج، وليس الحوار والفكر سبل الاقتناع، بل تصدر القوانين فى جوف الليل، ويمهرها الرئيس فى الصباح، وعلى من لا يقتنع أن يصمت أو يغامر بالسجن خمسة عشر عاما، لا بالبطش ولا بالقهر ولا بالظلم بل بالقانون، فهل القانون وثن نسيده ونعبده بينما تتوارى خلفه أياد خفية، فنصبح

عبيد هذه الأيدى، أم أنه خادم للمجموع لتحقيق مصالحهم .

من المحزن أن من صاغ القوانين الأخيرة، ومن وافق عليها ومن أيدها ومن أخرجها، لم يضعوا النظام فقط فى مأزق، بل وضعوا الرئيس مبارك شخصيا فى اختيارين أحلاهما حنظل، فهو بين أن يتراجع عن هذه القرارات وهو الأسلم، لكن التراجع ليس من سماته، فضلا عن أنه استبق بالحكم أن التراجع من صفات باعة الترمس، وبين أن يواصل المضى فيما أمضاه، ليكرس الوضع الذى دفعه إليه - دون أى مبرر- من دبج تلك القوانين، و أن يعرض شخصه، لأول مرة منذ تولى الحكم، لأول استفتاء حقيقى .

لست أعرف ماهى الحسابات التى دفعت بالرئيس للنزول بشخصه إلي الحلبة وهو الحكم بين السلطات، لكنه وقد نزل، قد أتاح الفرصة للمرة الأولى لشبه إجماع من الأمة أن يقولوا له :لا... للمرة الأولى، الجميع، المؤيدون والمعارضون وحتى المنافقون !!. لا، ليس لمجرد تأييده للقانون. لن نكون متعسفين فى الحكم، إذا حسبنا أن كل مقالات الاعتراض وإن توارت أو اتقت، موجهة للرئيس مبارك، كل المقالات، الجاد منها والساخر والمعاتب والغاضب وحتى الجارح، كما أن جرأة رسامى الكاريكاتير وإن ظلت على هيبتها للرئيس، إلا أنها تتناول بمنتهى القسوة مهاجمة وضع أعلن الرئيس أنه يؤيده، وربما كان رأى رجل الشارع العادى لا يقل أهمية عن كل ماسبق، وهو أقسى و أشد وضوحا ومرارة وقسوة وصرامة فى الحكم من كل ماصدر ونشر حتى الآن، و أعتقد أن الرئيس يستطيع أن يستوثق من ذلك بأجهزته . تلك الأجهزة التى ربما تنقل له نبض الأمة، أن " لا " هذه ليست مقصورة على القرارات الأخيرة، أن الكيل قد طفح، لم يعد الناس يحتملون المزيد، إنها " لا " شاملة جامعة موجهة لمجمل سياساته ونظام حكمه، " لا " من الكل علي الكل، " لا " تعيد تقييم كل " نعم " سابقة، وتراجع كل تبرير مضى، وترفض كل اعتذار سبق أن قبلته،" لا " تحسم كل تردد وحيرة بعد أن انتهى كل أمل . لم ينكشف الخبىء بعد، سينكشف فى عهد رئيس لاحق، وساعتها سنرى وسنسمع أولئك الذين زينوا للرئيس أفعالهم وقوانينهم كيف سيتملصون منها ملصقينها بالرئيس، لم ينكشف الخبىء

لكن هناك مايدل عليه، فمجلس الشعب يصدر قانونا من أجل دموع فتاة تركها خطيبها حين نشرت الصحف عن فساد أبيها، والرئيس يوقع فى لحظات والجريدة الرسمية تنشر فى ساعات، فيلجأ كاتب إلى سخرية تنزف دما، ساخرا من الكل، متوسلا أن يدله أحد على تلك الفتاة التى تتمخض دموعها عن رج الدولة كلها، كى يتزوجها أو يزوجها ابنه ، فهى المرأة الثانية فى تاريخ مصر التى تغير دموعها التاريخ منذ إيزيس وأوزوريس !!.

ترى هل كان فى حسابات الرئيس أنه عندما يعضد تلك القوانين بنفسه سيدفع الآخرين إلى التراجع إما هيبة وإما إيثارا للسلامة؟.

هل حسب من صاغوا القانون أن رد فعل الصحفيين والكتاب وخلفهم الأمة، سيكون كرد فعل قبيلة بدائية أو بدوية، سيستثيرهم الاستفزاز ليفرقهم سوط ؟!

نفس نظرة إسرائيل و أمريكا لنا . . . . .

المدهش أن القوانين لا تضيف شيئا ولم تكن بالنظام إليها حاجة . فهو يسجن من يشاء حين يريد، ويعتقل من شاء حين يريد، رغما حتى عن أحكام المحاكم بالإفراج، ويمارس التعذيب والبطش فى السجون، متحديا حتى استهجان العالم ممثلا فى منظماته

هل بنى من حول الرئيس حساباتهم على مدى حب الناس للنظام ؟ هل جهلوا أن كثيرا من الطاعة العمياء والانصياع والتصفيق قد تكون صورة مقلوبة للحقيقة، فالكراهية الشديدة وتمنى الموت والإزاحة من طريق الحياة قد تتبدى فى عكس صورها .

يقول الدكتور ميخائيل أسعد فى كتابه سيكلوجية الشك أنه إزاء القهر وسد منافذ التعبير عن الذات فليس من سبيل إلا إلى التقوقع إلى الداخل، ليظل الإنسان مذبذبا بين الخضوع والتمرد، وقد يلجأ إلى السمع والطاعة، لكنه إذ يلجأ إليه لا يملك إلا ازدراء ذاته واحتقار نفسه، وينعكس هذا الإحساس على الكيان الشخصى أو القومى، فهو يخشى أن ينتقل هذا الإحساس منه إلى الآخرين

فيقوموا بازدرائه واحتقاره، وهذا بحد ذاته قد يدفعه إلى التطرف بعد ذلك، فخشيته من احتقار الآخرين قد تدفعه إلى النقيض، إلى الحساسية المفرطة، بحيث أن أية حادثة عادية قد تصبح إهانة لا تغتفر، لكنه يصبح كالنعامة، إنه يخفى احتقاره لنفسه عن الآخرين بتكريمها، كما أنه يعزى نفسه بأن من يزدريه أشد منه استحقاقا للازدراء، و أنه رغم ذله وخضوعه، أشد احتراما من الطغاة البغاة، الذين ينشئون جيلا من الأطفال الكبار، كل منهم مازال طفلا، كبرت جثته وترامت أطرافه ، وظهرت عليه ملامح الرجولة أو الأنوثة لكنه لم يزل طفلا، طغاة بغاة جبارون يواصلون هدم كل استقلال أو تباين أو اختلاف فى وجهات النظر، وكلما كان المواطن أكثر تطابقا و أكثر خضوعا وخنوعا ومسخا لشخصيته فإنه يكون بالتالى أكثر قبولا من جهة النظام، فإذا حاول إبداء رأيه اعتبر النظام ذلك شقا لعصا الطاعة وعصيانا وتمردا والتواءً أخلاقيا بشعا، وهو يستحق الطرد والتشنيع وسن القوانين لسجنه بسبب المروق عن الأخلاق الكريمة والعصيان والفجور .

لطالما ساءلتك فى خيالى ياسيادة الرئيس لماذا يحدث مايحدث؟ . إنه ليس فى صالح الأمة ولا الوطن ولا الدين ولا فى صالحك أنت أيضا .

لطالما ناديتك كما نادى أمل دنقل السادات أنك فارس هذا الزمان بين العمائم والدشداشات المتهاوية التى ملأتها الشروخ، وأن عليك أنت ينعقد الأمل فلا تكن كالآخرين .

ماذا ستخسر أنت شخصيا إذا منعت إهدار حقوق الإنسان وتزوير الانتخابات و أطلقت حرية الصحافة كى تستطيع مواجهة الفساد المستشرى وصياغة وجدان الأمة كى تواجه معاركها .

لماذا وافقتهم على القوانين الأخيرة، إنهم يدعون حمايتك، وهم والله يحتمون بك، كى تنقذهم من الكشف والعقاب .

ولماذا حين ذبحوا لم تأمرهم بأن يحسنوا الذبحة ؟ !.

لماذا لم تدعهم يصدرون قوانين مباشرة بإلغاء جميع أحزاب

المعارضة، و إغلاق جميع صحفها، لأن ذلك إن تم، سيتيح لنا معشر الكتاب الاحتفاظ ولو بقدر ضئيل من الشرف، فساعتها حين لا نكتب، وحين لا نصرخ بكلمة حق فى وجه سلطان جائر، سنستطيع الزعم أمام أنفسنا بأننا لا نكتب لأن صحفنا مغلقة، ولا نصرخ لأن ألسنتنا منزوعة، و أناملنا مقطوعة، لكن، والأمر كما حدث، فعلى كل كاتب أن يدرك أن النظام قد ترك له كل الصحف وكل الأحزاب و على الرغم من ذلك فهو لا يكتب لأنه جبان رعديد خائف، و هذا الإحساس باحتقار الذات سوف يقضى على الكتّاب ليبقى الكتبة، كما أنه سيعطى أى نظام غاشم الحق فى أن يدّعى أن صمت الكتاب دليل رضاهم، و أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان.

لماذا يا سيادة الرئيس ؟؟؟!!!.

يقول الدكتور برهان غليون* أن السبب فى التراجع العربى منذ قرون ليس تكنولوجيا ولا عسكريا، ولكنه سياسى اجتماعى، إنه فشل للحكام، لمجموع التصورات السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية لهم، أن هزائمنا لم تكن بسبب تخلف الأمة، ولا عقابا من السماء على نقص فى دين البسطاء العفوى الفقير، و إنما كانت بسبب تخلف الساسة، ونتيجة منطقية لدينهم السياسي العلمانى الدنيوى الأنانى الوضيع، و أن الدولة القهرية هى أساس وقاعدة التدهور القومى، و أنه من السهل دائما على كل طاغية أن يخلق فى كل حقبة شيطانا يرميه بكل اللعنات ويلبسه كل خيباته، يمكن أن يكون هذا الشيطان أى شخص أو جماعة أو أفكار، طالما كان من الممكن تبرير الفشل عن طريقه .

ويصرخ برهان غليون : "إن ما يحدث الآن هو تحديد معالم أمة وتزييف وعيها كى تتأقلم مع الغزو الخارجى بدلا من أن تتصدى له، تخلق مسخا للشعب والوطن وكاريكاتيرا للتاريخ ".

إن مصالح الفئات الحاكمة وليست مصالح الشعوب هى التى

* مجتمع النخبة، دراسات الفكر العربى، د برهان غليون،معهد الإنماء العربى بيروت .

ظلت سائدة تحدد مجرى التطورات الاجتماعية والسياسية، و أن كل الجرائم الاقتصادية الجوهرية اليوم هى سرقة المسئولين وسطوهم، تلك الطبقة العليا التى تخلت عن القيم القديمة، وظهر أن القيم الحديثة التى تتستر بها لم تكن إلا ذرا للرماد فى العيون والصعود إلى المناصب العليا، وكلما أتقن مسئول السرقة، و أصبح خبيرا بها، ارتفعت أسهمه عند المسئول الأعلى، الذى يفكر عندئذ بالاستفادة منه، بشرائه أو مشاركته، لا تحكم قيم هذه الطبقة أخلاقيات الرأسمالية التى تدرك أن السرقة ليست محرمة فقط، و إنما هى مدمرة للنظام بأجمعه .

يا سيادة الرئيس :

إننى لا أدافع عن الصحفيين كفئة ولا عن الصحافة كسلطة، بل أدافع عن الدين والأمة والتاريخ والمستقبل، مدركا أن تقييد حرية الصحافة هو أثمن مانقدمه لأعدائنا، فالصحافة فى جو الحرية هى القادرة على أن تصوغ وجدانا جماعيا لأمة تستطيع أن تقاوم وتنتصر، ونحن، فى اللحظة التى نقيدها فيها نفتح الأبواب أمام كل عدو، و إننا نريد أن نواجه بها معك عدوا يحاول تحطيمنا ليس بالقمع الخارجى والداخلى فقط، بل بالتحطيم العقلى الذى تقوم به وسائل الإعلام ومراكز البحث الأجنبية والدعاية الحكومية وحيدة الجانب التى تحتكر الإعلام، والنخبة المثقفة المنحطة التى تنتج أدبا غثا وفنا تجاريا رخيصا يهدف فى النهاية إلى سلخ الأمة من تاريخها ومن شعورها بالعزة والكرامة، إنهم يزرعون عقلية أنانية وحقيرة، منحطة ومادية تضع كل فرد من أفراد الشعب فى وجه أخيه،وتجعله عدوا له، وستكون هذه العقلية هى القاعدة الفكرية الضرورية لهيمنة طبقة ونظام اجتماعى قائم على النهب والسرقة والغش والاختلاس والأنانية وعبادة المصلحة الفردية والمادة .

يا سيادة الرئيس لن يحمينا من ذلك كله إلا صحافة حرة .

ولقد كانت القوانين الأخيرة ضد الصحافة الحرة، إلا إذا كان عندك من يوهم نفسه أنه يفهم فى شئون الصحافة أكثر من الصحفيين أنفسهم .

فأعد الأمر إلى نصابه يا سيادة الرئيس وقلها : أصابت الصحافة و أخطأ مبارك .

قلها يا سيادة الرئيس فإن الاعتراف بالخطأ - لا الإصرار عليه- هو الذى يحقق هيبة النظام وجلال الحكم . قلها، فإنه لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار .

يا سيادة الرئيس : يابن آدم، إن ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون ... فَتُبْ . .

نحن مدينون بالاعتذار لمصر "١ "

الجموع الحاشدة، التى خرجت - أو حتى أخرجت - فى ٩ و ١٠ يونيو ١٩٦٧ لم تفعل ذلك لتبايع جمال عبد الناصر على استمرار سياسته و أداء حكمه، لم تخرج لتؤيد الهزيمة بل خرجت لتنادى بالحرب لتحقيق النصر على العدو فى الخارج و على الفساد فى الداخل، معبرة فى ذات الوقت عن حبها للرجل وثقتها في شخصه، و أملها فيه - أو على الأحرى تكليفها له - أن يصلح أخطاء نظامه. ولم تكن هذه الثقة ولا هذا الحب ينسحبان على أعضاء حكومته ولا على قواد جيشه، بل على العكس تماما، لقد منحته الجماهير هذه المشاعر لأنها أدركت أنه ليس مثلهم .

والجموع التى أخرجت - أو حتى خرجت - منذ ٢٧ يونية وحتى الآن لم تخرج لمبايعة حسنى مبارك على الاستمرار فى نفس السياسات السابقة، لقد عبرت - كجل الأمة - عن الإعزاز والتقدير لشخصه، لكن ذلك لا يعنى أبدا موافقة تلك الجماهير على مجمل سياسة الحكم، على القبض العشوائى والتعذيب وتزوير الانتخابات، ولا عن تأييدها للفساد وإدارة الاقتصاد . وإن مشاعر الحب التى منحتها الأمة للرئيس لا تنسحب أبدا على من حوله، على الإطلاق، بل و ربما كانت تحمل فى طياتها عتابا مريرا : نحن نحبك هذا الحب كله، فلماذا تترك من لا يحبونك ولا يحبوننا ولا يحبون مصر ولا حتى الله يفعلون بنا ماتعلم، بل وربما كانت هذه الأمة ترى - آيسة - أنها تستحق اعتذارا لن تناله، فلقد زرعت الحب دائما لتحصد شوك القتاد .

لقد كان حسنى مبارك فى مؤتمره الصحفى صبيحة يوم محاولة اغتياله عظيما كما لم يك منذ تولى، حين بدا رابط الجأش قويا، لم يفقد القدرة حتى على المرح، كنا فخورين به وبحرسه، خاصة، حين تغلب على هوى النفس ونوازع الغضب وذهول الصدمة وصدمة الذهول، فأوحى بعدم اتخاذ إجراءات قمعية، وعدم

الرجوع عن الديموقراطية، كما رفض أن يوجه اتهاما لأحد، وبدت تعبيراته موضوعية حتى فى شكوكه .

هكذا بدا الرئيس حين لم تتداخل مع أفكاره أفكار من حوله .

فى الأيام التالية ساد الابتذال المستفزالذى يكاد يظهرنا أمام العالم شعبا من البلهاء، لقد تعرض زعماء كثرون فى العالم للاغتيال، ومات بعضهم بالفعل، ونجا آخرون، وفى كل الأحوال كانوا يحتفظون للدولة بهيبتها، وللمنصب الرئاسة بوقاره .

انتظرت أن يتحدث أحد عن الوجه الآخر، عن القدر، عن النذير، عن توبة الإنسان حين يرى آية من آيات ربه .

لقد كان حسنى مبارك عظيما حين واجه الموت شجاعا، حين لم يخف، فماذا عن خوفه من لقاء ربه، أم لم يخف ، أم أمِنَ مكره؟.

ما هى الأشياء التى ود لحظتها لو كان أقلع عنها، لو كان منعها، التى خجل وخاف وارتعب من أن يسأله الله عنها، التى ندم عليها فعزم ألا يعود إليها أبدا، وفى الطائرة وهو عائد :ماذا انتوى أن يفعل شكرا لله على النعمة التى أسبغها عليه .

فى الأيام التالية أيضا تغيرت لغة الخطاب، وتسرب الخوف إلى قلبى من أن نفلت لحظة تاريخية ما أظن أن تتكرر عندما اجتمعت فى سويعات أمام الرئيس قدرة الله عليه، واجتماع الأمة حوله، فهو ابنها الغالى، الذى قد تختلف معه أشد ما يكون الاختلاف، لكنها فى لحظات تعرضه للخطر، تحدب كلها عليه ، قلت لنفسى إن لم يتغير الرئيس ويغير إزاء قدرة الله ورحمته، و إزاء مشاعر أمته ، فسوف نفقد الفرصة الأخيرة .

أجل يا سيادة الرئيس . . . . . .

يجب أن تتغير و أن تغير . . . . . .

عندما كان كتاب الأمة ومفكريها يحصون الكوارث التى كان يمكن أن تحدث لو لا قدر الله ذهبت، كان ذلك إقرارا بواقع، لم يكن كله مدحا، بل ربما ترى العين الفاحصة معظمه قدحا، فبعد عشرين عاما و أنت فى الحكم نائبا ورئيسا، لم تصغ بعد آلية

تمنع انهيار الدولة لو شاء الله و ذهبت أنت . و أنت تعلم أن الحياة وديعة أودعكها الله ليستردها حين يشاء، و أنك حين تمسى لا تدرى هل ترى صبحك، وحين تصبح لا تدرى هل تدرك مساءك . أما و الأمر هكذا يا سيادة الرئيس فقد كان من أهم أولوياتك، أن تصوغ الآلية التى تكفل انسيابية انتقال السلطة بعدك، دون هزة للوطن، ودون تلك المشاعر الفاجعة، الجديرة بالرثاء لا بالتقدير، التى تتشكل فى وجدان قطاعات عريضة من الناس فى الإحساس باليتم دون الرئيس .

إنها مشاعر تدين الأمة وقد نعاتبك عليها يا سيادة الرئيس أيضا . فأنت تعلم أنه مما يذكر من مناقب الرجل - حتى على مستوى الأسرة - أنه ترك خلفه رجالا، و أن الانهيار لم يصب أسرته بعد رحيله .

عندما نعود أيضا إلى تأكيد الرئيس - الذى حمدته له الأمة - أنه لا عودة عن الديموقراطية، عندما ننظر إلى هذا التأكيد بعين فاحصة، ندرك على الفور أن الديموقراطية التى ترتهن بقرار حاكم - أى حاكم - ليست بالتأكيد ديموقراطية، ربما كانت شيئا شبيها، أو مسخا، إن كلينتون أو ميجور مثلا لا يستطيعان تهديد أمتيهما أو المن عليها بشأن الديموقراطية، فهناك، حيث النظام الذى تدعوننا لانتهاجه، والذى نرتضيه، تسقط الأمة فورا ذلك الحاكم الذى يبدو منه أى خدش للنظام الديموقراطى هناك . فالديموقراطية ليست منة الحاكم يسبغها حين يشاء ويسحبها حين يريد .

نناشدك يا سيادة الرئيس أن تغير، وليكن دافعك للتغيير حمدك لله، وامتنانك لمشاعر الأمة التى أسبغت عليك مشاعرها . غير يا سيادة الرئيس ولا تصدق أبدا أولئك المنافقين أو المخدوعين الذين يزينون الشر والبعد عن الله والناس والمصالح الحقيقية للأمة .

لقد أصابنى الذعر يا سيادة الرئيس حينما قرأت ما راح البعض يكتبونه -وعلى رأسهم الأستاذ إبراهيم سعدة - فى أخبار اليوم، وهو وهى مقربان إليك ، إنهم لا يتركون فرصة

لخصام مع بلد عربى أو إسلامى إلا اهتبلوها، ولقد طفقوا يحرضونك على السودان. ولولا أننى نا شدتك - مقتنعا - بضرورة خفض درجة حرارة الخلاف التى أوشكت على الاشتعال قبيل محاولة اغتيالك، لانفجر فىّ الغضب وضاع منى الحلم .

الآن، ونحن نحاول أن نمنطق كل شىء، علينا أن ننظر بهدوء بائس إلى ظواهر المرض الذى راح يستشرى فينا، كالبرص، حين تتساقط أعضاء المريض عضوا عضوا، بعد أن تموت فيها أعصاب الحس والحركة، فتتآكل وتذوي، حتى تسقط والمريض لا يحس، على مستوى الأمة يحدث هذا كما سبق أن حدث على مستوى الدول .

الآن، علينا أن نتجنب اتهامات العمالة والخيانة، أن نرصد الظواهر و أن نحاول علاجها .

إن رأي الأستاذ إبراهيم سعدة بلا شك يمثل قطاعا من الأمة مهما كانت ضآلته، وعلينا أن نواجه هذا القطاع بكل الجدية والاحترام، لا يثنينا عن ذلك حتى ما حدث فى نقابة الصحفيين مؤخرا، حين لم تواتِ الجرأة والشجاعة واحدا من هذا القطاع، لكى يذهب إلى الجمعية العمومية فى ١٠ يونيو لكى يدافع عن وجهة نظره ، لم يجرؤ واحد فقط، ذهبوا إليك و إلى التليفزيون وإلى صحافة يتحكمون فيها، لكن لا أحد جرؤ على مواجهة زملائه فى نقابته، فهل وصلتك الرسالة يا سيادة الرئيس ؟ . لكأنهم جلسوا فى بروجهم المشيدة هاتفين بك : إذهب أنت وجندك فقاتلوا إنا ههنا قاعدون!!. لكن ذلك لن يثنينا عن محاولة الفهم فربما كان الخطأ فينا .

لقد سادت مصر حين كانت النخبة الحاكمة فيها تملأ مكانها، حين كانت تدرك قيمتها ووضعها، أنها القلب الذى تجتمع حوله الأطراف، وليس لكليهما عن الآخر غنىً . تعلم يا سيادة الرئيس أن كثيرين ممن يقتربون من الحكم عبء عليه، أنهم غير جديرين بذلك، و أن مقعد النخبة الحاكمة يمكن أن يكون فضفاضا عليها، ويمكن ألا تدرك هذه النخبة قيمته ولا حقّه، و أن هذه النخبة حين تسود ويغلب فكرها يهوى الوطن ويهون .

إن مصر يا سيادة الرئيس تمثل جذوة حضارة مختلفة عن

حضارة الغرب التى هزمتنا، والتى تدرك أن ضمانها فى استمرار هزيمتنا أن تكون مصر معزولة عن عالمها الذى تستطيع أن تتحرك فيه وأن تجمعه كى تنهى زمن الهيمنة والانكسار، أن تكون دائما وحيدة ذليلة ضعيفة ومنكسرة، و لأن الدول - كالأفراد - لا تستطيع أن تعايش مشاعر الهزيمة الدائمة النهائية التى تدفعها إلى احتقار نفسها، فثمة طرق عديدة لخداع الذات، أهمها أن نتبنى وجهة نظر أعدائنا فينا، فنحن مهزومون لأننا نستحق الهزيمة، لأننا متخلفون، لأن حضارتنا فاسدة ولا سبيل أمامنا إلا سلوك سبيل حضارتهم، لكن الحضارة ليست ثوبا يستبدله المرء بغيره، الحضارة قلب وعقل وإحساس وعمق فى التاريخ ودين، الحضارة كينونة، نستطيع أن نعالجها لنتقدم بها لكننا لا نملك أبدا اختيار التخلى عنها إلا كما يملك امرؤ التخلى عن قلبه وعن عقله، فمعنى ذلك ببساطة : الموت. ومن طرق الهروب إذن من المواجهة نتبنى وجهة نظر أعدائنا فينا، أن نعجب بما يعجبون به وننفذ ما يخططون له، أن نقلدهم، ونكرر آراءهم، حتى تلك التى تديننا وتبخسنا، و أن يكونوا هم المقياس والمعيار.

عندما نطبق هذا على موقف الأستاذ إبراهيم سعده من ندائه بضرب السودان نجد أنه تبنى تماما مايريده أعداؤنا لنا ويحاول من خلالك يا سيادة الرئيس أن ينفذه، ليس لأنه خائن ولا عميل، بل لأنه تعيس مثلنا لكنه يحاول الهروب من احتقار الذات فى الاتجاه الخطأ، إنه لا يستطيع مواجهة عدوه الحقيقى، لكنه لا يستطيع أن يواصل الحياة بدون نصر حتى لو كان زائفا، إنه يتجاهل مثلا إمكانية أن تكون محاولة اغتيالك مدبرة من مخابرات أمريكا و إسرائيل ولو بعدم كشف تفاصيلها لك - نحن لم ننس بعد أن ما لديهم من التكنولوجيا ما مكنهم من تصوير ماركة ملابس صدام حسين الداخلية !! -، يتجاهل ذلك لأنه لا يستطيع التصرف إزاءه إن واجهه، هل يستطيع مثلا أن يتحدث عن حكام أمريكا و إسرائيل بذات العنصرية البغيضة التى يتحدث بها عن حكام السودان، هل يستطيع النداء بالانتقام من أمريكا و إسرائيل، هل كان يقول ما قاله لو كانت السودان أقوى من مصر عسكريا ؟. أم أنه تبنى بالكامل وجهة النظر الغربية

عناء أنه يود أن تعامل مصر السودان كما تعامل إسرائيل جنوب لبنان، فلكى ينفى عن نفسه الإحساس الأليم بالهزيمة والفشل وعدم احترام الذات، فإنه يصدر كل هذه الاتهامات لبلد أضعف، هم المهزومون إذن وهم المتخلفون وهم من يستحق العقاب، حتى لو لم تثبت التهمة، أما نحن، فنتصرف كما يتصرف السادة، فنحن إذن سادة، والحق ليس العدل بل القوة، إنه يكون أقسى على مواطنيه وعلى حلفاء المستقبل حتى من عدوهم، تماما كما كان الناظر فى رائعة الدكتور خليل حسن خليل : « الوسية » يبالغ فى قهر أبناء جلدته من الفلاحين، أن يفعل بهم أقسى مما يفعله بهم الخواجة " نفسه "، فذلك هو السبيل الوحيد لكى يقنع نفسه بالوهم والكذب وخداع الذات أنه ينتمى لطبقة السادة، السادة الذين كل فعلهم وقولهم صواب وما دام اقتنع بفكرهم فهو منهم .

نعود لنقول، أنه حتى لو ثبت – و أستبعد ذلك و أدينه أشد الإدانة لو كان حدث – اشتراك حكومة السودان فى محاولة الاغتيال فإن مصر ورئيس مصر أكبر بكثير جدا من أن يتجاهلوا التاريخ والمستقبل، ويتنازلوا عن مكانهم ومكانتهم فيه لينتقموا انتقاما رخيصا من شعب السودان . ترى لو كان مدبروا المحاولة من القاهرة، أكان طيراننا يدك القاهرة ؟.

نحن مهزومون الآن نعم، لكن لدينا إمكانية النصر ووعد الله به، وشعب السودان وكل شعوب العالم العربى والإسلامى، بل وكل المقهورين فى العالم إخوتنا ورفقاؤنا وجندنا حين يئين لحضارتنا أن تسود، إننى لا أدافع عن حكام السودان – لعل القارىء قد لاحظ ذلك فى كل مقالاتى السابقة – لكننى أدافع عن أمة قلبها مصر، وهنا أتساءل أيضا، كى لا نمارس السياسة البغيضة للمعايير المزدوجة، ترى بماذا كنا نحكم على المعارضين المصريين لو ذهبوا إلى خارج مصر ليهاجموا حكام مصر ويستعدوا عليها بلدا آخر ليهاجمها عسكريا، ماذا كنا نقول عنهم، وعن سيل المعلومات الذى ينهمر منهم، والذى لا يمكن أن يعرفه معارض بل مخابرات دولة .

إننى أناشدك يا سيادة الرئيس، مهما حدث، ومهما كان، لا تحمل مصر هذه الخطيئة أمام الله و أمام التاريخ، لا تفعل ذلك أبداء

مهما كان، فإن البعض، يحرص ككاهن مجوسى أن يشعل بين دول العرب والمسلمين نارا يود ألا تخبو أبد الدهر، فكأنما إشعالها تعبد لإلهه، وكأنما التوقف عن إشعالها ولو لبرهة كفر بآلهة سيقذفون به فى غياهب الجحيم إن جرؤ عليه .

هل أطمع يا سيادة الرئيس، الذى أعطاه الله عمرا آخر فكأنه ولد من جديد أن تراجع أشياء كثيرة، فكل شىء تقريبا يحتاج إلى المراجعة، كل شىء، لا تصدق من يقول لك أن الأمور تسير على مايرام، على العكس، لم تبد الأمة أبدا على هذا القدر من التشتت والتمزق والألم، من الحروب بين الدول التى توشك الآن أن تكون حروبا بين طوائف الأمة، فهل أطمع يا سيادة الرئيس أن تتصدى لذلك كله، فصلاح الأمة فى صلاحك .

هل أطمع ياسيادة الرئيس أن تفتح فيما تفتح من ملفات ملف التعذيب ؟ . ربما وجدت أن ما نقوله نحن هو الصحيح و أن التقارير المرفوعة إليك هى الخطأ .

لقد سقت لك كثيرا من الأدلة يا سيادة الرئيس، ويبقى أكثر، لكن دليلا منها كان فاجعا حتى الذبح . فذلك الذى حدث مع محمد عفيفى مطر لن ينساه التاريخ أبدا، لقد خلد التاريخ كافور الإخشيدى لخلافه مع المتنبى رغم أن الحق كان مع الحاكم والشاعر كان على باطل، ترى كم ألف عام سيذكر التاريخ ما حدث للشاعر الكبير محمد عفيفي مطر فى عهدك فيستعيد ذكرك وقد ارتبط به . لكننى أستميحك العذر أن أتطرق قبل مواصلة الحديث عن محمد عفيفى مطر إلى حديث - ليس منقطع الصلة - عن نجيب محفوظ ونصر حامد أبو زيد .

عندما وقع العدوان الغاشم الأثيم على نجيب محفوظ كانت المدية التى انغرست فى عنقه تنغرس فى قلبى ، لا لأنه أعظم روائى عربى عبر التاريخ، ولا لأنه هو الحائز على جائزة نوبل، ولا حتى لأنه شيخ تجاوز الثمانين، ذلك كله صحيح، لكن . . تلك كلها عوامل مساعدة قد تزيد الأسى لكنها لا تخلقه، إنما كان ما أصابنى لمجرد السبب المجرد، لأن من يقتل نفسا واحدة -لم يشترط حتى إيمانها- فكأنما قتل الناس جميعا، لذلك فإن دم نجيب محفوظ لا

يتميز على دماء أى إنسان آخر ، الإعجاز الإلهى فى الخلق واحد، لا يتميز دم نجيب محفوظ إذن عن تلك الدماء التى تسفح كل يوم ولا تتميز دماء القاتل عن دماء القتيل، دماؤهم فى أعناقهم، وفى أعناقنا وفى عنق النظام ، وهى دماء لست أدرى إن كانت التوبة إلى الله والاعتذار إلى الأمة ترفع عنا وزرها وعارها .

لا تتميز دماء نجيب محفوظ إذن عن دماء محمد عفيفى مطر، الشاعر الكبير الذى لم أحظ بمعرفته إلا من خلال دواوين شعره التى يشدو بها كأعذب ما يكون الشدو منذ الستينيات، محمد عفيفى مطر الذى يعدّ له أحمد عبد المعطى حجازى احتفالية بمناسبة بلوغه الستين من عمره .

وقبل الاسترسال فإننى أعترف أن إعجابى بنجيب محفوظ لا ينسحب على نصر حامد أبو زيد، لكن ذلك لا يؤثر على الإطلاق على حقه فى الكرامة كلها وفى الحياة الآمنة، كما أبدى انزعاجى الهائل من تدخل أى سلطة لمصادرة فكر أى فكر أو لتكفير إنسان أى إنسان، و أختلف كل الاختلاف مع من يحسبون أنهم يدافعون عن الدين بمثل هذه المواقف، فالدين معدن نفيس غير قابل للخدش بل يجلوه كل من يحتك به ليزداد لمعانه .

إن نصر حامد أبو زيد مهما كانت وجهة النظر فيه أفضل من علاء حامد ومن عمله البذىء التافه الذى لا يشكل أدبا على الإطلاق ومع ذلك يذكر القارىء أننى كنت ضد محاسبته حين حوسب وضد مصادرة عمله حين صودر .

لعلك تدهش يا سيادة الرئيس من إقحامى لنجيب محفوظ ونصر حامد أبو زيد وعلاء حامد فى حديثى إليك، ولقد قلت لسيادتكم أنه ليس منقطع الصلة . فنحن بغض النظر عمّن مع ولماذا و عمّن ضد ولماذا نستطيع تلخيص الاتهام الذى وجه إليهم خطأً أو صوابا فى أنه : " الجرأة على الذات الإلهية والدين "، وإزاء هذا الاتهام الخطير كان صدر الدولة واسعا كأوسع ما يكون، وأفقها رحبا كأرحب ما يكون .

كان هذا هو الموقف المتسامح والمؤيد والمدعم لنجيب محفوظ ونصرحامد أبو زيد – ولنسقط علاء حامد ازدراء لشأن عمله –

إزاء اتهام خطير كالجرأة على الذات الإلهية والدين، وكان الموقف فيما أظن صحيحا .

فلنقارن هذا الموقف يا سيادة الرئيس إذن بما حدث مع محمد عفيفي مطر، الذى يتلخص اتهامه ليس حتى فى الجرأة على ذاتك أنت بل فى الاعتراض على سياستك .

الاتهام الأول يتعرض للذات الإلهية والاتهام الثانى لا يتعرض لذاتك .

الاتهام الأول يتعرض للجرأة على الدين والاتهام الثانى يتعرض للاعتراض على سياستك .

فلنقارن الآن ياسيادة الرئيس الاحتفالية التى حظى بها نجيب محفوظ ونصر حامد أبو زيد " باحتفالية المومياء المتوحشة " وهو عنوان الديوان الثالث عشر للشاعر الكبير محمد عفيفى مطر الذى عبر فيه عن تجربته فى لاظوغلى إثر معارضته لموقفك فى حرب الخليج، ترى هل أخبرك صديقه أحمد عبد المعطى حجازى بما حدث له، لقد ر أينا فى التليفزيون كم أن العلاقة بينكما حميمة، فهلا سألته إن لم يكن هو قد قال لك، لقد أوجز الشاعر الكبير ما حدث له فى جملة يفوق تكثيفها أى شعر، ويزيد ألمها عن أى خيال : "عوملت فى لاظوغلى كما تعامل الحيوانات "، وربما يظن القارىء الذى لا يعلم حقيقة ما يحدث هناك أن الجملة تعنى بعض الإساءة اللفظية، أو دفعة باليد فذلك أقصى مايمكن أن يجول فى أذهاننا بالنسبة لشاعر بارز على المستوى الوطنى والعربى، ثم أنه فى العقد السادس من عمره ، لكن ذلك لم يحدث، فالذى حدث أنه تعرض للتعذيب بشكل مكثف ووحشى على مدى عشرة أيام بمقر مباحث أمن الدولة فى لاظوغلى، صعقوا الشاعر الكبير بالكهرباء، ثم علقوه لفترات طويلة من معصميه، ضربوه بجسم صلب على رأسه و أجزاء متفرقة من جسده، و خلال الأيام العشرة ، ظل الشاعر الكبير، المشرف عمره على الستين، ظل، طوال الأيام العشرة معصوب العينين ، ومقيدا بقيد حديدى يضيق كلما حرك الرسغين مما سبب له ألما فظيعا، ربطوا عينيه وأذنيه برباط ضاغط كثيف، مما نتج عنه تجمع صديدى تحجر تحت

الجفنين، وتورم لحم الأذنين والتصاقه بالرأس التصاقا قاسيا، مع الضرب، و إلقاء الجسد بشكل مفاجىء نتج عنه جرح عميق بجلد الرأس أخذ ينزف بالصديد لمدة شهر ونصف و أحدث له ضعف إبصار بالعين اليمنى، كما أجبر على تناول عقار عبارة عن برشامتين صغيرتين كانتا تسببان له اضطرابا وهلوسة بصرية وسمعية يفقد على إثرها الوعى، كما جرى تعليقه كالذبيحة لمدة طويلة من يديه المقيدتين ووضع رباط على قدمه مما يجعل جسمه كله مرتكزا على الرسغين، وتعرض أيضا للصعق بالكهرباء على الأماكن الحساسة، و أجبر على الوقوف عاريا أمام تيارات الهواء البارد، والتعرض لعدد كبير من حالات الضرب الشامل، ولفترات طويلة من التجويع .

لماذا بكينا نجيب محفوظ إذن ؟؟، ولماذا أدنّا ما حدث له ؟؟.

يا إلهى . . .

ألا يحسب الذين فعلوا ذلك والذين سكتوا عليه أنهم ميتون وأنهم ملاقوا الله . . . . . ؟

اسمح لى يا سيادة الرئيس أن أقولها، أن أصرخ بها :

إن الأمة كلها مدينة بالاعتذار لمحمد عفيفى مطر، ولكل من حدث له ماحدث لمحمد عفيفى مطر، ولكل المصريين، فإهانة مصرى واحد إهانة للمصريين جميعا، نحن إذن مدينون بالاعتذار لمصر، نحن جميعا و أنت معنا يا سيادة الرئيس، ولست أنشد الاعتذار منك لبعدك بل لقربك، ليأسي من العلاقة بيني وبينك بل لأملى فيها، وما أطلبه لأمر يسير، بل لأمر عظيم وطامة نزلت وطال مكثها و لخطب جلل حان أن ينقشع، متوسما أن ما بيني وبينك يجب أن يجرى مجرى العلاقة بين حاكم حر ومواطن حر، تكمن حريتهما فى عبوديتهما لله الواحد القهار، لا لأحد سواه، حيث من العبودية الحقة تنشأ الكرامة الحقة، ويشمخ كل ما نعتز به فى وجودنا الإنسانى ونفخر، وبدونه يا سيادة الرئيس لسنا سوى أجداث من التراب جئنا و إليه نعود، بلا كرامة ولا جاه ولا قوة ولا بنين ولا مال ولا عز ولا سؤدد، ألا فانظر إلي كل مانملك من زخرف الدنيا وزينتها، أنظر إليه بعد ثلاثة أيام فقط في القبر كيف

يكون، إلي تلك السوائل الكريهة والعطن، إلي الدود والعفن، ساعتها يا سيادة الرئيس : ما هو الفرق بينك وبيني وبين محمد عفيفي مطر، أو بيننا وبين تلك النماذج البئيسة التي يسقط موتاها ضحية قوة غاشمة باطشة يتستر عليها آخرون و أنت عن الجميع أمام الله والأمة والتاريخ مسئول، بعد سبعة أيام كيف نكون وكيف يكونون، وبعد عام، وبعد ألف عام، أم تراك تملك لحظتها عبيدا لك من دون الله يبطشون بي أو أملك أنا قلما أنافحك به، أم أن الله قد خلق لك - يا عبد الله - جسدا لا يبلى وعمرا لا يفنى . يا سيادة الرئيس : كلنا لا يأمن مكر ربه فلا تستنكف مني أن أهدى إليك عيوبك، ولا تستنكر منى أن أحاول قدر جهدى أن أدفع بيدىّ الكليلتين عار الدنيا وذل الآخرة .

لست يا سيادة الرئيس بمدع الشجاعة ولا بمنكر أننى أخافك وأخشى بطش رجالك، لكننى عندما أجابه الأمر وعيني على الله يبتلع خوفى الأكبر خوفى الأصغر، ورعبى الأكثر رعبى الأقل، عندما أقارن الدنيا بالآخرة تهون عندى الدنيا بما فيها، لأنني : ونحن يا سيادة الرئيس على أعتاب الآخرة ليس بيننا وبينها - مهما كانت الأعوام والسنون - سوى طرفة عين، لحظة يرتد فيها إلينا البصر وهو حسير، أتخيل تلك اللحظة، وما بعدها، حين نقف عراة مجردين، لاحول ولا طول ولا قوة ولا حيلة، ولا قول أيضا، حين تذوى حججنا، وتسقط ادعاءاتنا وأكاذيبنا وجرأتنا على الله، وتسترنا بالفضيلة حين نرتكب الرذيلة، وتمويهنا للشر بالخير، خداعنا، أمرنا بالمنكر، حين نقف أيها الملك أمام مليكك، ملك ملوكك، فتكون أكثر منا خوفا و أقل أمنا، حين يسألنى الله عن نفسى ومن أرعى ويسألك عن ألف ألف ألف نفس .

لست طالب شيء من دنياك ياسيادة الرئيس، فعندما يعيش الموت في قلب إنسان لا يطيب له من الحياة طيب، وعندما يتمثل الله أمامه يهون عنده ما عداه . لست طالب شيء من دنياك، لكننى أحاول أن أنصرك بردك عن ظلم يسومه الناس بعض نظامك، وإنى لأعجب كيف تقسو على نفسك كل هذه القسوة وتحملها كل تلك الأوزار أمام الله والأمة والتاريخ .

يا سيادة الرئيس :

لست بطامع بشيء من دنياك لكنى أطمع فيك أنت، ولعل طمعي فيك هذا هو الذى أغرانى على مواصلة الحديث إليك، وعلى أن أنتقى من الأوزار والخطايا - التى أناشدك أن تتوب معنا عنها وعما سواها إلى الله و أن تعتذر معنا إلى مصر - خطيئة التعذيب، تلك التى كرست لكشفها قلمى منذ أمد طويل، يعلم الله لا لإحراجك ولا لإدانة نظامك بل لأنها وصمة عار أغار عليك أن يتسم بها عهدك، فالله هو الذى يعذب لا أنتم . . . .

الله لا أنتم . . . .

الله لا أنتم .

الله لا أنتم .

نحن مدينون بالاعتذار لمصر "٢"

لماذا يا أحمد عبد المعطى حجازى لم تشعل النار فى الصمت، لماذا لم تسرج من صافنات القوافى مهرة تطارد بها صمت الفيافى، لماذا لم تضرب عن الطعام حتى الموت حين عذبوا إنسانا – أي إنسان –، فإن لم يكن من أجل الإنسان مجردا فمن أجل صديق عمرك ورفيق دربك محمد عفيفى مطر حين فعلوا مافعلوه به .

لماذا لم تقل لسيادة الرئيس ، الذي لما يحكم بينى وبين رجاله منذ حكّمته، رجاله الذين أنكروا علىّ صدق الحديث ويعلم الله – ويعلمون هم أيضا – أننى لم أتجاوز الصدق ولم أجرؤ على الحق، ربما كان يصدقك أنت ولو كذبوك، فيوقف ما يحدث، ويمنع تكراره ، ويحاسب المجرمين الذين ارتكبوه .

لماذا لم تترك مساحتك التى تكتب فيها في الأهرام بيضاء بلون الكفن، أو سوداء بلون الظلم أو حمراء بلون الدم .

لماذا لم تعلن أن مشكلتك لم تعد أن ترى مالايُرى بل ألا ترى مايُرى، ولماذا لم تحرق مجلتك .

لماذا يا فاروق شوشة لم تصرخ فى المذياع أن لغتنا لم تعد جميلة بعد أن تحطمت أبجديتها فى صراخ شاعر .

لماذا يا أحمد عبد المعطى حجازى ويافاروق شوشة لم تتأجج مشاعركما وتنثال ألفاظكما وينهمر نظمكما على ما حدث لمحمد عفيفى مطر، لماذا ؟؟ .

لماذا صمتّم أيها المثقفون .

إن أكثر ما يبعث على العار فى نصف القرن الأخير ليس هزيمة ١٩٦٧ ولا حرب الخليج بل موقفكم المزرى، لقد عجزتم عن الدفاع عن القيم المجردة التى لا يجب أبدا أن تتجاوز، عجزتم واندفعتم فى مسارب فرعية وخلافات لفظية وما ادعيتم أنه صراعات فكرية ، ناكصين عن إرساء المعايير والقيم الثابتة للأمة

ونظام الحكم معا، بحيث يمكن الرجوع إليها كما يرجع اللغوى إلى المعجم والرياضى إلى جداول الرياضيات كلما استشكل عليه أمر، التبس الأمر على الأمة فلم تعد تعرف من خلال تطاحنكم من هو الكبير ومن هو الحقير، من الصادق ومن الكذاب، من الشريف ومن اللص، من البطل ومن الخائن، من البرىء ومن المجرم، من الجانى ومن الضحية، خنتم الأمة يا أمناءها و أضللتموها يا أدلتها وفسقتم فيها يا أئمتها، تضخمت ذواتكم لتعويض خوائكم ونسيتم الإنسان الذى تدعون أن كل إنتاجكم موجه إليه، ولم يكن كذلك وكان أولى بمعظمه مقالب القمامة . . . . . .

لماذا لم تطرقوا الجدران . . .

فى رائعة غسان كنفانى " رجال فى الشمس " يهرِّب قائد شاحنة المياه الأفاق شحنة بشرية من ثلاثة باحثين عن الرزق فى صورته البيولوجية الدنيا، بعد أن ضاقت بهم الدنيا، يضعهم فى خزان المياه الفارغ، وعبر الحدود العراقية الكويتية تصليهم شمس الصحراء لهيبها وهم غارقون فى جحيم الصمت خوفا من أن يكتشفهم حرس الحدود الكويتيون ، يصمتون قليلا كى يعيشوا بعد ذلك طويلا، لكن، بعد أن يعبر القائد الأفاق الحدود يكتشف موتهم جميعا، فلا يملك إلا أن يتخلص من جثثهم فى مقلب قمامة العاصمة، وتستبد به الدهشة، فلو أنهم صرخوا : ما ذا كان سيصيبهم أكثر من الموت الذى أصابهم فعلا من جراء الصمت ، لقد صمتوا لكى يعيشوا، فلماذا حين أوشكوا على الموت لم يتكلموا، لم يصرخوا، حتى الأفاق يصرخ : لماذا لم يطرقوا الجدران.

فلماذا لم تطرقا الجدران يا أحمد عبد المعطى حجازى ويا فاروق شوشة .

لماذا لم تطرقوا الجدران أيها المثقفون .

لماذا لم تطرقوا الجدران - فيما عدا طرقتكم الأخيرة - أيها الصحفيون .

هل تصدقون أن التعذيب يحدث أم لا تصدقون .

أم اقتنع بعضكم أن التعذيب مسلط على الإرهابيين فقط، وكأنهم ليسوا بشرا .

هل تدركون الآن أن حجة الإرهاب كانت ستارا يستر عورة منهج، فالإرهاب يمكن مقاومته بالقانون لا بإهدار القانون، ولم يكن الأمر أمر إرهاب ، فعادل حسين ليس إرهابيا وإلا فخبرونا أين القضية التى سُجن على ذمتها، محمد السيد سعيد أيضا ليس إرهابيا و لا محمد عفيفى مطر ولا مجدى حسين و لاعبد العظيم مناف و لاحمدين صباحى و لاعلى القماش و لاصلاح بديوى ولاخالد الشريف و لا أيمن نور و لا عبد المنعم جمال الدين و لا سيد عبد العاطى و لا مجدى حلمى ولا أحمد شحاتة و لامحمود شاكر و لا عبد الوهاب السهيتى و لامحمود الشاذلى و لا محمد عبد النبى و لا مجدى حنا و لاحمدى شفيق و لا ثروت شلبى و لا عامر عبد المنعم و لا محمد القباحى و لا عامر عيد و لا مدحت الزاهد و لا مصطفى السعيد و لا إبراهيم فتحى و لا الدكتور فخرى لبيب و لا صلاح العمروسى و لا أحمد عبد الرازق ولاحسين بدوى و لا محمد يوسف الجندى ،كل أولئك لم يكونوا إرهابيين بل صحفيين ومفكرين .

لماذا لم تطرقوا الجدران إذن .

يجب أن أقرر أن كل تعذيب مدان أيا كان ضحيته و أيا كان مبرره ، التعذيب جريمة، والقائمون به مجرمون، وحتى لو غزا النظام الذى يقوم به أجواز الفضاء وحقق المجد والثروة والنصر للوطن ، حتى لو لم يكن النظام القائم به نظاما فاسدا همجيا يقود وطنه و أمته إلى الخراب، حتى لو ساد من يقومون به العالم فإنهم مجرمون أمام الله والتاريخ والإنسان .

لماذا لم تصرخوا بذلك أيها المثقفون . لقد كان أمامكم محمد عفيفى مطر، ليس له - فيما أحسب - لحية ولا يحمل مدفعا ولا قنبلة بل قلما وقرطاسا .

كان ينزف من أجل الوطن، وكان شعره نزيفه :

أرضك مفترق تتسع به أرض الأغيار

وتعبره أمم وجيوش

للأقوى وعبيد الأقوى، ميراث أنت لمن يرثون

على كتفيك تكسرت الأمواجُ تواريخ مجاعاتٍ

وطغاةٍ منكسرين ومزهُوِّين . . .

تلك أيها المثقفون، تلك يا أحمد عبد المعطى حجازى ويافاروق شوشة كانت وثيقة اتهام محمد عفيفى مطر، ذهبوا إليه واصطحبوه إلى لاظوغلى، وفى فجره الأول هناك ساموه سوء العذاب :

الليل صقيع و روائح لحم الإنسان المشوى طرائد

منسرح الريح، الشاعر يتلقط لحم جوارحه

ويسح دم

والشاعر يركض . . علّ المطر الأسود يغسله ويذيبُ جوارحه فى البرق وينثره خرزا

انتبهت أعضائي فى حلم المذبحة الكونية

أبتدىء الركض لآخذ موضع أسمائي الحركية

والعلنية فى قافلة المذبوحين وقافلة الأسرى

أيقظنى الفولاذ البارد

كنت أميرا يمرق فى " تشريفة " صفين من الأشباح .

لا يصف محمد عفيفى مطر ماهى الـ«التشريفة» لكن كتاب "دفاعا عن حقوق الإنسان" يعرفنا بها، حين يتم تجميع المحتجزين على ذمة قضية واحدة لدى وصولهم إلي السجن، حيث يتعرضون للضرب المبرح بالأيدى واللكمات والركل وكعوب البنادق والسيور الجلدية وخراطيم المياه والعصى الخيرزانية والكهربية والسياط، وعادة يتم الضرب على مرحلتين قد تعقبهما مراحل أخرى بتكرارية عالية فى بعض الحالات، وتكون عمليات التعذيب التمهيدى بالضرب داخل الأماكن التى تسيطر عليها مباحث أمن الدولة جزءا من عملية الاستجواب التى يُقصد بها أحيانا

الحصول على اعترافات أو معلومات أو تجنيد أشخاص للعمل لصالحها، لكنها فى أحيان أخرى تكون للعقاب والتأديب .

هل كان محمد عفيفي مطر إرهابيا، ألم يكن شاعرا كبيرا ومعروفا على مستوى الوطن العربى كله، ويعرف معذبوه أنه سيخرج بعد الإفراج عنه ذات يوم ليفضح ماحدث له، يعرف المعذبون إذن أن ثمة سلطة أعلى - غير سلطة الشيطان - تمنحهم الحصانة وتحميهم من أى محاولة للكشف أو للعقاب ، مهما انكشف أمرهم، والأمة لا تهمهم طالما ملكوا السياط والرصاص والسجن، والمثقفون عجزوا عن صياغة المعايير والدفاع عنها كما دافع الصحفيون عن قضيتهم وقضية حرية الوطن . لماذا سمحوا بانقلاب الوضع، حتى أضحت المعايير تطبق عليهم بدلا من أن يصوغوها، و أصبح الطواغيت هم الذين يحددون وضع المفكر ومدى صحة فكره ، ماهو الصحيح وما هو الخطأ ، ماهو فى صالح الوطن وما هو ضده، وذلك وضع لا يضاهيه إلا أن يقود اللئيم الكريم و أن يحاكم المتهمون قضاتهم، و أن يضعوهم فى السجون .

اعتزل محمد عفيفى مطر كل ذلك فى تعال وكبرياء طيلة حياته، فقد كان - قبل أن يكابد الهول الذى لاقاه بنفسه فى لاظوغلى - يرى الشرطة السرية وكأنها مبثوثة فى الكون :

أرى عيون الشرطة السرية

تلمع من وجه إلى وجه

تنسكب في الشوارع الخلفية

كل قفا وراءه عينان تخرقان ظلمة النخاع .

تتحول الشرطة السرية فى وجدانه إلى أشباح، ليست قادرة على اصطياده فقط، بل إلى غزو وجدانه أيضا، حين لا يكتفون بأسر جسده، بل يقطفون روحه، يشكلونها كما يشاؤون، فالقمع الذى يكابده فى أعماقه يفعل به أسوأ مايمكن أن يُفعل بإنسان، يسلبه هويته، قدرته على السيطرة على نفسه وتحديد مصيره، يشيّئه، بل و يحول الوجود حوله إلى شرطي كبير، فهل فعلوا

بكم مثل ذلك يا أيها المثقفون ؟! :

تخرج من دفتر الأعمال والأقوال

أشباحها المرصودة

كل جدارٍ، كل معبرٍ، كل زواياالأرصفة

أقدام شرطى يسير سيره المنتظما.

وبحجم ذلك الكائن الخرافى الوحشى يكون حجم خوفكم :

وقفت بين النطع والسياف

مستجمعا مملكتى الخفية

وارتعشت فى يدى مواسم القطاف

وانفجرت خلية خلية

تحجرت وارتعدت مفاصلى من خوف أن أخاف . .

أيها المثقفون الذين لم يطرقوا الجدران فخانوا قضية الإنسان وخانوا أنفسهم، أيها المثقفون فى المستنقع (المستنقع ليس صفة، بل إسم مقصف حقيقي يذهب إليه بعض المثقفين)، ماذا فعلتم عندما عذب محمد عفيفى مطر، لا كمجرد فرد بل كرمز لكل من ذهب هناك ودليل لا يدحض على التعذيب، يامن صياحهم فى الصغائر زئير أسود كواسر، ماذا فعلتم فى الفجر الثالث له فى لاظوغلى حيث يصف ما حدث له :

أقسى من الموت ارتعاش الموت فى الشلو الذبيح

من معصميك لكاحليك

كابدت وحدك أيها النحات

فليس من شىء لشيء غير عصف الروح فى عصف الرماد

مستحدث الكيمياء يكشط من ظلامك طينة

للخلق فالملكوت يسطع

والحشود المبهمات، و أنهر الدم، والملوك

على الأرائك يتكى الجلاد منتظرا سقوط الصقر
محترقا بجائش حلمه ...

يقصد الشاعر بمستحدث الكيمياء تلك الأقراص التى أرغموه على ابتلاعها، والتى كانت تسبب له اضطرابا شديدا فى أحاسيسه وفقدانا للوعى . كما يصف الضابط الجلاد الذى يجلس متكئا على الأريكة فى انتظار انهياره، وتحت ظلام العصابة التى عصبوا بها عينيه ينفجر الضوء بين قوائم عرش الجلاد :

ست وخمسون ارتمت عنها مهلهلة الثياب

وصرصر هبت فخشخشت الضلوع

لوّحت من هلع الذهول

وصرخت فابتدرت يد الجلاد ناصيتي وشد وثاق عينىّ
المشاكستين بالرؤيا

ومكنون التذكر والعناد

فرأيت جوهرة الظلام على قوائم عرشه انفجرت
نهارات مضوّأةٍ و أشهدنى مقام الذل تحت يد الأذلاء
المهانين :

الدهور تفجرت أجداثها بالثأر،

فالأمم المُـوَبَّـدةُ الذحول

هبت دفائنها وقام الوحش وانتشر الجراد

وتخشعت أمم الحشائش والهوامش والخواء المستذلُ

تفاصحت فى الموت أعلام الذبول

وتحللت إرمٌ وعاد

فى الغائط الكلبىِّ والنفط،

البلادُ وظلمة الملكوت عهنٌ طائر،

وتخطفت جسدي المناسر والعصىُّ

معلقا ومثبت الرسغين فى الأفلاك

فى أقصى الظلام .

* * *

يواصل تقرير منظمة حقوق الإنسان – والمنشور فى مصر – وصف أساليب التعذيب وقد يساعد ذلك على فك رموز الشعر وتكثيفه : " وبالرغم مما يتركه الضرب من آثار إصابية ممتدة، فإنه ليس أقسى أشكال التعذيب المتبعة فى مصر الآن، حيث يجرى على نطاق واسع استخدام وسائل أخرى لتكثيف الألم الناجم عن الضرب أو لإحداث آلام لا تطاق . . . . . من بين تلك الأشكال التعليق العكسى على الأبواب، أو التعليق من السقف بواسطة كرسى يربط به جسم الضحية وهما فى وضع مقلوب، أو حشر قضيب معدنى بين اليدين المقيدتين بجانب القدمين المقيدتين وتعليق القضيب على قائمين مرتفعين أو كرسيين ."

يصرخ محمد عفيفى مطر :

الأجواء غربان وبوم

والخلائق محض قيءٍ من جحيم الروح والهولات ترقص فى فضاء الرعب

. . . .

خذى كفّىّ من قيد الحديد ألملم الشفّ المشقق

كان جلادٌ بكعب حذائه يهوى علىّ فطقطقت ضلعُ

. . . .

ارتميتُ

وليس من وطن سوى هذا الرماد .

أين كنتم أيها المثقفون وذلك يحدث، لقد سقط الكثيرون منكم فى مقولة مقززة تهامس بها بعض اليساريين ليشوهوا ماضيا طالما احترمنا تضحياته ، حين برروا التعذيب لأنه موجه لعدوهم التقليدى : الجماعات الإسلامية مسقطين من جحيم الذاكرة أنهم هم أنفسهم قد تعرضوا للتعذيب ذات يوم، كان موقفا مزريا، وكان المبرر له أشد زراية، إنهم يدركون أنهم لا يستطيعون الوصول إلى

الحكم حتى لو حدثت المعجزة ذات يوم و أجريت انتخابات حرة ، وهم لا يستطيعون مواجهة الجماعات الإسلامية كما لا يستطيعون مواجهة الحكومة، فلينهك كل منهما الآخر إذن، أو ليقض عليه، وليشعلوا هم النيران كلما توجسوا منها الانطفاء كي تخلو الساحة من عدويهما القويين : الحكومة والجماعات الإسلامية . مرة واحدة يكسر الإنسان مبادئه و يخسر شرفه، كي يعيش بعد ذلك باقي عمره بلا مبادئ وبلا شرف، هل كان محمد عفيفي مطر يا بعض اليساريين إرهابيا ؟ أم كان شاعرا فحلا نفيتموه من فردوسكم لأنه رفض طول عمره الانضواء تحت لوائكم كما رفض أن ينطق بالشهادتين: شهادة لماركس وشهادة للينين!! كان قوميا عربيا إسلاميا، وتلك الأخيرة لم تغفروها له، وبرغم اتفاقكم معه فى توجهات كثيرة سكتّم عنه، لأنكم فى صمتكم عن التعذيب المسلط على أعدائكم مستعدون لتقبل أى تجاوز و أى جريمة، فالغاية تبرر الوسيلة، لقد بلغ السوء - عذرا أيها القارئ فقد آليت على نفسى أن أستعمل أهدأ الألفاظ وأقلها حرارة كي لا أزيد من النار التى تتأجج فى قلب الأمة، لكن كلمة السوء هنا لا تعبر عن الحد الأدنى -، ليس السوء إذن بل العهر، بلغ ببعضهم أن فسر علامات التعذيب التى تصفها تقارير الطب الشرعي وتوردها حيثيات أحكام المحاكم، بأن المعتقلين يلحقون بأنفسهم هذه الإصابات كي يدّعوا أمام المحكمة أنهم أدلوا باعترافاتهم تحت وطأة التعذيب، ولم يفسر لنا العُهّار كيف مات من ماتوا من التعذيب، وكيف اختفى من اختفى فيمن تصف منظمات حقوق الإنسان اختفاءهم بالاختفاء القسرى، وبلغ السوء بالبعض الآخر، أن راح يشكك فى احتماليات حصول منظمة حقوق الإنسان، على تمويل من الإرهاب كي يكتبوا عن التعذيب، ولمثل هؤلاء لا أوجه حديثا، لكننى أقول للقارئ، أن سلطة الدولة ممثلة فى النيابة والشرطة وصحافتها، لم تكن لتترك أبدا حالة واحدة يمكن أن تخطئ فيها المنظمات، ولو بالصدفة، كي تنتهز الفرصة لتلحق بهم أقسى عقاب ولتشكك فى جميع ما ينشرونه، و أنهم أيضا، لم يكونوا بتاركي كلمة واحدة فى هذه المقالات مالم يكونوا واثقين أننى أعتمد فيها على مصادر شتى كلها موثق، و أنه خير لهم أن

يغضوا الطرف عنه ففى المساءلة عنه كشف للخفى . يدّعى بعض اليساريين ذلك، رغم أن معظم أعضاء منظمات حقوق الإنسان من اليساريين، وربما كان أداؤهم البطولى، هو الدليل الرئيسي الباقى على أن النضال اليسارى كان نضالا حقيقيا، ولم يكن كما هو حاله عند البعض عمالة، أو نضالا مدفوع الأجر، فضح خونته جورباتشوف، عندما كشف عن الكشوف السرية للـ KGB، وأسماء من كانوا يتقاضون منها نقودا .

لكن: هل ندين اليساريين فقط؟

أم أن العار يلحق بكم جميعا يامثقفى الطوائف، يا خدم؟!.

أين كنتم أيها المثقفون، يا حاملى راية الدفاع عن الإنسان والإنسان يذبح، لماذا عجزتم طيلة نصف قرن على الاتفاق على قيمتين فقط : منع التعذيب ومنع تزوير الانتخابات، ولو اتفقت طوائفكم المتناحرة على هاتين القيمتين فقط لما وصل الحال بالأمة إلى ما وصل إليه .

أين كنتم أيها المثقفون النقاد حين صدر ديوان الشاعر محمد عفيفي مطر : « احتفاليات المومياء المتوحشة » عن دار سينا للنشر، فلم يكد يقربه منكم أحد، تكتمتم أخباره وتسترتم عليه كما تسترون عورة وتتقون جحيما قد ينفتح عليكم إذا كتبتم عن عمل لا ترضى المباحث عنه، أين كنتم يا شيوخ النقاد، وهل أصبح من شروط النقد ومعاييره رضاء المباحث عن العمل الفنى، وهل يسبق تقييمها تقييمكم فعما أجازته تكتبون وعما ازورت عنه تزورون ؟! . الآن أسأل والتساؤل جمرات، أين كنت يا أحمد عبد المعطى حجازى ويا فاروق شوشة و يارجاء النقاش وياعبد المنعم تليمة ويا شكرى عياد وياصلاح فضل ويا عبد القادر القط وياجابر عصفور ويافاروق عبد القادر وياعز الدين إسماعيل ويا أحمد كمال زكى ويا على الراعى، أين كنت ياجمال الغيطانى ويا يوسف القعيد، ولماذا يامحمد سلماوى لم تنقل لنا إدانة نجيب محفوظ لما حدث، لماذا حتى لم تستعد ماقاله فى أحد أعماله الروائية، كى تبرىء ذمة الرجل من عار الصمت عن التعذيب أيا كان زمانه ومكانه ومبرره . ففي لحظة يفيض فيها ظلم الجهاز

الباطش الجبار يصرخ نجيب محفوظ هذه الصرخة فى« حب تحت المطر » :

" رجال الشرطة شياطين، وهم يملكون جحيم الأرض وينفثون النيران في الوجوه الشاحبة، يطرقون الأبواب بأيدي أليفة كالأحباب ثم يفتحون البيوت كالأعاصير . ويقف الكهل بين أيديهم مجردا من الكرامة فيفترس الخوف قلبه ويوقن بأن الحياة وهم وضياع، وينقبون الجدران والحشيات والجيوب والخزائن فتتلاشى المسرات والأخيلة، عند ذاك يسير بينهم بلا أرجل، بلا أعين، بلا غد."

ثم مايلبث أن يردف : " . . . أنه قوة مخيفة تعمل فى استقلال كلى عن القانون والقيم الإنسانية ".

هل ذلك ما أخاف النقاد من الكتابة ؟ يصرخ حلمى سالم ناعيا تجاهل النقاد للديوان : " ألا ما أبأسها من حياة نقدية " ، لكن حلمى سالم، وفى مجلة حكومية أو شبه حكومية هى مجلة الهلال بعد أن يقر بالتعذيب الذى تعرض له محمد عفيفي مطر، لا يدين هذا التعذيب صراحة، كما لو كان ظاهرة من ظواهر الطبيعة، كالبراكين والزلازل، شيء لا يجوز انتقاده، شيء أكبر حتى من القدر الذى يمكن للإنسان أن يدعو الله باللطف فيه . يقول حلمى سالم : " هذه القصائد هى ثمار تجربة الاعتقال والتعذيب التى مر بها الشاعر أثناء حرب الخليج (العراق - الحلف الأمريكي الغربى) حيث تم حبسه بسبب رفضه لوحشية التدمير التى قادها الأمريكيون ضد العراق - نظاما وشعبا - ورفضه للتواطؤ العربى مع هذا التدمير الوحشى . وهو الاعتقال الذى مورست فيه على الشاعر ألوان ضارية من التعذيب والتنكيل ."

مجلة حكومية أو شبه حكومية، تتحدث بكل بساطة عن ضراوة التعذيب والتنكيل، دون أن تنقلب الدنيا وتقال الحكومة ويصدر النائب العام أوامره فتتحرك الشرطة لإمساك المجرمين . فلماذا يا أحمد عبد المعطى حجازى ، حين عانقت الرئيس مهنئا، لماذا لم تجث على ركبتيك أمامه، تتوسل إليه بالدموع والألم، أن هذا الشعب الطيب المغلوب على أمره لا يستحق من بعض نظامه كل

هذا السحق، و أن الأمة التى هرعت إليه تحيطه بقلوبها وحبها حين تهدده خطر، تستحق منه، أن يقيل الحكومة و أن يحاسب المجرمين، لماذا يا أحمد عبد المعطى حجازى لم تجأر بالصراخ أمام سيادته، كى تنقل إليه صراخ المعذبين، فإن كانت تلك السنوات التى قضيتها فى فرنسا ، حين باعك قطار الجنوب فى الشمال، قد أنستك صراخ المعذبين ، فهل أنستك أيضا صرخات إخوانك، لماذا تخليت عن صديقك محمد عفيفي مطر ، لماذا لم تتذكر شيئا من شعرك القديم العذب : " ياليت أمى وشمتنى فى اخضرار ساعدى / كيلا أتوه / كيلا أخون والدى / كيلا يضيع وجهى الأول تحت وجهى الثانى "، و لماذا لم تتل له بدلا من كلمتك أو حتى معها شيئا مما كتبه صديقك عن محرقة لاظوغلى فى سادس أذان للفجر له هناك، حين راح يحلم فى عذابه المجنون المجرم بشربة ماء !! :

تحت العصابة كان وقت من دم

والأفق مشتعل بوهج حريقه الممتد

أنت تهز رأسك

تستفيق من المخدر وانتهاك الذاكرة

شيئا فشيئا.. تخرج النهر المخبأ تحت جلدك

أغيمة تبدو أم الإبريق صلصلة من الظمأ المفضض فى العراء .....

قلت اغسل القدمين والرسغين، أطفىء جمرة الفولاذ تحت أساور الصلب المحبك

وارتخت فى القيد أطرافى

وكنت أفيق من خلط المخدر وانتهاك الذاكرة

شيئا فشيئا..

قبل أن تبتل أطرافى انتبهت على فحيح الموت

يفهق فى العصى وفى كعوب الأحذية .. :

- قم، طأطىء الرأس، استدر، واصعد، وقف ..

كان الهواء رطوبة وحرارة وزهومة تعلو عفونتها . .
ورائحة الشواء كأنها نتن الخليقة فى سهوب الموت
وكان القيد فى الرسغين جمرا نابضا :
- " هيئه واحذر أن يموت فعهدة الأفراد كاملة الدفاتر " . .
كنت مشبوحا وسلك الكهرباء على يدىّ
وكان برقٌ من وحوش الطير ينهش ظاهر الكفين . .
تنبش ثم تلقط . .
لا دمى يكفى ولا يكفى طحين العظم . .
فانظر هل ترى !! لا شىء يبقى من بلادك غير جير العظم . .
هل وطن سوى هذى المسافة بين لحمك فى الجحيم وبين سلك الكهرباء . . . .

* * *

فلماذا يا أحمد عبد المعطى حجازى، وقد حزت شرف الحديث عن المثقفين أمام الرئيس، لماذا لم تتحدث بوجهك الأول، لماذا لم تقل له أن ضمير الوطن والأمة والتاريخ يصرخ، و أننا جميعا، وهو فى القلب منا، مدينون بالاعتذار لمصر .

الراية البيضاء "١"

ترى : هل تكره - مثلى أفلام الكارتون والميكى ماوس يامحمد عفيفى مطر ؟!.

كلما - بحكم الصدفة - شاهدتها تخيلت أنهم يسخرون منا، أن إسرائيل، - كرمز، ورأس رمح، يتخفى وراءه الغرب كله - هى الفأر الصغير الظريف الذكى، و أننا القط الكبير الغبى الأحمق الذى يقع دائما فى نفس الأخطاء لتحل به ذات الكوارث فيحملق فى غباء ودهشة دون أن يعرف السبب، ودون أن يفهم، ويروح يكرر ذات الأخطاء، كلما تعرض لذات المواقف، حتى يصبح أمام عدوه مجرد دمية تحركها الخيوط، وكلما أراد الميكى ماوس أن يدفعه إلى فعل ما، يحطم فيه نفسه من جديد، لم يفعل إلا أن يشد خيطا من تلك الخيوط التى تجمعت فى يده، والتى ساعده القط الغبى نفسه فى تجميعها، بل ونراه يهرع بإخلاص غبى، لتسليمه أى خيط يفلت من يده، ولتنبيهه لأية ثغرة لا يراها !!.

تبدو إسرائيل كفأرة كمبيوتر، لا تساوى فى حد ذاتها الكثير لكنها تنفذ برنامجا هائلا لجهاز كمبيوتر عملاق خفى، يرى الحاضر كله والماضى كله ويخطط للمستقبل كله، بينما القط الغبى الأحمق لا يرى حتى ما تحت قدميه، فقد أقنعه الفأر الذكى أن يلبس عوينات كى يرى أفضل، وكانت تلك العوينات أسوأ من العماء، فالعماء قد يتيح لوسائل الإحساس الأخرى، وللعقل أن يروا، لكن تلك العوينات، لم تكن عوينات، بل شيئا كصندوق الدنيا، لا ترى به العالم بل وهما لا يوجد، يمنعك من رؤية العالم، وهكذا، لم تترك العوينات الخادعة للقط الغبى الأحمق المخدوع أن يرى سوى ما يريد له عدوه أن يراه . . !!.

فى عام ١٩٤٨ اندفعت القطط الغبية الحمقاء ليسحقها الفأر،

وهى لا تفهم كيف، وعادت، لا لتلعق جراحها، بل ليصب كل قط منها جام غضبه على كل قط آخر، مدينا له، لا يرضى له دون الموت بديلا، والفأر يضحك . . !!

فى عام ١٩٦٧، حين سحق الطيران المصرى فى أقل من ساعتين، صرخ موردخاى هود - قائد سلاح الجو فى فلسطين المحتلة - أن ما حدث يفوق أعظم أحلامه جنونا، وسئل موشى ديان كيف فعلها، كيف استطاع، فأجاب أنه كرر ضربة ١٩٥٦ بحذافيرها بعد أن ظل يدرب قواته عليها عشرة أعوام كاملة، فسألوه كيف لم يخش أن يكون المصريون قد أدركوا خطأهم السابق و أنهم لن يسمحوا بتكراره، فأجاب إجابته التى لما تزل بعد أكثر من ربع قرن جرحا مفغورا : إنهم لا يقرأون، فإذا قرأوا لا يفهمون، فإذا فهموا لا يفعلون .

وكان القط الغبى يحملق دهشا . والميكى ماوس ليس أنفا مقوسا ولا صوتا أخنفا بل قوة هائلة كقوة الغيب والأساطير سحقته، فلما سحقته راح يسبغ عليها صفات الأسطورة كى يبرر حجم هزيمته .

من ٦٧ إلى ٧٣ أدرك القط بعضا من حقائق قوته، و أخفى بعض الخيوط عن عدوه، حتى كاد أن ينال منه، لكن القط الأحمق توقف حين كان يجب أن يتحرك، وتحرك حين كان يجب أن يتوقف، وأمسك فى اللحظة الحاسمة عن التفكير ليسرق منه الميكى ماوس ثمار نصره . لتعود الأمور كما كانت بل أشد سوءاً.

وعندما قامت الثورة الإسلامية فى إيران كان ذلك انفلاتا لخيوط عديدة من يد الميكى ماوس، وراحت القطط الغبية تسعى لإعادة الأمور إلى ماكانت عليه، وراح الفأر يشحذ مخالب القط، ويسن له أنيابه، ويستثير حماسه، ونشبت الحرب بين العراق و إيران، وكانت العراق معتدية، لكن استمرار الحرب كان خطأ فاجعا من العراق و إيران معا، خطأ فادح كان يسحق فيما يسحق أمن الأمة كلها، بل وربما وجودها، وكان القط الغبى الأحمق يصارع فى المرآة نفسه فيفقأ بمخالبه عينه، ويقطع بيده يده الأخرى، والفأر الذكى يقهقه مدعيا مساعدته، فيكيل له الضربات الساحقة، أمام

المرآة، موهما إياه، أنه إنما يكيلها لعدوه، وكلما استشعر الغبى مزيدا من الألم ناشد عدوه، الذى يظنه صديقه وحليفه، أن ينتقم له و أن يحميه، بأن يزيد من ضرباته !!.

أيامها، قلنا ذلك، وحذرنا الجميع، وتنبأنا بأن الميكى ماوس بعد أن ينهك الطرفان بعضهما، سيتكفل هو بسحق الطرف المنتصر .

وحرك الفأر خيوطه فغزا العراق الكويت، وكان خطأً فادحا، بل كان جريمة و إن كان لها حساباتها الحمقاء التى تجاوزها الزمن وقصرت عنها القدرة، وكنا نرى باقى اللعبة، فحذرنا، صرخنا، كان ممن صرخ معنا محمد عفيفى مطر، لكن كان ماكان، وكان جريمة أفدح لا حسابات لها، أو على الأحرى كانت كل الحسابات تصب فى جعبة العدو، وضدنا، واستعاد القط الغبى بنفسه من نفسه كل خيط أفلت، وعقد كل أنشوطة ارتخت، وسلم الكل إلى الميكى ماوس مرة أخرى .

ما يحدث الآن تكرار فاجع، لقد انتهى الفأر أو كاد من تحطيم جبهات كل العرب والمسلمين، بقيت مصر، وهى فى حالتها الراهنة على مايتمناه العدو ويكرهه الصديق، لكنها تظل مكمن الخطر، والجزء القادر إذا استيقظ على قلب المعادلة، لذلك فلابد من دفعه إلى حرب مع السودان تخرجه من المعادلة نهائيا لعشرات الحقب، حرب مع السودان تقضى عليه والسودان، ويعقبها حصار كحصار العراق. لذلك أقول أن أى حرب مع السودان أمر بين الخيانة الدنيئة والخطأ الغبى، و أقول أيضا أن بعض أنواع الخطأ وبعض أنماط الغباء أشد سوءاً و أفدح تأثيرا من الخيانة.

بقيت مصر، المطلوب عزلها، حصارها، دفعها إلى حرب أهلية كالجزائر، و إلى حصار وسحق وتدمير كالعراق .، و إلى خنق كليبيا، وترويض كسوريا، و (. . .) كالسعودية والخليج، ثم إلى ثأر بينها وبين الأمة العربية والإسلامية، يجعلها حين تقع فى براثن الوحش - الذى طالما سخر منا فأوهمنا أنه مجرد فأر صغير- لا يبكى عليها أحد ولا يسعى لنجدتها أحد .

بقيت مصر حتى الآن راسخة كدوله، طيلة التاريخ المكتوب حافظ حكامها على حدود الدولة، الآن نرى الخطر ونحذر منه، فبعد

استنزاف الاقتصاد، وبعد السلب والنهب، وإهدار النصر الوحيد، والقضاء على معنويات الأمة، ودفع مصر ذات يوم أسود لضرب ليبيا، واستدراجها ذات حقبة سوداء لمحاربة شعب العراق، وبعد . . . وبعد . . . وبعد . . .، وبعد أن نصل إلى حرب أهلية كالجزائر، وإلى حرب مع السودان، بعد ذلك كله، سيكون من اليسير جدا، ليس مجرد تقسيم السودان، بل تفكيك مصر إلى دول ثلاث، وهو مخطط قديم ومعلن، يستطيع أى قط غبى أن يقرأه فى دوريات الميكى ماوس ومجلاته، ولقد قرأتها منذ بدايات عهد الرئيس مبارك، إن المخطط أن تقسم مصر إلى دويلة مسلمة فى الشمال، ومسيحية فى الجنوب، ثم دويلة نوبية تفصل بين مسلمى مصر فى شمالها عن مسلمى السودان، التى ستقسم هى الأخرى، لكن القط الغبى لا يقرأ، فإذا قرأ لا يفهم، فإذا فهم لا يفعل، أو فعل عكس المطلوب تماما تماما .

حين نشر هذا المخطط كان يبدو نوعا من الخيال ، وضربا من المحال، الآن، بعد أن حارب نصف العرب نصف العرب فى الخليج، وبعد أن هزم كل العرب كل العرب، وبعد أن حدث فى الكتلة الشرقية ماحدث، ترى هل مايزال الخيال خيالا والمحال محالا ؟!

لعلها أول مرة فى التاريخ يا أيها المثقفون، بل يا أيها الناس تكون وحدة الدولة ووجودها - كمصر الكائنة منذ فجر التاريخ - مهددة ومُتآمرا عليها، أول مرة يا سيادة الرئيس محمد حسنى مبارك.

مصر هى أهم الدول العربية والإسلامية، لذلك يجب أن يكون المخطط ضدها شاملا كاسحا جامعا مانعا، أن يفعلوا معها، بها، كل مافعلوه بإيران والعراق والخليج والسعودية والمغرب والجزائر وتونس . لقد حذرنا، ولقد تحقق دائما ما حذرنا منه، وهانحن أولاء نحذر من جديد . لكن القطط العمياء تندفع إلى مصير ليس هو القدر، بل هو الحماقة والغباء، فلا جديد فى مؤامرات الميكى ماوس ولا مخططاته، والقصة هى ذات القصة، كلحن موسيقى تعزفه آلات مختلفة .

محمد عفيفى مطر أيضا حذر ، ظل يحذر طيلة عمره، لكن

القطط الغبية الحمقاء - حين أدركت أنه يرى ما رأته زرقاء اليمامة - أسرته فى لاظوغلى، فلقد تجرأ ورأى العالم بعينيه لا بعوينات الميكى ماوس ، فراح يصف ما يرى، فاقرؤوه، فغدا - إن حييتم - تقرأون مثله لشاعر فى اليمن أو فى المغرب يحتج على العدوان الأمريكى على مصر، على قصف الأزهر والحسين، وموت الآلاف فى مخبأ فى باب الشعرية :

خمسين عاما . .

كلما نضجت جلود الميتين تقلبوا فى الجمر . .

واتسعت مسافات الحريق . .

الأبيض المتوسط انفجرت زعازعه بفيض الدمع والدم

- ليس من نصر يجىء -

. . .

خمسين عاما كنت شاهدها الضحية . .

والمقاود جررت فولاذها الريح العفية . .

عسكر الثوار، حفارو القبور المخبرون . .

نخاسة الأفكار فى الزيف الأجير . .

فَـخَـدَّدَتْ فى نازف الأرض الطرائق للخيول
وشاحنات السجن..

وَسّعَتِ المسالك للمدافن والنعوش . .

. . .

أنصت إذن لدماك تنزف من فتوق الذاكرة . .

أبناؤك التفوا - وهم ذبح سينضج وقته . .

فاجدل منادمة من الدم والكلام . .

هل ثم شىء كائن إلا نزيف الذاكرة . .

ومسابح الدم والكلام . .

كان محمد عفيفى يحذر ويصرخ وكان بعض السادة المثقفين قطا غبيا آخر كرس جهده للخلاف والصراع، لا مع العدو، بل مع بعضهم البعض، لا لتوحيد الأمة بل لتفتيتها، كان محمد عفيفى مطر يعلم – وبالطبع كان القط الغبى أيضا يعلم – أن الاسم الرمزى لحرب تدمير العراق ليس عاصفة الصحراء بل المجد للعذراء : Ave Mary ، كانت هذه الترتيلة الكنسية فى تحية وتمجيد العذراء مريم هى الصيحة التى أطلقها السفاح شوارتسكوف مع أول صاروخ فى حرب الخليج، و لقد كتبوا على صاروخ منها : إن كان محمدهم لايستجيب لدعائهم فليدعوا المسيح، كانت الصواريخ تنطلق لتدمير شعب العراق لا لهزيمة صدام، لو كان مقياس نتيجة الحرب مصير صدام فقد انتصر كما يقول، و إن كان المقياس تدمير شعب العراق واقتطاعه من قوة الأمة فخسىء النصر، وفى مخبأ العامرية فى بغداد قتل مئات المدنيين، من بينهم أكثر من أربعمائة طفل، بصاروخ من صواريخ الجزرة الأطلسية فى حرب الخليج ، يستعيد محمد عفيفى ذلك وهو معلق معذب مهان معصوب العينين فى جحيم لاظوغلى :

كان الليل تحت عصابة العينين ينبض ملحه المسنون
بالبرق المفتت والدخان ومشهد الموت الأخير

. . . .

ومئذنة يؤذن فوقها الجزار : Ave Mary
ومريم كانت اتكأت تهز النخل لا رطب ولا نجم سوى
الفولاذ منصهرا يئزُّ يؤُجّ يهطل
والدخان معارج الموتى وقافلة الحجيج. .
صوت المؤذن من رفات العامرية طالع متوضىء . .
باللحم والدم وانصهار الرمل والفولاذ بالموتى . .
و أنت تخب فى عار النجاة تقلب الكفين من مقهى
إلى مقهى..
ومن عار الحداثيين فى لغو القراءات الدنيئة

والضمير المسترق . .

من المهارشة الخصية من مصارعة الديوك على بقايا الغائط النفطى والتنوير فى ظل النعال

و أنت فى عار النجاة تخب . .

والصوت المؤذن رائق الترجيع . .

كان يثوِّب (يوقظ)الموتى

فينبعثون من روح الظلام . .

جماعة يتقطر الدم من وضوئهمو ومن قتلى الظهيرة فى الميادين التى امتلأت كتائب من سرايا الأمن . .

تبدأ ركعة الميعاد على ربوبيات لاظوغلى ونهش الكهرباء على المعاصم والمحاشم . . .

* * *

القط ، منذ هزيمته النهائية، منذ يأسه من تحقيق أى نصر حقيقى، أو أى تقدم فى أى مجال، انقلب على أبناء جنسه يسومهم سوء العذاب، فلا مجال لتحقيق نصر إلا عليهم، ولا للتنكيل إلا بهم، ولا الاحتقار إلا لهم ، ولا لحرب إلا معهم . فى دائرة خبيثة جهنمية، فولاة أمورنا يعذبوننا لأننا مهزومون، لكننا نرى أنهم مهزومون لأنهم يعذبوننا، كلما ازداد العذاب ازدادت الهزائم وكلما ازدادت الهزائم ازداد العذاب، ولم يفكر الحمقى أبدا فى كسر الدائرة، وربما كان محمد عفيفي مطر مستعدا للاعتراف فى أى وقت وبأى شىء، تحت وطأة العذاب وعقار الهلوسة الذى أرغموه على تناوله، والذى جعله يخال أن الكلاب ملوك و أن الملوك دمىً، و أن من حق كل القطط إذن أن تخاف وتستسلم وتذعن :

واسَّاقط الكفنُ المعقود ألوية : مجدٌ ولا شرفٌ،

والشعب تحت عراءِ العار يرتجف !

قد يسلم الترف المأبونُ فى زمن دَيُّوثُه الصحفُ

ها أنت تحت سياط الكهرباء وبين القيد والظلمات السود :

- تعترفُ ؟

- . . إن الكلاب ملوكٌ، والملوك دُمىً

والأرضَ تحت جيوش الروم تنجرفُ . .

. . . .

زحزحت فى قيد التعذيب قيد يدى

فاشتدَّ . . واهتزت - فى قطرة علقت تحت الجفون - سماء الله.. فالتقفت رأس القتيل جروح الصدع فى كبدى . .

. . .

دهر من الظلمات أم هى ليلة جمعت سواد الكحل والقطران من رهج الفواجع فى الدهور !!

عيناك تحت عصابة عُقدت وساخت فى عظام الرأس عقدتها،

و أنت مجندل يا آخر الأسرى ولست بمفتدىً . .

فبلادك انعصفت وسيق هواؤها وترابها سبيا وهذا الليل يبدأ، تحت جفنيك البلاد تكومت كرتين من لحم الصديد

الليل يبدأ

والشموس شَظِيَّةُ البرق الذى يهوى إلى عينيك من ملكوته العالى،

فتصرخ، لا تُغاث بغير أن ينحلَّ وجهك جيفةً تعلو روائحها فتعرف أن هذا الليل يبدأ،

. . .

هذا الليل يبدأ

فابتدىء موتا لحلمك وابتدع حلما لموتك

أيها الجسد الصبوٌر . . .

بعد عشرة أيام من التعذيب فى لا ظوغلى نقلوا الشاعر إلى معتقل طرة، فطفق يسترجع ملامح جلاديه، كأنهم قدُّوا أجسادهم من صخرة واحدة على قالب واحد فلا استثناء فى شيء، عيونهم لا يشبهها فى شيء إلا عيون الكلاب الميتة فى مجرور النهر ومستنقعات النتن الدهريّ، فكأن « خنوم » : إله صناعة الفخار وتشكيل الطين فى مصر القديمة صنعهم مرة واحدة واحتفظ بهم فى مخازنه حرسا سرمديا لفراعنة كل العصور، إنهم لا يؤمنون بإله آخر غير خنوم، وفى تدفق جحيمى يمزق القلب ويضنى الروح يصوغ محمد عفيفي مطر ماحدث من أولئك الخنوميين شعرا لست أجرؤ - فى هذا السياق على الإشادة بعذوبته، حين يصبح الواقع هو الكذب المجسد وخيال الشاعر هو الصدق الوحيد، إنهم يستجوبونه :

- : ما الأسماء الصريحة لرفاقك الإرهابيين :

سقراط وابن رشد والسمندل والنفريّ وأورفيوس والسعلاة . . إلى آخر ما وجدنا فى أوراقك من أسماء حركية .

- . . . .

سنعرف كيف تنطق حين نواجهك باعترافاتهم صوتاً وصورة . . وحين ووجهتُ بتقارير المخبر أفلاطون،

وجدالات التهافت ومناهج الأدلة، ونار الطقس المبدىء المعيد، وبشارة الإيذان بالوقت،

والملابس الداخلية لأوريديكى،

وزمزمة السفاد فى بوادي الجن،

وسمعت تسجيلا لصرخات الهلع من زرقاء اليمامة . .

اعترفت بأدق التفاصيل

. . . .

هل كانت بلادك أم جنونك - هذه؟! -

أم أنت من فجر الخليقة لازب الطين المقدر للغواية والجنون

متقلب الأشكال بين يدى « خنوم »

طالع من وقدة الفاخورة العظمى

ومصطف صفوفا كلما بليت أعيدت فى براح العصف والخلق الرميم المستعاد؟!

- : اخلع ثيابك . . (لفحةُ الخوف المشوش بالحياء وزمهرير الفجر،

صفان خنوميان تلمع فى أكفهما عصى الخيزران،

وحارسان يصلصلان برجفة الجنزير :

كلب فى علوٍّ البغل يقعى،

آخر فى هيئة الوحش الخرافى اشرأبَّ . .)

. . . أدر إلى الجدران وجهك . .

لا كلام ولا تلفُّتَ . .

. . .

طأطىءْ ولا تنظر وراءك واحتبس أنفاسك . .

(الزمن انفجار الرعب . . :

هل سيمزق الكلبان لحمك من وراءٍ أو أمامْ)

(هذه كانت حدود العبقرية فى المكان :

سجن وجلادون، أدوار الخنوميين مابين الهزائم والخراب) ضريت كلاب الصيد فانتظروا المواسم . .

. . .

- : البس ثياب السجنِ، لا تنظر وراءك، لا كلام ولا تلفّتَ . .

(لا كلام سوى دوى الإرث من ليل القراءة فى دم التعذيب والهول المؤبد فى بلادك والخنوميين فى منفى

التواريخ التى أبقت دم القتلى يبيدُ ويستعادْ . . .).

* * *

هل قرأت أيها القارىء، وهل تستطيع أن تواصل ؟ بل هل أستطيع أنا أن أواصل ؟ . لكن، ترى : بم أحس محمد عفيفى مطر وكيف تحس أنت أيها القارىء عندما تقرأ أو تسمع تصريحات الدكتور أسامة الباز الأخيرة، تلك التى عرفتها من وسائل الإعلام الأجنبية لا المصرية، والتى يقرر فيها أن مصر لايمكن أن تخوض حربا مع السودان بعد النتائج الوخيمة لحرب الخليج، هاهو ذا واحد من المسئولين يعترف أخيرا بوقوع ما حذرنا منه، بالكارثة والخراب، بالفعل الذى تعلمنا منه ألا نعود لمثله، هل تضحك أيها القارىء أم تبكى أم تلطم وجهك . أم تسفح دمعك عاجزا مقلبا وجهك بين جبروت الأمم المتحدة على العراق وليبيا وعهرها فى البوسنة والهرسك وفلسطين .

بعد محاولة الاغتيال أملت أن يعود سيادة الرئيس إلينا، أملت فى عتاب يطول ويهطل بدموع التوبة علها تغسل كل هذا الدم والظلم، عندما حمدت الله على سلامته خشية المخاطر المحدقة بالوطن، خشية الحرب الأهلية وتقسيم مصر بالتحديد كنت أدرك مدى الألم الساحق الذى يتضمنه هلعنا عليه، فبرغم كل ما حدث فى عهده، مالم يحدث مثله فى عهد غيره، فقد كانت البدائل بعده هى الخراب والدمار، برغم الذل والهوان والقهر وافتقاد المنطق حمدنا الله على سلامته كى يروى من نهر الحب الذى تدفق من قلوبنا شجرة الندم والتوبة فى قلبه . لم أغفل الجانب الآخر، الاحتمال الأمرّ .

كنت أتمنى ألا يدع الرئيس فرصة لخصومه، الذين قد يرون أنه بعد محاولة الاغتيال، التى يعرف أن أمريكا و إسرائيل حتى لو لم تتورطا مباشرة فى تدبيرها، فهما دوما قادرتان على إبلاغه - أو عدم إبلاغه - بتفاصيلها، وعلى حمايته، و أنه لذلك سيختار الأمان فى كنفهما مهدرا مشاعر أمته، التى لا تستطيع - من وجهة نظر البعض - إلا الحب والأمل أو خيبة الأمل لكنها لا تستطيع تقديم الحماية والأمان .

كنت أتوقع، أو على الأحرى أتمنى أن يصدر سيادة الرئيس الذى ولد من جديد قرارات هائلة، تنقض كل ما مضى، فإن الأمة التى بايعت قد بايعت على الأمر بالمعروف لا المنكر، و أخطر ما يمكن أن يهدد الاستقرار فى مصر، هو أن تكون نتيجة طوفان المحبة والأمل العارم فى التغيير خيبة أمل

كنت أستعيد ذكرى جمال عبد الناصر بعد أن غيرته الهزيمة، فراح ونياط قلوب الأمة تتمزق غارقةً فى يأس مشرئبةً لأمل، راح يقسم - مستشعرا عبء وزره وفداحة مسئوليته عن كل ماجرى - أن نحرر الأرض المغتصبة شبرا شبرا، رحت أتخيل الرئيس حسنى مبارك، وقد اصطحب معه محمد عفيفي مطر و إبراهيم نافع ووزير الداخلية والنائب العام، و على شاشات التليفزيون يقسم - مستشعرا عبء وزره وفداحة مسئوليته عن كل ما جرى - ألا يحدث تعذيب بعد اليوم، و أن يحاسب كل من مارسه وكل من تستر عليه، ويقسم ألا تُزوّر الانتخابات بعد اليوم، و أن يحاسب كل من مارس التزوير ومن تستر عليه، ويقسم غير حانث ألا يصادر فى عهده رأى ولا يُقصف قلم، ويقسم أن يحاسب الذين ورطوا الأمة فى القانون ٩٣، و أن يكون القانون الجديد عكس ما أرادوا، ويقسم أن يتم التغيير، و التنوير أيضا لكن ليس تحت ظل النعال، ويقسم أن يحارب الفساد أينما كان و أيا كان مرتكبوه، و أن يقيم العدل .

رحت أتخيل عشرات ومئات وآلاف الأشياء التى سيقسم الرئيس عليها ، مستعيدا صورة قائد الطيران البطل، وصورة الرئيس الحكيم وهو يستقبل ضمائر الأمة الذى كان السادات فى نهايته قد اعتقلها، وصورة الرئيس الناضج القوى إثر محاولة اغتياله، رحت أستعيد تلك الصور الثلاث - دون سواها - كى أطمئن قلبى الواجف أن التغيير وشيك، وفجأة طالعت مع الأمة تصريحات سيادة الرئيس الأخيرة.

شملنى حزن ثقيل، حزن الفقد والبتر والموت، أدركت أن الفرصة الأخيرة التى ماكادت تلوح تخبو، وارتد إلىّ الحب الذى وجهته إلى سيادة الرئيس صفعة، لقد أهان المصريين، و أمام

أجانب، ولقد جاوز الحق فى وصفه لأحداث نقابة الصحفيين، ولقد صرح بأن تزويرا فى الانتخابات لم يحدث قط، ولم يكن ذلك القول حقا .

ولأن الأحزان لا تأتى فرادى فما لبثت أن طالعت تشكيل اللجنة الجديدة لصياغة قانون الصحافة.

سمير رجب وثروت أباظة و إبراهيم سعدة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

أشهد و أقر وأعترف، أن سيادة الرئيس قد أدار المعركة مع الصحفيين كممثلين للأمة بذكاء طيار محارب يتقن كل حيل المناورة والمراوغة والمفاجأة والكر والفر والانقضاض والخداع التكتيكى والاستراتيجى . فقط، حدث خطأ واحد فى الحساب، هو - للمأساة - أننا لسنا العدو، أن القاتل قتل أخاه، و أن القائد أسقط طائرات سربه . لسنا العدو، بل نحن الأمة .

أتساءل، إذا كان هذا هو رد الرئيس على طوفان المشاعر التى أحاطته بعد محاولة الاغتيال، ترى ماذا كان يفعل لو كان هذا الطوفان ضده .

يامرارة اليأس فِي ملح الدموع . يا انهدار مشاعر أمِلَتْ فى الخلاص . ياتوبة رُجِيتْ ولم تتحقق .

لو أننى أعرف عبد الحليم رمضان لرجوته أن يرفع أمام القضاء دعوى ضد سيادة الرئيس .

لكن . . . هل يمكن فى نظامنا - الذى يقارنون ديموقراطيته وقوانينه بألمانيا وفرنسا - هل يمكن أن يحاكم الرئيس ؟!

هل بقى أى أمل ؟.

أعترف للقارئ أننى فقدت كل أمل فى الحوار أو الفهم مع سيادة الرئيس . وفقدت أيضا كل رغبة .

وليس ثمة مناص من التوقف، لكن بعد مقالين أو ثلاث أبرئ فيها ذمتى أمام الله والتاريخ والأمة .

أرفع الراية البيضاء .

لا طلبا للأمان وللسلامة فلا سلام ولا أمان ولا أمانة . . .

ولكن نكوصا عن مواجهة أعرف أن الوطن فى نهايتها هو المهزوم .

أرفع الراية البيضاء، لا استسلاما بل اعتراضا واحتجاجا ورفضا لم تعد تدرى كيف تعبر عن نفسها وقد فقدت الكلمات كل قيمة وانقطع للحوار كل جسر، ولست أملك غير الكلمة سلاحا، فإن فقدت قيمتها فلماذا أكتب ؟؟!.

ولست أوافق تحت أى وضع أن يرفع أبناء الوطن السلاح بعضهم على البعض . . .

أرفع الراية البيضاء، فقد سدت السبل وهدت الطرق وليس ثمة منفذ ولا منقذ . . .

إلاك يارب . . .

ليس لنا سواك . . سَحَقَنَا الأبعدُ وخَذَلَنا الأقرب . . .

ولم تردع الظالمين آياتك . . .

فارحم ضعفنا . . . وذلنا . . . وهواننا على العالمين . . .

ياصبور . . . قد أريتنا صبرك فأرنا عدلك . . .

ياقادر . . . فى جبروتك رحموتك . . .

إنهم يحسبون أنهم قادرون علينا ولا يأبهون بقدرتك عليهم . . .

ويحسبون أنك لا تستجيب دعاءنا . . . .

فاللهم، إن كنت تعلم أننا على الحق و أنهم على الباطل فارحمنا، فإنك عزيز مقتدر . . .

واللهم إنها مصر، فمن أرادها بسوء، فاقصمه .

الرايـــة الـبيـضاء "٢"

هذا حديث ثقيل على كاتبه ثقيل على قارئه ثقيل على السلطة. حين أحاول قدر ماأستطيع أن أعرى الحقيقة، مدركا أننى لا أكتب للفاجعة كمعارض، ولا أنافح النظام كى أسقط الحكومة أو أضعف حزبها حتى تظفر المعارضة بمقاعد الحكم - رغم أن ذلك حق -، لكنني - وكثير من المعارضين - فى إطار خلل شامل مروع للسلطة، نحاول - لا أقول يائسين - أن نرتق الصدع ونرمم البناء كى لا ينهار البيت على من فيه، كل من فيه من حكومة ومعارضة. فعندما يتصدع بيت غُـيِّـبَ مالكه الحقيقى، وعندما يتهدده الحريق، فى غيبة مسئول رشيد، لا يتصرف قاطنوه بحكم وظائفهم وتخصصاتهم، لا يتصرف القاضى كقاض ولا الطبيب كطبيب ولا الصحفى كصحفى، و إنما يحاول كلٌّ منهم قدر جهده، ربما - للأسى والتخلف - دون تنسيق مع من حوله، أن ينقذ ما يستطيع.

الأزمة الآخذة بخناق الوطن والأمة أبعد بكثير من خيبة أمل فاجعة فى ضياع فرصة أخيرة للتغيير، و أعمق بكثير من خلاف مع السيد الرئيس أو مع نظام الحكم.

أبعد بكثير من أن تكون أزمة القانون ٩٣ أو أزمة الصحفيين وحبسهم أو أزمة الأحزاب والانتخابات والنقابات والفساد والانهيار الاقتصادى واتساع الفجوة بيننا وبين إسرائيل.

الأزمة أزمة الرئيس - ليس كفرد - وإنما كرمز للسلطة و رأس لها، وأزمة المجتمع كله، فبرغم أن مصر هى أقدم دولة فى التاريخ، ومنها تعلمت القبائل كيف تصير دولا، إلا أن المأزق الذى يخنق الدولة ويكاد يهدد وجودها، يكشف مباشرة عن أزمة شاملة فى العلاقة بين السلطة والمجتمع، واحتياجهما معا إلى مراجعة المبادىء الأولية لقيام السلطة والدولة، مصر: أقدم دولة فى التاريخ، عليها أن تتعلم من جديد كيف تكون دولة، فكأن على

أستاذ الجامعة، أن يراجع أبجديات اللغة من البداية، بعد أن فسدت حروف لغته، وكأن على عالم الصواريخ، أن يراجع من جديد وضع كل مسمار وكل ترس فى صاروخه، التى تكشف الظواهر أنه يوشك على الانفجار، رغم أن قائده يصر على السير به فى ذات الاتجاه دون تغيير، غير مدرك ولا مصدق أن الانفجار وشيك .

لست أعنى أزمة نظام سياسى يحكم بحزب مزور الأصوات، ولا خلل بنيان اجتماعى وفكرى جعل تطبيق كل فكرة يؤدى عكس المستهدف منها تماما، فالاستفتاء الذى يقصد به أن تعمل الأمة كلها رأيها وفكرها وعقلها فى مشكلة تواجهها قد أدى فى التطبيق إلى تغييب الأمة وتغليب رأى الطاغية وقمع معارضيه، والقطاع العام الذى قصد به الحفاظ على حقوق العمال، قد أدى إلى نشوء طبقة من كبار المنحرفين تحالفت مع السلطة بل وسيطرت عليها أحيانا، حيث أدت الآلة الاقتصادية الجبارة إلى تقوية السلطة لتسحق بهذه القوة العمال، ونسبة الـ ٥٠٪ عمالا وفلاحين قد استخدمت لإهدار حقوق العمال والفلاحين، وقوانين العيب صدرت لتستر العيب ولتحمى مقترفيه، وقانون الطوارىء الذى صدر بحجة حماية الوطن ينخر كالسوس فى جسد الوطن، وقوانين التعليم لإفساد التعليم، وتحت راية العدالة تسحق العدالة، ويصفى المعارضون جسديا، وترتكب السلطة أفدح الجرائم التى يؤثمها قانونها الموضوع، وقوانين الصحافة لتفريغ الصحافة من كل قيمة، لا أعنى كل ذلك، رغم خطورته، بل قد لا أتجاوز فى فى القول حين أقرر أن فشل كل محاولات كل الجبهات الوطنية للإصلاح ترجع أصلا إلى تناولهم هذه الظواهر كأصول، فكانوا أشبه بطبيب مبتدىء، يعالج ظواهر المرض، فيعطى المسكنات للصداع، والمقويات للأنيميا، والمطهرات كى تقتل الفطر والميكروب ، والمضادات الحيوية للحمى، والمجلطات للنزيف، ثم يعالج بكل همة قرح الفراش، ويروح يشغل نفسه فى جهد لا جدوى منه، فى دراسة أحدث الطرق لمعالجة تلك الظواهر، دون أن يفطن إلى أن كل هذه الظواهر ترجع إلى سبب واحد تختفى تلقائيا بعلاجه، و أن مريضه مصاب بالسرطان ومهدد بالموت إن استمر فى عمائه وانشغاله بعلاج الأعراض دون المرض، و أن جسد

هذا المريض الموشك على الموت أمـــامـــه، لو لم يكن مـــصـــابا بالسرطان، لاستطاع حتى دون حاجة لمعونته، التغلب بقواه الذاتية على الصداع والضعف والنزيف .

من هذا المنطلق أعتبر - على سبيل المثال - أن أزمة الصحفيين مع السيد الرئيس، مجرد عارض لأزمة أخطر بكثير، سوف نقع فى نفس خطأ ذلك الطبيب المبتدىء، الذى لن تغنيه نيته الطيبة عن ولوج جهنم، إذا عالجناها كأزمة يكفى لحلها إلغاء القانون ٩٣ أو ... أو... أو...

الأزمة أبعد حتى من وقف التعذيب والتزوير، بل لعل التعذيب والتزوير مجرد عارض، ونتيجة لعدم حل الأزمة المستحكمة والمستفحلة،

الأزمة أبعد بكثير من محاولة حصرها فى نطاق ضيق نستطيع أن نشير إليه لنقول هذا هو الداء فهاتوا الدواء، إنها أزمة الأسس التى يقوم عليها توازن السلطة وتوزيع الصلاحيات والمسئوليات ومعايير التداول الطبيعى والسلمى للسلطة، عن بناء السلطة ونموذجها وقيمها، عن طريقتها فى ممارسة القيادة الاجتماعية فى الحكم وفى المعارضة معا، فلو كان نظام الحكم سليما، لو لم يكن مصابا بسرطان يعبر عن نفسه بآلاف الظواهر التى قد تخدع بأن المرض سيزول حين نعالج الظواهر، ولو توفرت سلطة حقيقية راشدة عاقلة موضوعية لما قاد إخفاق الحكومة فى فترة ما إلى أزمة فى الحكم، ولما أدى فشلها إلى تفجر أزمة فى الحكم والسلطة والمعارضة والمجتمع، بل إن هذا الإخفاق حين يحدث فى نظام سليم الأسس، مكتمل المعايير، قد يمثل فرصة تاريخية للتغيير الإيجابى، و إلى انتقال السلطة دون مشكلة إلى فريق آخر أكثر كفاءة والتزاما .

لست أقصد بالسلطة شخص الرئيس مبارك، بل أعتقد أنه هو الآخر - فى بعض من الجانب الفاجع للمأساة - ضحية لذلك الخلل الجسيم فى النظام، لا أقول ذلك خوفا من بطشه ولا مجاملة له، ولا ائتلافا لقلبه كما فعلت عقب محاولة اغتياله، ولقد فشلت - كما فشل الجميع تقريبا فى ائتلاف قلبه لمحاولة إقناعه بأن يقود

هو نفسه التغيير كي يوفر على الأمة أنهارا من الدم وجبالا من الألم وبحارا من التوتر وحقبا من التخلف والصراع، لقد بذلنا هذه المحاولة صادقين مخلصين، ولقد فشلنا، لكننا بالرغم من خيبة أملنا لا نقصده حين نتحدث عن السلطة، كما لا نقصد أيضا عاطف صدقى ولا وزراءه، ولا حتى السلطات الثلاث، بل نقصد - كما يعبر الدكتور برهان غليون فى كتابه نقد السياسة - جملة المبادىء والمعايير العامة التى تحدد العلاقات بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع، والتى تتجسد عبر مؤسسات مختلفة ومحددة الصلاحيات، تضبط إيقاع المجتمع، وتساعده على تنظيم علاقاته وجنى ثمار نشاطاته وجهوده فى تراكم كمى وكيفى، كما تمنع إهدار جهد الأمة، ونزفها فى العمولات والرشاوى والفساد والتهريب والتصرفات الطائشة والقرارات الحمقاء واستغلال السلطة .

مفهوم السلطة الذى نقصده أوسع بكثير من منصب الرئيس وقواد جيشه ووزرائه وكبار مسئوليه، ولقد سبق الحديث النبوى الشريف علوم السياسة والاجتماع حين قال : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالسلطة التى نقصدها تشمل ضمن ماتشمل سلطة الأسرة والمدرسة والحى والقرية والمدينة والجماعة الدينية أو المذهبية أو الحزب، ثم الجماعة الوطنية ثم القومية ثم الإسلامية . وفى كل سلطة من هذه السلطات تتبلور المعايير التى تصوغ فى النهاية وجدان الأمة، وتقوم كل سلطة من هذه السلطات على أنماط ومعايير لا يجب الخلط بينها، كالنمط الأبوى فى الأسرة، والنمط العلمى فى المدرسة أو الجامعة، والدينى فى المسجد والسياسى فى الحزب والدولة . بيد أن كل هذه الأنماط والمعايير لا تتحرك فى فراغ، و إنما يحكمها جميعا، يكفلها وينظم العلاقات بينها سلطة الدولة، وهى فى النهاية الضامن الرئيسى لسلامة كل السلطات الأخرى، ومتى ضعفت هذه السلطة السيادية الكبرى، أو فقدت رشدها، ومقاييسها الأخلاقية والعقلية، تعرضت جميع السلطات الأخرى للاهتزاز، وفقد معها المجتمع اتزانه ووسيلته لترتيب أوضاعه وحسم خلافاته وتحديد أولويات نشاطه وتحقيق توازنه العام ومعرفة طريقته ووجهته .

عندما تفقد السلطة الكبرى المعايير والمنطق تفقد كل السلطات الأخرى اتجاهها كما تفقد القافلة المرتحلة قائدها ودليلها فتفقد الطريق، لتسير كل مجموعة فى اتجاه مختلف، يسبق ذلك ويصحبه ويعقبه، صراعات دامية حول أيهم على صواب، و على اقتسام زاد الرحلة .

يشكل الرئيس - ليس كمجرد فرد - عنصرا من عناصر السلطة السيادية الكبرى ، عنصرا تختلف نسبة تأثيره فيها أو تأثيرها فيه طبقا لقوته، لا نقصد بالقوة هنا قوة الحرس ولا مناعة الحصون ولا ضخامة المخابرات والجيش والشرطة، بل نقصد بها قوة مبادئه ومعاييره وقيمه الأخلاقية و المعنوية وشخصيته، وقدرته على إقناع الأمة فى الداخل والعالم فى الخارج بمنظومته الفكرية، والتى تتشكل من مجموع المنظومات الفكرية لمختلف الاتجاهات فى الدولة، إنه كالمايسترو فى فريق موسيقى، يمكن بسوء إدارته أن يفسد عمل المجموعة كلها مهما بلغت براعتهم .

إن عجز الرئيس فى مثل تلك المجتمعات، وافتقاد ه للمنطق والمشروعية، ونزوله إلى حلبة الصراع بدلا من أن يظل حَكَمًا، يعتبر عاملا من العوامل المهمة التى تؤدى إلى عجز السلطة السيادية الكبرى فى المجتمع حيث يترتب على هذا العجز انفلات عناصر السلطة جميعا، وبحثها، كل على حدة، وحسب ماتقع عليه يدها على نسق جديد تستطيع من خلاله أن تعيد بناء علاقاتها بالواقع، و أن تعين معايير جديدة لسلوكها كى لا تفقد توازنها الكامل وتفنى، ذاك العجز وهذا الانفلات، وانعدام القيم والمعايير والمنطق والمنهج تؤدى فى النهاية إلى نوع من التشتيت والضياع وفقدان القدرة عند كل مؤسسة على أن تتعرف على مكانتها ودورها ومسئوليتها فى مجمل النظام الاجتماعى . خطورة هذا الخلط، أن كل مؤسسة تفقد معرفتها للوظيفة الخاصة بها، فتسعى إلى القيام بكل الوظائف التى يمكنها من خلالها أن تثبت نفسها، وتضفى على وجودها الشرعية والنجاح وتؤمن لنفسها السيادة . وهنا ينفرط عقد الأمة، فمجلس الأمة أو الشيوخ مثلا بدلا من أن يمثل الشعب ويحتفظ بعلاقات سليمة من الأخذ والعطاء و إرساء المعايير والقيم يصبح سيد قراره، يتحدى أحكام القضاء، ويسن

القوانين التى تهدر حق الأمة فى السيادة، و يفقد وظيفته كعين للأمة على السلطة . نفس الشيء يحدث لجهاز الشرطة، إنه يكف عن تطبيق القانون العام، مهمته الأساسية التى أنشيء من أجلها، كى يصوغ لنفسه قانونه الخاص، الذى يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى البلاد، يعز ويذل ويعذب ويعفو ويحمى نهب السادة لمتلكات الآخرين بالسلاح - أرجو مراجعة تقرير د. محمد السيد سعيد عن ذلك، وهو الذى اعتقل بسببه وعذب تعذيبا شديدا كما أوردته فى مقالات سابقة -، إنه يستولى أيضا على اختصاص القضاء، ويصبح السلطة العليا فى الجامعة فلا يعين فيها من لا يرضى عنه . وهو مع ذلك كله يتخلى عن واجبه الأساسى فى حماية الناس وضبط العملية الانتخابية وتحقيق الأمن بمفهومه الذى يعرفه به العالم .

فى ظل غياب السلطة، يتصرف المجتمع بكل هيئاته ومؤسساته و أجهزته، وحتى أحزابه المعارضة، تصرف طلاب مدرسة غاب عنها المدير والناظر والمدرسون والموظفون أو انشغلوا بمصالحهم الذاتية، حيث ينتفى الغرض ، تتوقف العملية التعليمية و هى الهدف، ورغم وجود اللوائح والكشوف فلا شيء ولا أحد يبقى فى مكانه، وحتى المعارضين لما يحدث، لا يبقون فى أماكنهم، بل يحاولون شغل الأماكن المعنوية الخالية للناظر والمدرسين، فإذا أضفنا إلى ذلك، أن إدارة المدرسة، تقمع بكل الشراسة والعنف، وتفصل كل طالب ينادى بعودة النظام إلى المدرسة، استطعنا أن نكمل عناصر التشبيه . ليس الأمر أمر معارضة إذن، بل نداءً بائسا لعودة السلطة والحكومة إلى أداء واجبهم الحقيقى، كى يكون هناك أمة حقيقية، تؤيد فئاتها حين تؤيد بحق وبمنطق، وتعارض حين تعارض فى إطار حزب معارض تظله سلطة تعتبره حقا - لا كذبا وافتراء وادعاء - أحد عناصر السلطة وليس مجرد ديكور أمام العالم

فى هذا الصدد، لا مناص من تناول نقطتين هامتين، الأولى: هى أننى حين تحدثت فى الفصول الماضية عن بعض الشرطة لم أكن أقصد أنها هى الوحيدة التى فسدت، وكنت أنوى لولا ما أصابنى من يأس ، وصدمة، بعد موقف الرئيس بعد محاولة

اغتياله، أن أتناول عشرات المؤسسات والهيئات الأخرى، لكى أثبت أن ما أصابها من انحراف لا يقل، و أن هذا الانحراف موزع، و إن لم يكن بالقسطاس على كافة أجهزة الوطن ، فليس شىء فى الوطن بخير، يجب أن نواجه أنفسنا بالحقيقة، إن كثيرا من أساطين القانون يقرون الآن أنه حتى القضاء والنيابة قد أصابهم بعض ما أصاب المجتمع ، الجيش أيضا، والجامعات والهيئات والمؤسسات والأحزاب والقوى ، حتى المؤسسة الدينية ، التى كان منوطا بها أن تفتى مثلا بتحريم الظلم، فنسيت ذلك، وراحت تحرم الاحتجاج على الظلم أو مقاومته، وكانت مهمتها أن تنبه إلى أن تزوير الانتخابات من أكبر الكبائر، فتجاهلت ذلك وراحت تفتى بحرمة عدم حضور الانتخابات، وكانت مهمتها أن تدين ولا تكف عن إدانة السياسة الحيوانية المجرمة للتعذيب ، لكنها كرست معظم جهدها لتبرئة القاتل و إدانة القتيل . النقطة الثانية، هى أننى حين أثرت كل ذلك، لم أكن أقصد فضح جهاز ولا تقليص سلطاته، ولا وصمه بالعار، و إنما كنت أدرك دائما، أن القيم الخلقية والفكرية للأفراد أسمى بكثير من الهيئات التى ينتمون إليها، وذلك وضع مقلوب، يؤدى دائما إلى أن يطحن النظام بعجلته الدوارة الصالح ويبقى الطالح، و أنه فى كل جهاز من هذه الأجهزة، قليل من الأخيار وقليل من الأشرار و أغلبية تتبع من بيده الأمر موجهة قرون استشعارها للاتجاه الذى يؤيده الرئيس، و أن هذه الأغلبية، تفقد كيانها الإنسانى وتوازنها مع كل ممارسة للشر والكذب والخطيئة، حين تلحظ انعدام المعايير والأسس، ليتجه كل منها بعد ذلك، مقابل مافقد من شرف، إلى تحقيق أكبر قدر من المكاسب الشخصية والوظيفية، حين يصبح كل فرد منها : « فاوست » الذى باع للشيطان نفسه ، فيكف عن الإبداع لرفع شأن المؤسسة التى ينتمى إليها، وينهب منها أو بواسطة سلطتها ما يستطيع أن ينهب، ويستغل مايستطيع أن يستغل . والمحزن أن هذا النمط من السلوك نفسه يؤدى فى النهاية إلى انهيار الجهاز أو الهيئة أو المؤسسة التى يسلك أفرادها ذلك المنهج .

إن السلطة السيادية العليا هى الحَكَمُ بين السلطات، وهى

التى تملك آلية تنظيم وتحديد وترتيب العلاقات والمسئوليات بين مختلف سلطات المجتمع، وهى ذلك الكيان المعنوى الذى يجب أن يترفع عن لعب دور المؤسسات الأخرى، فإذا فقدت هذه السلطة قدرتها على أن تكون حَكَماً، وغاب كيانها المعنوى، الذى يكفل ويضمن وينظم انسيابية وسلامة العلاقات بين الكيانات الأخرى، فإن ذلك يدفع المؤسسات المختلفة إلى أن تبحث لنفسها عن قيَمها الخاصة ومعاييرها، و أن تتحول إلى مقر لسلطة رئيسية تشكل نموذجا مصغرا من الدولة، فهذا هو شرط بقائها و إلا انفرط عقدها، يصبح الكل سيد قراره، وتصبح كل محاولة للإصلاح تهديدا بالهدم أو حتى إرهابا، إنه الشكل الجديد من تفكك الدول القديمة وانفراطها إلى ولايات ومقاطعات، لم تعد الجغرافيا هى التى تحكم الحدود بل مناطق النفوذ. فقديما، عندما كانت سلطة الدولة تضعف، كانت تنفصل عنها الولايات، الآن تنفصل الوزارات والهيئات والمؤسسات، محتفظة بمجرد الشكل لمضمون خرب، لم تعد إقطاعية قليوب ومنية خصيب و إمارة حلب بل إقطاعية الشرطة وإقطاعية مجلس الشعب و إقطاعية التعليم و إقطاعية الجباية ، وإقطاعية الجامعة العربية، وتلك الإقطاعيات لا علاقة بينها ولا تكامل بل تربص وتوجس .

كتشبيه آخر، فإن الأمة التى تفقد السلطة العليا فيها وجودها الحقيقى، تتصرف على النحو المأساوى الفاجع، الذى تصرف به الجيش فى عام ٦٧، كان أشخاص القادة موجودين، ومكاتبهم موجودة، وأجهزة الاتصالات، والسيارات الفارهة وكل مظاهر العظمة والأبهة لكن السلطة الحقيقية نفسها كانت غائبة، تركوا الجيش، يتصرف كل قائد فرعى فيه كما ترغمه الظروف، لكن القادة الصغار تصرفوا على نمط القادة الكبار، فتفتت الجيش إلى فرق، وتفتتت الفرق إلى كتائب، والكتائب إلى سرايا، والسرايا إلى فصائل، والفصائل إلى أفراد ضائعين هائمين *، كان على المدفعية أن تقوم بواجب الطيران ، و المشاة بدور المدرعات، حيث لم يبق فى الساحة إلا بعض أبطال نجحوا فى الصمود

---

* ينقسم الجيش إلى فرق، والفرق إلى ألوية، ويتشكل كل لواء من ثلاث كتائب، وكل كتيبة من ثلاث سرايا، وكل سرية من ثلاث فصائل، وكل فصيلة من ثلاث جماعات، فضلا عن الأسلحة المعاونة.

والانسحاب المنظم نذكر منهم - كرمز - الفريق سعد الدين الشاذلى، مفخرة العسكرية المصرية، الذى أفلت من سجون إسرائيل، ليؤسر بعد ربع قرن فى سجون القاهرة .

الكارثة أن ماحدث للجيش فى ٦٧ هو مايحدث للأمة التى تنهار فيها السلطة الحقيقية لتبقى الهياكل والأفراد .

يقول الدكتور برهان غليون الذى يشكل كتاباه نقد السياسة* ومجتمع النخبة * المرتكز الرئيسى لهذا المقال أن مايحصل للمؤسسات يحصل للأفراد أنفسهم أيضا، فلا يعرف الفرد ماهو دوره وماهى مسئوليته الخاصة فى إطار النظام الاجتماعى، ما هى مسئوليات الأسرة وما هو دور المدرسة، و أين تتعين مسئولية الدولة و أين تتعين مسئولية الدين، و أين يقف دور كل منهما، ماهى مكانة المصلحة العامة وما هى مكانة المصلحة الشخصية، ماهو الحق الذى لابد من المطالبة به وما هو الواجب الذى ينبغى القيام به، وبدون التحديد الفاصل لذلك يصبح من الطبيعى أن يجور كل فرد على الآخر .

إن غياب السلطة السيادية الكبرى بمفهومها الشامل يدفع لخلل فى كل البنى، لانهيار وتفتت، لا فى القوى المعارضة للدولة أساسا، بل فى أجهزة الدولة نفسها، فى حزبها الذى تحكم به الحكومة، الذى يعرف كيف نجح من نجح من أعضائه، ويدركون أكثر من غيرهم مكامن الفساد ، فى وزرائها وكبار مسئوليها، وفى جميع أجهزتها الأخرى . وفى مثل هذا الوضع، لا يحرص أحد على الوطن بل على علاقته برئيسه وعلى التغلب على خصمه بالدس والوقيعة والفتنة والمواجهة، لا بالقيم، بل بالقوة والبطش وسلوك الغابة، يتسلط العسكرى على دور السياسي، ويستخدم السياسي السياسة فى التجارة، ويلبس التاجر مسوح الرهبان والشيوخ، ويتحول موظفو الدولة الكبار هم وعائلاتهم إلى مرتشين رسميين يجنون ثروات شخصية هائلة من استغلال نفوذهم فى الدولة التى يصدر مجلس الشعب فيها من القوانين

---

* نقد السايسة، الدولة والدين، د.برهان غليون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت.

* مرجع سابق.

ما تشاؤه السلطة، بدون أن يشعر الجميع أن مثل هذه الأعمال يمكن أن تسيء إلى الممارسة السياسية أو تتناقض مع القانون أو حتى تتنافى مع الأخلاق، غير أن ذلك لايعنى أن ذلك هو مفهومهم للسلطة، بل يعني - وهو الأدهى والأمر - إدراكهم لغياب السلطة، غياب مفهومها الحقيقى، وانعدام نصابها الفعلى بمعناه العميق الذى لا علاقة له بالسيطرة الشخصية أو النفوذ، فإذا كان من السهل تحويل الحكم إلى استغلال للنفوذ، فذلك لأن السلطة نفسها غير موجودة إلا بمعنى النفوذ ، أى النفاذ إلى مصادر القوة التى تمكن من الاستغلال والسيطرة والتحكم بمصائر الآخرين .

لا أتحدث كمعارض، لا أدافع عن الصحفيين، ولا عن حزب العمل أو الوفد أو الحزب الناصرى، ولا أهاجم الحزب الوطنى، أدافع عن المنهج والمبادىء، والتى بدونها، يتبوء الحزب الحاكم ذلك الموضع البغيض فى ضمير الأمة، لينهار مع أول بادرة لتخلى الرئيس عنه، أو لمجيء رئيس آخر يقرر أن يقود حزبا آخر . أدافع عن الرئيس كمثل وكرمز ، وعن الجيش والقضاء والنيابة والجامعات والهيئات، أدافع عن الوطن .

ليست الدولة حسنى مبارك، ولم تكن السادات أو عبد الناصر، وإن غياب المعايير والأصول التى تحدد الدور الحقيقي للرئيس، وماهية الدولة قد أدى إلى زوال المقاييس التى تحدد ميادين السلطات المختلفة وحدودها، و قد أدى كل ذلك إلى خلق جو من الفوضى وتضارب السلطات، ودفع أي من ممثلى تلك السلطات إلى المطالبة لنفسه باحتلال كل حقل السلطة الذى تتيحه له قوته المادية، وتجاوز كل الحدود والصلاحيات فى فرض نفسه كسلطة قائمة بذاتها لا تُنافس، وليس لها، لا فى داخلها ولا فى علاقتها مع السلطات الأخرى من قاعدة تستهدى بها سوى القوة، وبهذا تتشرذم الأمة، تفقد روابطها، فالروابط هنا لا تتعلق بالقيم ولا بالدين ولا بالوطن، بل بالفئة التى ينتمى المرء إليها، وهذا هو أساس تفكك المجتمع، وبروز مراكز القوى، كمراكز قائمة بذاتها ومهددة للدولة بالفعل، ومتحكمة فى أكثر الأحيان بها، فلم تعد الدولة ولا السلطة السياسية إلا السيد الأول بين أسياد بدلا من

أن تكون مرتكز السيادة للجميع، لذلك، فبنفس الدرجة التى تبدو بها الدولة على غاية القوة والبطش من الناحية المادية فإنها فى الواقع على غاية الهشاشة والضعف من الناحية المعنوية والأخلاقية والسياسية ، تلك الهشاشة وذلك الضعف يدفعان الحكومة إلى العنف حيث يجب الحوار، و إلى توجس الخطر من كل معارضة، والاستسلام أمام كل معركة خارجية ، والحرب حتى النهاية والتصفية فى كل معركة داخلية ، يتعدد الأعداء باختلاف الزمن لكن التهم واحدة وثمة فئة يحاول النظام دائما أن يستأسد عليها، متهما لها بالإرهاب، بينما يمارس هو الإرهاب بكل صوره، حتى الإجرامى منها ، إنه يدرك أنه لهشاشته سيسقط أمام أى حوار منطقى عادل، وذلك ما يفسر ميله إلى المبالغة فى العناد وإظهار القوة كتعويض عن الشعور بالنقص والضعف .

عند هذه المرحلة تتحول أزمة الدولة إلى سلسلة متعاقبة من التفجرات التى تنطلق من تضارب المؤسسات والسلطات والقوى التى تحاول رسم حدود جديدة بينها تتناسب مع قوتها الفعلية، وليس هناك أى مبدأ ثابت يمكن أن يحكم هذه المنافسة إلا القوة والقرب من السيد الأول والأسياد الخارجيين . ذلك أن المجتمع لا يستطيع التصرف فى غياب المبدأ الجامع الأول كوحدة ، أو أن يضع نزاعاته وانقساماته فى إطارها، لأن الدولة تحاول أن تخمد مثل هذا التنافس، أو أن تجمده بوضع يدها على كل المؤسسات ، بتقويض أحزاب المعارضة والضغط عليها وبث الفرقة والخيانة والانقسامات فى صفوفها، بهدم النقابات أو استئناسها ، بتعيين العمداء والعمد ، بتشويه المنظومة الفكرية للمجتمع، وللكذب الصريح البواح دون خشية من الاتهام بالكذب فى ظل قانون يدين بالازدراء من يواجه، و تسعى الدولة بديلا عن كل ذلك وتعويضا له إلى إضفاء طابع القيم التى بقيت فاعلة فيها على مجموع النظام، وهى قيم التكنوقراطية العسكرية والمدنية، لكن مثل هذه القيم لا تستطيع وحدها أن تسير أمة ولا تضمن أيضا بقاء واستمرار السلطة، التى تفقد القدرة على الهيمنة الرشيدة، فتلجأ، لإدراكها مدى ضعفها وهشاشة وضعها، إلى محاولة دائمة لاتفتر، لا إلى إنهاء التوترات التى تتهددها فى

المجتمع بعلاج أسبابها، و إلى رسم الحدود الفاصلة بين اختصاص المؤسسات، بل تلجأ إلى إضعاف هذه المؤسسات جميعا، واختيار الضعاف المشبوهين لقيادتها، حيث لا يمكن أن يشكل أى أحد منهم ، لضعفه، ولقيمه الشخصية، أى تهديد بالمنافسة على السلطة العليا، إلا أن رئيس هذه المؤسسة نفسه، والذى يفتقد أى قيمة معيارية يسوس بها جهازه أو مؤسسته، يلجأ إلى نفس الطريقة، فى تقريب المشبوهين و إبعاد العناصر الملتزمة التى تعترض على ما يحدث، إن المؤسسات بهذه الطريقة تقضى فى النهاية على نفسها، كما حدث للجيش فى عام ١٩٦٧ .

إن فقدان السلطة العليا فى المجتمع لقيمها ووظيفتها يعنى انفلات وتفكك المؤسسات التى تقوم عليها الدولة، وانهيارها، حيث يهدد هذا الانهيار الدولة نفسها بالانهيار .

إن الدولة هي السلطة الرابطة بين مؤسسات المجتمع، وافتقاد المجتمع لهذه القيمة الرابطة يؤدي إلي الميل المتزايد لجميع مؤسسات المجتمع للاحتماء بالأجهزة والسعى للسيطرة عليها، فى سبيل ضمان البقاء أو النفوذ أو التحكم، وفى هذه الحالة تصبح القوة، أو التحالف معها، أو الاحتماء بها هى العقيدة الحقيقية للمجتمع، بصرف النظر عن مصادرها، داخلية أو خارجية، وفى وسط هذه الفوضى الشاملة، وافتقاد المعيار، تظل الكتلة الوحيدة القادرة على حفظ مظهر خارجى من الثبات والاستمرار والاستقرار هى الكتلة العسكرية شاملة الجيش المسيس والشرطة المجيشة، إنها تصوغ عقيدة خاصة بها تحفظ توازنها، وليست هذه العقيدة سوى سيطرتها وقوتها وهيمنتها البيروقراطية العسكرية والأمنية والمدنية نفسها ، خارج نطاق أى تفكير موضوعى وأى منطق، متدرعة بقوانين شكلية تستطيع أن تسنها لتستتر بها حين تشاء، أو حتى خارج إطار كل قانون، إنها ليست بحاجة إلى عقيدة مقنعة خاصة بها، ولا لمبررات لفرض سيطرتها، مادامت تملك فعلا الأدوات اللازمة لفرض هذه السيطرة، لا لصالح الأمة ولا للدفاع عن الوطن، بل لصالح نفسها أولا، ثم لصالح السلطات الحاكمة والدفاع عن مقاعدها و أمنها بغض النظر عما يسببه منهجهم هذا من تفتيت للأمة ومخاطر

للوطن، ليس التفتيت والمخاطر للمعارضة بل للأمة والوطن، إلا أن ذلك كله مهما تجبروا، و أتقنوه وبالغوا فيه، قد يخلق سيطرةَ الدبابة والمدفع والتهديد والقمع والقهر والتعذيب، وهو يخلق سيطرة مادية، لكنه لا يخلق سلطة معنوية مقبولة ومطاعة، وهذه السيطرة وضع لا يمكن أن يستمر .

وَطَـــــنُ الدُّمَـــــى

يجـتـاحنى حنين حـزين، إلى ذلك الزمن السـاذج المثـالى، الذى تصـورت العـالم فيه مجـمـوعـة من الأخيار والأشرار، و أن الأشرار ليسوا أشرارا إلا لأنهم لايعلمون، فإن استطاع الأخيار أن يكشفوا لهم الحقيقة فسرعان ما يعودون إلى الحق تائبين نادمين .

فى ذلك الزمن البـعـيـد الذى أهفـو إليـه، لم أتصـور أبدا أن بعض البشر يحملون كل تلك البشاعة التى اكتشفتها فيهم بعد ذلك ، بشاعة يلوثون بها الدنا ، ويملأون الوجود الذى خلقه الله لنا طاهرا بالدنس ، ويجعلون أفضل مافى الحياة الموت .

أعكس مسار الزمن، أستعيد القرون، أتأملها و أستقطر العبر منها و أعبرها، فتستبد بى الدهشة، كيف يفعل ابن آدم بابن آدم كل هذا، كل تلك القسوة ، كل ذلك الفجور الفاحش والإجرام والجنون، وليس سوى أخيه وابن أبيه .

أتساءل والتساؤل أشلاء ودماء وقرابين ضحايا لسيوف باترة وفضائح سافرة و أوطان شاغرة ومعارك خاسرة وهزائم غادرة ووحوش كاسرة و وجوه باسرة وصدور زافرة وبطون زاحرة وجموع ذائرة ونفوس ثائرة وهموم زاخرة وهمم فاترة وصحائف داعرة وحناجر ناعرة وعقول خائرة و أرواح حائرة وجروح غائرة وخطوب فائرة ومصائب غامرة و آمال غائرة وأمجاد دابرة وزواجر فاجرة وروادع زاجرة ونهابر منكرة وحكومات مهذارة و أوطار مأزورة وفضائل مهجورة وبلاد مشطورة و آمال مكسورة وكلاب مسعورة ورقاب منحورة وجراح مفغورة و أحلام مقبورة وشعوب مقهورة : أين الخطأ : فى طبيعة الحاكم أم فى طبيعة المحكوم يكمن ؟.

أين الخطأ، وليس ثمة جواب جامع مانع، هى الفتنة وهو الابتلاء، ولم يعد الانقسام مجرد انقسام الدول والعشائر والقبائل

والأحزاب بل كل منا منقسم داخل نفسه على نفسه، يتمزق كل شيء، وتئن الروح في نزعها الأخير متشوفة لخلاص لايأتي متشوقة لنصر لايجيء.

أين الخطأ و ماهي البداية ؟؟

أهي : " كما تكونون يولّ عليكم " و " لا يغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " أم هي " الناس على دين ملوكهم " و " إذا صلح الراعي صلحت الرعية " و " تفسد السمكة من رأسها " .

يبهت زمن الإجابات السهلة ويصعب الوصول إلى يقين .

تمنيت في بواكير صباي، أن أعيش عصر النبوة كي أحارب مع جند الرسول صلى الله عليه وسلم المشركين، كي أموت على اليقين، لكن رعبا مالبث أن استبد بي حين أدركت أنني كنت سأنضم إلى إمام المتقين في مواجهة أم المؤمنين، حيث يبهت اليقين، وكنت سأقف مع عليّ ضد معاوية، رضى الله عنهما، عنهما معا، فأين اليقين ؟؟.

حين اعترض إمام المتقين علي سيد المرسلين قال له صلى الله عليه وسلم : " سَتُسَامُهَا "، ومرت السنون، فَسِيمَهَا.

كنت قد تجاوزت كثيرا قدرى، حين رحت أسائل الصحابة الأجلاء الذين اعتزلوا الصراع : لماذا لم تحاربوا مع عليّ ؟ لماذا لم تقفوا مع الحق ضد الباطل، لماذا، الآن أُسَامُهَا، لأجدني - والقلب حسير - ناكصا عن الصراع، عازفا عن المواصلة .

أسائل نفسي وقد عجزت عن تبين مكمن الخطأ، فأين الصواب؟؟.

هل في الوقوف إلى جانب المظلوم الضعيف و إن أخطأ حتى أعينه على رفع الظلم عنه ثم أبذل له النصيحة كي يتوب عن خطئه ، وهل إذا وقفت معه أعينه أو أضاف إليه، أم هو في الوقوف قريبا من الظالم الغاصب المستبد الجبار لعلّي أستطيع التخفيف من غلوائه، ومنع ظلمه .

أم أنني عاجز في الأولى عن الرفع وفي الثانية عن المنع .

لقد قر فى يقينى منذ زمان طويل أن الإرهاب هو الوجه الآخر لإرهاب السلطة، و أن أحدهما لن يمتنع إلا بامتناع الآخر .

الإرهاب فى كل صوره جريمة، لكنه من السلطة الحاكمة جريمة أشد .

يُعْزِى الفقيه " لاكاسين " كل الجرائم الموجودة بالمجتمع إلى أخطاء هذا المجتمع فيقول :" يوجد بالمجتمعات مجرمون تستحقهم هذه المجتمعات " ويقول الفقيه " كيتيلييه " إن المجتمع يحوى بداخله جرثومة ما سيرتكب فيه من جرائم فى المستقبل "

أما علم الإجرام الجديد فإن معظم فقهائه يرون جميع الجرائم والمجرمين من منطلق سياسى و إدارى دون سواه ، ويقررون أن العلاج الوحيد الممكن هو علاج الجبهة الأخرى، المجتمع والسلطة ونظام الحكم، لأنها هى المريضة ، وهى المحتاجة إلى علاج، قد يشمل الاستئصال أو البتر .

فى الخارج، فى الدول الديموقراطية، التى يقارنون أحيانا بين ديموقراطيتنا وديموقراطيتها، لايتركون البحث فى طبائع حكامهم و أخلاقهم وسيرهم، من فضائح المال إلى الجنس إلى كل العورات الأخلاقية الأخرى، تكشف أمام الأمة قبل أن تختار، ربما لأنهم يدركون أن صفات الحاكم تنتقل إلى النخبة الحاكمة، وعيوب النخبة تنتقل إلى عموم أبناء الوطن .

ترى هل من حق ديموقراطية الجرعات المعدلة بالقانون ٩٣ أن تبيح لنا التساؤل عن الصفات الخلقية للرئيس مبارك و عن ماهية المشاعر الحقيقية التى يحملها للأمة ؟؟!!.

يقول الدكتور مصطفى حجازى* أن المجتمع كله يقلد أخلاق السلطة الحاكمة والنخبة المتسلطة ومفاهيمها للحياة، فعلى مستوى الإدارة مثلا، نجد الموظف يتعالى على من هم دونه، ويشتط فى معاملتهم، كما يتعالى على الجمهور ويقابله بالصد أحيانا وبالنبذ الصريح أحيانا أخرى، وهو إن قام بما يفترض أن

---

* التخلف الاجتماعى، سيكلوجية الإنسان المقهور، الدراسات الإنسانية، د. مصطفى حجازى، معهد الإنماء العربى،بيروت.

يقدمه من خدمات يعتبر ذلك منّة من جانبه تجاه صاحب الحاجة وليس واجبا تمليه عليه وظيفته، إنه لا يكاد يعترف إلا فى حالات نادرة، بحق المواطن فى أن تلبى حاجته، وهو فى ذلك يكرر موقف رئيسه منه، وهذا الأخير يكرر موقف المسئولين الأعلى منه، ويتخذ الأمر فى النهاية طابع سلسلة علاقات استعلائية استعبادية، وليس حتى شكل العلاقة الرسمية التى تفرض واجبات وتضمن حقوقا لكل طرف وعلى كل مستوى، إن التشبه بالنموذج الذى يفرضه الحاكم المستبد فى التعامل مع الآخرين، لا يدع مجالا للاعتراف بالواجبات والحقوق، لا يوجد حق سوى حق المستبد المتسلط، وواجب إذعان التابعين والمرؤوسين له .

ثم يضيف : " الإنسان المقهور يستخدم أسلوب السيد المتسلط نفسه ويخاطبه بلغته نفسها، الكذب والخداع والتضليل هى قوام اللغة التى يخاطب بها المتسلط الجماهير المقهورة، إن خطابه هو أبدا كذب ونفاق عندما لايكون تهديدا صريحا، خطابه وعود معسولة وتضليل تحت شعار الغاية النبيلة : الوعود الإصلاحية، الخطط الإنمائية، الأخلاق، الرقى والتقدم، المستقبل الأفضل . . كلها هراء اعتادت عليها الجماهير، وهى بدورها تخادع وتضلل حين تدعى الولاء وتتظاهر بالتبعية."

إن العنف الذى تمارسه السلطة لا تجاه أعدائها بل تجاه المجتمع كله هو الوجه الآخر لرفض النخبة الحاكمة للحوار، للاحتكام إلى القانون والدستور وصندوق الانتخاب، المجتمع عدو، أما هم، فلا شرعية حقيقية لهم فى الحكم، وليسوا فى الحق سوى حكام بدستور القراصنة، والعرش لمن غلب .

تنسكب طبائع الحاكم المتسلط على الأمة كما ينهمر السيل من قمة الهرم إلى قاعدته مرورا بكل أحجاره . تصبح أنماط حياة الطاغية مجالا للمحاكاة، والمثل الأعلى للمجتمع، الذى ينسى مشاكله الحقيقية، وتندفع فئات المجتمع فئة تحت فئة للتشبه بالسلطة الحاكمة، للاستعراض، لتبديد الثروة القومية فى شراء سلع الوجاهة وتكديسها، حتى مالا يتلاءم مع الظروف البيئية والمناخية، فنجد فى بعض أوطاننا ناطحات السحاب فى

صحراوات بلا حدود، ونجدها مطعمة بالمعادن والزجاج الذى لا يتلاءم قط مع الحرارة اللاهبة لشمس تصليها سعيرا .. وفى مصر، عندما اندفع السادات إلى بناء الاستراحات الفاخرة، اندفعت كل النخب خلفه وما تزال، وفى الساحل الشمالى والشرقى أهدرت مئات من المليارات كانت كافية لحل كل أزمات مصر لو أجيد استثمارها ، كانت كافية حتى لحل مأزق الإرهاب بإنشاء ملايين الفرص للعمل ودفع الوطن كله إلى قيم يحركها الإنتاج والتنافس فى بناء الوطن لا فى بناء القصور ...

إن المجتمع الذى يتعرض باستمرار للقهر المزمن يحاول أن يحل مأزقه الوجودى بوسائل مختلفة، ومن خلال تباين ردود أفعال الفئات و اختلافها تتفتت الأمة، إن القطاع الأعظم يهرب من المواجهة بالانكفاء على ذاته، وثمة قطاع آخر يهرب من مأزقه الوجودى بمحاولة الانضمام إلى الفئة المتسلطة ، الاحتماء بها وإغوائها والسيطرة عليها، ويحاول قطاع آخر، أن يعكس الدائرة، أن يمارس الإصلاح من خلال السلطة الحاكمة نفسها، بإقناع أفرادها و إصلاح أحوالهم، بالنفاذ إليهم ، ومن المحزن أن معظم أفراد هذه الفئة يسقطون فى براثن غوايات السلطة، القلة التى تبقى محافظة على فهمها للمأزق، تواجه بانسداد كل السبل للتغيير، الانتخابات تزور، محاولات توعية الجماهير تحاصر، الصحف تصادر والأقلام تكسر، وسائل الإعلام تكرس لتشويه من يتمردون على أخلاقيات النخبة الحاكمة . لايبقى - فى تصور بعضهم - أمام مواجهة القهر المزمن ثمة طريق سوى العنف، لغة التخاطب الأخيرة حين يحس المرء بالعجز عن التغيير بالحوار، وحين يترسخ الاقتناع باستحالة إقناع النخب الحاكمة بخطأ وخطورة الطريق الذى تدفع الأمة إليه .

يتناول الحمقى ظاهرة العنف كظاهرة مصمتة، ولا يلتفت معظم المنظرين إلى أن الرصاص هو محطة العنف الأخيرة، و أن ثمة مظاهر لاحصر لها من العنف، و أنه محاولة لاستعادة التوازن إلى الذات المقهورة وحمايتها من عنف النخبة الحاكمة، أنه قد يكون سويا أحيانا وغير سوى أحيانا أخرى، قد يكون عنفا مُقَنّعا ، وقد يرتد هذا العنف المقنع على الذات متخذا شكل السلوك

الرضوخى والميول التدميرية الذاتية التى تدين الذات وتحط من شأن المجتمع، إنه مجتمع متخلف يستحق أن يحكمه متخلفون، وهكذا تنتهى القضية بتساوى طرفى المعادلة، بيد أن ذلك العنف المقنع قد يتوجه إلى الخارج فى شكل مقاومة سلبية، بالتكاسل عن عمل يدرك المقهور أن القاهر يمتص منه رحيقه ويترك له مرارته، أو العزوف عن انتخابات يعرف المقهور أن القاهر يزورها، أو إطلاق النكات والشائعات للتنفيس عن العنف الذى يعتمل فى قلبه، فى نوع من قلب الأدوار الوهمى، من الحط من قيمة الحكام والتعالى عليهم بينما يضحك هو ضحكة النصر، حين يحول - من خلال النكتة -المتسلط القوى إلى ساذج مغفل غبى عاجز بينما يتحول هو إلى مسيطر بشكل خفى .

و قد يكون العنف رمزيا، إن المجتمع الذى تحكمه سلطة لا تحترم القانون ينفلت بعض أفراده ليفعلوا نفس الشىء، إن مفهوم هيبة القانون فى مجتمع القهر غير واضح، هناك فقط خوف من السلطة وبطشها، إن عدم احترام قوانين المرور و إشاراته مالم يوجد جندى المرور - على سبيل المثال - ليست كما يشاع رمزا على تخلف المجتمع بل هو عنف مرتد إلى حكام لا يحترمون القانون ، فتعلم المجتمع منهم أن القانون هو السيف الذى يمسك به القوى والسوط الذى يسوطه به ، و أنه لا يطبق القانون إلا الضعفاء، إنه يقتنص فرصة لا يحترم فيها القانون كى يثبت لنفسه أنه هو الآخر قوى . لذلك أيضا تشيع تصرفات الاحتيال والغش والخداع والاستغلال بقدر ماتسمح به إمكانيات التهرب من الملاحقة، يضيع الالتزام ويغيب ماهو مشترك وينهار الانتماء الاجتماعى، فى ظل سلطة باطشة قاهرة، وكل سلطة باطشة قاهرة هى سلطة هشة ضعيفة هزيلة، وتتحول ساحة المجتمع إلى ساحة للعنف، للصراع على السلب والنهب، ومحاولة البعض منع الانهيار .

فى ظل هذا التوتر العنيف يفقد المجتمع منهج التفكير العقلى الهادىء الذى قد يمهد الطريق لحل مشاكله، كل أطراف المجتمع معبأة تماما، كذلك كل أفراده، يكفى أى اختلاف بسيط لتوليد انفجار عنيف، ففى ظل قهر السلطة تبدو تلك العدوانية

المتفجرة كما لو كانت تتلمس الفرص كى تعبر عن نفسها وتفرغ شحنتها فى مظاهر العنف المختلفة . ذلك أن انشغال الأمن بأمن السلطان دون أمن الوطن، وطريقة القهر التى تشربتها أدوات السلطة من سادتها، تجعل المواطن يحس أنه متروك وحده، وعليه أن يتدبر أمر نفسه كما يستطيع، ليس هناك من يضمن له حقه، فالشرطة ليست شرطة والنيابة ليست نيابة والقضاء ليس قضاء والأطباء ليسوا أطباء والمهندسين ليسوا مهندسين والجيش ليس جيشا و إنما الجميع دُمىً، أشكال خاوية لا تؤدى وظيفتها، أو تؤدى عكس هذه الوظيفة، على المواطن إذن أن يحصل على حقه، أو مايظن أنه حقه بالطريقة التى تمكنه منها ظروفه، بالاحتيال أو التقرب من السلطان والتودد إلى ذوى النفوذ أو العنف والصراع من أجل الغلبة أو انتصار ماتظن كل فئة أنه الحق، عن باطل وعن حق . ذلك التوتر الوجودى ينبت هذا العنف، وهذا العنف يفرخ التعصب والفاشية والقسوة التى هى من سمات نظم الحكم المستبدة، التى لا تكف عن ممارسة العنف والإرهاب ضد فئات المجتمع من ناحيتها، ولا تكف فى نفس الوقت، عن إدانة العنف والإرهاب إذا استعملته فئة من فئات المجتمع ضدها، إنها عملية إسقاط من الحكم الذى يمارس الإرهاب، إنه يتهم الآخرين بأنهم سببه ودعاته، أنهم هم المخطئون، وبهذا الإسقاط يجد الحكم راحته المزدوجة ويبرىء نفسه، إن الآخرين هم المجرمون لأنهم يمارسون الإرهاب، وفى نفس الوقت فإن إرهاب السلطة مبرر لأنه ضد مجرمين .

يتجاهل الحاكم المستبد أن كل عنف ينشأ عن توتر، و أن كل توتر ينشأ عن إحباط، و أن شدة العنف تتناسب مع شدة الإحباط، وأن العنف يتزايد مع اشتداد القهر وتنامى عناصر الإحباط واليأس من إمكانية التغيير، و أن قمع هذا العنف يولد إحباطا جديدا يولد بدوره عنفا لاحقا، وفى إطار الدائرة الجهنمية يسقط الضحايا قرابين بشرية للحاكم المتجبر، السادى، الهادف إلى السيطرة على الآخرين، إلى تجميدهم كى يتحرك هو . وهو لكى يفعل ذلك، يلجأ إلى فك الارتباط العاطفى بين فئات المجتمع وبين أفراده، إلى فك الارتباط العلائقى بين فئات المجتمع، إلى وضعها

فى مواجهة بعضها البعض، يدفع الجميع إلى الاغتراب والكراهية والتربص، ويسلخ عنهم القدرة على المشاركة الإنسانية، إلى التمهيد لاختيار ضحاياه بوسائل إعلامه، إنهم مجرمون إرهابيون يستهدفون الوطن والمصلحة العليا، لابد له إذن أن يتحرك لإحقاق الحق ، عن طريق الشرعية أو بتجاوزها، وهو لكى يقدم المبرر للآخرين على ماينتويه، لابد أن يلجأ إلى تحقير خصومه، إلى إفقادهم حقيقتهم الإنسانية، يسحب عنهم سماتهم البشرية ليحولهم إلى رموز للخيانة والسوء والتآمر، إنهم خطر على الجميع ولابد من إبادتهم، لا يصبح الخلاف خلافا فكريا أو حتى صراعا على السلطة، بل يتحول إلى صراع وجود، لابد فيه أن يتحول إلى جلاد قاتل، لكنه وقد ساق الأمور هذا المسار، يبدو القتل فى نظره شيئا طبيعيا تفرضه الظروف وله مايبرره، دون أن يثير أى إحساس بالندم أو الجريمة . لكن الجلاد وهو يفعل ذلك، ينسى أنه يمنح لخصومة ذات الآلية فى التفكير، إنه يمنحهم شرعية القتل كأسلوب لفرض إرادتهم التى عجزوا عن فرضها بالحوار، لينحدر المجتمع إلى دائرة من عنف يتخذ طابع التشفى الذى لايعرف الارتواء، لأن الجرح النفسى الناتج عن القهر لا يعرف الاندمال .

يقول الدكتور مصطفى حجازى : " إذا كان القهر من خلال الإرهاب والقمع هو الحقيقة التى تعشعش فى بنية المجتمع المتخلف تنخرها وتلغمها، فإن العنف على مختلف صوره لابد أن يكون السلوك الأكثر شيوعا حين تسنح الفرص، تلك هى كارثة الرباط الإنسانى طالما لم تتغير العلاقة بأخرى أكثر مساواة تعيد الاعتبار إلى الحاكم والمحكوم ."

ليس ثمة سبيل لقطع تلك الدائرة الخبيثة من القهر و التوتر والعنف سوى التغيير، لكن علة النظم المستبدة، وهلاكها، أن الحاشية المحيطة بالسلطان، والتى سيسلبها التغيير بعض مكاسبها إذا تم حتى ولو ذرا للرماد فى العيون، تتعمد دائما أن تصرف نظر السلطان عن صمام الأمان الوحيد الذى يتيح للنظام الاستمرار ولو بأمل كاذب فى تحسن الأحوال بعد تغيير صورى . لذلك فإن هذه الحاشية تلجأ دائما إلى إيهام الحاكم أنه على صواب

مطلق، و إذا لم يكن السلطان ذكيا بالقدر الكافى، فإنه يصدقهم، فجرثومة الداء العضال كامنة فيه .

يقول الدكتور برهان غليون : " إن عقل المستبد عقل إطلاقى يرفض أن يكون هناك وجهات نظر مبنيّة على تجارب شخصية ومعارف مختلفة، و أن يكون لكل فرد وجهة نظر مخالفة، و أن يعترف بأن مايراه لايمثل إلا جانبا من الحقيقة و أن بإمكان الآخرين أن يروا جوانب أخرى، تبدو الحقيقة كواقعة بسيطة واحدة والتعبير عنها وحيد، هو على حق والآخر على باطل، لا يقتصر الأمر على ذلك، بل يبدو ذلك الآخر الذى يعتبره على خطأ كما لوأن وجوده ذلك خطأ ولابد من اجتثاثه فى أسرع وقت . "

ترى، هل نستطيع أن نبحث أمور النخب الحاكمة فى بلادنا كما يبحثونها فى العالم ؟.

هل نستطيع التطاول كى نبحث فى الطبيعة النفسية والسمات الخلقية لحكامنا، هل نستطيع أن نساعدهم على إدراك أنهم ليسوا معصومين، و أن لهم أخطاءً وعيوبا، وأن نساعدهم على علاج عيوبهم وتجنيب الوطن مخاطرها ؟. أن نفعل ذلك وهم أحياء وفى السلطة، لقد قيل عن الملك فاروق -لكن بعد أن طُرد -أنه فاسق وعربيد، وأشيع عن عبد الناصر بعد أن توفاه الله الكثير والكثير مما أشيع باطل، منها أن ظروفه الاجتماعية جعلته حقودا على الأغنياء، ومنها أن مرض السكر و البارانويا قد جعلاه غير صالح للحكم وغير أهل لاتخاذ القرار، وأشيع عن السادات شغفه بالحشيش والخمر والترف . و إنهم الآن فى الخارج يتحدثون عن افتقاد ميجور للذكاء، وعن ولع يلستين بالخمر، وعن شغف كلينتون بالنساء، وعن مخاطر كل ذلك على أوطانهم .

هل نستطيع نحن أن نفعل مثلهم ؟.

عندما حاولت بينى وبين نفسى أن أفعل ذلك فوجئت بنتائج غريبة . ولست مدعيا أنها فصل الخطاب لكن المجال مفتوح لفقهاء السياسة والاجتماع .

دعونا الآن من النخب الحاكمة، ولنحاول بحث الصفات النفسية

والسمات الشخصية للرئيس مبارك .

الرجل نزيه، لم تنشر حوله شبهة، أمين، لم يعرف عنه قط ماعرف عن بعض أقرانه من عمولات فى السلاح أو البترول، مخلص للوطن فى حدود أفكاره و أفكار مستشاريه، لم يُثر عنه ولا على أفراد عائلته مايشين، دمث الخلق، عف اللسان، وفيما عدا استثناءات نادرة لم يبدر من لسانه مايسيء إلى خصومه . وللرجل ماض كريم وبطولة غير منكورة، قد ننقم عليه بعض العناد، لكنه يملك فضيلة العودة إلى الحق عندما يجد من يضع أمامه الحقيقة بقوة، وقد ننقم عليه أن مستشاريه يوقعونه أحيانا فى أخطاء فادحة بالتحليلات الخاطئة، لكن ذلك كله لا يجعلنا ننسى فضائله، ومنها أنه صبور، و أنه أطلق جانبا غير منكور من الحرية، و أن احتماله أحيانا لانتقاد معارضيه ولعجز بعض معاونيه يبدو بلا نهاية، الرجل بعد ذلك كله فلاح مصرى شهم أصيل .

لكن هل يتفق مع كل هذه الصفات والسمات أن يحدث لعادل حسين ماحدث له، وليتهم أجادوا تدبيج التهمة له كى لايبدو الأمر مجرد انتقام من رأس من أرؤس المعارضة ، فيتمخض الحبس والاتهام عن : " لا قضية " !، لشدما أساءت الحاشية إلى الرئيس . وهل يتفق مع سمات الرئيس أن يُضرب جمال بدوى بالقرب من قصره ، ليتهم – إذا كان لا مناص ولا حل ولا طريقة سوى ضربه –، ليتهم ضربوه أمام بيته أو أمام بيوتهم لا أمام قصر الرئيس كيلا يسيئوا إليه كل هذه الإساءة . وهل يتفق مع سمات الرئيس وصفاته أن يستمر التعذيب الوحشى الحيوانى المجنون المجرم رغم كل صراخنا ورغم كل الأدلة، وهل يتفق أن يستمر تزوير الانتخابات، وهل يتفق أن يتصدى هو شخصيا لتأكيد أن الانتخابات لم تزور ولن تزور فيضعنا فى الموقف الحرج بين أن نصدقه أو أن نصدق أحكام القضاء التى هى عنوان الحقيقة . وهل يتفق مع هذه الصفات كل هذا الصبر على الفساد وتدهور الاقتصاد وتناقص مستوى الدخل وتدهور الصناعة والزراعة وشيوع الغش والتحايل فى تعاملات المجتمع، والتى تجعل كثيرا من المنظرين يرون أن ماحاق بالوطن والأمة فى عهده أسوأ مما

حدث فى أى عهد آخر .

إن التعذيب واقع لايمكن إنكاره، والتزوير واقع لا يمكن إنكاره والفساد واقع لايمكن إنكاره، فهل يمكن أن نتخيل أن الرئيس مبارك يمكن أن يوافق على كل هذا، وهل يمكن أن نُرجع تلك الأحداث الفاجعة إلى صفات وسمات فى شخصية الرئيس .

الإجابة : لا، لكن ترى هل أخطأ فقهاء السياسة والاجتماع، هل يمكن أن تتمرد النخبة الحاكمة على الرئيس فتتصف بغير صفاته وتتسم بغير سماته وتنفذ عكس قراراته .

أزعم أننى كتبت شيئًا من ذلك منذ أكثر من عشرة أعوام، حين قلت أن الأعداء الحقيقيين الذين نخشى منهم على الرئيس ليسوا معارضيه بل النخبة الحاكمة معه وحوله .

لا ينفى ذلك ماهو أكثر من العتاب على بعض تصرفات وتصريحات الرئيس، لقد انفجرت رغبتى فى التوقف عن الكتابة بعد تلك " الدردشة " المقيتة مع وفد النسوة الكويتيات، التى انتثرت كالفضيحة* .

تأكدت رغبتى فى التوقف حين سمعت فى الإذاعات الأجنبية تصريح الرئيس أن الإرهاب سبب ما يحدث فى البوسنة، ساءلت نفسى : هل هذا هو أقصى ما استطاع أن يقول، كنا نأمل منه أن يجمع الأوطان ويحرك الجيوش ويسحب القوات حتى من حلايب كى يرسلها مع تلك الطائرات التى قال أنها يمكن أن تسقط نظام البشير إلى هناك، إلى البوسنة والهرسك، الجرح العارى الذى فضحنا وتركنا بلا كرامة ولا نخوة ولا شجاعة ولا شرف، قلت لنفسى ليته صمت .

قد تستطيع ترسانات القوانين وجحافل الشرطة وغياهب السجون منع الازدراء داخل الوطن، لكن كيف يمكن أن نقنع العالم ألا يزدرينا .

بالرغم من كل شيء يظل التساؤل : لماذا إذن ونحن نثق فى

---

* هاجم الرئيس الصحفيين المصريين- أمام وفد من الكويتيات -بعنف شديد لم يُعهد عنه وما أُخذ من قبل عليه، وعرّض بوطنيتهم و أمانتهم وثقافتهم.

صفات الرئيس وسماته تقودنا النخبة الحاكمة هذا المسار الوعر، الذى يحول الحكام والأعوان إلى قوم طلبوا الباطل فأصابوه ويحول المعارضين إلى قوم طلبوا الحق فأخطأوه .

إن ذلك يدفعنا دائما للتساؤل : ترى ماهى المشاعر الحقيقية التى يحملها الرئيس مبارك للأمة ؟؟!!.

إننا نعرف آراء ومشاعر بعض النخبة الحاكمة ومنظريها والمقربين منها، نعرف رأى أنيس منصور مثلا، وفؤاد علام وحمزة البسيونى وزكى بدر، نعرف أيضا أفكارا أخشى أن تكون غلابة عن رأي بعضهم فى الشعب ، عن نظرة الاحتقار العميقة والامتهان لأفراده، وهم حين يفعلون ذلك، يشعرون بذات الفخر الذى يشعر به اللواء فؤاد علام، حين يسرد بطولاته كأنها عبادة لله، دون أى شعور بالخجل والعار مما ارتكبه زملاؤه وتلاميذه، من ممارسات ليست إلا إجراما فى إجرام، متجاهلا أن أى حيوان بشرى مجرم، يستطيع أن يحصل من اللواء فؤاد علام نفسه، على اعترافات أبشع بكثير مما نسبها إلى ضحاياه، إذا أخذه، واستقبله بالتشريفة، وعلقه ساعات وساعات من معصميه أو كاحليه أو أغرقه فى المياه القذرة أو علقه فوق النار كالخروف المشوى أو هتك عرضه وحقنه بعقارات الهلوسة ومزق جلده بالسياط وهشم عظامه وفقأ عينه، و أن هذا الحيوان البشرى المجرم، يستطيع بعد عشرين عاما أن ينشر هذه الاعترافات والإقرارات والخطابات ، مدللا بها على ما شاء له الشيطان .

لكن : ترى ماهى المشاعر الحقيقية التى يحملها الرئيس مبارك للأمة ؟؟!!.

حتى لوكانت تلك الصحيفة الكويتية كاذبة، فقد انتشرت بذور شك لم يعد من المستطاع تجاهله، ولم يعد من المستساغ مواصلة الكتابة، تماما كما استحالت بعد لحظة الكشف المروعة مواصلة الحياة فى بيت الدمية فى مسرحية إبسن الشهيرة *.

---

*مسرحية هنريك إبسن الشهيرة : بيت الدمية، حين يكتشف الزوجان زيف العلاقات بينهما، وكيف اختفت أقبح المشاعر خلف حجب كثيفة من التظاهر وأكاذيب القلب على القلب فلا يكون ثمة مناص – بعد لحظة انكشاف الحقيقة عارية – من الانفصال.

لماذا - رغم الثقة فى صفات الرئيس - لا تسمع النخبة وجيب قلب الأمة الواجف، لماذا يزدرون الأمة، و لماذا يدعون رغم كل الخراب والهوان أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

يتناول البعض بغضب إصرار المسئولين على أننا نعيش أروع العهود وليس فى الإمكان أبدع مما كان و أننا فى برد وسلام بينما نحن فى النار ولسنا إبراهيم عليه السلام ، كنت أنذبح معهم نفس الذبحة، وكيلا أنهار، استبعدت الواقع واستحضرت الواقع البديل، و كان البديل على لسان عبد الوهاب مطاوع، واحد من أفضل كتاب الأهرام وصاحب أنجح و أشهر باب لبريد القراء فى صحافة العالم العربى، حين نشرشكوى طويلة من طبيبة عما حدث لشقيقها المصاب بالسرطان فى إحدى مستشفيات التأمين الصحى من إهمال و إصرار على تقاضى نفقات العلاج بالمخالفة للقانون، وبعد أسابيع جاء رد نائب رئيس الهيئة ينفى ماحدث مؤكدا أن المريض يلقى أفضل رعاية وعلاج فى مستشفيات الهيئة التى ينزل الآن فى قسمها الداخلى، و أن صحته قد تحسنت كثيرا تحت الرعاية المكثفة والعلاج الكامل، ورد عبد الوهاب مطاوع بجملة قصيرة، دامية، دامعة، مروعة، مبهظة، ثقيلة، مجسدة أحزان الأمة ممثلة تصريحات كل مسئول كبر أم صغر، قال عبد الوهاب مطاوع : شكرا ياسيدى، أما المريض فقد مات منذ أكثر من خمسة و أربعين يوما .

المريض مات يا أيها القارىء والرئيس أو نائب الرئيس يؤكدون أنه فى أفضل حال وليس فى الإمكان أبدع مما كان فهل تستطيع الآن أن تتفهم - خلال عتابك الرقيق عبر خطاباتك ولقاءاتك ومهاتفاتك - سبب عجزى عن مواصلة الكتابة، وهو عجز أدعو الله ألا يستديم، و ألا يسلمنى إلى الخوض فى بحار لليأس لا يبدو لها شاطىء، وانعدام للرجاء لا يبدو له انتهاء إلا أن يتغمدنا الله برحمته .

يخيم على نفسى ويجثم على قلبى شعور ثقيل ممض أن كل الكلمات سواء عند من به صمم، و أننى مهما رفعت صوتى، وصرخت، فإنه لن يسمعنى، ليس لأنه أصم فقط، بل لأنه لا يريد أن

يسمع أيضا .

أشعر أن التوقف عن الكتابة لون من ألوان الاحتجاج والاعتراض والرفض لابد أن نمارسه ، و أن هذا التوقف كفرض الكفاية، إن فعله واحد فقط سقط عن الكتاب جميعا، و إن لم يفعله أثموا جميعا .

أتوقف عن الكتابة صارخا بآخر الحروف العاجزة :

أوقفوا التعذيب ...

و بين عجز الكلمات ورفض العنف لا أستطيع أن أقول كما يقول الشاعر أحمد مطر عندما اسودّت الرؤى أمامه فاندفع فى سعير الغضب وجحيم اليأس إلى التكفير والثورة :

كفرت بالأقلام والدفاتر ..
كفرت بالفصحى التي تحبل وهي عاقر
كفرت بالشعر الذي . .
لا يوقف الظلم ولا يحرك الضمائر
لعنت كل كلمة ...
لم تنطلق من بعدها مسيرة ...
ولم يخطّ الشعب في آثارها مصيره . . .
لعنت كل شاعر ...
ينام فوق الجُمل الندية الوثيرة
وشعبه ينام في المقابر ....
لعنت كل شاعر ...
يستلهم الدمعة خمرا ...
والأسى صبابة والموت قشعريرة ...
لعنت كل شاعر . . .
يغازل الشفاه والأثداء والضفائر ...

في زمن الكلاب والمخافر . . .
ولا يرى فوهة بندقية . . .
حين يرى الشفاه مستجيرة !
ولا يرى رمانة ناسفة . . .
حين يرى الأثداء مستديرة !
ولا يرى مشنقة . . .
حين يرى الضفيرة !
في زمن الآتين للحكم . . .
على دبابة أجيرة . . .
أو ناقة العشيرة . .
لعنت كل شاعر . . .
لا يقتني قنبلة . . .
كي يكتب القصيدة الأخيرة !

الرسالة الثانية

الشرطة خدم السلطان:

*الشرطة فى الأدب
*الشرطة فى الواقع

البروتوكول الخامس عشر

"لخدمات البوليس أهمية عظيمة لدينا، لأنهم قادرون على أن يلقوا ستارا على مشروعاتنا، و أن يستنبطوا تفسيرات معقولة للضجر والسخط بين الطوائف، و أن يعاقبوا أيضا أولئك الذين يرفضون الخضوع لنا"

البروتوكول السابع عشر :

"إننا سنعرف كل شيء بدون مساعدة بوليسهم الرسمي، الذي بلغ من إفسادنا إياه أنه لاينفع الحكومة إلا في أن يحجبها عن رؤية الحقائق الواقعية.

من بروتوكولات حكماء صهيون

الشرطة خدم السلطان

لم ترد لفظة الشرطة فى القرآن قط، لكن الاسم مشتق من لفظ قرآنى :"فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها"، وكلمة أشراط تعنى علامات، وهى جمع والمفرد منه شرط بسكون الراء ويجيز البعض فتحها، وأشرط فلان نفسه : أى علمها بعلامة، وقد كان الرومان يعلمونهم بالوشم على أيديهم. كانوا أيضا يصمون بالأشرطة المجرمين حتى يعرف الناس أنهم وصمة يجب عليهم أن يجتنبوها.

فى الحديث النبوى الشريف ورد ذكر الشرطة مرارا، وفى الغالب الأعم كان التحذير والإدانة هما المعنى.

قال صلى الله عليه وسلم :"سيكون فى آخر الزمان شرطة يغدون فى غضب الله ويروحون فى سخط الله، فإياك أن تكون من بطانتهم"، ثم يحذرنا صلوات الله وسلامه عليه من"إمارة السفهاء وكثرة الشرط"، ثم يكون القول المرعب القاسى على كل ظالم يطيع المخلوق فى معصية الخالق : "الشرط و أعوان الظلمة كلاب النار".

فى كتب التراث، لا يوجد كتاب مستقل يتحدث عن الشرطة، وقد لاحظ : محمد الشريف الرحمونى مؤلف كتاب : نظام الشرطة فى الإسلام"الناشر"الدار العربية للكتاب"أن مراجع الشرطة العربية معدومة، غير جمل متفرقة فى أمهات الكتب، ويعلل إهمال هذا الموضوع من طرف أهل الفكر قديما لاتصال رجال الشرطة اتصالا وثيقا بالخلفاء والولاة، و إلى السمعة السيئة التى اشتهر بها رجال الشرطة فى بعض العصور، نتيجة القسوة وتجاوز الحدود والخروج عن سياسة الإسلام فى الرعية.

فى"الأرض الخراب"للشاعر الشهير :"ت - إس اليوت"، يستدعى

من التراث نوعا آخر من الأشرطة بالوشم أو الجرح التى كان يفعلها الرومان بالمجرمين والخارجين عن القانون كى يميزهم المجتمع ويتخذ الحيطة والحذر منهم، يتحدث إليوت عن نوع آخر من الأشرطة ، يوصم الناس بها دون أن يعرفوا أو يعرف الآخرون عنهم ذلك، فجرائمهم غير تقليدية ولا تقع تحت طائلة القانون التقليدى المعروف، ولذلك فإن وصمتهم كامنة فى أعماقهم، وتنضح داخلهم مثل البؤرة الصديدية التى لا يلحظها أحد، إنها أخطر من الوصمة القديمة المحددة، لقد اختلط الحابل بالنابل، والمريض بالصحيح، والمجرم بالبرىء، فعم الوباء فى النهاية .

وفى مرافعة للدكتور عصمت سيف الدولة تحدث عن الشكل الرقيق المهذب لضابط مباحث أمن الدولة، الذى يخفى حقيقته المروعة.

لم يبدأ استعمال لفظ الشرطة فى مصر فى العصر الحديث إلا عام ٥٩، أما قبل ذلك قد ظلت كلمة البوليس هى الاسم الرسمى للشرطة، و مازال لهذه التسمية الأولى انتشارها الواسع.

و كلمة « بوليس » كلمة إغريقية تعنى المدينة، أو الحضارة، أو المدنية، ففى ذلك الوقت كان رجل البوليس لا يتواجد الا فى المدن وربما كانت الكلمة بذلك تعنى رجل الحضارة والمدنية . وكان منوطا به الحفاظ على الحضارة والمدنية من خلال القانون.

لكن . . .

ما من طاغية الا وتستر بالقانون واتخذمن الشرائع سترا يخفى عورته مكيفا مظالمه بقالب العدل فيكون أشر الطغاة وأشدهم بطشا بمن يرضخ تحت نير سلطته، ويكون سوطه وصوته هو رجل الشرطة الذى يتحول هو الآخر الى طاغية صغير، عبد لسيده منفذ لكل أوامره، فى كل شىء، حتى فى معصية الخالق . يفرغون بلادهم من كل قدرة على المقاومة، وكل طاقة على الإبداع.

فى عصور كثيرة- منها للحزن ما نعيشه الآن- عمدت بعض قطاعات الشرطة أول ماعمدت، لا إلى التستر بالقانون، ولا إلى التحايل عليه، ولا إلى اقتناص الثغرات فيه، بل إلى تحطيمه

تحطيما، إلى الزراية به وازدرائه، فالقانون ليس إلا سوطا فى يد السيد أمام عبيده يلهب به ظهورهم ويرهب قلوبهم، ينطبق عليهم وعلى أشياعهم لكنه لا ينطبق عليه ولا على بطانته، إلا المغضوب عليهم. ولأن الإنسان لا يمكن أن ينقسم إلى نصفين : نصفٌ أمين،ونصفٌ خائن، فإن الجهاز أو الفرد، الذى دأب على خيانة الله والرسول والإنسان فى نفسه، وعلى غش شعبه، لابد له أن يمارس السلوك نفسه مع سيده ومولاه ذات يوم. لقد أثبتت التحقيقات على سبيل المثال أن مدير البوليس فى قصر فاروق كان يتجسس عليه لصالح السفارة الإنجليزية.

ترى.... هل من سبيل إلى يقين أن ذلك لايحدث الآن لصالح السفارة الأمريكية أو الإسرائيلية؟

يقول البروتوكول الخامس عشر من بروتوكولات حكماء صهيون:"لخدمات البوليس أهمية عظيمة لدينا، لأنهم قادرون على أن يلقوا ستارا على مشروعاتنا، و أن يستنبطوا تفسيرات معقولة للضجر والسخط بين الطوائف، و أن يعاقبوا أيضا أولئك الذين يرفضون الخضوع لنا"

ويقول البروتوكول السابع عشر :

"إننا سنعرف كل شىء بدون مساعدة بوليسهم الرسمى، الذى بلغ من إفسادنا إياه أنه لاينفع الحكومة إلا فى أن يحجبها عن رؤية الحقائق الواقعية.

تجربة المثقفين مع السلطة في عالمنا العربي مرة، حيث كانت الشرطة دوما عصا السلطة وسوطها، وحيثما كان يوجد حاكم يتأله كانت الشرطة شياطين العذاب وصار الوطن جهنم..ولقد حاولت جهدى أن أعثر على أعمال أدبية مصرية تكشف وجدان الأمة من خلال كتابها وكيف ينعكس على مرآته ضابط الشرطة، فلم أجد إلا النزر اليسير، وفى الأعم، فقد تناولت هذه الأعمال ضابط الشرطة تناولا هامشيا محايدا، له دلالته، ذلك أن الكتاب يخشون المساس برجل الشرطة ممثل السلطة.

مالم أجده إلا لماما فى الأدب المصرى وجدته عند الروائى

العربى الكبير عبد الرحمن منيف الذى يفتتح روايته المروعة : الآن أو هنا (أو : شرق المتوسط مرة أخرى) بهذه المأثورات :

جاء فى كتاب حياة الحيوان الكبرى :"روى عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :"أدخلت الجنة فرأيت فيها ذئبا، فقلت أذئب فى الجنة ؟ فقال أكلت ابن شرطى، فقال ابن عباس : هذا وانما أكل ابنه فلو أكله رفع فى عليين".

وبرغم أنني شخصيا اعتقد أن الحديث موضوع، فلم أجده فى كتب الأحاديث المعتمدة من الأمة، فضلا عن أسلوبه الذى لا يتفق مع الأسلوب المتفرد للرسول صلي الله عليه وسلم، والذى يجعلنى أحيانا أفكر أن علماء اللغة قد اسقطوا قسم رابعا من اللغة العربية بعد الشعر والنثر والقرآن، ألا وهو قسم لغة الحديث النبوى الشريف، لكن الحديث حتى لو كان موضوعا، فإن كاتبا فحلا مثل عبد الرحمن منيف يعتمده، كما تناقلته كتب للتراث تعبر بصورة ما، عما في قلب الأمة تجاه الشرطة.فى هذا الصدد أيضا يقدم مقال أخير للكاتب الكبير فهمى هويدى صرخة مأساوية فاجعة لما يمكن أن تتحول إليه الأمورتحت وطأة حكم غشوم، يدفع بالأمة الى فتنة تدوم، إذ يصرخ فهمى هويدى محذرا الأمة– والألم ظلمات بحر خلفه ظلمات– وهو يسرد شهادات أمنية لم تنشرها صحافة المعارضة، ولم يرددها المثقفون المأجورون المرتزقة طبقا لبيان صدر عن وزارة داخليتنا إبان اعتقال عادل حسين، بل نشرته صحف انجليزية وفرنسية عما يفعله رجال الشرطة فى الجزائر الآن، ففى ٩ مارس نشرت اللوموند الفرنسية والجارديان الإنجليزية تقريرا يبرز الصورة كما يلى :

"الشرطة تتحرك فى الليل محتمية بالظلام، تطرق الأبواب وتستدعى رب الأسرة نصف النائم وحين يطل الرجل برأسه تنطلق رصاصة باتجاهه فتسقطه علي الأرض جثة هامدة وبينما يهرع الأولاد لاستطلاع ما جرى تكون المجموعة الأمنية قد اختفت فى جوف الليل"

"الضابط فؤاد واحد من هؤلاء، كان يطلق الرصاصة من كلاشينكوف فى يده، بينما وجهه مغطى بقلنسوة لا تظهر سوي

عينيه، والأقراص المنبهة فى جيبه، معظم العمليات تتم بذلك الأسلوب الشرطة تتلقى رسالة أو مكالمة هاتفية من مسئول مجهول فتنطلق إلى عناوين بذاتها وتنفذ مهام الأعتقال والإعدام، دون أن تعرف ما إذا كان الشخص المستهدف بريئا أو مذنبا، مسلحا أو غير مسلح.

هكذا قال فؤاد فى حواره الطويل مع الصحيفة الفرنسية.

اشترك فؤاد فى أكثر من عملية حتى اعتاد على القتل، وأصبح مثل الأخرين جزءا من عمله الاعتيادى، وأصبح الكلاشنكوف من ضرورات استمراره فى الحياة.

وبعد حين، وجد نفسه قد تحول إلى قاتل محترف، وقد بدأت أولى شكوكه حول منحنى الحرب الأهلية خلال تشييع رفاقه من الشرطة، لأن أقارب رجال الشرطة القتلى كانوا يحذرون زملاءهم المذهولين من لمس النعش قائلين : لم يكن الإسلاميون هم الذين قتلوه، بل أنتم !

حينا بعد حين، أدرك فؤاد أن كلام الأهالى صحيح فقد لاحظ أن اكثر الضباط شعبية قتلوا في بداية الأمر « ربما لصَدْم الناس وإثارة غضبهم واشمئزازهم » كما يقول، وقد قتل بَعضهم رغم انهم كانوا تحت حراسة جيدة من الجنود.

أثارت انتباهه ايضا بعض التصرفات الشاذة فقد اعترف احد الضباط بانه قتل ١٤ من زملائه. وتم اكتشاف احد الضباط الضالعين فى قتل عدد من رجاله وهو يكتب رسائل تهديد لنفسه لكي يغطى على دوره فى الاغتيالات، يعترف فؤاد للصحيفة بعد أن طلب اللجوء لفرنسا :

« كانت لدينا قناعة بأن بعض الناس يُقتلون على يد الحكومة وأن هناك شكلاآخر من أشكال الإرهاب، هو الإرهاب القانونى الذى تمارسه السلطة، ذلك غير الإرهاب الذى يباشره الآخرون من شباب « الجماعات ». إزاء ذلك لم يعد ممكنا أن يثق المرء في أي أحد، لا الأمن العسكري ولا رجال الدولة ولا الشرطة، فقد كانوا كلهم يقتلون بعضهم البعض ويلعبون لعبة مزدوجة."

انتهت مقتطفات المقال المخيف للكاتب الكبير فهمى هويدى، والذى يدق أعلى أجراس الخطر من أمور بدأت تبدو شواهدها. ولسنا نحن الذين نقول ذلك بل إن جهات عديدة فى العالم تتنبأ به وتحذر منه ولن يبعد الخطر أو يقلل منه النفى العصبى المتشنج لمسئول غبى.

التناول الأدبى للشرطة جاء شحيحا وحذرا، يعكس ضراوة الجهاز الباطش الجبار.

ربما لأن معظم ماجاء فى الأعمال الأدبية كان تعبيرا عن تجارب شخصية، أو تجربة وجدانية عنيفة لا تضاهى الواقع فقط بل وتتفوق عليه، لا بالانفصال عنه بل بالتعبير عنه أكثر، إنه ليس خيال فنان إذن ولا قريحة كاتب، بل هو خلاصة الحقيقة مجردة وعارية ودامية، ولقد احترت كثيرا كيف أصنف هذا الجزء من الكتاب، احترت مثلا هل أضم المذكرات الشخصية والسير الذاتية إلى قسم الأدب أو إلى قسم ماحدث فى الواقع، كما احترت هل أضم عملا كالعسكرى الأسود ليوسف إدريس إلى الواقع أم أبقيه فى الأدب، ومن المعروف أنه كتب هذا العمل بانفعالات مباشرة بعد فترة اعتقال، وهل أتخذ سمت النقاد المستأنسين، الذين تناولوا مثل تلك الأعمال دون أى التفات لدلالاتها الوحشية الفظيعة، كان يهمهم ألا يُجر المبتدأ دون أن تطرف لهم عين إذا ما جروا البطل وسحلوه، أو ألا يرفع المفعول بينما يرفع الضحية معلقا على مشجب حديدى أو على صليب، وأن يوضع المفعول فيه فى سياقه الصحيح دون أن يأبهوا لما تشير إليه تلك الأعمال الأدبية من هتك أعراض وسفك دم.

رجال الشرطة من الجانب الآخر يدركون خطورة الأدب، فمنذ أعوام كانت قد صدرت لى مجموعة قصصية بعنوان"مباحث أمن الوطن" وبعد أن أتم الناشر طباعتها والإعلان عنها قام الأمن بمصادرتها على الفور، رغم أن كل قصصها منشورة فى الصحف.ومنذ خمسة أعوام، تقلب على وزارة الداخلية فيها ثلاثة وزراء، لم يشذ أحد منهم عن صاحبه، وعندما جادلت أحد ضباط مباحث أمن الدولة فى سبب المصادرة رغم أن القصة لا تحوى من

مشاهد التعذيب ما تحفل به الصحف كل يوم، فإذا به يرد قائلا: هل تظن أنكم أنتم فقط الذين تفهمون؟ إن أى خبر صحفى مهما كانت خطورته لن يمكث فى الذاكرة أكثر من أسابيع أو شهور، لكن العمل الأدبى قد يمكث مئات الأعوام، ليظل وصمة عار دائمة لنا.*

من هنا نلمس إذن السبب فى ندرة الأعمال الأدبية التى تتحدث عن الشرطة، حتى سيد الرواية العربية حين تناول الشرطة فقد تناولها فى عهد ماض وليس فى عهد حاضر، كما ورد فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

أما يوسف إدريس فيصف- فى جمهورية فرحات- ضابط شرطة بهذا الوصف الحارق الخارق :

"حين رأيته جالسا إلى مكتبه كالحكمدار وعلى يمينه فوهات أكثر من خمسين بندقية مغمدة فى فضاء الحجرة، وخلفه اللوحة الخشبية المثبتة فى الجدار والمثقلة بألوان وأشكال من السلاسل والقيود والدروع والبلط والخوذات، وعلى يساره الخزانة الحديدية القديمة، حين رأيته هكذا تخيلت أن لاحد لرهبته وقوته، و أنه يستطيع ببساطة أن يقضم ذراعى أو يضع إصبعه فى عينى، مع أننى كنت متأكدا أن لا شأن لى به ولا شأن له بى،........، و بدا لى أول الأمر وكأنه ليس بكائن حى، و إنما جسده قد صنع من طلاء الجدران الأسود، ورأسه خوذة من الخوذات المعلقة وراءه، وعيناه فتحات بنادق، ولسانه لابد كرباج"!!..."وضع الكاب فوق رأسه فى وقار مخيف، وزرر معطفه الضباطى- على غير العادة- إلى آخر زرار فيه، وشد جلد وجهه فى تزمت صارم فاختفى كل مافيه من تجاعيد و أصبح أملس كجلد الطبلة المشدود، و أضفى على نظرات عينيه بريقا تحس معه أنه لا ينظر بهما إلى الناس بقدر ماينقر ويلسع، وحمل صوته مالايطيق وهو يشخط ويهدر بكلمات غير مفهومة كأصوات الرصاص".

---

* المجموعة القصصية مباحث أمن الوطن مازالت مصادرة، وهى غير رواية مباحث أمن الوطن التي صدرت للكاتب فى العام الماضى، ورغم أن المنطق كان يقتضى إما الإفراج عن الأولى أو مصادرة الثانية، فقد شاء بطش الجبروت فى أجهزة بلادنا أن يثبت أنه بطش بلا منطق، بطش الواثق أنه لن يُسأل عما يفعل!!

و لعلنا نلحظ أن معظم من تناول الشرطة وبعض سلوكياتها، تناول الأمر كظاهرة من ظواهر الطبيعة أو حتى ماوراء الطبيعة، ظاهرة تُرْصَدُ، لكنها غير قابلة للتفسير ولا للتغيير، دناصير وجدت وسادت ثم بادت ولم يكن للإنسان دخل في وجودها ولا في فنائها، علينا إذن أن نقبع صامتين، فليس الشرطي مهما كان بأقوى من الديناصور، وذات يوم لسبب لا بشرى سيبيد.، الظاهرة أكبر من البشر و أعتى من قدرتهم، كاللعنة التي لا يمكن اتقاؤها أو الجريمة لا يمكن منعها، لذلك لم يحاول أحد وضع مناهج االعلاج.

إنه اليأس الآمل أن ينهار الظلم والبطش والجبروت وحده بعد أن انهارت كل محاولات مقاومته، لكنه يفاجأ أنه كلما انهار ظلم نبت على أنقاضه ظلم جديد.

يصرخ أمل دنقل

لا تحلموا بعالم سعيد ..

فخلف كل قيصر يموت قيصر جديد ....

وخلف كل ثائر يموت أحزان بلا جدوى ..

ودمعة سدى ....

الشاعر الكبير طريق أحمد مطر ربط الشرطة بالحاكم برباط وثيق كوجهين لنفس العملة فيقول في قصيدة التباس:

راكضا كنت.... وكانوا من ورائي يركضون ....

كلما أبعد عن أنظارهم........يقتربون....

كان كابوسا رهيبا .... كل ما فيهم عيون....

وبأيديهم عيون....أين منها الحاسدون !....

تذرف الدمع رصاصا، ولهيبا، ودخانا ....

آه كم هم مرعبون !.

شرطة.... أم مجرمون....؟؟

لست أدرى.

كيف لى أن أعرف الفرق...

وهم من مهنة واحدة يرتزقون ؟!.

ويقول فى قصيدته حالات:

بالتمادي . . .

يصبح اللص بأوربا مديرا للنوادي

وبأمريكا . . .زعيما للعصابات وأوكار الفساد....

وبأوطاني التي من شرعها قطع الأيادي . ..

يصبح اللص . . .رئيسا للبلاد !

أما يأس المعرى فيتجاوز استيحاشه من الشرطى لينصب على جوهر كينونة الإنسان كله :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى .

وصوّت إنسان فكدت أطير

إن وطأة الظلم والبطش والجبروت وانعدام المنطق تحطم البشر تحطيما، والمثقف بين البشر لا يعرف الحلول الوسط، فهو إما مقاوم حتى الاستشهاد أو منهار حتى التلاشى .

يقول حافظ' إبراهيم فى لحظة يأس من الوطن كله :

حطمت يراعى فلا تعجبى . . وعفت البيان فلا تعتبى

فما أنت يامصر دار الأديب . . ولا أنت بالبلد الطيب

أما خليل حاوى فيتلاشى الوطن كله داخل ذاته المتلاشية :

لم يبق لى من وطنى الكبير...

ثلوجه... مروجه... خليجه... محيطه...

ما خلفت ذبابة.... حطت على خريطة...

وهو إذ يتلاش لا يتلاشى لسبب وجودى، بل إن لسع الصوت يدميه:

ألقى صحابى فى المدار على احتقار...

يرتد خنجره إلى صدرى ويبتلع الوصول...

قلبى يهم ولايقول...

لم لا أقول...

تتحجر العينان فى صمت يحجره الذهول...

إن الفجائع مزمنة...

لكنه بعد أن هم بالقول وما قال مازالت فيه حواس أخرى تدرك ما يحدث فيدميه ذلك :

مازال طعم السوط يلمع فى العظام. . .

تلتف حول الخصر ومضته حزام....

إنه يشعر بمسئوليته الشخصية عن تلك السياط فيصرخ :

من لنا بشىء يلغى دوى السوط :

دمغته وعاره...

وعندما لا يسمع الآخرون له، عندما لايأبهون به، عندما يستشعر أن قلوبهم لا تكتوى ولا تدمى، ربما لأنها بكماء صماء عمياء، عندما يدعو فلا يستجاب له، فالله لن يغير حالنا حتى نغير مابأنفسنا، عندما يستمر دوى السياط ويتوهج على الخصور لمعانها، عندما يفشل فى تغيير الآخرين فيدعو لتغيير نفسه، ليصبح كالحيوانات الضارية التى تعيش حوله فى إهاب بشر، يصرخ خليل حاوى :

أعطنى إبليس قلبا لا يهاب...

علنى ألقى خلاصا.......

من قطيع يتفانى حول جيفة....

غِلٌّــه يعلّك أكباد الضحايا.....

يتفشى لطخا صفرا وزرقا فى بقايا....

من جسوم شوهت قبل الوفاة.......

وتعالت نخوة الفرسان عن غل الخفافيش الطغاة.

ثم ينفجر خليل حاوى بيت شعر هو أشد مايكون عذوبة وعذابا وألما :

كلاب تغاوت أو تعاوت لجيفة . . وأحسبنى أصبحت ألأمها كلبا

لقد كان من الطبيعى إذن أن ينتحر خليل حاوى....

ترى: هل انتحر أى ضابط شرطة ندما وصحوة ضمير؟!.

* * *

أما مساهمة أمل دنقل فى الحديث عن قهر الشرطة والسلطة فعميقة نائحة دامية صارخة واضحة مُدينة:

آه ما أقسى الجدار....

عندما ينهض فى وجه الشروق....

ربما ننفق كل العمر .

كى نثقب ثغرة....

ليمر النور للأجيال مرة....

* * *

كان ثمة دافع آخر لترددى فى تناول الأعمال الأدبية التى تتناول الشرطة بالنقد فلست بناقد، ورحت أسترجع السخرية المريرة للناقد الكبير الأستاذ فاروق عبد القادر وهو يقول فى كتابه الفذ :" **أوراق أخرى من الرماد والجمر**": أصبحت كلمة النقد فى واقعنا الثقافى كلمة ملتبسة المعنى أو سيئة السمعة، اختلط النقد بسواه وماعت الحدود، الأخبار المصورة أصبحت نقدا،

ومحررو الصفحات النقدية أصبحوا نقادا، وكل صاحب دكتوراه-فى أي فرع من فروع المعارف الأدبية- قد أصبح أستاذا ناقدا.

لقد أحسست- رغم كبير احترامى للناقد الكبير- أنه قد أخطأ التشخيص بصورة فاجعة، حين راح بعد ذلك يوجه انتقاداته للنقاد ومناهجهم، وددت أن أقول له ما قاله لى ذات مرة صديق عندما سمعنى أحتج بشدة على موقف سياسى : أنت تشبه شخصا مثاليا عفيفا يحتج بمنتهى الشدة والعنف على امرأة لأنها تكشف شعرها، ويروح يعدد لها فضائل الاحتشام، دون أن يفطن أن هذه المرأة.....عاهرة ... ثم أنها لا تخفى ذلك. رحت أفكر فى كل هذا، وتستبد بى الدهشة، لماذا لم يضع فاروق عبد القادر يده على الجرح الحقيقى، لقد تحدث عن فصيل ضئيل من كبار النقاد الذين قد نختلف معهم، وحتى ندينهم، لكننا نحترمهم، بيد أنه لم يتحدث عن العهر فى عالم الأدب والنقد، عن سيطرة القوادين على معظم مجالاته، عن انتشار الفساد والشللية وتبادل المصالح والخدمات أو الدفع المباشر مقابل الكتابة عن عمل ما تحت شعار هو السائد الآن: **النقد مقابل النقد !!.**

لم يتحدث فاروق عبد القادر أيضا عن عجز النقاد عن مواكبة الحركة الأدبية فى مصر، ربما فى لمحة عابرة أشار إلى التعتيم الإعلامى الذى قابل أعماله هو شخصيا، وبذلك نبطل عليه الحجة التى يبرر بها بعض النقاد صمتهم بسبب تهافت الحركة الأدبية، وهى حجة باطلة تشبه حجة الطبيب الذى يرفض علاج إنسان لأنه مريض، فلقد كان واجبهم الشرح والتوجيه وحتى الجلد والإعدام، لكن مالن يغفر لهم أبدا، هو ذلك الصمت المقيت الذى ترك الأدعياء يحتلون مكانهم.

كان ذلك كله يجول في خاطرى، متهما نفسى بأنني حين أتصدى للنقد فلست سوى دعى جديد، لكن ما العمل وقد صمت الكبار صمت القبور فاحتل البغاث عش النسور!!.

وكان ذلك كله دافعى لتناول موضوع لا أعتقد أن مجال النقد فى بلادنا قد طرقه كثيرا، ربما تقية وربما خشية، ألا وهو وضع رجل

الشرطة في وجدان الأمة عامة و في الأدب خاصة، و إذ يقرر الفيروزبادى أن الشرطة خدم السلطان فإن مسلسل الزينى بركات الذى عرضه التليفزيون المصرى فى استثناء يثبت القاعدة أكثر مما ينفيها - فى إسقاط لم يكتف بمجرد التلميح على حياتنا المعاصرة-أوحى لنا بأنهم خدم الشيطان أيضا.رحت أسترجع أعمالا أدبية تناولت موقف الأمة من رجال الشرطة، رحت أسترجع الأعمال التى تناولت الشرطة فى ثناياها، وهنا نشأ دافع آخر للحيرة، ذلك أننى اعتبرت كل عمل أدبى من هذه الأعمال صرخة استغاثة يتحتم على أن أكتب عنها، وكانت عملية الانتقاء دامية ومعذبة، فكما يحدث فى مستشفيات الجبهة فى الحروب، يكون على الطبيب استقبال الحالات المصابة، وعليه أن يقرر فى عجالة أيهم يبدأ إنقاذه و أيهم يتركه يموت، ولم أتغلب على هذا الإحساس المر، إلا بعهد قطعته على نفسى، أنه إن لم يحرك هذا الكتاب النقاد إلى تناول الأعمال التى تركتها، فسوف يكون له جزء ثان وربما ثالث.

إننى لن أكف عن تنبيه القارئ أننى لا أتناول أدبا بنقد و إنما أنقل صرخات مروعة دامية صادفت من آذان الأمة وقرا. أننى لا أكتب بل أصرخ، ولا أنتشى بالكتابة بل بها أتعذب، لأننى أحس أن كل صرخة وردت فى هذا الكتاب أمانة فى عنقى.

إننى حريص على فك أى التباس ودحض أى وهم لأقول أننى أقصد الواقع لا الخيال، الحادث لا الأدب، الجرائم لا الدراما، و أننى فى سبيل ذلك قد رأيت أن أقسم هذا الجزء من الكتاب إلى قسمين، قسم يتناول الأدب، لم أستطع فيه أبدا أن أتجاهل الواقع، بل لقد كان للسخرية فى أجزاء كثيرة منه، ليس جرائم تعذيب فقط،با جرائم تعذيب حدثت للأدباء والكتاب أنفسهم، يتلو هذا القسم على الفور قسم آخر يتناول الواقع، ابتداء من رسالة وداع إلى من لا تُرجى له عودة: وزير داخلية مُقال، وانتهاء بنداءات إلى رئيس الجمهورية: ألا يرشح نفسه مرة أخرى، بعد أن ثبت أن ممارسات الشرطة مرتبطة بنظامه.

الشرطة فى الأدب

أسمى الوجوه بأسمائها

نصف الكوب ملآن كنصف الكوب فارغ...

ونصف الضياء كنصف ظلمة.....

ومزيج الأبيض والأسود كمزيج الأسود والأبيض....

لكن.....

لايوجد قط نصف رجل، ولا نصف امرأة، ولا نصف طفل، ولا نصف عذراء، ولا نصف شرف، ولا نصف صدق، ولا نصف جحيم يتلظى فيه ذلك المخلوق التعيس البائس الذى خلقه الله حرا فراح يبيع حريته بثمن بخس لكل سيد، وجعل من نفسه عبدا للسلطان وللشيطان.

نصف الكوب ملآن كنصف الكوب فارغ...

لكن نصف الديوث ليس نصف شريف....

ونصف الحياة ليس كنصف موت....

وليس فى الإمكان أبدا أن تجد إنسانا نصفه حى ونصفه الآخر ميت، نؤمن أنه يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى لكن النصفين لا يجتمعان، يبث الميت سمه فى الحى فيميته.

فى كل مخلوقات الله توجد نماذج شائهة مشوهة، لكنها الاستثناء لا القاعدة، دليل قُدْرة، خلق لنا الناقص كى ندرك الكامل،

فـإن وُجـدت على الأرض فـئـة يكون فـيـهـا الشـائه هـو القـاعـدة والصـحـيح اسـتـثناء فـالأرض خـراب يبـاب، و مـاء النهـر تـسـمم، والهـواء قـد اسـتبدل بـه غاز أعصاب خانق مميت صنعته الـــC.I.A والحكام الإرهابيون مصاصو دماء الشعوب والشياطين.

نصف الكوب ملآن كنصف الكوب فارغ....

يتصارع النصفان....

يتمزق النصف المليء وينزف....

أما النصف الآخر فليس هناك بعد الفراغ ما يفقده....

الشـرطة خـدم السلطان .. هذا هـو تعـريف الفـيـروزبادي في القاموس المحيط، والذي يورده الشاعر االكبير الدكتور حسن فتح الباب في خلاصة عمره وشعره الذي ضمنها كتابه : **أسمّي الوجوه بأسمائها.**

في حدود ما أعلم، فإن التاريخ الأدبي، لا في مصر فقط بل في العالم كله لم يحو شرطيا مبدعا، دعنا من نماذج نادرة كحافظ إبراهيم و سعد الدين وهبة اللذان لم تتجاوز علاقتهما بالشرطة علاقة سائح ببلد يزوره ثم سرعان ما يتركه دون بصمات، ولن أقول دعنا من العميد حمدى البطران وروايته ذات الأدب القليل والأهمية القصوى، بل إننا سنتناوله بكثير من الإطناب فى فصل مستقل فى هذا الجزء من الكتاب، فرواية حمدى البطران ليست أدب سيرة ذاتية، بل هى تكاد تكون دفتر أحوال قسم شرطة ومن هنا – لا من قيمتها الأدبية – كانت قيمتها القصوى ... وليس كذلك حسن فتح الباب، الشاعر الكبير المبدع، وليس الحكم على شعره خاضعا لهواي ، فالدكتور محمد مندور شيخ الأحياء والأموات من النقاد قد قال عنه :"استرعت نظري بين كل ما سمعت من قصائد الشعراء قصيدة "دم على البحيرة" للشاعر حسن فتح الباب، إذ تحققت فيها مقومات الشعر الحر ولا سيما العنصر الدرامي، وهي تمتاز بالقدرة على التعبير بالأسطورة عن الواقع" .

وكتب محمود أمين العالم عنه قائلا: "يستمد شعر حسن فتح

الباب قوته وحيويته من تجارب الشعب".

كما عبر الدكتور رشاد رشدي عن رأيه في شعره بقوله "بهرني شعر حسن فتح الباب بطابعه الفني والإنساني، إنه شاعر عالمي بكل المقاييس"

نحن إذن أمام شاعر كبير على اختلاف آراء النقاد ... شاعر شرطي !! لذلك حدث داخلي تحول وانفجار ، من الرغبة في الإبحار في آفاق الشاعر، والغوص في مياهه لاقتناص لآلئه، إلى رغبة أخرى، تفجرت عاتية مروعة، رغم أنني لم أشعر بها مطلقا قبل ذلك، لأنها كانت تدخل في عداد المستحيل، ألا وهي الغوص في أعماق شرطي يستطيع أن يعبر بقلم الشاعر وبقلبه، ليجيب عن السؤال الذي ما انفك يدوي داخل أعماقي طنينا لا يتوقف : لماذا وقفت الشرطة في معظم تاريخها هذا الموقف العدائي من الأمة. لماذا كان التزوير والتعذيب والبطش، ولماذا كل هذه الدرجة من البذاءة في معاملة المواطنين، لماذا، وهم أبناء هذا الوطن، تكويهم النار التى تكويه، ويهينهم مايهينه.

يبدأ الشاعر الكبير سيرته الشعرية بالحديث عن الكتب التي تصدر في الغرب متضمنة السير الذاتية للساسة والمفكرين والأدباء والفنانين وأهم هذه السير، ما يكتبها أصحابها أنفسهم أما تلك الكتب التي يؤلفها أدباء معروفون يعهد إليهم رجال أو نساء من الشخصيات العامة والمشاهير بكتابة مذكراتهم فهي أقل مستوى، إذ تغلب عليها المبالغة والافتعال بقصد الإثارة التي تحقق سعة الانتشار وما يتبعها من كسب مادي وفير.

وتعد كتب السيرة الذاتية من أندر الفنون الأدبية في الأدب العربي. ولعل العلامة عبد الرحمن بن خلدون مؤسس علم الإجتماع وفلسفة التاريخ هو أول عالم وأديب عربي سجل سيرته في كتاباته، إذ تضمن كتابه المشهور (العبر وديوان المبتدأ والخبر) ترجمته لبعض جوانب حياته (١٣٣٢- ١٤٠٦ م)

وإذا كانت أهم سيرة ذاتية منشورة في أوربا هي سيرة الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو(١٧١٢- ١٧٧٨ م) التي ضمنها

كتابه (إعترافات فتى العصر) نظرا لتأثير المبادىء التي دعا إليها ولا سيما مبدأي الحرية والديموقراطية في التمهيد للثورة فإن أشهر السير الذاتية في الأدب العربي الحديث هي سيرة الدكتور طه حسين في كتابه الشهير (الأيام) وسيرة العلامة أحمد أمين في كتابه (حياتي) وسيرة العقاد في كتابه (أنا) وسيرة الفيلسوف زكي نجيب محمود في كتابه (قصة نفس) ولكن هذه الكتب تكاد تقتصر على سرد مراحل كفاح الأديب الذي تتناول حياته في سبيل العلم والتقدم وعرض الآراء والمبادىء التي يعتنقها، وتتحاشى الحديث عن علاقته بالسلطة، كما تخفي كثيرا من أسرار حياته الخاصة، وإذا روت أحداث المجتمع السياسي الذي عاصره، فإنها لا تذكر إلا النزر القليل منها خشية ما قد يجره الإفصاح عن أسرارها من الإضرار بالكاتب أوالسياسي صاحب السيرة أو بأبنائه، ولا سيما إذا كان هذا الكاتب أو السياسي قد إرتكب أخطاء في أثناء إنخراطه في العمل السياسي أو جرائم يعاقب عليها القانون أو صدرت منه تصرفات تتنافى مع العادات والتقاليد وينفر منها الرأي العام. ومن ثم فإن التصريح بهذه الأخطاء أو تلك التصرفات يتطلب شجاعة أدبية تعوز الكثيرين.

من هنا تتجلى الأهمية البالغة للسيرة الذاتية التي كتبها الشاعر الكبير الدكتور حسن فتح الباب تحت عنوان "أسمي الوجوه بأسمائها"، وهذا العنوان إسم على مسمى، فهذا الكتاب الذي صدر عن مكتبة مدبولي كشف أسرارا تنشر لأول مرة عن الحياة السياسية في مصر منذ ثورة ١٩٥٢ وعن خفايا مجتمع السياسة والأمن والشرطة والأدباء والنقاد. ويقول المؤلف في ذلك "لقد آثرت الإفصاح عن الحقيقة مهما كانت مُرّة المذاق في حلوق صناع الويل والزيف والهوان، مبتغيا توعية الجيل الجديد بعبرة الكفاح في سبيل مصر والأمة العربية وسائر الشعوب التي تصطلي لهيب الحرمان وتعاني مأساة القهر الإجتماعي".

لقد حفلت مسيرة الدكتور حسن فتح الباب بالمفارقات والصراع، إذ كان ضابط شرطة مما جعل المواطنين الريفيين البسطاء الذين جاء لخدمتهم ينفرون منه بسبب العقدة التاريخية

المستحكمة وهي العداء بين الشرطة التي تمثل السلطة وبين الشعب، ولما كانت القصائد التي كتبها تنضح بالتعاطف مع الفلاحين الفقراء، فقد إتهمته أجهزة الأمن باعتناق أفكار معادية لسياسة الدولة، وفتحت له ملفا في سجلات اليساريين المغضوب عليهم، رغم أن اليساريين كانوا يرفضونه لرفضه الانضمام إلى حزبهم السري وهكذا تعددت المتناقضات فهو ضابط شرطة له ملف سري فهو من المتعاطفين مع أعداء النظام، وهؤلاء الذين اتهم بالتعاطف معهم ينبذونه، وأبناء الشعب المسحوقين الذين يعلن إنتماءه إليهم يرفضونه أيضا لأنهم يرون فيه وجه السلطة القبيح.

ويروي الدكتور حسن فتح الباب في سيرته الإبداعية وقائع الحوار الذي دار بينه وبين السيد زكريا محيي الدين وزير الداخلية في عصر الثورة، والمناقشات التي جرت بينه وبين العقيد حسن مصيلحي مدير إدارة مكافحة الشيوعية في ذلك العهد، والتحقيق الذى استجوبة فيه أحد مفتشي الداخلية ونسب إليه الإنضمام إلى منظمة تعمل ضد نظام الحكم وذلك بناء على مذكرة من مباحث أمن الدولة تدل على ضيق الأفق وإزدواجية السياسة.

كما يسجل الكتاب واقعة تتعلق بمصرع الشهيد حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين وإتهام البكباشي محمود عبد الحميد مدير إدارة المباحث الجنائية بوزارة الداخلية بتدبير قتله، ووقائع أخرى قام الضابط الشاعر بتحقيقها وكشفت عن فساد بعض رجال السلطة أو معاونيهم واستبدادهم، وقيامهم بتلفيق القضايا.

نفس الجرح مايزال.... ولا برء.

وعلى الرغم من أن مذكرات الدكتور حسن فتح الباب قد صيغت في قالب روائي وارتفعت في بعض فصولها إلى مستوى اللوحات النثرية التشكيلية والقصائد الشعرية، فإنها تعبر عن الواقع السياسي والإجتماعي والثقافي لمصر منذ الستينات ، فهذه المذكرات وثيقة أدبية تؤرخ للأحداث التي عاصرها والأشخاص الذين صحبهم راضيا أو مرغما في رحلته الطويلة. كما أنها ترجمة

حياة عاصفة تمردت على الأوضاع الخاطئة، وواجهت بالرفض والثورة كل من أزدهته السلطة وظن بالمواطنين البسطاء الشرفاء الظنون وأراد أن يكبل أشواقهم إلى العدل والحرية ويحول دون إزدهار ملكاتهم وطموحهم إلى جني ثمار ما غرست أيديهم في الأرض التي ما عرفوا غيرها مهادا ينتمون إليه، والوطن الذي يليق بعرقهم ودمائهم وتراثهم الحضاري.

وهو يقول في ختام المقدمة التي إفتتح بها مذكراته :

"إنني أهدي هذه الشهادة التي لم أستطع كتمانها إلى المؤمنين بالحق والعدل والحرية والكرامة طريقا لبناء مصرنا الغالية على قاعدة راسخة من الديموقراطية والتقدم، إلى شبابها وشباب الأمة العربية، حفزا لهم إلى مقاومة البأس والخوف، و إلى الحلم بوطن أجمل وعالم أفضل، وامتلاك إرادة قوية للتغيير،ومطابقة المبدأ للمارسة كي يتحقق هذا الحلم".

وبينما كنت أعيد قراءة سيرة حسن فتح الباب، وأراجع دواوينه، وألحظ تجاهل وطنه له، كنت أستعيد صرخة رجاء النقاش : لماذا تقتلون الشعراء.. وكنت أستعيد قول تشرشل : إن بريطانيا مستعدة للتنازل عن جميع مستعمراتها لكنها ليست مستعدة للتنازل عن أدب شكسبير. كما كنت أتذكر قول أندريه جيد : « إذا ظهر في أي بلد شعراء مجيدون، وإذا أحب هذا البلد قراءة الشعر فاعلم أن النظام السياسي هناك صالح قويم.

رحت أغوص فى مذكرات حسن فتح الباب، تغمرنى نشوة، لأن الأمة التى زرعت رأفت الهجان فى قلب إسرائيل قد نجحت فى التسلل إلى قلب جهاز الشرطة الباطش الجبار بابن عظيم من أبنائها نجح فى الصعود فى مدارجها حتى رتبة اللواء ثم عاد، لا ليكشف لنا أوصاب هذا الجهاز فقط، بل ليكشف لنا رؤيته الموسوعية لعلل الوطن من خلال مكانه وزمانه و إحساسه وشعره.

قلت لنفسى أننا فى بستان الشوك هذا، فى حدائق الشيطان، عندما نفاجأ بشاعر كبير مثل حسن فتح الباب ظل يعمل فى الشرطة طيلة حياته حتى وصل إلى رتبة اللواء ينشر مذكراته

فعلينا ألا ندع الفرصة تفلت منا، لأنها لا تتكرر، ولأنها لم تحدث من قبل، لأن حافظ ابراهيم لم يعمل بالشرطة إلا أسابيع قليلة، وسعد الدين وهبة كان العمل بالشرطة جملة اعتراضية فى حياته. لذلك فمن خلال هذه المذكرات قد نستطيع مع الشاعر أن نضع أيدينا على الداء العضال، قبل أن يستفحل أكثر مما استفحل، إنهم يقتلون الآن الناس دون محاكمة بحجة أنهم إرهابيون، ولو استمر الأمر كما هو عليه لقتلونا غدا وقتلوا بعضهم البعض بعد غد، لا، ليس بعد غد، بل لقد حدث فعلا، وما واقعة اللواء محمد إمام ببعيدة، لكن القتلة فيهم ليسوا مجرد جناة فقط، بل مجنى عليهم أيضا. فمن خلال مذكرات حسن فتح الباب ندرك والألم نيران مستعرة تمزق القلب و تفرى الكبد أن ضحية ذلك الجهاز الباطش الجبار ليست الأمة فقط، بل فصيل كبير من رجال الشرطة أنفسهم، الذين يتمزقون تحت وطأة قهر وجبروت ذلك الجهاز.

ما كان أتعسك يا حسن فتح الباب وأنت تعيش تحت وطأة هذا الجهاز ما يقرب من ربع قرن محتفظا فى ذات الوقت بعقلك وقلبك وضميرك وشعرك فكيف احتملت استمرار دورة البؤس الأبدية التى لاتخلف الميعاد، فلندعك تسترجع بنفسك تلك القصة البسيطة الفاجعة الموحية التى حدثت ذات يوم مع جندى الشرطة الذى :" تجاسر فاتهم الضابط الذي يرأسه بالظلم، فكان جزاؤه اللكم والركل حتى سقط طريحا على الأرض فى وحدة شرطية، ولم يكتف الظالم بذلك، حتى بعد أن داسه بحذائه، وإنما تم تحويل الجندى الى مجلس عسكرى، وفوجئت بالجندى يقر بذنبه ويعترف بإثمه ويكاد يكذّب شهادة منصفه الذى أبى إلا أن يشهد بالحق، وحين سألته لماذا فعل ما فعل أجاب خافض الجبين :أنت مقدور عليك، مضمون، إن كذبتك ستلتمس لى المعذرة، أما الآخرين فلن يرحمونى "

تذكروا يامستنيرى مصر والجزائر وتونس، يا من تخشون العودة لعصور الظلام، أن ابن رئيس مصر قد جلد ذات يوم رغم أنه كان ابن الأكرمين لأنه اعتدى على مواطن من عامة الشعب .

على خشبة هذا المسرح العبثي الموحش راح حسن فتح الباب

يوغل في مذكراته، التي تحولت في بعض فصولها من سيرة ذاتية إلى سيرة إبداعية، راح يكتب عن تحولات حياته بين الانتصارات والانكسارات، بين الحفر في الصخر بالأظافر حتى القبض على الجمر، يقول :

« كنت أعمل فردا معزولا في نفق مظلم طويل، فلا حزب أستظل بسقفه أحني له قامتي فيرفعني شهرة وجاها، ولا جماعة أدبية أنتمي إليها : أنصرها فتنصرني، وجهاز السلطة الذي أرتدي شعاره وأعمل تحت رايته يرفض فكري الإنساني، ويمسكني في قبضته . . . يقربني كي يفرغني من وعيي ووجداني ثم يقصيني كلما عصيت، لعبة التمر والجمر، العصا والجزرة، ذهب المعز وسيفه، الوعد والوعيد، الطمع والهلع، الإغواء والإبتزاز . . . جهاز عنكبوتي ذو مائة ذراع خفية، يعدّ عليّ أنفاسي لأنني لست من المريدين المتوارين القابعين في ظله القائلين لمن يلومونهم بلسان شاعر قديم :"دعوني فإنني آكل العيش"بالجبن"!! »

كابد الشاعر الظلم المتفشي في علاقات رجال الشرطة برؤسائهم، يصف أحدهم بالباشا المدير الحجاج الذئب، مستدركا في مرارة أن الألقاب لم تلغ إلا على الورق فقط ثم يضيف :

« شعرت أنني مستضعف مهان مشرد في الأرض بلا جريرة، فرضوا عليّ الاستسلام للأمر الواقع اللعين وتمكن في رقبتي حاكم محكوم".

إن الشعار يقول أن الشرطة في خدمة الشعب لكن الواقع يقول أنها لتنفيذ القوانين عليهم لحساب أرباب السلطة، فالشرطة خدم السلطان، ولا يقتصر الأمر على ذلك فقط فإن الدكتور حسن فتح الباب يتحدث عن التسعيرة التي كان يضعها بلوكامين النقطة، ومنها خمسة وعشرون قرشا لقاء الإعفاء من تحرير محضر مخالفة قانون محو الأمية.كما يفضح خدمة الجنود للضباط : « عسكري المراسلة » الذى يقوم بخدمة الضابط والذي أُلغي بعد ذلك على الورق فقط.

ولعلنا نذكر بعد أحداث الأمن المركزي تأكيد وزير الداخلية على

عدم وجود هذا الأمر مطلقا رغم أنه لا أحد منا لا يعرف ضابطا يستخدم جنديا يمسح بلاط بيته ويغسل أواني المطبخ فيه . كان وزير الداخلية يصرح بذلك، ينفيه نفيا قاطعا، وفى نفس الوقت كان أحد أصدقائى ينتقل من مسكنه، فقد كان يجاوره ضابط يخدمه جنديان، وكانت زوجة الضابط لا تكف عن الصراخ فى الجنديين بأقذع الشتائم، ثم تنهال عليهما ضربا بالمقشة والحذاء، كان ذلك يتكرر كل صباح، بلا انقطاع، ثابت، مع نشرة الأخبار فى هيئة الإذاعة البريطانية كان الموشح يبدأ لكنه لم يكن ينتهى معها، كل صباح، كل صباح، كل صباح، وكانت زوجة صديقى تبكى قهرا لإحساسها بالعجز عن مساعدة التعيسين، أما صديقى فقد عجز عن الإجابة عن تساؤلات أطفاله، عن ظلم الإنسان للإنسان، عن المبادىء والقيم والمثل العليا، وعندما اكتشف ذات يوم أنهم بدؤوا يستعملون قاموس شتائم زوجة الضابط فيما بينهم، لم يكن أمامه من بديل إلا الانتقال من مسكنه، خاصة أن وزير الداخلية كان ينفى نفيا قاطعا قيام الضباط باستخدام الجنود.

إن المسئولين ينفون أيضا نفيا قاطعا وجود ثمة شبهة لاستغلال النفوذ، أو لفرض إتاوات، أو التستر على جرائم، أو تهريب من يطلبهم القانون، أو سفح الشرف تحت أقدام امرأة جميلة بلا شرف، فمن لنا بحسن فتح الباب آخر يهتك لنا الأستار ويكشف الأسرار، ويكشف لنا الفهم الخاطيء من هيئة الشرطة لوظيفتها باعتبارها عملا شعبيا وطنيا وإنسانيا، لكنهم يتمسكون بالمظهر دون الجوهر، يفضح الكاتب أن الاختيار للمناصب العليا يتم لأصحاب الوساطة لا لأصحاب الكفاءات، الذين لا يتم اختيارهم إلا كي يدور دولاب العمل، وإلا إختل نظامه وإنكشفت عوراته .

يكشف لنا ماحدث لضحية أخرى من ضحايا الشرطة إزاء بطش السلطة فبعد تعيين اللواء صلاح مجاهد محافظا لدمياط، طلب منه نظام السادات الشهادة زورا على ضياء الدين داود، فأبى المحافظ أن يكذب، فأقيل، لأنه خالف الشرط الأساسي للمنصب وهو الطاعة العمياء.

التعذيب والتزوير...جرحك يا وطن ....

والجناة أبناؤك يا مصر ...

هذا إذن هو ضابط الشرطة الناقم المنقوم عليه، إن أى تمسك بأى قيمة عليا شبهة يجب اجتنابها وتهمة يجب دفعها، ومصيبة ينبغى توقيها، كى لا يزيحك من مكانك أحد، إنه التنافس المهلك لا على خدمة السلطان بل على عبادة الشيطان، يفضح حسن فتح الباب ذلك كله، يتحدث عن عبقرية الجهاز الحاكم لقمع ضابط شاعر متمرد على السلطة الغاشمة وعلى الزيف والديماجوجية ثم ينوء كاهله بالألم فيصرخ أن وظيفة الشرطة إقرار الأمر الواقع لا تحقيق العدل، أن تمنع بالقوة التغيير، أن تحمي الأوضاع التي أقامتها لصالحها الطبقة المسيطرة، إنها سيف السلطان و هي مخلب القط، هي أداة تنفيذ الإرادات العليا، ولولا ذلك لفقدت مبرر وجودها واستمرارها، الطاعة العمياء هي الدرس الأول والأخير، لا عقل ولا عاطفة ولا دين ولا ضمير، وذلك هو مقياس الكفاءة والأحقية بالمناصب.

ويواصل الشاعر فى الشرطى احتجاجه : لكم تختزن الذاكرة من وقائع لُوِىَ فيها ذراع التشريع لتخضيعه للاهواء الشخصية والسياسية المشبوهة . . ثم يتملص الشاعر من قيد الشرطي فينفجر بالألم حمم براكين منصهرة :

ويلك يا قاهرة . .

أيتها الـ . .

أيتها الـ . .

وفى ديوانه اكتفى الشاعر بالنقاط، لكننى عندما سألته ماذا حذفت أجابنى بأنه حذف كلمة " العاهرة "!!.

أجل إن السلطة التى تعذب أبناء شعبها وتهتك أعراضهم وتزور أصواتهم إنما هى تغتصب الوطن.

و السلطة الجهنمية تسحق أول ما تسحق أصحاب الرأى والإرادة، تبقى الطالح وتطرح الصالح، تغذو الخبيث وتجتث الطيب، أى جهاز رهيب هذا هو الذى سحق الشاعر هكذا.ووسط

هذا الحميم من غسلين كان من الطبيعي أن تحمل الأمة للشرطة أبغض شعور « . . . . دلالة على ما يكنه المثقفون لا العامة وحدهم من نفور من الشرطة، ما زلت أعاني هذه السمعة اللصيقة بالمهنة حتى اليوم، وأكبر الظن أنها سوف تظل تطاردني كلعنة أو جريمة إلى آخر الحياه".

ويدخل حسن فتح الباب إلى مناطق ألغام محظورة تشكل جرحا في وجدان الأمة لا يندمل، فتكاد تسمع من فرط الألم نبضات قلبه طلقات رصاص، وإذا نثره أنين، وشعره عويل، و أنفاسه زفيف الريح وهزيم الرعد وهبوب الأعاصير، حين يتحدث عن التعذيب الذي يقوم به بعض رجال الشرطة صارخا :"إن القانون لا يفرق بين جريمة يرتكبها الخارجون عليه وجريمة يجترحها رجال الضبط القضائي".

كرجل قانون، وكشرطى فقد أوجز هنا حسن فتح الباب وكنا نود أن يطنب، لكن يكفيه أنه كان شاهد صدق على الخزى والعار.

فليسمع وزراء الداخلية ولتقرأ مؤسسة الرئاسة ومجلسا الشعب والشورى وليقرأ الرئيس مبارك، إن القائل هنا ليس رجلا من رجال المعارضة، ولا عضوا فى منظمات حقوق الإنسان التى يقاطعها النظام، ولا ديفيد هيرست، ولا تقريرا من وزارة الخارجية الأمريكية، ليس أيا من أولئك، بل ضابط شرطة خدم فى النظام حتى وصل إلى رتبة اللواء، فليسمعوا إذن، فإن كانوا مايزالون سادرين فى مقاطعة صحف المعارضة فليبلغهم بها أحد سدنة النظام ممن مازال لديهم بقايا من ضمير.

إن القانون يُذبح، فيُذبح الشاعر الضابط معه، أما العدالة فمصلوبة على هيكل خشبى على شكل عروس فى مقر من مقرات الشرطة، ولا يستطيع الشاعر الفارس مد يد العون لها لأنه هو الآخر مصلوب على هيكل آخر تزينه شرائط ملونة، فماذا يستطيع أن يفعل إذا كان قلبه كقلب المسيح و إهابه إهاب يهوذا، ربما يعزيه أنه مع المظلومين مظلوم ومع المعانين معان ومع المقهورين مقهور ومع الكاظمين الغيظ كاظم، لا عن عفو القادر بل عن عجز المقدور عليه، ربما يعزيه أنه كان فى فئة المظلومين لا الظلمة، المقتولين لا

القتلة، و أن القانون قد أهدر معه هو نفسه عندما حقق معه كمتهم بإلقاء قصيدة شعر في قاعة فوكس "نفس ما يحدث مع حمدى البطران اليوم، فالأعمى لم ير والأصم لم يسمع"، يحدثنا الشاعر عن محاولة الضابط الكبير الذي حقق معه تلفيق التهمة له.هاهو ذا التنين يأكل نفسه، تمتد أذرعه الأخطبوطية الخرافية لتعتصره، لتخنقه، لتسحقه ولتمتص الدم منه، أذرع خرافية مسلحة بأعقد أجهزة الكمبيوتر لكنها بلا عقل وبلا خلق وبلا ضمير، وعلى الرغم من ذلك فالمأساة الحقيقية لا تكمن في قهر السلطة للأمة وإنما في عجز الأمة عن مقاومته ذلك القهر رغم أنها تملك من الطاقات ما تستطيع به أن تسقط الجناة إذا شحذت سلاح الإرادة.

يصرخ حسن فتح الباب :"إنه الشعور بالإثم، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لكن الجاني ضحية لأنه مكره، وكم حدث نفسه أن يثأر لها ولسائر المكرهين، ولقد حاول وأسكته الغاشم المستبد وأرغمه على أن يكون صوته وأن يحمل سوطه يجلد به ظهور العناة، كانوا بعيدا بعيدا عني . . . لم يخذلوني وإنما أدركوا بذكائهم المفطور وحكمة السنين الطويلة أنني عبد السلطة وعونها مهما فعلت . . . وقد صدقوا في سوء ظنهم بي".

ولعلنا لا نوافق الشاعر الكبير في جلد ذاته، مستعيدين قصيدته: ضابط في القرية، والتي تتفجر فيها جروحه شظايا في كبده وقلبه، عن تجربة الفلاحين مع السلطة ومعه، الفلاحين الذين عجزوا في معظم العصور عن تحدي السلطة والصدام معها ولكنهم تدرعوا بقوقعتهم دونها ولم يفتحوا لها مغاليقها، فلم يعرف الحاكم كلمة السر، لأنهم وحدهم الذين يتبادلونها.

يفرى قلب الشاعر تعاطفه مع المستضعفين ونفور المستضعفين منه باعتبار وظيفته، ومهما اشتعل قلبه بالحب لهم فهو غريب عليهم، ناء، قصى، فيقول في ضابط في القرية :

لا تزحم الطريق بالخطا . . .

خطاك ظل طارق كئيب . . . !!

وكلما مضيت هاربا من الصدى . . .

لم أنج من عيونهم تطوق الطريق.

وألف وجه . . . ألف عين . . . . . . تقول : ياغريب.

لا تزحم الطريق بالخطا . . . . يا أيها الغريب . . . !!

وفي سجو قريتي تروعني مطالع الصباح . . . .

أخاف أن يجيء . .

وألف وجه. . ألف عين . . . . تقول : ياغريب

لا تزحم الطريق بالخطا . . . ياأيها الغريب . . !!

لكنهم عند الحصاد يرسلون لي . . .

سنابل الوداد مثل حبة الفؤاد . . .

نقية كقطرة من المطر...

غرست من محبتي شجيرة خضراء . . .

ضياؤها نوارة الحقول ...

وقلت للرفاق : يا أحباب . . .

أبوابكم ممدودة الرحاب....

لا توصدوها في الوجوه . . . .

فقد سقيت مثلكم شجيرتي...

بدمعة الصفاء والحنان . . . . . ولست بالغريب....

أبي الذي مضى . . . ولم تشيع نعشه حشود....

خطاه ما تزال بينكم على الطريق . . .

وقد عشقت مثله الصحاب . . . .

وجئت بينكم . . . يضمنا طريق . . .

سماؤه نجوم . . . وأرضه أطفال . . .

ولست بالغريب يارفاق لست بالغريب . . . .

لكنما رفاقي العناة واجمون

عيونهم على إهابي الغريب . . . .

ومشية الجواد بي تهيج . . . .

لواعج الشجون ... وتحمل الأنين عبر كاهل السنين . . .

من مصرع الجدود في سنابك الجياد....

وعولة النساء بين الطين والرياح . . . .

وموكب الحراس والأمير...

وفي يدي قصيدة السلام . . . .

وكلما رمى بي الحنين للجموع . . .

لم أنج من عيونهم تطوق الطريق

وألف وجه . . ألف عين . . . . . تقول : ياغريب . . .

لا تزحم الطريق بالخطا . . . . يا أيها الغريب . . !!

* * *

أى ألم هائل فادح ذلك الذى اكتوى الشاعر بناره وابتُلى بنيره . ليس الشاعر وحده هو المعانى، لكنه وحده من هذا الجهاز الباطش الجبار الذى توحد مع أمته، رغم مهنته، فكان عليه بالرغم منه أن يطلق الصرختين معا، صرخة الغاصب وصرخة المغتصب، صرخة الجلاد وصرخة الضحية، وكان عليه أن يحبس الأنين داخله و إلا أطاح به الجهاز الباطش الجبار، بالبطش والجبروت، وبتلفيق التهم.

لنستكشف إذن مع الشاعر النظم والقيم التي دافع عنها وحماها جهاز الأمن الباطش الجبار، عن الوسائل والغايات، وهل كان يوجد أى مبرر أخلاقى ليفعل ما فعل، ولندرك أيضا- ربما فى

دهشة- أن المرة الوحيدة التى اتفق فيها الشاعر مع كتيب أصدرته الشرطة دعاية لنفسها وتعدادا لمحاسنها، لم تكن فى أمور طبقت فيها الشرطة القانون بل خرجت عليه وعلى النظام فانضمت إلى الأمة والتحمت بها وحاولت تقويض النظام القائم حين أدركت أن القائم على رأسه خائن باع الوطن والدين لأعدائه، ولعلنا ندرك ونحن نقرأ الشاعر لماذا قال سفيان الثورى:"إذا رأيتم شرطيا نائما عن صلاة فلا توقظوه لها فإنه يقوم يؤذى الناس".

إن الشاعر ينزف دما عندما يدرك أن الشرطى فيه نخاس و أن الناس عبيد:

فى سالف من الزمان....

نصبت عاملا على مملكة الرعاة....

وجابيا يهبط أسواق العبيد ....

يفتش اللحى ويثقب الخدود....

وكنت حارسا على مقاصر العراة....

أحجب أعين الجماجم ....

أحمى مراتع الصخور من تطلع الحمائم....

لكن الشاعر مايلبث أن يستدرك، ربما ليقنعنا، كى يصل من خلال اقتناعنا إلى إقناع نفسه أن ذلك العمر الذى قضاه فى الشرطة لم يضع كله هدرا، فيتفق مع ما جاء فى الكتاب الذى أصدرته الشرطة عن نفسها، حين لم يجدوا ما يفخروا به، سوى ما قاموا به من أعمال خرجوا فيها على القانون الوضعى . . وكانوا بمفهومهم الحديث إرهابيين . .!!

إن الكتاب يتحدث مثلا عن موقف الشرطة مع أحمد عرابى ضد الخديو، ويتحدث عن جمعية التضامن الاخوى الثورية- أو الإرهابية بمفهوم الشرطة الآن- والتى كانت معظم اجتماعاتها تعقد فى اقسام الشرطة !! لأنها أكثر الاماكن أمنا وبعدا عن الشبهات، ويتحدث الكتاب عن تهريب الاسلحة الى الفدائيين، عن التعاون

مع تنظيم الضباط الاحرار قبل الثورة . تتحدث مذكرات الشاعر عن دور الشرطة فى تهريب السلاح للفدائيين فى الصعيد إبان ثورة ١٩١٩ وعن ملحمة الإسماعيلية، عن أعظم يوم فى تاريخ الشرطة في مصر وهو ٢٥ يناير ١٩٥٢، وعلى الرغم من اتفاقى معه فى معظم ماقال، إلا أننى أثبت مرة أخرى أن مفاخر الشرطة كلها كانت فى الخروج على القانون لا فى تطبيقه. كما أثبت أيضا رأيا آخر يخالف ما ذهب الشاعر فى مذكراته إليه، وما أقتنع شخصيا به، إذ يورد الدكتور عبد الوهاب بكر فى كتابه الخطير- البوليس المصرى ١٩٢٢-١٩٥٢ الناشر : مكتبة مدبولي- رأيا مناقضا، يصدمنا، كما صدمنا ذات يوم الدكتور محمود رياض حين قرر فى مذكراته أننا فى عام ٧٣ قد هُزمنا عسكريا، إذ يرى الدكتور بكر أن ما حدث للشرطة فى الاسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ كان انتحارا لاقتالا"قامت فيه وزارة الداخلية بدور المحرض، ولا يعقل أن يكون المنتحر أو المحرض على الانتحار أبطالا بأى مقاييس."

نحن نوافق اللواء حسن فتح الباب إذن فى فخره بذلك اليوم، لكن الشاعر فيه هو الذى لا يلبث حتى يتمرد مدركا أنه القتيل فى عينى نفسه والقاتل فى عيون شعبه، إنه الحارس السجين والحكيم الذى ضل طريق الحقيقة، يئن :

حين حوصرت بصمتهم ضلوعى . .

تساقطت دروعى....

ثم يواصل جلد الذات قائلا :

كان ردائى صفرة نزحتها من عرق السنابل...

ولم يكن لخطواتى التي جهدت أن تلين . .

غير أصداء السلاسل . . .

مازلت أرقب الأفق . ..

بعين لص جارح لا يعترف.

لم يرحم حسن فتح الباب نفسه . . . ولم يرحم الآخرين . . أحباءه

وأعداءه على السواء .

لم يغازل الديموقراطية المدعاة قبل الثورة، بل يفضح زيفها، فهي ديموقراطية الإقطاعيين والأغنياء والأسر على رقاب البؤساء والمستضعفين، ديموقراطية ضارية لا تتورع عن القتل. وعندما جاء جمال عبد الناصر أحبه، لكنه لم يغفر له أخطاءه في حق الديموقراطية، والتى وقع فيها لأنه لم يكن واثقا من قدرة الجماهير التي طالما ناصرته على الوقوف في وجه العاصفة الجائحة التي بادلته التحدي.

ينفجر طوفان الالم المختزن، حين يتحول يراع الشاعر الى خنجر يزيل عن قلب الامة الغشاوة والصديد . لأنه في مذكراته يثير داخلنا هذا السؤال المروع :

عمن كان رجل الشرطة المصرى يدافع طيلة نصف قرن مضى ؟

هل كان يدافع عن الحق والعدل والخير والجمال ؟هل كان يكرس أمن المواطنين وأمن الوطن ؟

هل كان يدافع حتى يصل واحد مثل زكى بدر البذىء أو عبد الحليم موسى إلى كرسى العرش فى وزارة الداخلية ؟

لعل قلبه كان ينزف دما وهو يقرأ معنا فى مجلة حكومية :

"أحد وزراء الداخلية السابقين"ع . م"استدعى أشرف السعد وقال له :"ياواد ياأشرف معندكش دولارات من القديمة المكمكمة أم ٨٠ قرش، أصلى مزنوق فى ٤٥ الف دولار". وأحضر أشرف الدولارات المكمكمة وسلمها للوزير وقبض ٣٦ الف جنيه . . وبعد ساعة اتصل به الوزير وقال :"يا واد ياأشرف العيال في البلد اشتروا لى دولارات من أم ٣٣٠ قرش وأنا مش عايزهم . . متعرفش حد ياخدهم". .ورد أشرف"اعرف يا باشا". . واستلم ٤٥ الف دولار ودفع ١٤٨ الفا و ٥٠٠ جنيه .

وبعد عدة أيام طلب الوزير من أشرف ٢٠٠ الف دولار من"أبو ٣٣٠ قرشا". . وكتب له شيكا بالمبلغ ووقعه أمامه . . وقال له :"شوف يا أشرف ده حقك، محدش ضامن الموت من الحياة". . ووضع الوزير

السابق الشيك فى جيبه وقال :"لو حصلت حاجة تروح تاخذ الشيك من الحاجة على طول"

بم أحس حسن فتح الباب، وبم أحس آلاف الضباط فى ربوع الوطن وهم يقرءون عن ذلك اللص الزنيم الذى كان وزيرا للداخلية؟ ماذا يقول السابقون واللاحقون ؟ ماذا يقول المكلفون بإلقاء القبض على سارقى القروش ؟ وما هو دور كبار اللصوص من كبار رجال الحكم فى انهيار شركات توظيف الأموال وضياع أموال الملايين ؟ ولماذا ألقوا القبض على أشرف السعد والريان ولم يلقوه على : (ع.م.) و (ز.ب.) و (ع.م.) و (ع.ص.)، و جميع أبجدية اللغة بالتباديل والتوافيق.

هل كان هذا هو الذى كافح حسن فتح الباب طيلة عمره وكايد وعانى وشقى وتعذب كى نصل إليه ؟

إذا كان هذا هو قدر وزير الداخلية نفسه فكيف يكون الباقين ؟.

لو قبل جرم خفير درك أو بلوكامين النقطة فكيف يقبل جرم الوزير.

فى بداية مذكراته يستفيض حسن فتح الباب في الحديث عن عمدة القرية التى عمل فيها . كيف حاول السيطرة عليه، و الاستهانة به ورشوته، و كم جاهد كى يتقى قوة العمدة وسطوته، العمدة . . الذى وطد علاقته بكبار الضباط حتى ليرسل اليهم الهدايا والرشاوى . . ويرسلون اليه سيارة الشرطة"البوكس"ليضع لهم فيها : خروف العيد . . ويكتشف حسن فتح الباب خطورة منصب العمدة . . ويصرخ :"إن أعمال الدولة تدار من دوار العمدة".

الوباء شامل إذن وخطير، من العمدة إلى الوزير.

ذات يوم فى منتصف الخمسينيات، ألقى الضابط القبض على رجلين كانا هاربين من التجنيد، تصادف أنهما مسيحيان كان العمدة يبسط رعايته عليهما، واحتجزهما فى النقطة ليتم عرضهما على النيابة فى الصباح، وسلط العمدة أعوانه ليرسلوا

البرقيات بعد صلاة العشاء، محاولا إشعال فتنة طائفية باتهام الضابط بتحيزه ضد المسيحيين، نفس النهج المثير للاشمئزاز الذى اتبعه كل مجرم ليغطى على جرائمه، ونفس النهج الذى تكرر على مستوى الوطن كله على يدى عمدته الكبير الصغير في بداية الثمانينيات، حين أشعل الفتنة كى يحمى أركان عرشه فما لبث غير قليل حتى انتهى هو واعتلى العرش سواه، بعد ساعتين من إرسال البرقيات كان المأمور يتصل بالضابط، وفى منتصف الليل كانت المديرية تتصل به، وبعد منتصف الليل كانت الوزارة تتصل به وتخبره أن مفتشا من الوزارة سيكون عنده فى الثامنة صباحا للتحقيق فى البرقيات المرسلة . وبرغم أننا نتحدث فى إطار الإدانة إلا أن المقارنة دامية . . قارن أيها القارىء تلك الاستجابة السريعة أيامها والحساسية الفائقة للنظام آنذاك بما يحدث الآن . . قارن . .

فى القرية، يفتح حسن فتح الباب عينيه على واقع القرية البائس، المروع، على الجلابيب المهلهلة، والظلم والعبودية :

ما أجمل الليل لمن يحب . . .

لكن فى زماننا البخيل....

يغرب حتى تمامة القمر....

إن قصائد حسن فتح الباب ليست نصوصا فنية فحسب، بل هي وثائق تاريخية إلى حد كبير لأنها تحمل عبق المكان والزمان وروح الإنسان. أما اللغة التي استعملها فهى لغة ثرية تشف حتى تبلغ ما يقرب من مستوى الجوهر الشعري أحيانا.إنها تستحيل أحيانا إلى مذكرات قصائده وليست مذكراته، لكن قصائده هى أنين الوطن، هى ألم اليوم وراء اليوم، والعام وراء العام، توحد بالوطن، عانى خيبة الرجاء ونزف مع كل أمل أجهض، وكابد آلام المخاض الرهيبة لجنين مات قبل أن يولد، ضاع كل كد السنين هباء منثورا كأن لم يكن، راحت عينه ترقب بعين صقر وقلب أم وروح شاعر ما يحدث داخل وطنه تحت وطأة سطوة الجبروت خلف الشعارات البراقة، وأنه رغم إيمانه بثورة ٢٣ يوليو فإن هذا الايمان قد

تزعزع حين وجد كم القهر والفقر والبؤس في النيل على قارب صياد مسكين وطأت قدم الضابط ابنته الراقدة فى جوف الليل فى جوف القارب . لقد كان القارب وطن الصياد وبيته. لا بيت له ولا وطن سواه، يحاور الصياد فى مقطوعة شديدة العذوبة والألم:

- ماذا تفعل ياعم متولي إذا جافاك الحظ فقلّ الصيد.

- أغطس تحت الماء حتى أقترب من القاع فلا أعدم سمكة.

- لكن أين الشبكة.

- منذ قديم صارت مزقا مهترئة.

- في سوق الصيادين شباك فوق الحصر.

- الشبكة بجنيه كامل وأنا لا أملك شيئا.

- ولماذا لا تذهب للجمعية تطلب عونا . . . ثمنا للشبكة .

- يحتاج جنيه الشبكة طلبا. والطلب الرسمي يقدم مكتوبا لا شفويا والكاتب يحتاج نقودا.

- هذا أمر يمكن تدبيره . . . .

- لابد من التمغة . . .

- بعض قروش...

- يبقى أن يعتمد الطلب الشيخ . . . شيخ البلدة . . .

- هذا من واجبه....

- بل من سلطته أن يتقاضى ثمنا للتوقيع. أما من لا يملك مثلي أن يعطي أجر الخدمة فليشرب من طين البركة . . .

وأنا أشرب.....

تدوى الصرخة فتزلزل أعماق حسن فتح الباب، تسقط كل الشعارات فى داخله، تسقط الأعلام البراقة، يسقط حتى الشعراء، أما الأمل فيذبح، يسكت حتى صوت الريح، وتبقى الكلمة تتردد فى جنبات الوطن شعارا حقيقيا لكل عهد، لا يكاد يختلف من عهد

المماليك إلى عهد مبارك :

من لا يملك مثلي أن يعطي أجر الخدمة

فليشرب من طين البركة،

وأنا أشرب.....

ينفجر السؤال فى قلب الشاعر قنبلة وهو يرى كم الظلم- الذى استمر رغم الثورة- الظلم الواقع علي الصياد وعلى أقرانه من الفقراء فكبار الصيادين الذين يرشون بطرود السمك رؤساءه قد بنوا سدا يحجز عن فقراء الصيادين السمك، وتغمض شرطة المسطحات المائية أعينها عن المخالفة رغم إلحاح الضابط حسن فتح الباب الذى يقامر بمستقبله حتى يرفع بجهده الشخصى والفردى هذا الظلم بعد أن احترز لنفسه بتسجيل أرقام طرود الرشاوى إلى كبار المسئولين والضباط !!، تنكسر نفس الشاعر عندما يشاهد متولي و شعبان و محمود يبيتون عرايا بعد خمس سنوات من الثورة، ثم يقابل إخوتهم في مصر الجديدة بنفس الهيئة بعد ثلاثين عاما، فى عهد مبارك.تبدلت الوجوه والأسماء والأزياء والمهن ولم تتبدل الفاقة والمهانة. يهدر حينما يشعر أن الحلم قد اكتمل استلابه :

كل الوجوه غضنتها خيمة صفراء....

كأنها ما فارقت شتاء....

ومِعول الحصاد فى المروج يقطف الورود....

والأمهات أعين علي الصغار لحظها شرود....

ما أبهج الوجود....

لولا يد تمتد فى الظلام .....

لتسرق الاحلام .....

وهو كل حين وآخر ينتظر الفارس الذى لا يجىء، يعج بالحنين أحيانا فيخال أنه جاء :

آن آوان الجرح أن يجف....

وأعين الاطفال أن تضيء والمطر....

يسقي الصحارى....

متى تهل طلعته....

لنجتلى قبل الرحيل....

سحر الليالى المثقلات بالحنين....

وموكب الطير المغنى والدليل . ...

ياليل طابت سهرة الربيع ....

ياعين لن تزورك الدموع ....

الفارس القديم عاد....

لكنه لا يلبث حتى يدرك أنه إنخدع فيهتف :

لا لم يجيء . . . .

ولم يحن له مآب . . . .

ما زال يستخفي عن العيون . . .

يسبح في غمامة من الظنون. . . .

ما زال يخطو زاحفا على الظلام . . .

مكبلا مجرح الجبين. . . .

الليل أوصد الطريق . . .

سد الفجاج كلها وأشعل الحريق. . . .

ياويلتا للفارس النبيل . . . .

يشق فوق النار مسراه....

يمد للأحباب يمناه . . .

يامن يجير الفارس النبيل. .

يامن يجير الفارس النبيل.

ويوما ٩، ١٠ يونيو ٦٧، حين التف البسطاء الذين أحبهم حسن فتح الباب حول البطل المهزوم . . . البطل الذى لم يتجسد بعد، البطل الذى مايزال فى ممالك الأحلام والمنى، الذى انهزم قبل أن يبدأ المسيرة، يغيب قبل أن يكتمل حضوره، ويخرج الشاعر مع البسطاء و يهتف :

الأمهات والصبايا والصغار . . .

.يستعجلون طلعتك. . . .

تخرج . . تملأ العيون، تحمل البشارة ..

ينتظرون عودتك..

قامتك الشماء قلعة المدينة . . .

كفك توقد المصابيح... تصد الريح. . . .

تشل أقدام الظلام . . .

الله يابطل . .

يافارس الأمل . . .

ياغرس أيدينا....

ياسر وادينا.. .

ياروح شعبنا النبيل....

.وبالرغم من حب الشاعر لجمال عبد الناصر فإنه لم ينضو تحت أى لواء إلا لواء المستضعفين، لم ينضم إلى أحزاب السلطة فأنكرته، ولا إلى تنظيمات اليسار فتجاهلته، كان الطحين بين شقي الرحى.

لقد أدرجته مباحث أمن الدولة في قائمة المقاطعين مع الشيوعيين فأحيل إلى المعاش في سنة ٧٦ بتقرير من تلك الإدارة، وفي الجزائر انضم إلى الجبهة الوطنية المصرية لتجمع الوطنيين

التقدميين بالخارج، لكنه رفض الإنضمام إلى تنظيم سري لهم، فقد كان دائما يفصله عن اليساريين موقفه من الدكتاتورية وإيمانه بالحضارة العربية كان يدرك أن الفنان لا يصلح للعمل السري فلم ينج من مرارة مراهقات اليساريين الذين لم يصدقوا أنه لم ينس عمله القديم وأنه عين للشرطة عليهم، ثم يلتمس بعض العذر لعبد الناصر في موقفه من الشيوعيين، الذين اندس فيهم طغمة فاسده مفسدة دفعته إلى الوصمة الجائرة لهم بأنهم جميعا عملاء. لكن اليساريين الذين لاموا حسن فتح الباب على إشادته بعبد الناصر في « فارس الأمل » عادوا في عصر السادات ليكيلوا لعبد الناصر مديحا أشد.

ويتحدث عن عصر السادات . . . يتناول العودة البائسة لنظرية : الملك ظل الإله على الأرض، يصفه: "ادعى أنه الحاكم القوي الغني العليم الخبير الحكيم، استشرت النظرية السلطانية السرطانية أخيرا حتى وجدنا أمرأة كافورية- نسبة إلى كافور الإخشيدي- الذي يشبه زوجها الحاكم- أو شاهنشاهيه- نسبة إلى شاه إيران صديق هذا الحاكم أو-سجاحية نسبة إلى سجاح- زوجة مسيلمة الكذاب والتى وجدت من يسفح شرف الجامعة ليمنحها أكبر الدرجات العلمية"، ينعي الزمن الذي يزين فيه الإستسلام باسم السلام والباطل بإسم الحق ويكذب التمثيلية الهزلية التي إدعى فيها السادات أنه يحرق السجلات السرية فى وزارة الداخلية، يكذبها من موقع العليم الخبير المختص والضابط الكبير.

ماذا يفعل الشاعر عندما يكون الرئيس كذابا والوزير لصا ؟ ماذا يفعل، إن الشاعر يفعل فى الخيال مالم يفعله الضابط فى الواقع :

حين أمرت . . . ما أطعت . . .
لم أكن كما أريد بي أميرا....
نصبتُ نفسي راعيا أجيرا...
ألقيت ما حملت من قش . . .

ومن شرائط ملونة ....

نزعت شارة الإمارة . . .

وسرت في طريقهم الليلي....

يضع حسن فتح الباب يده على مكمن العلة حين يحاكم نفسه بالندم لأنه لم يخلع ثياب الأمير بما عليها من شرائط ملونة ليلبس ثياب الأجير، فالأمير كافر والأجير مؤمن، لأنه لم يعلن جهرا انضمامه إلى طبقة الفلاحين ورفض المنصب الحكومي :

لأننى استبدلت بالذين آمنوا....

بأنني النبي في ثياب مارد . ...

. أما وطفلتين . . . وبعتهم ....

لقد حلم أن يكون في طليعة الثائرين فانطلقت روحه وظل جسمه مقيدا ينتفض في أغلاله ولا يملك إلا الصرخات لعلها تبلغ الأسماع وتحرك القلوب الخواء.

يسمي حسن فتح الباب الوجوه بأسمائها . . وربما لم يذكر الأسماء كاملة أحيانا مثلما فعل عندما يتحدث عن علاقته القديمة بالشاعر « عبد المعطي » لكنه لا يكمل لقبه بل يصفه :"لماذا أشفق عليه من الإفصاح ؟ لقد أكدت الأيام لي ولغيري أنه انتهازي مخادع لا أمان له ولا عهد، وأنه إذا الريح مالت مال حيث تميل، فلا يتورع عن عقد أية صفقة في سبيل أطماعه وأحقاده".

هنا لم يسم حسن فتحى الباب الوجوه بأسمائها، ليس الفضول، بل حقنا أن نعرف من هو عبد المعطى هذا الذى يقصده، وهل هو الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى المتربع على أهم صفحة ثقافية فى أكبر صحيفة عربية، أم أنه شخص آخر ؟.

ولعلنا في هذا نعاتب الشاعر حسن فتح الباب في أننا رغم تقديرنا لعمله الكبير، إلا أننا نقرر أنه كما أن النقاد فى مصر قد غمطوه حقه، فإنه هو نفسه قد أغفل جوانبا ما كان يجب له أن يغفلها، كما أنه وقد أدلى برأيه فى كل العهود يصراحة شجاعة، قد

توقف عن عهد الرئيس مبارك.

في نفس الوقت الذى نشر فيه حسن فتح الباب كتابه، كانت الحكومة الألمانية، التى لا يوجد فيها من يقدس رئيس الجمهورية أو يؤلهه، أو يرفعه إلى مستوى العصمة، كانت هذه الحكومة تواجه عاصفة سياسية فتقيل المدعى العام بعد أن استقال وزير الداخلية في" محاولة لإنهاء النقاش الدائر بشأن ملابسات الحادث الذى أسفر عن قتل جرامز ".

و جدير بالذكر أن جرامز هذا ليس نقيب شرطة و إنما عضو جماعة الجيش الأحمر المتطرفة. وقد أثير أنه كان يمكن القبض عليه دون قتله.

وجدير بالذكر أكثر، أن نفس الحادث أدى إلى مصرع ضابط بوليس ، لكن المدعى العام ووزير الداخلية أقيلا من أجل جرامز لا من أجل ضابط البوليس.

شرف صنع الله إبراهيم وعار الحكم

يقول صديقي اليساري التائب نادبا وضع اليساريين بعد انهيار الاتحاد السوفيتي :

- مأساتنا في ا البلد أنهم ينظرون إلي أفضلنا كما ينظرون إلى الداعرات اللائى تبن، وكل منا يحمل وصمة عاره كتاريخ لا تمحوه توبة ، قد يغفر الله أما هم فلا . هكذا ينظرون إلى الذين تابوا ، فتخيل وضع من لم يتب .

قلت لصديقي مهموما بانهيار المعايير في ضباب كثيف يحول حتى دون رؤية الواحد منا ليده :

- بعد ثلاثة آلاف عام نواجه نفس ما واجهه سقراط و أفلاطون، فإذا قلنا أن كل شئ خطأ كان قولنا نفسه خطأ لأنه شئ، و إذا قلنا أن كل شئ صواب كان الحكم على قولنا بالخطأ أيضا صواب ، فإن قلنا أن البعض صواب و البعض خطأ تعددّ الصواب والخطأ بتعدد البشر ، كل شئ كما هو والإنسان لم يتغير، لا بؤسه تغير ولا يأسه تغير ولا أمله تغير، مازال الجلادون جلادين وما زال هناك أكلة لحوم البشر.

قلت محاولا الربط بين ما كنا فيه وما فاض من نفس غصت :

- فتحي فضل يكتب عن سرقة كتابه " الزنزانة" في ثنايا عمل صنع الله إبراهيم"شرف"، وجمهور المثقفين تصرف كجمهور مصارعة الثيران الوحشي، كلما ازدادت الجراح وانفجرت نافورات الدم من الحيوان أو من الإنسان كلما ازداد متعة ونشوة، حَكَمَ مَنْ لم يقرأ العملين ، واختلط الحق بالباطل والباطل بالحق، ويبدو أن صنع الله إبراهيم كان ضحية ثأر قديم يحمله جمهور المثقفين لليسار الذى ذهب غلاته إلى محاولة اختلاس القداسة من الله و الأنبياء كي يسبغوها على مفكريهم وفلاسفتهم وكتابهم ، ولقد جعلوا من أسوأ كتابهم وأكثرهم سطحية عباقرة تجنت عليهم فى مؤامرة إمبريالية لجان نوبل فحرمته من الجائزة التى كانوا يستحقونها . لكم أساءوا إلى كتابهم الحقيقيين -كصنع الله

إبراهيم – بمثل هذه المواقف .

ولعل شيئا من ذلك قد لاحق هذا الروائي الكبير عند اتهامه بأنه استنسخ كتاب فتحي فضل. لم تكن الرواية لكنها كانت لعنها الله السياسة، ولأن المجلة والصحيفة اللتان فجرتا المسألة كلتاهما موسومة بوصمة العار المتخيلة ، فقد ظن البعض أن الأمر لا يخلو من دعاية رخيصة ، لكن ظني كان أن الأمر عرض لمرض وبيل .

الصلاة عماد الدين من أقامها أقام الدين ومن هدمها هدم الدين ، ومع ذلك فان من يستمر فى الصلاة وبجانبه حريق يوشك أن يستفحل قد وقع فى الحرام .

مال المثقفين قد خابوا هذه الخيبة مالهم ؟!

ليس مهما أبدا أن نشاركهم الصراع والشجار وحرب طواحين الهواء ، ليس مهما أن نسن سكين الجزار لنقرر فى برود أن صنع الله سرق (وهذا غير صحيح)، وليس مهما أن نقارن عملي صنع الله وفتحي (وهذا ظلم)، وليس مهما أن نقرأ عمل صنع لله لنرشف من رحيق إبداعه ، لكن المهم ، والحرام ألا نفعله ، هو أن نصرخ جميعا أن ما فى كتاب فتحي فضل صحيح ، نعلم أنه صحيح ، و أنه كاف لا لمجرد إدانة وزراء الداخلية ومحاكمة كبار ضباطها أو صغارهم بل يكفى لوصم النظام كله بوصمة عار حقيقية أبشع بكثير من وصمة العار المتخيلة التي تلاحق اليساريين .

ليس كتاب فتحي فضل عملا فنيا ولا حتى ريبورتاج صحفي، وليس أكثر من شهادة شاهد كان ينبغى أن تكون كلها صفحات وقائع تحقيق تجريه النيابة فيقال وزير العدل ويستقيل النائب العام احتجاجا و إحساسا بالمسئولية المباشرة وتحقق فيه المحاكم ويعقد مجلس الشعب جلسات تلو جلسات ويقدم أعضاء مجلس الشورى استقالاتهم احتجاجا ويستقيل أيضا رؤساء تحرير الصحف ويتوقف كتاب الأعمدة عن صياغة الأعمدة فالأساس ينخر فيه السوس والدود والعفن .

يقول فتحى فضل فى كلمة غلاف كتابه "الزنزانة":كانت تهمتى طبع الكتاب الذى تعرض للأديان .. وثارَتْ حوله ضجة كبيرة على المستويين المحلى والدولى.. وكان التوصيف القانونى للتهمة : الاشتراك مع آخرين فى الترويج لهدم السلام الاجتماعى للدولة

وازدراء الأديان ! . وتعذبت بالحرمان من الحرية.. والحبس مع النشالين واللصوص والقتلة والمختلسين والمزورين والمزيفين والمدلسين والمحتالين .. وتجار الأعراض والعملة والمخدرات .. وعاشرتهم جميعا معاشرة الأهل .وفلسفت أيامي فحولت السجن الى جامعة .. والزنزانة الي معمل وكل من تعاملت معهم من السجانين والمسجونين إلي فئران تجارب .. وراقبت وتأملت وحللت نماذج بشرية زاخرة بشتي العقد والانفعالات والسلوكيات .. وجعلت رأسى ونفسي جهاز تسجيل لأحداث وحكايات.. وترمومترا لجس مشاعر وأحاسيس .. وكمبيوتر لحسابات ومواقف .. ونسيت أو تناسيت محنتي .. وسعدت بالتجربة والمشاهدة والنتيجة .. وكنت على ما أظن السجين الوحيد الذى تمنى أن يطول سجنه .

لا يدخر فتحى فضل جهدا ولا يدع قارئه نهبا لأى نوع من سوء الفهم ولا يدعى أن عمله عمل أدبى، بل إن جمل الإهداء تمثل بلاغا للنائب العام وللقضاء ولوزير الداخلية ولوزير العدل وللرئيس وللأمة والوطن حيث يقول:

إلى الحبيبة مصر .. أمى وكل أهلى .

إلى السيدين وزيرى الداخلية والعدل .. صاحبى الفضل فى رحلة الذهاب والإقامة والعودة .. قبضا وحبسا وإفراجا .. ولم يبخلا على بالسيارات المصفحة والضباط والجنود والقيود الحديدية..والرغيف الحاف .

إلى كل من تعاملت معهم من السادة القضاة ووكلاء النيابة وضباط المباحث .. أصحاب القرار فى رحلة العذاب .. الذين أحاطونى بالرعاية والاهتمام فأتحفونى طوال أيام الرحلة الأربعين.. وعلى مدى أربع وعشرين ساعة كل يوم بوابل من النواهى والتحذيرات والممنوعات .. حتى وأنا فى دورة المياه .

وأخص بالذكر السادة ضباط الصف .. أو الصف ضباط الذين لولا أسلوبهم السيء .. والسيء جدا فى المعاملة ، واستفزازهم لى ولغيرى طوال أيام المحنة .. ما فكرت أبدا أن أدون هذه المذكرات .. ولا فكرت فى نشرها .. وأعتبر هذه المذكرات موجهة إليهم فى المقام الأول وعلى وجه الخصوص .. إلى كل من التقيت بهم أو تعاملت معهم من السادة المسجونين (محتالين ونصابين ومختلسين

ومرتشين ومزورين ومزيفين ولصوص ونشالين وقتلة .. وتجار مخدرات وعملة وأعراض) مذنبين وأبرياء .. زملائى فى رحلة العذاب .

يشهد فتحي فضل إذن ، مجرد شهادة من رأى، شهادة تكتسب قيمتها من أنها مجرد شهادة لم تجملها حتى صياغة فنية ، شهادة خائف يخشى أن يعود ، شهادة من رأى أن حضرة الصول وحضرة الشاويش أهم فى العالم الذى دخله من وزير الداخلية ومن رئيس الوزراء، شهادة شاهد رأى بعينيه المعايير والقوانين والمنطق كلها تعتقل بأمر اعتقال على بياض، شهادة كان محلها مكتب النائب العام الذى لم يسع إليها ولم يطلبها ولم يعمل على درء ما ورد فيها فلجأ صاحبها إلى الرأي العام يبثه شكايته، لكنه بعد أن فقد الثقة فى الجميع لا يملك إلا أن يدلى بشهادته للرأي العام غير واثق من رد فعله هو الآخر، لذلك فهو يتحسب ويتحوط ولا يذكر كل ما يعرف، ويضع النقاط الخالية مكان إشارات الاتهام .

لا يلجأ فتحي فضل إلى الرأي العام بطريقة عبد الرحمن منيف فى" شرق المتوسط" و"شرق التوسط مرة أخرى" ولا طريقة صلاح عيسى فى مقالته التي ستظل وصمة عار لمن لم تتب : "ماذا حدث للكاتب ص.ع ومقالته الأخرى أضغاث أحزان... " ولا حتى بطريقة مصطفى أمين ، بل كما عبر صاحبي فى أسى بطريقة "راجل غلبان عاوز ياكل عيش ويمشي جنب الحيط لكن صعبان عليه كرامته التي أهينت" .

يتكلم فتحي فضل عن الفساد والرشوة بين عساكر الداخلية، واستهتار ضباطها ، لا خطوة بلا رشوة، الكرامة سلعة تباع وتشترى وكذلك العرض ، بجنيهين لا يصفعون قفاك، و بأكثر تتجنب التشريفة، وبأقل تتجنب وضع القيود فى يديك ، يشرح السجين المخضرم لفتحي فضل ما سيحدث له فى العرض على المباحث قائلا: "كل مسجون جديد زيك كده لازم يشرف فى المباحث وياخد الطريحة، يمدوه على رجليه أو يصلبوه ويعلقوه فى الشباك ويضربوه بالكرباج، وان كان ولا مؤاخذه خرع أو عجوز وصحته على قده يبقى يدوب إتنين مخبرين الواحد فهم طول النخلة وزي الشحط وكفه زي المرزبة، طول ما المتهم واقف قدام الضابط واحد

منهم يرزعه القفا يحدفه لزميله والثاني يلهفه القلم يرجعه ثاني، ولازم طول الوقت عينه على البيه الضابط ويجاوب على الأسئلة بسرعة ومالوش أي دعوة باللى بيحصل له ، ومهما أكل ضرب مالوش شأن وواجب عليه يركز عينه على الضابط ويجاوب على الأسئلة ، ولو فكر يبص لواحد من المخبرين أو يحتج أو يعترض أو حتى يقول آه يعلقوه وعينك ما تشوف إلا النور."

ويستطرد فتحي فضل : وشعرت بمياه ساخنة تنساب على ركبتي وتبلل البنطلون .

وفى جزء آخر ، - بأسلوب تقريري تماما - لكنه يضارع محمد سلماوى فى رائعته : الخرز الملون - يصف كيف كان الجرمون (هل هم حقا المجرمون) يتعاونون كى يقضي مريض الشلل المسجون حاجته فى جردل أو برميل بعد أن رفضته المستشفى، ويتحدث أيضا عن موت بعض المساجين لنقص الرعاية الصحية، موتهم ككلاب الشوارع الضالة دون أي إحساس بالمسئولية .

يتحدث فتحي فضل عن كيفية تزوير التهم ، عن التعذيب للحصول على اعترافات بالإكراه ولو بالقتل من للتعذيب .

إن أي محاولة لتلخيص ما ورد بهذا الكتاب الكارثة أشبه بجريمة إخفاء معلومات عن السلطة، فإن كانت السلطة مشاركة فى الجريمة فهى أشبه بإخفاء معلومات عن التاريخ، كما إنها امتهان للكرامة الإنسانية أينما وجد البشر، لكننا ننتقى بعض مفرداته لا لأنها الأسوأ بل كمجرد نماذج .

يقول فتحى فضل :

توافد على الزنزانة طوال الليل ضيوف جدد.. عملت لهم المحاضر اللازمة وزج بهم إلى هنا للعرض باكر على النيابة .

صبى لم يتعد الثامنة عشرة متهم بقتل زوجة أبيه .. الأب يعمل بناء فى دولة عربية.. ولما تيسر حاله بنى بيتا من دورين .. أسكن فى الدور العلوى زوجته وأولاده وتزوج شابة صغيرة أسكنها فى الدور الأرضى.. وكل إجازة سنوية يقضيها بين الدورين كل دور ليلة.. وفى إحدى الليالى أثناء سفر الزوج سمعت الأسرة صرخة زوجة الأب فنزل الصبى فوجدها مذبوحة.. وأسلمت الروح بين يديه دون أن تنطق باسم القاتل . نزل إلينا بعد التحقيق فى

المباحث بالدور الثالث .. وكان مصابا فى وجهه وصدره بعدة جروح وكدمات .. فطيبنا خاطره وأجلسناه وأسندنا ظهره ورأسه للحائط وناولناه بعض العصائر والمرطبات فشربها أو امتصها بصعوبة لآلام فكيه .. وعرفنا منه أن التحقيق استمر معه سبع ساعات .. قيدت يداه أكثر من مرة فى قضبان النافذة وضرب بالسياط فلما عجز عن تحمل الضرب اعترف بجريمة لم يرتكبها.. فجلس المحترفون حوله ينصحونه بما يقوله أمام النيابة .

بكى وأقسم بأغلظ الأيمان أنه كان يحبها لأنها كانت تعطف عليه وتعطيه نقودا كلما احتاج .. وكان يسهر معها أغلب الليالى يسليها فى وحدتها بلعب الورق .. وأحيانا يبيت معها فى الشقة .. فلماذا يقتلها.. وسألته :

-ما قلتش ليه الكلام ده فى المباحث ؟

-قلته يا أستاذ.

-طيب ليه عذبوك ؟ .

فهل كان ذلك الصبى يافتحى فضل قادرا على أن يجيبك عن سؤال عجزت كل الجلالات والفخامات أن تجيب عنه؟!

يواصل فتحى فضل فى مقطع آخر:

تناوبوا المرحاض الوحيد على مرأى من بعضهم .. حتى أن أحدهم وهو جالس يقضى حاجته طلب من زميله المنتظر في فتحة الباب سيجارة فأشعلها وناولها له .. ولما انتهوا أدخلهم الصول وأغلق زنزانة الرجال ..

وجاء دور النساء وكن ثلاثة .. وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل والمصباح الكهربائى الموجود فى الشبكة يكشف الجالس فى المرحاض بوضوح .. وانتبهت على موقف عجيب .. السجناء الذين قضوا مدة العقوبة فى السجون وأفرج عنهم ومازالوا يقضون فترة (المراقبة) يأتون كل مساء وكل منهم حامل فراشه ليبيت فى فناء القسم .. تنبهت إلى أن عددا منهم غير قليل تجمعوا على نافذة الشبكة بحكم مبيتهم بجوارها وأطلوا برؤوسهم على الجالسة فى المرحاض تقضى حاجتها .. فهم بحكم نومهم فى الفناء يصبحون فى وضع يسمح لهم برؤية من فى المرحاض وهم ممددون منبطحون على الأرض .. وبدون ارتكاب أى سلوك

يؤاخذون عليه .

انتهت النساء الثلاث من قضاء حاجتهن مع ستر سيقانهن بشد الجلباب لأسفل ما أمكن وستر عورتهن بأكفهن وعدن إلى الزنزانة فأغلقها الصول ...

دولة الأمن والأمان لا أمن فيها ولا أمان، ولا شرف ولا حياء ولا عرض ولا ضمير، إنما هى بداوة الإنسان الأول وهمجية عصور الظلام والانحطاط.

* * *

يقول فتحى فضل:

نادى أحد الجنود الأسماء وكل من يسمع اسمه يجلس القرفصاء فى الطابور.. وأعيد الباقون إلى الزنازين وأغلقوا عليهم .. ورأيت الحديد لأول مرة (الكلبشات)وقيدوا كل يدين معا.. ذراع أيمن فى ذراع أيسر.. وأسرعت فقدمت للجندى يسارى لتظل يمينى حرة الحركة.. وكان زميلى بالطبع هو المؤلف (علاء حامد).. الذى تأفف وقال هامسا فى رجاء:

-أرجوك بلاش يا حضرة الصول .. يرضيك حد يشوفنى كده ؟ .

-لأ ما يرضنيش .. بس راضى الناس دي .

فأعطاه كل منا جنيهين .. لوح بها لزملائه يشهدهم على المبلغ حتى لا يشكوا في ذمته .. ثم خلع الحديد من يدى .

* * *

وفى واقعة فادحة تشى بالأخلاقيات التى انتشرت فى جهاز الشرطة دون أن تجد من يردعها يقول :

وبقيت فى زنزانة الحريم المرأة وحدها.. وقد بقيت مقبوضا عليها وعلى زوجها لأنهما استدرجا جارا وضربوه علقة وأصابوه بجروح بحجة أنه دأب على (البصبصة) للزوجة أثناء وقوفه فى الشرفة بملابسه الداخلية وانتهت المشاجرة بالقبض على الزوج.. وهربت الزوجة وقبض عليها فى اليوم التالى.. وعرض الزوج على النيابة وأفرجت عنه اليوم .. واستبقيت الزوجة للعرض على النيابة باكر.. فباتت فى الزنزانة وحدها. الصول الشهم كرم الله اصله وجعله ذخرا للوطن، صنع صنيعا أدعو الله أن يعود بجزائه

على زوجته و أولاده .. (ما خلصوش) يترك المرأة تبيت وحيدة فى الزنزانة فتسلل إلى الحجز و أدار المفتاح فى باب زنزانتها بهدوء وزارها !!... وكنت وقتها جالسا أدون مذكراتي وكل من فى الحجز يغط فى نوم عميق .. لكن الشيء المهم الذى تعذر عليّ فهمه أن ساعة الزيارة .. ساعة الصفر كما يقول العسكريون .. كانت عند أول ضوء ... أي بعد أن انطلق مدفع الإمساك بساعة(حدث ذلك فى شهر رمضان) .. والشهادة لله كانت امرأة جميلة وتستاهل، كان اليوم جمعة، و فى الصباح فتح باب زنزانة الحريم وخرجت المرأة إلى دورة المياه .. وكنت أظن أنى الوحيد الذى أحس بما حدث ولكنني فوجئت ببعض المساجين يطلون من نافذة الباب ويلاحقونها بالتعليقات :

- صباحية مباركة يا عروسة .

يارب ... ياجبار يا منتقم يامذل...

* * *

دولة الأمن والأمان لا أمن فيها ولا أمان، ولا شرف ولا حياء ولا عرض ولا ضمير، إنما هى بداوة الإنسان الأول وهمجية عصور الظلام والانحطاط.

* * *

وفى واقعة فاجعة تظهر كيف أن بعض رجال الشرطة نفسهم يتعاونون ويشاركون اللصوص يقول:

عند منتصف الليل عاد طابور للعرض من المباحث فانصرف من أطلق سراحهم وزجوا بالباقين إلى الزنزانة عدا واحدا.. صعيدى يرتدى الجلباب واللبدة فى حوالى الأربعين..

أدخلوه الزنزانة الأخرى مع العبيط وأغلقوا عليهما.

فى السهرة كان الصعيدى هو حديث كل المجموعات فى الزنزانة.. وعرفنا قصته ممن كانوا معه فى عرض المباحث .. هو من بلدة تابعة لمحافظة سوهاج .. وكان منذ سنوات يقيم فى زمام هذا القسم يبيع الفاكهة على الرصيف وبطاقته العائلية مستخرجة منه .. ثم سافرإلى العراق لسنوات وعند عودته وأمام باب المطار نشلت منه حقيبة يد بها البطاقة وجواز السفر فسافر إلى بلده ثم عاد قرب نهاية الإجازة إلى هذا القسم لاستخراج (بدل فاقد) للبطاقة تمهيدا

لاستخراج (بدل فاقد) لجواز السفر.. وقبضت الشرطة عليه لأن البطاقة التى سرقت منه استغلها شخص آخر وانتحل اسمه فى عملية نصب .. وبعرضه على النيابة أمرت بالإفراج عنه بضمان سكنه .. وبعرضه على المباحث الليلة أمرت بترحيله صباح باكر إلى (المديرية) كما تقضى التعليمات حيث إنها المختصة بالترحيل إلى المحافظات .. وإلى هنا والقصة عادية .. والجديد أن الصعيدى يحمل معه ألفى جنيه .. وقال ذلك للضابط قبل نزوله إلى الحجز فأرسل يستدعى أمين خزينة القسم ليتسلم المبلغ على أن يرده له فى الصباح .. ولكن الليل كان قد انتصف وأمين الخزينة انصرف فأمر الضابط أن ينزل الصعيدى إلى الحجز بمبلغه ولكن يحبس فى زنزانة منفردة .تجمع النشالون واللصوص المجرمون فى زنزانتى فى أحد الأركان وطحنوا أقراص (الإسبراكس) مع اقراص (النوفاسى) ودار بينهم حديث هامس هام .. ومع الشم انتفخت أوداجهم وسال لعابهم وزاغت أبصارهم .. ثم قام أحدهم ونادى على الصول النوبتجى فنزل إلينا فهازروه ولاطفوه وأشعلوا له سيجارة وقالوا له بعيون غامزة واعدة.. إن الزنزانة هنا مزدحمة وإنه لا مانع لديهم أن يتنازلوا ويسكنو الزنزانة الأخرى الخالية وسيتحملون رائحة العبيط والأمر لله تخفيفا عن زملائهم المكتظين هنا.. ثم قال أحدهم موضحا أكثر: احنا سبعة.. والمبلغ ح يتقسم على ثمانية .

ولكن الصول خاف .. وأفهمهم أنه لو كان الأمر من أوله من تصرفه لوافقهم ولكن الصعيدى حجز انفرادى بأمر الضابط نفسه.. فلو سرقت نقوده لن يمر الأمر بسلام.. وزاد ضغطهم عليه حتى وصل العرض إلى أن يحصل هو على الثلث وهم على الثلثين فوعدهم أن ينقلهم إلى الزنزانة الأخرى بعد انصراف ضباط المباحث .. وقضى اللصوص ليلتهم وقوفا.. أو قضوها ذهابا و إيابا من أول الزنزانة إلى آخرها كالوحوش الحبيسة.. وقد انتعشت ونشطت فيهم لذة الإجرام وطفحت وجوههم بالشراهة والشراسة والسرقة.. كأنها غريزة مكبوتة استثيرت فجأة فأرهقت كواهلهم وسيطرت على عواطفهم وأمزجتهم.. وروعنى منظرهم وتذكرت ذلك اللص عند عرضه على مباحث للسرقات فى المديرية عندما بال

على نفسه قبل أن يدخل ولم يستغرق استسلامه واعترافه دقائق .
بعد السحور زاد توترهم وطرقوا الباب بشدة ونادوا علم
الصول .. ولكن وضح أنه بعد أن عاد إلى مكتبه حسبها بعق
فتراجع فلم يستجب لطرقهم .
وبت ليلتي أرقبهم وأتوجس خيفة.. فقد وصلوا إلى حالة م
الغيظ والهياج والغضب من الصول الذي وعدهم وتخلى عنهم إل
موجة يصعب معها أي تفاهم .. فلو حك أي محبوس أنفه أو حرك
حاجبه لقتلوه .. وفي الصباح سلم الصول النوبتجية وغادر القس
مبكرا قبل أن يفتح الحجز لطابور العرض خشية أن يدركوه
والطريف أني عرفت بعد ذلك أن الصول عندما أدخل الصعيد
الزنزانة أجرها له مفروشة وبسعر حجرة في فندق خمسه نحو
وحصل منه على خمسين جنيها.. دفعها الصعيدي عن طيب خاط
عملا بالمثل الفلاحي الذي يقول (احرس القصب بالقصب) .
تمت الإجراءات اليومية واقتادونا إلى الشارع وأمام صندوق
السيارة لاحظ الصعيدي أن وجوه النشالين غاضبة وعيونهم تطل
شررا وشفاههم تتلمظ في انتظاره فأدرك أبعاد الموقف وتشبث
بالأرض ورفض الركوب .. وأوسعه الحراس ضربا ليركب فلم تنفك
يداه وتصلبتا على فتحة الباب وصرخ مناديا بأعلى صوته :
يا سعادة البيه المأمور.. يا سعادة البيه المأمور.. إلحقوني ي
هوه.
والتف المارة حول السيارة.. وأصبح الموقف محرجا للحراس
وهرع الضابط النوبتجي فشرح له الصعيدي الموقف وهو يشير
إلى النشالين في صندوق السيارة في ذعر.. فأمر الضابط أن
يجلس الصعيدي في الكابينة بجوار السائق ومعه حارس .. وأن
تتوجه السيارة أولا وقبل أي شيء إلى أقرب مكتب بريد ويود
للصعيدي المبلغ في حوالة بريدية باسمه تسبقه إلى بلده عن
وصوله .. وانتهت الأزمة وأغلقت علينا السيارة وبقي الصعيدي
بجوار السائق .. ولكن النشالين لم يكفوا عن المحاولة ولم ييأسوا .
وقفت السيارة أمام مكتب البريد حوالي ساعة.. تجمع الحراس
الأربعة واللصوص السبعة أمام نافذة لسيارة.. اللصوص من
الداخل والحراس من الخارج .. ودار بينهم جدل ومناقشات

ومساومات وعروض وإغراءات على مرأى ومسمع من باقى المساجين ومن الصعيدى أيضا .

ولكن الحراس بعد تفكير وترو أدركوا أن الأمر خرج من أيديهم .. فالضابط عنده علم بالواقعة وأمرهم أن يتوجهوا أولا إلى مكتب البريد ولو نفذوا خلاف ذلك فسيتحملون المسئولية .. فلم يخضعوا لتهديد ووعيد وترغيب وإغراء اللصوص وآثروا السلامة.. وأيضا لم يقدروا على تحديهم .. وكما يقول المثل (أمسكوا العصا من النصف) اتفقوا أخيرًا على أن يودع الصعيدى فى البريد ألفا وخمسمائة جنيه فقط ويحتفظ بالخمسمائة الباقية فيقتسمها العسكر والحرامية . كل هذا يدور والصعيدى منصت ومنكمش فى كابينة السيارة بجوار السائق ينتظر مصيره وما سوف تسفر عنه المباحثات .. وأخيرا اقتادوه إلى مكتب البريد.. ولكن الصعيدى كان ناصحا وأودع ألفا وتسعمائة جنيه واستبقى معه مائة فقط لزوم مصاريف السفر.. وخرج من مكتب البريد يلوح بإيصال الحوالة البريدية وعيون اللصوص تتابعه من النافذة بغيظ ما بعده غيظ .. واغتاظ منه الحراس أيضا.. فقد خدعهم .. فأفهموه أن أوامر الضابط بركوبه الكابينة على العين والرأس ولكنها تنتهى بإيداعه المبلغ .. والمفروض الآن بعد أن اطمأن على مبلغه أن يركب فى الزنزانة كالآخرين .. ولكنه أدرك أن اللصوص لن يغفروا له خداعهم فتوسل إلى الحراس .. وعادت المساومة.. ولكن هذه المرة بين الحراس والصعيدى.. واللصوص ترى وتسمع وتتابع وتهدد.. وانتهت بأن حصل كل واحد من الحراس الأربعة والسائق على عشرة جنيهات وبقى معه خمسون حنيها.. ورغم هذا خانوه كما خانهم واقتادوه وحملوه حملا وقذفوا به إلينا فى الزنزانة وأغلقوا الباب فتلقفه اللصوص بكم هائل من الغيظ والغضب وكالوا له اللكمات حتى تورم وجهه .. وظلت قبضتاه مستميتتين على فتحة صدره إلى أن فاجأه أحد اللصوص بموس حلاقة كان طوال هذا الوقت يحتفظ به فى سقف حلقه أو تحت لسانه وعاجله بقطع فى رسغه .. فلما رأى الصعيدى الدم ينزف من يده ارتعب وتملكه الذعر وصرخ وتخلت قبضته عن فتحة صدر الجلباب فانتزعوا من صدره المبلغ .. كل هذا على مرأى ومسمع منا ومن الحراس .. وهو يتلفت حوله

ويستغيث بنا ولكن (أذن من طين والأخرى من عجين) وكل منا تمسك بالحكمة الهندية الشهيرة (أخرس . أبكم . أعمى) لا سيما بعد أن رأينا ما فعله موس الحلاقة .

أمام المديرية فى حى الخليفة توقفت السيارة وأنزلوه وسلموه للمسئولين .. ليبدأ رحلة عذاب أخرى من المديرية إلى شرطة سوهاج مع حراس آخرين ..

هل يحتمل القارىء أى تعليق؟.

هل يريد القارىء ناقدا يفسر ويشرح ؟.

أم يريد كارثة تنزل من السماء على القوم الظالمين.

أم يتحرك بالغضب فى قلبه شعور يهتف به : الإرهابيون على حق!!

وفى موقف آخر يقول الكاتب:

وصرخ جندى :يلا يا حضرات .. حق البنزين، وتحركت الأذرع الطليقة فى الجيوب .. ودار عليهم الجندى .. بعضهم دفع جنيها وبعضهم دفع نصفا أو ربعا والبعض لم يدفع .. وانتحى الجنود الثلاثة جانبا كعوالم الفرح يحصون (النقطة) ثم عاد أحدهم إلينا متأففا غاضبا: تمانيه جنيه يا غجر .. ناقص أربعة جنيه على حق البنزين .. حنطلعكم في عربيتين واحدة للجيزة وواحدة لمصر وكمان ح نفوت على سجن طرة . ولم يستجب لهم أحد .. فعاد الجندى يصرخ : الناس اللى ما دفعوش .. ما تخلوناش نغلط معاكم. ولم يستجب أحد .. فقال مهددا : خلاص نحطكم كلكم فى عربية واحدة . ورد أحد السجناء المحترفين : حرام عليك يا حضرة الصول.. ده احنا أربعة وعشرين غير النسوان، واستدار إلى المساجين .. وقال ناصحا : كل واحد يدفع كمان ربع جنيه يا حضرات. واستجاب البعض .. وعاد الثلاثة فانتحوا جانبا يحصون الزيادة ثم عادوا لنا أكثر غضبا.. وفرزوا الذين لم يدفعوا وأوثقوهم كل اثنين معا .. ولكن بطريقة مختلفة .. فالمفروض أن بين حلقتى (الكلبش) سلسلة طولها حوالى ربع متر تسمح ببعض الحركة لكل مسجونين مقيدين معا .. لكنهم قيدوهم بحيث عقدوا لهم الحلقتين داخل بعضهم فحرموهم من الحرية التى تتيحها السلسلة .. وأصبح كل ذراعين مقيدين معا ملتحمين بطريقة مؤلمة .. إذا مال أحدهم لا بد

أن يميل معه زميله .. وإذا حاول إشعال سيجارة رفع ذراع زميله إلى فمه .

* * *

دولة الأمن والأمان لا أمن فيها ولا أمان، ولا شرف ولا حياء ولا عرض ولا ضمير، إنما هى بداوة الإنسان الأول وهمجية عصور الظلام والانحطاط.

حضرة الصول الهمام كرم الله أصله .. الصول المكلف بخروجنا.. صول فعلا ومعه أربعة حراس بدون رتب كالعادة.. تابعته وهو يتحرك من مكتب إلى مكتب ليجمع أوراقنا والتوقيعات المطلوبة لخروجنا ويحث الحراس على سرعة التشهيل من هناك .. فأعجبت بهمته وشكرته فى نفسى وتوقعت أن يخلى سبيلنا بهمة قبل مدفع الإفطار وقلت .. هذا يوم جميل .. ثم هذا الصول الهمام الحريص على خروجنا من هذا السجن الكئيب على الإفطار.. ربما يخدم نفسه أولا ويريد أن يلحق بأولاده على الإفطار.

دهشت عندما وضعوا الحديد فى أيدينا مرة أخرى واقتادونا إلى السيارة.. فكلنا مفرج عنا.. فأطللت من النافذة وبصقت على السجن .. ولو حللت المعامل لتراب الذى يحيط بالسجن لوجدته مشبعا ببصاق آلاف المساجين .

قطعت السيارة شوارع القاهرة الخالية تقريبا قبيل مدفع الإفطار بسرعة فائقة ثم استقرت بجوار سور مديرية الأمن بميدان باب الخلق من الخلف .. أى من جهة درب سعادة.. ولم يبق على انطلاق المدفع سوى نصف ساعة .

كانت السيارة من الحجم الكبير.. وصندوقها أو قفصها أو زنزانتها عرضها متران وطولها أربعة.. أى أن مساحتها ثمانية أمتار مربعة.. ولو احتسبنا لكل راكب ومعه أمتعته نصف متر مربع .. وهو أقل حق إنسانى وآدمى فالسيارة تسع بصعوبة لستة عشر راكبا.. ولكن كان العدد فيها بدون مبالغة ثمانية وثلاثين .. أى أن نصيب كل سجين ومعه حقائبه و بطاطينه مساحة بلاطة صغيرة..شىء مخيف وخطير لايمكن تصوره ولا حتى فى سيرك .. لهذا كنت فعلا أتبادل الوقوف على قدمى ولا أجد مكانا للقدم الأخرى.. أو بمعنى أدق كنت أضع قدما فوق أخرى وأبدلهما.

صار كل نزيل يتنفس فى وجه جاره أو قفاه دون اعتراض .. يضع أنفه فى لحم قفا الذى أمامه ويتنفس .. عند خروجنا من السجن لم نشعر بحرارة الجو من فرحة الخروج ولأن السيارة كانت منطلقة بسرعة على الكورنيش والهواء يتسرب إلينا من النوافذ الصغيرة عبر القضبان والشبك السلك الذى يشبه خيوط الغربال.. ولكن عندما توقفت بجوار حَائط المديرية وسد الحائط نافذتى أحد الجانبين تصببنا عرقا حتى ابتلت ملابسنا واختنقت أنفاسنا.. وتصارعنا على الاقتراب من النافذتين المطلتين على الطريق لندس أنوفنا فى سلكها نلتقط شيئا من الهواء الخارجى كدجاج مكدس فى قفص كل دجاجة تجاهد لتهرب من الوسط إلى الفتحات .. وطرقنا الباب بشدة نلتمس من الحراس التفضل علينا بفتح الباب أو الابتعاد بالسيارة عن الحائط ليتحرك الهواء.. ولكن حضرة الصول الهمام كرم الله أصله وحراسه الأربعة تركوا السيارة وَتَجَمَّعُوا هناك بعيدا على الرصيف المقابل فى الظل . تركونا نطرق الباب ونطل من النوافذ ونناديى عليهم ونتوسل بلا مجيب حتى توترت أعصابنا.. وكلما مرت دقيقة زاد اختناقنا وشعرنا فعلا بخطر الموت وتوقعنا لحظة انتهاء الأجل وأنها لحظات ونصبح لحما مكدسا لا يصلح إلا للدفن .

وكان هذا هو التخطيط المحكم المبنى على الخبرة السابقة لحضرة الصول الهمام كرم الله أصله.. كان يستعجل خروجنا خشية أن ينطلق مدفع الإفطار ونحن فى السجن فنفطر هناك ونحضر إلى هنا فى المساء.. بعد غروب الشمس ، وانكسار الحرارة.. وفى ساعة الصفر حسب الخطة.. قبل مدفع الإفطار بخمسة دقائق بالضبط .. ونحن على مشارف الموت .. وقد كف نداؤنا وتراخت أجسادنا.. ونفدت مقاومتنا.. واستشعرنا لحظة النهاية.. عاد إلينا أحد الحراس وقال إن هذا الحال سيستمر حوالى ثلاث ساعات إلى ما بعد صلاة العشاء حين يعود موظفو المديرية إلى مكاتبهم .. ثم شفع هذا التهديد والإرهاب بسؤالنا.. من منا يريد أن يتناول إفطاره على المقهى؟.. فعادت فى نفوسنا الرغبة فى الحياة مرة أخرى.. وتسابقنا كالكلاب الضالة فى سيارة البلدية نطل من النوافذ ونعلن رغبتنا.. وهل فى ذلك شك .. إنه جندى ساذج لأنه يسأل هذا

السؤال .. ولكن اتضح أننا السذج .. فقد ذهب الحارس إلى حضرة الصول كرم الله وجهه وعاد بالتسعيرة.. (عشرة جنيهات) .. وذهب وعاد.. وذهب وعاد.. ولم يتنازل الصول أبدا عن السعر.. وقال الحارس فى آخر مرة مازحا ونحن فى هذا الموقف الرهيب العصيب الذى لم يصادفنى مثله .. لا قبله ولا بعده فى كل حياتى:أصل حضرة الصول ما بيحبش الفكة ولا الفصال . ووافق عشرة أشخاص .. منهم ثمانية من تجار المخدرات .. وفتح الباب فهب علينا الهواء فالتقطناه أنفاسا عميقة نختزنها فى صدورنا لما بعد غلق الباب . أصبح المكان يسمح بالحركة إلى حد ما فكافحت حتى استطعت أن أصل إلى النافذة.. فرأيت العشرة المحظوظين على المقهى يضمون منضدتين ويلتفون حولهما ويرسلون حارسين لشراء لوازم الإفطار.. وبالطبع سيكون ضيف شرف هذا الحفل حضرة الصول كرم الله أصله وجنوده الكرام .

انطلق مدفع الإفطار وأذن المؤذن لصلاة المغرب .. وكان منظرا أو موقفا يندى له جبين الإنسانية وتخجل منه أحط شعوب الأرض .. المحظوظون يتجرعون زجاجات الكازوزة وشراب العرقسوس وَيَتَجَشّئونَ ويتبادلون الأنخاب .. وفى السيارة بعد أن خف الزحام نوعا ما.. لم يكن بها أى طعام أو شراب سوى (ترمس) مررنا أمام صاحبه واحدا بعد الآخر كالأسرى.. يبلل شفاهنا دون أن يسمح بتسرب أى نقطة إلى أفواهنا.. رحمة بنفسه خشية أن يطول به هذا الوقف العصيب ويحتاج الماء مستقبلا فلا يجد. ويندم على فعل الخير.. ثم مر علينا آخر وناول كلا منا تمرة واحدة .

عدت أطل من النافذة.. وشاهدت إخواننا المحظوظين وهم يلوكون الطعام وأنا ألوك الندم لأنى لم أحتفظ بعشرة جنيهات لهذا الموقف العصيب .. وشاهدت أصحاب محلات تحت الربع وقد افترشوا الحصر أمام محلاتهم وتجمع كل معلم مع صبيانه حول الطعام .. سكنت الحركة تماما فى الميدان والأفواه تطحن الطعام ونحن هنا تطحن أقدامنا بعضها فى الصراعِ علىِ الوصول إلى النوافذ.. وسقطت دموعى من قسوة الموقف و بَشَاعَة الصورة التى لم ترد لى أبدا فى أى حساب .. وبكيت على جهل الإنسان عندما يذبح الإنسانية باسم العدل .

آلمنى العرق وهو يتصبب من كل جسدى ويتجمع فى البنطلون كأنى بلت على نفسى.. وآلمنى أكثر وأكثر الإهانة للإنسان بيد الإنسان بين أهله وشعبه هنا فى قلب القاهرة عاصمة الحضارة والتاريخ .. فهناك على البعد الأهرامات .. وأمامى على امتداد شارع بور سعيد مسجد السيدة زينب وخلفى على امتداد شارع الأزهر مسجد الحسين والأزهر منارة الدين والعلم والأخوة عبر العصور. فأشهدتهم وأشهدت القاهرة كلها التى انطلق فيها اسم الله من لحظات من فوق ألف مئذنة فى هذا الشهر الكريم .. أشهدتهم جميعا أننى هنا الآن متهم بطبع كتاب ينكر وجود الله .. وتهمتى الترويج لهدم السلام الاجتماعى للدولة وازدراء الأديان .. وسألتهم .. هل أنا الذى ينكر الله ويهدم السلام الاجتماعى.. أم هذا الكم الرهيب من الظلم والظالمين ؟ .

* * *

أجل ، إن فتحى فضل يمد يده إلى أحشاء السلطة ويقبض عليها، ولنتساءل معه، من هم الإرهابيون؟ من المجرمون؟ من الخونة؟ من الذين يسيئون إلى سمعة أمهم مصر؟.

والآن من الكافر ومن المؤمن؟

أما من باحث اجتماع يبحث عن سر قيام بعض الجماعات فى تكفير السلطة من خلال مثل هذه الممارسات؟.

* * *

ويواصل فتحى فضل حديثه فيعقد مقارنة فاجعة فيقول تكشف المزيد من عورات السلطة:

وأطلق سراح صديقى النشال .. وسألته : أنت قلت لى إن باقى لك هنا أيام للعرض على عدة جهات . فقال :عضو مجلس الشعب عن المنطقة توسط لى.. ودفع للبلوكامين .. وصباح كل يوم ح احضر للعرض معاكم .. البلوكامين هو الكل فى الكل.. الطريقة اللى بيعرض بها الأوراق على ضباط المباحث هى أهم شىء.. ممكن يوحى لهم إن الشخص غير مهم وما فيش داعى ينتظر فى الحجز وعرضه من الخارج لا يضر.. ويقدر يطينها على دماغه ويبقيه أيام زيادة ويعرضه على جهات إضافية من غير داعى بحجة الحرص وزيادة للضمان .. وكله بثمنه . جلست أتأمل الأحوال .. نشال يضمنه عضو

مجلس الشعب لأنه يستفيد منه أيام الانتخابات .. وأنا عضو اتحاد الكتاب .. وكيل الاتحاد كاتب شهير وضابط سابق ومحام .. رئيس الاتحاد كاتب شهير ووكيل مجلس الشورى محام .. ولم يسأل عنى أحد..(بعيش وحلاوة).. النشال محل ثقة.. يستطيع أن ينام فى بيته ويحضر العرض كل يوم .. وأنا خطر وغير مؤتمن . ثم يعاتب النشال الذى كان قد عاهده على التوقف عن النشل والتوبة عندما يجد معه سبعمائة جنيه فإذا بالنشال يقسم له أنه لم يمد يده للحرام وأن هذه النقود إنما هى مكسبه الحلال من تجارة المخدرات فى السجن ، ويتساءل فتحي فضل عن كيفية وصول هذه المخدرات إلى داخل السجن فيجيبه النشال:

- مع المخزنجى .. فيه حراس بتخزن .. يعنى تحط المخدرات فى بالونة وتلبسها ..وله على كل تخزينة عشرين جنيه ...عارف الشاويش عوكل ... مخزنجى..

وصرخت مرددا :

- الشاويش عوكل .. اللى جسمه قد الفيل وشنبه يقف عليه الصقر.. دانا كنت بخاف اقرب منه ..لو كنت اعرف إنه كده كنت ضحيت بعشرين جنيه وخليته يخزن لى مرة ولو شوية زلط علشان أكسر عينه .

* * *

دولة الأمن والأمان لا أمن فيها ولا أمان، ولا شرف ولا حياء ولا عرض ولا ضمير، إنما هى بداوة الإنسان الأول وهمجية عصور الظلام والانحطاط.

* * *

وأخيرا ينتهى الحبس الاحتياطى وبعد صدور قرار الإفراج بأيام يأتى يوم الخروج من السجن إلى الحرية، يقول فتحى فضل:

أيقظونى فجلست ضجرا..

وقفنا فى ردهة الدور الثالث .. كنت ثالث اسم فى الكشف .. نادى البلوكامين اسمى فتقدمت ووقفت أمام الباب فدخل إلى رئيس المباحث فأمر على الأوراق بما يفيد إطلاق سراحى.. وعاد فسحبنى إلى مكتبه وطلب منى البطاقة وسجلها ثم مد يده يطلب الحلاوة.. وكنت مغتاظا منه لأنه أطلق سراح النشال وغيره وسمح

لهم بالعرض من بيوتهم دوني.. فقلت له بجرأة وأنا أشعر أنه استنفد كل فرص إبقائي محجوزًا وأن مصيرى لم يعد بيده :

– أسبوع وأنا متمرمط كل يوم فى جهة.. وكان فى إمكانك تخدمنى.. ويتطلب الحلاوة!.

ورد باعتذار جعلنى أصدقه إلى حد ما:

– لو كنت نشال أو حرامى أو تهمتك عادية كنت أفرجت عنك .. لكن إنت موضوعك فى الجرايد كل يوم .. وكان لازم نتخذ معاك كل الإجراءات بدقة علشان ما نقعش فى مشاكل .. إحنا بنفرج عنك دالوقت وإحنا خايفين نكون نسينا حاجة .

– عاملتونى معاملة أشد من معاملة تاجر المخدرات .

– طبعا.. لأن تاجر المخدرات بيخدر للشعب .. لكن انت بتفوّقه.

ولسعنى رده .. فوقفت مأخوذا لحظات .. فضلت بعدها عدم الرد.. ثم اتجهت إلى السلم .. نزلت الأدوار الثلاثة وحدى ولم يعترضنى أحد.. وطلبت من الصول النوبتجى أن يفتح لى الحجز لآخذ فراشى فنظر إلى من فوق لتحت وعاد يخفض عينه فى الورق الذى أمامه وقال (أصبر لما أخلص اللى فى ايدى) وتركنى حوالى ربع ساعة واقفا أمامه وكأنه لا يرانى .. وأدركت أبعاد الموقف .. كنت أدفع لأخرج والآن يجب أن أدفع لأدخل . و(هرشت) فقام وسحب المفتاح من على مسماره على الحائط .

خرجت من باب القسم حاملا فراشى وأوراقى دون أن يعترضنى أحد.. وعلى الرصيف اعترض طريقى رقيب أول تخطى الخمسين ضخم سمين بكرش .. رفع يده بالتحية ومد يده الأخرى وفتح باب سيارة ملاكى مرسيدس سوداء قديمة.. وقال :

–اتفضل يا بيه .

ونظرت إليه غير مدرك أبعاد الموقف .. وظننته يقصد غيرى فتلفت حولى فلم أجد سواى.. وعاد يرفع يده بالتحية ويشير بالأخرى إلى السيارة مؤكدا:

–اتفضل يا بيه أوصل سعادتك .

وابتسمت فى حياء وخجل وارتباك.. فلم أتعود بعد على هذه المعاملة لا سيما من هذه الفئة.. وسألته فى دهشة:

– أنا . . تقصدنى أنا ؟

- أيوه يا بيه .. مش حضرتك سعادة البيه المألفاتى؟
قلت وأنا مندهش .. ومازلت محتاجا لتفسير:
- أيوه أنا.
- اتفضل اركب أوصلك .
وتطلعت إلى اللوحة المعدنية التى تحمل رقم السيارة فوجدت مكتوبا بجوار الأرقام كلمة (شرطة) وعدت أنظر إليه فى تشكك وتردد.. ولكنه اندفع نحوى وأخذ منى لفة الفراش وقذف بها على الكنبة الخلفية للسيارة ودفعنى بلطف إلى الكرسى الأمامى واستدار فركب .وتحركت السيارة.. وفى عينى دهشة وفى فمى أثر من سؤال ...!
- العربية دى شرطة؟
- ايوه .. يا سعادة البيه .
- و بتوصلوا بها المساجين لبيوتهم ؟
- مش كلهم .. البهوات اللى زى سعادتك بس .
- وده بأوامر من القسم ؟ .
- أوامر ايه يا بيه .. دى عربية البيه المأمور نفسه وأنا سواقها.. ولما ألاقى واحد بيه محترم وابن ناس زى سعادتك يصعب على بهدلته فى المواصلات بعد نص الليل .
-دى عربية المأمور شخصيا؟
- إيوه .
- وهو عنده علم إنك بتوصلنى؟
- لأ طبعا.. يا بيه فتح مخك وخليك معاى .. زى ما سعادتك شايف .. كل اللى فى القسم بيسترزقوا وكل اللى قاعد فى حتة بيستفيد منها.. وأنا بس اللى محبوس فى العربية دى.. وعيالى كثير والمعايش غالية والمرتب صغير وسيادتك سيد العارفين .. أهو كل ما ألاقى واحد محترم زى سعادتك أوصله وأرزق منه باللى فيه القسمة.
- طيب .. وإذا سأل عنك المأمور ؟
- أنا عارف مواعيده .
- افرض ياأخى طلبك فجأة.
- أكبرتوصيلة يَا دَوب تَاخِذ منى نص ساعة ..العربية مكتوب

عليها شرطة وممكن أكسر أى إشارة وَمَا حَدش يعترضنى.. وإذا سألنى المأمور أقول له كنت عند الميكانيكى أو بازود الكاوتش أو باحط بنزين . .تهادت سيارة البك المأمور ووقفت أمام باب منزلى بعد منتصف الليل ونزلت منها عزيزا مكرما مرفوع الرأس .. وحمل هو فراشي سار خلفى حتى باب الشقة فأخذتها منه وناولته (اللى فيه القسمة) ورفع يده بالتحية وانصرف .. وابتسمت وتمتمت .. بدأت الرحلة بسيارة شرطة وانتهت بسيارة شرطة.. خدمة ممتازة من للباب للباب .

* * *

بعد أن قرأت فتحى فضل غرقت فى هم عميق...

تذكرت الرئيس ... ورئيس الوزراء...والوزراء ... والكتاب والمفكرين ... و أعضاء المجلسين.....ثم ... ثم ...أطبقت فمى... وراح قلبى يدعو!!.

وجدت نفسي منصرفا عن شرف صنع الله إبراهيم إلى عار الحكم .

عزوفا عن الأدب كله ، أنظر فى دهشة إلى هيكل الدولة الخراب التي تكرس هذا وتحميه وتدافع عنه ، و أتساءل كيف نعيش وكيف نحتمل ؟و أجيب بل إن هذا هو البرنامج الحقيقي للدولة لدخول القرن الحادي والعشرين ، هذا هو البرنامج السري الذى لا تنشره صحف ولا تناقشه مجالس !!.

ياله من عار أن تمتهن وسائل العدالة وأدواتها كل هذا الامتهان تحت ظلال ضباط كبار ومستشارين ووزراء ورئيس للوزراء ياله من عار.

حتى عبد العظيم رمضان يتحدث فى الأهرام عن ضابط شرطة حبس صيدلانيا لأنه جرؤ واحتج على إهمال ابنه فى المستشفى ، حبسه حتى يعرضه على النيابة فى الصباح ، وقبل الصباح كان ابنه قد مات .

و أقرأ فى الأخبار عن أمين شرطة اغتصب سيدة فى الحجز لم يغثها عندما صرخت مغيث .

يا نقاد السوء ويا مثقفين (ليس أهل اليسار فقط) لم تتوبوا كيف ازورت أعينكم عن الكوارث النازلة والفضائح الهائلة

والجرائم القاتلة فى كتاب فتحي فضل لتلتفتوا إلى التساؤل هل سرق صنع الله ؟

يا ناقد السوء يا مثقف يا من قرأ ومن لم يقرأ كيف واصلت كأنك لم تعلم ولم تقرأ ولم تسمع ولم تر؟ كيف لم تشعر أن خطيئة الصمت تدنسك ؟ كيف واصلت النقد ، وكيف رحت تتساءل إن كان صنع الله قد سرق عمل فتحى فضل فتنكر أو تؤيد؟ كيف واصلت ما تزعم إنها الصلاة - وما هى بصلاة - والحريق حولك لم يطلك - بمحض الصدفة - أواره لكنك تراه يحرق الباقين ، وليست صلاتك عبادة لله الواحد القهار بل عبادة الشيطان ، لكن ألم تسأل نفسك كيف تواصل الصلاة و أنت نجس ....

يانجس .

العسكرى الأسود

أى جرم رهيب ارتكبناه فى حق أنفسنا وفى حق أمتنا وفى حق الله حينما تنازلنا عن القيم المجردة للأخلاق والمثل العليا باسم علمانية عرجاء ممسوخة فلا هى طالت حرية الغرب ولا هى تمسكت بقيم الدين وروح الشرق.

أى جرم ارتكبناه ونرتكبه حين نروح ندافع بحماقة عن عصر أو حاكم لنتهم أفرادا أو حاشية . ثم إن الإدانة - حين ندين - لا تكون إلا بأثر رجعى.

لماذا لم تستنكر الأمة وفى طليعتها مثقفوها ومعارضوها ذلك الإجرام الذى حدث وما فتىء يحدث. لماذا لم يستنكره الحزب الحاكم ومجلس الوزراء ومجلسا الشعب والشورى والنقابات والهيئات، لماذا لم يصدروا حكمهم الباتر الصارم النهائى على فعل التعذيب والتلفيق والقبض على الرهائن بأنه إجرام يصم أى عهد يحدث فيه.

لماذا لا يتناول السيد الموقر النائب العام كل قضية أثيرت فيها شبهة التعذيب - ولو من مائة عام - كى يحققها، ويحيلها إلى القضاء كى يحق الحق فيها كى لا الظلم محلقا فى سماواتنا أرواحا شريرة تصب اللعنات على مجتمع لم يبلغ من النضج أن يعامل الإنسان لا ببنود حقوق الإنسان ولا حتى بمواد الرفق بالحيوان.

لماذا لا يتصدى السيد الموقر النائب العام لإماطة اللثام عن مجرمين تسترت عليهم غوايات القوة والجبروت فى زمن مضى ، لا يبلغ بنا الأمل أن يحدث ذلك فى زمن حاضر، فليحدث إذن فى الزمن الغابر، على الأقل لنطمئن أن نائبا عاما سيجىء فى قابل الزمان ليكشف ويدين من تتستر عليهم غوايات الشر والقوة والجبروت الآن .

كيف يستطيع النائب العام وكيف تستطيع الأمة وكيف يستطيع الكتاب والمثقفون أن يناموا قريرى الأعين وثمة مظالم

تحوم هائمة فى سماواتنا لم يقطع فيها رأى ولا صدر فيها حكم.

حتام نترك المجرمين بلا إدانة، إننى لا أقصد العقاب على جرائم حدثت، ولا حتى استرداد أموال سرقت، و إنما أقصد المواقف المعنوية، كى لا يضل عقل الأمة، ويغيب وعيها ويتبلد ضميرها حين تتداخل تخوم الصواب بالخطأ، فليس ثمة حكم ، وتخيلوا لو أن الناس ذهبت إلى المحاكم فعرضت القضايا وادعى الادعاء وترافع المحامون دون أن يصدر أى حكم ، تخيلوا ذلك ولا ريب أنكم ستوافقوننى أنه وضع يدفع للانهيار والجنون ، على مستوى الأفراد والمجتمعات وعلى مستوى الدول أيضا .

لقد تقلصت آمالنا فلم نعد نأمل فى الإبحار ولا فى الإقلاع ولكننا نريد فقط أن نحتفظ بخرائط الملاحين صالحة كى لا نفقد الأمل الأخير فى أننا ذات يوم يمكن أن نتحرك ونبتعد عن الحضيض الذى وصلنا إليه.

نطالب فقط بمواقف معنوية تحفظ لنا جلدنا على المواصلة والصبر، ولو أننا اتخذنا الموقف المعنوى فقط، لما جرؤ ذلك السفاح الجلاد المجرم ، ذلك الحيوان المسعور الذى يتنكر خلف إهاب بشرى، أن يصدر المذكرات والشهادات والكتب وأن يظهر على شاشات القنوات الفضائية ليحاور ويدين و يثبت أن الآخرين على خطأ و أنه هو على صواب، يفعل ذلك وهو يحمل على كتفيه لا نجوما ولا نسورا و إنما صرخات و أشلاء وضحايا من صفوة عقول الوطن الذين وقعوا بين براثنه. يحملها دون أى إحساس بالذنب أو الخطأ، ودون أن يبصق معد البرامج فى وجهه صارخا فيه : لا تقبل شهادتك يافاسق يا قاتل.

إننى فقط أتساءل كيف يمكن أن يتقدم الوطن وهذه الكلاب البشرية ترتع فيه دون إدانة. هذه الكلاب التى تبيع أنفسها لكل حاكم، لتسحل وتمزق إربا كل من تشتم منه أنه يعارض الحاكم بكلمة، وفى نفس الوقت تبيح باسم التنوير هدم أى قيمة عليا فى الدين وفى الدنيا.

إن الخيال ليجمح بى أحيانا، فأتصور أن النائب العام يأمر بفحص الأعمال الأدبية، ليرى انعكاسات الواقع فى أداء رجال الشرطة والنيابة والقضاء على وجدان الأدباء، وعلاقة ذلك بما

يحدث في الواقع، تخيلت الأمة كلها تقف وتظل واقفة أمام العمل الفذ المروع : العسكرى الأسود، الذى لم يأت فيه يوسف إدريس بخيال من بلاد الواق واق، لا لتطلق شهقة عجاب ولا صيحة ترحاب ولكن تمحيصا وتدقيقا : ما علاقة ذلك بالحقيقة.

وتخيلت أيضا أن النائب العام والنقاد والمثقفين لا يشغلون أنفسهم إذا ما كان الكاتب الكبير صنع الله ابراهيم قد سطا فى روايته "شرف" على عمل فتحى فضل " الزنزانة "، رغم أن كليهما لم يألوا جهدا فى بيان أن ما يقولانه حقيقى، و أنه تسجيل لما يحدث فعلا فى أقسام الشرطة، ولتقرأ معى أيها القارىء هاته السطور من رواية "شرف" قبل أن ندلف معا إلى عمل يوسف إدريس الرهيب:

انطلقنا فى ممر تحف بجانبيه الغرف المغلقة حتى وصلنا إلى باب بجواره لافتة تعلن عن : ضباط المباحث" يقف أمامها رجل فى قميص و بنطلون أشار لنا بالانتظار وطرق الباب و دخل ثم عاد بعد دقائق و أومأ لنا بالدخول.

كان ثمة ساتر خشبى فى المدخل درنا حوله لتطالعنى غرفة كبيرة و صورة رئيس الجمهورية فوق شاب مديد القامه وسيم الملامح يبدو عليه أنه من أولاد الناس. كان يتحدث فى سماعة تليفون بصوت هامس بينما يده الأخرى تنفض رماد سيجارة "كنت" فى منفضة معدنية على مكتبه و كان يرتدى قميصاً سبور مخططاً من طراز "سونيتى" لم يعجبنى ذوقه، و تنبعث منه رائحة عطر "كارتييه" و إلى الجانب الضيق من المكتب جلس فى احترام رجل آخر فى قميص عادى بنصف كم يتشاغل بالتقليب فى بعض الأوراق.

أدى الصول التحية العسكرية و ظل واقفاً فى انتباه إلى أن أنهى الضابط حديثه التليفونى و أشار له بالانصراف دون أن يرفع إليه عينيه خرج الصول بينما ظل الضابط يتطلع إلى يده التى تنفض السيجارة و قد بدت عليه علامات التفكير العميق .

شعرت بشخص خلفى يضع كفه على قفاى و يتحسسه برقة، إرتعش جسدى من اللمسة التى لم أعهد مثلها من قبل و بدت لى اليد دافئة توحى بالاطمئنان ثم سمعت صوتاً يقول فى أذنى : تكلم

أحسن لك .التفت برأسي لأرد على من خاطبني فهوت يد على صدغي . ترنحت من وقع الصفعة و كدت اقع على الأرض لكن مخبراً أخر تلقفني بين ذراعيه . و نهرني الضابط قائلاً:

- بص لى و جاوب بسرعة .

هوت يد المخبر الثانى على صدغى فدفعتنى إلى حضن الأول :

- قول أفندم يا ولد .

رددت بسرعة :

- حاضر يا أفندم.

قال :

- تعترف و ألا أعلقك ؟

قلت فى توسل :

- و الله العظيم يا سعادة البيه أنا قلت كل حاجة زى ما حصلت .

تلقيت لكمة صاعقة فى وجهى فأضفت على الفور :

- متأخذنيش يا سعادة الباشا ، مش قصدى و حياة المصحف زى ما قلت أول مرة . هو إلى اداني السلسلة من نفسه و لما حب يعتدى على شرفى دافعت عن نفسى لكن ما قصدتش أقتلة أبداً ، هاتلى مصحف أحلف لك عليه .

ظل يتطلع إلى دون أن يتكلم فشككت أنه مسيحى .

قلت:

- و الأنجيل يا سعادة الباشا زى ما قلت لك .

بدا عليه الغضب و قال :

- قلعوه.

شدوا بنطلونى إلى أسفل بينما تولى أحدهم ربط يدى بكلبشات معدنية خلف ظهرى.

خاطبنى الضابط متهكماً :

- عارف إحنا حنعمل فيك إيه ؟

انتابنى الرعب و جذبت يدى فازدادت الكلبشات ضيقاً حول رسغى و جذب أحدهما كيلوتى إلى أسفل فتضاعف رعبى . ربط به قدمى ثم أحضر طرحة نسائية و ربط بها عينى . و أخيراً رفعونى و علقونى فى النافذة بحيث ألمس الأرض بأطراف الأصابع.

جربت ان انقل ثقل جسدى بالتناوب بين اليدين و القدمين

لأخفف الألم بينما انهالوا على بالكرباج و الشتائم .

هتفت :

- إرحموني . أنا مستعد أقول أى حاجة بس كفاية كدة . و مش حا قول على اللى انتو عملتوه فى أنا عارف أنه غصب عنكم . كفاية بقى حرام عليكم .

شعرت بإعياء شديد و سمعت من يسبنى طاعناً رجولتى فلم أملك نفسى و صحت به :

- أنا أرجل منك .

و هنا سمعت الضابط يقول لواحد منهم :

- هات الجهاز .

ربطنى المخبر بسلك فى كتفى و بدأ يضع شيئاً تحت رجلى . وسمعت شخصاً يقول :

- الفيشة بايظة .

قالِ الضابط بصوت نافذ الصبر :

- حَطه فى التانية يا حمار .

مرت لحظات بطيئة و فجأة اخترقت ساقى قضيب من النار فصرخت . و تكرر الأمر مع السِاق الثانية .

أخذت أئن و شعرت فجأة بأنى أقفز من مكانى و أطير فى الهواء . ثم غبت عن الوعى .

أفقت لأجد نفسى راقداً على الأرض غارقاً فى المياه و عارياً تماماً، و قدماى مربوطتين بالكيلوت ، و الكلبشات فى يدى خلف ظهرى كما هى ، و الغمامة تغطى عينى. .أدركت من الأصوات المحيطة بى أن الضابط و المخبرين ما زالوا موجودين، فخاطبتهم قائلاً :

- حرام عليكم ..

و بدأت أبكى . سمعت الضابط يقول :

- إختار اسم واحدة ننذهلك بيه .

قلت :

- ليَه ؟ ما أنا لى إسم !.

قال:

- إيه رأيك فى شريفة ؟ و الا فتحية ؟

قلت:
- إعمل معروف .
قال :
- اسمع الكلام أحسن نتده لأختك و نقلعها .
قلت له:
- إلا ده أنا مستعد أعمل أى حاجة . أبوس رجلك .
قبل أن أغلق فمى شممت رائحة نتنة تقترب منى و بجسم غريب يستقر بين فكى لم ألبث أن ادركت أنه قدم الضابط المكسو بجورب نتن .
لم أتمكن من تحريك فمى لكى أقبل قدمه . و سمعته يقول :
- إخترت اسم يا واد ؟
لم أتمكن من الإجابة . ثم سمعت لطمة و صوت أختى تصرخ :
- يا لهوى .
صرخت :
- أنا معترف بكل حاجة . أنا كنت عاوز أسرقه و لما قاومنى ضربته . و فقدت الوعى .

* * *

أظنك أيها القارئ لا تجرؤ أن تهتف فى سأم : إنه خيال كاتب، لن تجرؤ على ذلك بعد أن قرأت كل ما قرأت، ومع ذلك، فإن صنع الله ابراهيم لم يترك لنا ترف الشك فى ذلك، و إنما أورد عشرات المراجع فى نهاية روايته، وهو تصرف غريب لكاتب رواية، لكنه يصفعنا بالحقيقة البشعة. ولقد تعمدت إيراده قبل العسكرى الأسود، كى لا يظن القارئ ولو لوهلة أنه خيال كاتب، بل إن يوسف إدريس نفسه لم يكتب هذا العمل الفذ إلا بعد اعتقاله، فمن الطبيعى إذن أن نتناول العمل، لا كخيال أديب، ولا مشاركة إنسان يعترض على ما يحدث لإخوته فى الإنسانية، بل كتجربة شخصية للكاتب نفسه، وسحقا للنقاد جميعا إذا احتجوا بأننى أمتهن مدارس النقد أو أحطم معاييره.

* * *

فلنترك صنع الله ابراهيم إذن إلى رواية :العسكرى الأسود ، وهى رواية لم يفكر أحد أن يحولها إلى فيلم سينمائى، رغم أن

الإنسان فى يوسف إدريس قد جبن عن المواجهة الكاملة، فقدم روايته بما يفيد أن أحداثها قد وقعت فى عهد سابق وكان يمكن لهذا أن يكون بمثابة مبرر وحجة واعتذار لمن يتناولها.

أبطال الرواية القصيرة الدامية هم : الراوى (يوسف إدريس) والدكتور شوقى، وهو طبيب اعتقل وتعرض للتعذيب برأس الراوى، وعبدالله التومرجى وعباس محمود الزنفلى: العسكرى الأسود.

ولست أنقد العمل الأدبى، و إنما أترك لكم الحروف والكلمات والجمل شواظ نار تحرق، و أمام جلال الألم الوحشى المجنون لا أجرؤ ولن أجرؤ على التعليق.

الراوى يعمل طبيبا مع الدكتور شوقى فى مكتب حكيمباشى المحافظة: شوقى ذى الصفات الغريبة التى يقر أنه لا يفهمها. إن عبد الله التومرجى يلقى فى بداية الرواية بجملته القنبلة التى قلبت كل شىء رأسا على عقب :

— ده خلاص يابيه . . . الراجل بقى يهبهب زى الكلاب ويعوى زى الديابة.

ويتساءل الراوى(يوسف إدريس) عن الذى يعوى كالذئاب ويهبهب كالكلاب، فيخبره التومرجى عبدالله أنه عباس محمود الزنفلى: العسكرى الأسود ويشير حيث يجد الدوسيه الضخم الخاص به على مكتب زميله شوقى.

يتحدث يوسف إدريس عن شوقى:

كيف ذاكر وعلوم الطب تحتاج إلى الخبرة العملية والمران ؟ وكيف أجاب وكيف نجح؟ لا أعرف المهم أنه نجح، ومع هذا ظل مسجونا لا يفرج عنه ولا يقدم للمحاكمة ولا يواجه بتهمة. أشياء لا تحدث إلا فى عصور مظلمة، أو فى بلاد رغم العلم المضىء لا تزال فى تلك العصور . . .

هاهو ذا البطل لكن البطل صامت . . . غريب . . . كئيب . . . يحاول هو والزملاء استخلاص شوقى من الحالة التى انتابته بعد

خروجه من السجن، أن يستخلصه ليعود مرة أخرى البطل الذى عرفه، ولو حتى سار فى طريق تختلف كلية عن طريقه، فليس شوقى من تدفعه بضعة شهور من السجن للتنازل عن آرائه، إنه واثق أن شوقى ليس كذلك، رغم أنه يقابل كثيرا من زملاء السجن الذين كانوا متحمسين و قد خرجوا وقد طلقوا السياسة والوطنية وكل ما يمت إليهما بصلة.

لكن شوقى ليس شوقى، وذلك البريق فى عينيه كان قد اختفى. وكأنما اجتث من جذوره، بل لم يبق لعينيه حتى اللمعة التى تميز كل كائن حى، ليست عينا شوقى فقط ما تغير، الصوت أيضا، وثمة نظارة، ليست النظارة الطبية بل تلك التى تركب للخيل لكى لا ترى إلا فى إتجاه واحد. عصى هو على أى محاولات للفهم. هل تغير. لا. لم يتغير. ولكنه أصبح بالتأكيد إنسانا آخر غير شوقى الذى عرفه. إنه يخاتل وينافق ويكذب باستمرار وبلا سبب وبطريقة ساذجة مكشوفة تدفع للاشمئزاز، وحتى يسرق المرضى. إنهم يكتشفون أنه يسرق أيضا زملاءه فى بيت أطباء الامتياز. هل هذا هو شوقى. الزعيم والبطل المكافح. لا أريد أن أسرد كل ما كان يفعله شوقى فى سنة الإمتياز أو بعدها . . . العيادات التى افتتحها والنصب والابتزاز والنظرة الأفعوانية الغريبة التى كان ينظر بها إلى المرضى والناس، قاطع عائلته بعد التخرج وأبى أن يساعدهم بمليم، وكيف...، ومن...،... والطريقة البالغة الشذوذ التى تزوج بها والتى حصل بها على الدبلوم، و « سعى » حتى عين فى هذه الوظيفة فى مكتب حكيمباشى المحافظة، لا ولا بأى أسلوب وحشى كان يعامل رواد المكتب، وخاصة رواده من العساكر طالبى الإجازات، شاهدت مرة عسكرى يبكى أمامه بدموع حقيقية، يستحلفه ويرجوه ألا يكتب أنه متمارض حتى لا يحاكم ويخصم من مرتبه أيام، ولا يفعل الرجاء والإلحاح، ولا تفعل الذلة والدموع أكثر من أن تجعل شوقى يبتسم وتومض ملامحه فى غبطة، خطورتها أنها كانت حقيقية أيضا . . . كنت أرفض أن أصدق أن بضعة شهور من السجن تحيل إنسانا مهما كان من النقيض إلى النقيض. كان الواقع يؤكد لى أن شيئا هائلا خطيرا قد حدث . أنظر إلى شوقى وأدقق فيه وفى شخصيته فأحس وكأنه مجروح، لا ليس جرحا

صغيرا فى الصدر أو الرأس وإنما جرح جرحا شاملا من قمة رأسه إلى أظافر أقدام شخصيته. وأن ما أمامى ليس شوقى ولكنه الندبة الضخمة التى تخلقت عن الجرح . . .

ياللسخرية، لقد كنا بالأمس نعمل، وأملنا مؤكد أننا سننقذ الشعب كله، فإذا كل منا اليوم غير قادر أن ينقذ نفسه .

ينتبه الراوى من الذكريات إلى صوت التومرجى عبد الله وهو ينصحه بترك حالة المريض الذى يهبهب كالكلاب ويعوى كالديابة إلى الحكيمباشى فمشكلته معقدة. لكنه يتناول الملف من على مكتب شوقى ويشرع فى قراءته:

رحت أقلب صفحات الدوسيه الكثيرة أكثر من مائتى صفحة فى أولها شهادة ميلاد، وتوافق مضحك أن أجد أن عباس محمود الزنفلى صاحبها وصاحب الدوسيه قد ولد فى نفس العام الذى ولدت فيه، والذى يسبق مولد شوقى بأشهر، كنت أتصور صاحب الملف عجوزا أو على الأقل فى الأربعين، فإذا به لدهشتى من نفس جيلنا الحائر التعس، مضيت أقلب الصفحات . . . ما كان أشبه الملف بكتاب ضخم، عن حياة إنسان . . . حياة كان واضحا أنها من أولها مضطربة غير مستقرة لم تمش أبدا على الصراط المستقيم. خدمته نصفها الأول كله جزاءات تتراوح بين الخصم والتكدير وتقارير تمس السلوك -رغم الشهادة المرفقة بالمسوغات والتى يقر فيها إثنان من الموظفين أنه حسن السير والسلوك - ثم فصول أخرى تتعدد فيها حركته وتكثر التنقلات والانتدابات، وينتهى بذلك الخطاب المتوج بشعار مجلس الوزراء الذى يطلب نقله إلى حرس الوزراء. ومن تلك الصفحة لا خصوم ولا إنذار وإنما تفاجأ بقرارات بعلاوات، ثم أمر بترقيته إلى رتبة أومباشى، بعدها قرار آخر بترقيته استثنائيا إلى شاويش، ثم صورة من خطاب شكر وتقدير من وزير الداخلية. ثم صورة من قرار آخر بمنحه نوط الواجب من الدرجة الثانية « تقديرا للجهد المشكور الذى بذله فى أداء واجبه والتفانى فى خدمة مصالح الدولة العليا ».

وآخر الخطابات كان خطابا أرسلته المحافظة إلى الحكيمباشى تطلب فيه توقيع الكشف الطبى على نفس عباس محمود الزنفلى

لإثبات عجزه الكامل تمهيدا لفصله من الخدمة . . . وما كدت أنتهى من إغلاق الصفحة الأخيرة حتى كانت أذنى تلتقط أخريات الحوار الذى دار بين شوقى والتومرجى، والأخير يقول وكأنه يهم بإطلاعه على سر :

– عارفشى حضرتك عباس محمود الزنفلى يبقى مين ؟

وقبل أن ينطق شوقى أو يسأل، وجدت عبد الله يقول :

– ماهو ده اللى كانو بيسموه العسكرى الأسود يابيه. حضرتك ما سمعتش عليه والا إيه ؟

كنت رغم كل ما كتبته الجرائد عن العسكرى الأسود لا أكاد أصدق احتمال وجوده الحقيقى، بل حتى لم أكن قد صدقت عبد الله وهو يؤكد لنا أن عباس هذا هو العسكرى الأسود. . ويصمت شوقى فيرد هو على التومرجى :

– جايز . . .

إنما العسكرى الأسود كان بالنسبة لنا شىء تانى . . . شىء غير الحاجات الجنسية والكلام الفارغ اللى سمعت عليه . . . شىء تانى خالص.

ثم يغرق مرة أخرى فى تأملاته حول شوقى:

ولم يكن سكوت شوقى وعزوفه عن الحديث فى السياسة أو مزاولتها مثلا بسبب عقدة نفسية تكونت له أو خوف. كان ما حدث لشوقى شيئا آخر، شيئا يشبه خروج الفراشة من دودة الشرنقة، أو تحول الخشب بفعل النار إلى رماد . . . وليس معنى هذا أيضا أنه كان قد تحول الخشب بفعل النار إلى رماد . . . وليس معنى هذا أيضا أنه كان قد تحلل وفسد، بالاختصار كنت قد بدأت – خاصة فى الفترات الأخيرة – أتبين أنى كنت على خطأ، وأن محاولاتى لإنقاذ شوقى كان لا يمكن أن تأتى بنتيجة، إذ كنت أقوم بها باعتبار أن ما حدث لشوقى كان مجرد تغيير أصابة، من الممكن جدا أن يشفى منه... الحقيقة بدأت أدرك أنها غير ما كنت أتصور تماما، فشوقى الذى دخل السجن لم يخرج منه، وإنما الذى خرج شخص آخر له

مـزايا ومـضـار أخرى، وأقـول شـخص كنوع من التـبسيط لا أكـثر، فـالذى خـرج علينا كـان كائنـا غـريبـا أخطر مـا فـيـه أنـه لا يـخـتلف كثيرا عن شوقى الذى دخل، ولا عن ملايين البشر الذين كان يحفل بهم سطح الأرض حين انضم إليهم شوقى بعد خروجه، فهو يتكلم مثلهم ويغضب ويدبر أمور المستقبل ويحب، وحتى حين يتحاشى الخوض فى مواضيع بعينها لا يختلف عنهم . . . الفرق لا يتضح إلا هناك وبعد طول دراسة ومعاشرة واهتمام غير عادى بالموضوع . . . هناك حيث تدرك مثلما أدركت، أن الخلاف بين شوقى الجديد وبقية الناس يكمن عميقا، أعمق من طبقات التصوف، فى الدافع ربما، هناك حيث تدرك أن شوقى وإن ظل فى ظواهره بشرا، فهو فى حقيقته لم يعد يمت إلى البشر ولا إلى أنواع الآدميين المتعارف عليها من عقلاء أو مجانين أو مرضى أو شواذ، باستطاعتك أن تقول إنه خرج ليكون نوعا جديدا قائما بذاته، إذ قد خرج ليحيا بدافع جديد تماما على الجنس البشرى . . . فهو لا يحيا ليتكاثر أو يبقى أو يتطور، وإنما دافعه للحياة كان أن يهرب ويفر، وكأنه لم يعد يرى فى الجنس البشرى كله سوى جن وعفاريت همها أن تنقض عليه وتعقره وتفتك به. هم جميعا شياطين، وهو وحده الإنسان. أو هم جميعا بشر وهو وحده الشيطان الذى يعادونه ويتربصون به ولن يهدءوا حتى يقضوا عليه . . .

ما أغربه من كائن فقد أمنه البشرى وكأنما عقره كلب من نفس الجنس، وخيل إليه أنه نفذ بجلده من العقرة الأولى فجند نفسه وحياته ليتحاشى العقرة الثانية، وأصبح لا يرى فى البشر غير قطيع من ذئاب أو كلاب أو شياطين لا يستطيع أن يهرب من أرضها إلى كوكب آخر، أو يعتزلها فى جزيرة نائية. قطيع يتربص به فى كل مكان عليه أن يلقى أفراده فى كل وقت، ويحادثهم، ويربط مصيره بمصيرهم، وعليه أن يفعل هذا دون أن يبدو عليه الذعر. عليه أن يسير بينهم كما تمر بالمكان الذى يعج بالوحوش الخطرة ترتجف من الذعر، آذانك منتصبة تتلقى أوهى الأصوات، وكيانك كله مهيأ للجرى فى أى لحظة. ومع هذا فعليك أن تخفى كل ما بك، عليك أن تسير وتحيا دون أن يبدو منك أقل الخوف . تسير طبيعيا جدا مطمئنا جدا تؤكد نظراتك وتعبيراتك بأنك غير

خائف أو مهتم وأنك مبتسم، وأنك فرحان أحيانا وغاضب أحيانا أخرى، وإنك مثلهم بشر، أو مثل الكلاب كلب، بل حبذا لو بدوت أقوى وأقدر وأكثر ثقة بنفسك وقواك.. حياتك لا هدف لها ولا خطة ولا إرادة له فيها ولا يريد من خلالها أن يصل إلى أى مأرب بعيد أو قريب، إذ مأربه الوحيد أن يتجنب الخطر المتربص به كل لحظة، فيحيا اللحظة بلحظتها ويبنى حياته عن طريق أعمال يضعها فوق بعضها ليكون هرما شخصيا، ولكنه يبنيها إلى أسفل.. يحفرها تحت الأرض كجحور متشعبة ملتوية معقدة كلما أحس فى جحر منها بالخطر فر وانطلق ليكوِّن جحرا آخر، وغاية وقتية سفلية هروبية أخرى.. إنه يعرفك ويقيم معك الصداقة أو الزمالة إمعانا فى الهرب منك، ويحاذبك أطراف الحديث ليلهيك عن نفسك، وينافقك أو يصنع معك معروفا لكى يرشوك، ويتزوج كى يهرب من مسئولية عدم الزواج، ويعمل فى قومسيون طبى المحافظة لكى يفر من البوليس والمباحث حتى ولو كان الفرار إلى قلب البوليس. وهو لإدراكه أنه محاصر بالجنس الخطر فى مكان وزمان يواجهه وحيدا، إذا صرخ أو استغاث فلن يخف أحد لنجدته. بالعكس سيدركون جميعا أنه وقع ويلتهمونه حيا.لهذا فاعتماده الكامل على نفسه، هو أصدق أصدقائه، وصدره أنسب مكان لأسراره، وعليه أن يعمل جاهدا لكى يبقى أكبر جزء من نفسه بل بكل نفسه ورغباته وحذره وخوفه بعيدا جدا عن الأنظار، داخل نفسه وعليه أيضا ألا يبدو وكأنه يخفى شيئا، حبذا لو بدا كثيفا لا يظهر منه شىء على الإطلاق ! . حبذا لو احتوى كل دنياه داخله واختفى بكل ما يحتويه عن الدنيا !

تحددت الملامح الرئيسية لدور العسكرى الأسود فى حياة شوقى وزملائه . . . دوره الخطير الثانى الذى لا يمت بصلة إلى الإشاعات الجنسية التى أطلقتها بعض الصحف عليه حين انكشف أمره، وبعد زوال حكم الإرهاب وبداية مراجعة الجرائم التى ارتكبت فى ظله، كان عمل عباس محمود الزنفلى هذا أن يضربهم . . . يضرب بعضهم لكى يعترف، وآخرين لمجرد الضرب، وهد الكيان بالضرب بمختلف أشكال الضرب، بالعصى، بالكرابيج، بالحذاء، بالنبوت، باليد العارية المجردة . . .. ولم يكن أسود كما وصفته الصحف

وأفاضت، كان فقط غامق السمرة ومن الصعيد، وكان مجرد مرآه بالهالة المحيطة به من أبشع القصص يثير الذعر فى القلوب، كان طويلا أطول من قامة الكثيرين ولكنه ليس فارع الطول، وكان يبدوا دائما مزهوا بنفسه وبقوته حتى على زملائه إذا سلم على الواحد منهم ظل يضغط على يده- لمجرد الضغط- حتى يتأوه صارخا ويجثو . . . وحين يضرب كان من يراه لا يظن أبدا أنه يمت إلى الإنسان أو الحيوان بصلة، بل ولا حتى للآلة، فالآلة لا تبدو على وجهها المتعة المتوحشة وهى تضرب. ويا للحظات قدومه ودخوله العنبر ودوران مفتاحه في القفل، كانوا يعرفونها تماما وباستطاعتهم أن يميزوها عن غيرها حتى فى الحلم، ويستيقظون-رغم خفوتها- على وقعها. ومع كل دورة من دوراتها تدور دوامات سريعة فى صدر كل منهم يسقط فيها قلبه ويهوى . . . ترى من عليه الدور ؟ . صوت خطواته وهو يجتاز الفناء الأسفل! التسمع الرهيب لوقعها!، آذانهم وكيف تعلمت، علمها الذعر الأعظم، أن تتركز فيها الحياة كلها ويتضخم دورها لتصبح كل العقل، ولتستطيع أن تميز بين الخطوات الذاهبة إلى زنزانة ٧ فى الدور الأول والأخرى المتجهة عبر الفناء إلى السلم حيث الدور الثانى... ومن أول وقع لأول خطوة على أول سلمة عليها أن تعرف إلى أى دور فى نيته أن يصعد. فإذا اختار الدور عليها أن تدرك فى ومضة خاطفة أى الزنازين يقصد، كى تعد نفسها إما إلى الرعب الهائل المقيم، أقصى درجات الرعب، وإما استرخاءة مرعوبة هى الأخرى وتنهيدة حمد لله.

ويالخسة ضربه!، فى الحياه العادية حين يتشابك الناس ويتضاربون ليس هذا بضرب، فإحساس المضروب أن باستطاعته أن يرد الضربة يخفف كثيرا من وقع ما يتلقاه، والألم الذى ينتج عنها يتبخر فى الحال ويستحيل إلى حافز يدفع صاحبه للهجوم والانقضاض، بالاختصار أنت لا تشعر بالضرب حين تكون حرا أن ترده . . . أنت تشعر به هناك حين يكون عليك فقط أن تتلقاه ولا حرية لك ولا حق ولا قدرة لديك على رده... هناك تجرب الإحساس الحقيقى بالضرب، بألم الضرب، لا مجرد الألم الموضعى للضربة أو الألم العام الناتج عنها، إنما بألم آخر مصاحب أبشع... أقوى، ألم

الإهانة، حين تحس أن كل ضربة توجه إلى جزء من جسدك توجه معها ضربة أخرى إلى كيانك كله، إلى إحساسك وكرامتك كإنسان. ضربة ألمها مبرح لأنها تصيب نفسك من الداخل إصابة مباشرة لا يحجبها أو يخفف منها جلد أو لحم أو عظام أو حرية أو حق الإنسان أن يتصرف كالإنسان ويرد، وهذه كلها دروع لو تعلمون عظيمة. إن حرية الإنسان، حقه أن يرفض أو يقبل أو يرد الإعتداء، جزء لا يتجزأ من جسده وكيانه ولحمه وجلده وأنسجته الواقية الحية. هى ليست ملابسه أو جدران بيته التى تحفظ عليه ماء حياته كإنسان، وتحميه، وهى التى إذا انتزعت منه لا يموت كما يحدث للسلحفاة إذا انتزع غطاؤها، ليته كان يموت، ولكنه يبقى إنسانا منزوع الحق فى حماية نفسه والدفاع عنها، فما بالك إذا كان يرغم على أن ينتزع هو بنفسه هذا الغطاء، وتجبره القوة الغاشمة على السكوت، على تلقى الألم والسكوت ، حين يستحيل إلى كومة عارية من لحم خائف مذعور لا تستطيع أن تعض أو ترفس. عليها أن تتلقى الألم وتسكت عليه، والسكوت على الألم أشد إيلاما وإيذاء من الألم نفسه، خاصة إذا كنت أنت من تتولى إسكات نفسك... الضرب، هذا النوع من الضرب حين لا يبقى أمامك لكى تمنع ألمه وعاره إلا أن تحتمل وتصبر، أو تقتل نفسك وتنتحر، عمل لا يستطيعه ويقدر عليه معظم الناس. وحتى إذا قدروا فقانون الحياة نفسه يرفضه ويمنعهم من إتيانه، إذ كيف يعقل وأنت فى موقف تدافع فيه عن نفسك ووجودك أن تشرع فى قتل نفسك ومحو وجودك ؟ بالعكس، إن أبشع ما فى الأمر أنك لا تحتمل فقط وتصبر، ولكنك تزداد استمساكا بالحياة، وتصل بك حلاوة الروح إلى درجة مخجلة فى شدتها وقوتها، وهكذا فى مقابل كل ضربة هائلة الألم عارمة القسوة مهينة تتلقاها من الخارج، تنهال من داخلك وذات نفسك ألف طعنة. ألف طعنة ألف احساس مخجل مهين تمزق احشاءك وتذيب كماء النار روحك، لأنك لا تموت ولا تريد الموت ولاتزال حيا تتمسك ذليلا بالحياة.

والابشع هو مرآه .. مرأى الزنفلى عباس .. العسكرى الصعيدى الأسود.. وهو يضرب، ومنظره يستمتع بتخريب كائن حى وإنسان، والمضروب يتحول أمامه الى كتلة اللحم المذعورة

التى تصرخ فى فزع أعمى فلا يفعل مشهدها أكثر من أن يغريه بالضرب أكثر، والتمتع بلذة الهدم أكثر، فيمضى يضرب ويضرب سعيا وراء الفرحة الكبرى، كمن هدم جزءا من بناء ويسعى بمتعة وحشية كى يأتى عليه تماما.. الضرب، ذلك النوع من الضرب، حين يتحول المضروب الى أنقاض إنسان مذعورة، أنقاض تتألم. وبوعى تحس بنفسها وهى تتقوض الى أسفل، وبإرادتها الخائفة تمنع نفسها من أن ترد. ويتحول فيها الضارب الى أنقاض إنسان من نوع آخر، وكأنه إنسان يتهدم الى أعلى، يسعده الألم الذى يحدثه فى ابن جنسه، ويستمتع بارادة، وبإرادة أيضا يقتل الاستجابة البشرية للألم فى نفسه فلا يكف إلا ببلوغ ضحيته أبشع درجات التهدم والتقوض، وبلوغه هو أخس مراحل النشوة المجرمة التى لا يستطيعها من المخلوقات جميعها ولا يستمتع بها غير الانسان المنحط فى الانسان.

وكانوا يقولون أنه حين يضرب يفقد وعيه وصوابه ويصبح كالسكران أو المجنون إلى درجة لم يكونوا يجرؤون على تركه وحده مع الضحايا، فيلازمه فى عملية الضرب رقيبان عملهما التدخل فى الوقت المناسب لانتزاع المتهم حتى لا يفتك به عباس. وكانوا لا يستطيعون استخلاصه إلا بصعوبة وإلا رغما عن أنف عباس، وأحيانا بالتكاثر عليه وشل حركته وتكتيفه. وبهذا كان الرقيبان يختاران دائما من عساكر أقوياء أشداء. ورغم هذا ففى مرات كان يحدث أن يثور عباس عليهما ويأبى تسليم الضحية وينهال عليهما ضربا إن حاولا منعه..

ثم إن هذا المارد الجبار عقيم . وهناك علاقة ما بينه وبين الباشا رئيس الوزراء الذى كان معجبا أشد الإعجاب بقوامه الفارع المستقيم، وكان يعتبره نموذجا للرجل الكامل. إنه مرتش أيضا : ما أكثر ما دخل جيبه من نقود « مع كل عريضة تندس فى جيبه ما فيه القسمة ».

ثم يذهب الراوى مع الدكتور شوقى لعيادة المريض :

ولا تستطيع زوجته « نور » رغم الأسئلة الملحة ومحاولات التذكير أن تحدد بالضبط ماذا حدث، أو متى ؟ كل ما لاحظته أول

الأمـر أن عـبـاس كـان حـين يذهـب عنـه الأصدقـاء والـزوار ويصـبح البـيت خـاليـا إلا منـه ومنهـا يذهـب عنـه المرح والضـحـك الذى كـان غارقا فيـه، ويستمر على جلستـه المتربعـة منكس الرأس إلى أسفل، سـادرا فى حـزن مـفـاجىء لا تـعـرف سـبـبـه. يبـقى هكذا بالسـاعـة والسـاعـتـين لا يتـحـرك ولا يحـدثها ولا يغـيـر مـن وضـعـه، إنما كـان يحـدث بيـن كل حـين طـويل وحـين أن يـرفـع رأسـه فـجـأة مـسـتـلا من صـدره تنهـيـدة عـمـيـقـة قـائـلا : .. حكَمْ ! ثم يعـود رأسـه يسـقط ويـعـود الى الحـزن الشـارد الذى كـان فـيـه. حـتـى طـال الامـر وواتـتـهـا الجـرأة على سـؤالـه عـمـا بـه لـم تـظفـر منـه بـجـواب أو بقصص لابـد كـسـر فـيـهـا ذراع واحـد من السـاسـة أو هـشم أسـنـان آخـر ببـونـيـة، ومـاذا قـال لـه دولـة البـاشـا ومـاذا أعـاد وايـضـا لا تـعـرف "نـور" كـيـف أو مـتـى جـاء اليـوم الذى فـطـنـت الى الحقيقة التـى دوخـهـا اكتشـافـهـا.. أن عـبـاس لـم يعد عـبـاس.. لقد أصـبـح رجـلا آخـر لـم تـره أبـدا ولـم تـعـرفـه.. رجـلا آخـر بـطـبـائـع أخـرى ومـزاج آخـر.. غـريـبـا.

وقـبـل أن تكتـمل القصـة ونـعـرف منـهـا كـيـف مـرض مـرضـه الاخـيـر ومـاذا بـالضـبـط حـدث لـه فـوجـئـنـا بـشـىء روعـنـا حـقـا، وأنـا لا أذكـر أنـى من وقـت أن غـادرت مـرحـلـة الـطـفـولـة وكـفـرت بـالجـن رالـعـفـاريـت والأمـاكـن المسكونـة .. لا أذكـر أنـى خـفـت خـوفـا حـقـيـقـيـا. كـثـيـرا مـا اضطربـت مـثـلا أو دق قلبـى بـانـفـعـال خـائـف، ولكـن لـم يـحـدث أبـدا أن جزعـت وذعـرت. ولكـنـى لحظتـهـا خـفـت، بـل بـلـغ رعـبـى حـدا كـاد يـدفـعـنـى لـتـرك المكان والجرى بكل قـواى. مـا فـوجـئـنـا بـه كـان صـرخـة، أو هـكـذا ظننـاهـا أول الامـر، ولكـنـهـا لـم تـلبـث أن طـالت وتـغـيـر نـوعـهـا وتـحـولـت الى مـا يشـبـه الـعـواء، ولـوكـنـا فـى غـابـة أو حـقل لما روعـنـا ولحـسـبـنـا الـعـواء لذئـب.. ولكـنـا كـنـا فـى قـلـب الـقـاهـرة، وداخـل بـيـت، والـعـواء عـواء ذئـب ولـكـنـك تـدرك أنـه صـادر عـن رجـل.. وعـن رجـل لا يـمـزح أو يحـاول إخـافـتـك ولكـنـه يـعـوى حـقـيـقـة ويـعـبـر بـعـوائـه عـن أشـيـاء مـكـتـومـة داخـلـه تـنـقـطـع نـفـسـه وهـو يـنـتـزعـهـا عـلى هـيـئـة عـواء مـتـصـل مـسـتـمـر لا يـمـكـن أن تـفـرق بـيـنـه وبـيـن الـعـواء الحـقـيـقـى لـذئـب.

(وعلى حـين غـرة يـفـاجـئـون بـشـوقـى يـنـدفـع الصـالـة نـحـو حـجـرتـه ليـصـرخ فـيـه:)

- ما تستعبطش.. ما تعملش انك ناسي.. مش فاكر العنبر ؟ مش فاكر علق الساعة خمسة ؟ مش فاكر دور تسعة ؟ مش فاكر النبابيت ؟ مش فاكر الكرباج ؟ مش فاكر الدم ؟ فين كرباجك وديته فين ؟ فين صراخك ياوحش فين ؟ فين نعل جزمتك الحديد ؟ فين كفك ؟ فين صوابعك ؟ فين النار فين ؟ بص لى وانطق واتكلم وصرّخ.. صرّخ زى زمان ..سمعنى صوتك.. صرّخ يا عسكرى ياسود بص لى وانطق واتكلم وصرخ.. ماتعملش ناسى وان عملت أفكرك.. حالا أفكرك..

ولا اعرف كيف استطاع شوقى فى تلك الومضة المتناهية الصغر من الزمن أن يخلع جاكتته وقميصه، ويرفع فانلته ويكتشف ظهره، ويا لهول ما وقعت عليه ابصارنا. ولم يكن فى ظهره مكان واحد له شكل الجلد أو مظهره. كل جلده كان ندوبا بشعة تمتد بالطول والعرض وتتجمع فى هضاب مندملة وتكشف عن مناطق غائرة، فى قاعها تكاد تبدو عظام الضلوع. مشهد بشع يجعل القشعريرة تسرى فى جسدك، لا لمجرد مرآه وانما لتساؤلك عن القسوة المتوحشة التى أحدثت كل ما تراه. لكأن ذئبا مجنونا أو غولا قد أعمل أنيابه وأظافره فى ظهر شوقى نهشا وتقطيعا وفتكا. فى جزء من الثانية كان قد فعل هذا، فعله وهو يستدير ليواجه عباس بنظره وصراخه لا يكف :

- إذا كنت نسيتنى فمش ممكن حتنسى.. مش رح تنسى اللى عملته. دلوقتى افتكرت ؟

وكما بدأ فجأة كفّ فجأة عن عرض ظهره واستدار وهو يصرخ :

- لازم تفتكر كويس ما تنساش، أنا مش ناسى، ولا حد ناسى، ولاحد ناسى، ولاحد حينسى، انطق واتكلم واصرخ وقول انك فاكر، انطق.

وروعت لما حدث.. للطريقة التى كان شوقى يصرخ بها، للصوت العالى المزعج، للهدير، للصراخ وكيف ظل يعلو، وللكلمات المفهومة وقد بدأت تصبح غير مفهومة غير مفهومة أو متبينة. ثم كيف، لعلوها بدأت تفقد شكل الكلمات ويصبح كل ما يصدر عنه

آخر الأمر مجرد خيط متصل طويل مكون من أشياء لاندرى إن كانت حقدا أو أنينا أو تألما وبكاء، وكيف بدأ خيطها يتلوى ويستحيل إلى شيء يشبه العواء، بل إلى عواء حقيقى، عواء مرتجف مستغيث لا يحتمله بشر...

والشيء المخيف أن كل هذا كان يصدر عن شوقى، وأننا كنا أنا وعبد الله والزوجة قد أصابنا الشلل لا نعرف ماذا نفعل، ومنظر شوقى يجعلنا نؤمن ألا قوة فى الوجود تستطيع أيقافه، لا عن الصراخ والعواء ولا عن قتل عباس الزنفلى، ولا عن قتل أى منا لو أراد..

أما عباس فقد ظل يسكب على شوقى نظراته الميته ولا يتحرك له جفن، ولكن ما كاد صراخ شوقى يستحيل الى عواء حتى رأينا كأن بارقة إدراك قد تحركت فوق سطح العيون الميتة، أعقبتها فى الحال اهتزازات عاصفة لم تلبث أن تكشفت عن نظرة ذعر راحت تتعمق وتتعمق وتصبح رعبا هائلا مقيما.. رعبا جعل الحياة تدب ايضا فى الجالس، المكوم نصف جالس، وتدب على هيئة خوف، فبدأ ينكمش على نفسه وينكمش، ويزحف بعيدا الى آخر الفراش، ويصغر حجمه ويتكور. ولم أكن أتصور أن الانسان فى انكماشه يستطيع أن يصل الى هذه الدرجة من الصغر، الدرجة التى تكاد تعتقد معها أنه لو استمر ينكمش بنفس السرعة لتلاشى حالا واختفت الكرة الانسان عن الوجود، وربما رعبه هذا وانكماشه هو الذى جعل شوقى يطارده ويتقدم فى اتجاهه ويتضخم كلما رآه ينكمش، ويقترب كلما ابتعد، مطاردة لم يوقفها الفراش فقد ارتقاه شوقى واستمر يتعقبه ويصرخ فيه ويعوى ولا يكف. ربما رعبه الهائل ذاك هو الذى حال، من ناحية أخرى، بين شوقى وبين الانقضاض عليه وإزهاق روحه.

لم يكف شوقى عن تقدمه وعوائه إلا حين فجأة فتحت الكرة البشرية الملتصقة بالحائط، والتى لم يعد لها مجال للتراجع، فتحت فمها وأطلقت ذلك العواء المزعج الذى أخافنا ونحن فى الصالة، عواء اختلط بعواء شوقى وعلا حتى أسكته، وحتى أوقفه فى مكانه لا يتكلم أو يصرخ أو يصدر عنه صوت. عواء مرعوب

أول الامـر يسـتـغـيث، ثم باك، ثم عـال مـجنون مـرتفع. ثم.. ثم فـوجئنا بما لم نكن نتوقع ابدا ..بالعواء ينقلب الى هبهبة كهبهبة الكلب، وبالكرة البـشـرية تنفـرد ويمـتـد منهـا فم طويل وينفتح وينـغلق فى كل اتجاه ويهبـهب هاو هاو هاو..وامـتـد الفم مرة وكاد يقضم كتف شوقى، وجزع الاخيـر وبدا وكأنما قد عاد الى وعيـه، وفـى قفزة كان قد غادر مكانه فوق الفراش ليصبح بعيدا عن الفم الطويل المفتـوح على آخـره. ولم تنقطع الهبهبة، بل حدث ما هو أكثر .. أطبق الفم المفتوح على يد الزوجة القريبة منه وبدأ يلوكها بين أسنانه ويضـغط كمن يهم بالتـهـامـهـا واحتـملت الزوجة قليلا وهو ترجوه أن يتـركها، ولكننا وجدناها فـجأة- وكأنما أدركت أن يدها على وشك أن تتمزق- تطلق صرخة أعلى من كل عواء وهبهبة، تعقبـهـا بصرخات سمعنا على أثرها دق الجيران على البـاب، بل فـوجئنا ببعضـهم وقد اقـتـحم الحجرة ودخل.. أكثر من رجل وامرأة وفـى أذيالهم أطفـال. ورغم وجـودهـم ووجـودنا لم يجـرؤ أحـد على الاقـتـراب من عبـاس وانتـزاع يد نور من الفم المطبق عليـهـا، ولم ينقذها إلا عـودة الفم للهبهبة وزوال إطبـاقتـه. ووقفنا جميعا وقد انضـمت الزوجـة الدامـعـة اليـنا، وبيننا وبين الفـراش مسـافـة نتـرقب مـا يحـدث .. نتـرقب عـبـاس وقـد بدأ يضـرب الفـراش ويهبـهب ويعوى ويغرس أظافـره وأنيابه فى قماش المرتبة ويمزقه، ويمضغ القطن، ويزداد هياجه يبدأ بضرب وجهه بكفه كمن يلطم، ويعمل أظافـره فى جلده تجريحا وتمزيقا. ونحن ننظر إليه ونعتقد أنه فى الدقيقة التالية سيهدأ فلا يهدأ، وكل ثانية تمر تزيده هياجا إلى درجة أرعبتنا وجعلت كلا منا يفكر فى مغادرة الحجرة، لولا أن عبـاس أهوى بفمـه على لحم ذراعـه النحيلة التى كانت تبـدو من كم الجلبـاب الممـزق، وظل يضـغـط وينظر إلينا بعيـون ملتـهـبـة تحتـرق، ويضـغط ولعابه قد غطى الذراع العارية ومن كثـرتـه بدأ يتساقط ويسيل وهو لا يكف عن النهش والضغط وكأنما هو لا يحس أو يتـألم، أو كأنما الألم يدفـعه الى مـزيد من الهيـاج وغـرس أسنانه فى اللحم. وكـان لابد أن يحـدث مـا حـدث، وأن تدير النسـاء وجـوهـهن، وأن ندير وجـوهنا مـعـهن، مـا عـدا شـوقى فـقـد لمحتـه لا يستـدير، وإنما يظل يتـفرس فى وقـفـة مستمتعة مريضة بما يراه،

وحين عدنا مرة أخرى نواجه عباس تبين أننا لم نكن قد تحاشينا الكثير باستدارتنا، فقد وجدنا وجهه قد ارتفع عن الذراع حقيقة، ولكن الدم كان يتساقط من فمه ويختلط بلعابه، إذ بين أسنان الفم التى كانت قد انفرجت عنها الشفاه كانت هناك قطعة لحم مدماة، القطعة التى كان قد نجح فى نهشها من ذراعه، ذراعه التى كانت لاتزال فى مكانها فوق ركبته، ومكان العضة فيها قد أصبح جرحا متهتكا بشعا، وكان عباس الزنفلى لا يزال رغم وجود قطعة اللحم بين أسنانه يعوى ويهبهب بصوت مكتوم، وكأنه ينزف من صوته والدم قد بلل عواءه وخنقه.

* * *

الغريب أنى كنت فى تلك اللحظة بالذات قد اكتشفت أن على الحائط المجاور للفراش بروازا فيه شهادة معلقة، حروفها تلمع تحت الزجاج المتسخ، والأغرب أنى وجدت نفسى أترك كل ما يدور فى الغرفة وأنهمك فى قراءة ما فى الشهادة، ولم تكن شهادة . . كانت براءة نيشان الواجب من الدرجة الثانية، فيها نفس الكلمات التى قرأتها فى نفس الملف، والتى كان بصرى قد ألغى كل شىء حوله وتوقف عندها، وبالذات عند كلماتها « تقديرا لتفانيه فى خدمة مصالح الوطن العليا »!

* * *

وفيما عدا هذا كفتنى بضع جلسات مع شوقى أن أؤمن أن الحالة التى رأيته عليها وملأتنى بالأمل كانت كصحوة ما قبل الموت، وأن ما حدث له من تغيير والكائن الجديد الغريب الذى أصبحه طريق لا يمكن الرجوع منه، لا يمكن أن يعود الجلد الطبيعى مكان الندبات التى يحفل بها ظهره. أجل ! أدركت ما فاتنى إدراكه طوال سنين.. أدركت أن شوقى وقد فقد أمنه البشرى مرة لن يعود أبدا مثلنا مرة أخرى.

الفنانون والشرطة: كأسك يا وطن !!

ضبطت نفسي غارقا في حب مصر متلبسا بالتعصب لها عندما قرأت على غلاف رواية عبد الرحمن منيف : مدن الملح الكاتب والناقد الكبير جبرا ابراهيم جبرا يصفه بأنه سيد الرواية العربية فهتفت في جزع وغيرة : ومن يكون نجيب محفوظ إذن؟ .ثم ما لبثت أن عاتبت نفسي على تعصبي ذلك ، خاصة أنني كنت أنتقد أسامة أنور عكاشة في تعصبه للدراما المصرية فطفقت أعدد أوجه براءتي :

* أنني انفعلت ذات الانفعال بل أكثر عندما وصف الدكتور حسن حنفي راوية راشد بأنها تعدت نجيب محفوظ، فعلق فاروق عبد القادر قائلا إنها نزوة شيخ و أزمة مراهقة !!(أرجو ألا يعتبر دعاة التنوير هذه الفقرة تكفيرا لحسن حنفي).

* أنني أكن تقديرا لا حد له لعبد الرحمن منيف الذي لم يظفر للأسف بما يستحق من تغطية نقدية في بلادنا – اللهم إلا في نقد فاروق عبد القادر المستقطر من الرماد والجمر–(هل يشكل فوزه بجائزة الرواية في مصر– دون محاولة جادة لنشر أعماله – اعتذارا؟.

* أنني في مجالات أخرى أشهد بجماع قلبي للعرب غير المصريين، و أناواحد من الناس مثلا يرون أن الفارق بين دريد لحام وعادل إمام كالفرق بين نجيب محفوظ وراوية راشد.

عادل إمام، ذو الملامح المصرية الحميمة المفتقرة للجمال والتناسق الخارجي والتي طمعنا ذات يوم أن توازي في جمالها الداخلي جمال أحدب نوتردام، ظللت لفترة طويلة أظن أن أعماله الأولى بمثابة المسودات والتجارب و أنه كطيار يجرب آلات طائرته وممرات مطاره قبل أن يقلع، وأن أعماله الكبرى لاريب آتية ، لكن الأمل فيه أثبت أنه حمل كاذب، أو مات قبل أن يولد،

فانضم إلى قطيع ضخم يمثل وعينه على السلطة ، وفى اللحظة التى استوى فيها على عرش الزعيم كان كل الجمر قد انطفأ والرماد قذى فى عيوننا ، ذلك أنه توقف عن القيام بدور حقيقى فى تمثيل ضمير الوطن ، واستعاض عنه بأن يمثل أنه يمثله، وكشفت الأمة اللعبة، أما شباك التذاكر فشاهد زور لا يعتد بشهادته. هاتوا نجيب محفوظ فى ندوة وهاتوا فى ندوة مجاورة نادية الجندى أو فيفى عبده وقارنوا عدد جمهور هذاوجمهور تلك تعرفوا مدى التزوير. لقد أحببنا عادل إمام ورجونا أن يكون إمام الممثلين العرب فى الكوميديا لكنه خذلنا، أحببناه حتى أننا اعترضنا على الشيخ عبد الحميدكشك عندما قال قولته الشهيرة عن السادات : إنه يقول أنه إمام عادل وأنا أقول أنه عادل إمام، اعترضنا على مقارنة رمز محبوب برمز ممجوج.

لقد وقف عادل إمام مع الجانب الآخر فى قضية الشرطة والتعذيب، وشهدت أفلامه إسفافا وامتهانا لرموز الأمة ومقدساتها حتى أصبحت اللغة العربية الفصحى أو تحية السلام فى أفلامه من سمات ومعالم الإرهاب، إنه يختلف فى ذلك عن أحمد زكى وممدوح عبد العليم، فى الفيلمين الجيدين : زوجة رجل مهم و البرىء.

دريد لحام لم يخذلنا كما خذلنا عادل إمام، وقد شاهد المتفرج المصرى فيلميه الحدود والتقرير اللذين يضن التليفزيون بإعادة عرضهما لصالح فيفى عبده وأضرابها، ولست أدرى إن كان قد عرض له مسرحية كأسك يا وطن أم لا، لكن الذى أعرفه أن كثيرا من المثقفين اشتروها من الخارج على شرائط فيديو أو سجلوها من محطات عربية و أخذوا يتبادلونها كإكسير للحياة ، كغذاء نقى لملكات النحل، يخلو من السموم والمبيدات التى تمتلىء بها البضاعة المحلية.

المسرحية تضحكك دامعا وتبكيك و أنت تقهقه، وفكرتها (نفس الفكرة التى اقتبستها مسرحية مساء الخير يامصر بطريقة فجة) هى محطة إذاعة عربية تذيع العديد من البرامج مابين المسلسلات ونشرات الأخبار والبرامج الترفيهية.

أنظر مثلا إلى هذا المشهد وقد اعتقلوا دريدلحام لتهجمه على

السلطة، وفى السجن يضعونه على خازوق مكهرب فينفجر فى ضحك لاينتهى فيسأله الجلاد مندهشا عن سبب ضحكه فيصرخ :

- وصلت الكهرباء إلى مقعدتى قبل أن تصل إلى قريتنا !!

فبهذه الجملة الخاطفة يلخص دريد نحام مأساة بنى يعرب فى انتقاءاتهم من تكنولوجيا الغرب، أما المسئولون، كبار المسئولين فليس أمامهم من مجال لإثبات كفاءتهم إزاء الغرب إلا فى الفخر بفحولتهم - المؤججة بعقاقير الغرب- أمام غانيات الغرب، هذا هو مجال التفوق الوحيد ولا مجال سواه.

أنظر إليه فى مشهد آخر من المسرحية، إذ بعد أن يضرب زوجته ضربا مبرحا يأخذ فى الاعتذار لها بأسلوب بالغ العذوبة والسخرية، إن رجال الشرطة يضربون الرجال، والرجال لا يستطيعون رد الضربات لرجال الشرطة، فما عليهم إذن إلا أن يردوا الضرب إلى زوجاتهم.

فى مشهدآخر يقرر أن يبيع أبناءه ،يكتشف أن سعرالبشر فى السوق أرخص من سعر الكلاب لكنه يصر على بيعهم بأى ثمن أو بلا ثمن، أما حجته الدامية أمام من يستنكر فعله فهى أنه لا يبيعهم لينتفع بثمنهم ولا حتى ليسعدوا فى بيئات أقل قسوة من بيئاتهم ، بل يبيعهم لأنه مع تسارع تدهور الأمور فى بلادنا التى تتقلص وتنكمش كل يوم فإنه يخشى عليهم - بعدعمرطويل - ألا يجدوا عندما يموتون قبرا ، ثم يصرخ فى معاتبه قائلا:

- باعوا أوطاننا فكيف تدهش إذا بعنا أبناءنا !!.

فى نهاية المسرحية نقف أمام ذلك المشهد الفاجع الجليل الذى يذكرنا بصورة ما بنهاية رائعة عبد الرحمن الشرقاوى ويوسف شاهين : فيلم الأرض . نقف أمام جرس للتليفون يدق بإلحاح على دريد لحام الثمل وهو يعب الخمر الذى اشتراه بثمن أبنائه -والخمر هنا مبرر دراميا وليس للاستخفاف والتفاهة والسفه كما فى أفلام عادل إمام - غير مبال فيأمره صوت جهير فى غضب أن يرد على مكالمة خارجية فيصحو قليلا من انسطاله ظانا أن مايسمعه مجرد هلاوس لسبب بسيط هو أنه لا يملك تليفونا !!

لكن الصوت يلح فى نفاد صبر أن المكالمة من أبيه الشهيد إذ يطلبه من الجنة. ويدور الحوار الفاجع بين شهيد ٤٨ وابنه، إن نعيم الجنة لم ينس الشهيد تباريح أشواق الوطن، كما أنه يريد الاطمئنان على مصير القضية التى استشهد من أجلها، فيخفى الابن زجاجة الخمر خلف ظهره ويحاول مداراة سكره عن أبيه، ويجيبه إجابات ملفقة، ويخترع له أحداثا ويختلق ما لم يحدث حتى يظن الشهيد أن كل مشاكل الوطن قد انتهت وأن الأمة اتحدت وفرضت أخلاقياتها السامية ومثلها العليا على العالم الذى كان وحشيا ، وفى دوامة الخجل العنيف من الشهيد يزايد البطل فيؤكد أنه أفطر فى بيروت وتغدى فى الخرطوم ويتعشى الآن فى أبى ظبى، فقد انتهت الفرقة العربية ومضى زمن التشرذم وشملت الدولة المتحدة الكبرى جميع الدول العربية ، ويتساءل الأب فى تردد قائلا:

- هناك سؤال أخجل منه ، ماذا حدث لإسرائيل ؟؟

فينفجر دريد لحام فى عذاب ساخر :

- ألا تخجل من نفسك يا أبى و أنت تسأل هذا السؤال بعد خمسين عاما من الكفاح والنضال والتضحيات ، اسرائيل انتهت منذ زمن طويل بعد أن ألحقنا بها هزائم فادحة.

ويواصل الشهيد تساؤلاته ، ويواصل دريد لحام أكاذيبه التى تتعقد خيوطها حوله حتى تكشفه فيصرخ معترفا لأبيه بالحقيقة، بيعت الأوطان وازدادت الفرقة وتتالت الهزائم ، وحتى هو قد باع أبناءه - أحفاد الشهيد - واشترى بثمنهم زجاجة خمر لم يبق منها إلا رشفة واحدة هى الباقية من القضية كلها.

ثم يرتشف الرشفة الأخيرة ويصرخ :

- هاقد انتهت القضية ياأبى !!.

ولا تملك بعد نهاية المسرحية إلا أن تهتف :

هذا هو الفن الجميل.

شرق المتوسط

في أنظمة الحكم الفاسدة، يتحول الحكام إلي قراصنة، و يستكين نقاد الأدب إلي مراتع البغايا، كل همهم ألا يسيئوا إلي أي من القراصنة الكبار أو الصغار، بتقريظ ما يكدر صفوهم، فيزورون عنه، إلي تقريظ ما يدلك مشاعر هؤلاء السادة، فذلك ما يضمن لهم هم أنفسهم المزايا و المنح و الظهور و النشر، بل و جوائز الدولة.

و في مثل هذا الجو، المسموم الخانق الملوث، تكون الأعمال الأدبية كالبيض، يطفو الفاسد منه و يغرق الصالح.

رواية شرق المتوسط للكاتب الكبير عبد الرحمن منيف لقيت ذات المصير و التجاهل من النقاد و إن احتفل بها القراء.

شرق المتوسط ، ليس ثمة إسم وطن، الكل سواء أمام بطل الرواية:"رجب" الذى لم يفرجوا عنهإلا بعد أن أوشك علي الموت من التعذيب، بعد أن حطموه، و أرغموه على التوقيع على ما يريدون.

تقع رواية شرق المتوسط فى ستة فصول، الأول والثالث والخامس علي لسان بطل الرواية " رجب إسماعيل و الفصول الثلاثة الأخري علي لسان شقيقته " أنيسة ".

من الميناء يبدأ الفصل الأول و البطل المهزوم يستقل السفينة: "أشيلوس" كي يسافر إلي الخارج للعلاج، حيث يبدأ الفصل الأول علي لسان بطل الرواية:

"أشيلوس تهتز ، تترجرج، تبتعد بحركة ثقيلة تشبه رقصة ديك مذبوح (...) و ضجة البشر في تلك الساعة المليئة باللاجدوي أشبه ما تكون بأصوات جراء مخنوقة(...) ميناء الشقاء و يا ليته ميناء اللاعودة، آخر قطعة من أرض الوطن، و آخر أوراق خضراء و أنين". "لماذا انفجر داخلي هذا العواء الأجرب؟ ؟ لماذا ؟ لماذا؟". (...) تبرير فلسفى أبله، سأشد السيفون في المرحاض و أترك كل شئ ينسحب

إلي تحت : أفكاري الفلسفية، أحلامي، ماضي، اسمي، كل شئ، نعم كل شئ".

تنكسر نفس البطل و نستمع من الحروف صوت الهشيم، لقد استسلم أخيراً، بعد خمس سنوات من المقاومة و الصمود لم يعد يحتمل الأعوام الستة الباقية فوقع لهم علي وثيقة استسلامه، توبته أمام المباحث، حتي و هو علي مشارف الموت يتأهب للسفر للعلاج لا يتركونه و شأنه، مصاصون للدماء سفاحون و قتله و ليس يرضيهم أن تفلت الفريسة و ما تزال فيها قطرة دم، إنهم يسمحون له بالسفر للخارج و لكن بشرط أن يرسل لهم أخبار الطلبة.

قبيل السفر، وبعيد الإفراج عنه، في البيت، تلقاه أخته أنيسة، تنفرج عيناها من الدهشة و الفرح، "أريد أن أنام يا أنيسة"، في غرفة النوم تتوقف عيناه علي صورته في الشهادة علي الجدار فيهتف "ليس بيننا أي شبه". ثم ينظر إلي المرآة و الصورة في نفس الوقت و يقول في نفسه :" إن أحد هذين قد مات".

في السفينة التي يرحل فيها من الوطن تفور الذكريات موجاً كالجبال ، يتذكر ما حدث له في المعتقل :"لما تعب من الشتائم أجلسنا علي الأرض، و بدأ يخاطبنا بحذائه. وضع قدمه علي رقبة إبراهيم من الخلف و داس بكل ثقله حتي وقف فوقه، و ترك قدمه الأخري تهتز في الهواء".

لكن التعذيب لم يكن ما هزم رجب:" لكني لم أنته، بل انتهيت. كانت عيونهم الضاحكة و هم ينظرون إلي الأغا يطوي نهايتي الورقة، كانت كلمة الرجل الغريب وهو يعرض عليّ التعاون معهم ، نهايتي. .لا لم أنته ، المرض هو الذي قتلني، أريد أن أستريح مؤقتاً.. لم أعد قادراً ، للإنسان قدرة معينة علي الاحتمال ثم يتلاشي ، و أنا، هل ينكر أحدكم كم تحملت خلال السنوات الخمس؟ من منهم تحمل مثلي؟ الضرب، السجن الانفرادي، التعليق في السقف، المياه الباردة في الشتاء (...) ماذا أستطيع إذا انهار جسدي؟ إرادتي لم تتداعِ، لم تنهر في أي يوم . . تحملت أكثر منهم، و هم يعرفون ذلك تماماً، يتذكرون ذلك الغروب . . كانت الجمعة، موعد الزيارة الأسبوعية، جاءت أختي و عمتي . . أما أمي فلم

تأت.. كانت أول مرة تتغيب .. و لم تقولا لي كلمة واحدة، أحسست.. صرخت أسألهما ، بكت أختي فجأة و عرفت كل شئ."

"بعد وفاة أمي بسنة سقطت هدي. كانت هدي أقوي الآمال التي تشدنا إلي الحرية، كنت أتصورها مثل بطلة الأساطير، لا تمل أبداً من الانتظار. لكن لم تنتظر، قالت لي في آخر رسالة : أنا مرغمة علي الموافقة يا رجب، و لكن سأحتفظ بالذكري إلي الأبد. . أي نفع من الذكري يا هدي ؟ هل تدفئ السجين. ؟"

أما شقيقتي أنيسة فقد دمرت حياتي ، جعلت أيامي الأخيرة في السجن جحيماً. كانت تنقل إليّ حقارات العام الخارجي و انتهاءه: باسل جنّ و أصبح يدور في الشوارع عارياً. . خالد فقد عينه نتيجة الضرب، و عينه الأخري مهددة، و محسن. . ألا تتذكر محسن؟ لقد أصيب بالشلل، و عندما حملوه إلي البيت و رأته أمه ماتت!(...) نعمان انتحر، و لكن الناس يقولون إنهم قتلوه".

"وأصمت لكن العالم الخارجي يظل في رأسي كتلة نار راكضة. . هل هذا العالم موجود فعلاً؟ هل ما زال الناس يذهبون إلي دور السينما؟ يضحكون؟ يجلسون في الحدائق ؟ و السيارات ألا تزال تسير في الشوارع؟ و الباعة والمتاجر و المتحف؟(...) هل ما زال العالم الخارجي موجودا بالفعل؟".

ليس الشرطي فقط هو الجلاد إذن، ولا الحاكم فقط، و لا النخبة فقط، بل جميع هؤلاء الذين يساهمون في أن تسير الحياة سيراً عادياً خارج السجون و داخل السجون . فماذا يحدث ؟ الجميع وقع ورقة الإستسلام و التوبة داخل نفسه، الكل موصوم بالعار، و الكل مات حياً كما مات رجب و هو حي، حتي أنت أيها القارئ .

و هو في الفراش الدافئ يوم الإفراج، تدخل عليه أنيسة فيصطنع النوم و يحدث نفسه :" انظري . . انظري يا أنيسة. . ليس رجب هو الذي تراه عيناك الآن ، مات رجب، وقع بنفسه شهادة الوفاة، كانت الساعة تقترب من السادسة، عندما ارتجفت يده لثانية ثم سقط، الإنسان الممدد علي السرير الآن المطفأ العينين، الصامت، لا علاقة له بذاك الذي كان من قبل . . آه لو لم تكوني

أختي يا أنيسة، و أنت يا هدي ، لو كنت امرأة أخري، لو أن ذلك حدث ما سقطت".

الكل يخون أو يستسلم إلا أمه(دعونا من تفسير أي نوع من تفسير الرموز الآن فجلال الآلام لا يسمح بشريك): "قالت أمي وهي تشد وجهها لكي تخنق الخوف و الحنان: إسمع يارجب ، أنا أمك وأنت قطعة من لحمي، و ليس في الدنيا أحد يعزك مثلي. . لكن لا تسمع كلام عمتك . . ماذا تقول للناس ، لأصدقائك، غدا إذا اعترفت و خرجت؟ الحبس يا ولدي ينقضي. . إفتح عيناً و أغمض عينا، تمر الأيام ، وتبقي رافعا رأسك. إذا اعترفت فكلهم سيقولون خائن، و لا تستطيع أن تنظر في وجه أحد. . خد بالك يا ولدي.. . لماذا مت يا أمي ؟ لماذا تركت أنيسة الضعيفة لتكون نافذتي علي هذا العالم، آه لو أن لي أختاً غيرها!، و أخي لم يزرني مرة واحدة، قال لأنيسة ذات مرة ، يريد أن يصلني كلامه: رجب لم يعد صغيرا، قلنا له ألف مرة أن يترك الأعمال الصبيانية و لم يسمع. . الآن ، إذا تعهد أن يقدم براءة فهو أخي ، و إذا لم يفعل فلا هو أخي و لا أنا أعرفه".

أول ما يفكر فيه بعد الإفراج أن يزور قبر أمه، ليقول لها كيف حصل الأمر و لماذا حصل، وتحدثه أنيسة بإيجاز كيف ماتت :"إنهم قتلوها . . كانوا يطردونها عن بوابة السجن، هي و الأمهات الأخريات ، مثلما يطردون الكلاب، كانوا يضربونهن بالعصي، يشتمونهن، كانوا يقولون عنهن بغايا و قوادات، و لا يتورعون عن شيء أبداً. . ".

في الفصل الثاني من الرواية تتحدث أنيسة . . بحر من العذاب و الدموع. . إنها تحاول خداع رجب كي لا تنكأ جراحه، إنه يسألها "كيف ماتت أمي يا أنيسة؟" فتجيبه: "لقد مضي علي موتها ثلاث سنوات و نسيت. (...) كنت أريد البكاء ، كانت لدي عشرات الأسباب، و تصورت أنني إذا تركت لنفسي الحرية في البكاء فقد أنقذ رجب أيضا، كنا ، نحن الإثنين، بحاجة أن نغتسل بالبكاء، و لا يهم السبب الذي نبكي من أجله، فقد كانت قلوبنا تمتلئ بالأحزان لدرجة أن أي شئ يكفي لأن يكون سبباً (...) هل أتركه يفلت و يبقي يتعذب؟ لماذا لا نبكي معاً، و من أجل أمي هذه المرة، لكي يغسل

نفسه و يعود إنسانا آخر؟(. . .) أتعرف كيف ماتت أمي يا رجب؟ لماذا ماتت؟ رأيت في نظراته إشعاعاً غاضباً نفذ إلي أعماقي، تابعت قبل أن يجيب: لقد قتلوها يا رجب! و دفنت رأسي في الفراش و أخذت أبكي، لا أتذكر أنني بكيت هكذا في حياتي كلها. في لحظة تجمعت آلاف المواكب الحزينة، و ضغطت علي رأسي بقوة، حتي تصورت أن رأسي سينفجر، لكن و الدموع تنزف من عيني بغزارة، رأيت المواكب الحزينة تتفكك، تتباعد ثم تبتعد، و ظلت أمي و هي تعود في ذلك اليوم، عند العصر، الصورة الوحيدة المملوءة بالأسي. لما رفعني و مسح دموعي، أحسست أنه استغل لحظات بكائي، و أنا أدفن رأسي في الفراش و بكي هو الآخر. كانت عيناه حمراوين، لم يكن فيهما دموع، و كان وجهه محتقاً من الألم وشدة الإصفرار، أما السيجارة فقد ظلت وحدها علي المنفضة تتابع بداخلها مشهداً بائساً، قلت له و في صوتي بقايا دموع مضطربة: هم الذين قتلوها يا رجب، لولاهم لكانت حية الآن(...) قبل موتها بعشرة أيام . . كان يوم الخميس ، ذهبت مع نساء و أمهات المعتقلين لمقابلة وزير الداخلية، لا أعرف من الذي أقنعها بالفكرة، لكن خلال أيام لم تهدأ و لم تتعب و هي تتنقل من بيت إلي بيت، حتي تجمع عدداً من النساء، و يوم الخميس ذهبن لمقابلة الوزير. لم يسمح لهن بالدخول، أو بمقابلته. و لا أعرف من اقترحت ألا يتركن المكان حتي يصلن لنتيجة، كشفن عن رؤسهن ، و نفشن شعورهن، و بدأن الصراخ و العويل، و قد صممت كل واحدة منهن أن تموت. . أن تعرى موقف الشرطة ، بدأوا بالضرب، بالصراخ، لكن لا فائدة، ولما حاول الوزير الخروج هجمن عليه، و يبدو أن الضربة التي تلقتها علي أضلاعها عجلت بنهايتها، قبضوا عليها و علي عشرات أخريات، وفي النظارة كانوا وحوشاً، ضربوها، أهانوها، شتموها. . وأبقوها حتي اليوم التالي، بعد أن عرفوا اسمها . و جاءت تراجع من أجل مَنْ . عادت إلي البيت عصر الجمعة و بدا لي كل شئ منتهياً. أصابتها الحمي منذ تلك الليلة، و كانت صحتها تزداد سوءاً، و تنهار كل يوم، ولم تتكلم إلا قليلاً، كانت تشتم و تدخن، و بعض الأحيان تبكي، أحضر حامد ثلاثة أطباء، أعطاها الأول إبراً، و الثاني طلب إجراء تحاليل لها ثم اقترح أن تنقل إلي المستشفي، أما الثالث فقد

وصل بعد أن ماتت بخمس دقائق . . . "

* * *

لقد كنت أتصور إذ بدأت الكتابة عن رواية شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف أن أفرغ منها في صفحات قليلة، لكن كل كلمة في الرواية تحاصرني ، تطاردني، تهمس لي أنه من الإجرام أن أتركها، إنني لا أقدم لك أيها القارئ نقداً و لا سرداً، و لا أدغدغ مشاعرك كي تستمع مسترخياً بعذوبة الأدب لتهتف في نهاية الرواية في نشوة: الله، ثم تنصرف إلي شأنك، لا أفعل ذلك ، بل وددت لواستطعت، أن أمسك كل إنسان علي اتساع رقعة العالم العربي، بل الإسلامي، بل العالم كله، أمسكه، لأسكب داخله الرواية كما انسكبت داخلي، ذوباً من الرصاص المنصهر، أود لو أري كل قارئ يبكي ، ينتحب، يصرخ تلك الصرخات الهائلة التي أطلقها رجب و يخبط رأسه في الجدار كما خبط، ثم يخرج، إلي الشارع، إلي العالم ، ليقول لهم إن ما ورد في رواية عبد الرحمن منيف رغم ضراوته، رغم بشاعته، رغم روعته، لا يكاد يقاس بما يحدث في السجون و المعتقلات في بلادنا.

كنت أعتزم الإنتهاء من الرواية في صفحات قليلة، فقد كان عقلي البارد ينبئني أنك أيها القارئ سؤوم ملول، أنك من فرط عدم تأثير الكتابة تجمدت و يئست، تقرأ سطراً وتترك عشراً، لكن حجم الألم الذي حاصرني في القراءة الرابعة للطبعة التاسعة من الرواية، يجعلني أود لو أحاصرك بها كما حوصرت، يجعلني أتمني لو أن الأمر كان في يدي، إذن لجعلتها مرآك في التليفزيون صباحاً و مساء و مسمعك في المذياع بلا انقطاع، لا لتهتف إعجاباً بالكاتب بل لتصرخ في وجه الظلمة متذكرا أنه في بلد واحد من بلاد شرق المتوسط هي للحزن بلادنا، يوجد ستون ألف معتقل، لكل منهم رواية تضارع شرق المتوسط.

كنت أحسب أن أفرغ من الرواية في صفحات قليلة، لكن من منكم يستطيع منع بركان ينفجر، أو إعصار ينطلق أو حبس طوفان دموع حين ينهمر.

* * *

لو كان لي من الأمر شيء . . لأمرت باحتجاز رؤساء الصحف و مسئولي الإذاعة و التليفزيون و مخرجي السينما . . بل ومجلس الوزراء أيضاً . . و لم أكن لأحتجزهم في سراديب الشيطان التي يسمونها معتقلات أو سجوناً . . بل في فندق من ذوات الخمس، لا لأعذبهم بالصعق و التعليق و الجلد و التجويع و الموت . . بل لأقرأ عليهم رواية شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف . . و لو كان لي من الأمر شيء لأحضرت جميع المخرجين و المنتجين . . و استغللت -لمرة واحدة فقط علي سبيل الإستثناء - سلطات الحاكم العسكري، لآمرهم بتحويل هذه الرواية إلي عشرات الأفلام السينمائية بمختلف الرؤي، و إلي مسلسل تليفزيوني من ستين ألف حلقة، كل حلقة تحكى رواية معتقل، وإلي ندوات في المذياع لا تتوقف، ولو كان لي من الأمر شيء . . لأمرت بإلغاء كافة المواد المنشورة في كافة الصحف ذات يوم . . الأخبار والمقالات و الإعلانات و حتي الوفيات . . لتنشر هذه الصحف في حداد جليل . . فقط صفحات رواية " شرق المتوسط ".

لقد فجرت رواية كوخ العم توم لهاريت بيتشرستو المجتمع الأمريكي كله و أدت إلي تداعيات هائلة كان من بينها الحرب الأهلية الأمريكية لتسفر بعد ذلك عن تحرير العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية كلها . . ثم بعد ذلك في العالم كله . . أما آن لنا نحن العبيد أن نتحرر.

عبد الرحمن منيف، ذلك الكاتب العبقري، ولد في عمان عام ١٩٣٣، والده من نجد في السعودية، و أمه عراقية و تعلم في عمان وبغداد و القاهرة و عمل في سوريا ولبنان، و نفي نفسه إلي فرنسا، ثم عاد حيث يعيش إلي الآن في دمشق . .

لا يرصد منيف التدمير للفرد المعتقل . . ولا يكتفى كيوسف إدريس ببيان أن الجلاد أيضا يتحطم ويتقوض، بل يتجاوز ذلك إلي التدمير الذي يحدث للأسرة . . ثم الدائرة الضيقة حول الأسرة ثم إلي التدمير الذي يحدث للمجتمع كله . . إلي السوس الذي ينخر في بنيان الدولة حتي تتداعي . . إن ذلك الإجرام و تلك الجرائم التي تهدم الفرد . . و تميته، تهدم الأمة و تميتها، و تهدم

الدولة و تقضي عليها.

ولقد حرص عبد الرحمن منيف في روايته علي إغفال الهوية السياسية لبطل الرواية " رجب إسماعيل، ليس مهماً توجهه، وليس مهماً أيضاً توجه السلطة الحاكمة . . لكن المهم حقاً . . هو أن تلك الممارسات التي تحدث . . هي إجرام مروع . . لا يكاد يفلت أحد من المجتمع من وصمته، وكلما كان نصيب الفرد من المسئولية والسلطة أكثر كانت جريمته أكبر.

ولنواصل الرواية، إن رجب يوشك على السفر للخارج للعلاج من آثار التعذيب ، وهاهى ذى أنيسة تحادثه قبيل السفر:

قلت ضاحكة و أنا أهزه لكي يقوم :

- لن أفشي أسرارك لأحد، تأكد من هذا تماماً.

- حتي لو ضربوك ؟

- حتي لو ضربوني،

- لو استعملوا الكهرباء ،

- لو استعملوا أي شيء.

- تكذبين .

- أكذب ؟ .

- نعم تكذبين . . الإنسان يقول أنه لن يقول شيئاً،أما إذا بدأوا يضربونه، إذا استعملوا أساليبهم، فإنه سيقرر في تلك اللحظات.. و كيف يقرر ؟ إن جسده هو الذي يقرر، الإرادة في تلك اللحظات تموت ، تخبو، و الجسد و حده هو الذي يفعل كل شيء!

- و هل تحملت كثيراً قبل أن تقول يا رجب؟

بصق علي الأرض، و قام.

ماذا كان شعوره بعد أن رآهم يعيدون عليه الكلمات التي قالها جسده، و هو يتلوي تحت كلماتهم و كرابيجهم؟

كان من الواجب أن أرغم رجب علي أن يقول شيئاً، لكن يبدو هذا مستحيلاً الآن . . لماذا لم أسأله في الأيام الماضية ؟ لماذا تركته وراء الستائر في غرفته العجوز يعلك ذكرياته وحده؟ إن الإنسان مهما كان قوياً، لا يعادل ذبابة إذا كان وحيداً ! رجب كان وحيداً، هو الذي إختار أن يكون كذلك، لكن لماذا يختار و يقرر وحده؟.

كنت أصنع القهوة لما أخذ يحلق، كان الصمت ممتداً مثل جسر من الموت، لم أكن أسمع سوى تمزق صوت الماء و هو يتقلب في الوعاء ويغلي ، تذكرت الأوراق من جديد، و كنت أضع القهوة في الماء المغلي و أتذكر .

* * *

وننتقل مرة أخرى فى الفصل الثالث إلى رجب :

اهتزي اشيلوس. اهتزي أكثر، تحولي إلي حوت ، إذا أصبحت حوتاً، انتفضي فجأة، اقلبي البشر، و عندما يطفون حواليك موتي، ممسوخي الوجوه، التقطيهم واحداً بعد الآخر : ازدردي المخلوقات التائهة ، و الذكريات ، و لحظات السقوط ، أتسمعين اشيلوس ما أقوله لك ؟ يجب أن تسمعي كل الكلمات، إذا سمعتها جيداً سيزول الندم، ستنقضي لحظة التردد، و تفعلين . اشيلوس يا صديقتي . . يا صديقتي ، أنت لم تري السجن ، لو رأيته يوماً لتغير صوتك، كانوا يريدون صوتاً ، مجرد صوت ، يصرخون : " قل كلمة يا إبن القحبة".. و اصمت ، و لا أقول شيئاً . . و يضربون . لو عرفت السجن يا أشيلوس لتعلمت كيف تصمتين. لو توقف صوتك دفعة واحدة ، فإن الرعب سيشلهم ، سيموتون. " قل أي شيء يا ابن العاهرة ، أشتم . . أما أن تظل صامتاً مثل الجدار ، فسوف تغرق في البول حتي تموت ". ولا أجد شيئاً ، أي شيء لأقوله ، و أصمت. " ألا تعرف أين ذهب نجم؟ خد ، خد ". الزبد يتطاير حول أفواههم كما يتطاير حولك يا أشيلوس. العيون تنتفخ من الدهشة و الغضب. " يجب أن تتكلم يا قواد . . سأعلمك كيف تقول كل شيء . لن تعيش هذه المرة " ! كان جسدي يرتعش ، يتمزق يتحول إلي كلب لا يتوقف عواؤه . . " و الآن ماذا تقول ؟ ألا تعرف أين نجم ؟ " قل لهم شيئاً يا رجب، إكذب عليهم ، لا لن أقول كلمة واحدة . أصرخ و قد

احتقن وجهي و أحس عيني تخرجان : " إسألوني عن نفسي يا كلاب". " و أخيراً بدأت تتكلم . . من أنت يا مـــ(...) حتي نسألك عن نفسك ، نريد هادي ، نريد نجم ، أين يختبيء هادي ، قل لنا ياابن القحبة ! " و أصمت. لو عرفت السجن يا أشيلوس يوماً واحداً، لعرفت الصمت، لتحولت إلي صوت ينتفض في الشمس ويأكل الحشرات التي تحوم فوقه . . سيأتي يوم تقفين في ميناء مهجور مثل سجين قال كل ما عنده، ولم يكتف أحد . سيغادرك كل شيء، حتي الجرذان ، و إذا هبت ريح تميلين علي هذا الكتف ، ذاك الكتف و تغرقين . . لم يتركوا لك فرصة لكي تغرقي في البحر الكبير ، في أعماق المياه الخضراء ، سوف يجرونك حتي تصلين إلي ميناء مهجور ، و هناك يجردونك من ثيابك ، من الذكريات ، ويتركونك وحدك تموتين . . لا تنسي ما أقوله لك يا أشيلوس !

آه . . ما ألذ أن يموت الإنسان و هو قوي . كانوا خائفين لدرجة الرعب عندما مات هادي ، لم يصرخوا في وجوهنا مثلما كانوا يفعلون . صمتوا . . نحن الذين سألناهم . صرخ زيد في وجوههم : "أين هادي أيها القتلة ؟ لا تظنوا أن دم هادي يذهب دون ثمن " . لم يقولوا شيئاً . . ظلوا ينظرون إلينا بصمت و الخوف يمزق أحشاءهم.

" دون أن نسألك . احك كل شيء ، يجب أن تعترف ، الأفضل أن تعترف . لماذا تصمت مثل النعجة ؟ هل أنت خائف ؟ كما قلت لك إذا اعترفت لا أحد يمد يده ، أما إذا لم تعترف الآن فسوف أجعلك تعترف مثل كلب. أتعرف كيف يعوي الكلب ، ستعوي أكثر منه "

قلت لهم وقلبي يرتجف :

- ماذا تريدون أن أقول ؟

- إبدأ من يوم ما جئت من (. . .) أمك .

في إحدي الجلسات قال هادي ، و هو ينظر في وجوهنا بصرامة :

- يجب أن تعرفوا منذ البداية ، الطريق طويل و صعب ، من يجد نفسه غير قادر فليقل الآن ، لن نلوم أحدا إذا تخلي الآن ، أما

بعد التوقيف و السجن ، فأي اعتراف ، أي انهيار ، سوف يجعل من المعترف و المنهار خائناً . . أتسمعون ما أقول لكم ؟

مددوني علي طاولة، كنت عارياً تماماً، وجهي باتجاه الأرض ، ورأسي يترنح من الضربات ، لا أعرف أي عدد من السجائر أطفأوها في ظهري ، علي رقبتي ، داخل أذني و في إليتي ، كانوا يضحكون أول الأمر ، و أنا أحاول الدفاع عن نفسي بساقي الطليقتين . رفست مرتين أو ثلاث مرات ، و لما حاولت في المرة الرابعة حزموا رجلي بقوة ، و بدأوا يصرخون إعترف . . إعترف ياابن الزنا " .

أتذكر أني قلت لهم : لا أعرف شيئاً ، و لن أقول لكم يا كلاب !

انهالت عليّ آلاف الضربات بالكرابيج و الأحذية . ضربوني بأحذيتهم علي وجهي المتدلي ، قفز واحد منهم فوق كتفي ، و كانت يداي مربوطتين وراء ظهري . شعرت أن عظامي تتمزق و رقبتي تسقط مثل خرقة . . و صرخت :

– لا أعرف . . لا أعرف شيئاً !

إرتفع صوت الغناء ، و وضعوا عصا غليظة بين إليتي ، هل كانت دماغي تنفجر في مكان ما و تترنح بسخونتها ؟ هل كانت قطرات من البول ؟ هل كانت شيئاً آخر !؟

" أتتصورون أن الإنسان إذا قال شيئاً ينتهي الأمر ؟ لا ، الكلمة الأولي بداية لسلسلة من الإعترافات . . و أي تأخر في الإعتراف ، في الإجابة ، يثيرهم أكثر من الصمت . لا أقول لكم هذا الكلام إلا عن تجربة . . جربت نفسي ، و رأيت الذين جربوا العكس . الخرزة الأولي و بعدها ينفرط كل شئ ! ".

كانت الحفلة تبدأ في الثانية عشرة ليلاً ، في الواحدة ، و تمتد حتي الخامسة، متي ينام هؤلاء الناس؟ هل ينامون فعلاً و لماذا في هذه الأوقات بالذات؟ كانوا يضربون الباب بأرجلهم الثقيلة، يصرخون في الظلمة ، و كل دقيقة تأخير، كل كلمة إحتجاج ، وحتي النظرة كان يقابلها في الطريق عقاب .

- عصبوا عينيه . . وضعوا رأسه في الكيس.

يمكن للإنسان أن يحتمل كل شئ . حتي الضربات التائهة التي لايعرف من أين تأتي، يمكن للجسد أن يتحداها . . سقطت مرات كثيرة من الضربات . كنت أظل علي الأرض ، لكي أتعبهم و هم يرفعونني ، كنت أتباطأ أثناء الوقوف لكي أدمر أعصابهم . . وتتوالي الضربات . بالأيدي ، بالأحذية ، بالعصي . كانوا يضربونني علي وجهي ، ثم مباشرة علي ساقي . يضربونني لكمات علي بطني ، فإذا شددت عضلات بطني تحسباً للضربات التي ستأتي ، أسمع وشيشاً في أذني ، ثم لهباً ينفجر من خصيتي!.

- ألا تعترف ؟

- ماذا تريدونني أن أقول ؟

- قل كل شئ في بطنك يا ابن القحبة !

وضعوني في كيس كبير، أدخلوه في رأسي ، و قبل أن يربطوه من أسفل ، أدخلوا قطتين . . هل يمكن للإنسان أن يتحول إلي عدو للحيوان ؟ و القطط ماذا تريد مني ؟ كانت يدي مربوطتين إلي الخلف ، كنت مستلقياً علي وجهي أول الأمر ، و كلما ضربوا القطط و بدأت تنهشني ، و حاولت أن أنقلب علي جانبي ، أحس برجل ثقيلة فوق كتفي ، عليّ ، و أحس الأظافر تنغرز في كل ناحية من جسدي .

لما فكوا الكيس ، كنت أريد أن أري القطط ، كنت أريد أن أحفظ صور أعدائي الجدد. تراكضت القطط المذعورة ، كأنها خرجت من الجحيم . كنت دامي الوجه و أحسست بالنزف من عيني اليسري.

ضحكوا كثيراً . . لما رأوا دمائي . . استلقي نوري علي ظهره ، كان يضحك من الفرح و اللذة ، و بعد أن مسح عينه من آثار الدموع ، قال لي :

- ما رأيك بهذه الحفلة ؟ ألا تعترف ؟

لم أستطع أن أجيب. كان جسمي يلتهب . يتمزق من الألم. لا

أعرف هل حركت كتفي، أم أتصور ذلك.

قال لي و هو يجرني ناحية الباب:

- عندي آلاف الوسائل التي تجعلك تتكلم مثل الببغاء . . هل تتكلم ، أم تريد أن تجرب ؟

كنت في ذلك الوقت مستعدا لأي شئ ، ليفعل نوري ما يريد ، سوف أقتله بصمتي ، يجب أن أعاقبه بالطريق التي تقتله.

أمسك أصابعي بقوة ، و دفعها بين شقي الباب و بدأ يغلقه بهدوء. لما صرخت بصق في وجهي ، قال بتشفٍ :

- هل رأيت ؟ هذه واحدة من ألف .

- لا تتعب نفسك يا نوري . . لن تظفر بكلمة .

كان يجب أن أظل صامتاً

- و الله يا إبن الكلب ، يا . . . سأجعلك تتكلم في نومك . . .

- حاول !!.

هل كانت تلك أقسى الليالي ؟ أطولها ؟ جرب نوري كل الوسائل، و ضعني خلف درفة الباب المفتوحة ، و ضرب الدرفة بقوة أول مرة . أحسست رأسي ينفجر ، شعرت أن أضلاعي تخرج من عيني، و لم يسألني شيئاً ، بدأ يغلق الباب بهدوء ، و شعرت أن أضلاعي تتكسر ، لم أعد أقوي علي التنفس ، شهقت عدة مرات من الألم و من الرغبة في أن أعب الهواء قبل أن ينتهي.

- هذه بداية . . ماذا تقول ؟.

لم يكن ينتظر جوابا ، كان يريدني أن أمر علي كل وسائل التعذيب قبل أن يسألني . قال لي :

- سأجعلك هذه الليلة أعجوبة . . لا أريد منك كلمة واحدة ، وسأرفض غدا، و بعد غد استقبالك ، لا أريدك أن تتكلم من الألم ، أريدك أن تقول كل شئ و أنت مرتاح تماماً .

لو طلب مني أن أخلع ملابسي تلك الليلة لما فعلت. قررت دخول الرهان مع نوري حتي نهايته ، و لو دفعت حياتي ثمنا لهذا الرهان. قال لعبد :

- إنزع ملابسه و حضر حبل.

كانت مقاومة بائسة أقرب إلي العبث ، بعد دقيقة أو دقيقتين وجدت ملابسي كومة إلي جانبي و أنفاس عبد تلهث في ظهري ، وهو يشد الحبل حول يدي. ماذا يستطيع هذا الخنزير أن يفعل؟ البكارة ؟ أن يدعو عشرة من حراسه و يفعلوا ما يشاؤون . . هذا أقصي ما يستطيع . . سمعت القصة أكثر من مرة . هددني نوري أكثر من مرة ، قررت أن أموت تلك الليلة . ليفعل نوري أي شئ . لم أعد أطيق أن أظل حيا يوما واحدا.

أية روح أبالسة يمكن أن تعيش في الإنسان ؟ لا أريد أن أتصور أي وصف ، أية كلمة لأقول أن نوري هو كذلك .

أمسك مثل طبيب بخصيتي . بدأ يضغط بهدوء أول الأمر، ثم شدهما بعنف إلي أسفل ، أحسست بروحي تخرج من حلقي ، لا يمكن لإنسان أن يحتمل هذا الألم كله . . تركهما . . أحسست بهما ثقيلتين ، متدليتين كأنهما أجزاء زائدة غريبة ، و بدأ الألم يتسرب إلي أمعائي حاداً مثل سيخ النار . . لا أعرف من أين أتي بذلك الدبوس الكبير ، كان أكبر دبوس رأيته في حياتي . . أشعل عود ثقاب ، أشعل سيجارة ووضع الدبوس فوقها . . تمنيت في تلك اللحظة أن يغرسه في قلبي . . لو فعل لإنتهي كل شئ . لكن إبليس المجنون العابث لا يريد أن يقتلني . . من جديد رأيته يمسك خصيتي و يغرز الدبوس الأحمر . . يا رب . . هل تسمع و تري ؟.

بصقت في وجهه من الألم و التحدي . كنت أريد أن أفعل أي شئ قبل أن أموت . لقد فعل نوري كل شئ ، ألا أستطيع أن أرد عليه مرة واحدة ؟.

أحسست بجراحي تزغرد من الفرح لما رأيت البصقة تنحدر بهدوء من عينيه إلي خده ، قريباً من الأنف . أذهلته المفاجأة ، لم يستطع أن يفعل شيئاً أول الأمر ، ثم لما أحس بالبصقة تقترب من

فمه ، مسحها بظهر يده . كان مجنوناً في تلك اللحظة . ضربني بحذائه علي وجهي ، ما تزال العلامة باقية حتي الآن ، ضربني علي بطني ، ضربني بيده و قدميه ، حتي تعب ، كان الآخرون يتابعون دون أن يقولوا كلمة ، لكن عندما جلس ، هز رأسه بطريقة معينة ، تأكدت بعدها أن حياتي انتهت . إنقض عليّ عبْد و أبو خيري، إنقضا مثل وحوش مجنونة ، و كأنهما ينتظران تلك الإشارة . . أتذكر أن وجهي إصطدم بالحائط و بدأت الدماء تغسلني ، و لا أتذكر بعد ذلك إلا و يداي مربوطتان بالسقف و أتدلي .

أشيلوس ، يا بقرة بيضاء مقطوعة السيقان ، ألا تعرفين كم مرة يموت الإنسان و كم مرة يولد ؟ التفتي إلي الشاطئ الشرقي، لتغْزُرْ دموعك في الأماكن المظلمة ، و انظري إلى بقايا البشر . . الضحايا و الجلادين . . بقايا البشر .

إحذري يا أشيلوس إن عدت يوماً للشاطئ الشرقي . . سيجدون لكي سرداباً أصغر من القبر ، و هناك يجب أن تطاوعي الجنون والوحدة ، لقد جنت المخلوقات هناك . . القطط مجنونة لا تقترب من البشر ، لا تهرهر مثل قطط المناطق الأخري ، تجفل من الخطوة ، من قطعة الخبز ، و نداء الحرية عندها أقوي من نداء الجوع . . لقد جنت القطط تماماً ، و البشر المجانين يلاحقون القطط ، يقبضون عليها ، يدخلونها في الأكياس مع البشر ، يضربونها و يضربون البشر ، تموء ، تصرخ ، تمزق بمخالبها كل شئ .

كنا أربعة عشر رجلاً . . نعم أربعه عشر . الغرفة لا يمكن أن تستقبلنا إلا وقوفاً ، وقوفاً تماماً . كانت الأجساد متراصة ، رائحة العرق ، رائحة الأفواه ، الشعور الطويلة ، الأظافر السوداء من بقع الدم المتخثرة تحتها ، علي هذه المسافات المتناهية الدقة لا يمكن للإنسان أن يري شيئاً . . طرف الوجة قطعة لحم صماء لا تعني وجهاً و لا جزءاً من وجه ، الأنف كتلة كبيرة تنتفخ و تتقلص في محاولة لأن تسحب الهواء، و الشفاه رغم كل شيء تنفرج عن أسنان يخيم علي أقسامها السفلي سواد الدخان ، و يخيم علي أقسامها العليا السواد المصفر . . لكن كنا أربعة عشر رجلاً ، و أن يكون الإنسان داخل هذه الكتلة من البشر ينتابه فرح أخرس ، كل هؤلاء البشر . .

بشر حقيقيون . . حقيقيون تماماً . . أنفاسهم ، الحركة المتموجة، الضحكة . . الصغيرة، كنا بشر حقيقيين، كنا أربعة عشر .

الأخبار ؟ انتظر ، سيطول الإنتظار أيها المسافر ، ستموت قبل أن تسمع الكلمات التي تنتظرها . شاطئ المتوسط لا يلد إلا المسوخ و الجراء . . و أنت تنتظر الخيول والسيوف ! . . انتظر ، سيظل هذا الشاطئ يقذف كل يوم عشرات الجراء ، مئات الجراء، و حتي لو وصلت أعدادهم إلي الآلاف ، فستظل جراء تعوي في السراديب ، أو تموت في المزابل . لأنها تريد ذلك! . إسمع الأخبار ، وحدك ، لا أريد أن أسمع . . يكفيني ما سمعت !. كانوا يوقفون التعذيب عندما تحين ساعة الأخبار . كانوا يحرصون أن يسمعوا مقدمة النشرة . . حتي إذا إطمأنت وجوههم ، أداروا المفتاح ، و بدأت الموسيقي من جديد ! .

آه . . لو ظل الشاطئ الشرقي للمتوسط بركة للتماسيح ، لو ظلت الكهرباء بعيدة . . لكن جاءت هذه اللعنة لكي تقتل البشر .

الكهرباء . . الموت الحقيقي ، ينخض القلب ثم يموت . كانوا يضعون التيار علي الأكتاف ، قريباً من القلب ، فوق الأنف ، بين الإليتن . . و ينتفض القلب ، يترنح ، يتوقف ، . . و يتوقفون . . مئات المرات فعلوا ذلك . . لو أنهم شرفاء لدرجة كافية لوضعوه ثانية أخري و انتهي الأمر . لكنهم لا يفعلون . .

التلفزيون ، المراوح ، الثلاجات ، الفواكه المعصورة ، أي شئ يمكن أن تولده الكهرباء ؟ أن تمنحه الحياه ؟ شكراً لله أني لا أعرف أسرار المخلوق العجيب ، لو عرفت الاستعمالات التي تمتد إليها الكهرباء لصعقت من الخوف ، لأني لم أمتحن إلا أستعمالاً واحداً : الارتجاف ، الإحساس الحاد المتوتر بأن كل شئ قد انتهي . . ثم والمياه تصفعني ، و أرتعش رعشة الحياة هذه المرة ، وما أن أجر أنفاسي إلي الداخل ، لكي أتأكد أن رئتي ما تزالان تستقبلان الهواء حتي أشعر بالارتجاف من جديد . . أحسه كاوياً مجنوناً ، وأغيب . . و ما تكاد رعشة الحياة تعاودني مرة أخري ، و أتنفس الهواء إلي الداخل حتي أغيب .

"- هل يمكن للإنسان أن يعيش بهدوء في هذا البلد اللعين ؟ لا أحد ينجو ، الذي يعمل في السياسة و الذي لا يعمل ، الذي يحب هذا النظام و الذي لا يحبه . . بلد مجنون و يجب أن يدمر ! ".

- "لن تطول هذه الفترة . . كل الذين أعرفهم يقولون أنها لن تطول ، رغم البيانات و الكلمات الكبيرة ، و رغم الحكومات الجديدة ، فإن كل شئ سيعود إلي ما كان عليه ، و ربما أسوأ . . و خلال فترة قصيرة ! ".

"لست متأكداً مما يجب أن أفعله . سأدرس الأمر جيداً قبل أن أفعل أي شئ ، لكن أتصور السكوت الآن جريمة كبري ، جريمة يدفع ثمنها الناس المنفيون علي شاطئ المتوسط الشرقي ، بتقديري جميع الناس ، و لكن أكثرهم السجناء السياسيون" .

ماذا بعد يا أنيسة ؟

الأفكار أكثر من أن تحصي ، الأحاسيس في قلبي تولد العذاب واللوعة ، و أي إنتظار ، أي سكوت مشاركة ، بشكل أو بآخر مع الجلادين ، صفعات توجه لجميع البشر ، خاصة للسجناء!.

" من علمك أن تقول هذه الكلمات ؟ قل لنا يجب أن تقول " .

و نسمع النواح ، كان نواحاً طويلاً تتخلله شهقات الماء الممزوج بالملح و هو ينسكب علي الجروح ، مثل السكين و هي تنغرز في القلب نسمع أنيناً موصولا لا نهاية له .

أمين بائع الجرائد ، ذو الوجة الفرح و الصوت القوي ، و الذي يبيع أكثر من الباعة الآخرين ، كان مع الجريدة الصماء الباردة يبيع الكلمات . . كلمات البشري . أمين أتوا به . . كنا نسمع نواحه، ثم أنينه ، ظل ثلاثة أيام في زنزانة لا تبعد عنا أثر من خمسة أمتار ، ثم مات ! أمين لا يعرف إلا سلاح الكلمة ، يقرأ أثرها في وجوه الرجال ، في لهفة أيديهم و هي تمتد إلي جرائده ، و من أجل الكلمة قتلوه . كانت رائحة الزنزانة و هم يفتحونها ليخرجوا جثته ، مليئة بالقيء و الدم و رائحة الغواط ، و من فتحة القضبان رأيناهم يحملونه : الزرقة و الدم اليابس و الكلمة التي انتهت إلي

الأبد !.

يتذكر رجب إسماعيل تفاصيل ومبررات استسلامه، فتسقط جميع المبررات ولا يبقى سوى استسلامه وسقوطه:

" أرجو أن تسمحوا لي بالموافقة علي السفر للعلاج في الخارج بناء علي توصية الطبيب ، لأن مسئولية موتي في السجن ، تقع عليكم ، و أتعهد أن أتوقف عن أي نشاط سياسي "

كنت أحس دبيب الموت يسري في جسدي ، و عربدت في رأسي تلك الفكرة المجنونة ، فكرة أن أقول الكلمة الأخيرة قبل أن أودع هذه الحياة . في السجن لن يتاح لي أن أقول الكلمات التي أريدها ، و حتي لو بقيت في الوطن لن يتاح لي أن أتكلم ، لم يبق أمامي إلا أن أتعهد و أسافر . . كان أمامي المرض . . ثم الموت . هل أموت قبل أن أقول شيئاً ؟ والتعهد ؟ لا لن أعمل في السياسة ، لديّ ما أفعله في مجالات أخري ، سلاحي الأخير الكلمة لعلها تكون طلقة الرحمة لي و لهم ، و نموت معاً !. دبيب الموت يمد لسانه في دمي ، يحول الدم إلي قيح ، و يعبر مسامي كلها ، حتي إذا وصل إلي رأسي جعل كل ما أفكر فيه له رائحة القيح و لزوجته !

و من أجل الكلمة سافرت ، ركبت البحر الصاخب في الشتاء الحزين ، لعلي من مكان بعيد أستطيع أن أقول الكلمات التي حلمت بها طوال خمس سنين . . .

والآن ، بعد أن حاولت علي ظهر أشيلوس الماكرة ، و بعد أن حبست نفسي طوال الليل و النهار في الغرفة المستطيلة الكئيبة ، في فندق الألزاس ، أجد أن الكلمات التي دوت في رأسي تلك الأيام كأنها الحراب المسمومة ، أجدها تتحول إلي أصداف فارغة لا تعني شيئاً !.

* * *

لقد وقع رجب إسماعيل على وثيقة الاستسلام إذن بعد أن خدع نفسه بأنه يوقع كى تتاح له الفرصة ليفضح ما يحدث أمام العالم عندما يسافر، الآن يدرك أن قضايا الوطن لا تُحارب من خارجه

أبدا، يغمره الإحساس بأنه ملوث، لقد استسلم واعترف وتعهد، هذا هو الشى الثابت المستقر وما سواه وهم وباطل وخداع، وجميع المبررات التى يسوقها لا تقنعه هو نفسه ، لذلك يعجز عندما يحاول أن يكتب، أن يفضح ما رآه أمام العالم، لعله يوقفه :" هل أستطيع أن أكتب عن أمي، أين أمجد و رضوان و سعيد ؟ أين عشرات الوجوه الملوثة بالدم ، و التي كنت أجبر نفسي علي أن أنظر إليها بشراهة ، لكي أتألم أكثر . . و أكتب عنها ؟ إن هذه الوجوه تنظر إليّ الآن ، من سراديبها البعيدة ، من قبورها ، نظرة سخرية . . تقول ، تصرخ : لا تكتب عنا كلمة واحدة ، اليد الملوثة ، القلب الملوث ، لا يستطيع أن يكتب !."(...)

أشيلوس، آه لو تنظرين لحظة واحدة في قعر سرداب من آلاف السراديب المنشورة علي شاطئ المتوسط الشرقي و حتي الصحراء البعيدة ، ماذا ترين : بقايا بشر ، و لهاثاً ، و انتظاراً يائساً . . وماذا أيضاً ؟ وجوه الجلادين الممتلئة عافية و ثقة بالنفس . . والضحكات . . لا تستغربي شيئاً يا سيدتي ، و الذي يثير استغرابك الآن ، أقل الأشياء للاستغراب هناك! السلطات الغاشمة فى شرقى المتوسط لا تحارب الإرهاب كما تدّعى، لسبب بسيط هى أنها الإرهاب ذاته .

و أتذكر الحاج رسمي أبو جعفر . . ربطوا يديه وراء ظهره ، وأوقفوه في ساحة السجن ، أمام عشرات السجناء و بدأوا يسخرون منه :

– مثل أبي هريرة تقول للفقراء أن يثوروا . . خذ يا قواد ، يا حاج كلب ، يا حاج خرا، و يضربونه علي وجهه، علي رأسه، علي صدره، كانوا يسخرون منه و يضربونه، و في لحظة تنبهوا للحيته، كأنهم يرونها لأول مرة . بدأوا يشدونها كما لو أنها ذنب كلب ، و يحني الحاج رأسه لكي يتجنب ألم الشد . . لما تعبوا أشعل واحد منهم عود ثقاب و قربه من اللحية الشائبة ، اشتعلت كأنها كرة من اللهب ، تناول الثاني سطلاً فيه رمل و قذفه في وجه الحاج.. بعد أيام و الحاج رسمي يجلس في الشمس ، كان وجهه مثيراً للإشمئزاز و الأسي : بقع حمراء تنزف دماً لزجاً ، و عينان

بلا أهداب ، و الشفه السفلي مدماه .

قال للفقراء ألم تسمعوا أبا ذر الغفاري حين قال : عجبت لمن يكون جائعاً و لم يشرع سيفه !

صدقني أيها الإنسان الذي يعيش علي الضفة الأخري من المتوسط ، أني لم أحمل بندقية ، و لم أقتل أحداً ، و مع ذلك دق رأسي بالجدران مئات المرات ، كما تدق المسامير في أخشاب السنديان . . و دق الرأس بالجدران عبارة عن بداية سيمفونية العذاب : بعد ذلك ضربوني بالسياط ، كنت عارياً لما ضربوني ، كانوا يتعبون من الضرب ، كانوا يتناوبون ، و كانوا أقوياء ، فإذا انتهي الضرب بدأت النيران تشتعل في جسدي ، كانوا يطفئون السجائر في وجهي و في صدري . . و في أماكن أخري . . ليس هذا كل شيء ، لقد أمسكوا بخصيتي و جروهما شعرت تلك اللحظة أني أموت ، ثم علقت سبعة أيام في السقف . كانت يداي مربوطتان بحبل ، و الحبل يجرني إلي السقف ، فأقف علي أطراف أصابعي، عندما إنتهت الأيام السبعة كانت ساقاي بحجم سيقان الفيل، متورمتان زرقاوان ، ثقيلتان . . لا .لا . . لن أحدثك أكثر من ذلك ، إن مجرد تذكر تلك الأيام يجعل الإنسان مشوهاً حتي أن براعة الطب و عبقريته لا يمكن أن تفعل شيئاً . . كل ما قلته لك حتي الآن، الفصل الأول ، أم الفصول الأخري ، فاعذرني إذا لم أستطيع أن أقول لك كلمة واحدة عنها . تحملت التعذيب كله . . و ماذا تتصور هل صرخت ؟ هل اعترفت ؟ لا . كنت صامداً ، كنت أقوي من الجمل في صبره و احتماله . . لكن في لحظة خرساء سقطت . الإنسان الذي أمامك الآن ليس قوياً بمقدار ما توحي الكلمات التي تموج في رأسه.. كان قوياً في فترة ما ، ثم سقط ، إنهار دفعة واحدة .

قلت و أنا أسحب نظري من الطبيب الشاب ، و أنظر إلي الطبيب المسن :

– كنت سجيناً سياسياً.

و لم أضف أية كلمة . نظر الطبيب المسن إلي الوجوه بأسي ، وكأن ذكريات حزينة عبرت رأسه ، و قال يخاطب نفسه :

– هذا واحد من شعب سجين .

و التفت إليّ و أضاف : لماذا لا يقرأ الجلادون و الحكام التاريخ ؟ لو قرأوا جزءاً من الأشياء التي يجب أن يقرأوها ، لوفروا علي أنفسهم و علي الآخرين الشئ الكثير .و لكن يبدو أن كل شعب يجب أن يدفع ثمن حريته ، و الحرية ، أغلب الأحيان ، غالية الثمن !

لن أكتب لأنيسة أني في حالة خطرة ، لكي لا تقلق ، أما النظام الذي إقترحه الدكتور فالي ، فسوف أحرص علي أن أتقيد به . . لكن إذا كنت قادراً هنا فكيف الحال عندما أعود ؟ " لا تنفعل ، لا تغضب، لا تحزن " . . حتي الفرح الشديد حرمه عليّ الدكتور فالي . كان يسخر عندما نطق الكلمة الأخيرة ، هل يتصور أن علي الشاطئ الشرقي للمتوسط إنساناً واحداً يمكن أن يموت من الفرح ؟ الفرح بالنسبة للشعب السجين طائر مهاجر . . حتي الجلادون لا أظن أنهم قادرون علي الفرح . . إنهم ينامون تحت أقواس السياط ، تحت أشباح الصرخات ، يأكلهم الخوف أن تدق أبواب بيوتهم أواخر الليل وينتزعوا من فراشهم ، لكي يدفعوا الدين الذي في رقابهم !.

علي ضفاف السين آلاف الكتب ، ملايين الكتب ، كانت عيوني تمر علي العناوين ، و ما تكاد تستقر علي عنوان ، حتي أرتجف ، أتلفت، لا أريد أن يراني أحد .

" وجدنا لدي تفتيش بيت الموقوف ،الأدوات الجرمية المرفقة . . " و يذكرون أسماء الكتب . آه يا أهل باريس ، لو جئتم بكتبكم إلي شاطئ المتوسط الشرقي ، لقضيتم حياتكم كلها في السجون . سيأكلكم الندم ، سوف تكفرون بكل شئ ، و احذروا أكثر أن تفكروا بالأحزاب ، لأن أي كلمة تجد من يلتقطها و يجعلها مؤامرة وتخريباً، و تدفعون ثمن كلمات حياتكم كلها في السجون الصحراوية ، و هناك تصابون بالسل و التيفوس و تموتون ! .

سيضج العالم كله عندما يستمع إلي قصص العذاب التي لا تتوقف ، في الليل و النهار ، علي الشاطئ الآخر . كيف يمكن لإنسان أن ينام و أصوات الضحايا لا تكف لحظة واحدة عن النواح والأنين ؟

لا يوجد هذا النوع ، لا أحد هنايستطيع أن ينام ، أن يضحك ، والناس هناك يبكون بصمت و يموتون ، سوف ترتفع ملايين الأصوات ، في نشيد واحد مخيف ، تطلب إنهاء " الحفلات " المستمرة.

- دكتور . . كانوا يصرخون في الليل :" اقتلوه ، لا نريد لهذا الكلب أن يزعجنا أكثر . . إقتلوه . . إمسك يده يا عبْد، أعدها إلي الخلف ، و أنت يا حاتم ، ضع العصا في . . ، لا . . لا تخف ، أدخلها، إعترف . . يا إبن القحبة يجب أن أقتلك ! من أنت حتي لا تجيب . سوف أعيدك لـ(. . .) أمك ، إعترف ، هات القطط ، هات الكلب الأسود ، إخلع ثيابك ، أتعترف ؟ قل أين هادي ؟ أين نجم ؟ ألا تقول يا إبن الكلب ! "

تجمعت الصور في رأسي فجأه ، و وجدت نفسي أبكي ، لم أبك في حياتي مثلما بكيت هذه المرة ، و ظل صوت بكائي يصلني مثل هدير مكتوم . لماذا بكيت هكذا ؟ و الدكتور فالي ، أي إنسان كان بالنسبة لي ؟ هل يستطيع أن يساعدني ؟ أن يفعل شيئاً من أجل أن يخلصني من العذاب الذي الذي أحسه في داخلي مثل سيول مجنونة ؟ كان يجب أن أفعل شيئاً ، أن أحطم الزجاج ، أن أحطم رأسي ، أن أرتمي علي الأرض . . لكن البكاء كان الطريق الوحيد الذي رأيته مفتوحاً أمامي .

تركني الدكتور فالي أبكي فترة طويلة . لم يستنكر ، لم يمد يده إليّ ، حتي إذا أحسست بالراحة ، قمت و وجهي إلي الأرض ، وقفت في زاوية ، أخرجت منديلاً و مسحت عيني و وجهي ثم التقطت سيجارة ، أولعتها و استدرت نحو الدكتور فالي . حاول أن يبعد نظراته عني . هل كان يبكي في تلك اللحظة ؟ هل كان يخشي أن يضعف و ينهار ؟ رأيت شيئاً في عينيه ، لكن و أنا أسمع كلماته فيما بعد ، تبين لي أن الرجل الذي أراه لا يشبهني أبداً . قال لي وهو يتطلع عبر النافذة ، لكي لا تلتقي عيوننا :

- أخشي عليك يا مسيو رجب . ما زلتم في أول الطريق . . كل ما أرجوه منك الآن هو المحافظة علي صحتك ، لكي تستطيع مواصلة الحرب . . لا أعرف من تحارب ، و من أجل ماذا ، لكن يبدو لي أن

أمامكم أشياء كثيرة يجب أن تفعلوها .

* * *

يدرك رجب أنه لا شفاء له، لقد هرب من الوطن ليتكلم، لكنه لوث نفسه قبل أن يهرب، لذلك يعجز عن الكلام، الاعتراض بالمراسلة ليس مذهب الشرفاء ولا الشهداء، سيعود إذن ليعارض من الوطن، يعلم أنهم لا محالة سيقتلونه، لكنه سيكون قد قال كلمته، سيعود إلى الوطن، من أجل ذلك كله، ومن أجل حامد، زوج شقيقته أنيسه، والذى أخذه الجلادون رهينة عندهم حتى يعود.....

"منذ الغد ، و من مرسيليا سأبعث إلي الصليب الأحمر ، سأقول لهم كل شئ ، أعرف أن شيئاً لن يتغير ، و أعرف أنهم سيضربونني أكثر من قبل ، لكني سأعود إليهم . . هاأنذا أعود و قد تعلمت شيئاً واحداً ، و تعلمته بالصدفة ، أتعرفون هذا الشيء ، أيها الجلادون ؟ إنه الحقد . . و من حقدي و حقد الملايين سوف نهدم سجونكم ، سنهدم سراديبكم ، لن نبقي سجناً واحداً يقف علي تلك الأرض الممتدة من الشاطئ الشرقي للمتوسط ، حتى أعماق الصحراء ، سنهدم السجون بأيدينا ، لا بألسنتنا كما كان يفعل الكثيرون ، كانوا يهدمون السجون بألسنتهم ثم يرممونها مرة بعد أخري ، ويفتحون فيها أنفاقا جديدة ، و يضيفون لها دهاليز جديدة لكي تستقبل الأفواج الجديدة . خذوني هذه المرة ، و لكن لن تأخذوا إلا جسداً ميتاً ، أما ما حاولت أن أنقذه فأنتم الذين أنقذتموه ."

* * *

ينتهى هنا الفصل الخامس، ويبدأ الفصل السادس، ترويه أنيسة، شقيقة رجب، حيث يبدأ الفصل بالمفاجأة الصاعقة :

" لو كان رجب حيا ...."

مات رجب إذن، عاد من الخارج فتلقفه الزبانية، تواصل أنيسة:

" لما فتح حامد الباب ، رأي خيالاً أسود علي العتبة ، صرخ من الدهشة و الخوف ثم امتدت يده الخائفة المرتجفة ، و كنت قد اقتربت منه ، إلي الخيال الأسود أتحسسه ، كان رجب ، كان يلهث ،

كانت أنفاسه قصيرة خابية ، حتى ظننت أنه فقد وعيه . حملناه إلي فراشه ، نزعنا ملابسه و بدأنا نتحدث معه . كان يسمع حديثنا و يجيب إجابات قصيرة غامضة ، أما يداه فقد وضعهما فوق عينيه، و كأنه يخاف وهج النور .

الجسد الممدد علي السرير ، الذي بدا شديد الهزال و الشحوب هل هو رجب ؟ كنت رجب ، لكن عندما سمعت صوته بكيت ، دفنت رأسي علي طرف السرير و بكيت .

و لما رفعت رأسي مرة أخري لأراه عرفت الحقيقة كلها : لقد فقد رجب بصره . كانت عيناه ميتتين ، تنظران ببلاهة ، تدوران بدون معني ، ثم قال تلك الكلمة المرعبة ، قالها بهدوء مقدس :

– أعطني يدك يا أنيسة . . أعطني يدك لأني لم أعد أري.

و صمت .

حاولت في اليوم الثاني أن أتحدث معه ، و لكننى لم أظفر بجملة كاملة ، كان يردد كلمات ، مجرد كلمات ، و أغلب الأحيان ، لا رابط بينها ، و ليست ذات معني .

أما الأكل الذي حضرته له فلم يستطع أن يأكل منه إلا القليل .

و في اليوم الرابع ، عند الظهر تماماً ، مات رجب.

في الأسبوع الثاني لوفاة رجب أخذوا حامد . منذ ذلك الوقت أخذوه و حتى الآن انقضت سنة و أربعة شهور ، و حامد وراء الجدران ، و كل ما استطعت أن أعرفه ، أنهم اعتبروه مسئولاً عن كلمات نشرت في صحيفة أجنبية ، و هذه الكلمات تقول أن السلطات هي التي قتلت رجب ، بعد أن فقد بصره من التعذيب ."

* * *

الآن أيها القارىء، هل تنتظر منى نقدا أو تعليقا ؟

أم أتركك تبكى ؟!.

صلاح عيسى

ماذا حدث للكاتب ص.ع. بعد منتصف ليلة شتاء

. . ليلة عيد الميلاد كنت حتي الثامنة و النصف في " التجمع الوطني " أحضر اجتماعاً للجنة إسمها لجنة الدفاع عن الحريات، وهي لجنة ديمقراطية عامة تضم أعضاء من التجمع وشخصيات ديمقراطية من خارجه منها العبد لله . خرجت و معي ورق اللجنة، ثم ذهبت لأتعشي عند صديق و في الواحدة و النصف صباحاً تقريباً نزلت وحدي . الدنيا كانت برد جداً، استوقفني بعض الشبان يرتدون ملابس ملكية (أي مدنية). قال أحدهم : بطاقتك . أخرجتها بهدوء . بطاقتي الصحفية . فقدت تعويذة الطبقة الجديدة - أيام زمان - سحرها . بعد ثوان وجدت حولي خمسة أشخاص . بعضهم يرتدي ملابس أمناء الشرطة . في ثوان كان كل منهم يضع يده في جيب من جيوبي . . . و بدأ الزغد و الضرب، الدنيا ظلام وبرد - و المنطقة خلوية و ليس بها صريخ ابن يومين، قال واحد : فين الدولارات المزيفة ؟ قال الثاني : فين الحشيش ؟ قال الثالث : فين المنشورات ؟ فهمت الفولة بسرعة . كمين محترم لضرب العبد لله . أصبح الخمسة سبعة ثم إثني عشر.

قادوني إلي مكان مظلم ثم انهالوا ضرباً عليّ، صرخت : يابوليس يا حكومة . يا شعب، يا عالم : كتموا فمي . قيدوني، جروني إلي نقطة كوتسيكا، خطفوا النظارة . دخلت إلي الضابط النوباتجي و أنا أُضرب . كنت حتي تلك اللحظة أتصور أنهم مجرد أمناء شرطة عاديين و أنهم كعادتهم تعاطوا حبوب الهلوسة .(يرتكب أمناء الشرطة جرائم كثيرة جداً باعتراف الصحف الرسمية).

استغثت بضابط برتبة ملازم ثان كان واقفاً في إنتظاري . دخلت إليه و هم يضربونني، وضعت أمامه بطاقتي الصحفية لعله يدرك خطأالمعاملة، و لكن عبثاً. أسندوني إلي الحائط . فرقة ضرب مدربة يتزعمها بغل سمين . . . كان الهدف بهدلتي و إهانتي و هز اعتزازي بنفسي .

أخذ الضابط يفرز الورق بإهمال . قلت : وديني النيابة . قال : علي إيه ؟ أنت مقبوض عليك لأنك مشبوه سياسي و من حقي أقبض عليك و أفتشك في أي وقت، يمكن بتوزع حاجة ضد المبادرة .

كانت معي خطابات بإمضاءات وزير الداخلية بنقل موظفين وتشريدهم بسبب لونهم السياسي . المسألة أصبحت رسمية . . . نقلوني في الرابعة صباحاً علي موتوسيكل (دراجة بخارية) إلي قسم قصر النيل . الدنيا برد و الشوارع خالية . ماذا يجري فيك يابلدنا ؟ في " القسم " لطعوني ساعتين في البلاط، ثم أعطوني أوراقي . و انصرفت في الساعة السادسة و النصف صباحاً و أنا لاأكاد أستطيع أن أمشي . . . "

" . . . عندما قبضوا عليّ- بعد أحداث ١٨ و١٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٧ بسبعة أشهر - أرسلوا لي ضابطاً إسمه " محمد فتحي عمر " و أحدث بي إصابات . و حين ذهبت إلي النيابة سجل المحقق " عبد المجيد محمود " ما بي من إصابات و أحالني إلي الطبيب و أثبتها .

و كان عندي شهود هم ثلاثة من أصدقائي الإيطاليين من أساتذة جامعة روما و طلبت الاستماع إلي شهادتهم . رفض النائب العام . قلت له أنك تشجعهم علي أن يكرروا ذلك .

أرسلت بلاغاً عنيف اللهجة من ليمان أبي زعبل حيث أودعوني و لكنه لم يحقق فيه .

و سافر شهودي طبعاً و حفظ البلاغ . و عندما خرجت في ١٩٧٧/١/١٩ و لم أمض سوي شهرين فقط و أفرج عني القضاء إحتياطياً علي ذمة قضية ١٨ و ١٩ يناير (كانون الثاني) لتفاهة الوقائع المنسوبة إليّ، و هي أنني أذهب إلي الجامعة و أطالب

بالديمقراطية.

و منذ اليوم التالي بدأت نشاطي في لجنة الدفاع عن الحريات . نصدر نشرة إسمها " الحريات " تتقصي أخبار إهدار الحريات، وتزور المسجونين . و تشجع أهاليهم . و تقدم لهم معونات عينية ومادية . يبدو أن هذا استفزهم . استفزهم أيضاً أنهم فصلوني و لم " أهمد " أو أهدأ (فصل صلاح عيسي من جريدة الجمهورية بحجة الغياب بدون إذن لمدة ١٥ يوما كان خلالها ضيفاً علي سجون الحكومة). . فكان لابد من الضرب خاصة أنه لولا حفظ بلاغي لكانت قضية مستعجلة للضابط ." لم يعودوا يحافظون علي شكليات. النظرية السائدة الآن : هي نظرية الأمن الوقائي. و لو تابعت تصريحات المسئولين لقرأت فيها تهديدات لنا بأنهم لن يجعلوننا نفلت من أيديهم و لن يجعلوننا نستريح . و في كل يوم يستصدر الأمن السياسي تصريحات بتفتيش ٣٠ أو ٤٠ منزلاً . تفتيش في المراتب و الكراسي . مجلة أكتوبر في عدد من أعداد ديسمبر (كانون الأول) نشرت خبراً بأن قرار صدر بنقل جميع الموظفين الذين قبض عليهم في حملة يناير (كانون الثاني)١٩٧٧ من أعمالهم . هكذا عيني عينك . الطلبة يضربون في الجامعات عن طريق بلطجية (قبضايات) مستأجرين بالبونيات (كفوف حديدية). و حتي بتوع الجماعات الإسلامية يضربون . زملاؤنا الذين قبض عليهم في حملة سبتمبر (أيلول)١٩٧٧اضطروا لدخول ثلاثة إضطرابات عن الطعام لكي يسمحوا لهم برؤية أهاليهم وعوملوا في السجن معاملة شرسة . عادت ريمة لعادتها القديمة (مثل شعبي واضح المغزي) ".

هكذا يناضل شعب مصر . هكذا تناضل الثقافة العربية في مصر. فأين الضمير العربي و ضميرالعالم لا ليكتب و يسجل (فجبرتي العصر سيقوم بالمهمة) بل ليفعل شيئاً في زمن الصمت المخيف . افعلوا شيئاً غير القرارات و التوصيات لأن الحبر علي الورق ليس كالدم علي الأرض . إفعلوا شيئاً للأحياء قبل الموت المجاني لأن تماثيلهم التي ستقيمونها لن تشفع لكم . رثاءكم لن ينهض ميتاً . . و لكن تكاليفها قد تفعل ." . . . و مع ذلك فالدنيا

بخير، ولا أحد تهتز له شعرة واحدة، و الناس تدخل و تخرج وتضرب فتضحك، رقدت يومين لا أستطيع أن أتحرك، و ظللت حتي أمس فقط (أسبوع تقريباً) و كل خلية في جسدي تتألم . قدمت بلاغاً للنائب العام شديد اللهجة . و دخلت إجتماع مجلس نقابة الصحفيين و شكوت لهم و وعدوا بالاحتجاج، قال " نبيل الهلالي "، محامي : أسلوب أميركا اللاتينية . ذهبت لوكيل نيابة أحالني إلي الطبيب . و بعد أن خرجت وجدت أن علي أن أذهب لقسم قصر النيل لكي يحولني إلي مفتش الصحة لإثبات الضرب . عمرك سمعت عن مصايب زي دي . علي رأي المثل . . شر البلية ما يضحك.

" أمس ذهبت إلي إجتماع لجنة الحريات، نحن نعد الآن لأسبوع الشعب المصري . . . نأمل أن تكون عملاً معقولاً برغم الجو الفظيع . لكننا نقاوم . إنها بلدنا و ليست بلد أي إنسان آخر، و قد تعذبنا بهزائمنا التي لم نشارك فيها و لم نطلب شيئاً حين كانوا يوزعون أسلاب الإنتصار "

* * *

صلاح عيسى

ب

أضغاث أحزان

أخيرا يعثر صلاح عيسي على حيثيات حكم الجهاد فتنفجر الكارثة وتنفتق الذاكرة لتتساقط منها التداعيات:

ما حدث تحديدا هو أننى كنت أمارس عادة رديئة، فشلت فى أن أتخلص منها رغم محاولاتى الصادقة على مدى العمر. غادرت مكتبى بعد يوم لم أضع فيه القلم إلا لأشعل سيجارة من أخرى، أو أحسو رشفة قهوة تتلو أخرى، وقبل أن أغادره بقليل جاءنى صديق

بكنز كنت أجرى وراءه منذ أسابيعَ: حيثيات الحكم فى قضية الجهاد. تصفحتها بسرعة وأنا أعبر الطريق. تفادانى قائد سيارة بمهارة. صرخ بعصبية: - فوقوا بقى يا ولاد الكلب أطبقت الحيثيات فتصاعدت من بين دفتيها صرخات المعذبين وعواء الكلاب وأنين الجرحى، تدلت من حوافها اَلْمَضْمُومَة أطراف السياط، أحسست لزوجة الدم فى أصابعى التى تحملها وحين ضممتها إلى صدرى مستنى رجفة كهرباء، فارتجف قلبى وخاف.ألقيت حقيبتى المتخمة بالأوراق والصحف على أول مقعد صادفنى فى منزلى. فتحت الراديو لأسمع آخر الأنباء، ضبطت التليفزيون على القناة الأولى لأشاهد نشرة التاسعة، جلست إلى المائدة لآكل شيئا غير القهوة والسجائر، رصصت الأطباق فى نصف دائرة حول حيثيات الحكم التى أعطيتها عيونى المجهدة. إحدى أذنى كانت مع التليفزيون. وكانت الثا نية مع الراديو . تحدث أَحَدهمَا عن دول الساحل الأفريقى التى تعانى من جفاف أتت على الأخضر واليابس، وشردت عشرين مليونا من الأفارقَة بعد أن شح الزرع، والضرع.. وقال الآخر أن عدة آلاف من أطنان المعونة قد وصلت إلى معسكر كوريم للإغاثة، الذى يضم مائة ألف لاجئ إثيوبى، لكن ذلك لم يوقف الكارثة، مات ٢٠٪ من الأطفال بسبب الجوع والبرد.. والبقية فى حياتكم.على الشاشة وضعوا ملعقة من حساء المعونة على شفتى طفل فلم يجد أنفاسا تعينه على ابتلاع الطعام. فى اللحظة ذَاتهَا كانوا يضربون واحدا بالسياط على الصفحة ٣٨٥ من حيثيات الجهاد،، انبعث صوت صراخه مرعوبا كأنه يستنجد بى، أبعدت وجهى عن الحيثيات خائفا. عبارات تقارير الطب الشرعى باردة كخطب اَلْمَسْئُولِينَ ومقالات المنافقين، وكلمات الحب الكاذبة: تهتك بعضلات الإليتين ورضوض بعظام الحوض وكسر بعظمة الفخذ اليمنى، حدثت من اصطدام أجسام صلبة بجسد المتهم، مضى عليها شهور. طال السوط أطراف أصابعى التى كانت تحمل اللقمة، تركتها لأقلب الصفحة: كانت محتشدة بالكلاب وبالسباب وتهشيم الضلوع وتكسير العظام والكى بالنيران. شممت رائحة لحم يحترق. عافت نفسى قطعة من اللحم كنت قد استبدلتها باللقمة، شوش الصراخ المنبعث من الحيثيات على أغنية كان الراديو

يذيعها.نقل الراديو عن متحدث باسم الأمم المتحدة قوله أن عشرة آلاف أفريقى يموتون يوميا من الجوع، وقال أن مئات الآلاف من الجائعين فى إثيوبيا ينتظرهم الموت إذا لم تصلهم الإمدادات السريعة، وأضاف: انهم يموتون بأسلوب واحد.. غيبوبة تعقبها رجفة شديدة ثم الموت..رحل الأطفال الذين كانوا يغنون على الشاشة إحدى أغنيات عيد الطفولة ليتركوها لمذيعة حملت الميكرفون ووراءها الكاميرا إلى مستشفى الأطفال. اقتربت من طفل نحيف هزيل خيل إلى أنه هرب من معسكر كوريم فسألته:

- عندك ايه يا حبيبي؟.

تلعثم قليلا.. قال:

- عندى أنيميا حادة..وضعت المذيعة يدها على كتفه.. أدارته لتلتقط الكاميرا وجهه الأصفر المهزول. قالت وكأنها تعرض نسناسا فى قفص القرود وعلى وجهها ابتسامة بلهاء:

- شفتم يا أطفال.. أهوده نتيجة اللى ما بيسمعش كلام بابا وماما.. وياكل كويس.. ويشرب كوبايه اللبن الصبح .

دق جرس الباب. كنت أعلم أنه هو فذلك موعده. تجاهلت الدق فتواصل. فتحت الباب وأمرى لله. كان يقف وعلى شفتيه ابتسامة تجارية، هى أكثر ما يستفزنى. وكان قسط اللبن يستقر بين أقدامه قلت:

- مش انت اللى بتبيع الكيلو ب ٨٥ قرش.. احنا بناخده من زميلك ب ٦٥ قرش.

- يا بيه دا حرامى.. والله العظيم بيغشه بميه .

حين عدت إلى مكانى من المائدة كانت صفحات من الحيثيات قد تحركت، نسيت الصفحة التى توقفت عندها، فلا فارق بين واحدة وأخرى، اختلط صراخ الصفحات بمذاق الطعام الذى أصبح خلا. احتل المعذبون مائدتى. جلسوا فى صحونى. مدوا إلى أذرعهم المكسورة، آذانهم المسكونة بفاحش السباب، ولحاهم المخضبة بالدم، ووجوههم التى خمشتها الكلاب، ولحمهم المشوى.... لحظتها حدث ما

كنت أخشاه، وأهرب من ذكراه عشرين عاما طويلة. أخفيه في ابتسامتي، وأطويه في شرودي، ووجدت نفسي بينهم ومثلهم على مائدتي وبين صحوني، كان الفصل خريفا كهذا من عام كهذا رقمه ١٩٦٦. عاريا كنت ومصلوبا إلى مشجب حديدي في الزنزانة رقم ٣ بمعتقل القلعة. وكنت خجلانا من عريي، نزفت عرقي كله في وهج كشاف ضخم سلطوه طوال الليل على عيني المجهدتين. بين الحين والآخر كانوا يطلقونني. ويعصبون عيني. يسوقونني بالعصي تنهال على كل مكان من جسدي الذي لم يكن قد عرف الألم بعد. يسحلونني، يمسحون بي بلاط المعتقل من شماله إلى جنوبه، ومن مشرقه إلى مغربه.تتبعني على البلاط، الكتب التي قرأتها، والأفكار التي عرفتها، والأحلام التي أتوق إليها، وأبيات الشعر التي ترنمت بها. يسيل الدم من احتكاك جسدي بالبلاط، لكن الألم من القلب جاء. نزف في صمت كبرياء شاب ريفي يخجل أن يقول آه، ويتعالى أن يتسول شيئا ولو كان ماء الحياة. يعيدوني إلى صليبي. عطشانا كنت، وخائفا لكنني لم أبك. كان الصراخ ينبعث من كل الزنازنين فأتوهّم فيه وأنا معلق وفي شبه غيبوبة صراخ أبي وأمي وأخي الصغير والأطفال الذين لهوت معهم في حواري قريتي، والفتيات اللواتي أحببتهن والتلاميذ الذين صادقتهم، وخالاتي وعماتي وجدتي التي ماتت. أدركني الجفاف فاشتهيت قطرة ماء ولو كان الثمن ما بقي من العمر. عند العصر دخل الرائد عاصم الوكيل الزنزانة. في يده زجاجة كوكاكولا يتناثر رذاذ الثلج على سطحها. قال:

- ما رأيك في الكرافتة التي ألبسها

-مش حلوة ؟.

- ليه ؟.

- رأيي كده !.

ضربني بحافة الزجاجة أسفل ذقني واصل الضرب بقوة حتى كاد ينخلع فكي، مدببة كانت فتحة الزجاجة. لم أحس بالألم. أنعشني ملمسها البارد وملأت رائحتها الشهية خياشيمي.

استرددت بعضا من وعيى الغائب نتيجة لضرباته. قال:

- تعرف أنار ايح فين ؟

-........

- رايح السينما مع بنت زى القمر.. أرجع ألاقيك اتكلمت يا ابن القحبة . .

تذكرت وجه أمي الوضيء، وهى تستبق كل فجر لتتوضأ وتصلى. سمعت فى الصمت الذى أعقب رحيله، صوت دعائها الخاشع فى السحر: يا رب يبارك فى عافيتك يا صلاح يا ابن بطنى ويكفيك شر سكتك.كان " عاصم الوكيل " قد ألقى بما تبقى من زجاجة الكوكا كولا على أرض الزنزانة، فسال على الأرض. اشتهيت أن يطلقوا قيودى لحظة لأمسح بلسانى المشقق بلاط الزنزانة، تاهت الفكرة فى غيبوبة العذاب.حين تنبهت كان زمن لا أدريه قد مر. مصلوبا كنت على مشجبى وكشافى فى عينى والمكان بطاح مكة. كانوا قد جاءوا برجل أسود حبشى. طرحوه على ظهره على مرمى البصر من جسدى المعلق. على صدره صخرة ضخمة تفح حرارة وتتصاعد منها رائحة اللحم المشوى. فى مواجهته كان الرائد زكريا عمار يجلس تحت مظلة تقيه القيظ وكان يحتسى زجاجة كوكاكولا مثلجة ويهتف: كوكاكولا هى الأصل. كف عن الهتاف لحظة. قال للرجل الحبشى الراقد تحت الصخرة:

- لا تزال هكذا (ثم أشار إلىّ وقال): أو هكذا.. حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى.قلت:

- عرفتك.. أنت بلال بن رباح. فماذا أوقعك فى يد الرائد زكريا.. قال:

-هذا سيدى الرائد أمية بن خلف سيد بنى جمح وأنا مولى من مواليهم. أحدٌ.. أحد.

قلت:

-إذا كان هذا أمية بن خلف، فأنت إذن بلال بن سبارتاكوس. قال: يجوز.اختلطت الأزمان وتداخلت الأيام فلم أعد اعرف لأى

زمان ننتمى. عطشانا كنت، وكان زكريا بن خلف يروى رمال الصحراء بصناديق الشويبس، ويقول:

- مات ياسر.. وماتت سمية وستموتون جميعا لأنكم حمقى.

أذن المؤذن على مئذنة جامع محمد على.. قلت: ستصلى أمى الفجر الآن وتدعو الله كعادتها أن يقينى شر السكك. وقال الرائد زكريا بن خلف:

-عن إذنكم...سأصلى الفجر حاضرا خلف الأمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر، وأطعم القطط فقد أوصانا الرسول بذلك، وقد دخلت امرأة النار فى قطة حبستها وأجاعتها، فلا هى أطعمتها، ولا هى تركتها تأكل من حشاش الأرض.(...)

أنزلونى من فوق صليبى. جاء الطبيب.. كشف على. نظر إلىّ المقدم فتحى قته وقال:

- قلبه جامد ويحتمل. توكلوا على الله وواصلوا عملكم .

كانت شقتى قد ازدحمت بالضيوف وكانوا جميعا يتوجعون على مائدتى وبين أطباقى. وكنت قد أشعلت سيجارة، لكنهم رفضوا التدخين. وكانت مذيعة وضيئة البسمة تقول على شاشة القناة الأولى: أن الأمريكيين قد احتفلوا بعيد الشكر. واستهلكوا فى يوم واحد ٨٠ مليون ديك رومى. وان أكثر من ٢٠٠٠ طن من اللحوم قد ألقيت فى اليوم التالى فى صناديق القمامة فى أنحاء الولايات المتحدة.. وقال تقرير لإذاعة واشنطن العربية أنه من المتوقع أن تستفحل المجاعة فى إثيوبيا و تشاد وكينيا والنيجر والسنغال ومالى وموريتانيا، طرقت جسد الراديو بأصابعي قلت بصوت عال لكى تسمعنى المذيعة فى واشنطن:

- هل من بين هؤلاء الموتى الأحباش، أحد ينتمى لعائلة بلال بن رباح مولى أمية بن خلف. لم ترد على واشنطن.

انقطع التيار الكهربائى فجأة.. صمت الراديو والتليفزيون وسكت ضيوفى، لكن المائدة كانت مغمورة بالدم. ارتجفت خوفا فى الظلام. أشعلت شمعة، حملت حيثيات الحكم على صدرى فابتل دما

كوى أضلعى. وأنا فى طريقى إلى الشرفة ألقيت نظرة عابرة إلى حمامي.. كان يجلس هناك بجوار البانيو.. هادئا يشرب كأسا من العرقى ويدخن سيجارا. اقتربت منه مرتعبا ومعى ضيوفى. وقفنا على باب الحمام.

– ألا تعرفوننى. أنا وجيه أنطاكلى من المكتب الثانى السورى. منذ ربع قرن وأنا اجلس بجوار البانيو. أنا رحالة عالمى، ألف العالم لكى أبحث عن بانيو لأجلس بجواره. هذه هوايتى الوحيدة، منحتها عمرى . أنا أعرف كل ما يستجد من مكتشفات فى عالم البانيو لذلك أصبحت موديلا شهيرا لكل إعلانات البانيو. ألم ترنى وأنا أطالبك بأن تنسف حمامك القديم. أنا عبد المأمور. قالوا لى أن فرج الله الحلو شيوعى خطر وملحد. قبضت عليه. ضربته. قال لى أنه مريض بالقلب. لم أصدقه. كلهم ملاحدة كاذبون ويقولون هذا. ضربته. وضعت فيشة الكهرباء فى جسده. مات. دفناه فى مزرعة الضابط سامى جمعة. بعد أيام نبشت الكلاب المكان. ذهبنا فى الليل لننقله إلى مكان آمن. شربنا العرقى بوفرة لنتغلب على الظلام والبرد والخوف، حفرنا. أخرجناه. غمرنا جثته بالنوشادر لكى لا نشم الرائحة. نشرته بيدى هاتين بالمنشار عشر قطع ووضعته فى أكياس بلاستيك. أخذناه إلى منزلى بجوار غوطة دمشق. سددت فتحة البانيو بالأسمنت. أفرغت فيه جمدانه حامض كبريتيك مركز. ماية نار يعنى، ألقيت بالقطع العشر فى البانيو. غطيته بباب قديم. ظللت ثلاثة أيام بجواره أقلبه بين الحين والآخر. أتابع الأذرع وهى تذوب والأفخاذ وهى تذوى، ظلت رأسه وحدها عصية على الذوبان. وكانت عيونه سابحة تنظر إلى لم تذب إلا فى غروب اليوم الثالث. لم يبق منه سوى رغوة.. كشطتها بكوز، ألقيتها فى حفرة أمام باب منزلى، من يومها وأنا أعيش بجوار البانيوهات أتجول وراءها فى أرجاء المعمورة، أنا أعشقها كما تعشق الكتب وعيون النساء وأرض الوطن وصدر أمك، لا تؤاخذنى، انتهزت فرصة الظلام، وتسللت إلى شقتك، سأُشْرَبُ هذا الكأس من العرقى، ثم أواصل العمل.كنت مذهولا تماما.. حين قام فى هدوء ووقار. تناول كوزا من مكان ما بالحمام.. كشط به شيئا من سطح البانيو الفارغ من أى شىء.. تقدمنى إلى الشرفة، نظرنا معا إلى

الطريق المضىء المزدحم بالناس والزغاريد والسيارات الفارهة وثغاء التليفزيون، وظل يتأمل فى الناس السارحين فى الطريق، لَحْظَةً، قبل أن يندفع بعصبية ليلقى بمحتويات كوبه الفارغ فوق رؤوس السابلة، ثم يعود إلى البانيو، ومنه إلى الشرفة، وأنا استحثه. ازدحمت الشرفة بضيوفى، أحاطوا به مثلى يستحثونه. شاهدت بلال بن رباح وشهدى عطية ومحمد عواد وسبارتاكوس، يتابعون وجيه أنطاكلى وهو يلقى حامضه فى الطريق بحماس، ولا أذكر لحظتها، هل أنا الذى قلت، أم هو الذى قال، أم أن أمى التى كانت تتوشح ببياض وتصلى خلف سمية - أم عمار بن ياسر- هى التى قطعت صلاتها فقالت، أم أننا جميعا كنا نقول، أم أن صوتا فى الطريق هو الذى كان يصرخ فى جنون متتابع:

- فوقوا.. يا ولاد الكلب !!.

يوميات ضابط فى الأرياف

هذا عمل خطير...

ليس بسبب قيمته الأدبية ، وهى متواضعة ، ولكن أهميته تنبع من كونه شهادة ضابط بوليس هو العميد حمدى البطران ، والعمل و إن أصدرته مؤسسة الهلال كرواية ليس أكثر من : "دفتر أحوال قسم شرطة" ، يمكن أن نجد مثله فى آلاف الأقسام المنتشرة فى ربوع الوطن، إنه أشبه بعمل فتحى فضل : الزنزانة.

كم سيكون مثيرا للرثاء والسخرية أن يستدعينى من يحقق معى بسبب الجملة الواردة فى الفقرة السابقة، أن الرواية ليست أكثر من : "دفتر أحوال قسم شرطة" ، فيسألنى : أى قسم شرطة، وأى محافظة وما التاريخ الذى وقعت فيه الأحداث؟!.

إننى أشهد للعميد حمدى البطران، أنه قد أدى واجبه تجاه ربه ووطنه و أمته، و أنه بعمله البطولى الفذ على مستوى الواقع لا الرواية، كان أشبه بطبيب عالم يدرس المرض ويصف أعراضه ومضاعفاته دون أن ينطبق وصفه هذا على مريض محدد، لكنه فى نفس الوقت ينطبق على كل مريض.

النقاد الحمقى راحو يدافعون عن العمل الأدبى ويثبتون أن ما فيه ليس سوى خيال أريب لضابط أديب !! مهدرين أى فرصة للإمساك بتلابيب الحقيقة، وموفرين على أنفسهم عناء الوقوف فى وجه السلطة كى يدينوها .

وزارة الداخلية كانت أكثر صدقا من النقاد فأحالت الضابط إلى مجلس تأديب ، بل واستصدرت من مجلس الشعب قانونا بحبس من يفعل ما فعله حمدى البطران. ولقد قالت مجلة روز اليوسف فى العدد ٣٦٥٩ عن المحاكمة:

"قبل النطق بالحكم في سبتمبر القادم . . نحن ننشر"

"تفاصيل محاكمة الضابط المتهم بتأليف رواية "

* الداخلية : لم يستأذن قبل النشر ، وادعى مأمور مركز ، وأساء لضباط أمن الدولة

* الضابط يدافع : هذا عمل خيالي ، والداخلية كافأتني من قبل وشجعتني على الكتابة .
وتستطرد المجلة قائلة:
بعد التحقيقات التي أجراها مفتش الداخلية مع العميد المتهم بتأليف الرواية ، رأى جهاز التفتيش بالداخلية إحالة العميد حمدي البطران لمحاكمة تأديبية برئاسة اللواء نبيل صيام مساعد وزير الداخلية ، وصدر قرار الإحالة رقم ٣٤ لسنة ١٩٩٨ . وبدأت سلسلة من جلسات المحاكمة كان أخرها الجلسة التي عقدتها المحكمة يوم الأحد الماضي - والتي كانت مخصصة للنطق بالحكم - ولكن المحكمة قررت تأجيل النطق بالحكم لشهر سبتمبر القادم .
يذكر هنا أن قرار الاحاله تضمن تسع تهم متتالية تضمنها قرار الإحاله للمحاكمة وجاء القرار على النحو التالي :
بعد الاطلاع على القانون ١٠٩ لسنة ٧١ في شأن هيئة الشرطة وتعديلاته ، وعلى التحقيقات التي أجرتها الإدارة العامة للتفتيش ، وبناء على ما عرضته تلك الإدارة بشأن محاكمة الضباط تقرر التالي :
١- إحالة العميد حمدي البطران إلى مجلس التأديب الابتدائي لمحاكمته تأديبيا لأنه بوصفه موظفا عاما " ضابط شرطة" ارتكب مايلي :
٢-الخروج على مقتضى الواجب الوظيفي ومخالفة التعليمات والسلوك المعيب لنشره مؤلفه " يوميات ضابط في الأرياف " دون الحصول على الإذن بذلك .
٣- الادعاء بمؤلفه المشار إليه أن يشغل وظيفة مأمور مركز للإيحاء بحقيقة ماسطره رغم أنه لم يشغل تلك الوظيفة منذ التحاقه بخدمة الشرطة .
٤- لتناوله مؤلفه المشار إليه العلاقة بين أجهزة الشرطة والنيابة بالصعيد على نحو يوحى بوجود صراع بينهما مسيئا بذلك لتلك العلاقة .
٥- لتناوله مؤلفه أمورا على غير الحقيقة تتعلق بجهاز مباحث أمن الدولة مدعيا القبض على المواطنين بدون وجه حق ، وأن الضباط العاملين به معصومون من الخطأ وأنهم ذو خطوة على باقي

أجهزة الوزارة مما يفسد العلاقة بين العاملين بجهاز أمن الدولة وباقي أجهزة الشرطة .
٦- لتناوله مؤلفه وظيفة السادة مفتشي الداخلية بالسخرية .
٧- وصف بمؤلفه العلاقة بين رجال الشرطة ورجال الإدارة العامة بأنها مليئة بالشبهات . الأمر الذي يسيء لهيئة الشرطة لتناوله أمورا على غير الحقيقة فيما يتعلق بخروج مأموريات لضبط العناصر الإرهابية ملمحا أن ذلك يتم بطريقة عشوائية ودون معلومات مسبقة، الأمر الذي يؤدي لحدوث تجاوزات ضد المواطنين مثيرا بذلك الرأي العام ضد جهاز الشرطة .
٨- لتناوله بمؤلفه الإشارة على غير الحقيقة بوجود إنحرافات بين الضباط العاملين بالصعيد
٩- لتناوله بطريقة ساخرة أسلوب تأمين السائحين على النحو الذي يسيء للشرطة ولتناوله بمؤلفه أسلوب معيشة الضباط على النحو الذي يوحي بوجود تفرقة بين الضباط .

* * *

لقد طالعت المجلة مذهولا فما كان أغنى وزارة الداخلية عن الإقرار، فليس هذا قرار اتهام بل إقرار باتهام، والمتهم ليس إرهابيا خائنا ولا هو كاتب معارض مارق ولكنه ضابط شرطة.
ما كان أغنى وزارة الداخلية عن توريط نفسها بالرد وهى التى لا ترد على مئات الاتهامات التى توجه لها كل يوم. والناس يقرؤون عن التعذيب والتزوير والفساد، ويعرفون ، ويعرفون أن الوزراء يعرفون، و أن رئيس الوزراء يعرف و أن ... و أن ....، ويعرفون أنه لا جدوى من الأنين و أنه ليس ثمة مهرب من صمت حزين، فلماذا لم تستر وزارة الداخلية نفسها وقد ابتليت بالعميد حمدى البطران؟!

* * *

المذهل أكثر هو موقف مجلة روز اليوسف نفسها، فلقد تجاهلت تماما إمكانية أن يكون بقرار الإحالة ولو بعض صواب ، والمجلة بهذا تعفى نفسها من شرف المواجهة، كما أنها تترك المعركة مستعرة مادامت المحرقة تحرق أعداءها فى الفكر، والمجزرة تسلخ جلودهم، لقد علقت روزا قائلة: " هكذا تعاملت وزارة الداخلية مع الرواية

على أنها كتاب توثيقي وهو منهج يمكن أن يقود كل روائيي مصر إلى السجن ، ليصبح كل أديب كتب رواية بطلها (لص) متهما بالسرقة وكل أديب كتب رواية من علم الليل متهما بالقوادة ! ".

* * *

ليس بيني وبين مجلة روز اليوسف ود مفقود، فعلاقتى بها تنحصر فى ود حميم فى عهد بعض رؤساء التحرير ثم تجاهل كامل فى عهد آخرين، إن المجلة مهمة ولا شك، مؤثرة ولا ريب، بها نخبة متميزة من مثقفى الأمة وكتابها، لكن رئيس التحرير هو الذى يقود ويحدد الاتجاه ويسمح ويمنع، لذلك كانت روزا فى عهد كل رئيس تحرير مجلة أخرى، فأحيانا تتبنى قضايا الوطن بصدق حتى تكون على رأس منابر الفكر، وفى أحيان أخرى أشعر أنها تصدر من واشنطن أو تل أبيب. ولم يكن عادل حمودة من المفضلين عندى، ولكنه فى أيامه الأخيرة فى المجلة كان قد بدأ يدرك بعض الأساسيات فتبنى مواقف حازمة ضد الفساد وضد جبروت وصلف السفارة الأمريكية، لذا تم عزله على الفور وتولية غيره، كان عادل حمودة قد رفض دعوة للسفير الأمريكى، وبعد عزله بأسابيع كان السفير الأمريكى يدخل روز اليوسف دخول الفاتحين، وروزا تهلل له، أما أنا فقد كنت أشعر بالعار، و أتذكر " صول " فتحى فضل، و أهتف يائسا :

- صباحية مباركة ياروز اليوسف!!.

* * *

نعود إلى حمدى البطران وحكايته -لاروايته- المخيفة ..

لقد كان هذا العمل سببا رئيسيا من الأسباب التى دفعتنى إلى النكوص عما كنت أنتويه من تقسيم هذا الجزء من الكتاب إلى قسمين، قسم عن الشرطة والأدب والآخر عن الشرطة والواقع. ففى مواجهتى لمثل هذا العمل هل كان يمكن أن يستريح ضميرى لو عاملته كما عاملته روز اليوسف على أنه مجرد رواية؟!

إننى أعيد تذكير القارىء أن ماورد فى الفصول السابقة من تناول أدبى إنما هو الواقع مستخلصا ومركزا.

سنتناول إذن عمل العميد حمدى البطران بنفس الطريقة التى تناولته وزارة الداخلية بها: أنه إفشاء لأسرار الوزارة، ولن نفعل

سوى اقتطاع مقتطفات منه تؤيد وتؤكد ما قلناه وما سنقوله، إلا أننى أستدرك هنا، لأقول لمن يقرأ هذا الكتاب فى أجيال قادمة، يقرأه مشدوها لا يصدق أن كل هذه البشاعات يمكن أن تحدث، أقول له أن ما يحدث كان أبشع بكثير.

لنتناول إذن أسرار وزارة الداخلية التى أفشاها العميد حمدى البطران، ولنحتفظ بها فى الذاكرة لنقارنها بما سيأتى فى فصول تالية كان من المفروض أن يتشكل منها قسم الشرطة فى الواقع. وعلى القارىء أن يدرك أننى سأتجنب ما استطعت أن أعلق أو أن أتدخل، لا لمجرد حساسية الموضوع، ولا خوفا من العواقب، و إنما لأننى أدرك أن ما أود فعلا أن أقوله كاف لمصادرة هذا الكتاب. سوف أترك ألفاظ الكتاب وجمله وصفحاته سياطا تجلد الضمائر، سوف أتركها عارية دامية مُدينة.

يقول العميد حمدى البطران:

"وكانت زوجتي عندما قرأت اسمي في حركة التنقلات منشوراً في الصحف اليومية أصابها نوع من الإنهيار، و تعاونت معها زميلاتها وأعدنها إلي البيت. .!

وعندما أفاقت طلبت مني الاستقالة و لا أذهب إلي الصعيد . . و التمست لها العذر، فقد كانت حوادث الإغتيالات التي تنشرها الصحف يومية، و قد سبق أن نشرت الصحف عن وقائع قتل فيها ضباط كبار برتبة اللواء، و أذاع التليفزيون وقائع الجنازة وكان مشهدها مؤثراً . . هذا فضلاً عن حوادث قتل المخبرين و أمناء الشرطة و الخفراء و اغتيال عدد كبير من المسيحيين.

و كانت الصحف قد أشارت إلي أن هذا المركز-الذي أنا مأمور له-يعتبر بؤرة الإرهاب . . و كان التليفزيون قد أذاع تفاصيل جنازة ضابط، وكان والده يبكي و لم تتحمل زوجتي رؤية زوجة الشهيد و هي تبكي و في يدها طفلتان تبكيان و نشرت الصحف عن كمية الرصاص التي قذف بها لواء شرطةفي سيارته، والعبوة الناسفة التي ألقوها علي السيارة ، و قالت الصحف أن العبوة التي ألقيت تكفي لنسف كوبري علي النيل.

و قبل ذلك اعتدوا علي عميد و أطلقوا عليه أكثر من تسعين رصاصةطلقة ألقيت من أربع بنادق آليةو مات الرجل علي الفور

ومــعــه أربعــة من جنود الحــراســة، و هرب الجناة وسط ذهـو
الناس التي وقفت ترقب الحادث في فضول . . و لا شك أنها لـ
ستعيش في ذاكرتهم أبد الدهر."
لنقرأ حمدى البطران أيضا وهو يكشف وجها من أوجه العـلا
بين الشرطة والنيابة، ولنتذكر ما ورد فى الجزء الأول من د
الكتاب، كانت بعض قطاعات الشرطة تمارس ممارساتها الشاذة
الصـعـيـد، وكـان من المنازل التى روعوا أهلها منزل موظف
النيابة ظن أن هيئته و أن سيادة النائب العام قادران على حما يـ
وعندما تقدم بشكوى إلى النيابة ظن وكيل النيابة أن الهيـ
المهيبة التى ينتمى إليها قادرة ، فاستدعى ضابط المباحث لسؤ
فى التحقيق فرفض، فأمر بضبطه و إحضاره فرفض المأمور تنـ
القرار، فأصدر وكيل النيابة قرارا بضبطه و إحضاره أيضـ
ولكن، لنقرأ الحكاية – لا الرواية – من عمل حمدى البطران:
"كان سائق السيارة قد سبق لضابط المباحث و معه ضابط
أمن الدولة أن فتشوا منزله الذي يقيم فيه مع شقيقه كـا
النيابة، و كان الكاتب قد اعترض القوة مدعياً أنه من أعـو
القضاء و لا يجوز تفتيش منزله إلا بإذن صريح من النيابة، و
أهانه الضباط و قيل أنهم ضربوه ضرباً مبرحاً ، وإن كان تفتـ
منزله لم يسفر عن شئ . . و لكن هذا التفتيش كان ضـ
حملات تفتيشية علي كل القري بحثاً عن الإرهابيين أو الأسلـ
و عندما حاول المأمور السابق الاتصال بوكيل النيابة لتوضـ
الأمر ، و شرح ملابساته و خلفياته رد علي التليفون كاتب النـ
إياه و كان وكيل النيابة مشغولاً بالحديث علي التليفون الآخر.
و عندما رفع كاتب النيابة التليفون و عرف أن المتحدث
مأمور المركز لم يضبط انفعالاته و قال للمأمور:
– عايز إيه. . ؟
و كانت لهجته فيها نوع من عدم اللياقة في الحديث مع شـ
مسئول، و عندما تدارك وكيل النيابة الأمر و تناول السماعة
الكاتب كان المأمور قد أدرك أن محدثه يسخر منه و يتعـ
إهانته و سمعه وكيل النيابة و هو يقول :
– يظهر أنني بتكلم مع ناس جهلة . . .

و وضع السماعة بعنف .
و قام وكيل النيابة بالاتصال بالمركز و طلب أن يتحدث مع المأمور. و تحدث معه بتحفظ شديد و أخبره أنه لم يرد عليه في أول الأمر، و أن الذي رد عليه هو الكاتب و أنه سيتخذ ضده الإجراءات الكفيلة بعقابه إدارياً، و التي قد تصل إلي حد نقله إلي محكمة أخري و في مركز يبعد كثيراً عن محل إقامته، و أن هذا لا يمنع تنفيذ قرارات النيابة.
و كان وكيل النيابة يتكلم مع المأمور بنوع من التحدي، الأمر الذي جعل المأمور يتمادي هو الآخر في التحدي، و أخبر وكيل النيابة أنه لن ينفذ هذا القرار حتى و لو كان الذي أصدره النائب العام شخصياً.
و ختم المأمور حديثه مع وكيل النيابة بتلك العبارة الخالدة:
- و ليكن ما يكون . . . !
و وضع سماعة التليفون . .
و توالت قرارات النيابة علي المركز في صورة إشارات تليفونية كلها تركز علي ضبط و إحضار المأمور و رئيس وحدة المباحث و نائب المأمور الذي حاول أن يتدخل و يتكلم مع وكيل النيابة.
و تأزم الموقف . .
و رفع المأمور سماعة التليفون و حكي لمدير الأمن كل ما حدث بالضبط و لم يهمل التفاصيل الدقيقة و قرأ عليه قرارات النيابة..
و يبدو أن مدير الأمن قد أبلغ مساعد أول الوزير للمنطقة الذي أبلغ بدوره الموضوع لوزير الداخلية، و اقترح مدير الأمن اعتقال كاتب النيابة و لم يعترض الوزير قال :
- هاتوه و القرار في الطريق . .
و أبلغ مدير الأمن القرار للمأمور الذي أصدر أمراً علي الفور لنائب المأمور و معاون المباحث بإحضار كاتب النيابة و اعتقاله حتي لو دخل إلي بطن أمه من جديد . . ! و كان رئيس النيابة قد اتصل بالمحامي العام في عاصمة المديرية و كان الرجل حصيفاً وأخبره أن الأمور لا تعالج بهذا الوضع، و أنه سيحاول حسم هذا الموضوع مع مدير الأمن.

و ذهبت القوة التي شكلها المأمور لاعتقال كاتب النيابة فوجده وقد اعتصم بسراي النيابة و رفض الخروج و لاذ بمكتب رئيس النيابة.
و أعيد الاتصال بالمأمور الذي اتصل بدوره بمدير الأمن فأمر بانتظاره خارج سراي النيابة و أنه لا داعى للتصعيد.
و اتصل رئيس النيابة مرة ثانية بالمحامي العام و أخبره بنبأ محاولة اعتقال كاتب النيابة فأمره المحامي العام بإخراج الولد من مكتبه و أن قرار نقله من عمله بعيداً عن النيابة إلي عمل آخر جاهز، و أنه يتعين عليه سؤال هذا الولد في تحقيق إداري وإرساله.
و كلف المحامي العام رئيس نيابة مكتبه بالإتصال بالمأمور وكانت علاقته به جيدة و أصدر قرارات تلغي قرارات وكيل النيابة السابقة."
ويضيف حمدى البطران : "كانت تلك الوقائع قد حكيت في المديرية قبل وصولي للمركز، و في المركز سمعت الواقعة بتفصيل شديد من أكثر من واحد.فقد حكاها لي رئيس وحدة المباحث و أضاف إليها وقائع ليس في إمكاني ذكرها.."
ألم أقل لك يا قارئى، أننى مهما كتبت فى هذا الكتاب فثمة وقائع ليس في إمكاني ذكرها، إما لأننى أجهلها أو لأننى لا أستطيع أن أوثقها، و أن ما أكتبه ليس سوى قمة جبل الثلج التى لا تكاد تمثل شيئا إزاء الكتلة الرئيسية للجبل.
فى موضع آخر يفشى حمدى البطران كيف أصبح انتهاك القانون من الشرطة قانونا:
"دخل نائب المأمور و الغضب يظهر علي وجهه الوسيم و قال :
- المفتش وجد تسعة في الحجز من غير أوراق . . !
قلت مندهشاً :
- كيف . . ؟
و كنت أعرف أنهم محجوزون بدون مبرر أو مسوغ قانوني وكانت دهشتي تتعلق بكيفية عثوره عليهم، اذ كان ينبغي إخفاؤهم بطريقة جيدة.
قال نائب المأمور :

- علي ذمة أمن الدولة . .

و كان يقصد أن المحجوزين أحضرتهم أمن الدولة لأجل إجراء مزيد من التحريات عنهم حتي تتمكن من إثبات العلاقة بينهم وبين المتطرفين.

قلت لنائب المأمور :

- حاول تتصل بهم-أمن الدولة-."

وفى موضع آخر يفشى حمدى البطران كيف تتعامل الشرطة مع الإرهابيين:

"اقترب مني المقدم مختار و همس في أذني بأن عناصر الجماعات الإسلامية يختبئون في منزل مهجور في ضواحي المدينة . .

و قال : إنه يبلغني قبل مدير المباحث-و كان بذلك يظهر مجاملته لي- و أخبرني أن المعلومة و صلته فوراً . . . طلبت منه أن يبلغ مدير المباحث، علي أن أقوم أنا بإبلاغ مدير الأمن، و لكنني تداركت و طلبت منه أن يتحقق من صدق المعلومة، فأخبرني أن أحد مصادره السرية أبلغه بذلك، و أشار إلي حديث كان يجلس العمدة همام باعتباره واحدا من أهم مرشديه. . أبلغت مدير الأمن و أبلغ هو مدير المباحث . . و أخبرني مدير الأمن أنه سيتصل بي بعد ساعتين ليبلغني القرار. . .غاب عني المقدم مختار فترة قصيرة و عاد و في يده خريطة مساحية واضحة للمركز و خريطة أخري للمدينة. . فرد الخريطة و أشار إلي ترعة تخترق عدة قري وتتبعها حتي وصلت إلي حدود المدينة و أشار إلي جزء و قال :

- في هذا البيت . .

و طوي الخريطة و بسط خريطة المدينة ، و نظر فيها، ثم أشار إلي منطقة خارج كردون المباني و حدد المكان. و أشار إلي إثنين من المخبرين و أخبرني أنهما يعملان في تلك المنطقة و أنهما يعرفان المنطقة جيداً. سألهما عن البيت الذي أشار إليه علي الخريطة. . قال أحدهما : إن هذا البيت مهجور ، و هو مملوك لرجل يعمل في الكويت منذ مدة طويله و قام صاحبه بتشييد منزلاً بدلاً منه. وقال المخبر الثاني:

- بعد ساعة واحدة أجيب كل حاجة. . !

حضر صحبة السيد اللواء ضابط برتبة عميد و ضابط مباحث برتبة عقيد.
جلس سيادته علي مكتبي و قال :
- طبعاً عندك فكرة عن المأمورية . .!
قلت و انا أزهو عليه :
- المعلومة من عندنا . .
ونظرت ناحية رئيس وحدة المباحث.قال اللواء :
- نحن في انتظار تليفون من مدير الأمن للتحرك.
ثم نظر ناحية العميد الذي حضر معه و قال :
- المجموعات و السيارات و السلاح . . ؟
نهض العميد واقفاً و قال :
- تمام . . .
دخل ضابط برتبة عقيد من أمن الدولة و سلم علي اللواء و باقي الضباط، و عندما جاء الدور عليّ صافحني و قدم نفسه لي باسمه و رتبته.
و همس في أذن اللواء بكلمات ، و بعدها هز اللواء رأسه و قال:
- تمام علي بركة الله.
خارج المركز كانت تقف جرارات زراعية حوالي ستة أو سبعة جرارات بالإضافة إلي ماكينة عملاقة من تلك التي تستخدم في تجريف الصخور و رفعها-تدفع الأشياء أمامها بعنف- و سيارات خاصة بالأهالي من تلك التي تنقل البضائع و الحيوانات، و كان أيضاً بالخارج جنود يرتدون الملابس المدنية-زي أهالي المدينة.
ركبت السيارة-نصف نقل-بجوار سيادة اللواء، كان يقودها بنفسه و أمامنا سيارة فيها باقي القوات و الجرارات الزراعية.
تحركنا ناحية أطراف المدينة.
و عند ميدان واسع توقفنا، و نزلنا خلف ضابط أمن الدولة، وأشار المقدم مختار إلي منزل و قال :
- هنا. .
و بسرعة أحاطت القوات المنزل من جميع الجهات، من الناحية الخلفية توجد زراعات قصب تمتد حتي نهر النيل، و هي عبارة عن مساحات متصلة، فاذا ما دخلها أحد يتعذرتعقبه أو

معرفة مكانه بالضبط، فحقول القصب كالبحر تماماً.
خرج أحد الضباط و في يده ميكروفون و أخذ يصيح . .
– علي كل الأهالي عدم الخروج من المنازل، و إغلاق النوافذ والتزام الهدوء. و بالفعل أغلق الأهالي بيوتهم. و بدأ الجنود في اقتحام المنزل!
و بدأ إطلاق الرصاص بغزارة، و سمعنا صراخ نسوة. . وصيحات فزع،ثم عم الهدوء، و خرج ضابط من المنزل و جري نحونا و قال :
– لم نجد أحداً . .
و سأله اللواء:
– علي من أطلقتم الرصاص؟
و سكت الضابط لحظة و قال :
– أطلقنا علي الموجودين في المنزل و لكن لم يصب أحد . .
و عاد بعده عدد من الضباط و الجنود و معهم رجلان و امرأة مسنة و أطفال
كان أحد الرجال يصيح:
– خربوا بيتي، منهم لله، منهم لله.
و لم أعرف من يقصد.
و لكننا في النهاية تراجعنا و عدنا إلي المركز.

* * *

هل هذه الأحداث هى التى تنشرها الصحف القومية مظهرة رجال الشرطة أبرياء وملائكة، و أنهم بعد التحريات الجادة، حاصروا المكان وبذلوا الجهد الجهيد لإقناع الإرهابيين بتسليم أنفسهم، لكنهم بادروهم بإطلاق الرصاص فاضطر رجال الشرطة الأبرياء الأطهار إلى الرد على النار بالنار؟.

* * *

فلنواصل قراءة دفتر أحوال حمدى البطران :
"اتصل بي ضابط من المديرية و أخبرني أنه علم الآن أن ثلاثة من أعضاء الجماعات الإسلامية قتلوا في المركز، كانوا مجتمعين في وكر و أن الثلاثة من أبناء هذا المركز، و يقيمون فيه، قال:
– إنه من المحتمل أن تصل الجثث قبل غروب الشمس، و كتبت الأسماء علي ورقة أمامي.

نظرت في ساعتي فوجدتها تقترب من الثانية ظهراً.

اتصلت برئيس وحدة المباحث و أخبرته بما سعته و طلبت منه أن يتعرف علي محال إقامتهم، و أخبرني أنه سيتولي هذا الموضوع.

بعد ربع ساعة جاء رئيس وحدة المباحث و معه عناوين و محال إقامة الأسماء التي أعطيتها له، و أخبرني أنه لن يحدث ما يعكرصفو الأمن العام أثناء عملية إحضار الجثث و إجراءات الدفن، و قال:

- يستحسن أن نستدعي العمدة همام . . !

- اثنين من القتلي في زمام قريته، و الثالث من عزبةبجوارقريته وتابعة له أيضا.

جاء العمدة همام . . !

و معه سبعة رجال و امرأتان، قال : إن اثنين من الرجال هما والدان لاثنين من القتلي و اثنان أشقاؤهما والخامس شيخ خفراء القرية و السادس مدرس ابتدائي جاء من قبيل المجاملة و السابع خال القتيل الثالث، و السيدتان هما والدة القتيل والثالثة مع قريبة لها.

وجدت نفسي أنظر ناحية والدة القتيل.

كانت ساكنة، لم ترفع وجهها عن الأرض، و كنت أعتقد أنها لن تسيطر علي نفسها و أنها لن تكف عن اللطم و البكاء و العويل.

و لكنها كانت صامتة و هادئة و كأن القتيل ابن ضرتها. .

أشار لهم همام أن يخرجوا ويجلسوا خارج المكتب.

وبالفعل خرجوا. الرجال وقفوا معاً، أما النسوة فقد التصقن بالحائط و جلسن علي الأرض و هن مطرقات..أشفقت علي صمت المرأة و تماسكها . . قال رئيس وحدة المباحث لهمام :

- جهزت المقابر. .؟

أجاب همام :

- أيوة . . أبو نزولاوي هناك و زمانه جهزها. .

اتصلت بالمديرية فأخبروني أن الطبيب الشرعي في طريقه إلي المستشفي حيث توجد الجثث.بعد نصف ساعة بالضبط خرجت و معي قوة كبيرة و أهلية القتلي و انتظرنا عند أول الطريق

المؤدي إلي المدافن. في أول الأمر وصلت سيارة شرطة صغيرة فيهاضابط برتبة نقيب وفي يده جهاز لاسلكي توقفت السيارة ونزل منها الضابط و بعدأن أدي التحية أخبرني أن الموكب خلفه، وماأن أنهي كلمته حتي ظهرت سيارة إسعاف بيضاء و هي قادمة نحونا بسرعة كبيرة و تطلق أصواتاً مزعجة كأنها نواح أو صراخ. خلف سيارة الإسعاف ثلاث سيارات تحمل تشكيلاً كاملاً من الجنود المسلحين و معهم عدد كبير من الضباط النظاميين و ضباط أمن الدولةو معهم أيضاً اللواء مساعدالمدير للمنطقة، و ضباط من المباحث الجنائية. ركبنا السيارات وركب أهلية القتلي سيارة رئيس وحدة المباحث و معهم المخبرون.

وانطلقت بسيارتي في مقدمة الموكب. وقفنا في إنتظار أن تفتح سيارة الإسعاف أبوابهاالخلفية لإخراج الجثث. . انضم إلينا أهل القتلي وبعض الأهالي من سكان المنطقةالمحيطة المقابرولم يكن غريباً أن تبكي القرية شبابها و تلطم الخدود فقد مرغوا هيبةالشرطة ووضعوها في التراب.. وأيقنت أنكل المحاولات التي تبذل لاجتثاث عادة الثأر لن تجدي ما دامت الندابات ينشدن مثل هذهالأناشيد التي تقطع القلوب و سمعت واحدة تصيح :

عيني عليه لما وقع
و الدم من جرحه نقع
عيني عليه لما راح
و الدم من جرحه ساح
يوي ..يوي .. يوي

ثم كررت الكلمات عدة مرات .. و في كل مرةيزداد اللطم والصياح . . وكنت أفكر في طريقة تمنعهن من الإسترسال في هذا الكلام الذي يمزق نياط القلوب، و لكنني تراجعت و قلت في نفسي :

-لا ينبغي أن نمنع الناس من متعةالحزن . .

و أنزلت الجثث من سيارة الإسعاف و وضعت في النعوش الثلاثة التي جهزت. ولاحظت أن الجثث وضعت في النعوش كما هي و آثار الدماء عليها و وضعت في النعوش في صف واحد.ووجدت الرجال قد اصطفوا في صفوف ثلاثة تجاه القبلة

والنعوش أمامهم .. وتقدم واحد منهم يبدو عليه الوقار، وقف أمام الصفوف ووجهه تجاه القبلة و رفع يديه لأعلي و قال:

- اللهم اغفر لهم، و أنزلهم جناتك، فهم عبادك، و ماتوا من أجل إعلاء كلمتك !

ثم أقام الصلاة و كبر لصلاة الجنازة و خلفه الناس و قال:

-نويت أقيم صلاة الجنازة علي أرواح الشهداء . . الله أكبر .

بعد انتهاء إجراءات الدفن،أحاط المخبرون بالرجال الذين أحضرهم العمدة همام من أهلية القتلي، أصدر اللواء مساعد المدير تعليماته إلي الضابط بإخلاء المقابر من الناس. و لم ننصرف من المقابر إلا بعد أن غادرها كل الموجودين من الرجال و النسوة. وقام رئيس وحدة المباحث بإحضار " أبو نزلاوي" و هوالتربي الذي فتح المقبرة ، وهو الذي تولي ادخال الجثث في المقابر ويقيم في منزل بجوار هذه المقابر، و قام بالتنبيه عليه بحراسة المقابر و عدم السماح لأحد بالعودة إلي المقابر أو إعادة فتحها مرة ثانية لإخراج الجثث. وذلك لاحتمال أن يقوم بعض الشباب بفتح المقبرة و إخراج الجثث للتشهير بالشرطة . . و أعلن الرجل بكل ثقة عن مسؤليته عن حمايته للمقابر و أنه لا يمكن لأحد الإقتراب منها إلا بغرض الدفن. . !.

و لكزه العمدة همام في جانبه و قال :

- أوعي يا بن الكلب تبيعهم بالقطعة لطلبة الطب . . ؟

و كدت أضحك . . !

و استطرد العمدة همام قائلاً :

- لا مؤاخذة يا باشا .. أصل ابن الشرموطة ده...

و أشار إلي الحانوتي " أبو نزلاوي "و قال :

- بعد ما نمشي هايبيع كل جثة بالشئ الفلاني . . !

* * *

أما الطريق الأسفلتي القاهرة-أسوان- فقد صنعت فيه مطبات هائلة تجعل أي سيارة تتأرجح و تهتز و كنت أسمع من سيارتي صوت احتكاك أجزائهاالعنيف عند عبورها هذا المطب و سمعت أحد السائقين الذين عبروا المطب بصعوبة يصيح:

- الله يخرب بيوتكم ..

وقالها بطريقة تنم عن حقد دفين فقد أوشكت سيارته الضخمة المحملة بحمولة هائلة أن تنقلب علي أحد جانبيها من فرط علوّ المطب، فضلاً عن ارتطامه بالأجزاء السفلية للسيارة. وقد شاهدت هذا الشعور بالغيظ نفسه في عيني عبد الرشيد عند عبوره هذا المطب، نزلت من السيارة وصافحت الضباط،كانوا في سن الشباب لا يتعدي الأكبر منهم سن الثالثة أو الخامسة والعشرين، سألتهم عن أحوالهم ، أخبرني واحد منهم أنه كان يعمل في الإسكندرية و الثاني أخبرني أنه قادم من بور سعيد، وكانت نظراتهم قاسية و فيها صرامة، بالقرب منهم توجد غرفة مخصصة في الأصل لرجال المرور ينامون فيها، شاهدت فيها أربعة من الشباب من أهل المدينة، و قد جلسوا القرفصاء ولاحظت أنهم يرتدون الملابس البلدية ذات الفتحات المستديرة عند الرقبة و الكم الواسع و كانوا متجاورين، و عندما دققت النظر اكتشفت أنهم مربوطون بعضهم ببعض بواسطة الأكمام الواسعة للجباب الذي يرتديه كل منهم. بعضهم كان وجهه متورماً و فيه كدمات و بعضهم لم يتمكن من الجلوس فأسند ظهره للحائط ورفع وجهه لأعلي و قد تمزقت ملابسة تماماً و كانت بالية وقذرة.

سألت الضابط عنهم.

قال البورسعيدي:

- حالات اشتباه.

و قال السكندري:

- إنه بعد انتهاء نوبة الخدمة و هي تمتد لست ساعات لابد من إحضار أكثر من عشرين أو ثلاثين فرداً من شباب المدينة من أجل استجوابهم أو الاشتباه في أن أحدهم ربما ينتمي إلي الجماعات.

كان البورسعيدي يتحدث في جهاز لاسلكي يحمله في يده و هو يخاطبه قائلاً:

- كله تمام، و لا ملحوظات. .

و أضاف السكندري أنه كلما اكتمل عددهم سته أو سبعة تأتي سيارة لنقلهم إلي مقر المنطقة و هناك يتم استجوابهم و في حالة عدم حضور سيارة يقوم بالاستيلاء علي أي سيارة لتوصيلهم إلي مقر المنطقة. وكان الضابط يتحدث بضيق و مرارة و في النهاية

ابتسم و أطلق تنهيدةهائلة قائلاً :

- متي نرجع لبلادنا ؟!

* * *

هل يحتاج القارئ إلى تعليق؟.

وهل يحتاج النقاد إلى أدلة تثبت أن ذلك ليس خيالا خصيبا لضابط أديب، علي أى حال فلنواصل:

خرجنا معنا من المكتب و وجدنا السيارة و هي عبارة عن لوري مركب عليه صندوق كبير فيه فتحات للتهوية من أعلي و له باب من الخلف وسلم و بجوار السيارة وقف صول الترحيلات و هو يتحدث مع واحد من هؤلاء المقبوض عليهم، و كان الوقت ليلاً وسمعت الحوار التالي:

- و الله ما معاي صنف المعاملة يا بيه . . !

- طيب خلاص الشنطة ضاعت . .

- إعمل معروف ، أحب علي رجلك ، أنا مطرود من السعودية والكفيل الله يسامحه فنشني من غير ما أقبض أجري .

- أنت ساعة ما أخذناك من ترحيلات الجيزة مكنشي معاك شنط.

- ربنا يخليك، و يخلي العيال ، و يعليك .

- هي كلمة واحدة ، أنت مكنشي معاك شنط.

- أحب علي رجلك.

و تدخل شخص ثالث في الحوار بين الصول و الشخص المقبوض عليه تبين فيما بعد أنه سائق سيارة الترحيلات ، و قال للمقبوض عليه:

- أنت كلامك كتير . . .

-اعملوا معروف، أنا بقالي خمسة و عشرين يوم من ساعة ما وصلت مصر، و لا أملك من الدنيا غير الشنطة اللي فيها أغراضي، لكن لما أوصل لأهلي أجيب منهم.

- سيبك منه، ده غلبان . . .

تدخلت أنا و نائب المأمور و أصبحنا بين الشاب المقبوض عليه و سائق السيارة و هو بدرجة صول و رئيس حرس اللوري وهو بدرجة صول أيضاً. .

و عند وصولنا سكت الجميع ، و شاهدت المقبوض عليهم و قد جلسوا القرفصاء علي الأرض.

سألت الشاب :

- إيه الحكاية.

لم أكن أرتدي الملابس العسكرية (الميري)و كنت أرتدي قميص نص كم و بنطلون وهو ما جعل الشاب يرتاب فيّ و تدخل نائب المأمور الذي كان يرتدي الملابس الميري و يضع علي كتفه العلامات النظامية و قال للشاب :

- البيه المامور . .!

و فهم الشاب أنه يتحدث إلي سلطة أعلي من صول الترحيلات و قال :

- يا طويل العمر ، كان معاي شنطة و الصول ده أخذها مني .

و كدت أضحك . و قال نائب المأمور:

- إنت كنت في السعودية ؟

فقال :

- نعم يا طويل العمر.

و يبدو أن الشاب ما زال متأثراً بطريقة السعوديين في التحدث إلي الحكام هناك.

و استطرد قائلاً :

- أيوة طلعت عمرة من سنتين ، و اشتغلت عند واحد عمل لي إقامة و أصبح كفيلي ، لكنه طلع لص و لم يعطني أبيض و لا أسود و لما اشتكيته فنشني.

سألته :

-يعني إيه فنشك. .

فأجاب:

- يعني فنشنى، ما ليش شغل و قعاد تاني في السعودية ورحلوني .

و تدخل الصول و قال و هو يمسك كتف الشاب :

- أنا اللي أخذت منك الشنطة و الا أنت اللي رهنتها لبتوع الجيزة ؟

و ترك الصول كتف الشاب و اقترب مني و قال :

- الولد ده يا معالي الباشا كداب، هو كان بايع الشنطة للجماعة بتوع الجيزة و أنا قلت لهم عيب كدة. . ده راجل غلبان و متغرب

علشان القرش ، و جبت منهم الشنطة.
و سألته:
- أين الشنطة ؟
و صاح الصول و هو يلتفت إلي زميله سائق السيارة الذي انتهز فرصة انشغالي مع الشاب و رفع غطاء موتور السيارةودفن وجهه عند الموتور:
- هات الشنطة يا عياد. . !
و سمعت صوت ارتطام غطاء الموتور عندما أغلقه عياد و صعد لأعلي السيارة في الكابينة و عاد و معه حقيبة من الجلد كبيرة الحجم مقفولة بقفل ، و عندما شاهدها الشاب صاح:
- هي دي. . !
و قلت لنائب المأمور أن يعمل تحقيقاً في الواقعة و يسأل الشاب و الصول و سائق السيارة و يحرز الشنطة و يرسل المحضر للنيابة العامة.
و عندما سمع الشاب هذا الكلام صاح قائلاً بانفعال :
- يا طويل العمر . . أنا عايز أروح لأهلي .. . لسه ما أروح النيابة و استنني ، و يمكن المسألة تنقلب عليّ، أنا عايز أشوف أمي و أبويا و مراتي، و ربنا يخلص لي حقي يا شيخ . .
و كان يتكلم بلهجة السعوديين .
و انفعل الصول عندما أمسكه نائب المأمور و قال للشاب :
- اشتكيتك لربنا يا بعيد، الله يخرب بيتك و يقطع عيشك زي ما هتقطع عيشي.
و كان يقصد الشاب.
و وجدت الصول ينفلت من نائب المأمور و يرتمي عند قدمي يحاول تقبيلها، و عندما لم أمكنه و قلت:
- استغفر الله العظيم.
هرج إلي قدمي نائب المأمور. وتجمع عدد كبير من الصولات و العساكر و الجنود المجندين و الضباط و الخفراء النظاميين . . و بدأ الصول يستعطف كل الواقفين بطريقة مؤثرة.
أصدرت أمري لجميع الواقفين بالإنصراف.
و سمعت الجالسين علي الأرض من المقبوض عليهم يقولون :

- ينصر دينك ، يحيا العدل ، تحيا حكومة مصر ، عاش حسني مبارك ، يحيا المأمور.

و أصدرت أمري إلي الجميع بالسكوت و التزام الصمت، وطلبت من أحد الضباط اصطحاب الصول و السائق و التحفظ عليهما لحين تقديمهما للمحاكمة و انهاء أوراق المقبوض عليهم ، وطلبت من ضباط المباحث تفتيش السيارة و ضبط الأشياء التي من أغراض المقبوض عليهم.

* * *

أي ألم وأي عار.....

هل تتذكر أيها القارىء فتحي فضل وصنع الله إبراهيم؟ ؟!!.

* * *

فلنقرأ سرا آخر من أسرار وزارة الداخلية يفشيه العميد حمدى البطران ، وهو سر يتعلق بأحد أصدقائه من ضباط الشرطة:

و أنا في السياحة كنت أعمل في تأمين فندق " . . . . . " و كل ضابط له غرفة في الفندق ينام فيها طوال المدة المعين فيها خدمة، و وظيفة ضابط السياحة في الفندق هي حفظ الأمن و النظام و التحقق من شخصية بعض النزلاء و تحقيق بعض الوقائع المخلة بالأمن. و حدث أن جاء سائح من أوغندا و معه ابنته، و لاحظت أن الإبنة دائمة الجلوس في الـ" ريسبشن" و كانت تحدق في النزلاء بطريقة مريبة.و عندما اقتربت منها حدقت فيّ و وجدت نفسي أحدق في عينيها، و شيئاً فشيئاً وجدت أنها بريئة ووجدت نفسي أستريح كلما نظرت في عينيها و اصطحبتها إلي غرفتي ، مكثنا فيها ساعة واحدة، و بعد أن انتهينا ناولتني مائتي دولار، و قالت و هي ترتب شعرها :

- مرسي . .

و في اليوم التالي جاءت سائحة أخري مثلها من غينيا-أوغندا مش فاكر. . و مكثت نفس المدة و أعطتني مائتي دولار أيضاً ووجدت أحد العاملين في الفندق ينظر نحوي بغيظ و حقد.

و أصبح دخلي اليومي من هذا الموضوع حوالي خمسمائة دولار و بدأت أعرف السائحات الخليجيات ، و بينما كانت معي واحدة منهن حتي سمعت طرقاً عنيفاً علي الباب وفتحت الباب فوجدت مدير الإدارة، و معه اثنان من الضباط ،المهم ساومني علي كتابة

استقالة فرفضت ، وبالطبع كان يستحيل عمل محضر بالواقعة لأن الخليجية كانت في مهمة رسمية و معها زوجها و هو مسؤل كبير، و لكنهم أبلغوا الوزير عن الواقعة الأخيرة فقط فأصدر قرار بنقلي إلي الصعيد.

* * *

.... !!!

* * *

فى مثل هذا الجو الموبوء والمسموم لابد أن يعتبر الداعر شريفا والشريف مجنونا، أما الوقار فعلامة خطيرة من علامات بدايات الإرهاب، فإذا وصل الأمر للصلاة فالمرض لابرء منه. فلننظر كيف ينظرون إلى ضابط مباحث راجع نفسه عندما اكتشف أن بعض ما تقوم به بعض قطاعات الشرطة إجرام فى إجرام، ولنقرأ معا ما قاله العميد حمدى البطران:

لاحظت عدم وجود رئيس وحدة المباحث. .أرسلت من يستدعيه ويخبره بوجود مدير إدارة البحث و السيد اللواء مساعد المديروباقي الضباط. و عندما وصل كان يضع طبنجة في وسطه ويبدو عليه الهدوء و الوقار، و كنت قد لاحظت عليه ذلك في الأيام الأخيرة، و كذلك ندرة جلوسه معي في المكتب كما كان يفعل معي. . وعرفت أنه بدأ يكثر من الجلوس في مكتبه، و كنت قد دخلت عليه في مكتبه بالطابق العلوي فوجدته يصلي فجلست أنتظره و لاحظت أنه ما أن ينتهي من صلاه حتي ينهض و يرفع ذراعيه و يدخل في صلاه جديدة.و أيقنت أنه يتعمد الصلاة حتي لا يجلس معي. .و حاولت جاهدا أن ابحث في نفسي عن سبب نفوره مني . . و لكنني لم أعثر علي شئ ممكن أن يؤدي إلي هذه الجفوه بيني و بينه.

و الحق أنني حاولت مغادرة المكتب و انتظاره في مكتبي حتي يفرغ من الصلاة وما أن نهضت وكان هو جالساً يقرأ التشهد وبعدها فرغ من الصلاه ونهض لإستقبالي و رفع السجادة عن الأرض قلت له :

– حرماً:

قال و هو يطوي السجادة . .

– جمعا إن شاء الله .

و تحدثت معه ساعتها في أمر هؤلاء الذين يتم حجزهم بمعرفة المباحث دون مسوغ قانوني، و أخبرته أنني وصلتني معلومات عن قيام بعض المخبرين باستغلال نفوذهم، و طلبت منه أن يستبدلهم بغيرهم و ألا يتوسع في جلب حالات الإشتباه.و نظر في عيني و قال:

- طبعاً. .

و صمت لحظة و قال :

- سيادتك تعرف أنه غصب عني . .

بعد أن انضم رئيس وحدة المباحث إلي الجلسين قال اللواء:

- إحنا جاهزين للقيام بحملة علي قرية بني فلتر ، و فيها ثلاثة من أخطر القيادات ، من المحتمل التعامل معهم.

ثم توجه بعد ذلك إلي مدير المباحث و قال:

- فيه أذونات من النيابة بالقبض والتفتيش ؟

و فتح ضابط أمن الدولة فمه و أغلقه . . و حملق في الهواء وسكت مدير المباحث من هول الدهشة و المفاجأة التي جاء بها السيد اللواء في الوقت الحرج نظرنا كلنا إليه . . و شعر الرجل في تلك اللحظة أنه أخطأ . . تبادلت معه النظرات و خيل إليَ أنه يستغيث بي ، ربما يريد ان يحملني أنا المسؤلية باعتبار أن القرية -بني فلتر-تتبعني أنا من ناحية الإختصاص المكاني باعتباري مأمورا للمركز و طبقاً لهذا فأنا المسؤل الأول والأخير.

كان ضابط أمن الدولة يشعر أنه مركز السلطة، و أننا جميعاً ينبغي أن نستمع إليه وننفذ فقط ، فهو صاحب المعلومة والمسئول عنها ، و لم يكن ضابط أمن الدولة يتوقع هذا السؤال ، ولا أي واحد من الحاضرين و كذلك لم يجر العرف الشرطي و لا التقاليد الأمنية علي قيام رتبة أعلي بالاستفسار عن موضوعات كهذه باعتبارها من بديهيات عمل الشرطة و إنما هذه الأمور يتولاها الضابط المختص و يرتب لها مسبقاً، و هو في هذه الحالة ضابط أمن الدولة.

قال ضابط أمن الدولة و قد تدارك نفسه ، و كان في تلك اللحظة ينظر ناحية اللواء:

- المشكلة ليست في الإذن ، و لكنها في كيفية إخراج الأولاد

من الوكرو التعامل معهم ، نحن نريدهم أحياء ما أمكن .

و لم أتركه يسترسل و وجدت نفسي مندفعاً للكلام وقلت :

- بالعكس المشكلة الأساسية هي الإذن و طالما لا يوجد إذن فيجب إعادة الحساب من جديد و أنا لا أستطيع أن احتمل شيئا، ولا أحب أن يسألني أحد عن خطأ و أقف عاجزاً عن الرد.

تدارك اللواء القضيةالتي أثارها و قال :

- أنا لا أقصد الإذن بذاته، أنا أريدتوفير الغطاءالقانوني لتصرفنا . .

و تحدث مدير المباحث و كان يراقب الموقف بهدوء وقال :

- الأذونات موجودة..!

نظر إليه ضابط أمن الدوله بارتياب، و سرعان ما تهللت أساريره و قال وهو ينظرإلي اللواء:

-خلاص المشكلة اتحلت.

نهضنا جميعاً، و حمل كل منا سلاحه الآلي، و سرت أنا بجوار اللواء وعندما وصلنا إلي سيارته طلب مني أن أركب معه.

و خيم علينا الصمت، و سألني فجأة.

-أنا غلطت في حكاية الإذن دي؟

قلت له :

- أبدا يا باشا ، بالعكس الأمور يجب أن تكون واضحة ومحسوبة. قال اللواء :

- ضباط أمن الدولة يتصرفون دون حساب للعواقب وعند تحديد المسئولية ترجع لصاحب الاختصاص.

وسكت الرجل لحظة كأنه يعيد التفكير في عواقب كلمته و قال:

- أنا أعرف أن كل كلمة قلتها ستصل إلي القيادات، ولكني يجب أن أتكلم الحق ..

و أشفقت علي الرجل، فقد كانت حالته الصحية واضحة ويبدو عليه ضيق شديد في التنفس و هو ما لم أشاهده من قبل فيه، وكانت مخارج الألفاظ عنده غير ميسرة.

و كنت أعرف أنه خدم طويلاً في مجالات الأمن العام، و يحضر دورات مكثفة في أكاديمية الشرطة و خارج البلاد و له مؤلفات في مجال مكافحة المخدرات و لكنه بلا شك كان متأثراً بالطابع

النظري الأكاديمي الذي يفضل دائما الإرتكاز علي الجانب القانوني.وهو بلا شك يجهل أن الأمر يختلف حيث يتعين عليه التعامل مع جريمة من نوع خاص، و هو نوع من الجرائم له طابع سياسي فضلاً عن تعاطف الناس والجمهور مع هؤلاء الذين ننظر إليهم باعتبارهم متطرفين، و ينظرون هم إلي أنفسهم كمجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله . .بل و يبررون قتل الخفراء والجنود و الضباط ويرجعونها إلي آيات الله في القرآن الكريم والأحاديث النبوية و يعتبرونها من أعوان الطاغوت. . و الناس هنا يتابعون الموقف و يشفقون عليهم، و يخافون منا و من سطوتنا و جبروتنا، و الأمر في نظر الناس مباراة بيننا و بين المتطرفين و من ينتصر سيقدمون له الولاء و يجهزون له كرسي الحكم. . و أيدني الرجل في كل كلمة و قال باستسلام :

– أنا بعد شهر أو شهرين سأكون في المعاش . .

و تأملت الظلام الدامس حولي من خلال نافذة السيارة المفتوحة و قال:

–عندما تصبح في مثل سني سوف تشعر أكثر بهذه الأمور . . !

و وافقته علي رأيه دون أن أفكر فيه. صعدنا لأعلي ، وسرنا في طابور يتقدمه ضابط أمن الدولة حتي وصلنا إلي منطقة مستوية أعلي الجبل ، و توقفنا بجوار بعض الحوائط القديمة المشيدة بالأحجار وجعلناها بمثابة ساتراً طبيعياً لنا . .وعلي امتداد النظر شاهدنا فتحة كبيرة سواء في الهضبة المنبسطة أمامنا، وقال ضابط أمن الدولة إنهم سيخرجون منها بعد نصف ساعة بالضبط. تقدم ثلاثة من القوات الخاصة بملابسهم السوداء وفي يد كل منهم بندقية آلية عليها تلسكوب، و في يده الثانية جهاز لاسلكي مضبوط علي نفس الموجة معنا.كانوا يهرولون وظهورهم منحنية، و عندما ابتعدوا عنا خيِّل إليّ أنهم ثلاثة من ضباع الجبل الضخمة تسير في الصحراء . . و بعد ابتعادهم ركض خلفهم ثلاثة آخرون وهرولوا بنفس الكيفيه حتي ابتعدوا عن الأنظار .و تعلقت أنظارنا بالمنطقة التي غابو فيها. . !وحبسنا أنفاسنا . . . وخيِّل إليّ أن عقرب الثواني في ساعتي لا يتحرك، وأن الدهر توقف عند هذه اللحظة.و بعد حوالي نصف ساعة كاملة سمعنا نباح الكلاب.

.كان النباح متقطعاً . . سمعنا ثلاث دفعات من بنادق آلية.و قال ، واحد من الضباط:

– بنادقنا. .

و قال ضابط أمن الدولة:

– كلها بنادقنا..!!

ثم وجه كلامه نحوي و قال :

– أنت نسيت أن السلاح اللي مع العيال هو السلاح اللي أخذوه من عساكر نقطة الشرطة بعد ما ضربوهم. .

و كان قلبي يدق بعنف . . و كنت أعرف أنه في تلك اللحظة تقتل أنفاس بشر ، و تصعد أرواحهم إلي خالقها ، و هناك سوف تسأل عن أعمالها.ثم عم السكون . . و أعقبه صراخ حاد . . ثم نباح الكلاب ، و انطلقت دفعات أخري و خيم السكون مرة ثانية .وسمعت جهاز اللاسلكي يصفر في كف نائب المدير، و جاء صوت واضح في الجهاز يقول :

– مبروك يا باشا . المأمورية انتهت . . ممكن سيادتك تتفضل .

وشاهدت ضوءا خافتا ينبعث من الشرق ، كان الصباح ينبلج، وأمسك اللواء نائب المدير بندقيته و نظر نحونا و قال:

– كل واحد بسلاحه مع الحرص الشديد. .وهيمنت علينا مشاعر متضاربة . . و خيل إليّ أن عزرائيل لم يغادر المنطقة مع رجاله وأعوانه بل و تصورت أنه من الممكن أن يكون قد استقر في هذا المعبد الفرعوني المهجور. و شعرت برجفة تسري في كياني، وهيمن عليّ خوف شديد و أيقنت في تلك اللحظة أنني لا أصلح للعمل. . بمجرد أن تحرك نائب المدير ونحن حوله سرت في جسدي نشوة غريبةو طردت كل أحاسيس الخوف السابقة و ازدادت قبضة يدي إحكاماًعلي البندقية. و هيمنت عليّ نزعة غريبة و رغبة عارمة في استعمال السلاح وإطلاق النار في أي اتجاه و علي أي أحد و خفت من هيمنة الشعور عليّ.وكان ضوء الصباح قد بدأ يغمر المكان.وشيئاً فشيئا بدأت الأشياء تتضح أمامنا . . وشاهدنا رجالنا الستة و هم منبطحون علي الأرض في وضع الإستعداد ، كانت الجثة لشاب حليق الذقن و الشارب و له شعر غزير في مقدمة رأسه و قد سالت الدماء عليه فبدأ ملبداً و فيه بقايا

رمل.وكان الشاب يرتدي سترة كاكية من نفس النوع الذي يرتديه أفراد القوات المسلحة ، و سروالاً من الجينز الأزرق.

و بالقرب من الجثة وجدنا جثتين أخريين ، واحدة وجهها لأعلي والفم مفتوح و الدماء النازفة منها تخثرت علي الرمال و تجمعت كبقعة كبيرة متصلة بالجثة من الناحية اليمني، وقد أحدث الرصاص الكثيف ثقوباً كثيرة متجاورة فيها و بدا تجويف البطن و فيه ثقب هائل برزت منه الأمعاء المهترئة. . و كان الجلد حول الفتحة محترقاً و لونه أسود.والجثة الثانية لشاب اصلع تفتتت عظام صدره تماماً و احترقت الملابس عند صدره و بطنه وكان فمه مفتوحاً، و يبدو ان الروح فارقته قبل أن يطلق صيحة الموت الأخيرة. . وظل الضابط في باب الوكر ، و انشغل بعضهم بالبحث عن السلاح، و قمنا بتفتيش الوكر الذي كان عبارة عن باب كبير يفضي إلي مدخل واسع وسط الأحجار "كهف"و عندما دخلنا وجدناه يتشعب 'لي دهليزين. في الدهليز الواقع ناحية اليمين عثرنا علي كيس فيه كمية كبيرة من الطلقات و كيس آخر فيه لفة ورقية فتحها ضابط امن الدولة فوجد إحدي عشر رزمة من الأوراق النقدية فئة العشرين جنيهاً.

و قال ضابط أمن الدولة :

- المتعلقات الشخصية و الأوراق أشوفها بنفسي. .

و بالفعل عثر بعض الضباط علي مجموعة من الخطابات مربوطة بقطعة من البلاستيك كالمستخدم في ربط النقود، وأعطوها لضابط أمن الدولة. خارج الوكر كان اللواء نائب المدير يبلغ مدير الأمن بالتفاصيل ، ظل بعض الضباط بجوار الأشياء التي وجدناها في الوكر و كان أحد ضباط المباحث يسجل في ورقة معه الأشياء الموجودة، و كانت الشمس قد بزغت من الشرق،وبدأنا نتجه ناحية السيارات للعودة عندما سألني سائق السيارة:

- صحيح يا باشا لقيتوا فلوس ؟

و لم أرد عليه.

و عندما اقتربت من سيارة اللواء نائب المدير وجدت ضابط أمن الدولة يقول له:

- عن إذنك يا باشا نوزع الغنائم.

و بالفعل قام بإفراغ محتويات كيس النقود علي السيارة البيضاء و وقف العساكر و الجنود الثلاثة صفوف و قام الضابط باعطاء كل واحد منهم ورقتين من فئة العشرين جنيهاً.

و تجمع صف آخر يحتوي علي السائقين و المخبرين و حراس نائب المدير يتقدمهم حارسي الخاص أبو خلول فقام ضابط أمن الدولة باعطائهم أربع ورقات من فئة عشرين جنيهاً لكل واحد منهم . عندما عدنا إلي النقطة لاحظتأن ضابط المباحث لم يتكلم قط وكان يمسك ببندقية من البنادق التي عثرنا عليها بيده دون أن ينطق بكلمة واحدة، و قبل أن يجلس ناول البندقية لواحد من المخبرين دون كلام. . اقتربت منه و سألته عما به فقال:

– أبداً . . فقط لم أتمكن من صلاة الفجر . . !

نظرت غليه نظرة طويلة و تأملته، ولاحظت انه أشاح بوجهه بعيداً عني ، و أيقنت ان ثمة تغييرا حدث لهذا الشاب و أنه ينبغي ملاحظته جيدا. . وقررت ان أقترب منه أكثر و قلت له :

– إعمل حصر بالمضبوطات، و جهز الإخطار لأنك انت المختص والواقعة تابعة لإختصاصنا المكاني.

قال و هو مطرق للأرض:

– مدير المباحث موجود.

سألت مدير المباحث فقال :

– إسأل نائب المدير.

و فعلاً اقتربت من نائب المدير و أخبرته عما إذا كان ضروري عمل إخطار و حصر بالمضبوطات فنظر إليّ نائب المدير نظرة طويلة و قال و عيناه مركزتان عليّ :

– بعدين .

و بعد أن قدم له عسكري النقطة كوب الشاي قال :

– كفاية كده نروح ننام..

دخل نائب المأمور ومعه الإخطار الذي سيخطر النيابة عن أحداث فجر اليوم ، وكان الإخطار عبارة عن بلاغ من مجهول بوجود ثلاث جثث في المكان الذي كنا فيه.و بعد أن قرأت البلاغ طلبت منه أن يثبت ساعة تقييد البلاغ من مجهول و بعد ذلك يرسله للنيابة. ثم أخبرني نائب المأمور أن أحد المواطنين أبلغ أن

نجله غرق في ترعة في الإبراهيمية، و انه بعد استخراج الجثة بعد غرقه بثلاثة أيام وجدوه، مقتولاً . . طلبت من نائب المأمور أن يحرر محضراً يسأل فيه الرجل عن أقواله و ينتقل إلي لمعاينة الجثة ويخطرالنيابة. نظرإليّ نائب المأمور و ابتسم. فهمت انه يحاول أنه يذكرني ان هذا ليس عمله. . إذ كان ينبغي تكليف ضابط منوب المركزأو المعاون، و فعلاً كلفت معاون المركزو طلبت من نائب المأمور اخطار رئيس وحدة المباحث.بعد نصف ساعةجاء أحد المخبرين و أبلغ رئيس وحدة المباحث بأن بعض أفراد الجماعات الإسلامية يتجمعون عند الجامع الكبير لعمل مسيرة للتنديد بأعمال الشرطة . . و علي الفور تم إبلاغ مدير الأمن ، و طلبت منه أن يرسل تعزيزا من القوات وذكرني المدير بالتعليمات التي تمنع خروجهم بأي صورة من الصور، و كذلك منع الهتافات . . اصطحبت العدد الكافي من القوات و الضباط و رئيس وحدة المباحث وانتقلنا إلي المسجد المذكور فوجدنا حوالي عشرة أشخاص يرتدون الملابس البيضاء ولهم لحي طويلة، و في أيديهم العصي الصغيرة أمرناهم بالإنصراف . . و فعلاً تفرقوا . . . و أثناء انصرافهم كانوا يرمقوننا بنظرات غاضبة. و بعد حوالي ساعة جاءت القوات من المديرية وتم وضعها علي مداخل الطرق المؤدية إلي المسجد و تفتيش السيارات الداخلة إلي المنطقة و الخارجة منها.اتصل بي وكيل النيابة وأخبرني أن والد الغريق ألح إليه أن قوات الشرطة هي التي قتلت نجله قبل أن يغرق، و أن الرجل كان يبكي و أنه حاول تهدئته وبعد حوالي ساعتين جاء الطبيب الشرعي و انتقل إلي المستشفي حيث توجد جثث القتلي ..اتصل بي وكيل النيابة مرة ثانية، وكانت الساعة تقترب من الرابعة عصراً و تكلمنا في موضوع الجثث الموجودة في المستشفي، و أخبرني بصراحة يشك في رجال الشرطة.و كنت اعرف أنه ليس لديه دليل واحد يستطيع أن يبني عليه اتهامه للشرطة(...).بعد أن وضعت السماعة اتصل بي مدير المستشفي العام الموجود في مشرحتها جثث القتلي الثلاثة وأخبرني أن أحد الأطباء تعرف علي جثة، و قرر أنه يعرف القتيل معرفة جيدة. . وأخبرني مدير المستشفي أن القتيل من نفس القرية التي منها الطبيب و أنه سيقوم بإخطار أهال القتيل

للحضور للمستشفي للتعرف علي الجثة. علي الفور اتصلت برئيس وحدة المباحث و أخبرته بما سمعته، و طلبت منه إرسال المخبرين إلي المستشفي للتأكد من ذلك، و أخبرني رئيس وحدة المباحث بأنه فعلاً سبقني وأرسل المخبرين. .بعد أن قرأت صورة المحضر أخبرني الضابط أن تقرير الطبي الشرعي وصل ولاحظت انه يطيل النظر إلي الأشياء و سألته :

- اطلعت علي التقرير ؟

و سكت برهة و قال :

- لا. .

و قلت له:

- طبعاً كل القوات لازم تضرب نار .

سألني :

- لكن سيادتك ضربت نار في الحملة؟

قلت له :

- أنا ؟!

قال:

- نعم. سيادتك .

- لكن انا و سيادة اللواء و مدير المباحث لم نستعمل أسلحتنا . لكن إنت بتسأل ليه؟

قال :

- أبدا . عادي .

و الحق أن الأمرلم يكن أبداً عادياً . . !

فقد قام والد الشاب الغريق الذي عثروا عليه في الترعة يوم ٢ سبتمبر بابلاغ النيابة أن نجله مات مقتولاً. و أن رجال الشرطة هم الذين قتلوه . و فعلاً انتدبت النيابة الطبيب الشرعي الذي قام بتشريح الجثة . و قد عرف ضابط المباحث أن تقرير الطبيب الشرعي قد أرسل للنيابة و جاء فيه أن المجني عليه مات متأثراً بثلاث رصاصات إ خترقت واحدة منطقة الظهر و مرت من خلال القلب و لها فتحة خروج متسعة و الثانية في لوح الكتف اليمن واستقرت في الرئة . و الثالثة اخترقت قاع الجمجمة من أسفل الرقبة من الخلف و خرجت من أعلي الأنف . و أن الرصاصة

المستخرجة من نفس العيار الذي تستخدمة قوات الشرطة.و كان المطلوب من رئيس وحدة المباحث أن يعد محضراً للتحريات يبين كيفية إصابة المجني عليه و ظروف إصابته. وبعد نصف ساعة اتصل بي مدير الأمن و قرر أن يقوم رئيس وحدة المباحث بعمل محضر التحريات و أن يكون هذا تحت إشراف العميد مدير إدارة البحث الجنائي .ثم اتصل مدير إدارة البحث الجنائي و طلب من رئيس وحدة المباحث إعداد المحضر و أن يعرضه عليه . و عندما جاء عندي رئيس وحدة المباحث أطلعني علي التقرير الذي وضعه و قرر فيه أنه حدث تبادل إطلاق النار مما اضطر قوات الشرطة إلي إطلاق النار. و أن قوات الشرطة الموجودة قد أطلقت النار .و ختم التقرير بأنه لا يمكن الجزم علي وجه اليقين بالشخص أو الأشخاص أوالسلاح الذي أدي إلي إصابة المجني عليه.و اخبرني أنه سيرسل هذا التقرير للنيابة . وهناك سيدلي بأقواله حول هذا التقرير. و لاحظت أن ضابط المباحث مستعجل علي إرسال المحضر.ففي الأحوال العادية كان مثل هذا التقرير يتأخر إلي أكثر من شهرين . و تقوم النيابة بالإستعجال أكثر من مرة . . و لم أعرف ماذا يريد هذا الضابط. .

و استطرد الطبيب (الشرعى) قائلاً:

– الشغل عندنا الأيام دي كتير قوي. .

ابتسمت و قلت بخبث:

– عموماً تشريح جثث القتلي أحسن من أن تكون واحداً منهم.

اتصل بي نائب المأمور في الإستراحة .كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحا و أخبرني أن وكيل النيابة اتصل به تليفونيا وأبلغه بأمر ضبط و إحضار ثلاثة من ضباط الأمن المركزي الذين حضروا الحملة التي كانت بتاريخ ٢٩ أغسطس و معهم الأسلحة الأميرية المسلمة لهم و التي كانت عهدتهم أثناء قيامهم للمأمورية. تذكرت أنني لم أخرج معهم في هذا اليوم . و أن نائب المدير للقطاع اتصل بي و اخبرني بأن المأمورية ستستمر حتي انصراف الأولاد من عند المسجد الذي تجمعوا عنده. وكنت أعرف أنه قتل أحد العناصر، و أن والده قدم شكوي للنيابة يتهم فيها رجال الشرطة.و ذكر لي نائب المأمور أسماء الضباط المطلوبين . . (...) وبدأت الأسئلة تدور في رأسي :

- من الذي أخبر النيابة بأسماء الضباط؟
- ومن الذي عرف الأسماء ؟
- و كيف توصل إلي الأسماء؟

و كنت اعرف أن والد المجني عليه لا يمكنه- دون مساعدة من أحد- و لا شك أن أحدا ما من داخل جهاز الشرطة و بالتحديد من العاملين في مركز الشرطة هو الذي قام بإمداده بالأسماء الكاملة.في المركز كان نائب المأمور بانتظاري.سألت عن رئيس وحدة المباحث ، وقيل لي إنه قد أبلغ بمرضه.اتصلت بمدير الأمن وأخبرته بما أخبرني به نائب المأمور ، و قلت له إنه حتي هذه اللحظة لم يصلني شئ بصفة رسمية. و أخبرني مدير الأمن أن رئيس وحدة المباحث هو الذي ذهب إلي النيابة وهو الذي أخبر عن زملائه ضباط الأمن المركزي الذين أطلقوا النار علي القتيل.وأخبرني أنه بصفة مبدئية قرر نقل رئيس وحدة المباحث إلي المطافي و تم تعيين رئيس وحدة مباحث بدلاً منه. اتصلت بمدير إدارة البحث الجنائي و أخبرته بما أخبرني نائب المأمور فأخبرني أنه يعرف حكاية رئيس وحدة المباحث. في الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، جاء نائب المدير للمنطقة ومعه مدير إدارة البحث الجنائي ، و عقيد من أمن الدوله و معهم ضابط برتبة رائد يرتدي الملابس المدنية ، و عرفت ان هذا الضابط هو الذي تم تعيينه بدلاً من رئيس وحدة المباحث الذي نقله مدير الأمن.تناقشنا فيما فعله رئيس وحدة المباحث السابق.عرض اللواء نائب المدير للقطاع الموضوع فقال إن الضابط-علي حسب ما وصل إليه من معلومات- بعد أن حرر محضر التحريات الذي قال فيه إنه لا يستطيع الجزم بالأشخاص الذين تسببوا في قتل المجني عليه.و بعد إقفال المحضر وتسليمه للنيابة عاد في اليوم الثاني ولم يذهب إلي عمله واعتكف في منزله في إحدي القري التابعة لمركز من مراكز المديرية. و في الليل خارج من بيته إلي النيابة مباشرة ، و هناك أدلي بأقوال مناقضة تماما لما كتبه و ذكر أنه شاهد ضباط الأمن المركزي الثلاثة و هم يطلقون النيران علي عناصر الجماعات المحاصرين في المسجد و هم يقفزون من النافذة الخلفية للمسجد المطلة علي الترعة و قرر أنه لا يشك في أن الرصاصات التي أطلقها ضباط الأمن المركزي هي

التي أصابت المجني عليه.و ذكر اللواء أيضاً أن الضابط أرسل إلي والد القتيل بأسماء الضباط الثلاثة الذين قتلوا ابنه. وقامت النيابة بطلب الضباط الثلاثة و الأسلحة و أرقامها. و أضاف اللواء نائب المدير أن الموقف الآن بالنسبة لهذا الضابط أنه ارتكب عدة أخطاء أولها: أنه لم يبلغ رئاسته بما ينوي أن يفعله. و الثانية الإدعاء كذباً علي زملائه الضباط بارتكابه جناية قتل فضلاً عن التزوير في أوراق رسمية. و تكلم ضابط أمن الدولة فقال :

- هذا الموضوع يتم فحصه بالتفصيل عندنا . . و لكن توجد معلومة توصلنا إليها اليوم و هي أن هذا الضابط سبق أن تقدم باستقالته إلي الوزارة منذ أكثر من ثلاثة أشهر و قرر وقتها أنه كان يريد الإلتحاق بعمل في الخليج في وظيفة محلل قانوني في إحدي شركات النفط، و نحن الآن نحاول الوصول إلي طبيعة نشاط تلك الشركة. ثم التفت إلي نائب المدير و قال:

- المهم الآن انه يجب التنسيق مع ضابط الأمن المركزي و توحيد أقوالهم في النيابة و تلقينهم ما ينبغي أن يدلوا به من أقوال هناك، و هذا الموضوع يجب أن يتم بين أمن الدولة و إدارة البحث و الأمن المركزي.

* * *

ترى هل ظلمت النقاد، والمفكرين والساسة وهل أظلمهم لأنهم لم يتجرءوا على المواجهة؟.

هل ظلمتهم...

هل كانت المواجهة فى قدرتهم؟.

وهل يكون الإنسان جبانا إذا ما ولى فرارا من وحش مسعور، وتجنب المرور من أماكن يُحتمل أن يصادفه فيها.

هل خاف النقاد والمفكرون والساسة من رصاصة يطلقها عليهم ضابط أمن مركزى وهم يهربون من النوافذ، فيُقتلون، فتقيد جريمة قتلهم ضد مجهول وتنتهى الحكاية، فحكاية ضابط المباحث الذى يصحو ضميره ويعترف استثناء لا يتكرر، فضلا عن أنهم سيجعلون منه عبرة كى يمنعوا حتى الاستثناء.

هل أرعب النقاد والمفكرين والساسة أن تتحرك جحافل جيش من الشرطة لتقتلهم واحدا واحدا أو اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة،

أمام الناس جميعا فلا يجرؤ على الشهادة أحد، فيلقى رجال الشرطة بجثثهم فى النهر، فيأتى الطبيب الشرعى ليقول أنهم ماتوا غرقا لأن كونه الطبيب الذى يُشرِّح أفضل من أن يكون جثة تُشَرَّح!!.

هل تخيل النقاد والمفكرون والساسة- وباعهم فى الخيال واسع- شكل جثثهم ومناظر أجسادهم إذ يعادون الجهاز الباطش الجبار، ليلقوا على يديه مصارعهم فإذا بهم ما بين ناقد حليق الذقن والشارب و له شعر غزير في مقدمة رأسه و قد سالت الدماء عليه فبدا ملبدا و فيه بقايا رمل. أو جثة مفكر وجهها لأعلي والفم مفتوح و الدماء النازفة منها تخثرت علي الرمال و تجمعت كبقعة كبيرة متصلة بالجثة من الناحية اليمني، وقد أحدث الرصاص الكثيف ثقوباً كثيرة متجاورة فيها و بدا تجويف البطن و فيه ثقب هائل برزت منه الأمعاء المهترئة. . و الجلد حول الفتحة محترقا و لونه أسود.أو سياسي أصلع تفتت عظام صدره تماماً واحترقت الملابس عند صدره وبطنه وكان فمه مفتوحا، إذ لم تمهله زخات الرصاص حتى ليطلق صرخة أخيرة.

هل جال ذلك بذهن النقاد والمفكرين والسياسيين والصحفيين والمهنيين فتقاعسوا؟.

هل يجول ذلك ببال الأمة فتصمت؟.

فهل كنت ظالما أم أننى على حق؟!

إننى أبكى الآن، و أنا أخط لك هذه السطور أيها القارئ، لأننى أعلم أن كل كلمة مكتوبة فى هذا الكتاب تنزف من دماء سفكت فعلا، وأن كل حرف فيه، سيشهد علينا أمام التاريخ و أمام الله يوم القيامة، يشهد علينا ويسألنا عما فعلنا كى لا نسمح لمثل هذا الإجرام أن يستمر، يسألنا ماذا فعلنا فيديننا.

هل كنت على حق عندما ارتأيت أن أقسم هذا الجزء من الكتاب إلى قسمين، قسم عن الشرطة فى الأدب والآخر عن الشرطة فى الواقع.

الآن ، هل ينبغى على أن أخدعك أيها القارئ لأقول لك أن ثمة فارق بين ما سرده الأدب وما يحدث فى الواقع؟.

لا...

لذلك فإننى ألغى ذلك التقسيم المصطنع، واقرأ أيها القارىء أى جزء من الخلف ومن الأمام فقد حدث ويحدث وسيحدث.

* * *

هل يريد القارىء أن أسرد عليه المزيد من دفتر أحوال قسم الشرطة الذى سماه العميد حمدى البطران رواية، هل يريد أن يقرأ كيف يمارس الجنود الجنس مع السجينات؟ ، أم عن ذلك الذى حصل على تسعين جنيها كبديل عن ممارسة الجنس؟، أم يريد أن يقرأ عن تعذيب الناس دون أى سبب، أم عن سرقة الآثار ، أم ...أم ...أم ....، إن كتاب حمدى البطران غنى بكل ذلك، ولمن يريد المزيد أن يرجع إليه، أما أنا ، فقد أصابنى الغثيان والاشمئزاز، لكننى بالرغم من ذلك، لا أستطيع أن أنتهى منه، دون أن أورد كيف تعامل الشرطة الرهائن. والرهائن ليسوا مجرمين صدرت ضدهم أحكام و إنما تشك الشرطة فيهم، مجرد شك قد يخطىء وقد يصيب، ومع ذلك فلنقرأ كيف يُعاملون.

* * *

يقول العميد حمدى البطران:

عندما وصلنا إلي قرية بني شاسيه وجدنا لواري الأمن المركزي عند مدخل القرية تملأ كل الساحة الفسيحة.

نزل الجنود إلي الشوارع، وكلما قابلوا رجلا أوسعوه ضربا وركلا، وقام ضباط المباحث و المخبرون ومعهم ضباط الأمن المركزي بتفتيش بيوت القرية بيتا بيتا.. و أثناء التفتيش كان الجنود يقذفون بمحتويات البيوت خارجها ، و تقلب الأمتعه رأسا علي عقب، و تراق محتويات الأواني علي الأرض، و قد رأيت أحد الجنود و قد رأي جرة مملوءة بالعسل الأسود فركلها بقدمه بعنف فتطاير من داخلها العسل علي ملابسه و ملابس أحد الضباط الذي كان بالقرب منه، فلم يتمالك الضابط نفسه و انهال علي الجندي ضربا.وكنت أتوقع أن يأمره الضابط باستخدام اللين، و لكنه ضربه دون أن ينصحه باستعمال العقل . . وصدرت التعليمات باقتياد كل شباب القرية الذين تزيد أعمارهم علي خمسة عشر عاماً حتي سن الخامسة و الأربعين و ان يقتاد الجميع إلي مقر النقطة.و قال نائب المدير :

- غربلوا البلد كلها.
وسألني :
- تعرف بيت أبو قلوحة؟
وبالطبع لا أعرف. ووجدنا أحد الخفراء من أبناء القرية و اسمه رجب يقودنا إلي المنزل . . و كان قريبا من مكان وجودنا . . وكنت أثناء ركوبي المدرعة و عندما تم إبلاغنا بواقعة الإعتداء علي أفراد النقطة سمعت إحدي النسوة و هي تصرخ و تقول:
- عملها ولد أبو قلوحة.

كان المنزل يتألف من طابقين، و هو مشيد حديثاً ، له أعمدة خرسانية مسلحة و الأسقف من الخرسانة المسلحة أيضاً ، و يحتوي ثمانية غرف في الدور الأرضي و فناء كبير فيه عدد من الدكك الخشبية للجلوس عليها في بهو المنزل الواسع. وفي لحظات اقتحم الجنود و الضباط المنزل ، و تم إحضار أبو قلوحة . . كان مربوطاً من رقبته بشال من الصوف كان الرجل يضعه علي كتفه ، و كان أحد المخبرين يسحبه، و الرجل مستسلم ويسير خلف المخبر دون مقاومة . في العقد السادس من عمره يبدو عليه الهدوء و الوقار، لونه أسمر و له لحية أهملهاعدة أيام فاكتست بالون الأبيض، وكانت في وجهه كدمات كثيرة، و رأيت الدم يسيل من فمه ، كان من الواضح أنهم أوجعوه ضربا و تم اقتياده إلي مقر النقطة . وبمجرد دخوله قام أحد ضباط المباحث بربط رأسه و عينيه بقطعه من القماش السميك ، ثم أحكم الرباط . .وقاده أحد الضباط إلي حيث نجلس في مكتب اللواء. . و أثناء عملية الإقتياد لم يكف المخبرون و الجنود عن ضربه و ركله.و بمجرد مثوله أمام حضرة اللواء قام أحد الضباط بصفعه عدة مرات علي وجهه و رأسه ورأيت الضابط و هو يمسح يده من آثار الدم بمنديل من الورق انتزعه من علبة كبيرة علي مكتب اللواء. وقال الضابط بعد صفعه:
- علشان تتكلم مع الباشا كويس .
و تم إيقافه بحيث يكون بعيداً عن مكتب الباشا بحوالي متر.
و سأله الباشا بصوت منخفض :
- إسمك إيه؟
و بمجرد أن تكلم اللواء رأيت الرجل يرفع يديه في الفراغ في

محاولة تلقائية لاتقاء ضربات محتملة. و كان الرباط علي عينيه ضاغطاً و هو الأمر الذي جعله يرفع يديه مرة أخري بطريقة تلقائية يحاول فك الرباط. .وقد تنبه لذلك أحد الضباط الجالسين و كان يرتدي الملابس المدنية فأمر أحد المخبرين أن يربط يديه من الخلف.

و سكت الرجل عن الإجابة حتي فرغ المخبر من تقييده، و بالطبع لم يتكلم و هو الأمر الذي دعا اللواء إلي إعادة سؤاله:

- انت اسمك إيه؟

و أجاب الرجل:

- محمدمحمود محمد أبو قلوحة.

و نطق الرجل اسمه بهدوء كأنه يقرأ. و سأله اللواء:

- يعني إيه أبو قلوحة؟

و كانت ساقا الرجل منفرجتين . ولم يعرف بماذا يجيب . فقد فاجأه السؤال ، فسكت و لم يرد. و اقترب منه الضابط الذي صفعه من قبل وانهال علي وجهه صفعاً و قال:

- رد علي الباشا.

و كان الضابط يضربه بشغف. .

و كانت صفعته مدوية و احدثت صوتاً ، و هو ما شجعه علي إعادة صفعه مرة ثانية لإحداث نفس الصوت، و لكن صفعاته التالية كانت تصتدم بالرباط الذي علي عينيه، و ختم الضابط الصفعات بصفعة هائلة علي أذن الرجل، و كانت قاسية إلي الحد الذي طوحته أرضا وسقط، و حاول ان يعتدل غير أن يديه المقيدتين منعتاه. وأمر اللواء أحد المخبرين برفعه. وبعد ان اوقفوه كان جسده يرتعش ، ورأيت قطرات من المياة تتساقط من بين ساقيه المنفرجتين، و كان الرجل يرتعش بطريقة واضحة . و سأله اللواء:

- إبنك فين؟

و قال الرجل بصوت واهن:

- العلم عند الله يا أفندي.

وتدخل الضابط الذي صفعه و حاول ، و لكن اللواء نهاه عن ذلك وقال :

- بلاش ضرب ، و هو هيتكلم لوحده.

و يبدو أن الرجل لم يستمع جيداً ، و مد عنقه للأمام و قال :

- هـه . . ؟
و أعاد الضابط السؤال بصوت أعلي و قال:
- إبنك فين يا أبو (. . . . . .)
و نطق كلمة تطلق علي المؤخرة.
و ابتسم اللواء قليلاً . . .
و تدخل ضابط آخر و حاول أن يزجر زميله قائلاً:
- يظهر إن قلبك رهيف.
و قام الضابط برفع جلباب الرجل المبتل حتي بطنه و قام بربطه في رقبته . . و وقف الرجل أمامنا عارياً تماماً من الأمام والخلف. و كانت ذكورته منكمشة تماماً و خصيتاه تتدليان من كيس رقيق بشكل ملحوظ . و قام أحد المخبرين بضربه علي مؤخرته ضربات عنيفة بعصا رفيعة من الخيزران وقال له:
- رد علي البهوات.
و قال الضابط الذي ضربه مؤخرا:
- تكلم ياأبو (. . . . . .)
و نطق نفس الكلمة التي تطلق علي مؤخرة الإنسان.
و قال الرجل :
- أنا حجيت بيت الله و لا أكذب .
و قال الضابط:
- (. . . . . .) قذر .ونطق كلمة تطلق علي العضو التناسلى للأم.
و قال الزميل الذي قام بتعريته وهو يضحك موجها اللوم لزميله:
- عيب تسب النعمة حرام عليك.
و قال الضابط :
- فين إبنك ، تكلم أحسن لك.
قال الرجل:
- من يوم ما عمل دقن ما اعرفش عنه حاجة.
و قال الضابط:
- يا ضلالي ، قول هوا فين ؟
قال الرجل :
- و شرفك انت ما اعرف .

و كان الرجل يرفع وجهه لأعلي . و قال الضابط الذي يستجوبه :
– احنا هنجيب بنتك و نوقفها كده زيك بالضبط وهي تتكلم. .
و رأيت اهتزاز الرجل وارتعاشه يتزايدان و سقط علي الأرض .
و أخرجوه من الغرفة.
و نهض اللواء واقفاً و قال :
– البلدوزر جاهز؟
و قال أحد الضباط:
– و الجرارات كمان جاهزة.
و خرج وخرجنا خلفه.

عدنا مرة ثانية إلي حيث يوجد منزل محمد محمود علي أبو قلوحة . و توقفت المدرعة و خلفها البلدوزر و العربات الأخري والجرارات الزراعية في الميدان أمام البيت.

نزل اللواء و نزلنا خلفه، و خلفنا حشد من الضباط من مختلف الرتب و عدد كبير من المخبرين و الجنود من الأمن المركزي بملابسهم السوداء و في أيديهم الأسلحة الآلية و بعضهم يحمل عصياً رفيعة من الخيزران و قام الجميع باقتحام البيت مرة ثانية..

و بعد فترة وجيزة سمعنا صراخ نسوة، و بعدها رأيت ثلاثة من المجندين يسحبون إمرأة في العقد الثالث من العمر و في يدها طفلان يصرخان و علي كتفها طفل رضيع يصرخ أيضاً و في يده الأخري صرة ملابس ، و كانت تصرخ و تقول :
– أروح فين بيهم . أبوهم طفش و سيدهم أخدتوه. ورأيت خلفها امرأة يسحبها جندي في العقد الخامس تصرخ أيضاً و تقول :
– إحنا ذنبنا إيه؟
وكانت المرأة تمسك صرة من الملابس أيضاً.
و سألها واحد من الضباط :
– فيه حد تاني في البيت؟
و قالت المرأة المسنة:
– منكم لله – يا كفرة – يا خرابين البيوت.
وبعد أن خرجت المرأتان دخل عدد من الضباط و بعض المخبرين.
و بعد فترة عادوا و معهم الذين سبقوهم و قال واحد منهم:
– خلاص يا باشا.

و أشار الباشا إلي البلدوزر الذي كان محركه لا يزال يعمل وزمجر في أول الأمر و تحرك ناحية المنزل تسبقه المغرفة الحديدية الهائله مرفوعة قليلاً عن الأرض و بدأ في التحرك ببطء. و شعرت في تلك اللحظة بشئ ينقبض داخلي و خيل إليّ أنني لن اتمكن من إدخال الهواء إلي رئتي. و أحسست بنبضات قلبي تتسارع واستندت إلي المدرعة. كان اللواء يضع نظارة سوداء علي عينيه. واقترب البلدوزر من البيت و توقف عي السير بمجرد اصطدام المغرفة بالبيت و كان محركه يعمل بعنف . و فجأه سمعنا طقطقة و تراجع البلدوزر للخلف و رأيت السقف الخرساني للمنزل ينهار متماسكاً و ينطبق علي أسقف الدور الأول و هبطت الأسطح الأسمنتية علي الأرض كالورق المقوي . و انبعث غبار كثيف أسود و قاتم، غطي كل الميدان ، و كنت قد وصلت إلي قمة التعب ، و لم أتحمل كثافة الغبار فأخرجت منديلي و وضعته علي أنفي و جعلت وجهي ملتصقاً بالمدرعة.

* * *

هل كان البيت هو الذى انهدم؟.

أم كان الوطن هو الذى انهزم؟!

أم كانت الأمة هى التى تحللت؟!!.

هل يمكن أن تنتصر أمة يحدث فيها مثل هذا و أن تتقدم؟!

هل يمكن أن نثق فى حكومة يحدث كل ذلك تحت بصرها فلا تستقيل.؟!

هل يمكن أن نثق فى أى عمل تقوم به مثل هذه الحكومة. .؟!

هل يمكن أن تسعى مثل هذه الحكومة نحو أى خير؟!

لقد كنت فى حيرة من أمرى وفى ذهول، هل يمكن أن يبلغ الشر ببشر كل هذا المبلغ ...وكنت أهتف : حتى الشياطين لا تقدر...

وظلت الحيرة تستبد بى، والدهشة يأخذ بتلابيبى . . .

وفجأة وجدت الحل والتفسير والسبب فى آية من القرآن، مازلت منذ اكتشافى لها لا أتمالك طوفان دموعى كلما تُليت:

و يضل الله الظالمين..!!!!.

مقالة اعتراضية

اعتراف

كي لا أعمم، ولكيلا أنحو نحو الجهلاء والأغبياء في إصدار الأحكام المطلقة التي لا تعترف بأن كل أسود فيه أبيض وكل أبيض يشوبه سواد، فإنني أعترف أن نظرتي القاسية للشرطة قد أصابها شرخ جسيم، حينما -في معرض الكتاب منذ سنوات- كنت أصطحب ابنتي في آخر يوم للمعرض، وانتهى المعرض بشيء من الهرج والفوضى، فقد كان عادل حسين معتقلا فى قضية عبثية أثارت الأمة كلها، ربما بحجم أكبر بكثير من حجم أى شخص و أى حزب، لكنها الأمة كان قد فاض بها، ووسط الفوضى فقدت أثر ابنتي، وقدرت أنها ربما افتقدتنى فعادت إلى المنزل وحدها ، لكن رعبا جثم على قلبي حين استعدت ما كانت الصحف مليئة به أيامها عن شابين صغيرين دون السادسة عشرة- دون بطاقات هوية- إعتقلتهما الشرطة للاشتباه ليموتا في حجز قسم الشرطة من التعذيب والجوع، وثبت بعد ذلك براءتهما من كل شبهة، وتوجهت إلى أحد الضباط ألقي إليه بهاجسي، متوقعا ما أظن في جهاز الشرطة كله من فظاظة وقسوة ولا مبالاه، لكن ما حدث أذهلني، إذ فوجئت بجهاز الشرطة في المعرض كله ينقلب رأسا على عقب، واصطحبني ضابط الشرطة إلى اللواء المسئول عن الأمن في المعرض، الذي أبدى هو الآخر انزعاجا هائلا، ليس لإحساسه بالمسئولية الأمنية، لا أظن ذلك، فهو لواء لا يهمه مثل تلك الصغائر، وإنما كان منزعجا كأب، وكان هذا هو المدهش والغريب، قلت للواء أن الأمر قد لا يعدو أن ابنتي لم تجدني فعادت بمفردها إلى البيت، فطلب مني أن أستعمل تليفونه للإطمئنان لكن تليفوني كان معطلا، وقلت له أنني سأذهب بنفسي لأطمئن فإن لم أجدها سأعود إليه، لكنه قال لي والإنزعاج لما يفارقه :

– في خلال نصف ساعة سننصرف جميعا، ولو عدت لن تجد أحدا منا، فإذا لم تجدها، وذهبت للإبلاغ عن اختفائها في قسم شرطة عادي، فلن يأبه بك أحد، ولن يهتم أحد، فإن النظام يقضي بعدم البحث الجدي قبل مرور يوم كامل على الاختفاء ... هذا إذا حدث بحث جدي، ثم أن اختفاء طفلة في القاهرة أمر شديد الشيوع، لن يحرك أحدا، أما إختفاؤها من معرض الكتاب فأمر ستهتز له وكالات الأنباء في العالم كله، وسيعلم به الرئيس قبل أن ينام وسيسوط ذلك جهاز الأمن كله للبحث عنها، لذلك إما أن نجدها على الفور أو تحرر هنا الآن محضرا باختفائها.

غلب خجلي قلقي، فقد كنت أشعر أن الأمر لا يستحق كل هذا الجزع منه، وفي نفس الوقت غلبني الحياء من مصارحته بذلك وإلا ففيم كان لجوئي إلي الشرطة.

وأمر اللواء بتعميم إشارة باللاسلكي إلى كل سيارات الشرطة بالمنطقة، ثم أمر ضابطا باصطحابي في سيارتي إلى المنزل كي يطمئن، وودعني قائلا أنه لن يترك مكتبه حتى يعود الضابط إليه.

كان الأمر قد تجاوز حدوده الشخصية بالنسبة لي، كان قد تحول إلى اختبار عملي لفكرة راسخة داخلي بإدانة جهاز الشرطة، وكي تكون للإختيار قيمته فقد حرصت على عدم الإعلان عن شخصي ككاتب أو كمعارض، لم أقل إلا اسمي.

في الطريق إلى المنزل، كان الزلزال الذي أصاب موقفي من الشرطة يهزني من أعماقي، كانت سيارتي محملة بأكداس من الكتب، وفوجئت بالضابط إلى جواري يهمس لي :

– قد تكون قد أنفقت كل نقودك على الكتب، نحن إخوة، وأنا تحت أمرك إن كنت تحتاج نقودا.. !!

تجمدت داخلي دمعة عصية، الكراهية أسهل المشاعر وأشدها فجاجة، الإدانة المطلقة مرسى الحمقى، لكن إذا نقل هذا الضابط غدا إلى مصلحة السجون أو إلى مباحث أمن الدولة فهل يمارس التعذيب ؟ وكيف يمارسه ؟ إذا نقل للإشراف على إنتخابات فهل يمارس التزوير وكيف يمارسه ؟ إذا نقل إلى قسم شرطة فهل يعلق

ضحاياه من الرسغ والكاحل، وكيف يهوى بسوطه عليهم. كيف ينقلب هذا الوديع الرقيق المهذب الدمث إلى وحش مسعور لا يقيم للكرامة وزنا، ولا للعرض ولا حتى للدم، كيف ؟!!.

عندما وجدنا ابنتي في المنزل كانت فرحة الضابط طاغية وكان الزلزال الذي فجر التساؤل الذي ما برح يهزني : كيف يجتمع الضدان ؟. بهت اليقين الذى ركنت إليه، والصخرة التى أقف عليها ليست صخرة بل حوتا يتحرك، ويضج الموج بالتساؤل : كيف يجتمع الضدان ؟!.

ولم يكن ثمة بصيص أمل في الإجابة على السؤال ..

* * *

الشرطة والبلطجة

لن أفعل هنا سوى إيراد مقتطفات من الصحف :

بلطجي يثير الرعب داخل مستشفى الزاوية الحمراء
يقتحم المستشفى ويجبر الممرضات على إعطائه حقنة مخدرة ويهدد الأطباء.

في أهرام الجمعة ١٩ ديسمبر ١٩٩٧ كتب خالد أبو العز:

واقعة مثيرة شهدتها مستشفى الزاوية الحمراء عاش فيها الأطباء وأعضاء هيئه التمريض ساعات من الرعب إثر اقتحام بلطجي المستشفى وتحطيم غرفة الاستقبال وتهديد الممرضة بإشهار سنجة في وجهها وإجبارها على إعطائه حقنة مخدرة ، كما اقتحم سكن الأطباء وهددهم وطلب جرعات مخدرة .

استنجد الأطباء بقسم الشرطة ولم يتحرك أحد إلا بعد يومين.

كشفت تحقيقات وليد على وكيل أول نيابة الزاوية الحمراء بأشراف محمد كامل عبد الستار عمر رئيس النيابة أن البلطجي

يدعى محمد فؤاد طه مسجل خطر، اعتاد دخول المستشفى وتهديد الأطباء والممرضات والمرضى وذلك قبل ٣ شهور ، وبلغ به الأمر الدخول على المرضى في أثناء إجراء الكشف عليهم مهددا الطبيب الذي يقوم بالكشف على المريض أو المريضة بصرف حقنة مخدرة، وأن الأطباء ومدير المستشفى طلبوا من الشرطة حمايتهم لكنها تقاعست ولم تعين إلا أمين شرطة يهرب عند حدوث أي مشكلة مع البلطجي. وأمر المستشار عادل السعيد المحامى العام لنيابات شمال القاهرة بحبسه ٤٥ يوما واستدعاء جميع الأطباء والمرضى لاستجوابهم وتكليف الشرطة بوضع الحماية اللازمة للأطباء بالمستشفى. وكان مدير مستشفى الزاوية الحمراء قد قدم مذكرة إلي محمد كامل عبد الستار رئيس نيابة الزاوية الحمراء وبها أكثر من٢٠ توقيعا من أطباء المستشفى بجانب الممرضات بأنهم فشلوا ويئسوا من الاستنجاد بقسم الشرطة لحمايتهم من البلطجي الذي اعتاد الدخول الذي المستشفى وتهديدهم وتهديد الأطباء والمرضى لإعطائه الحقن المخدرة.

أمس الأول دخل البلطجي إلى غرفة العمليات الساعة الحادية عشرة مساء مهددا الممرضة بمطواة لإعطائه حقنة مخدرة فاستنجدت الممرضة بوكيل المستشفى فطلب منها إعطاءه الحقنة، وبعدها صعد إلى مسكن الأطباء وهددهم لإعطائه جرعات أخرى فاستنجدوا بالشرطة التي لم تتحرك.

وكلف رئيس النيابة الشرطة بالقبض علي البلطجي فألقى القبض عليه أمس وتبين أنه مسجل خطر وسبق اعتقاله و يعمل سمكرى سيارات، وتم استدعاء الأطباء والمرضى لسؤالهم، وأثناء قيام وليد على وكيل النيابة بالتحقيق مع بعض الممرضات وطبيب يعمل رئيس قسم بالمستشفى وقعت مفاجأة عندما قام البلطجي وأسرته بتهديد الأطباء في النيابة والممرضات، فحاول الأطباء العدول عن شهادتهم خشية منه بعد الإفراج عنه، وعند إقناعهم بعدم الخوف منه وإبعاد المتهم من أمامهم ونزوله غرفة الحجز أدلوا بشهاداتهم التي كشفت عن وجود ثغرات أمنية يجب تلاشيها بشأن مستشفى الزاوية الحمراء. وفى جولة لمندوب الأهرام التقى

بالمرضة التي هددها البلطجي فرفضت ذكر اسمها خشية منه، وقالت أنها تعرفه منذ أكثر من ٣ أشهر، حيث كان يتردد على المستشفى مهددا الأطباء الذي درجة انهم يلبون له كل طلبات خشية منه، وان مدير المستشفى استنجد أكثر من مرة بالشرطة فقالوا أنهم لن يحضروا إلا إذا حدث شيء وعينوا أمين شرطة يهرب عندما يشاهد البلطجي ، أكد أقوال الممرضة طبيب كبير أيضا بالمستشفى ورئيس قسم رفض ذكر اسمه أيضا قائلا أنه يخشاه هو وجميع من يعملون بالكشف المستشفى إلى درجة أن المرضى أنفسهم كانوا يخشونه ويتجمعون كلهم بالكشف غرفة واحدة خشية أن يقتحم عليهم غرفهم ويهددهم ويأخذ منهم الأدوية، كما انه كان يدخل حجرة الكشف الطبي أثناء إجراء الكشف على السيدات!!

* * *

قلت إذ ألوك العلقم والصبار و أعالج الألم :

- ولم تهدم الشرطة بيت البلطجى ولا اتخذت أهله رهائننا...

* * *

الأجهزة الأمنية تتدخل لإعادة ميراث أبناء سيدة ربطت نفسها في شجرة أمام مجلس الشعب

أثارت سيدة أمس ارتباك الأجهزة الأمنية المسئولة عن الحراسة أمام مجلسي الشعب والشورى حيث قامت بربط ذاتها بواسطة جنزير في إحدى الأشجار الواقعة أمام المجلسين. الأمر الذي أدى إلى حدوث تجمهر والتفاف أعداد من المواطنين خاصة بعد أن رفضت السيدة كل المحاولات التي بذلت لفكها إلا بعد مقابلة السيد وزير العدل .

* * *

ولم تلجأ المواطنة إلى ذلك إلا بعد أن كفرت بكل أجهزة الدولة ومنها الشرطة...

* * *

نداء من صحيفة الأسبوع لإنقاذ طالب

أثناء سفر عبد العليم محمد أبو الوفا أبو الحجاج الطالب بكلية اللغة العربية من أسيوط إلى الأقصر تصادف سفر المدعو عبد الرحيم محمد إسماعيل أحمد المحامى بالأقصر وكان في وداعه شقيقه النقيب حسام محمد إسماعيل وكما يحدث في كل القطارات في مصر حدثت مشادة عادية بين عبد الرحمن والضابط حسام والذي لم يكن يعرف أن حسام.. ضابط .

سعادة النقيب الذي لم يتخيل كيف يجرؤ مواطن على أن يرفع عينه في معالي الباشا حتى لو لم يكن يعرف أنه باشا خرج عن طوعه وانهال عليه بالضرب المبرح والهمجي وجرجره على الأرض ورماه من القطار بعد أن ادعى أنه رئيس مباحث محطة أسيوط، لم يكتف النقيب حسام بذلك بل سلمه إلي ضابط زميل له اسمه خالد مجاهد وأميني شرطة أحدهما اسمه سعيد والآخر نسيم وبدلا من أن يجد عبد الرحمن نفسه مسافرا إلى الأقصر وجد نفسه مسافرا إلى رحلة أخرى من الركل والضرب والتعذيب والإهانة استمرت أياما.

انتهت الرحلة الحقيرة بتهديد واضح من أحد الضباط: إنك لو نجحت في الكلية تعالى قابلني وتهديد آخر بتسليط الحرس الجامعي عليه. الجدير بالذكر أن عبد الرحمن محمد أبو الوفا هو ابن واحد من علماء الأزهر في الأقصر هو الشيخ أبو الوفا الشرقاوى أمين الدعوة والفكر السابق بالحزب الوطني وهو مؤسس الطريقة الخلوتيه ومعروف عنهم الطيبة والاستقامة من كل أهالي الأقصر وهذا الكلام لا نسوقه بغية ميزة أو تميز بل نسوقه مبررا أكثر إقناعا لتعامل نظيف مع مواطن نظيف. مطلوب إحقاقا لحق ضائع محاسبة من أخطأ وإعادة الطمأنينة لشاب كل ذنبه انه ركب القطار ليعود الذي بيته فوجد نفسه في قطار بلا نهاية ولا محطات .

أعيدوا هذا الشاب إلى محطة الأمان واضربوا لشعب الأقصر

مثالا لوفاء متبادل يستحقه .

* * *

صحيفة الأهالى :

سلخ الجلود

.... وعقاب الأطفال لا يبدأ بإصدار حكم الإدانة ولا ينتهي بخروجه من الإصلاحية فقبل أن تبدأ النيابة التحقيق يكون الطفل قد مر بحصة من العقاب البدني و النفسي في أقسام الشرطة . لذلك يأتون إلي النيابة "مورمي " العيون و الأصداغ. فبسبب قسوة الضرب الذى سلخ ظهور ثلاثة أحداث فى قسم شرطة النزهة أمر القاضي بأخلاء سبيلهم اشفاقا عليهم. ما حدث هو وقوع كشاجرة بين الصبيه الثلاثة - طلبة من حي شبرا الخيمة - مع أقران لهم بمصر الجديدة. قبض على أبناء شبرا بسرقة " جواكت " الأولاد الآخرين . و لانتزاع اعتراف بارتكاب الجريمة تم ضربهم بقسوة علي مدي ١٥ يوما ، قبل إحالتهم للنيابه . و الحقيقة أنه لا يتم استثناء الأحداث من الضرب و الاهانه يوميا أثناء العرض الليلي . و أحيانا تمتد القسوة إلي نيابات الأحداث. تقول ماجدة فتحي المحامية إن وكلاء النيابة غالبا. ما يرفضون مناظرة الأحداث وإثبات تعرضهم للتعذيب والضرب فى أقسام الشرطة وأحيانا أخرى تتشدد النيابة في وصف الجريمة فبدلا من السرقة تقدمها للمحكمة من أنها سرقة بالإكراه وبعض وكلاء النيابة يعرفون أن الشرطة غالبا ما تزور الأحراز المضبوطة وتضيف إلها " مطواة " مثلا وأصبح الآن من الصعب الفصل بين الشرطة والنيابة .

وتعتبر هذه القسوة غير المبررة مع الأطفال ، حتى الخارجين على القانون بقصد وبغير قصد ، سببا مباشرة لتحويل هؤلاء الأطفال الى عناصر معتادة الإجرام لأنها تخلق لديهم مشاعر عدائية تكره المجتمع ولا تحترم سلطاته فى هذا السياق تبرز فكرة أن يتولى التحقيق مع الحدث جهة اجتماعية مدربة بمعزل عن الشرطة التى إعتات كل إهانة كل متهم .

هل يحتمل القارىء المزيد؟!.

إنني استطيع المواصلة بلا نهاية تقريبا، فالأحداث والج
تحدث كل يوم، والصحف تنشر، وما لا يُنشر أعظم، لكن هل يـ
القارىء أن تصل صفحات هذا الكتاب إلى ألف صفحة؟ إلى م
صفحة؟ إلى مليار صفحة؟!

لكنني فقط أريد أن أقول أن بعض الجهاز الباطش رعدير
وجبان ومستهتر ومهمل، لا يحركه إلا رائحة دم بشرى أو تـ
صوت، ومقابل أقصى درجات العصف والبطش والجبروت
السياسيين توجد أقصى درجات التسيب واللامبالاة والانفلات
من عداهم، و: " من عداهم" هو العمل الحقيقى للشرطة فلا حول
قوة إلا بالله.

أما النيابة، التى صمتت على سلخ جلود الأطفال، فلقد تابعها الـ
باندهاش وخوف من التعليق على قراراتها، وتجسد ذلك، عـ
أقدم وكيل نيابة فى الإسكندرية على حبس مجموعة من أ
السادة بعد أن بلغت عربدتهم فى مارينا أن قذفوا استـ
القضاة فى مارينا بالزجاجات واشتبكوا مع الحرس وأصابو
وفى اليوم التالى مباشرة كانت الصحف تشيد فى الصفحة الأ
بقرار إنسانى للسيد النائب العام، الذى أمر بإلغاء قرار وكـ
والإفراج عن المحبوسين حرصا على مستقبلهم.

علق صديقى : نريد أن نعرف أسماء آبائهم....!

قلت له أننا لا نعترض على الإفراج أيا كانت دواعيه فإفلات أ
مجرم خير من إدانة برىء. لا نعترض على الإفراج بل على
الإفراج عن عشرات الآلاف من الأبرياء ، جلهم إن لم يكونوا
يحتاجون إلى ذات القرار الإنسانى.

أما أنا فقد تذكرت التجائي إلى السيد رئيس الجمهورية ليـ
فى اختلافى مع سيادة النائب العام، لكنه لم يحكم .

رحت أردد فى أسى: لاحول ولا قوة إلا بالله...

إعدام عايدة و إعدام الحقيقة

فى قضية الممرضة عايدة فإننى أختصر رأيى فى نقطتين رئيسيتين:

* أننى واحد من الذين يعتقدون حقا بإدانتها، و أنها ارتكبت الجرم المنسوب إليها. وبالرغم من التعاطف الإنسانى إلا أن الحقيقة تظل راسخة كجبل أشم يكاد ينطق : " ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب"

* أننى أيضا واحد من الذين يعتقدون بمسئولية جميع الأطباء والعاملين فى قسم جراحة الأعصاب فى جامعة الإسكندرية عما حدث.

قد يطيب للبعض أن يقول أن الجريمة قد وقعت واكتشفت وقبض على المتهمة وحكم عليها وسيحال الباقون إلى المحاكمة فماذا نريد أكثر من هذا؟؟.

إلا أن الأمر لا ينبغى أن يسطح هكذا، و إلا فقدنا كل قدرة على تصويب أخطائنا. ولظللنا ندور فى حلقة مفرغة نقطة البداية فيها هى نقطة النهاية والعلم لا ينفع والجهل لايضر والحوار محصلته دائما الصفر .

ولعلى أوجز رأيى فى النقاط التالية:

١- أن الوعى الجمعى للأمة يعلم أن الممرضة قد عذبت فى قسم الشرطة، ولقد نشرت الصحف القومية نفسها وصفا لهذا التعذيب الذى تراوح بين الجلد بالسياط والصعق بالكهرباء والتهديد بالاغتصاب الذى دفع الممرضة للشروع فى الانتحار.

٢ - إن الوعى الجمعى للأمة - وما تزال فى وجدانه كارثة ما نشر عن محاولة مدير نيابة بلقاس التستر على جريمة قتل المواطن مجاملة لضابط الشرطة وادعائه بعدم وجود إصابات بالجثة -

يحكم على الفور بنصوص القانون أن الاعترافات التى أدلت بها الممرضة عايدة أمام الشرطة و أمام النيابة هى اعترافات باطلة حتى ولو كانت صحيحة. ثم أن من حق ذلك الوعى الجمعى بعد ذلك أن يتمزق بين احترام واجب للأحكام وبين إدراك لا يشوبه لبس أن الأحكام إن كانت عنوان الحقيقة فإن الطريق إلى هذه الحقيقة هو جهد شريف و أمين للشرطة والنيابة فى استكناه الحقيقة ، أما إذا كان هذا الجهد فى الجلد بالسياط والصعق بالكهرباء والتهديد بالاغتصاب والتستر على كل ذلك فمن حق الأمة أن تتوقع ، أن الممرضة عايدة قد تعدم وقد تعاد محاكمتها بعد قبول النقض، لكنها ستتيقن قبل ذلك وبعده ، أن الذى يُعدم كل يوم هو الحقيقة نفسها!!.

٣ – إن التصدى لهذه الممارسات هو دفاع عن شرعية الدولة والحكم. ولشدما يستفز وجدان الأمة أن الصحف القومية وهى صحف الأمة غالبا ما تتخذ صف الجناة ضد الضحايا، دون أى اعتبار جاد لما تمثله تلك الممارسات من هدم فى الثوابت وسد للمسالك لا يمكن أن يتولد عنه إلا التطرف فى الناحيتين : الغلو فى الدين أو عبادة الشيطان، أما باقى الناس– و أعترف أنهم الأغلبية – فيظلون مجرد كائنات حية مفصلة على طراز دارون .

٤ – إن مسئولية الأطباء والعاملين بجامعة الإسكندرية ليست هى المسئولية الخاصة بمباشرة جريمة، ولكنها المسئولية العامة ، والجرم الذى يقع فيه المجتمع كله بالسكوت عن ممارسات و أخطاء تؤدى إلى الكوارث و الجرائم ، فى هذا المثل الذى نحن بصدده، قد تكون الممرضة هى قمة رأس جبل الثلج الطافى فوق الماء ، وقد يكون الأطباء هم ذلك الجزء الملامس لسطح الماء ، لكن الجسم الأساسى لجبل الثلج هو المجتمع كله . وهم مسئولون نعم ، بنفس درجة مسئولية مدير الأمن الذى لم يعاقب ضباطه وجنوده على انتهاكهم لقانون المفترض أنهم حراسه، نفس مسئولية المحامى العام ، والمحافظ ووزير العدل ، والكتاب والمثقفين ومجلس الشعب ومجلس الشورى والمجالس المحلية .. و .. و ..

إنه على سبيل المثال جرم كل جندى وضابط فى الجيش المصرى

سنة ٦٧ رأى انحرافا ففضل الرضوخ و إغماض العين بدل التصدى له كى يعيش، لكنه لم يظفر بالسلامة ،حتى على المستوى البيولوجى لم يعش الكثيرون ، بل دفنوا أحياء فى سيناء.

ولم يكن أفراد الجيش وحدهم هم المسئولين، بل كنا جميعا خلفهم نحمل الوزر الذى مازلنا ندفع ثمنه.

٥- قد يظن البعض أننى بذلك أميع القضية، ويعلم الله أننى لا أفعل ذلك، ما أفعله أننى لا أضع رأسى فى الرمال ، و أحاول الغوص كى أقتنص كبد الحقيقة، كما أننى لا أحاول أن أبرىء الأطباء، بل إن لدى الكثير حول خلل التعليم الطبى وفضائح الامتحانات وانتشار الجهل و " الفهلوة " بل والنصب والاحتيال أيضا بين جموع الأطباء، الأمر الذى أدى إلى فقدان مصر موقعا كانت به جديرة، و أدى إلى تسرب مورد اقتصادى كان يمكن أن يضارع قناة السويس ألا وهو مورد السياحة الطبية. ولكن تلك قضية أخرى.

٦- إن أحداثا متفرقة كتلك التى تقع، كحادث عايدة وحادث بلقاس وحادث مصر الجديدة ليست سوى نذر لجسد المجتمع ولعقله ولضميره أن الخطأ يكمن فيه، إنها أشبه بألم بسيط فى الصدر إن لم يتدارك تلته جلطة القلب، أو دوار خفيف فى الرأس إن لم يعالج - ولو بالجراحة - لأعقبه نزيف بالمخ، ثم الشلل ثم الموت.

٧- إن مايبدو من العوامل ضئيلا ولا علاقة له بالأمر قد يكون عاملا أساسيا، ولسوف يدهش القارىء على الفور إذا حدثته عن دور مرفق المياه فى وفيات المرضى، و ليس القارىء فقط هو الذى سيندهش، بل إن أحد أساتذة الطب الكبار نظر إلىّ فى ذهول و أنا أسائله : ألم تجر أى من الجامعات أو مراكز البحوث فى مصر دراسة عن دور تلوث المياه التى يعقم بها الجراحون أيديهم و آلاتهم قبل العمليات الجراحية، وعن نسبة الوفيات الناتجة عن هذه المياه الملوثة.

٨- إننى أخشى أن يصدق بعض ما يقوله بعض الغربيين عنا من أننا ذوو عقل أحادى فلا نستطيع استيعاب أكثر من سبب واحد

للنتيجة الواحدة جاهلين أو متجاهلين أن مئات الأسباب وربما آلافها قد تتضافر وينشط كل منها الآخر كى تؤدى إلى نتيجة معينة فى النهاية، وبالتفكير الأحادى فإن الممرضة عايدة قد قتلت المرضى بالفلاكسيديل وحكم عليها بالإعدام . . وانتهت الحكاية، أما العقل التحليلى المركب فلا بد أن يكون له رأى آخر.

٩- و أخيرا فإن ما يترسب فى وعى الأمة الجمعى، ليس جريمة الممرضة عايدة مهما كانت بشاعتها ، ولا هل هى المسئولة وحدها أم أن الأطباء هم المسئولون أم أن الجميع مشارك، ليس شيئا من ذلك ما يترسب فى وعى الأمة، ولا ما يجرح روحها ويبهظ قلبها، فذلك كله فردى، ما يشغل الأمة- أو على الأحرى ما يسحقها ويودى بها إلى السلبية والجمود - هو هل مازالت معايير المجتمع سليمة، وقيمه صلبة وقوانينه تحترم؟ هل ما حدث فى قضية الممرضة عايدة من تعذيب و إهدار للقانون هو الشاذ الذى لا يتكرر أم أنه هو القاعدة ودونها استثناء ، إن على المثقفين والكتاب والمسئولين جميعا أن يتصدوا لذلك ، فذلك هو السؤال وتلك هى القضية !!

يا أيها المثقفون : قولوا للرئيس :"عادل حسين مجنون"!

يحزّ فى قلبى أن الرئيس لا يقرأ صحف المعارضة، رغم أن رجال أمن نظامه، يعتقلون قادتها، وينكلون برموزها، ويصمّون آذانهم عن نصائحهم حتى وصل الحال بمصر فى عهده، إلى دولة من أسوأ أربع عشرة دولة فى العالم فى مستوى حقوق الإنسان، وإلى أواخر القائمة فى الاقتصاد، وأوائلها فى الفساد، والكارثة : أنه كلما ازدادت الأمة فقرا، ازداد المسئولون و أبناؤهم غنى، وكلما غاب القانون لصالح اللصوص والأشرار، نكص عن حماية الأبطال والأخيار، ولكم جرح كبريائى، أن أجد الرئيس رغم ذلك لا يعير سمعا ولا اهتماما لرجال المعارضة، الذين يودون له أن يكون أعظم حاكم فى الدنيا، التى اشتق اسمها من الدنية، والتى لا تساوى عند الله جناح بعوضه، ويحبون أن تكون الدولة التى يشرف هو برئاستها- عكس ماقاله مثقف منافق - أعظم الدول فى العالم، وأعلاها شأنا، و يرجون التواصل معه والائتناس برأيه، وإبلاغه باتجاهات الأمة، من المعارضة، التى حصلت فى انتخابات "ÂÃ‰ †«Ÿ‘‰»الأخيرة، رغم تزويرها، على ثلث أصوات الأمة تقريبا، ولقد زاد من أساى، أننى وقد حز الأمر قلبى، وجرح كبريائي، قد توقفت نهائيا عن سماع خطب سيادته، بعد توقف جزئى أعقب تزوير انتخابات ١٩٨٤. حين اكتفيت منذ ذلك الحين، بقانون لا يكاد يخطىء، إلا على سبيل الاستثناء، كى أفهم مجريات الأمور : وهو أن السلطة ما خُيّرت بين أمرين إلا اختارت أسوأهما، و أنه مامن قضية ينبغى فيها اتخاذ قرار، وما من فكرة ينبغى الخروج منها برأى، إلا ورحت أسأل نفسى، عما يجب ألا يُفعل على الإطلاق، لخطئه الجسيم وضرره العميم، فإذا بذلك الذى يجب ألا يفعل، هو بالضبط دون سواه ما يُفعل . حتى أننى كثيرا ما أحس، ربما كنوع من السخرية من نفسي، وربما كنوع من الأمل يعز، وربما كبديل عن

البكاء، والانفجار، والتفتت، أنه فى ذات مرة، بعد اتخاذ قرار من القرارات، أو فعل من الأفعال، كالتنكيل برجال المعارضة، ضمير الوطن، سنفاجأ بواحد من مقدمى البرامج على شاشة التلفاز هاتفا بنا ألا ننزعج كل هذا الانزعاج لأن ما حدث لم يحدث فعلا، و إنما هو برنامج من برامج الكاميرا الخفية !!. و أن القرار هو بالضبط عكس ماصدر، وإنما أراد من أراد، أن يختبر – بدلا من الأفراد– رد فعل الشعب حين يُوجه إليه أقصى درجات الاستفزاز، بتصرفات غير معقولة، ولا مقبولة، أو مثلما حدث ذات مرة منذ أعوام طويلة، عندما ادعى الممثل الكوميدى "أبو لمعة "أن نيزكا هائلا على وشك الاصطدام بالأرض بعد دقائق، وأنه يوم القيامة .

ولكم يعز علىّ كمواطن، وككاتب، أن تستمر القطيعة بينى كمعارض وبين الرئيس، وهى قطيعة أدفع أنا لها الثمن، ويدفعه الوطن، وقطاعات عديدة من الأمة.

لا أنكر وسوسة الشيطان لى أنه هو الذى بدأ بالقطيعة، و أنه لأمر مهين لى جارح لكبريائى، أن أعترف، وعلى الملأ أننى عاجز عن احتمال قطيعته، لكننى تذكرت أن الكبرياء رداء الله جل جلاله، لا ينازعه فيه أحد، فقررت البحث عن وسيلة أتواصل بها مع سيادة الرئيس، دون أن يكون ثمن ذلك برقية تأييد، ولا إعلان مبايعة، ولا أن يعيد صانع الأزرار فى رائعة "هنريك أبسن "صبّى، لأنه اكتشف أننى معطوب، أريد أن أتواصل مع الرئيس دون توبة عادل عبد الباقى فى مباحث أمن الدولة، ولقد شعرت أننى مستعد للتخلى عن كل كبريائى، وحتى عن بعض كرامتى، لكننى غير مستعد أبدا للتخلى عما أومن به، عن مبادئى و أفكارى، وما أعتقد أنه صواب .

هكذا، عبر السنين، بالألم، حددت الهدف وبقى أن أحدد الوسيلة، وسرعان ما قفزت الفكرة إلى رأسى، حين تذكرت، أنه من عادات الرئيس الحميدة المحمودة، أن يلتقى بالمثقفين فى معرض الكتاب كل عام .

والمثقفون، نبراس كل أمة، مصباحها الهادى، وشعاعها الكاشف، وسراجها المنير، يجب أن يكونوا القوة الدافعة لأممهم، الرافعة لها، المشذبة، المرقية، المهذبة، المثقفة، وحلقة الوصل بين أطرافها

المتنافرة، المتصارعة، والطاقة التى تصهر المكونات المختلفة، لتكون منها سبيكة متجانسة، عصية على الكسر. هكذا يجب أن يكونوا، لكن الواقع، المر، المخيب للأمل، الذابح للقلب، الساحق للروح، كان يجعلنى فى معظم الأحوال أشعر بالخجل، و أحيانا بالخزى، لما يتبدى من تفاهة بعض المثقفين، سطحيتهم، وصوليتهم، انتهازيتهم، غرقهم فى ذواتهم أحيانا، وفى دونيتهم أحيانا، وفى مطالبهم الصغيرة أحيانا، والحقيرة أحيانا أخرى، وكان يشتد بى الخجل، كلما تذكرت، أن لقاء السيد الرئيس بهم فى معرض الكتاب مذاع، يتابعه المواطنون جميعا، والعالم، ليحس البعض معى بالخزى، والبعض بالشماتة، والبعض بالفرح، حين ينخدع فيصدق أن هؤلاء هم نخبة أمتنا، وصفوة فكرها، و أعظم مبدعيها، و أذكى عقولها، و أنه والأمر ذلك، فنحن أمة لا تُخشى عداوتها، ولا ترجى صداقتها، وليس لها فى المستقبل أمل، ولا فى الحاضر عمل، و أن أمة كتلك، تستحق ما حاق بها، وما سيحيق، إذ كيف يطيق عقل، أن يصدق، أنه فى اجتماع رهيب مهيب يحضره الرئيس نفسه، رغم مشاغله، وضيق وقته، وتشعب مسئوليته، واتساع اهتماماته، وجسامة قراراته، فإن بعض المفكرين، لا يخجل من أن يطالبه بأمور، قد يخجل الإنسان من طلبها من رئيس مدينة، أو مأمور مركز، والبعض الآخر، يجلس فى أدب شديد، لا أدب الأدباء، وإنما ذلك الأدب الممقوت الذى يفضله الجهلة على العلم، أدب العبيد، الأدب المأمون الآمن الخاضع الخانع المستسلم المسالم، الصامت حتى ينطق الرئيس – أو أى مسئول كبير – فينطلق مسبحا بحمده، مشيدا بعبقريته وعقله، و أنه لولاه، لعجزت النساء أن يلدن، ولتصحر الوادى وضاع الوطن، وينسى ذلك المثقف –مثلا– أن الوادى يتصحر فعلا والوطن يضيع، لكنه بأدبه المفضل عن العلم، يجد الطرق أمامه ممهدة مفتوحة إلى ندوات ليس لها آخر، ومكافآت من التلفاز والراديو، وسفاسف القول التى يقولها، المعدومة الأدب، يتسابق المخرجون عليها، وتستباح ميزانية الدولة لها، لتصبح أفلاما ، معدومة الفن، قليلة الأدب، لكنه كلما انعدم فنه زاد رصيده، وكلما قل أدبه ازداد قبوله. بيد أنى كنت أعزى نفسى دائما ، عزاء حقيقيا، بأن من وجه الدعوات، لم يحرص على

توجيهها للجميع، أو لمن يمثل الجميع، ولا حتى جميع الحاضرين يتكلمون، ولا جميع من يتكلمون تذيع وسائل الإعلام كلماتهم . من أجل ذلك، كنت أحاصر خجلي، و أواجه نفسى، بأنه رغم كل شىء، فما يزال المثقفون هم الأمل، بعد أن ضاع كل أمل، وهم الملاذ، حين ادلهمت الخطوب، و أظلمت الدنيا، و أن هجومى عليهم وانتقادى لهم، ليس لأننى أبيعهم، أو أخون أمهم مصر، بل لأننى أحبهم، وأدافع عنهم، ربما أكثر من دفاعهم عن أنفسهم، كإدانتى مثلا لبيان الداخلية ، الذى يدين بعضهم بالارتزاق والعمالة، لمجرد أنهم دافعوا عن حقوق الإنسان، ومسوا بصورة دمثة رقيقة غير مباشرة، أن قيام الأمن بالتزوير والتلفيق قد تجاوز الحدود، ولقد رفضت البيان الأحمق رغم علمى- والأسى يذبح قلبى- أن البيان ليس خطأ مطلقا، و أن بعض ما فيه صحيح، لكن بعد أن غير مسئول الداخلية عناوين كشوفه، ليضع المرتزقة مكان الأبطال والأبطال مكان المرتزقة، وبالرغم من علمى بذلك، فقد رفضت البيان كله، لأننى كما قلت لكم أحبكم، لأنكم رموز الوطن، ، ويعلم الله، جل جلاله، أننى أكتب جادا، رغم أننى أعلم أن وكيل النيابة الذى سيسألنى - حتما - غدا أو بعد غد، أو بعد شهرين، سيوجه إلىّ اتهاما بالسخرية من رموز الوطن، بازدراء المثقفين، وربما نظام الحكم أيضا، رغم أنى، وأيم الله، تختنق عيناى بالدموع بينما أكتب هذا الكلام، الذى لن يخرجه مخرج، ولن يحاوره فى الإذاعة والتلفاز محاور، ولن تكتب الصحف القومية شيئا عنه، ولن يعطينى أحد ثمنا له، ولن تحول العراق ولا إيران ولا السودان شيئا إلى أرصدتى فى الخارج، وما لأجل هذا كله تغرورق عيناى بالدموع، وإنما لأننى أدرك عمق الأزمة التى يمر بها الوطن، وفداحة المصائب النازلة على رأس الأمة، و أدرك، ربما أكثر من أى وقت آخر، أنه فى كل ما مر بنا، كان المثقفون خلف كل هزيمة، كانوا هم السبب وهم النتيجة، كان عليهم قيادة فكر الأمة، لكن بعضهم سبح بحمد كل ملك، وكان عليهم صياغة وجدان شعوبهم، لكن بعضهم تحولوا إلى مروضى عبيد يروضون مواطنيهم لأمير أو لملك أو لرئيس، وكان عليهم إدراك التحديات التى تواجه الأمة، أنها ليست تحديات التقدم والرقى، وإنما تحديات الفناء، والتلاشى،لم يدركوا، لم

يقوموا بدورهم، لذلك ننهزم، وتتقدم تلك الدول التى يكون حساب مثقفيها لحكامها عسيرا، مريرا، و مصرا على ألا يتجاوز الحاكم خط مشروع الأمة الحضارى الشامل لكل الأبعاد الدينية والتاريخية والثقافية، الذى يعلّمه المثقفون للحاكم، يجب أن يكون الحاكم تلميذا نجيبا للنخبة من المثقين، لا أن يجلس النخبة من المثقفين فى حضرة الحاكم كتلاميذ مدرسة أولية يملؤهم الخوف والنفاق والرياء والخجل والكذب، والرغبة العارمة فى أن يكلأهم صاحب الحفل بنظرة، يجب أن يتوقف المثقفون عن الجلوس ليعلمهم الحاكم المعلم الملهم، فما من حاكم معلم ولا قائد ملهم، إلا إذا كان جبارا باطشا مثل الذى عبر عنه الشاعر بقوله:

تلوا باطلا وجلوا صارما. .. . وقالوا صدقنا ؟ فقلنا نعم !!

مثل ذلك الحاكم، يفخر دوما بأنه يجمع أمته خلفه على قلب رجل واحد، رغم أن العالم يدرك أن مثل هذه الأمة لا يوجد فيها رجل واحد و أن مثل هذا الحاكم لا يمكن أن يكون له قلب.

إننى أعلم أن مثقفينا ليسوا جميعا كذلك، وإلا ما خاطبتهم وما وضعت ثقتى فيهم . لكننى أذكّر، مدركا أن الذكرى تنفع المؤمنين، ومدركا أن عددا كبيرا يدرك معى أن الوطن والأمة قد وصلا إلى عمق أزمة لا بد فيها أن نتغير جميعا حتى يغير الله مابنا . وعلى هذا الأساس قلت لنفسى أن المثقفين الذين سيحضرون ندوة المؤتمر فى معية الرئيس يمكن أن يكونوا حلقة الوصل بينى وبينه، أن ينقلوا له وجهة نظرى، ما أكتبه ولا يقرؤه، شيئا عن ألمى، ويأسى، وبؤسى، وهوانى أمام تصرفات أجهزة حكمه، وأملت أن يشرحوا لى ما خفى علىّ، لعلى أفهم، أو أتفهم، أو أستفهم ، أو على الأقل التمس العذر.

أملت فى ذلك كله، ورحت منذ فترة أرتب أفكارى، التى ما أن أحسست أن ثمة حلقة اتصال يمكن أن تنشأ بينى وبين الرئيس حتى تقاطرت علىّ، كأسراب من ملايين النحل، وكل فكرة منها تحاول أن تفوز بأن تكون هى البداية، ورحت أفكر فيما ينبغى أن أكلف المثقفين به، كى ينقلوه للرئيس، هل أكلمهم عن التعذيب والسجون،

أم عن التـزويروالتلفيق، أم عن الإجرام والكذب، أم .... أم .... أم....
أم عما أدى إليه كل ذلك من تداعيات وتحديات، وكيف يمكن تجنب نتائجها الوخيمة و آثارها الفادحة، أم أتحدث عن تغييب وعى الأمة، تجهيلها، خلط الأمور وتمييعها، نشر الانحلال والضلال، حتى لقد بتنا نخجل من متابعة وسائل إعلامهم فى أسرنا ، ليس لأننا ظلاميون متحجرون، ولا لأننا أعداء الحضارة، فقد كان من أعلى الأصوات التى نددت بما نندد به، واستنكرت مانستنكره، صوت السيدة سوزان مبارك !، وقد نقلوا لنا في وسائل الإعلام، التى تتبع الحكومة التى عينها مبارك، أسوأ ما فى العالم وأشده تفاهة. . لقد أنقذ الأمة من سموم صحافتهم عجزهم عن مكافحة الأمية فيها لكنهم تداركوا الأمر بالتلفاز والمذياع ، كالمياه المختلطة بالمجارى ، واقعا ومجازا ، والفشل الكلوى كالفشل العقلى ، لم تشهد بلادنا انتشارا فادحا لكليهما كما تشهده فى هذا الزمن ، بعد أن شرعوا فى بيع كل شىء .

ذات مرة صرخ أستاذ الإعلام بالجامعة الأمريكية أنه رغم تخصصه العالى أصبح يعجز عن التمييز بين برامج التليفزيون وبرامج الإعلانات متسائلا :فماذا يفعل المواطن العادى؟ وقالت الوفد أنه يبدو أنه لم يعد فى التليفزيون برنامجا لم يُبع إلا نشرة الأخبار . ياوفد : لماذا تثقون أن نشرة الأخبار لم تبع بعد ، ربما كانت أول مابيع . ربما ، فى أبشع عملية غسيل مخ للشعب والأمة .

هل أناشد المثقفين أن يهدوا للرئيس مبارك عيوب حكومته ؟ .

فإننا نعجب لم يُحسن منهم أحد وهو كلما أساء كل الإساءة يجد من يزكيه ويشهد أنه محسن . بيد أنهم لا يدركون أنه مايمر يوم من نعيمهم إلا ويمر يوم من بؤس أممهم وكلاهما إلى نفاد . غير أنهم يسعون إلى نوع غريب من الأمن، لقد كان عمر بن عبد العزيز يأمر ولاته بتحصين مدنهم بالعدل أما هؤلاء فيحسبون أنهم سيركبون رقابنا بالخوف .

إنهم يدعون قدرتهم على حماية الأنظمة، وربما كانوا هم ببطشهم وعسفهم هم السبب فى انهيارها . ولعل الرئيس يسمعكم حين

تقولون له:

لأن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن، خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف .

ولعله يسمعكم أيضا حين تذكرونه بما كان يقوله العرب : إذا صحبت العاقل فاصدقه ولا تبال إغضاب الحاشية، فإذا خدمت الجاهل فاجعل كل همك إرضاء الحاشية . لذلك فنحن نصدق الرئيس . ونصدقه حين نتأمل أمامه في مأساوية حال النخبة في دول العالم الثالث، تلك التي ورثت الحكم بعد عهود الاحتلال، والتي انهزمت في معظم الأحوال بعد جيل أو جيلين، لتصبح أسوأ حتى من المحتل ذاته، إذ أنها تكرس ما عجز المحتل عن تكريسه لتقوم بشق صف الأمة، إلى نُخَبٍ تم بالكامل غزوها من الداخل وإحلال شخصية المحتل مكان شخصيتها، فأصبحت تعامل مواطنيها بنفس عنصرية المستعمر لكن بوسائل أكثر توحشا وهمجية، فارضة عليهم عذابا مزدوجا، لأن على المواطنين أن يناضلوا ضد تلك النخب الخائنة كما كانت تناضل ضد المستعمر لكن بدون نفس الوضوح في الرؤية والأهداف . ولنتجنب الجدل السفسطائي حول من يفسد من ، الحاكم أم الحاشية ، ذلك لا يهمنا الآن ، لا يهمنا إن كان الحاكم منهم، أو ضحية لهم أم كانوا هم ضحايا له ، ما يهمنا أن نثبته هو أنهم ، في معظم بلاد العالم الثالث، بغض النظر عن الفروق الشخصية بينهم، لم يعودوا يصلحون ، لا لمجرد عيب شخصي فيهم ، بل لأنهم افتقدوا هوية أوطانهم وانتماءاتهم، ولم يعودوا على الإطلاق يحسون أحاسيس مواطنيهم أو يرون رؤاهم .

وهاهي النتيجة، مصر ذات الستين مليونا تصدر بأربعة مليارات، وسنغافورة : ذات الملايين الأربعة تصدر بستين مليارا، رغم أنها بدأت نهضتها الاقتصادية قبل فترة قصيرة من تولي الرئيس مبارك للحكم في مصر، وحينما بدأت كان مستوى الاقتصاد فيها أقل منه في مصر .

لطالما حذرنا وشكونا وعرضنا فلم يسمعوا فإذا بأعدائنا

يخترقوننا حتى النخاع ولا عزة لنا ولا منعة، ومن طالبوننا بتحمل القهر من أجل النصر على العدو، يتباهون الآن بعلاقتهم بالصديق الذى كان عدوا، يتباهون، بلا خجل يتباهون وهم يحثون التراب على ماضينا ودماء شهدائنا .

لن ندخل الآن فى جدل حول معنى الإرهاب ومن هم الإرهابيون، دعكم ممن يرون أن أمريكا وبريطانيا والصرب و إسرائيل وأنتم هم الإرهابيون، دعكم من أولئك، فلست أوافقهم فيما يذهبون إليه من أننا نُحكم حكما مباشرا من واشنطن أو القدس، لكننى أقصد الأسوأ، أنه قد تم اختراقنا، أو على الأحرى اختراق نخبنا، التى قد يقوم بعض أفرادها بالأعمال القذرة أو الخطرة التى قد يستنكف القيام بها السادة هناك . ولقد سلطوا السادات ليضرب ليبيا ذات يوم، فلما جاء مبارك وأبى أن يواصل ماكان يفعله السادات ضربوا هم ليبيا بأنفسهم . بيد أن تلك النخب حفاظا على المظاهر وسترا للعورات تحتفظ بديكور ديموقراطى مزيف، حين يستغلون أحزاب المعارضة وصحفها كستار يخفى حقيقتهم ، وكحلية يلبسونها أمام الأجانب ، فإن حدث أن تحول واحد منها إلى قوة حقيقية معبرة عن الأمة فإنهم على استعداد لفعل أى شىء وكل شىء ، على استعداد أن يتحالفوا مع الشيطان كما اعترف شامير ، حين قال -ولم ينكروا فانذبحنا - أن موقف إسرائيل ومصر والسعودية من الأصولية الإسلامية موقف واحد.

موقف واحد .

قولوا للرئيس أن عيون الأمة تضطهد، وعيونها تسمل وقلوبها تنزع و أرواحها تسجن، و أن فى مصر ستين ألف معتقل، و أننى أتخيل كيف يُمتهنون ثم أتخيل الفراش الوثير الدافىء الذى ينام فيه من سجنوهم، و أرى كيف تنقلب الأمور يوم القيامة .

أذكر أيضا عمر بن الخطاب، وهو شهيد فى النزع الأخير يأمر عبد الله بن عمر : "ياعبد الله خذ رأسى عن الوسادة فضعه فى التراب لعل الله جل ذكره ينظر إلىّ فيرحمنى، والله لو أن لى ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلع ".

عمر، عمر هو من يعتبر حكام هذا الزمان مجرد ذكره إزراء بالولاة مفسدة للرعية .

يا إلهى : كم يبلغ الآن عدد ضحاياهم الأبرياء.

كم يبلغ الآن عدد من حصدوهم بالرصاص دون محاكمة، ودون اتهام .

بعد استشهاد عمر، انطلق ابنه عبيد الله تحت وقع الفاجعة ليقتل قاتليه، لكنه تجاوز مايمكن أن نسميه بأسلوب عصرنا الشرعية المنوط بها تنفيذ الأحكام بعد المحاكمة العادلة بضوابط كاملة تُدرأ فيها الحدود بالشبهات، وبرغم أن الشهيد كان عمر، فقد ثار بين المسلمين رأى بضرورة إقامة الحد على عبيد الله بن عمر، وتدخل الخليفة عثمان رضى الله عنه، فاشتد فى القول على عبيد الله ثم دفع دية القتلى من ماله فقد استقبح أن يقتل أبو لؤلؤة عمر ويُقتل من بعده ابنه عبيد الله .

يا إلهى : كم من حكامنا يُقام عليه الحد لو أقيم فى الأرض شرعك.

ألهذا يخافون منا، رهائنهم نحن ، لكنهم هم الخائفون .

يا إلهى : إن الأهالى التى لا يمكن أن تتهم بممالأة الإرهاب قد نشرت أن معتقلين مقيدين فى الأغلال قد حُملوا إلى مزارع القصب حيث أُطلقَ عليهم الرصاص، ولم تكن الأهَالى فقط فقد تواترت الأنباء بذلك .

ولكن، بالرغم من كل الدماء التى سالت فقد عجز رجال الأمن، عن تحقيق الأمن ، رغم كل وعودهم وبطشهم وظلمهم وغيهم ، وأخذهم المحسن بذنب المسىء، ولقد غشوا فقالوا أن العنف فى الشارع المصرى سيوقفه العنف ، غشوا ، فذلك غير صحيح ، و إلا فجربوا أن تأتوا بنار لتطفئوا بها نارا أخرى ، لن تطفئها ، ستزيدها اشتعالا ، وازداد اشتعال النار وازداد سعارهم للدم، وكلما فشلوا كلما احتاجوا إلى ضحية جديدة، وكلما ازداد فشلهم احتاجوا إلى ضحية أكبر، غول أسطورى شيطانى لا

يستطيع الحياة إلا على دماء البشر .

فى السعودية ، عندما يقيمون الحد ، يشيع العامة أن منظر الدماء يصيب الجلاد بنوع من السعار ، لذلك يحيط به جمع من الجنود الأشداء لتكبيله أو حتى قتله إذا مادفعه سعار نشوة تفجير الدماء إلى الهجوم بسيفه كى يطير رقاب الأبرياء .

أحسب أن ما ينطبق على الجلاد الذى يصيبه منظر الدماء بالسعار ينطبق بشكل ما على العهود . و أن تورط عهد فى اغتيال معارضيه دون محاكمة، بمنتهى الخسة، أو لنصب المشانق ، سيدفعه دائما إلى نصب مزيد من المشانق .

بلا أمن وبلا أمان وبلا إيمان .

أجل، إن ما يحدث الآن للمعارضين -ليس فى مصر فقط بل فى العالم العربى والإسلامى- جزء من منظومة هائلة لا نرى منها إلا أقل القليل.المطلوب على مستوى العالم العربى والإسلامى ألا توجد دولة أو قوة قادرة على رفع رأسها أمام أمريكا و إسرائيل، على مجرد التفكير فى التفوه بكلمة لا، وعلى مستوى الدولة نفسها فذلك هو المطلوب نفسه، ألا يوجد معارض قوى شجاع ذكى قادر على تكوين رأى عام قوى، مثل هذا لابد أن يستقطب، فإن لم يمكن فلابد أن يُرهب، فإن لم يمكن فلابد أن يُشوّه، فإن لم يمكن فلابد أن يصفى، بتلك المصطلحات البغيضة المقززة التى ابتدعوها كتجفيف المنابع وقطع الجذور.

لقد تعددت الاجتهادات والرؤى عن السبب الذى يدفع السلطات إلى توريط نفسها فى كل هذا الاستفزاز للأمة - بصورة أظنها مشجعة للإرهاب، وينبغى محاسبة المسئولين عنها من هذا المنطلق أيضا -، ولعل كل هذه الرؤى صحيحة، ولعلها تكمل جوانب مختلفة من الصورة، فالمطلوب تطويع الوطن والأمة والحضارة وسلب الهوية، والمطلوب على منهج النظام العالمى الجديد أن يمسي كل من يعارض عبرة، ألا يوجد، فإن وجد أن يُصلب مثل اسبارتاكوس، وأن يسلمه بعض حوارييه كالمسيح عيسي أو أن يُطأ كالحسين أو أن يغتال كحسن البنا، أو أن يُخنق فى زنزانته كسليمان خاطر . ذلكم

هو المطلوب، ثم أنهم يظنون أن حكامنا - الذين دعموهم وربما عينوهم - هم وكلاءهم فى تنفيذ ذلك، لكن الأمة لايمكن أن تُقرّ الحكام الوكلاء على مايريد أعداؤها، لابد إذن من قهر الأمة، لكن الأمة سترفع صوتها بالاعتراض، لابد إذن من تزوير صوتها، لكن الأمة ستقاوم، لابد إذن من ترويعها و إرهابها، سيكون هناك شجعان لا يخيفهم الترويع ولا يرهبهم الإرهاب، لابد إذن من تشويههم وتعذيبهم.

أرأيتم يا معشر المثقفين أبعاد الدائرة الخبيثة التى يجب علينا كسرها ؟!.

ولولا قحط زمانهم الذى لانرضع منه سوى ثدى عقيم لأدركوا مغبة مايفعلوه بنا، أنهم سادرون فى حماقة ليس لها مثيل فى إهدار قواهم، فى تضييع إمكانياتهم، فى قتل أنبل من فيهم وأشجعهم و أشرفهم . بنفس هذا المنطق والنهج والفكر مزقوا العالم العربىّ والإسلامى وجعلونا نهبا مستباحا لأعدائنا.

وبرغم أن المنطق السليم لا بد أن يدرك حتى مالايُنشر، ليفهموا أن الرئيس مبارك - رغم كل خلافاتنا الجذرية معه -مع أمته لا مع أعدائها، و أنه بهذا المفهوم فإن المعارضين أحد أقوى أرصدته، لكن الأغبياء الحمقى لايدركون ذلك، فأعوذ بالله من فتنة العالم الفاجر، وفتنة القائد الجاهل .

فلكم من دب أساء إلى صاحبه .

يا معشر المثقفين الذين تقابلون الرئيس فى معرض الكتاب هذا الصباح، قد يكون هذا الصباح مختلفا عن سواه، فكل صباح آخر مجلل بالعار، مسودّ بالخيبة، منقطع الرجاء ، منعدم الفرح، مستعر الألم، حين نتبدى كأفراد، وكوطن، و كأمة، وكعالم إسلامى، جسدا هائلا مترامى الأطراف، مشلولا، غير قادر على أى فعل مهما كانت ضآلته، ولا حتى على رد فعل، وهو ماكان طوال الأعوام الأخيرة الدليل على أننا مازلنا نحيا، إلا أن هذا الجسد الهائل العاجز مايزال يمتلك وعيه الكامل بذاته وبالدنيا من حوله، مايزال يحس ويتألم، تكويه كل إساءة، ويشويه كل اعتداء، ويذبحه عقوق

الأبناء، وخيانتهم، لكنه لا يقدر على أى فعل، إلا أن ينذبح وأن ينتظر .

و رغم أن مايحدث فى الخارج مايزال يحدث، وما يجرى فى الداخل مايزال يجرى، فإن هذا صباح يختلف عن كل صباح آخر، فيه يلتقى الرئيس بالمثقفين . ويستطيع المثقفون فى لقائهم اليوم مع الرئيس أن يكونوا جسرا بينه وبين الشعب لوقف ذلك الألم المروع المشتعل كالنار فى صدر الأمة وكالنزيف فى قلبها ، يستطيعون ذلك لو أدركوا حقيقة وضعهم وقيمتهم، لو أن كلا منهم، أو حتى بعضا منهم، أعد أبحاثه ومراجعه وبلور رؤاه، ليشرح للرئيس لا ليسمع منه ، ليعارض لا ليؤيد، ليقترح لاليطيع، أن يضع كل مثقف نصب عينيه، أنه هو، قبل أى فرد أو جهاز فى هذا الوطن هو المسئول عن انتصار أمته أو هزيمتها، أن يدرك أنه قبل أن ينهزم عمر مكرم أمام محمد على، وأحمد عرابى أمام الخديو، وسعد زغلول أمام السردار، ومصطفى النحاس أمام الملك، وجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر أمام اليهود، و أنور السادات أمام غوايات الباطل و إغراءات تتويجه كنجم، وحسنى مبارك أمام الاقتصاد والسياسة والحرب والديموقراطية وربما أمام واقع هائل لا يرحم ما ينبغى له أن يرضخ له، قبل كل هذه الهزائم جميعا كان المثقفون هم آباء الهزائم و أبناؤها .

فكرت، أن هذا الصباح الحزين حزنه ليس كحزن كل صباح، فهناك أمل، مهما ضؤل فى أن يحاول المثقفون، بعد تحقيق معجزة الخروج من ذواتهم، والإفلات من مغريات الحياة، القصيرة، الصغيرة، الحقيرة، ليحققوا تواصل المعارضة والأمة مع الرئيس، فربما لا تكون شقة الخلاف بيننا واسعة كما نظن، و ربما كان الابتعاد، خلف سوء الظن، أو ربما كان الابتعاد قد ترك الباب مفتوحا لأعدائنا و أعدائه، كى يواصلوا الدس بيننا، فيما فيه فساد أحوالنا، وضياع الأمل . وكلما ازداد ابتعادنا، ازداد اختلافنا، وشقاقنا، و ألمنا وحسرتنا، وفرصنا الضائعة .

الفرصة سانحة أمام المثقفين اليوم للقيام بدور المصلح مابين جبهات فئات الأمة، المختلفة، الممزقة، شاملة المعارضة وسيادة

الرئيس، وأناشدهم أن يكون قولهم له هينا، ولينا، فقد ثبت فشل الأصوات العالية في الوصول إلى أسماع سيادته، وثبت أن الانفعالات الحادة، لاتجد طريقا إليه، لذلك أريدكم ألا تكرروا طريقتي، التي وصلت بي إلى طريق مسدود.

تنهمر الأفكار داخلي، كل فكرة منها تحاول إغرائي، وربما إغوائي، بأنها هي التي ستحوز إعجابكم ، لتتبنوها أمام الرئيس خاصة وأن سيادته، و إن بدا في الفترة الثالثة لولايته غيره في الفترة الأولى، إلا أنني برغم كل شيء،أشهد بها بلا تردد، وبلا شبهة نفاق، أنه أفضل الوجوه في المؤسسة الحاكمة، وربما لا يعكس ذلك واقعا مجردا بقدر ما يعكس سوء الحاشية، ومن الغريب، الذي يُحسب للرئيس، لا عليه، أن الهجوم عليه، وانتقاده، أقل خطورة من الهجوم على وزير من وزرائه، أو على جهاز مباحث أمن الدولة، وذلك في ظل الدولة البوليسية التي نعيش فيها، أو على الأحرى نموت، والتي تسيء ممارساتها إلى السلطة والنظام والعهد أبلغ إساءة .

إنني حريص على الرئيس، رمز الوطن، لكن المؤكد أيها المثقفون أن حرصكم عليه أشد، ورغبتكم في حمايته ممن يريد به السوء أكبر، وأن عقولكم، تتركز فيها حكمة الأمة، لذلك عليكم أن تجتهدوا في الفكر، وتمحصوا في الأمر كي تنقلوا إليه خلاصة عقولكم، وعصارة قلوبكم، و أن تخلصوا له النصح، بأن تقولوا له الحقيقة .

قولوا له مثلا أن جهاز الأمن الباطش الجبار . . . غير صادق .ولعلكم أيها السادة المثقفون، يا خلاصة الأمة، تسمحون لي أن أجادلكم، و أن أسألكم، واضعا أمامكم ممارسات جهاز الأمن على كافة المستويات ، من السجون إلى المعتقلات، إلى الشارع، إلى المؤسسات المهيضة، والوزارات العاجزة، والهيئات المعطلة، إلى الجامعات والمعاهد، إلى الحرس الجامعي، إلى نهب ثروات الوطن، وتضييع مقدراته وإهدار إمكانياته، كل ذلك بحجة الحفاظ على الأمن، الذي برغم كل ذلك ضاع، بعد ترويع الأمة التي لم يتركوا أمامها إلا خيارين : الانزواء والخنوع إيثارا للسلامة ، أو الانفجار .

ماهى الفائدة التى تعود على النظام من ذلك، بل ماهى الفائدة التى تعود على وزير الداخلية أو على ضابط الشرطة من زرع مشاعر التربص والانتقام والكراهية بينهم وبين الشعب، لا الشعب يستفيد ولا ضابط الشرطة يستفيد ولا الوزير يستفيد ولا الرئيس يستفيد ولا النظام يستفيد فلماذا إذن؟، أى حماقة كبرى تدفع الأمور، لماذا يرضى الرئيس أن يتورط أبناؤنا ومواطنونا من رجال الشرطة فى التعذيب وتلفيق الاتهامات، وتزوير الانتخابات، إن جهازا من أجهزة الدولة قد يستدعينى ليطالبنى بدليل على أن الأسبوع سبعة أيام وأن العام اثنا عشر شهرا، وأن رجال الشرطة يعذبون ويزورون، وسأعجز عن الإتيان بدليل لكن الله يعلم وأنتم تعلمون.

لقد ناقشت بعض رجال الشرطة فى ذلك، وكانوا على قدر من الذكاء بحيث لم ينكر منهم أحد، لكنهم أخذوا يبررون مايقومون به بحماسة وحمية حتى أننى أكاد أكون لم أر من يدافع عن حق باستماتتهم فى الدفاع عن الباطل، و أدركت أن سر هذه الاستماتة، أنهم إن لم يقنعوا أنفسهم بأنهم على صواب فهم كما وصفت الأهرام مرة رجال الشرطة فى أمريكا الجنوبية، حين قالت أنهم أشد سوءاً و أكثر وحشية من أعتى رجال العصابات، لم ينكروا، ودافعوا عن التعذيب كطريق لا طريق غيره لحماية الوطن، دعكم من حدود الله، دعكم من تعاليم الدين، دعكم من المبادىء والأخلاق والمثل العليا، لكن إذا كان التعذيب صوابا، وكان هو الطريق الوحيد للمحافظة على استقرار الوطن فلنفعله فى العلن، إن المثل الشعبى الدارج يطالب ابن البلد كى يكون محترما ألا يخاف حين يفعل وألا يفعل حين يخاف، فلتطلقوا التعذيب علنا، وبدلا من تلك الحفلات الدموية فى أقبية السجون فليتم التعذيب على شاشة التلفزيون ولنجر المسابقات ولنوزع الجوائز على الأكثر قسوة، كمباريات الرومان القديمة، كصراع الديكة والثيران ، وليحصل على الجائزة الكبرى من يستطيع التعذيب للمدة الأطول وللحد الأقصى دون أن يموت الضحية، لا حرصا على حياة الضحية بل لاستمتاعه وترويع المشاهدين، ليكن ذلك، ولنناقشه ولنعلم من يوافق عليه ومن يرفضه لكن دون تزوير، بربكم أيها أبشع، أن يتم ذلك بهذه

الطريقة كعمل تباركه الدولة أم أن يتم فى ظلمات الليل كالمجرمين، آن أوان المصارحة، فليتم تزوير الانتخابات أيضا على شاشة التليفزيون، وليأخذ الجائزة الكبرى من يزور أكثر، أليس ذلك مايتم فى الواقع، لكن فى الخفاء، لماذا إن كان صوابا لا يتم فى العلن، لماذا نتخفى كاللصوص ؟ أم نحن فعلا عصابات لصوص، لسنا مجتمعا من الحكام والمحكومين بل مجموعة من قطاع الطرق أو القراصنة، وضحاياهم . حتى لقد دفع الأمر باحثا كبيرا مثل الدكتور محمد السيد سعيد لأن يقرر أن ما يحدث فى الشارع المصري ليس إرهابا ومقاومة للإرهاب بل صراعا على الحكم لا دخل لعموم الأمة فيه، لأنه صراع بين قوتين تفتقد فيه كلتاهما أى شرعية حقيقية، ولعله يقصد أنه لا شرعية حقيقية لنظام يزور الاتهامات والانتخابات ويبطش بالناس، وبين جماعات ليس لديها صك تثبت به أنها تمثل جماعة المسلمين أو تنفذ حكم الله .

يا أيها المثقفون، قولوا للرئيس أننا جميعا ضد الإرهاب، ضد الإرهاب الحقيقى لا ضد من يقدمهم جهاز الأمن كبش فداء، إننى وقلبى ينزف أذكر ضحايا العنف، رجال شرطة، ومدنيين، وشبابا أخيارا ربما لا يكون لهم بالعنف أى صلة لكن جهاز الأمن الجبار الباطش حاصرهم بتهم قد تكون كاذبة غير مبال بأن عاقبة بعض هذه التهم هو الإعدام .

ينبثق تساؤلى كالنزيف، أوجهه للمثقفين كى يوجهوه بدورهم إلى سيادة الرئيس، لماذا كان علينا أن نفعل كل هذا، أن يدمر بعضنا البعض، بمنتهى القسوة والحماقة والعنف، ولماذا كان يجب أن نكذب كل هذا الكذب، ولماذا كان يجب أن تجرى كل هذه الأنهار من الدم، لقد ضيعنا ثمار نصر أكتوبر من أجل وهم السلام، و بعنا انتماءاتنا الدينية والقومية والحضارية كى نفلت من حمأة التخلف ولنلحق بركب الحضارة، لكن تخلفنا ازداد، فقلنا، أن على السياسة أن تخدم الاقتصاد . ورحنا نبيع السياسة كى نحصل على الاقتصاد، منوهين كل آن وآخر، متسولين، كلمة مديح من صحيفة أمريكية أو أوروبية فى الرئيس مبارك، كى نثبت للأمة وللعالم أننا نسير على الطريق الصحيح، كأننا لا يمكن أن نسير على

الطريق الصحيح إلا بشهادة حسن سير وسلوك أمريكية، طريقة العبيد والجوارى، حين لا يكون للعبد والجارية صوابهما الخاص فصوابهما مايقرر سيدهما لهما أنه هو الصواب، ومثلما نظر الروس ذات يوم إلى ستالين ولينين كإله يتعبدون بقراءة كتبه الحمراء رحنا نحن ننظر إلى أمريكا .

وذات يوم نشرت الأهرام ردا على مانشرته الصحيفة الأمريكية الذائعة الصيت على مستوى العالم " : وول ستريت جورنال "تحليلا مطولا عن أوضاع مصر الاقتصادية مقررة أن الاقتصاد المصرى يسير على طريق الانهيار و أن مصر بالتالى تسير على الطريق السريع للانهيار الشامل والكامل .

يا إلهى :لقد بعنا كل شيء وضحينا بكل شيء وأطعناهم فى كل شيء كى يأتى الرخاء الموعود به منهم .

لكم اتهمتمونا بالغباوة والغفلة والبداوة والهمجية والتخلف لأننا نرفض أن نصدق منطوق الحضارة الغربية فينا ، ولكم نظرتم إلينا بالرثاء كله والازدراء كله لأن عقولنا القاصرة عاجزة عن فهم مدى هيمنة القوة الأمريكية على العالم ، وكيف أن هذه الهيمنة قدر لا يفلح حتى الدعاء فى رده . حسنا ، لو صدقنا الآن ما جاء فى الوول ستريت جورنال ، والذى تصفها الأهرام بأنها " : الجريدةالاقتصادية الأولى على مستوى العالم أجمع ".وتنبرى الأهرام التى طالما شارك بعض كتابها فى ترويضنا وتطبيعنا وتركيعنا وتطويعنا لفكر الحضارةالأمريكية ، تنبرى لا من أجل الحق بل من أجل سياسات نظام حسنى مبارك التى وصفتهاالصحيفة الأمريكية بالغباء ، وتفقد الأهرام الموضوعية تماما حين تروح تكيل الاتهامات للوول ستريت جورنال وتتناثر كلمات مثل : " السقطات الإعلامية الفادحة " و " خيوط المؤامرة " و"مفضوحة " و " وقد ارتكب محرر الجريدة الأمريكية أقصى جرائم التخلف " و " يكتب بنفس منطق المخبرين فى العالم الثالث الذين ينقلون معلوماتهم عن باعة البطاطا " و"السلوك المشين" و و و . . . الخ .

كانت الأهرام هى التى راحت تقول بكل الانفعال أن الرضوخ لمطالب صندوق النقد والبنك الدوليين هو الذى سيؤدى للانهيار الاقتصادى والانهيار العام .

أليس ذلك ما كنا نقوله؟ أليس ذلك ما عصفتم بنا من أجله؟!

الغريب أن النظام كلما اكتشف أن معارضيه على صواب ازداد غيظه منهم وتنكيله بهم، غيظ تلميذ بليد ينهال ضربا على رفيقه الذكى الذي اجتهد فأجاب الإجابات الصحيحة .

والآن : هل هذه الصحيفة الأمريكية وحدها هى الكاذبة، أم أن المنهج الأمريكى كله كذب.

ذات يوم نشرت الأهرام - أكبر الصحف العربية، ويقولون أكثرها وقارا - أن المخابرات الأمريكيةاستطاعت عن طريق الأقمار الصناعية بالغة الحساسية أن تصور ماركة ملابس صدام حسين الداخلية .

فإذا كانت ألأهرام قد أرادت ذات يوم أن تقنعنى بذلك فلماذا تشكك اليوم فى قدرتهم، لماذا تريد منى الآن أن اكذبهم ، وهم القادرون على تصوير ما يظهر وما يخفى، ألأن الأمر يتعلق بالرئيس مبارك ؟ .

يا إلهى، لقد ظللنا نركع أمام أمريكا وهى تكيل الضربات الصاعقة لنا كدين وكقومية وكوطن، وراح من يدعون أنهم كتاب الواقعية منكم، أشباه على سالم، والذين أصابهم الإيدز فى أرواحهم وقلوبهم وعقولهم، راحو يزينون الخضوع لأمريكا، راحوا يعرضون فى سوق البغاء الغربى شرفنا وكبرياءنا وعزتنا وكرامتنا وعرضنا، مقررين أن أمريكا، لا قبل لأحد بمقاومتها، ولا رفض مطالبها، لكن، فجأة، حدث ما توقعناه نحن، حين قلنا أن فترة الوفاق بين مبارك وبين أمريكا لن تستمر، لأنه، مهما بلغت خلافاتنا معه، وإداناتنا لسياسات حكوماته، فإنه ليس أميرا من أمراء الخليج، ولا نورويجا، مبارك زعيم وطنى، ولعله اجتهد فأخطأ، ثم اجتهد فازداد خطؤه، لكنه يبقى زعيما وطنيا، وهكذا بدأ الشقاق، وراحت الصحف الأمريكية تهاجم مبارك، وتنشر عنه

الأقاويل، فإذا بكتاب الواقعية، ينبرون للدفاع عن مبارك، ضد أمريكا التى لا يمكن مقاومتها

يا إلهى : هل كرامة الرئيس مبارك أغلى عندهم من الدين والوطن؟ لماذا لم تغضبوا قبل ذلك؟.

لقد بدأنا الآن نسمع حديثا كدنا ننساه عن الكرامة القومية، والعزة الوطنية، وضرورة الاكتفاء الذاتى فى القمح، وضرورة الاعتماد على الذات . يا إلهى، هل اكتشفوا ذلك حديثا، بعد الهجوم على الرئيس مبارك، هل الرئيس مبارك هو الوطن، أم مواطن يحاول خدمة الوطن فيخطىء ويصيب.

يامعشر الكتاب والمثقفين : تعالوا إلى كلمة سواء.

يامعشر الكتاب والمثقفين : لقد قلت لكم بعض ماعندى، البعض الآخر لم أقله لأنه يندرج تحت طائلة القانون، لكنكم بما لكم من حظوة عند الرئيس تستطيعون قوله .

يامعشر الكتاب والمثقفين : إننا لا نريد كثيرا : فقط قليلا من العقل، وبعضا من الضمير، وبصيصا من الرؤية، وذرة من الأمل، وإن تيسر مسحة من الكرامة .

لقد كنت أحاور تلك الأفكار قائلا أننا نحتاج لما يزلزل ما نحن فيه، وعلى حين غرة، كأفلام الرعب اعتقلوا عادل حسين ، جاء، كزلزال جاء، كسيل هادر جاء، كنا ننتظر الإفراج عن جميع المعتقلين فاعتقلوا قائدا من قوادهم، فتزلزل يقينى، وباخ رجائى، بجدوى المحاولة و إمكانية التفاهم، لكننى قلت لنفسى، أننى يجب أن أقسر نفسى على الصعب، اتقاء لما هو أصعب منه، مدركا أن أقصى مايمكن أن يصيبنى من جراء هذه المحاولة هو الموت فى سجن طرة فى مرحاض تحت الأرض على الأسفلت، أو فى القصر العينى بعد نقلى إليه من أحد مقارهم، ربما بأزمة ربو مفاجئة، أو حتى بانكسار النفس، وفقدان الرغبة فى الاستمرار، أو فى شارع من شوارع الجيزة، أو أمام مستشفى الجلاء حين يترصدنى كمين هناك، يطلق الرصاص علىّ، فيردينى، وبعد موتى، يضعون فى يدى مسدسا محشوا بالرصاص، بعد إطلاق نصف طلقاته، وحقيبة

محشوة بالقنابل، كي يتأكد للكافة، أنني إرهابيّ عتيق، ذلك أقصى مايمكن أن يصيبني، أما مايمكن أن أجنيه لو نجحت محاولتي، فقد يكون رأب صدع الوطن، رتق مزقه وجمع شمله ووقف نزيفه، عند ذلك قر قراري على الإقدام، رغم كل دواعي الإحجام . فهأنذا أوجه للمثقفين رجائي وندائي، أن يحاولوا تقريب مابيني وبين الرئيس، كمعارض له ولنظام حكمه، دون أن أكون عميلا مأجورا، ودون أن أقبض ثمن معارضتي، ولست أطمع أن يصدقني الرئيس في ذلك، بل أرجو أن يصدق أجهزة الأمن، التي لم تفلح جهود التنمية طوال الأعوام الماضية إلا معها، حين فشلت في الاقتصاد والتجارة والزراعة والصناعة، و أفلحت فقط، جهود تنمية الأمن، وليس لديّ دليل براءة أنصع من أنني لم أُتهم بعد، لأنه إذا كان جل المتهمين أبرياء، فما بالكم بمن لم يُتَّهم أصلا ؟! وتلك فرصة أقتنصها، إذ أنني أشعر بأن أوان اتهامي قد حان، وزمان ابتلائي قد اقترب .

من أجل ذلك كله قر قراري أن أناشد المثقفين، لرأب صدع الأمة، وسدّ شقها، فليس من المعقول ولا المنطقي، أن يصالح الرئيس أعدى أعدائنا، ويقاطع أخلص المخلصين منا، لأن الأمر بهذه الصورة لا يبدو بغيضا فقط، بل ومخيفا أيضا .فهل أنا يا أيها المثقفون مبالغ، عندما أرجو أن يكون عادل حسين أقرب إلى قلب الرئيس من رابين؟!. فلنفترض، والافتراض غير صحيح، أن عادل حسين إرهابي، فهل يمكن أن يريد بالرئيس، ووطن الرئيس ودين الرئيس شرا أكثر مما يريده قادة إسرائيل ؟، وهل يصح أن يدنس علم العدو بلادنا وتغيب عنها أعلام العراق-لا صدام- الشقيق ؟!.

لقد فكرت كثيرا فيما أبدأ به، لكن مجريات الأمور التي لا تترك لنا مجالا حتى لالتقاط الأنفاس غيرت أولوياتي، إن لم تكن خلطت في جرابي كل الأوراق، لذلك، فطبقا للأولويات الجديدة، إن لم يحدث في الساعات القليلة القادمة ما يغيرها، أو يلغيها، بأن يكتشفوا مثلا أنني أحضرت معي في رحلتي الأخيرة إلى الولايات المتحدة و أوروبا مظروفا أزرق اللون، أحضره لي في مطار أوهيرا، شخص يبدو عليه أنه من المتطرفين ، شاهده بالصدفة

ضابط أمن كان يقف على ناصية شارع المطار وبيده صحيفة مثقوبة، فإن لم يحدث ذلك، فإن ما أريد منكم قوله للسيد الرئيس أن ما يحدث مع المعتقلين بمفهوم العيب عيب، وأنه مشين وفاضح. إننى لا أستطيع غض النظر عن ملابسات الاتهام، لكن بعيدا عن الصواب والخطأ، والحلال والحرام، واللائق وغير اللائق، فقد كنت أود أن يكون الاتهام مسبوكا محبوكا، وأن يتم إخراجه بالعناية الفائقة التى تتواءم مع جهاز جبار باطش كجهاز الأمن عندنا ومع شخصية معارضة كبيرة مثل شخصية الأستاذ عادل حسين.

لأنه حتى فى الشر والخطايا فالذكاء أجدر بالاحترام من الغباء.

لقد جال بخاطرى مثلا أن تكون الحكاية كلها من تدبير مخابرات أجنبية، لكننى سرعان ما واجهت نفسى بأن تهافت الاتهام يشى بمصرى لم يتعود من أحد أن ينقده، أن يعاتبه، أن يلومه على تقصير، و أنه تعود أن يطلق الاتهام أيا كان، ليحوله للنيابة للتصرف على أساسه، إذا لم يعجل هو بالمبادرة بالمحاكمة والحكم والتنفيذ عبر قرار اعتقال أو طلقة رصاص . ثم نقطة أرجو أن يثيرها المثقفون مع الرئيس بأرق مايكون، تجنبا لإغضابه، وتوقيا لحساسية أرجو أن تزول، وتلك النقطة تتعلق بحياد النيابة التى نجلها كل الإجلال، لكن يسيئنا ويقلقنا ما تحدث عنه بعض كبار المحامين والكتاب، مما جرى بعضه فى قاعات المحاكم، واثقا أن حياد النيابة ليس مجرد وسام فخار لأى عهد، بل وصمام أمان أيضا، وأود أن تقولوا للسيد الرئيس، أننا مع احترامنا وتبجيلنا للنيابة والقضاء، إلا أننا نعلم، أنه فى عصور أزهى، وفى ظلم أقل، كانت القاعدة أن قاضيا فى الجنة وقاضيين فى النار .

أريدكم أن توضحوا للرئيس أيضا، كمّ الإساءة التى سببها الأحمق، الذى ترك عادل حسين يذهب إلى النيابة بثوب صيفى رث مستعار ممزق، لأن العالم، وهو يسمع عن ذلك، ويشاهد صوره، لن يدين بالطبع عادل حسين، ولن يقل احترامه له، و إنما سيدين إدانة فادحة، النظام الذى سمح لهذه "المسخرة "أن تحدث، ولو أننى كنت من ذلك الأحمق، لتوسلت إلى عادل حسين، أن يلبس ملابسه، التى أخذتها منه عنوة فى الليلة السابقة،عامدا متعمدا، كى لا يفضحنا

أمام العالم، لتوسلت إليه، لبادرته حتى بالاعتذار كخدعة حتى يعود من النيابة فأسلبه ملابسه مرة أخرى، فإن أبى قبول الاعتذار فقد كان ذلك يسوغ لى أن ألبسه أفخر ثياب ولو بالقوة .

لم يكن ذلك مخزيا لعادل حسين، ولا ممن هو أفضل من عادل حسين : سعيد بن المسيب، التابعى الجليل أفقه أهل زمانه، حين أراد عبد الملك بن مروان أن يقسره على البيعة لابنه الوليد فأبى سعيد بن المسيب، فضيقوا عليه ونكلوا به، و ألبسوه ثوبا خشنا حقيرا من صوف الماعز، وراحوا يطوفون به شوارع المدينة، وأخذوه إلى مكان إقامة الحد، موهمين إياه، مروعينه، أن السياف سيقطع عنقه، لكنه صبر واحتسب ورفض البيعة، فراحوا يجلدونه بالسياط، وذهبت إليه امرأته وهو يعانى العذاب ويرسف فى الأغلال وقد أضناها الإشفاق عليه، والرغبة فى أن يبايع كى يتجنب كل هذا العذاب، خاصة أن رفضه المبايعة، لم يكن ليقدم أو يؤخر بعد أن استقرت لعبد الملك الأمور، ودانت له الأرض ، بإخماد معارضيه، وقتل الخارجين عليه .

ولعلها ذكرت فى هذا الموقف، موقف سعيد بن المسيب، حين -قبل هذا الموقف بسنوات - خطب منه عبد الملك بن مروان ابنته إلى ابنه ولى العهد - الوليد -، فأبى سعيد، وسارع بتزويجها إلى فقير من فقراء المسلمين العابدين، وكان ماقدمه من صداق لابنته : درهمين !! ، قبلهما ورفض كل مايملك الملك !!!.

ذهبت امرأة سعيد بن المسيب إليه، راسفا فى الأغلال، هاتفة به: "ماهذا الخزى ياسعيد "فإذا به يجيبها إجابته الجليلة :"بل من الخزى إلى هذا هربت، فلو أجبناهم وقعنا فى خزى الدنيا والآخرة!.

أظن - يامثقفين - أن عادل حسين كجل المعارضين - من خزينا إلى هناك هرب . . .

عادل حسين، الذى راح منذ حبسه، يكتب رغما عن السلطة أروع مقالاته، دونما حاجة إلى أوراق ولا أقلام ولا إلى صحيفة، ولا إلى أي شيء يمكن للباطش الأحمق الجبار أن يحول بينه وبينه، يكتب إلى أمته التى تصافح وجه الحزن كل صباح، بشعاع الشمس والقمر

والنجوم يكتب، وبالصمت يخطب كأروع ما خطب، فتندفع الأمة، تقارن مابينه وما بينهم، بين تاريخه وتاريخهم، بين ثروته وثروتهم، بين أبنائه وأبنائهم، بين ما يمثله وما يمثلونه، بين ما يدافع عنه وما يدافعون عنه، بين أصدقائه و أصدقائهم، بين أعدائه وأعدائهم، بين حياته وحياتهم، والأمة تقرأ دونما حاجة لعين، وتسمع دونما حاجة لأذن، وتتعجب من اتهام الإرهابيين له بالإرهاب وترى بعين البصيرة والقلب عادل حسين - كجل ضحاياهم -ساخرا وهامسا حتى إلى جلاديه أنهم إذا بسطوا يدهم إليه ليقتلوه ما هو بباسط يده إليهم ليقتلهم، ولتهمس له الأمة بهسيس الريح : أين السلاطين مما أنت فيه ياعادل، أما لو فطنوا له لقاتلوك عليه.

يا أيها المثقفون . . . . قولوا للسيد الرئيس أن جهاز الأمن الباطش الجبار قد تجاوز كل حد، و أنه يجب وقفه عند حده و إلا أشعل الوطن . ليس مهما أن تقولوا ذلك بحروفه وكلماته، لكن قولوه بالصياغة المهذبة التى يقبلها فيناقشها، وقد يرى فيها رأيا. قولوا له أن الوطن حين يشتعل فإن السفينة تغرق بنا جميعا، و أن الخطر يتهدده معنا، وأن وزير داخلية السادات الأخير، حين أشعل الوطن، بقى هو، بعد أن ضيع الذى اؤتمن عليه : الأمن، والرئيس نفسه، و بقى هو، غارقا، فى ثروة مايعلم إلا الله ووزراء الداخلية اللاحقين كيف حققها، وليدعم ابنه، الذى راح بسلطان أبيه يسلب أموال الناس، حتى بدا أن سلطان القانون سيناله، فهرب إلى الخارج، أيضا بسلطان أبيه، مع أنهم لو حبسوه، لما حبسوه فى مرحاض تحت الأرض ولما تركوه ينام على الأسفلت ولما وضعوا الأغلال فى يديه، ولما سلبوا منه ملابسه ليستعير ثوبا صيفيا رثا ممزقا من سجين.

قولوا له أيضا أن جميع وزراء الداخلية السابقين فى عهده قد تورطوا - كما كتبتم أنتم أنفسكم فى الصحف الحكومية - فى اتهامات مالية مشينة - لم يحقق فيها أحد -، و أن ثروات بعضهم قد بلغت عشرات الملايين ولم يسألهم أحد - ربما حتى الرئيس فى حدود ما نعلم - من أين لهم هذا . لقد كان عبد الحليم موسى مثلا شيخا للعرب انخدع بعضنا فيه حتى فضحه زكى بدر . لكننا

نقرر فى ذات الوقت، أن اللواء حسن الألفى قد فشل فى تحقيق الأمن للوطن، (ملحوظة : بعد ثلاثة أعوام من نشر هذا المقال سيستعمل الرئيس مبارك نفس الكلمة فى وصف سياسة حسن الألفى : الفشل) مع أنه كان قد وعد به، لكن الأمر انتهى، إلى أن عدد ضحايا رجال الشرطة فقط فى شهرين أخيرين من عهده قد جاوز المائة والعشرين، وهم ضحايا أبرياء لسياساته الخاطئة، ومنهج "الضرب فى المليان "، والاستيلاء على حقوق القضاء وواجباته، ولقد جعل ظهور أعدائه للحائط، حين واصل خلق ثأر لا مصلحة للوطن ولا للرئيس ولا للأمة ولا لرجال الشرطة فيه، لا مصلحة حتى له هو شخصيا فيه، وهذا هو الغريب، لأن المستفيدين الوحيدين هم أعداء الأمة.

ولقد جال بخاطرى ذات وقت مالم أبح حينها به، وهو أن السيد اللواء حسن الألفى، بعد إصابته فى محاولة اغتياله، لن يصلح لأداء مهام منصبه، وحدثتنى نفسى، أنه : لأنه ليس أغلى على الإنسان من نفسه، برغم أن أحدا لا يؤمن حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه، لكننى أتجنب التركيز على ذلك، كى لا أتهم بأننى متطرف، خارجىّ، لكن لأن حسن الألفى يحب نفسه - وهذا طبيعىّ بديهىّ، فإن نفسه، ستقف بينه وبين الجماعات، طالبة الانتقام والثأر، ورجوت من الله أن ينتصر على نفسه، لكنه انتصر، فى زيادة التوتر، حتى الاشتعال.

يا أيها المثقفون :

سلوا سيادة الرئيس : هل وزيره واثق كل هذه الثقة البادية عليه - كثقة مسلم بن عقبة - أنه ليس ظالما، لقد فعلها مسلم بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم بنيف وخمسين سنة فى واقعة الحرة حينما غزا المدينة بأمر يزيد بعيد استشهاد الحسين، وفى المدينة فعل مسلم بالمدينة شر مايمكن أن يفعله كافر أو مسلم، حين استباحها ثلاثة أيام، فقتل سبعمائة من المهاجرين والأنصار، وعشرة آلاف من عامة الناس، واستباح النساء ثلاث ليال حتى حبلت ألف امرأة بغير زوج، وبعد أن فعل فعلته قال : "اللهم إنى لم أعمل قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله

عملا أحب إلىّ من قتل أهل المدينة، ولا أرجى عندى فى الآخرة . "!!!

إلى هذه الدرجة كانت الحماقة والغباوة وعمى القلب .

والآن . هل حبس المعارضين وتعذيبهم، واعتقال عادل حسين، وما يفعله حسن الألفى بمعارضيه يمثل له هو الآخر أحب أعماله إليه وأرجى عباداته للآخرة، وهل يثق أنه ليس هناك ممن فقدوا حياتهم من هو مسئول عنه، ممن ادعى هو أنهم متطرفون فقتلهم رجاله قبل أن يثبت القضاء أنهم متطرفون، أو من رجاله الذين قتلهم المتطرفون، أو حتى ذلك الطفل الذى قتله رصاص رجاله فى كفر الدوار، فراح أبوه ينوح متسائلا أليس ذلك الطفل شهيدا مثل شيماء الشهيدة ، لماذا إذن لا يهتم به أحد ؟.

ألا يشك قط أنه سيأتى يوم القيامة على رأسه دم ضحية ماتت ظلما ليهتف به من فى السماء : كأنك قتلت الناس جميعا.

يا أيها المثقفون المجتمعون بالسيد الرئيس : كل واحد منكم يعلم علم اليقين مايحدث من تجاوزات بل من جرائم، وفى أحاديثكم الخاصة تقولون الكثير، قولوا للسيد الرئيس ما تعلمونه عن تجاوزات الأمن.

من السهل تماما على وزارة الداخلية تبريرا للعجز أن تتهم الإخوان المسلمين بأنهم وراء الإرهاب .

ومن السهل على وزارة الداخلية تبريرا للعجز أن تتهم عادل حسين بأنه وراء الإرهاب.

ومن السهل عليها أن تكتسب لها أعداء كل يوم، و أن يسقط لها ضحايا كل يوم، أم تراكم تظنون نظامنا يتسع لوزير يعترف أنه فشل فيستقيل، إن لم يكن بدواعى الدين والضمير فمن أجل الوطن، حتى من أجل أبنائه من رجال السلطة الذين يتساقطون كل يوم، حسنا، الإخوان المسلمون مسئولون، إرهابيون وخارجون على الدين، لكن هل حقن ذلك الدماء وهل حل المشكلة، بذات العجز والفشل اتهموا كل معارض، ويحدثنا التاريخ أنهم كانوا على الدوام -تقريبا - على استعداد لإشعال الوطن حفاظا على مقعد

سلطتهم، كانوا يضحون برجالهم، دون مبرر، وعندما يتضح عجزهم كانوايتعلقون بأذناب المعاذير، و يورطون الوطن فى انقسامات هو منها برىء، يدّعون أقاويل يمشى الزور فى مناكبها ويتردد البهتان فى مذاهبها، لكى يثبتوا للحاكم أن عجزهم ليس بسبب قصورهم، و إنما بسبب ضخامة المؤامرات والأعداء، وكانوا دائما واثقين فى صواب آرائهم ثقة مسلم بن عقبة، وكانوا على استعداد للتضحية برجالهم جميعا، فالجيش موجود لينزل إلى الشوارع فى النهاية إذا سقط رجال الشرطة جميعا، أوعجزوا . وثمة تساؤل جوهرى آخر، هل هو محظور أن تسعى أى جهة أو هيئة أو فرد للوصول إلى الحكم عن طريق انتخابات غير مزورة؟!.فإن كان هذا اتهاما فما هو الإرهاب إذن ؟؟! .

يا أيها المثقفون : قولوا للسيد الرئيس أن الأمة كلها ضد الإرهاب، لكن مرجعنا فى الحكم على الإرهابيين ليس السيد وزير الداخلية ولا بيانات موظفيه ولا أضابير مباحثه، لقد شهد القضاء بالتعذيب فى السجون وأنكر الوزير فمن منكم يتهم القضاء بالكذب، لو اعتدل ميزان الداخلية لتقلص الإرهاب إلى الحد الذى كان عليه فى بداية رئاسة مبارك الأولى، حينما، بحركة بارعة رائعة، أمر بالإفراج عن المعتقلين من رموز الوطن واستقبلهم بنفسه فى القصر الجمهورى، فى حركة اعتذار لا حد لرقتها وعذوبتها، اعتذار عن ممارسات سلفه، وقولوا له أيضا أن الزمان قد دار دورته لتهب رياح سبتمبر فى الشتاء ولتخيم علينا ظلاله الدامية، ولقد طالبنَا أيامها بألا ننبش الماضى، فعاد الماضى، وامّحت البراعة والروعة والرقة والعذوبة مع حبس عادل حسين، يا إلهى، كيف سمح الرئيس لهذا أن يحدث بهذه الطريقة فى عهده .

إن صديقى يهمس لى ساخرا أن أحمد الله لأن بعض أفراد النظام الذى صفى خلافاته مع اللواء محمد إمام - وهو منهم - بكل هذه الشراسة والدموية لم يطلب حتى الآن فدية لإطلاق سراح المعتقلين. قولوا لسيادة الرئيس أن الأمة التى انبهرت باعتذاره فى الماضى لن تكتفى الآن بمجرد الاعتذار، لأنها تطمع من البطل الذى طالما أعجبت به فى أكتوبر ألا يخذلها ، و أن يضع المنهج الذى لا يتكرر

فيه ما حدث وما يحدث . قولوا له أننا قوم لا نذكر محاسن موتانا فقط بل ومحاسن الأحياء أيضا، لذلك لا نكف عن ذكر أكتوبر له، ومناشدته بها، فإن حق الأمة على الرئيس أن يوقف هذا البطش .

فليقف منكم يا معشر المثقفين من له مع جهاز الأمن الباطش تجارب وليحك للرئيس ما حدث له .

فليقف محمد السيد سعيد وليقل ما أصابه، فليس ما أصابه مأساة شخصية تعرض لها، وليس من ساموه العذاب الهمجى الوحشى المجنون عصابة من قطاع الطرق، ولا حدث فى كهف فى الصحراء، بل رجال الشرطة، وفى سجن من سجون الدولة، المفروض أنه فى حماية النيابة و الدولة، و . . . . . الرئيس مبارك. تكلم يامحمد السيد سعيد فليست مأساة شخصية لك بل مأساة وطن ونظام. ليس شيئا حدث وانقضى بل يحدث كل يوم، وثمة عشرات ومئات و آلاف من الضحايا.

سحق الروح.

هدر المنطق.

انهيار العلاقات بين الأشياء.

مسخ الإنسان إلى حيوان بدائى يأكل ويشرب ويتناسل ويصفق ويبايع.

سلوا الرئيس إن كان جهاز أمنه يريد بشعبه ذلك فهل يوافق هو؟!. لقد اقتصرت على حكاية واحدة ولو شئت لما انتهيت، حكايات الصحف والمجلات والكتب وتقارير منظمات حقوق الإنسان، بل و أحكام المحاكم، لا أريد إثارة، وأتجنب استفزاز سياده الرئيس حين يسمع ما يكره، لذلك أختصر وأوجز، لكننى أتساءل بمنتهى الدهشة والألم، لماذا يرضى الرئيس أن يتصف عهده بهذه الممارسات، بداية من الطريقة الهمجية لإذلال الناس فى أقسام البوليس إلى الطريقة الحيوانية لتعذيبهم وقتلهم فى السجون ومقار المباحث، لماذا ؟! ألن يستطيعوا محاربة الإرهاب دون إرهاب الأمة، ألن يستطيعوا ضمان الأمان لنظام الحكم دون ترويع الآمنين،

دون الكذب والتزوير والقتل.

يا أيها المثقفون : إياكم وتلك الطريقة البشعة المقززة التى اتبعتموها أحيانا للدفاع عن جمال عبد الناصر والسادات حين رحتم تدّعون أن الحاشية هى التى تفعل وهو لا يعلم، إياكم، لأن رئيس الجمهورية الذى يعجز عن معرفة مايعرفه رجل الشارع العادى لا يستحق أن يكون رئيسا، لذلك إياكم من الإساءة و أنتم تقصدون الإحسان، إياكم وخيانة الأمة مجاملة للحاكم، ليقل كل منكم للرئيس بطريقته مايعلمه من تعذيب وتزوير وليتوسل إليه أن الأمة فاض بها و أن استمرار ذلك إهانة لكل فرد فى هذه الأمة وأنه عار لن تمسحه الدنيا ولن تغفره الآخرة، إننى قد أفهم - لا أقبل -سكوت الرئيس على تجاوزات تتعلق بأمنه، لكننى فى نفس الوقت آمل أن يدرك الرئيس أن شذاذ الآفاق فى هذا الوطن حين يشرعون فى نهبه وتدميره لن يعترفوا بحقيقة دوافعهم أو نواياهم، سيدعون دائما أنهم يدافعون عن الوطن وعن الرئيس كيما يسخرون أجهزة الدولة مطايا لأطماعهم، إننا قد نتفهم -لا نوافق- على أننا لانعيش عالما مثاليا، بل وقد نصدق أننا فى غابة، ونستطيع أن نفهم أننا لن نقيم على الأرض جنة، وأن الشر سيظل موجودا مابقيت الحياة، و أن الحصيف : ليس من يميز الخير من الشر بل من يميز أهون الشرين، لكن الذى لا نفهمه، هو كيف تُترك الأمور حتى يصرخ خمسة من أعضاء مجلس نقابة الصحفيين فى بيان تنشر مقتطفات منه صحيفة الأهالى، أن مؤسسة الفساد أصبحت أقوى من مؤسسة الرئاسة، لم يقلها الإرهابيون لم تنشرها صحف المعارضة، سلوا الرئيس لماذا يترك الأمة نهبا لكل هذا التمزق والألم، لماذا ؟ لمصلحة من؟.لماذا يسود العناد فى تعاملنا، إننا إذا فهمنا الدوافع خلف بعض اتجاهات الفساد فنحن عاجزون عن فهم الدوافع خلف معظمها، طبيعى فى كل نظام حكم فى العالم أن يوجد فى مؤسسة الحكم بعض ضعاف النفوس، و أن يوجد من أبناء كبار المسئولين من يستغلون سلطة ذويهم، ذلك طبيعى وجوده، كالمرض، كالجرب والإيدز والسرطان، لكن يجب علاجه، علاجه وليس ترك الأمر على غاربه لكى يعم الوباء والبلاء.

سلوا الرئيس عن موازين القوى بين مصر وإسرائيل، بين العرب و إسرائيل، وماذا حدث لمصر فى عهده . . . نائبا . ورئيسا.

يا أيها السادة المثقفون : دعوا مرورى بهذه النقطة مرور كرام، لأننى أخشى أن أجاوز حدا لا أراه لأجد نفسى أمام محكمة عسكرية ببلاغ من وزارة الدفاع .

لكن قولوا للرئيس أن تلك الأسئلة إن ذبلت على شفاهنا بقيت فى قلوبنا.

قولوا له أيضا أن استقصاءات عديدة لعدد من ينتخبون أو يدلون بأصواتهم فى الاستفتاء قد دلت على أن نسبة من يحضرون للإدلاء بأصواتهم تتراوح بين خمسة وعشرة من كل مائة، و أننا لأسباب لامجال لذكرها قد نتغاضى عما يحدث فى الاستفتاء على الرئاسة، لكننا لانفهم أبدا لماذا الإصرار على تزوير باقى الانتخابات، فإذا تعذر التزوير تم إلغاء العملية الانتخابية كلها، لماذا حدث ماحدث فى النقابات، وهو مخز، طفولى، لا يمكن أن تقوم به هيئة تحترم نفسها، أو ترجو من الآخرين احترامها، لماذا يحدث ما يحدث فى الشركات، فى القطاع العام، فى الصحافة، فى المحليات، فى مجلسى الشعب والشورى ، فى استزراع الصحراء، فى المطارات، فى الموانى، فى الوزارات، فى مناهج التعليم، فى اختلاق التهم فى الداخل والخارج لتمزيق شمل الأمة فى الداخل والخارج بنفس المنطق، لماذا يحدث مايحدث فى الجامعات، ولماذا كان عليهم أن يجعلوا العمادة بالتعيين لا بالانتخاب.

والقرى، والعمد، ومزارع القصب الذى يُقتلع.

يا أيها المثقفون لا أستطيع أن أحصى أو أن أحيط فأحصوا أنتم وأحيطوا وتجرؤوا وقولوا .

قولوا للرئيس أننى أخشى أن تكون مسئوليته أمام الله يوم القيامة لا باعتباره مسئولا عما يعلم وعما لا يعلم من أمر أمته لاستخلافه عليها فقط، ولا باعتياره المسئول الأول، لكن باعتباره الفاعل الأوحد، نخشى ألا يكون هناك فاعلون آخرون، أن تكون الهيئات الأخرى مجرد شكل . . . .

أجلس أحيانا، والهم يكاد يقتلنى، أحلُم أحلام يقظة، و أتخيل، كى لا أنفجر .

أتخيل أحيانا أن قوة جبارة عاتية تهيمن على الأرض، و أن هذه القوة عدوة لنا، و أنها هى التى تختار لنا، وتسير أمورنا، فتختار لنا الأسوأ فى كل شىء. هل كان يمكن لمثل هذه القوة أن تختار لنا وزراء أسوأ.

أين مجلسى الشعب والشورى، أين الناس . . . وثمة تاريخ يسجل وملائكة رحمة وعذاب ترصد، وموت وبعث ونشور وحساب ونار وجنة . . . و . . . . إلـــــــــهـ.

سلوا الرئيس، واذرفوا دموعكم أمامه عسى قلبه يعطف علينا . قولوا للسيد الرئيس شيئا عن سعيد بن المسيب، فقيه الفقهاء، إمام التابعين و سيدهم، أعلم أهل زمانه على الإطلاق، راوية الحديث، صهر أبى هريرة، من صلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة، وما نودى للصلاة أربعين عاما إلا وهو فى المسجد، من استغنى بالله فافتقر الناس إليه، من كان يهتف فى أصحابه : لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم لكى لا تحبط أعمالكم الصالحة، حدثوا الرئيس عن موقفه حين غزو المدينة فى موقعة الحرة حين راح اللواء مسلم بن عقبة وزير حرب يزيد -ولعله كان وزير داخليته أيضا- يأخذ البيعة من الناس لمولاه، فمن بايع على كتاب الله و سنة رسوله ضرب عنقه، ومن بايع على سنة الشيخين ضرب عنقه، ومن بايع ليزيد مطلقا مخولا له الحكم فى ماله ودمه نجا، وجاء دور سعيد بن المسيب فبايع على كتاب الله وسنة رسوله فأمر سعيد بن عقبة بقتله، وهنا احتال الحاضرون من أهل المدينة الذين يعرفون قيمة بن المسيب لينقذوه من الموت فشهدوا أنه مجنون، فأطلق بن عقبة سراحه .

لقد حاول مسلم ممالأة مولاه كى ينال عندة الحظوة فى الدنيا .

ولقد أراد يزيد توطيد سلطانه وملكه ودوام أيامه من غير منازع .

ولقد عاقبهما الله بنقيض قصدهما وحال بينهما وبين مرامهما،

فمات أولهما بعد أيام ومات الآخر بعد أسابيع، ذلك أن الله هو قاصم الجبابرة، الآخذ أخذ عزيز مقتدر.

كان أمامهما الطيب فاختارا الخبث، وكان إزاءهما الطاهر فاختارا الدنس . . .

خسرا الدنيا والآخرة . . . . . فلا إله إلا الله . . . .

يا أيها المثقفون : لقد خسر معظمكم معظم ثقة أمته لأنه انصرف عن طلب حظوتها إلى طلب حظوة الحكام، لم يدركوا أنهم لا يصيبون من الحكام شيئا إلا و أصابوا منهم أفضل منه.

فلكيلا تفقدوا البقية الباقية مما لكم عند الناس توسلوا إلى الرئيس إن كان لكم لديه احترام أو حظوة أن يوقف قهرنا . أن يأمر بإيقاف التعذيب الحيوانى المجرم ، وبأن يوقف التزوير وبأن يأمر بالإفراج عن المعتقلين دونما سند، و أن يأمر بالإفراج عن عادل حسين. فتراه لن يسمع لكم ؟، أم تراكم لاتريدون، أم لا تجرؤون على الحديث أمام الرئيس إلا بما يؤذن لكم أن تقولوا ؟.

عار عليكم أن تبيتوا فى بيوتكم و عادل حسين فى جب تحت الأرض على الأسفلت . تلميذ سعيد بن المسيب العظيم، ووارثه، من رضعت التجارب فى يده مرآة العواقب. وإنه والله مستعد أن يبايع الرئيس على كتاب الله وسنة رسوله، لا على سنة النظام العالمى الجديد .

ألهذا يقتلونه ؟؟.

يا أيها المثقفون : إشهدوا أمام السيد الرئيس بأن عادل حسين مجنون.

مقالة اعتراضية:

جمال عبد الناصر

كافر وملحد وجبار وطاغية وعنين، لص أيضا، دمر وطنه وعادى أمته، عميل أمريكي، ثم عميل روسى، وفى كل الأحوال عميل إسرائيلى بدأت علاقاته بالإسرائيليين أثناء حصار الفالوجة، أمه يهودية، و ربما زوجته كذلك، تربى فى حارة اليهود، بعد موته ظهرت آيات الله فيه فطفحت المجارى حتى عام فيها جسده فى قبره، صرحت بمجيئه الأحاديث النبوية الشريفة التى تنبأت بما يصيب الأمة من ابتلاء وفتن!!.

كل هذا يُقال عن جمال عبد الناصر وما يزال، رغم أن الرجل قد وورى الثرى منذ أكثر من ربع قرن، كل هذا يُقال عن الرجل الذى شهدت جنازته أكبر تجمع بشرى جنائزى فى التاريخ، يُقال هذا عن الرجل الذى خرجت أمته من المحيط إلى الخليج تطالبه بالبقاء فى منصبه إثر الهزيمة.

كنت قد أدركت منذ زمان طويل أن المدافعين عنه والمهاجمين له كليهما على خطأ. وأن الكوارث التى تلاحقنا والمصائب التى تحيق بنا تجعل الانشغال فى تلك القضية دليل سوء فكر أو سوء نية.

ولقد ترددت فى كتابة هذا الفصل و إضافته لهذا الكتاب، إلا أن دور عبد الناصر فى إنشاء الدولة العسكرية التى تحولت – حتى فى عصره إلى دولة بوليسية هو فى الحقيقة دور رائد!. لكن ذلك لا يعنى أبدا تحميله مسئولية ما حدث ويحدث لنا فى عهد السادات ومبارك، كما أن كل هجوم على عهده بسبب القهر لا بد أن يواكبه – إن كنا ننشد الحقيقة هجوم أشد على العهدين الأخيرين، فمن المحزن أن كثيرين ممن يهاجمونه ينتمون إلى العديد من الاتجاهات الليبرالية واليسارية على اختلاف مشاربها، فكون ذلك أغرب ساحة جمعت بينهم وبين الإسرائيليين و الغربيين عامة والأمريكيين بصفة خاصة. ومن كل هذه الفئات لم أتعاطف إلا مع

الإسلاميين، فلقد ظلمهم، ولقد كان اختلافهم معه اختلاف منهج، وأستطيع أن أقرر برغم الشخصية الطاغية لعبد الناصر، وبرغم الأخطاء الفادحة للإسلاميين، أن الإسلميين كانوا أقرب للمنهج الصحيح.

ولو أن الآخرين حين اتهموه بالكفر كانوا أكثر إيمانا لغفرنا لهم ودعونا الله أن يغفر لهم، ولكن بعض من اتهمه بذلك كان لايفيق من الخمر إلا للنساء أو القمار.

ولو أنهم حين عيروه – وعيروا الأمة معه – بالهزيمة العسكرية انتصروا هم لمشينا خلفهم.

ولو أنهم حين وصموه بوصمة الاتصال بإسرائيل خفية قد تعففوا عن الاتصال بها جهرا لكان لنا معهم شأن آخر.

حتى ما كانوا على حق فيه بمهاجمة موقفه من الديموقراطية وحقوق الإنسان ، كان حقهم فيه حقا يراد به باطل.

إن هذا الكتاب يقوم كله على أن وراء كل الكوارث التى حاقت وتحيق بالإسلام والمسلمين هاتين الجريمتين: الاستبداد والتعذيب، ومنهما تتفرع كل الجرائم والكوارث والتخلف، لذلك فإننا نربأ بأنفسنا، ونربأ بالفكر المجرد والقيم المجردة أن نكتب حرفا واحدا فى تبرير تلك الجرائم حين تُرتكب حتى لو كان من ارتكبها جمال عبد الناصر، لكننا فقط نثبت أن التعذيب فى العصور التالية قد أصبح أكثر وحشية وشمولا وبشاعة، و أن انتهاك حقوق الإنسان صار أكثر، يُضاف إلى ذلك، أن العصر الناصرى حين ارتكب تلك الموبقات، كان يرتكبها تحت وهم أو ادعاء حماية الوطن والتصدى لأمريكا وإسرائيل، أما هم، هم جميعا، كل الفخامات وكل الجلالات، وكل من فى حاشيتهم، حين يرتكبون ذات الجرائم ، لا يستخفون، بل يعلنون جهرة أنها لمصلحة العلاقات مع أمريكا وإسرائيل، بل لقد وصل الأمر إلى ما نشر عن تحالف بعض أنظمة الحكم العربية مع إسرائيل لمقاومة الأصوليين المسلمين، بينما إسرائيل نفسها تقوم على الأصولية اليهودية!.

الطريقة التى عامل بها جمال عبد الناصر جموع الأمة خاطئة بلا

شك. ولكن الطريقة التى عاملته بها نخبة الأمة كانت فريدة فى كم الخطأ ونوعه. كان نصف حكام العرب ضده وحاربوه، والنصف الآخر خذله، وفى مصر كان تعامل الوفديين معه تعاملا ضيق الأفق فراحوا يسفهون كل إنجازاته، جاهلين أن تسفيهه كله و إدانته كله دون الاقتصار على نوع العمل يشرخ جدار الوطنية التى نشأ حزبهم من أجلها، كذلك كان تعامل الإخوان المسلمين معه، إذ يرى الدكتور أحمد طعيمة وزير الأوقاف السابق أن تصرفاتهم معه هى التى حولته من شخص يترسم خطى عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى طاغية، والدكتور أحمد طعيمة تجاوز الثمانين من عمره، وكنت أسأله وقد استبدت بى الهواجس والهموم عن حقيقة ماحدث، هل الإخوان المسلمون ملائكة أبرياء وجمال عبد الناصر شيطان رجيم ، وهل حادث المنشية تمثيلية، وكان صوت الرجل يتهدج ودموعه تسيل، وهو يقسم بالأيمان المغلظة أن هذا افتراء، وأن حادث المنشية غير مفتعل وقد جرت بعض أحداثه على يديه، عندما أخبره صديق له من الإخوان بتفاصيل المؤامرة راجيا أن يبلغ عبد الناصر كى يأخذ الحذر، وذهب أحمد طعيمة إلى جمال عبد الناصر وسلمه عشرة أسماء ستجرى عليهم "القرعة" لاغتياله، وبعد أيام ذهب إليه مرة أخرى مغاضبا ومعاتبا أن العشرة مازالوا طلقاء، فإذا بعبد الناصر يقول له: وهل تريدنى أن أعتقلهم دون بيّنة؟! وبعد أيام كان أحدهم يحاول اغتيال عبد الناصر.

إننى أعلم أن رواية أحمد طعيمة هى نفسها تثير شكوكا، لكننى أريد أن أنبه وأستحث الباحثين كى ينهلوا من كنوز معلوماته علّها تضىء جوانب مظلمة من تاريخنا الحديث.

كان أحمد طعيمة شريكا أساسيا فى المفاوضات التى جرت مع الإخوان فى بداية الثورة، ومن خلال اشتراكه ذلك فهو يدينهم إدانة كاملة، وبرغم أننى لا أوافقه على رأيه إلا أننى أرى أن مصر قد خسرت ومازال تخسر أعظم فرصة سنحت لها خلال عصور وحقب، عندما كان يجب على القوميين والناصريين والإسلاميين والوفد أن يتحدوا، أو أن يتفقوا على الأقل على حد أدنى للاتفاق.

مازلت أشعر بالغثيان كلما تذكرت تسفيه صحف الثورة لرموز

مصر، ولقد لعبت الأخبار و أخبار اليوم دورا غير منكور فى ذلك، حين تناولوا شخصية جليلة كشخصية مصطفى النحاس وعالما فذا كالشيخ محمد الغزالى وثوريا عظيما كسيد قطب بالسخرية والابتذال،بينما حولوا عبد الناصر إلى فرعون بتأليهه. ورد الوفديون الكيل، وكان الإخوان يجرحون الإثنين من ناحية ثالثة، وفى اختلافهم ضاع الوطن.

واستبيح التكفير، الكل يكفر الكل ولا ورع، وما يزالون.

* * *

فى إحدى مقالاتى عن التعذيب والفساد والطغيان ، أوردت مقطوعة شعرية لمظفر النواب يقول فيها:

دقوا كفى بمسمارين من الصدأ البارد . .

فارتج صليبى . .

وانهاروا من ألمى . .

سألوا قدمى الغفران . .

وساح الماكياج على أوجههم والشرف . .

أينك يا مولاى . . .

سكوتك أوجع من صلبى . .

وبعد أسابيع، فوجئت بمن يأتى إلى ليبلغنى رسالة على لسان أحد كبار الدعاة، وكانت الرسالة طعنة كطعنة بروتس لقيصر، طعنة من حيث لم أتوقع، حين اتهمنى الشيخ أننى وقد رددت ما قاله مظفر النواب عن الصليب فمن المحتمل أننى أنحو نحوه، وأننى ... قد كفرت، و أن التوبة واجبة علىّ!! .....

هكذا .... دفعة واحدة ..... كفرت !!!

تسربت إلى الذكرة فى انسياب حزين دموع الشيخ محمد الغزالى، حين أصدر كتابا من أهم كتبه و أعظمها هو : "السنة النبوية بين الفقه والشريعة"، فانهالوا عليه لوما وتقريعا، واتهمه

البعض بالقذف فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتهمه آخرون بالكفر!!.

استدعت المرارة أقرانها، فتذكرت ماحدث ذات يوم لُكْتُ فيه مرارة كهذه المرارة، كان ذلك منذ أعوام طويلة، وكان السادات - فى بداية السبعينيات- قد بدأ خيانته التاريخية الكبرى لتاريخنا ووجودنا وحضارتنا، وكنت أهاجم فيه ميله تجاه أمريكا مؤكدا أن الخطوة التالية هى الميل لإسرائيل، ومقررا أن موقف عبد الناصر ضد أمريكا و إسرائيل- بغض النظر عن دوافعه - كان موقفا يمثل ويبلور الموقف الصحيح لحضارتنا الإسلامية، وجمعنا حوار، رحت أدلى بحججى، وكان محاوريّ من الإخوان المسلمين، وفجأة وجدت أحدهما يهمس للآخر:

- يبدو أنه شيوعى ناصرى.

فانقطع الحوار فجأة كما يتوقف الصوت فى جهاز انقطعت عنه الكهرباء، أو كما ينقطع الحديث بين جماعة سرية تحيك مؤامرة عند دخول غريب.. وامتلأت بالحزن، إن الإخوان المسلمين كانوا يستطيعون استقطاب الأمة كلها فى كل العالم الإسلامى ، فقط لو كانوا أكثر تجردا ومعرفة ، بالدين لا بالسياسة!!.

تماما كما كان عبد الناصر يستطيع استقطاب الأمة كلها لو أنه جعل المنظور الإسلامي منظوره الكبير، ولو أنه كان أكثر حنكة بالسياسة لا بالدين!!.

وقلت لنفسى لم أكن أبدا شيوعيا ولا ناصريا ولا وفديا ولا من الجماعات ولا من الإخوان ولا إرهابيا و إن كنت قد اتهمت بكل ذلك فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

تداعى ذلك كله إلى مخيلتى وذاكرتى، فجّره مجىء صديق قصدنى يسألنى الرأى فى الانضمام إلى المؤسسين فى حزب جديد منشق على الحزب الناصرى، فقلت له أن معظم الناصريين - على عكس معظم الشيوعيين - مواطنون شرفاء، لكن الفكرة نفسها مرفوضة، إن الانتساب إلى شخص مهما كان كماله نوع من التخلف والقصور وعدم النضج، وميراث من نظام الحكم الأبوى

والقبلى، فإذا قلت أن عبد الناصر بطل قومى عظيم، فدعنى – من أجل الحوار فقط – أوافقك، هو زعيم وطنى عظيم لكن لا تنس أبدا أن تجربته قد انتهت بهزيمة ٦٧، و أنه استخلف علينا عدوا لنا وعدوا له، فإذا كان الإنجاز القومى أو الاجتماعى هما الدافع فربما يكون مصطفى النحاس وسعد زغلول منافسين له، و إن كانت هزيمة ٦٧ لا تهم فربما كان أحمد عرابى أو على الأقل محمد على منافسين قويين له، فإن رفضتم كل أولئك أظنكم لا ترفضون – ما دام الحزب سينتمى إلى شخص – أن يكون هذا الانتماء إلى صلاح الدين الأيوبى، رمز نصرنا على الغرب وكسر طوفان الحروب الصليبية، وحتى إن وافقت على صلاح الدين الأيوبى فلن أتركك، إذ أننى أحسبك توافقنى على أن عمر بن عبد العزيز كان أعظم، فإن وافقت سأبادرك : إذن فالأولى بها أحد الخلفاء الراشدين، فإن وافقت سألزمك الحجة فأقول لك : ولماذا لا تسمون حزبكم الجديد باسم الرسول صلى الله عليه وسلم؟!.

وواصلت الحديث للصديق قائلا:

تعلم أنهم فى الغرب حينما يريدون امتهاننا يسموننا المحمديين لا المسلمين، و أنا أعترف أن الانتساب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم شرف لا يعدله شرف ، إلا شرف واحد منحنا الله إياه، و هو أن انتسابنا فى هذه الأرض ينبغى ألا يكون لبشر قط، أنه لله الواحد القهار!. أكاد أقول لك لولا بقايا قيود تكبلنى أن كل انتماء لغير الله خطيئة تجرح العقيدة، حتى الانتماء للسنة أو للشيعة أو.. أو .. ولكن هذا موضوع آخر، قلت لذلك الصديق أن أقصى مايمكن أن تمنحه الأمة لجمال عبد الناصر وثيقة غفران لا صك مبايعة، وأن فكرة حزب يحمل اسمه مرفوضة حتى ولو لم يكن قد ارتكب أية خطيئة من خطاياه الكثيرة الفادحة، فما بالك وقد ارتكبها . . . !! وأن المكان الحقيقى للناصريين هو الانضمام إلى الحركة الإسلامية.

ذهل الصديق ، فرحت أحكى له عن رحلتى الأخيرة إلى فرنسا، وكان معى صديق من ذلك النوع اللطيف الذى يرتاح عقلك معه من الفكر، فكل الأشياء عنده مسلمات كما ورثناها أو بديهيات كما

وجدناها، وكان ينظر إلى بدهشة لأننى بدلا من السير معه فى شارع الشانزليزيه ، تركته وحده لأقضى يوما فى متحف اللوفر وأياما فى زيارة الكنائس والمتاحف، وذات يوم اصطحبته إلى كنيسة النوتردام، كانت فخامة المعمار مذهلة، وكانت التحف والتماثيل والشمع المنطفىء والمشتعل وطريقة الإضاءة والسقف العالى ذو التهاويل ورنين صوت السيمفونيات ورجع صداه بين الجدران الهائلة الأبعاد وثلة المصلين فى الوسط و إنشادهم مع الرهبان ومرور الراهبات بهالتهن الملائكية بين الصفوف ، كان كل ذلك مبعث تأثير عميق، حيث يسمح للسياح بالدخول أثناء الصلاة، ومال على الصديق قائلا: هل تشعر بالرهبة والقشعريرة مثلى، فقلت له لا ضير فى ذلك، فهذا مكان يُذكر فيه اسم الله، ويُعبد، مهما كانت الملابسات ومهما كان الخطأ، فبادرنى الصديق قائلا : لكننى لم يسبق لى قط أن شعرت بمثل هذا الشعور فى مئات المساجد التى دخلتها!!.

كانت جولتنا قد انتهت، وفى الميدان الكبير أمام الكنيسة، ونحن نتأمل مرة أخرى فخامة المعمار وجلاله ورهبته وجماله، قلت له: هل تدرك بماذا شعرت أيضا بالإضافة إلى الخشوع والرهبة والقشعريرة ، لقد شعرت بالتفوق والزهو إلى حد لا حد بعده، فاستوضحنى الصديق فقلت: الفارق بين طفولة البشرية ونضجها، الفارق بين التشبيه والتنزيه والتجريد والتجسيد، عندما تريد أم لطفلها أن يشرب اللبن مثلا قد تضطر إلى عديد من الحيل معه كى يشربه، قد تغنى وقد تعده بهدية وقد تخوفه من المرض، وعندما يكبر هذا الطفل فإنه سيشرب اللبن بسبب اقتناعه لا بسبب المؤثرات حوله، قلت للصديق أيضا أنك عندما تصف البحر لمن لم يره قط فأنت مضطر لأن تشبهه له ببحيرة رغم أنه لا يكاد أن يكون ثمة تشابه، وعندما تريد أن تصف نشوة التصوف أو متع الروح أو حتى الجسد لمن لم يخامر مثل هذه المشاعر فأنت مضطر لوصفها له بالحلاوة، هى حلوة كالسكر مثلا أو كالعسل، رغم أنه ليس ثمة علاقة قط بين العسل وبينها، لكنك تلجأ إلى التشبيه لأن عقله القاصر لا يتسع للتنزيه، للتعالى المتجرد الذى لا يسمح بتشبيه المطلق بالنسبى، قلت للصديق أيضا أن المسيح عيسى

صلى الله عليه وسلم عندما كان يصلى لم يكن يفعل ذلك وسط فخامة المعمار وهدير السيمفونيات وأضواء الشموع ورجع الصدى وملابس الراهبات ومع ذلك فمن المؤكد أن صلاته كانت أكثر خشوعا ورهبة وتقى مما رأيت، و أنهم منذ المسيح، كلما اجترحوا من أصل الدين أصلا أو انتقصوا منه قدرا أو دسوا عليه بدعة حاولوا أن يعوضوه بمؤثر خارجى، لكن ذلك ما ينطبق عليه قول أمل دنقل :

تُرى ... لو أخذت عينيك ...

ووضعت جوهرتين مكانهما ...

تُرى .....

هل تَرى...؟!

هى أشياء لا تشترى!!

بعد ذلك أفضيت للصديق بمقصدى ومبتغاى: تلك إذن هى معجزة الإسلام : التنزيه لا التشبيه، التجريد لا التجسيد، ليس كمثله شيء، وكل ما جال بفكرك أو طاف بقلبك أو خطر لعقلك أو تخايل لنفسك فالله غير ذلك!!. معجزة الإسلام وعظمته أنه لم يلجأ إلى مؤثرات خارجية، لا معجزات ولا تصاوير ولا تهاويل ولا موسيقى و إنما فقط الكلمة التى يخشع لها عقلك قبل قلبك. الأرض كلها مسجدك، صل فى هذه الكنيسة الآن فإن صلاتك إن شاء الله تقبل، والكون كله ميدان تأملك، فإن تأملت فيه فإن تأملك صلاة، لا عبودية لبشر أو لفكرة سوى الله. قلت له أننى عندما كنا فى الداخل أحسست بالشكر والعرفان لأننا ممن وصفهم الله بقوله كنتم خير أمة أُخرجت للناس، نحن الأرقى والأعظم والأعقل ولولا خيانات حكامنا لَسُدْنا الدنيا، نحن الذين نضجنا فسمت عقولنا من التشبيه إلى التزيه وارتقت مداركنا فتحولنا من التجسيد إلى التجريد، نحن الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، ولا أحد غيرنا فوق سطح هذه أرض يستحق أن تعلو مبادئه وتحكم قيمه، ونحن الذين أُمِرنا : لا تهنوا ولا تحزنوا و أنتم الأعلون.

ثم هتفت بالصديق : أنت ياخليفة الملك كيف ترضى أن تكون خليفة خادم أو عبد، ويا خليفة الله على الأرض كيف ترضى أن تكون خليفة جمال عبد الناصر؟!.

وعندما وصلت إلى هذا الحد وجدت صديقى الناصرى يتمتم :

– الآن فهمت..

ثم يردف قائلا :

– علىّ أن أذهب الآن فورا لأسحب أوراقى من أوراق المؤسسين.

بعد انصرافه هاجمتنى الذكريات وارتد بى الزمن والتاريخ لأستعيد بعض ما قيل من عبد الناصر وعنه، لأثبت أن التجربة الناصرية ليست هى الحل، و أن استعادتها مستحيل، وفضلا عن أنها غير ممكنة فهى أيضا غير مطلوبة، وفى ثنايا ذلك عشت تجسيد الحلم حتى منتهاه والإجرام أيضا حتى منتهاه، ورحت أقرأ عن عبد الناصر وله، وأقرأ عن محاكم مجرمة، وقضاة تبوؤا منصات القضاء وما هم بقضاة ، وعن نائب عام نسى الله والوطن فكان لا يقل عن القضاة انحرافا.

لنقرأ ذلك إذن ونحن ننظر إلى جمال عبد الناصر بمنتهى الدهشة والألم متسائلين : لم يحب الشعب والأمة زعيما كما أحبوك فلما أهدرت كل تلك العواطف الجياشة كل هذا الإهدار المأساوى الفاجع، لماذا لم تأمن لشعب أحبك فتعطيه ما يستحق ولقد كان الشعب قادرا على حمايتك وافتدائك، كيف كانت حساباتك واختياراتك لمن حولك خاطئة كل هذا الخطأ، هل ترى ما يحدث الآن، الذين غروك عن نفسك يتهمونك بكل نقيصة ولم يجرؤ أحد منهم أن يتهم قضاة ساعدوك على ظلم أو نائب عام لم يردك عن ظلم ولا أن يطلق عليه من السباب ما يطلقه عليك.

لو أن سيد قطب و عبد القادر عودة وشهدى عطية وعشرات وعشرات قد أُعدموا بعد محاكمة عادلة أمام قضاة طبيعيين فما كان ثمة تثريب عليك، ولو أن أولئك الآلاف الذين اعتُقلوا بحكم قضاء طبيعى لما قيل ما يقال الآن عنك.

لماذا احتفظت بتلك الحثالة المجرمة حولك، الحثالة التى تسللت إلى قلبك من ثغرة أنها تحمى أمنك وحياتك، وما كانت تحمى حياتك ولا أمنك و إنما كانت أصابع الشيطان فى نظام حكمك لا لتحميك بل لتحمى نفسها، ولكى تحمى نفسها كان عليها أن تورطك فى أبشع الجرائم والخطايا، أن تجعلك تدور حول نفسك خشية الإرهاب، أن تحول شعبك الوديع الطيب المسالم المسكين إلى وحوش غادرة تتلمظ لاقتناصك أو لاقتناص الحكم، خدعوك وغروك ولوثوك ولوثوا عهدك، لقد خرج الشعب كله كى يغفر لك هزيمتك، ولكن لا أحد ، لا أحد أبدا يقدر أن يغفر لك تعذيب إنسان واحد بله قتله، لا أحد، لا أحد أبدا بقادر على أن يغفر لك تلك المساخر التى سميتها محاكم بعيدا عن القضاة الطبيعيين، أو محاولة تلويث القضاة الطبيعيين وهو للأسى أمر نجحت فيه ، ولا أحد ، لا أحد أبدا يمكن أن يغفر لك، أنك حولت النيابة من درع الأمة الحصين إلى درع لك وهلاك لبعض شعبك، وكان يمكن أن تكون معهم فى نفس القلعة تحميكما النيابة معا، لكن جهاز أمن غبى مجرم لص قد اجتباك فى قلعة أخرى ووضعك فى مواجهة شعبك.

الآن : أين ذهب أمنك و أين ذهبت ؟؟!!

و ماذا يمكننى أن أكتب عنك . . .

أشيد بك و أمدحك و أرثيك يا قاهرى أم ألعنك ياحبيبى ؟!!

أستعيد أحمد عبد المعطى حجازى القديم ،أقرأه وأكتبه كى أثبت لشبابنا أنك لم تكن كما يحاول أعداؤك أن يصوروك، أم أقرأ غيره ، كى أثبت أخطاءك و أدينها بمنتهى القوة ، كى تكون عبرة لمن يأتى بعدك. لكن مادام طوفان الهجوم عليك - حتى ذلك الموجه من أحبابنا -لما يزل يصب فى مصلحة أعدائنا فلنكتف بقراءة الصوت الآخر، لنقرأ أحمد عبد المعطى حجازى، غير أننى أنبه القارىء أن أحمد عبد المعطى حجازى الذى كتب هذه القصيدة ليس هو أحمد عبد المعطى حجازى الذى يكتب فى الأهرام، ليس هو، برغم الإسم ليس هو، برغم بطاقة الهوية الواحدة وجواز السفر الواحد والرقم القومى الواحد ليس هو، برغم جائزة الدولة التقديرية ليس هو، و أنبه القارىء أيضا أن ما ينطبق على أحمد

عبد المعطى حجازى ينطبق على غيره و أن ما أصابه ليس مرضا نادرا أصابه دون غيره بل وباء أصاب خيرة أبناء الوطن فلم يعودوا بعدها خيرة أبنائه. لم يترك الوباء إلا أقل القليل، اقرؤوا إذن ولتندهشوا كيف يغير الرجال لا جلودهم فقط بل جلودهم وقلوبهم وعقولهم وضمائرهم، وليس ثمة قانون يعاقب على ذلك ، القانون يقتنص من يغير بطاقة الهوية أما من يغير الهوية نفسها فلا تثريب عليه، اقرؤوا إذن، فإذا صادفتكم مرارة الحنظل وابتذال السوقة والصعاليك فى بعض ماتنشره كبريات صحفنا التى تدين جمال عبد الناصر فى أعظم مافعل ، فى موقفه من أمريكا و إسرائيل وفى مناصرته للفقراء والضعفاء وفى مجانية التعليم والرعاية الصحية،تدينه فيه كى لا تتورط فى معارضة النظام العالمى الجديد، ثم تصمت عن أبشع ما فعل من إهدار للمفهوم المطلق للحرية والعدالة وامتهان الإنسان بمنطق أن من امتهن إنسانا واحدا فقد امتهن الناس جميعا، فإذا تجرؤوا وتناولوا ذلك تناولوه فقط لكى يدينوه كرمز لا كفعل، باختصار راحوا يدينون كل مزاياه ويرتكبون كل خطاياه.

فلتقرؤوا إذن، لكن تذكروا و أنتم تقرؤون، أن جمال عبد الناصر فشل، والإخوان المسلمون فشلوا، والوفد فشل ، وجميع الحكومات فشلت، و أيضا ... كل أحزاب المعارضة فشلت...

يقول أحمد عبد المعطى حجازى فى مرثيته "الرحلة ابتدأت" :

و رأيتُ جاري في قِطار الليل يبكي وحدَهُ، و يضيعُ في ليل المدينةْ..

يتمزق الصمت الحدادي الكئيب علي إنحدار قطارنا ،

في الليل و هو يمر منتحباً بأطراف المدينة ..

يجتاحنا هم ثقيل أنها اقتربت فماذا نبتغي بعد الوصول..

و الليل أثقل ما يكون ،

كأن طير الموت لم يبرح يدف بجناحيه الأسودين علي الكآبة والسكينة ..

تتراجع الأشجار هاربة ، و تشخص حولنا الأشياء ، ثم تميل ساقطة، و تمعن في الأفول ..

كنا نفتش عنك في أحيائها..

و الليل يوغل ، و المقاهي بعد يقظي ، و المصابيح الكليلة و العيون..

متطلعين كأنما من شرفة سنراك تظهر ..

أو من الراديو تصيح بملء صوتك ساخراً مما ادعاه المدعون ..

أو أن إنساناً سيخرج هاتفاً في الليل ... عاد إلي الحياة ! ..

لكن اضواء الصباح تسللت من خلف قاهرة المعز ، و لم تلح للساهرين ..

و مشت رياح الأرض ، أوراق الجرائد فيك بالنبأ الحزين ..

فإذن هو النبأ اليقين !..

وا ناصراه .. !..

مالت رؤوس الناس فوق صدورهم و تقبلوا فيك العزاء ،

و أجهشت كل المدينة بالبكاء !..

و رأيت في الطرقات قاهرة سوي الأخري ، تفجرت المصيبة عن مداها ..

خرجت إليك مع الصباح ، كأنها مادت ، و عادت مرة أخري تموج بما تخبيء في حشاها ..

يتواثب الأطفال فوق الأمهات الباكيات ، و تحمل الأجيال أجيالاً و تنفجر المدينة ..

بحر من الحزن المروع ..

آه كم جيل من الجدات تمتليء السماء بهن ، يمطرن المدينة بالمراثي، و هي تمشي في فتاها ..

بحكم المصادفة فقط جاء هذا الخطاب موجها لوزير الداخلية المُقال محمد عبد الحليم موسى، لكن القارىء يستطيع أن يقرأ المَقال فى الزمن الماضى والحاضر والمستقبل، فقط عليه أن يغير اسم الوزير.. فقط.. فقط .. !!

ذق . . فإنك أنت العزيز الكريم . .

الآن وقد لفظوك   ذُقْ

الآن وقد هجروك   تُقْ

الآن وقد تركوك   ضِقْ

الآن وقد خدعوك   عِ

وقد خانــوك   فِ

وقد أضاعوك   قِ

وقد طمسوا على عينيك   رَ *

قل لى من معك الآن ؟ الله أم الناس أم السلطان . .

أم الشيطان . .

أم الشيطان هو السلطان . .

بل أنت نفسك . . كم من ضلوعك والخطوب تفيض قد وقفت معك . .

---

*الحروف المفردة أفعال أمر .

الآن . .

وحـــيدا أنـــت . .

غريـــبا أنـــت . .

بعيدا عن الأضواء أنت . .

يتحدثون عنك ولا تتحدث . .

يتهمونك بما ليس فيك فلا تستطيع الرد . .

نفـس مافعلته فـي خصومك . . ياحجاج . . فسبحان الله ..

هو الذى ينزع الملك ممن يشاء ، ويذل من يشاء . .

لكنهم حين لفظوك لم يدَعُوا لك حتى سمّ خياط تنفذ بكرامتك منه لتدعى أنك أنت الذى عرفت فعزَفت، أنك تعبت، سئمت، أو أنك تفكر بالتوبة . .

ذلك ليس مسموحا به لك . . لكنك كنت قد نَسيت فكذلك اليوم تُنسى . .

كم زائرا زارك اليوم ؟ . .

كم مرة دوّى رنين هاتفك ؟ . .

كم زائرا سوف يزورك فى مثل هذا اليوم بعد عام وكم مرة سوف يدوى الرنين؟.

يالها من وحشة موحشة تلك التى يستوحشها من لم يجعل أكبر همه أن يأتنس بالله، وأن يرعى حقوق الله كأنه يراه ، فإنه إن لم يكن يراه فهو يراه، من غفل، من سمح لما يملأ عينيه بأن يدخل قلبه، أو لما مس يديه أن يملك لبه . . يالها من وحشة . .

قل لى فيم تفكر الآن ؟ . .

لمن تشكو همك ؟ . .

هل تقدر أن تفصح، أن تبين، أن تصرح بما فى دخيلة ذاتك . .

حتى لأقرب الناس إليك ، أن تفضفض حتى تخفف عن نفسك..

دعني أحاول أن أساعدك . .

فى الأيام الأولى أو الأسابيع الأولى سوف ترسم على شفتيك بسمة، بها ستحاول إقناع الجميع أنك راض، أنها كانت رغبتك، بل ربما تسرّ إلى بعض خلصائك بإصرارك على الاستقالة، على الموقف البطولى الذى وقفته وهم يتوسلون إليك أن تبقى و أنت ترفض، مع البعض الآخر، الذين تعرف أنهم لن يصدقوا ذلك، سوف توصيهم بأن يكتموا السر، ثم تهمس لهم كيف ساعدك ذكاؤك فى أن تقود الأمور حتى ترغمهم على إقالتك، ثم تخفض صوتك أكثر و أنت تقول أنك سايرتهم طالما كان سيرهم فى الطريق الصحيح، أما وقد بدءوا يجاوزون الصواب إلى الخطأ والصحيح إلى الباطل، فقد تصرفت بطريقة لم تدع أمامهم إلا إقالتك، وأنك بذكائك النادر وفهمك لطبيعتهم قد اتخذت القرار لكنك جعلتهم يظنون أنهم هم الذين اتخذوه، ثم ترفع صوتك قليلا قائلا فى تواضع مصطنع: ومع ذلك أبى الله إلا أن يجرى لى الكرامة فيهم فلم يكادوا يفرغوا من توقيع أوراق إقالتى -فصلك كما قالتها إذاعة لندن- حتى كان حادث محاولة اغتيال صفوت الشريف نكالا بهم بما فعلوه فى شيخ العرب.

سوف تغمض عينيك حتى لا ترى فى عين سامعك ملامح التكذيب .

وسوف تسد أذنيك حتى لا تسمع صوته .

لكن ربما ينطلق الصوت من داخلك أنت حيث لايجدى أن تغمض عينيك أو تسد أذنيك . .

ربما ينطلق الصوت هاتفا بك :

ياشيخ العرب. . ويل للعرب من خراب قد اقترب .

ياشيخ العرب لست من الشيوخ ولا العرب .

سوف تكابر ياسيدى طويلا، وسوف تحاول مع كل من

حولك بعد ذلك أن تثبت أنك كنت على صواب مطلق، بيد أن نظرات الأعين المصوبة إليك كقطرات الماء النازلة على الصخر ستفتت يقينك، سوف تكابر طويلا، لكن سوف تطرق رأسك كومضات برق ليل بهيم أحلام يقظة تتخيل فيها تأزم الأمور وحاجتهم إليك مرة أخرى، لكنك أنت نفسك تدرك منذ البداية أنها ليست سوى أحلام يقظة .

وبالرغم من ذلك سوف تدعو دائما أن تتأزم الأمور، لعلك تدرك الآن أنك لم تكن تعمل من أجل الله ولا من أجل الوطن بل من أجل نفسك، و أنك حين تدعو الآن لا تدعو الله بل الشيطان .

ستعود دائما من أحلام اليقظة إلى الواقع المرير مدركا أنك لا تستطيع أبدا أن تعود كما كنت قبل الوزارة و أن الدماء التى تحملها فى عنقك وصرخات المظلومين لن يزيلها شىء مهما فعلت، حتى التوبة، ذلك أن الله تباركت أسماؤه وتعالت يغفر لك بالتوبة -إن شاء- تقصيرك فى حقوقه أو خطايا قلبك ونفسك وروحك، لكنه تكريما لعباده وعبيده لا يغفر لك مافعلته بضحاياك حتى يغفروا، فهل تظن أنك يامحمد عبد الحليم موسى تظفر بمغفرة كل هؤلاء الآلاف الذين أهدرت دماءهم وهتكت أسرارهم وأعراضهم، وروعتهم ، وحبستهم، ثم حبستهم بعد أن أفرج القضاء عنهم، ومن لم تجده اتخذ رجالك -بل شياطينك- من أهله رهائنا .

سوف يرعبك دائما تذكر أن من لم يَرحم لن يُرحم .

لكنك فى البداية، ربما لأنك تدرك أن الطرق مسدودة، وأنه لم يعد لك -يامسكين- إلا طريقهم طريقا فإنك ستبالغ كثيرا فى مدح الجميع، ستبالغ كثيرا فى مديحهم، لا حبا فيهم، لكن محاولة لدفعهم لأن يعاملوك بالمثل، لا مجرد خداع لهم بل خداع لنفسك أيضا، سوف تدعى حتى أمام نفسك أنك تحبهم كى تفرض عليهم بسلطان الحب أن يحبوك، لكن الأيام سوف تمر ولا ثمر لغرسك، سوف تخفى خيبة الأمل، سوف تحاول فى البداية إخفاءها حتى عن نفسك طالما بقيت

حاجياتك الرئيسية مُلَبّاةً ومميزاتك محفوظة، أيامها قد تبدأ فى إعادة حساباتك، وقد تفدحك مصيبة مافرطت فى جنب الله، فى سبيل من لا يستحق وما لا يستحق، ربما يخجلك استعادة كيف كنت تعامل رؤساءك وكيف كنت تعامل مرؤوسيك .

ولعلك ساعتها فقط تدرك أنه ماتكبر أحد على من دونه إلا بقدر ماتصاغر لمن فوقه .

لعلك أيضا تستعيد ماحدث، كيف انحدرت واستدرجت إليه، ربما تكرر قول الشيخ شعراوى أن فترة الوزارة أسوأ الفترات فى حياته .

سوف تسأل نفسك كيف خدعك الشيطان وغرتك الأمانى، لم تكن بالطبع تدرك عمق القاع الذى ستصل إليه، والذى برغمه لن تصل إلى اكتساب رضا من دفعك إليه، لعلك تستعيد نواياك فى إصلاح ذات البين، لكنك استبدلت -ياموسى- السوط بالصوت والسيف بالسوط فكنت البادى ، والبادى أظلم وعلى الباغى تدور الدائرة .

سوف تسأل نفسك أيامها لم فعلت مافعلت وكيف فعلت.

سوف تبخع نفسك لأنه كان يجب عليك أن تخشى الله فى الناس ولا تخشى الحاكم فى الله .

كيف فعلت ولم فعلت .؟

لقد كنت ترجو الآخرة بغير عمل، وتؤخر التوبة لطول الأمل، وتقول فى الدنيا بقول الزاهدين، وتعمل فيها بعمل الراغبين، تنهى ولا تنتهى وتأمر بما لا تأتى، فحق عليك إذن ماصرت إليه .

بعد فترة، مثلما حدث مع زكى بدر، حين يبرح الخفاء وينكشف بعض المستور، أو حين يتقاطع ماضيك مع حاضر السلطة فيقطعك، حين -كما دائما يفعلون- يبحثون عن كبش فداء يحمل عن النظام سوأته، فتحاول أن تدافع عن نفسك

فلا يسمع أحد لك، فتحاول مقابلة الرئيس فلا يسمح أحد لك، وترسل للصحف، نفس الصحف التى كان فيها من لا يتورع عن أحط الأفعال تكريما لك، نفس الصحف التى كانت تصريحاتك تشكل نصف مانشيتاتها، والنصف الآخر يمليه عليهم ضباط مكتبك، لكنهم يهملون ردك، أو ينشروه إذا فعلوا بطريقة مهينة، كما فعلوا من قبل مع زميل لك حين نشروا رده فى بريد المظلومين الذين لم يجدوا مكانا آخر لردهم، وتصادف أن كان هذا النشر تحت رسالة لامرأة تائبة تطلب صفح المجتمع و فرصة شريفة للعمل.

لكنك عندما تفقد الرجاء وتنقطع حبال الأمل وتنكشف ادعاءات المديح وتسقط ضغوط الحب، وتدرك أنك خدعت، أنك بعت الآخرة بالدنيا و أنك اخْلَوْلَقْتَ أن تفقدهما معا، عندئذ يفدحك الخطب فتنتقل من طور الرجاء إلى طور العتاب، ومن طور العتاب إلى طور التشكى، لكنك تكتشف أن كل من يبذلون الوعود لك يخدعونك، و أنهم يعدونك لمجرد التخلص من حديثك المكرر الثقيل عما أديت للوطن وللسلطان، و أنه بدونك كان يمكن لكل شىء أن يغرق ويخرب، بعد ذلك تجمعك الصدفة ومحاولة التواجد بأى صورة بزكى بدر، ستكون قد كففت عن التعالى عليه، وستتشاكيان، ثم تكتشف أن كل ماقالوه له فى بداية ولايته قد قالوه لك، و أن كل مافعلوه بك فى نهاية ولايتك قد فعلوه به، وتتشاكيان، وربما أفلت منكما ما أفلت من لسان المشير أبو غزالة، لكنك تدرك أن الشكوى لا تصل و أن التشكى لايفيد فتنتقل إلى طور التهديد، فيبدءون فى الضغط عليك كما فعلوا مع الجمصى، لعلهم يرسلون من يرفع تليفونا أو يسحب خدمة، ولعلك غضبا للكرامة تحاول المقاومة، فيفعلون بك ما فعلوه بمحمد نجيب ويصيبك الروع فتنزوى - تصيبك ذات الشكوك والهواجس التى أصابت الليثى ناصف*، فيصيبك

*ضُرِبَ وسُجِن محمد نجيب، وعُزِلَ وشوُه أبو غزالة، و أصيب الجمصى بنزيف فى المخ(أشيع أنه بسبب دفعةٍ جندى له، أما الليثى ناصف فقد قذف نفسه- أو قُذِفَ به - من الدور التاسع من منفاه فى لندن.

الرعب من كل همسة، والفزع من كل حركة، ويتهدم الجبروت القديم فإذا بك إنسان ضعيف ربما يهتف : يارب.

ساعتها ، ساعتها فقط يستيقظ الضمير، ويدعو الإنسان ربه .

آنها. . . وأنت تغلق المصاريع خلفك كى تذرف دمعة، ساعتها، لحظتها، تذكر مصارع ضحاياك، وأنت تذوق ملح الدمعة تضنيك مرارته وتحرقك حرارته، تذكر .

تذكر دموع أم على ابنها، ودموع أب على وحيده، ودموع أبناء على آبائهم و أمهاتهم .

تذكر ....

تذكر صراخ ضحاياك وهم يجلدون وتذكر دموعهم، سائل نفسك ولو للحظة هل كانت دموعهم دموع خزى وعار أم دموع محاولة للصمود فى البداية، ثم محاولة إخفاء للألم، ثم ضعف ثم استنجاد ثم توسل ثم رجاء لمن لاترجى منه رحمة .

استعرض فى حدائق الشيطان غرسك، وتذكر الرهائن وفيهم العجائز الذين جاوزوا السبعين وفيهم الأطفال -تخيل ماحدث لرجل وهم يهددونه باغتصاب زوجه، ولشيخ يهددونه بقتل ابنه، ولابن كان يخشى على أبويه من النسيم فإذا بشيطان مريد من جلاديك يسبهما سبابا قبيحا يهون عليهما الموت دونه لكنهما يضطران للصمت خوفا على ابنهما .

إهنأ بوحشتك فلن تكون وحيدا ولعلك تأتنس بذكريات صراخ آلاف المعذبين، ولعل أرواح من استشهدوا على أيدى رجالك تحوم حولك فاهنأ.

سوف تمر السنون ويعلم الله ماتأتينا به، لكن ، إن انقسمت مصر إلى دولتين أو ثلاث، إن انشطرت كسالم إكسبريس، إن كانت صرخاتنا هذه هى صرخات الاستغاثات الأخيرة قبل الغرق، حيث لن يهرب منا أحد يامحمد عبد الحليم موسى حتى لو كانت أبواب الكبائن غير مغلقة علينا، سنغرق فيها وستغرق أنت أيضا، لا حبا لنا ولا فيها بل لأنك لم تعد وزيرا، فإذا حدث

ذلك لمصر، أو نشبت فيها حرب أهلية كما يخطط أعداء الدين والوطن فتعلم ساعتها أنك كنت مخلبا من مخالبهم لتنفيذ مايريدون، إياك أن تعزى نفسك ساعتها بأنك لم تكن تعلم ، إياك فقد حذرناك فلم تحذر ونصحناك فلم تنتصح .

فى أى لحظة من لحظات حياتك، فى أى وضع، معافى سليما أومريضا تحتضر، باكيا أم ضاحكا، سائرا أم قاعدا، صاحيا أم نائما تعيسا أو توهم نفسك أو من حولك بالسعادة، فى أى لحظة من تلك اللحظات تأكد، تيقن، ثق، من أن ملايين القلوب تتضرع إلى الله أن لا يغفر لك، أن يجازيك بشقاء الدارين، لأنك قد وليت من أمر المسلمين أمرا فشققت عليهم، وأن الصالحين سيخشون أن تتوب فيقبل الله توبتك ، تماما مثلما فعلوا مع الحجاج .

أقسم بالله العلى العظيم غير حانث أننا كنا نتواصى بالدعاء فى ليلة القدر عليك وعلى كل ظالم ألا تعود علينا ليلة قدر أخرى و أنتم معنا، أن يفصل الله بيننا وبينكم، كنا نتواصى بالدعاء ولم يكن فينا من الجماعات الإسلامية أحد ويكاد يكون لا أحد أيضا من الإخوان المسلمين بل أناس عاديين يبهظهم ما يحدث .

كان الجميع يرون أن وضع اللواء عبد الحليم موسى وضع متميز، لذلك استحق القدر الأكبر من سخط الناس، فأخذوا فى ليلة القدر يدعون أن يجعله الله للناس آية وللعالمين عبرة، فلم يكن زكى بدر ولا حسن أبو باشا ولا النبوى اسماعيل، وما واجهنا ببذاءة لسانه ولا بنبوت فى يده ولا بحيلة يخدعنا بها وإنما واجهنا بعلامة صلاة ضخمة تتصدر جبهته وبلسان بدا ساعتها عفّا فانخدعنا يارب فيه، وليس من يخدعنا بك كمن يخدعنا بغيرك، فاللهم لاتجعل له بعد على عبادك المؤمنين سبيلا، اللهم اجعله آية واجعله عبرة واغفر لنا يارب ماعلمت بنا من ضعف بعد أن أبهظنا العسف والبطش والجبروت فصرنا نعجز عما هو خير للصابرين .

اللهم إنا نعجز عن عقابه فعاقبه أنت بمثل ماعاقبنا به

تشف صدور قوم مؤمنين ، اللهم أذقه من الكئوس التى أذاق منها عبادك واكشف فى الدنيا أمره و أعلن سره واهتك ستره، اللهم لقد وُلِّى علينا فشق علينا فاشقق يارب عليه . اللهم لقد كان يعرف بالتعذيب والتزوير والكذب لكنه صمت عن الحق يارب بعد أن باعه بثمن بخس، فاللهم لا تمتعه بما باع الحق به، وأَجْرِه -يامسبب الأسباب بلا سبب- على لسانه بالرغم منه كى يكون لمن يأتون بعده عبرة وآية .

اللهم لقد قلنا لهم كل ما وفقتنا لقوله ماطلبنا به جزاء ولا شكورا وما أردنا سوى وجهك، وأنت تعلم ياعلام الغيوب أننا ما واجهناهم بالحق كى ننزع عنهم سلطانا ولا لكى ننازعهم فيه و إنما أردناهم أن يقيموا الحق فأبوا فأكبَّهم يارب على وجوههم وانزع منهم يارب سلطانا لم يعطوه حقه.

غدا سيسخرون من دعائى، كما لو كان يتناقض مع كبريائى، كيف لا يدركون ، كيف لا يعقلون ، لا يكتمل كبريائى إلا بالإيمان به والدعاء له وعبادته، فالله أكبر لاتعنى مجرد تقديس لاسم الله هو غنى عنه إنما تعنى ما لا غنى لكرامتنا نحن عنه وهو أنه لاكبير سواه، أنك لست أكبر منى - ياموسى- ولا كلينتون أكبر من مبارك، و أنه لا مبرر أبدا ولا جدوى أيضا من أن يذل أحدنا نفسه أمام الآخر، أجل، لا يكتمل كبرياؤنا إلا بالإيمان والتضرع والدعاء، إذ كيف يمكن أن يكون كل هذا العذاب بلا غاية، وكل هذا الامتهان سوى وسيلة، وكل هذا الشقاء والعناء دون خلد نفرح فيه بما آتانا الله .

قلنا لهم يارب، فادعوا أنهم لا يقرءون ما نكتب فلما أكدت صحفهم مانقول كان بآذانهم وقر.

سوف أكون حريصا ياسيادة اللواء السابق ألا أواجهك بما نشر عنك وعن رجالك فى الشعب، ولا فى الوفد، ولا حتى فى الأهالى، وإنما من الأخبار والأهرام وأكتوبر، أواجهك وأحصى عليك، لا كل ماعرفت أنك فعلت بل بعضا يسيرا منه. هذا البعض اليسير يهولنى، لو أننى كنت مكانك لرجوت أن أكون نسيا منسيا، و أن أكون ترابا، ولو لم أك قط شيئا .

من الأهرام والأخبار و أكتوبر، وسأتجنب تماما في -البداية- الدخول في أي خلاف سياسي، لكنني في نفس الوقت لا أستطيع أن أكتمك، أنكم حين -كالإنجليز وإسرائيل- خصصتم خمسين ألف جنيه لمن يدلكم على إرهابي، حين ذاك، بل وقبله، كنت أريد أن أقول لك أنني أعرف الكثيرين منهم، و أن أحد كبارهم أنت.

لا أقولها بلاغة ولا ملاحاة ولا مجادلة ولا سخرية ويعلم الله أن موج الأحزان في قلبي كالجبال.

لكننا لا نريد أن نختلف الآن. لعلك بعد أن تطالع القليل جدا الذي استطعت بمجهودي المتواضع أن أجمعه عنك، والذي أضاع منه إهمالي جزءا، و أبنائي جزءا، وموظفو مكتبي جزءا آخر، أواجهك بالباقي لعلك تتخيل ماذا ستفعل حين يواجهك من لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، من لا ولد له، من لا تسهو ملائكته ولا تغفو، من لا تسقط ورقة من كتبه، من أمهلك ولن يهملك.

في أهرام الأحد ١٤ رمضان كان الرفاعي حمادة العضو المستقل بمجلس الشعب يقدم استجوابا يقول فيه "لقد كنت شاهد عيان وصعقت لما حدث في المعركة الانتخابية للمجلس الشعبي المحلي ببور سعيد، وكنت أتصور ألا يحدث هذا لأن أحدا لايقبله ولكن للأسف فإن الذي حدث إنما هو ذبح للديموقراطية وتزييف لإرادة الشعب ".

ويواصل الرفاعي حمادة :

" إن إحساسي بالأمانة هو الذي جعلني أتقدم باستجوابي لأن الحكومة أصدرت أوامر للشرطة بالتدخل في الانتخابات لصالح الحزب الوطني حتى لو كان ذلك على حساب رغبة مواطني بور سعيد في اختيار ممثليهم المعبرين عنهم، وبذلك فإن الشرطة تكون قد انحرفت عن أهدافها وخرجت عن مهمتها في خدمة الشعب والحفاظ على الأمن لكي يمارس الشعب دوره في العملية الانتخابية تحقيقا لمبدأ

الديموقراطية في دولة المفروض أنها ترسي مبادىء سيادة القانون . إن شعب بور سعيد يشعر بالمرارة لأنه كان ينشد أن تأتي نتيجة الانتخابات معبرة عنه لكن الشرطة وقفت ضد رغبته ومارست العنف ضد مندوبي الأحزاب في اللجان الانتخابية ومنعت من دخول غرفة التصويت لصالح الحزب الوطني، وهناك مواطنون أصيبوا في هذه الأحداث وما زال بعضهم يعالج في المستشفيات من أثر الإصابات الخطيرة التي تعرضوا لها من قبل الشرطة، و أرجو من الحكومة أن تقوم بعلاج هؤلاء المواطنين بالخارج على نفقة الدولة .

لقد تدخلت الشرطة تدخلا سافرا في جميع اللجان الانتخابية في بور سعيد وبور فؤاد لمنع فوز حزب العمل أو حزب الوفد وأن الشرطة استعانت بالكلاب البوليسية لإخراج مندوبي اللجان من أماكنهم في لجان الانتخابات على مرأى من أهالي بور سعيد جميعا ".

انتهى كلام الرفاعي حمادة .

انتهى ليبدأ دفاع الدكتور محمود الشريف وزير الإدارة المحلية وإنكاره لما جاء بالاستجواب.

يارجل . . . يا إنسان . . . ياعبد . . . لو أنك أنكرت طلوع الشمس التي أراها بأم عيني، تراني أصدقك أم افقد الثقة بما تقول وبك ؟.

حتى أنت ..

كنت قد احترمتك يارجل .

كيف تستطيع في نهاية اليوم أن تواجه زملاءك وأبناءك وزوجك و أصدقاءك .

لا أقول لك كيف تستطيع أن تواجه الله بل كيف تستطيع أن تواجه هؤلاء، وكيف تستطيع أن تواجه نفسك .

لكنني هنا أسائل التاريخ والوطن، أسجل للماضي و أحفظ للمستقبل تساؤلي للأمة كلها، لأساتذة الجامعات،

وأصحاب مراكز الدراسات، والمثقفين والمفكرين والصحفيين والكتاب والقضاة وأعضاء النقابات وأعضاء المجالس كلها : إن لم يكن هذا هو الإرهاب فماذا يكون ؟ .

ولأنتقل من حديث الرفاعى حمادة الذى لم أسعد بمعرفته إلى حديث لعبد العظيم رمضان الذى أسعد بعدم معرفته، والحديث منشور فى مجلة اكتوبر:

" .... ينقلنا هذا إلى قضية أخرى أزعجتنى غاية الانزعاج،وهى قضية معاملة المواطنين فى أقسام الشرطة، إن شعبنا يقدر تقديرا عاليا ماتقوم به الشرطة فى التصدى للإرهاب وحفظ الأمن السياسى، لقد عبر هذا الشعب عن تقديره للشرطة فى جنازة المرحوم النقيب على خاطر وفى تعاطفه مع ضحايا الشرطة .

على أنه فيما يبدو أن ضباط الشرطة يوجد فيهم فريقان : فريق المغضوب عليهم الذين يعملون فى تنظيم المرور فى عز البرد والحر، أو فى مواجهة الإرهاب وقنابله ورشاشاته، وفريق المرضى عنهم، المتنعمين فى أقسام الشرطة، وهم يعيشون فى عالم آخر،وبعقلية عهد الاحتلال، ويتصورون أنهم قد عينوا ليركبوا على رقاب العباد ويذيقوا أبناء الشعب ألوان الإهانة والعذاب.."

مرة أخرى : إنه عبد العظيم رمضان و إنها أكتوبر .

فلنواصل :

" . . . وقد كان من سوء حظ ابنة الدكتور محمد شعلان أن وقعت فى يد الفريق الأخير، حين توجهت إلى قسم شرطة العجوزة بالقاهرة، بناء على نصيحة شرطى فى الطريق لتستنجد به من رجل يطاردها بسيارته، فإذا بها وهى الفتاة النحيلة التى لا يتجاوز وزنها خمسين كيلوجراما، تتلقى من الإهانة والضرب من الضباط، ما أخرجها إلى مستشفى الدكتور عكاشة بالمهندسين للعلاج من حالة انهيار عصبى حاد - ومايهمنى فى هذه القصة، وله مغزى

خطير، هو أن هذا الضرب والإهانات حدثت بعد أن عرف الضباط أنها ابنة أستاذ جامعي مرموق، وخالها مساعد مدير أمن القاهرة - فليتصور معي القارىء ماذا كان يمكن أن يحدث لو كانت ابنة رجل عادى من أبناء شعبنا لا يملك من أمره نفعا ولا ضرا، و إذا كانت ابنة الدكتور محمد شعلان قد خرجت من قسم شرطة العجوزة إلى مستشفى الدكتور عكاشة للأمراض العصبية، أفلا تخرج ابنة المواطن العادى إلى مشرحة زينهم، أو تخرج إلى السجن بعد تدبير تهمة آداب لها ."

يا إلهى. . . .

إننى أكتم صرخة. . . .

لكن فلنؤجلها حتى نكمل حديث عبد العظيم رمضان فى مجلة أكتوبر :

" . . . ما هذا الذى يجرى فى بلدنا ؟ وكيف يتحول ضابط الشرطة، الذى نجله ونحترمه ونطلب حمايته من الاعتداء إلى معتد، و إذا كانت تقاليدنا الشرقية تمنعنا من الاعتداء على السيدات والآنسات لضعفهن، فهل انعدمت النخوة إلى حد ضرب فتاة ضعيفة لم تكد تبرأ بعد من عملية كبيرة أجريت لها فى صدرها منذ سنة أو سنتين."

يا إلهى. . . .

إننى أكتم صرخة وأحبس دمعة. . .

يا ابنتى المسكينة، التى يخاف عليك آلك من لمحة عابرة قد تجرح لك شعورا، كيف احتملت، و كيف بعد ذلك تحتملين، لا التكرار بل الذكرى، يا ابنتى المسكينة المريضة، ولو أننى كنت أنا أباك فامتشقت سلاحى ووقفت - بالجنون - فى ميدان التحرير أطلق الرصاص على من أعرف ومن لا أعرف، أحصد العشرات، أو لو فكرت فى خطة جهنمية لاغتيال كبير أو لنسف، على أى فئة من فئات الإرهابيين أحسب، أم أحسب مجنونا، أجب يادكتور محمد شعلان، ألستَ مختصا بالسلوك

البشرى، أجب، علِّم هذه الحيوانات البشرية أن ثمة أنواع من الاستفزاز والاعتداء لا يكون الإنسان إنسانا إلا إذا واجهها بالتحدى حتى لوكان الموت جزاءه ـ علِّمهم فقد يسمعون منك ما لايسمعونه منا.*

لقد كنت أحاور مرة مواطنا من إحدى محافظات الوجه القبلى، أمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وكنت أعاتبه على مايحدث، و أجادله بما أفتى به فقهاء الإخوان من عدم جواز الانتقام الشخصى من السفاحين القتلة، و أن عليهم أن يحتسبوا عند الله ـ وصمت الرجل حتى أكملت ليقول :

ليس الأمر دينا ولا حكما بالإيمان أو الكفر ولا احتسابا عند الله،الأمر أبسط من هذا بكثير جداء فى الصعيد لا عفو عن جُرْمَيْن، الدم والعرض، وقد ارتكبت الشرطة الجرمين معا، وهو ثأر لن يهدأ ودم لن يجف . ولقد كان التوصيف للحزن الفاجع صحيحا، وكان هذا المواطن البسيط أذكى من اللواءات والكتاب ذوى الكروش المنتفخة، كان أذكى من أجهزة المباحث ومراكز الدراسات، ولقد كتبت أيامها عن ذلك فقلت أن الأمر ليس أمر الإرهاب بل هو ثأر دفعنا إليه حمقى ومجرمون، وكان ذلك بداية انتشار هذه الكلمة فى الأدبيات السياسية كتفسير لما يحدث، وما فتىء المسئولون ينكرونها، بيد أنه الإنكار الذى يُثبت.

لكننى هنا أسائل التاريخ والوطن، أسجل للماضى وأحفظ للمستقبل تساؤلى للأمة كلها، لأساتذة الجامعات، وأصحاب مراكز الدراسات، والمثقفين والمفكرين والصحفيين والكتابوالقضاة وأعضاء النقابات وأعضاء المجالس كلها : إن لم يكن هذا هو الإرهاب فماذا يكون ؟.

فى الأهرام أيضا كتب الدكتور محمد شعلان بكائية للوطن

---

* استجاب الدكتور محمد شعلان للنداء، ونشر بالفعل مقالات متعددة فى أكثر من صحيفة، حيث ذهب إلى أنه من الطبيعى أن تكون ردرد الفعل الطبيعية للأفعال غير الطبيعية ردود اغير طبيعية. وكان المفهوم من السياق و إن لم يصرح، أن رد الفعل بالعنف ضد الدولة إزاء بطش الشرطة، هو رد فعل طبيعى، وأن الدولة هى المدانة.

يصف ماحدث، ويؤكد أنه تأكدمن الكثيرين مما يحدث فى أقسام الشرطة وأن الانتهاك يقارب أحيانا الاغتصاب، ولاحظوا مرةأخرى أن الناشر ليست صحف المعارضة بل الأهرام . .

يامحمد شعلان أنا انذبحت من أجل ابنتك، لكن هل تعلم لماذا جرى ماجرى ولماذا يجرى مايجرى ولماذا سيجرى ماسيجرى؟ لأننا مررنا مرور الكرام على خبر كانت الأهرام أيضا ناشرته، وللمصادفة أنه فى نفس قسم الشرطة، فاقرأ معى :

" التحقيق فى ظروف وفاة متهم ضبط متلبسا بالسرقة ":

تحقق نيابة العجوزة فى ظروف وفاة "حداد كريتال" ضبط متلبسا بسرقة قطعتى ألوميتال من العقار رقم ١٧ شارع جزيرة العرب بالمهندسين .وكان خالد فائق المسلمى وكيل أول نيابة العجوزة قد تلقى بلاغا من مستشفى أم المصريين بوصول عماد سعد أحمد -٢٨ سنة- إلى الاستقبال بالمستشفى جثة هامدة بواسطة أمين شرطة المهندسين وأنه بالكشف على الجثة وجد أنه ليست بها إصابات ظاهرية. وعندما انتقل وكيل أول نيابة العجوزة وجد أن بالجثة إصابات خطيرة ظاهرة فى أماكن كثيرة منها. ووجد أن قطعتى الألوميتال خفيفتان و يمكن حملهما فعلا . وبالتحقيق تبين أن ابن بواب العقار شاهد المتوفى بحمل الألوميتال فاستغاث بمصطفى محمد عويس العامل بمحل موبيليا بالعقار و طاردوه و أمسكوا به و اقتادوه سليما -كما قالوا فى التحقيقات- إلى نقطة شرطة العجوزة - وقررت نقطة شرطة العجوزة بأنه أثناء سؤال المتهم ظهرت عليه علامات الخوف و الارتباك وراح يتصبب عرقا وأصيب بهبوط و سقط على الأرض فتم نقله للمستشفى - وقررت النيابة بإشراف عبد الشافى عثمان رئيس النيابة استدعاء المسئولين فى نقطة المهندسين لسؤالهم وكذلك استدعاء طبيب الاستقبال بالمستشفى الذى قرر على خلاف الحقيقة أن الجثة ليست بها إصابات ظاهرة وإحالة الجثة إلى الطبيب الشرعى لمعرفة أسباب الوفاة ..

كم واحدا من ضحاياك يامحمد عبد الحليم موسى أمسكتم به سليما -كما ثبت فى التحقيقات- ثم اصطحبتموه إلى نقطة شرطة أو مقر للأمن المركزى أو مباحث أمن الدولة وأثناء سؤاله ظهرت عليه علامات الخوف و الارتباك وراح يتصبب عرقا وأصيب بهبوط ثم سقط على الأرض فتم نقله للمستشفى ثم مات.*

كم ياشيخ العرب .

ولست من الشيوخ ولا العرب .

حتى العصابات لها قوانينها التى تنبع من داخلها، لكننى أسائل الـ .... و......... إن لم يكن هذا هو الإرهاب فماذا يكون .

أين ستذهب من الله يامحمد عبد الحليم موسى، ليست شاة عثرت وإنما روح بشرية أزهقت من قتلها كأنما قتل الناس جميعا فأين تذهب من الله أيها الجلاد أيها السفاح .

ياقاتل الناس جميعا .

لكن ماذا فعلت نقابة الأطباء فى ذلك الطبيب المجرم الذى تستر وتواطأ، وفى عشرات مثله يفعلون نفس الشىء فى سجون بلادنا، لو أن واحدا منهم فقط سحب منه ترخيص مزاولة المهنة مدى الحياة، ربما لتراجع المجرمون من الجلادين عن بعض ما يفعلون .

يا إلهى، إن قلبى ينسحق كلما تذكرت ماقرأت فى بعض المذكرات من أنهم كانوا يخضعون المعتقلين للكشف الطبى لبيان مدى تحملهم للتعذيب، و أنه كان يوجد أطباء مجرمون يفعلون ذلك.

أليس هناك قانون لحرمان مثل هؤلاء الأطباء من مزاولة

---

* نفس ما حدث فى قنا، عندما طلب أمين شرطة من سائق سيارة نصف نقل توصيلة مجانية فرفض السائق فأطلق أمين الشرطة الرصاص عليه فأرداه قتيلا!!...وما حدث فى بلقاس ... وفى...وفى...وفى ... عموم مصر.

المهنة مدى الحياة فلا أظن جموع الأطباء ترفض إصدار مثل هذا القانون إن عرض عليها، كما يجب أيضا أن يمنع منعا باتا التبعية الوظيفية لمثل هؤلاء الأطباء لجهاز الشرطة .

ومثل ابنة محمد شعلان وابن عبد المحسن حمودة كان الموت المأساوى الفاجع لجمال حمدان، فى حادث حقير لانفجار أنبوبة بوتاجاز وما على قضاء الله نعترض ولكن على إهمال مجرم ماعادت الصحف تنشر حوادثه لفرط شيوعها، لكنها عندما أصابت جمال حمدان كانت طعنة نجلاء فى قلب الأمة التى نذر جمال حمدان نفسه لها.

يموت الناس كل يوم لامباشرة على أيدى الجلادين فقط وإنما بتخريب الوطن الذى يستلزم قهرا لا يقتصر على مجال دون آخر، فى الصناعة كما فى الزراعة كما فى استزراع الصحراء كما فى تنمية القوة كما فى استبدال موارد الوطن التى يتحكم فيها المواطنون بموارد يتحكم فيها أعداء الوطن، وفى الأمن.

ماحدث لجمال حمدان - سواء كان جريمة قتل كاملة، أو جريمة قتل بالإهمال - سوف يحدث غدا أو بعد غد، لا لحراس الوطن وشهدائه الأحياء فقط، بل لكل إنسان فى هذا الوطن، كل شريف معرض لهذه الميتة، إن لم يكن بأنبوبة غاز فباللحم المستورد المسموم أو الدواء المغشوش أو الماء الملوث، أو بلاعة مفتوحة،أو انهيار عمارة، أو فيضان طوفان، لكم حزنت من أجل جمال حمدان .

كان حين اعتزل أخذ منا بعضا منا معه، فحين مات مات منا بعضنا .

حين بكيناه كنا أنفسنا نبكى .

لكم قاومت -وأقاوم- منذ أعوام أن أعتزل هذا الحاضر المتوحش المجنون الخائن اعتزاله له، لكننى إذا اعتزلت، أوصيكم، حين تقررون الخلاص منى، ألا تطلقوا تلك الشائعات الحقيرة التى أطلقتموها حول احتمال انتحار جمال حمدان،

أم أنه لا يكمل قتلكم للأحياء إلا إهانة الموتى.

نعود مرة أخرى إلى الأهرام أيضا ينشر توسلا للصحفى خالد الفقى، وبعد أن يفتتح الكلام بتقديم القرابين بمديح رجال الشرطة والتقدير لدورهم، ثم يتلو كلامه سلامه وقد أمن ألا يأكل الغول لحمه قبل عظامه، يطالب خالد الفقى بمساواة الصحفى المصرى بالصحفى الأجنبى فى القيام بواجبه، ففى كل مناسبة يتجمع فيها الصحفيون المصريون والأجانب نلاحظ تفرقة فى المعاملة، و أحيانا تحدث تصرفات خشنة، و أحيانا اعتداءات عليهم، وليس للصحفى المصرى ذنب ولا جريرة إلا أنه يحاول أن يؤدى عمله.

ثم يصرخ خالد الفقى :

هل يمارس الصحفى المصرى دوره أم يبتعد ويذهب إلى بيته .

ياشيخ العرب : أنت أسوأ من تولى منذ زمن الحجاج فاهنأ*.

لكننى أسائل الـ..... إن لم يكن هذا هو الإ............ فماذا يكون؟.

فى أهرام ١٦ رمضان الموافق ٩ مارس وعلى مساحة الصفحة الثالثة كلها ينشر الأهرام تحقيقا خطيرا بعنوان "هيروين للبيع" حيث يقوم الصحفى عبد العظيم الباسل والمصور عبد العزيز النمر بمغامرة جريئة فى كواليس عوالم المخدرات .

ولنقتطف هذه الجمل من ذلك التحقيق الكارثة :

" .. فوجئنا بأن الهيروين يباع فى وضح النهار على بعد خطوات من قسم الشرطة......

والسؤال : من يصدق أن عيون الأمن معصوبة عن هؤلاء

---

* لا تتناقض هذه الجملة مع سابقاتها ، كما لا تعنى أيضا أن حسن الألفى - على سبيل المثال - أفضل!.

التجار المعروفين لهم بالإسم والعنوان ..

" .. ونصافح صبى الشاهبندر مستأذنين على أمل أن نعود إليه خلال ٤٨ ساعة لأخذ كمية كبيرة لا تقل عن عشرة جرامات وسؤالنا كان : هل نجد الكمية ؟،وكان الجواب : أى كمية متوافرة بشرط أن يخبرنا مندوب من عندكم لتجهيزها قبل تسلمها بساعات،و أسأله : كيف الخروج بها من هنا؟ قال الحكومة أمان سواء من ناحية مركز إمبابة أو شرطة شبرا الخيمة . وواصل صبى الشاهبندر -تاجر المخدرات- : المعلم مربط مع الحكومة فى شبرا وإمبابة والساحل......"، " ده بيدفع راتب شهرى ثلاثة آلاف جنيه لمركز واحد عشان يوفر لزباينه الأمان، ماتستغربش، البودرة تباع عادى على البحر وحقن الماكس بالطابور بعد العاشرة مساء ـ" ويواصل الحديث شاب آخر قدم نفسه على أنه حاصل على دبلوم تجارة ويعمل فى مهنة خراط ميكانيكى : اضطررت للبحث عن المكيفات بعد ظلمى بيد الأمن عندما قبض على فى مشاجرة عادية وتعرضت فى القسم للضرب والاعتداء، وبعد خروجى طالب شقيقى المحامى بحقى فأخبروه أنهم سيشردوننى إذا لم أمتثل لأوامرهم ـ ويتدخل أحد جلساء المقهى فى الحديث قائلا : أنا مطارد من جانب رجال الأمن لا لشىء سوى أن حكومة شبرا تريد تجنيدى للإرشاد عن المتهمين وفى مقابل هذا أتاجر أو أتعاطى أو أفعل ما أشاء ـ" ويسأله الصحفى :"ولماذا لاتكون أحد عيون رجال الأمن فيجيب متسائلا : ومن من المرشدين يعمل بذمة وإخلاص، تصور عندما رفضت الاستجابة لهم لفقوا لى قضية سلاح ... هل تصدق أن حسن سبرتو -أحد المرشدين- فى خلاف مع جاره حول مكان فى الشارع ليس أحق به منه لبّسه قضية دون أى اتهام".

حكومة شبرا وحكومة إمبابة وحكومة عابدين .

يا أسوأ حتى من زمن المماليك.

إن لم يكن هذا هو الفساد والإرهاب فماذا يكون ؟.

أما صحيفة الأخبار فقد نشرت - فى أول رمضان - الخبر التالى : محاكمة تأديبية لضابط شرطة عذب مدرسا أمام تلاميذه أمرت النيابة العامة بإحالة ضابط شرطة إلى المحاكمة التأديبية، حيث أمر جنديين بتقييد مدرس ثانوى من قدميه وإلقياه على ظهره فى الشارع أمام الطلاب والمدرسين مجاملة لمطلقة المدرس. وكان المدرس قد أبلغ النيابة ضد الضابط وهو برتبة نقيب ورئيس نقطة شرطه بضربه أمام التلاميذ مما سبب له ضررا بالغا و إهانة لكرامته، تولى التحقيق ياسر الزيات وكيل أول نيابة الجيزة وتبين أن مطلقة المدرس أبلغت رئيس النقطة بأن زوجها ضربها فوعدها الضابط بتأديبه بطريقة مبتكرة وطلب منها أن تقف فى شرفة مسكنها المقابل للمدرسة التى يعمل بها مطلقها لتشاهده وهو يتلقى علقة ساخنة تفقده هيبته أمام طلابه وزملائه .

أسوأ حتى من الدعارة .

فإن لم يكن هذا هو الإجرام فما يكون ؟.

و فى أهرام ١٢/٧ بدأ نظر قضية فتاة العتبة*، كان أمين الشرطة يشهد فى المحكمة، أمين الشرطة الذى تحدى وزير الداخلية بشأنه ليؤكد -رغم أقوال الصحف والشهود- أنه كان معينا للخدمة فى الميدان، وأن هذا دليل على تواجد الشرطة وعدم إهمالها،وعلى استحياء شكك البعض فى حديث وزير الداخلية حتى أعلنه بصورة قاطعة فى بيانه أمام مجلس الشعب مؤكدا مرة أخرى أن الجندى الذى اصطحب الجناة إلى قسم الشرطة كان معينا على قوة العتبة ومتحديا من يشك بمراجعة دفتر الأحوال فى القسم.

فى المحكمة قال الأمين ببساطة أنه تواجد بالصدفة حيث كان متوجها إلى عمله بقسم النزهة.

---

* من أشهر و أبشع قضايا الاغتصاب فى مصر، حدثت فى ميدان العتبة، أكثر ميادين مصر ازدحاما، ولم يتحرك لنجدة الفتاة أحد، وقد أحرجت النظام حين كشفت مدى افتقاد الناس للأمن.

وإن لم يكن هذا هو الكذب الصريح البواح فما يكون ؟.

لقد نشرت الصحف أيضا عمن ينتحرون من مديريات الأمن، وعمن يموتون بالسكتة القلبية موتا طبيعيا وهم فى أقسام الشرطة .

ومريض القلب الذى ضربوه حتى الموت مقابل رغيف خبز للباشا الملازم أول ويفجر الناس الغضب المجنون من حدوث المستحيل وانشغال الباشا المحافظ فى تربية كلابه، وتقوم المظاهرات لكن الباشا الكبير يدين الناس لأنهم استجابوا للاستفزاز كبشر وينذرهم بأن الدولة لن تبنى لهم ماتهدم و أن عليهم أن يبنوه بأنفسهم على حسابهم .

أيها الجزار نحن نوافق ..

سنعيد كل شىء كما كان لكن أعيدوا الحياة إلى مريض القلب الذى ضربتموه حتى الموت، من أجل رغيف خبز للباشا، بالقلب كان مريضا، كان متعلما لم توجد حكومتك أيها الباشا الجزار له وظيفة فراح يعمل فى مخبز كى يساعد أبويه العاجزين على تكاليف حياة أصبحت فى عهودكم السوداء مرة . بالقلب كان مريضا، أعرف قسوة حياة مرضى القلب، كيف أن عدة خطوات أو انفعال يجعل قلبه يطرق كمطرقة وتنفسه يختنق كغريق .

كيف كانت نشوتك أيها الباشا الجزار وأنتم تعلقونه من قدميه، ورأسه إلى أسفل، ويظل أربع ساعات يصرخ كما شهد شاهد، كيف كانت نشوتك ونفسه يضيق، يختنق، وقلبه يهبط، فتتجمع السوائل فى رئتيه، ويحشرج، كيف كانت نشوتك وهو يتوسل إليك بصوت يخبو و يخبو حتى ينقطع، وبعين تظلم وتظلم حتى تنطفىء، كيف كانت نشوتك أيها الباشا الجزار والزبد يخرج من فمه، أبيضا كندف الثلج فى البداية ثم مشربا بالحمرة ثم دما، كيف كانت نشوتك أيها الحيوان وتقلص ملامحه ينفرج الانفراجة الأخيرة، حين يموت، وكيف كانت نشوتك وأنت تأمر حيواناتك أن يحملوه إلى المستشفى

محاولا إقناع من هناك -كطبيب المهندسين- أن يزوِّر ا
شهادة بطبيعية وفاته - كيف كانت نشوتك وزملا
يحرسون جنازته كى لا يتمرد الناس ثم وهم يطلقون عل
النيران حين تمردوا ..

أعده إلى الحياة ونحن نبنى ..

حتى عبد العظيم رمضان يفجره الغضب والاعترا
ليصرخ : "إذا كانت ابنة الدكتور محمد شعلان قد خر
من قسم شرطة العجوزة إلى مستشفى الدكتور عكا
للأمراض العصبية، أفلا تخرج ابنة المواطن العادى إ
مشرحة زينهم، أو تخرج إلى السجن بعد تدبير تهمة آداب لها.

فإن لم يكن هذا أشد تدنيا ووضاعة من فعل العصابات ف
يكون؟.

يا أيها الظالم الغشوم كيف تنال شفاعة رسول الله صلى
عليه وسلم.

بم تجيب حين تُسأل هل كفيتم هل كففتم هل عفوتم هل عففتم.

وحين تُحاسب ماذا عرفت وعما عزفت ومما نفرت وماذا ألفت

إن مكرم محمد احمد يتحدث عن هيبة الدولة، فليس
لى بسؤاله لو أن عصابة من العصابات دأبت على مثل ه
الأفعال أتكون لها هيبة ؟.

يا أيها الكاتب المهيب إن هيبة الدولة فى عدلها وإن كفر
وانهيارها فى ظلمها وجهلها وإن رفعت على أسنة الرم
المصاحف، لكن مادام الفكر وحده غير كاف ولا الحقيقة وحد
فانظر وانتظر حتى يصيبك ما أصاب الدكتور محمد شعلا

لقد تجنبت ما استطعت فى كل مامضى أن أقحم السيا
فيما عرضت، لأن ما أريد عرضه ، وما أصر عليه أن الأ
لم يكن أبدا صراعا بين الدنيويين والأخرويين، ولا حـ
تنافسا مع حزب محترم على الحكم،و أننا حين نتهمهم ونديـ
نفعل ذلك لا بنداء الله بل بنداء الدستور والقانون والنظام الع

الجديد !!.

أجل، ما أود التركيز والإصرار عليه، أننا حتى لو تخلينا -من أجل سواد عهودكم لا عيونكم عن هويتنا الإسلامية- لنحاسبكم بالقانون الجنائى لكان معظمكم مجرمين عتاة.

ما يحدث -والخلاف عليه- ليس سياسة، ليست ديموقراطية كما يتخرصون، ولا نظاما شموليا، ولا حتى ديكتاتوريا عاقلا، ليس حتى فاشيستيا ولا نازيا، كل هذه نظم مهما رفضناها فإن لها أسسها النظرية التى يجادل فيها أصحابها دفاعا عنها، ليست مجرد وصمات عار وشنار يحرص النظام على إخفائها، ثم إنكارها إن ووجه بها، نحن دون ذلك جميعا، ماعندنا لا تنظير له ولا نظير .

ما يحدث إجرام تترفع الحيوانات والعصابات عن إتيان مثله.

هل رأى منكم أحد كلبا يعذب كلبا حتى الموت .

أو........أو........ أو ....

لكى نعرف الوضع الحقيقى لكل مسئول فى هذا البلد، فعلينا أن نتخيله دون مساندة الرؤساء والمرؤوسين والجيش والشرطة و أمريكا و إسرائيل، وعلينا أن نسأل أنفسنا أين يكون مكانه، هل يجرؤ على البقاء ؟،فإن بقى وحوكم على جرائمه أمام القضاء العادى لا القضاء العسكرى، أين ساعتها يكون مكانه.

وهذا الذى يحدث من الشرطة : هل هو شذوذ يثبت القاعدة أم أنه القاعدة ودونه استثناء .

وهل معظم مايجرى على الساحة الآن إرهاب حقيقى، أم أن طارئا طرأ على المجتمع حين وجد من يقول لإرهاب الشرطة : لا.. إننى أتساءل : هل الشرطة هيئة قادرة على تصحيح مسارها وإنضاج تجريتها وتكوين فلسفتها ؟؟.

هل ترضى الشرطة أن تكون على مدى تاريخها أداة قمع المواطنين وقهر الوطن ؟؟.

أداة منكر فى يد الشيطان، ألا يوجد للشرطة مجلس أعلى يستطيع أن يوقف هذا الإجرام وأن يردعه، كى تكون الشرطة عينا للوطن فى عين الوطن، مجلس أعلى يمنع محمد عبد الحليم موسى وزكى بدر وحسن أبو باشا والنبوى اسماعيل وحسن الألفى من السير فى طريق الباطل، من كل هذه الإساءات للأمة وللوطن .

إننى بهذا أدافع عن رجال الشرطة، لا أهاجمهم،و أنصرهم ظالمين بأن اردهم عن ظلمهم .

أما أنت يامحمد عبد الحليم موسى.....فذق .

ومبارك عليك ذنوبك .

ومبارك عليك ذنوبه .

ومبارك عليه ذنوبك .

يوم نحس مستمر

عندما صرخ عبد العظيم رمضان يفجره الغضب والاعتراض " : إذا كانت ابنة الدكتورمحمد شعلان قد خرجت من قسم شرطة العجوزة إلى مستشفى الدكتور عكاشة للأمراض العصبية، أفلا تخرج ابنة المواطن العادى إلى مشرحة زينهم، أو تخرج إلى السجن بعد تدبير تهمة آداب لها."عندما صرخ بهذا لم يكن من حقه أن تتوقف صرخته، لم يكن من حقه ولا من حق زملائه الصحفيين ولا من حق رئيس تحرير مجلته ولا من حق الصحفيين جميعا ولا رؤساء تحريرالصحف جميعا ولا المفكرين جميعا ولا المثقفين جميعا ولا الأمة كلها أن تتوقف الصرخة فى حلوقهم أو تنحبس فى أعماق حشاياهم، كان على هذه الصرخة أن تمتد بطول الوطن وبعرضه وأن تتخلل عمق الزمن، حتى لا تكون هناك فى الوطن أذن إلا سمعتها، ولا عين إلا رأت تأثيرها، ولا مسئول كبر أم صغر إلا أجرى له الـ":فيش والتشبيه " كى ندرك هل فقد الجدارة لمنصبه بالمشاركة فى جريمة التعذيب، أن تبقى الصرخة وتعم الوطن كالطوفان ينزل من السماء ويتفجر من الأرض ملطخا بالعار واصما بالإجرام كل من شارك فى جريمة التعذيب بالإيجاب أو السلب، أو بالعلم مع الصمت، أو بالقدرة على المنع مع التراخى، أو التواطؤ، أو الرضا بشرط ألا يفتضح الأمر .

كانت هذه هى الخطوة الأولى فى الاستجابة لنداءاتكم آناء الليل و أطراف النهار لمحاربة الإرهاب، ونحن بالقطع ضد الإرهاب بكل صورة، فى جميع نواحيه ومن جميع مصادره، لا لأننا سنكون فى كل عهد من ضحاياه بل لأن ديننا يأمرنا بذلك . لكن تجاهل إرهاب السلطة والاقتصار على إرهاب الأفراد

فقط، ليس مجرد سوء نية بل ضعف عقل أيضا، فلقد فاض الكيل وبلغ السيل الزبى ونفد صبر الناس، ولن يتوقف إرهاب الأفراد دون توقف إرهاب السلطة .

ثم أن مايجعل السلطة سلطة، العقد الاجتماعى بيننا وبينها، ينفصم فور تخلى السلطة عن الشرعية، إذ أنها فى هذه الحالة تفقد صفتها كسلطة،لتتحول إلى عصابة أقوى من بقية العصابات الأخرى .

من أجل هذا كانت نقمتى على عبد العظيم رمضان الذى غضب لمحمد شعلان غضب الصداقة والقبيلة لكنه عندما تعلق الأمر بالدين والإنسان أو حتى بخطر يتعلق بالوطن صمت .

دعونا من موقف الدكتور محمد شعلان الذى أدينه، فلقد اكتفى بمقال وشكوى ثم غلّب الموازنات، ولعله اكتفى باعتذار وبتشريف سعادة الباشا الجزار المجنون، لكننا هنا لا نريد أن نفيض فى إدانة الرجل فنضيف إلى أعباء كارثته، فقط لا نملك إلا أن نقول أن ما حدث لابنته، على مستوى التاريخ والرمز هو نفس ما يحدث للأمة المخدوعة، و أن ابنته فى اتجاهها نحو قسم الشرطة -كما فى الفيلم الأمريكى الشهير والعظيم : الغيبوبة- لم تدرك إلا فى اللحظة الأخيرة، أن من ظنته منقذها هو بالضبط جلادها ونخاسها .

ماحدث لابنة الدكتور شعلان أيضا هو ما حدث لأوزوريس على يد إله **الشرّ** -**لا الشرطة**- ست، أنها على المستوى المعنوى والروحى قد تمزقت أشلاء وانتثرت شلوا شلوا فى ربوع الوطن، ولم يكن هناك مايجمع تلك الأشلاء سوى أن يدور محمد شعلان ليجمع أشلاءها مزقة مزقة، وفى كل دورة يفضح ممارسات إله الشر والشرطة، أن يقول للجميع أنه لم يسمع وإنما رأى، وأن صوت السوط لم يقرع أذنه بل جسد ابنته، كان عليه أن يجعل من هذه القضية قضية القرن، وأن يحيل صرخة من صرخات ابنته تحت سياط وصفعات وركلات ولكمات وإهانات الجلادين السفاحين المخبرين عابدى الشيطان،

إلى نفير يتردد عبر القرون ، كـ": وا إسلاماه". ولمن يعانون من الحساسية القاتلة من كل حروف تشمل كلمة الإسلام، كان عليه أن يجعل من قضيتها قضية جان دارك أخرى . أن يظل يدور ويصرخ فى البرية حتى يتوقف التعذيب، لا فى أقسام الشرطة والسجون والمعتقلات ومقار مباحث أمن الدولة ومعسكرات الأمن المركزى فقط، بل أيضا فى تلك الأماكن التى ابتدعهاالجلادون، كبيت مهجور، أو مزرعة دواجن خربة، وبهذه الطريقة وبها فقط، كان يمكن أن يكون للثمن الفادح الذى دفعته ابنته مقابل يستحق . وكان يمكن للإرهاب الذى تريدون وقفه أن يتوقف .

منذ ستين عاما سقطت حكومة اسماعيل صدقى، وكان من أسباب سقوطها المواطن أحمد جعيدى الذى حدث له مثلما حدث لابنة الدكتور محمد شعلان،لكنه رد بالقتل على إهانةمأمور مركز البدارى " : البكباشى يوسف الشافعى "، ونشبت أزمة سياسية كبرى حين وقف على ماهر أمام الملك ليقول أنه لو كان مكان احمد جعيدى وفعل به مأمور البدارى مافعله لقتله .

هل كان على ماهر إرهابيا .

وبعد ستين عاما مازلنا نكافح لوقف نفس الإجرام .

بعد ستين عاما، لكن هل مايزال لدينا وزير عدل مثل على ماهر،يرفض التستر على إجرام رئيس الوزراء ووزير الداخلية، رافضا حتى وساطة الملك .

بالنسبة لعبد العظيم رمضان و آلاف غيره كان بإمكانهم دائما ادعاء أنهم لا يعرفون، أن ماتنشره صحف المعارضة بهذا الصدد كذب، أو على الأقل مبالغ فيه، أن نظام البشير ونظام إيران يدفعون لنا رواتب ثابتة كى نشوه السلطة -لاحظوا أن أحدا لم يعد يتهم نظام الكويت والسعودية والخليج، حتى عندما رد خالد محمد خالد صرة الدنانير لم يعلقوا ولم يتساءل احد عمن لم يردها-وكان يمكننا لأننا لا

نتصيد الأخطاء أن نلتمس بعض المعاذير لهم، أن نبرر عدم تصديقهم بأن ما يحدث فعلا لا يصدق، أما وقد اعترف عبد العظيم رمضان فذلك يعنى اقتناعه، لقد علم الرجل إذن، وكان على من حوله، على الذين صدقوه فى آلاف الصفحات التى سودها، أن يصدقوه هذه المرة أيضا، فلعلها أصدق ما كتب، كان عليهم أن يدركوا معه أنه "" إذا كانت ابنة الدكتور محمد شعلان قد خرجت من قسم شرطة العجوزة إلى مستشفى الدكتورعكاشة للأمراض العصبية، فإن ابنة المواطن العادى تخرج - والمواطن العادى أيضا - إلى مشرحة زينهم، أو تخرج إلى السجن بعد تدبير تهمة آداب لها""

إن عبد العظيم رمضان يتهم السلطة بالتعذيب والتزوير والتلفيق .

أليس هذا هو أساس ما نتهمها به.

وهى تهم كانت كافية منذ ستين عاما لسقوط نظام بأكمله .

فهل يمكن أن تفعل سلطة محترمة ذلك ؟.

بل هل يمكن أن تفعل أى سلطة ذلك ؟.

أى شعور هائل بالاشمزاز والغثيان يجتاحنى .

هل من حقى أو حق أى إنسان فى هذا الوطن أن يدعى البراءة وهذه الجرائم ترتكب.

إننى أومن أن الأمة كانت تستطيع أن تجنب أبناءها كل هذا العذاب وتاريخها كل هذاالعار لو اتحدت .

أومن بذلك متذكرا صرخات جمال الدين الأفغانى أن يشق المصرى بفأسه، لا الأرض بل قلوب غاصبيه، و أنه عليهم لو أراد لقادر، لأنه لو نفخ فيهم نفخة رجل واحد لأزالهم، ولوتفل عليهم تفلة رجل واحد لأغرقهم .

الآن ونحن نغرق فى الصمت، صمت العجز، وصمت الخوف، وصمت العقل، وصمت الجبن، وصمت الانتهازية، وصمت

البيع، وصمت الشراء، وصمت الثمن، وصمت المنصب، وصمت الجهل وصمت العلم وصمت الصمت هل من حق أى واحد منا أن يدعى أنه شريف أو نظيف.

هل من حقنا أن نفعل شيئا أى شىء وكرامة إنسان أى إنسان تغتصب وتنتهك فى ذات اللحظة.

هل من حق أى مسئول أن نسمعه أو نطيعه ونحن نعلم أن هذا العار لايمكن ان يتم أو يستمر دون مباركته .

أم لا سمع ولا طاعة .

أم أننا نكون إرهابيين لو فعلنا ذلك .

يا أيها القارىء المنكوب مثلى، أنا غير قادر على مناقشة الإرهاب الذى يتحدثون عنه قبل أن أناقش الإرهاب الذى تعانى الأمة منه .

إرهاب يمكن للظلمة من الحكم .

والحكم يمكن للظلمة من الفساد .

والفساد يدمر الحاضر والمستقبل .

الظلم هو الإرهاب، والتزوير هو الإرهاب، والفساد هو الإرهاب، ولا أحد نشكو له ولا أحد يحاسب أحدا . لم تكن الشعب ولا الأهالى ولا الوفد ولا الأحرار ولا حتى روز اليوسف مانشرت الخبر التالى :

" أرض فندق ماريوت تساوى ٩٠٠ مليون جنيه وتم التقييم ب ٧٠٠ ألف جنيه فقط ."

تخيلت خللا بعويناتى أو عمىً بعينىّ أو خطأً فى العنوان أو خطأً فى الصحيفة، أقلب الأوراق كى أصل إلى أصل الخطأ لكن العنوان يواجهنى ليخترق عينىّ طلقتا رصاص من المحجرين إلى أعمق خلايا المخ : أرض فندق ماريوت تساوى ٩٠٠ مليون جنيه وتم التقييم بـ ٧٠٠ ألف جنيه فقط .

لعل الخطأ فى العنوان ولعل الرقم الأول ٩٠٠ ألف جنيــه أو أن الثانى ٧٠٠ مليون جنيه، لكن محمد سلامة لايدع للشك مجالا وهو يكتب فى تفاصيل الخبر : طلب بنك الاستثمار القومى بضرورة الالتزام بالتقييم الاقتصادى وفقا لأسعار السوق الحالية وذلك عند إعادة تقييم أصول شركات قطاع الأعمال العام،. . . . .، كذلك تم تقييم مساحة فندق ماريوت بالقاهرة والتى تتجاوز ١٤ فدانا بقيمة إجمالية ٧٠٠ ألف جنيه مع أن سعر المتر المربع بهذه المنطقة لا يقل حاليا عن ١٥ ألف جنيه لتصل قيمة مساحة أرض الفندق فقط دون المنشآت إلى ٩٠٠ مليون جنيه، أى ما يعادل ١٢٠٠ ضعف السعر المقرر لها .

أقرأ الخبر مرة أخرى، و أعيد قراءته .

يا أجيالا تأتى بعد مائة عام و ألف عام وعشرة آلاف عام، حدث هذا فى مصر، فى العهد الذى كان شعاره أن الكفن بلا جيوب ، حدث هذا. وهذا هو ماكتشف، ماكشفته صحيفة تابعة للنظام ومعبرة عنه، وقد تصلون فى أيامكم إلى أنها لم تكشفه نشدانا للحقيقة ولا سعيا خلف الطهارة ولا من أجل الوطن، بل لأن لصين اختلفا، وانحازت هى إلى أحدهما دون الآخر .

وقد تضحكون أيضا لغفلتنا، لأننا لم نكتشف إلا ما كشفوه لنا، ولعل البيانات تكون أمامكم أيامها كاملة : من سرق وكم سرق ومم سرق . لقد كشفوا لنا عن مليار واحد، وأدنى تقدير للأموال المهربة للخارج كان يتجاوز الأربعماة مليار جنيه، تقديرات أخرى كانت تتجاوز ضعف هذا المبلغ .

وربما تصلح هذه الواقعة كنموذج لدراسة حالة تخبط الأحزاب والهيئات فى بلادنا، فلقد اتخذ بعض كتاب صحيفة الوفد على سبيل المثال موقفا عدائيا شديد الضراوة ضد القطاع العام لمجرد أنه ينتمى إلى جمال عبد الناصر، وبغض النظر عن عدم الموضوعية، فلنفترض أن كل ما قالته الوفد عن القطاع العام صحيح، فهل كان من مصلحة الأمة أن تناول الوفد للصوص الأمة معاول يثقبون بها الجدار لينفذوا إلى داخل البيت ليسرقوه، لقد أعمت الكراهية الوفد وقطاعات أخرى عديدة، وكان يمكن أن يكونوا على صواب -

ولو من وجهة نظرهم – لو أن القطاع العام عاد بعد نضالهم ضده إلى الأمة أو حتى إلى الأفراد، لماذا لم تتخيل الوفد أنه سينهب وهو مهما كان ثروة للأمة، ولقد أدركت الوفد هذه الحقيقة أخيرا، وراح كتابها يهاجمون ما يحدث، لقد فهموا أخيرا، لكنهم تأخروا فى الفهم كثيرا جدا، عشرين سنة، وعندما فهموا، كان معظم القطاع العام قد بيع فعلا، بعد أن أثمرت معاولهم فى هدمه، ولو أنهم أدركوا فى الوقت المناسب، وانضموا إلى باقى فئات الأمة فى معارضة ما يحدث، ربما ، كانوا يستطيعون تقليص حجم الكارثة.

نفس الأمر ينطبق على مواقفنا جميعا...

لقد كان موقفى من قضية القطاع العام يتلخص فى نقطتين:

* أننى أدين وألوم طريقة إدارته وأرى ضرورة تطويرها.

* أننى أرفض بيعه فى الظروف السياسية والاجتماعيةوالأمنية التى نعيشها، ظروف تزوير الانتخابات والقهر وافتقاد بعض المسئولين لا لمجرد الحصافة والوطنية بل لمجرد المشروعية.

كنت واعيا بمشاكله وقصوره، لكننى كنت أدرك أن المنادين والمخططن لبيعه يكررون تلك القصة التى درسناها صغارا عن أرنبين اختلفا حول تقسيم قطعة جبن فاحتكما إلى الثعلب فالتهم الجبن جميعا.

كنت أرى الثعالب والكلاب والأفاعى والضباع يتلمظون فى انتظار الوليمة، وحاولنا أن نجعل الآخرين يرون ما نرى، فلماذا لم يروْا!!.

لو اختلفت الظروف، لو أن لدينا مجلس شعب غير مزورة انتخاباته، ونظام لا يبطش بالأخيار ويحتفى بالأشرار ويعينهم محافظين ووزراء وقادة، ولو لم يكن أبناء كبار المسئولين ينهبون الوطن، لو لم يكن كل ذلك، ربما ما عارضت بيعه، لأننى كنت أدرك أن الفساد قد تمكن منه حتى ليصعب إصلاحه. لكن أن أساهم فى إضاعته دون ثمن تقريبا، فتلك عين الحماقة.

ها قد بيع القطاع العام أو أوشك، فلماذا نظن أن فرص بيعه

أفضل، أن ثمنه الحقيقى ١٢٠٠ مرة مثل الزمن الذى سيباع فعلا به.

لشدما ظلمنا عصر الخديوى اسماعيل، أكثر من مائة عام وما تزال منجزاته وكان الدين ٩٠ مليون جنيه .

بعد مائة عام ترى ماذا يبقى من منجزات هذا العصر .

لكن محاربى الإرهاب يقولون أن مصر أقل بلاد العالم فسادا .

تعالوا نتحاسب : كم لكم من هذه المليارات فى الخارج وكم للإرهابيين .

ولو أن الإرهابيين لم يدمروا موسم السياحة هذا العام، كم من إيراده كان سيصب فى الاقتصاد الوطنى وكم كان سيهرب

الإرهابيون فى إيطاليا، الأصوليون أعداء الحضارة والتقدم، اكتشفوا فساد جهاز الحكم الإيطالى كله، وسقطت الثمار العفنة بعد صراع طويل ومرير .

لقد هللنا كثيرا لسفر مسئول إيطالى إلى السودان ليبحث قضية رشوة لمسئول إيطالى .

هللنا كثيرا .

إيطاليا .

يا إلهى .

لقد بح صوت حلمى مراد، وهو يحذر من إهدار المليارات فى قطاع البترول، و الآن أذكر أن معظم تعاملات قطاع البترول كانت مع إيطاليا .

ولقد بح أيضا صوت نعمات أحمد فؤاد، قلب مصر الجياش بالألم، النيل والهرم، بح وهى تستصرخ أى شريف فى هذا الوطن أن يتصدى لما يحدث فى وزارة الثقافة من إهدار لمئات الملايين فى تعاملات تم بعضها مع شركة مواسير لترميم آثار مصر، وبالصدفة — البريئة - أيضا كان جل تعامل

وزارة الثقافة مع الإيطاليين وكانت شركة المواسير إيطالية .

يامعشرالقراء: أنا لست حزينا من أجل جمال حمدان، أنا أحسده.

أحسده لأنه لم يعد يشعر بالعار والقهر مثلى حين أعايش كل هذا ولا أستطيع أن أفعل شيئا .

أسال نفسى : ترى فيم سيكتب رؤساء التحرير مقالاتهم فى الأيام القادمة، لا يمكن بالطبع أن يعلقوا على خبر مثل هذا، رغم أن ذلك من صميم وظيفتهم ، ولا يمكن أن يرسلوا المخبرين الصحفيين ليأتوا لهم بالمزيد من التفاصيل كى يفضحوا اللص مع أن تلك أمانتهم، لكنهم لن يكتبوا فى أى من ذلك كما لم يكتبوا عن مريض القلب ولا عن بنت الدكتور شعلان ولا على التعذيب، فى أى اتجاه سيكتبون إذن، أى معنى عزيز سيُدَمَّرُ على أيديهم و أقلامهم، و أى قيمة نبيلة ستُطعن،و أى شرف سيُلوث، و أى حقيقة ستُهدر و أى حق سيُنكر، و أى وحدة ستُفتت و أى انقسام سيكرَّس، و أى فتنة ستُشعل، و أى منافق سيُسيد، و أى سيد سيُلقى بالروث على رأسه .

هل سيتحدثون عن الخمسين جنيها التى يدفعها البشير للإرهابى مقابل حياته، أم عن تأثير الإرهابيين الجسيم على اقتصاديات الوطن العظيم .

خسىء الظالمون . خسئوا كافة .

بعد أيام كانت الأهرام تنشر نفس الخبر، لكن بعد إضافة مائة مليون اخرى، ليصبح الثمن الحقيقى مليارا وليس ٩٠٠ مليون فقط .

ثم يأتى من يستعدى الناس على الإرهاب الذى يضيع إيرادات السياحة، الإيرادات ضائعة وجد الإرهاب أم لم يوجد، أو على الأحرى، إن السبب الرئيسى فى تقلصات المجتمع الرافضة العنيفة التى يسمونها إرهابا ليس إلا رد فعل، لا على تدمير اقتصاديات الوطن فقط بل ووجوده أيضا، فالسلطة هى التى تمارس الإرهاب دفاعا عن مكاسبها الحرام .

لم أكمل بعد ماحدث لمريض القلب الذى قتله الباشا الملازم الأول، لقد اختصرت فى الرواية، لا لظروف المساحة فقط بل لأنه كان ألما أفدح من قدرتى على مواصلة مكابدته، فالباشا الجزار لم يقتل مريض القلب فى الليلة الأولى، بل-فقط- عذبه عذابا مبرحا، ثم ذهبوا به إلى بيته كتلة مهشمة، وبالرغم من ذلك كان مصرا أن يذهب إلى كشك الخبز فى اليوم التالى لأن هناك أفواها جائعة تحتاج إلى الجنيهين، أجره، جنيهين يا ابراهيم سعدة ويا عبد العظيم رمضان ويا سمير رجب ويا إبراهيم نافع وليس ٩٠٠ مليون جنيه، جنيهين، و أصرت الأسرة على عدم ذهابه، ولم يرضخ لهم برغم عجزه و إعيائه إلا حين حذروه بأن الضابط لن يتركه، ثم أتى من يقنعه بالذهاب للاعتذار للضابط، فذهب، كيف كان قلب أمه يخفق عندما ذهب، كيف كانت ارتجافة يديها و اغروراق الدموع فى عينيها، وكيف حاولت أن تخفى عنه تهدج صوتها، تلعثم الحروف على لسانها، كيف استطاعت أن تخفى عنه دبيب الخطر فى قلبها، فيم كانت تفكر جالسة فى انتظاره، وهى تدعو الله أن يحن قلب الجزار عليه، ماذا فعلت حين تأخر عنها، حين أنبأها بالكارثة قلبها، وفى اللحظة، تمام اللحظة التى فاضت فيها روحه، ألم تعرج عليها، ترى هل استغاث بها، هل كان اسمها هو كلمته الأخيرة التى غرقت فى الزبد الذى فاض والأمل الذى غاض .

هل يكفى اعتذار الباشا الضابط .

والباشا المحافظ .

والباشا الوزير .

والباشا رئيس الوزراء .

بل هل كان يكفى أن يعتذر الرئيس نفسه .

لكن لا أحد اعتذر، والإرهابيون الذين انفجروا من الغضب، فأطلقوا صيحات الاحتجاج، فردت عليهم الشرطة بإطلاق الرصاص، فحرقوا المدينة، هؤلاء الإرهابيون هم الذين

كان عليهم أن يعتذروا و أن يدفعوا ثمن ماخربوه .

آه .

من يأتينى بقبس ضوء من حكاية فتية منقباد السبعة، لم يكمل معظمهم العشرين من عمره، حين ذهبت إليهم أرتال الشرطة لتقتلهم جميعا وهم بملابس نومهم .. لم يبق منهم أحد كى يحكى لنا ما حدث.

كانوا هاربين مطاردين مفزوعين مروعين من جهاز أمن هائل يروع الوطن كله، من واقع خبراتنا فإن معظمهم لم يفعل شيئا، معظمهم، إن لم يكونوا جميعا، فقط ثارت شبهات جهاز الأمن حولهم، ومع شيوع سياسة التصفية الجسدية هربوا إلى شقة صغيرة انزووا فيها عن العيون، لكن أرتال الشرطة ذهبت إليهم . قلوب أمهاتكم وفلذات أكباد آبائكم وقرة عيون إخوانكم و أخواتكم كيف كان مذاق الرصاص ، كيف كان طعم الموت غدرا، وهل تركوا لكم من الوقت ما يتسع لنطق الشهادتين .

لم يحك لنا أحد أيضا كيف كان انتشاء محمد عبد الحليم موسى وهو ينفذ وعيده بأن يجعل أجسادهم مصفاة بالرصاص .

والصحف أيضا لم تنقل لنا أى ريبورتاج عنهم، عن آلهم وذويهم .لم تنشر صورة أم أى واحد منهم فى الصفحة الأولى، ولم تتحدث عن فجيعتها ودعائها إلى الله أن يقتص من الظلمة، ولم تنشر الصحف أيضا تقرير الطبيب الشرعى لنعرف موعد عشائهم الأخير، وكم يوما ظلوا دون رغيف خبز، فالشوارع ملغمة والوضع خطير، ياقلب أمهاتكن يافلذات أكبادهن .

شكرا ياإبراهيم سعدة، فلم تسع إلى سبق صحفى لتقول أنكم اكتشفتم أن لهم ذيولا .

فشكرا .

شكرا ياصفوت الشريف أنت الآخر، لأنك لم تدع التليفزيون يستأجر من تدعى أنها أم لهم وأنها تطالب

بإعدامهم، فشكرا .

مرة أخرى نعود إلى الفيلم الشهير : الـغيبوبة، حين تكتشف بطلة الفيلم، أن مدير المستشفى، الرجل الكبير الذى طالما أحبته واحترمته ووثقت فيه، الرجل الذى كان يبدو ضد كل فساد بشرط أن يقيم له الآخرون الدليل على هذا الفساد و ألا يكون مجرد أقوال مرسلة، والطبيبة الشابة تحاول المستحيل لإقناعه، لجمع الأدلة كى يقتنع، لكنه فى كل مرة ينظر لها بحنان أبوى مفندا شكوكها منكرا لها،وفجأة، كالصاعقة تنقض الكارثة لتكتشف أنه هو رئيس العصابة، عصابة تبيع الأعضاء البشرية الحية بعد قتل أصحابها . وأنه طيلة الفيلم يتشدق بالمبادىء والمثل، بعدم قذف الآخرين إلا بالحق، بعدم اتهامهم إلا بدليل، وعندما يدرك أنها اكتشفته، يدخلها عنوة إلى غرفة العمليات مخططا للتخلص منها ببيع اعضاها، ثم تركها فى غيبوبة حتى الموت .

لايمكن أن ينتشر كل هذا التعذيب وكل هذا القهر وكل هذا الفساد إلا لإخفاء جريمة بيع الوطن، تفكيكه حيا، وبيعه عضوا عضوا .

جرس المزاد يدق فمن يشترى ؟.

فلسطين للبيع .!!

نفدت الصفقة .

العراق للبيع .!!

نفدت الصفقة .

الصومال للبيع .!!

نفدت الصفقة .

البوسنة والهرسك للبيع، تم الذبح والتجهيز، وكل عضو معروض الآن فمن يشترى ، ممنوع تدخل الكلاب والعرب، ولا حتى أمريكا إلا من وراء ستار .

السودان للبيع .

إيران للبيع .

أنا النخاس، لا نخاس غيرى .

دول البترول بيعت بالفعل فلا أحد يزايد، لا يخدعنكم أحد ببيع مابيع .

والجزائر أيضا وتونس واليمن، تمت الصفقات ولم يبق إلا التسليم .

والآن : من يشترى الكرامة، من يشترى التاريخ، والمجد والحلم، والهرم وأبا الهول، والنيل والقناة وسيناء والوادى الجديد، من يشترى جماجم الشهداء وجامع عمرو، من يشترى أفلوطين والليث بن سعد، من يشترى حطين و عين جالوت، من يشترى الغبراء والسماء والهواء، من يشترى عزيز قوم ذل، من يشترى أول دولة عظمى فى التاريخ، و أطول حضارة فى التاريخ، و أول من وحد الله فى الحضارة المكتوبة، من يشترى رفات عشرة آلاف شهيد، مائة ألف شهيد، مليون شهيد، ملايين ملايين. من يشترى الأزهر والمقطم وعتاقة والطور، من يشترى رفات حسن البنا و سعد زغلول ومصطفى النحاس وجمال عبد الناصر وخالد الاسلامبولى وسليمان خاطر وسعد إدريس حلاوة، من يشترى أحمد عرابى، من يشترى السد العالى، ومصانع الحديد والصلب ومصانع حلوان، من يشترى مقام الحسين ، والمرسى أبو العباس والسيد البدوى، من يشترى شجرة مريم وسانت كاترين، من يشترى مصانع الطائرات ليعطينا مصنعا للبيبسى كولا، ومصانع الدبابات ليعطينا مصنعا للكاراتيه والبم بم، من يشترى الدأب والعلم والإصرار ويعطينا ورقة يانصيب نعلم منذ البداية أنها مضروبة. من يشترى انذباحة القلب وانسحاق الروح فى عام ٦٧ بالإيريال الطبق . من يستبدل نصر ٧٣ بكومة كونتالوب وطبق فراولة، من يبيع محمد عبده مقابل كوهين واحمد حسين مقابل رابين .

أبيع .

أبيع ضميرى، وأهلي، وعشيرتى، وقومي، ووطنى، وأوطانى، ودينى،وتاريخى،وماضىَّ، وحاضرى، ومستقبلى . . . . بأجر زهيد . . . . . فمن يشترى .أبيع . . . . . . من يشترى .

و . . . و . . . و . . .

تتساءلون لماذا يبكي النخاس الآن ؟!

لماذا يبدو عليه الضيق والشرود والتوتر فيبدو غير مقنع، يحاول التغطية بكلمة :"أنا موش فاهم.. "، و لماذا يتلعثم ؟!

لأنه لم يبق إلا البيعة الأخيرة .

بيع كل شىء ولم يبق إلا البيعة الأخيرة .

لم يبق إلا أمه .

وبعد أن يبيع أمه يعلم جيدا أنهم سيقتلونه .

لم يكن له من عمل إلا عمل النخاس، لم يَجِدْ شيئا آخر، لم يجِدْ شيئا آخر، لم يسمحوا له بشىء آخر .

لذلك سيبيع أمه ثم يموت .

لعل القارىء يلاحظ كما لاحظت أنا على نفسى أننى أؤجل مناقشة موضوع الإرهاب يومابعد يوم وشهرا بعد شهر وصفحة بعد صفحة وسطرا بعد سطر، و أننى أجد نفسى عزوفا عن الدخول فيه لأسباب كثيرة جدا، أولها هو أن مجرد طرحه على ساحة العمل الوطنى والسياسى الآن، كبديل للقضايا الأخرى التى كان يجب أن نتفرغ لها دليل على سوء نية وسوء قصد أحرص ألا أنجذب إليه، مدركا أنهم كنشالي الموالد يتصنعون هذه المعارك الجانبية كي يتمكنوا من سرقتنا في النهاية، وعندما يكون مافى عهدتنا، رما استؤمنا عليه، ما سيسرق هو الوطن، فلا مجال لهذا العبث .

الإرهاب، كل الجرائد، وكل المجلات، وكل الساسة، وكل

الحكام،وكل المسئولين، والمسموع، والمرئى، لا حديث لها إلا عن الإرهاب، ومن المحيط إلى الخليج إلى المحيط فإن مصر هى حامية العالم العربى من الإرهاب، من يحمينا إذن من إسرائيل وأمريكا .

من يحمى أطفالنا من البيع فى سوق النخاسة وبناتنا من أن يحدث لهن ماحدث لبنات البوسنة والهرسك حين يستقر فى رحم كل منهن نطفة صهيونى أو كلب.*

إن كان الكل قد شغلوا بالإرهاب هكذا فمن إذن لقضايا الوطن، من لقضايا الصناعة والتجارة والاقتصاد والزراعة والسياحة - لا الدعارة - والتعليم والحرية والخير والنماء .

من يحمى قضية السودان من التدويل، وليبيا من عصف أكثر الحضارات إجراما فى التاريخ وبطشا، والعراق من الحصار والذبول والسقوط والموت، والأيدى العابثة وهى تعبث فى الجسد العربى عبثَ فاجر فى جسد مستباح.

مَنْ للتصدى لمخططات إسرائيل فى المنطقة ؟.

يوسف والى !!

لطالما أرعبنى ما يُقال عن إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، فى سذاجتى كنت أحيانا أتساءل : أى جزء بالضبط من النيل يقصدون ؟.. هل هو فرع دمياط فيتركون لنا الدلتا، أم فرع رشيد أيضا وحتى بحيرة قارون، فإن كان ذلك فإلى أى محافظة من محافظات الصعيد تصل أطماعهم، يا لسذاجتى، يا لغفلتى، إنهم عندما أرادو الفرات لم يريدوه من مجرد عراق مهشمة بل أرادوه من منابعه فى تركيا، وعندما يريدون النيل أيضا يريدونه من منابعه، من الحبشة والصومال مرورا بالسودان وانتهاء بمصر، وليس ذلك فقط، لأن من يسيطر على هذه المنطقة الشاسعة لن يستطيع أن يكف شراهته عن ابتلاع الباقى .

ياحمقى : إسرائيل تريد أن ترث ملك دمشق وملك

* كان الصرب يلقحون أرحام الفتيات المسلمات المغتصبات بمنى الكلاب.

بغداد وملك القاهرة وإسلامبول التى حوروها إلى اسطمبول حتى لا تجرح حروف كلمة الإسلام آذانهم، كل ماسيطرت عليه الإمبراطورية العثمانية والفاطمية والعباسية والأموية، إسرائيل تريد أن تكون لها الخلافة، لا من المحيط إلى الخليج بل من الصين حتى جبل طارق، ومن الجمهوريات الإسلامية حتى وسط أفريقيا. إسرائيل تريد ذلك، والعصا تنهال على الحمار والجزرة تتراقص أمامه وهو يغذ السير لكنه لا يفهم أبدا لماذا لا يطولها . لن تطولها قط .

عند هذا الحد يكون انشغالنا بالحديث عن الإرهاب هو السبب فيه، هو دافعه ومبرره .

فى زحام الموالد كلما سمعت ضجيج مشاجرة تحسست جيبى خوفا من النشال المتربص .

وفى زحام السياسة كلما رأيت ضجيج التركيز على قضية من القضايا تحسست رأسى خوفا على عقلى، خوفا من نشله، خداعه، تخديره حتى لتمر علىّ قضايا الوطن بعد ذلك فلا أملك إلا ألا أفهم.!!

كان هذا سببا فى نكوصى عن الحديث عنه والدخول فى تفاصيله.

أجل نحن ضد الإرهاب بكل مانملك ونستطيع، ضد الإرهاب كله لا الموجه منه إلى ذواتنا فقط .

لكننا عن انخداعات وخيبات آمال كثيرة لا نحسن الظن بكم، لذلك نشك فى عمل السوء تحت كل راية تحض على الفضيلة .

واللص يصيح: "امسك حرامى" كى يستطيع فى الزياط والهرج أن يسرق، والنخاس يحرض ويصيح :"إمسك إرهابى"كى يستطيع فى الزحام أن يبيع .

حين سئلت لماذا لم تكتب عن الإرهاب أجبت أننى من فصيل من السباع لايطارد فريسة تنبح عليها الكلاب ولا أن

تنهش ضحية تطاردها الذئاب.

كنت أدرك أننا نمر مرة أخرى بحمى مسعورة حفل تاريخنا بأمثالها دائما قبيل الكوارث والمصائب والنوازل، حمي مسعورة وحملة موتورة، كحملة يزيد على الحسين، و لَعْن عليٍ رضى الله عنه على المنابر مايقرب من سبعين عاما، حيث استمر اللعن جزءا ثابتا فى خطبة الجمعة حتى رفعه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ليضع مكانه الآية القرآنية :"إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر " . . . . واستمرت هذه الآية فى نفس المكان حتى اليوم، ربما لتذكرنا، بأن لعن عليٍّ لم يتوقف، و أنه بصورة أو بأخرى مستمر، فى المعتقلات مستمر، فى أقسام الشرطة مستمر، فى الإذاعة والتليفزيون وفى المجلسين كما فى ثالثهما و أنه مستمر أيضا فى حملة مباحث أمن الدولة وكتاب أمن الدولة وفقهاء أمن الدولة، فقهاء السلطة و الشرطة على القائلين أحد أحد .

الآن آن الأوان كى أكتب عن الإرهاب، لا لأن النار انطفأت ولا لأن الضريم خمد، لكن لأن هناك من يؤجج النار وينفخ فى اللهيب ويصب عليها نفطا لم يُجْد العرب إلا فى إشعال نار العداوة والبغضاء بين العرب . لذلك حق علينا أن نقتحم النار لنحاول إنقاذ أهلينا منها، أبناءنا وبناتنا و إخوتنا، من الجماعات ومن رجال الشرطة أيضا .

أجل . . . سيظل فتية منقباد دمعة مكنونة فى القلب لا تجف ولا تغيض، و الآخرون أيضا - والله - دمعة، ولقد حزنت من أجل المحجوب ودمعت عينى على فرج فودة واشتعلت غضبا لمقتل اللواء محمد إمام بصورة إجرامية لم أسمع لها مثيلا حين جرد من النصف الأسفل من ملابسه(؟؟!!)،وتركه اللواء فادى حبشى - الذى ازداد شهرة فى قضية لوسى أرتين *- تركه ينزف حتى الموت .

× لوسى أرتين، فاتنة قويسنا، المرأة الحديدية، بولين، أسماء ترددت بعنف وقوة فى سماء السياسة فى بلادنا، الأولى منهم، أشيع أنها السبب فى عزل المشير أبوغزالة، ولن أستطيع أن أكتب عنها ولا عن الأخريات، فكل ما يمكن أن أقوله يقع تحت طائلة القانون.

رجال الشرطة أيضا دمعة، ومهما حدث فهم أبناؤنا وإخوتنا،وعلينا إنقاذهم مرات ومرات، مرة من أنفسهم،ومرة من رؤساهم، ومرة من مرؤوسيهم، ومرة من أبنائنا الآخرين أبناء الجماعات، ومرات لا حصر لها ولا عد من الشيطان .

إلا أننى أرى قبل الحديث عن الإرهاب أن أتناول موضوعا سيفيدنا بالقطع فى ثنايا النقاش والحوار والتحليل والتأصيل بعد ذلك .

فبعد محاولة اغتيال صفوت الشريف كتب إبراهيم سعدة أنه كان من رأى البعض أن على صفوت الشريف أن يعيد النظر فيما يقدمه الإعلام المسموع والمرئى كرد فعل مناسب للإرهاب، ولم يكتفوا بهذه النصيحة و إنما اقترحوا على وزير الإعلام أن يأمر بإلغاء كافة البرامج الدينية ورفعها من خريطة البث الإذاعى والتليفزيونى لأن هذه البرامج هى المسئولة -فى رأيهم- عن انتشار ظاهرة الإرهاب والتطرف فى المجتمع المصرى. انتهى حديث ابراهيم سعدة، وهو مانحمده عليه رغم سوء ظننا به، واعتقادنا أنه ماقصد بالاعتراض إلا المن، إلا أنه فى الوقت ذاته قد فعل بهم مثلما فعل صلاح النحيف بزكى بدر، إذ ضبطهم متلبسين بالقول الفاحش، وهو ماداأبوا على إنكاره والتبرؤ منه، الآن نستطيع أن نحدثهم،مدركين انهم من الصفوة العليا، القادرين على محاورة الوزير الشهير فور معجزة نجاته .

تلك القلة الشاردة التى انفطمت عن الوطن فانفصمت منه فانفصلت عنه فانقلبت عليه، بعدت عنه بمشاعرها و أحلامها، مثل اسماعيل بطل رائعة يحيى حقى "قنديل أم هاشم"، وما من مثل هؤلاء نحذر ونخاف بل عليهم نحزن، واثقين أنهم سيصلون إلى مرفا الرجاء يعد عبور بحار اليأس، الذين نخاف منهم، نبغضهم -فى الله- من الأعماق لأنهم يبطنون غير ما يعلنون، ويرون أن الإسلام قد انتهت دورته ودالت دولته، إلا أننا كشعوب متخلفة لا نحتمل مواجهة الحقائق، لذلك فهم يجرعونها لنا قطرة قطرة، مع زملاء آخرين لهم فى

الغرب، لا، ليسوا زملاء بل أساتذة، وقد أقنعهم هؤلاء الأساتذة بخلع الدين عن الدنيا، لكن أصحابنا الحمقى، بمجرد أن يخلعوا عن الريادة ديننا سيثبت الآخرون دينهم .

ماذا يمكن أن تفعلوا للغرب يادعاة التحضر والتفرنج، ياعبيد الغرب ياحمقى، ماذا تريدون، نفصل الدين عن الدولة، ليكن، نتوقف عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، نتوقف، نبطل الصلاة فى الجامع الأزهر ونحوله إلى متحف، نبطل، نلغى الحج، نلغى، نحرم بالدستور تدخل رجال الدين فى شئون الدولة، ونلزمهم بخلع زيهم التقليدى قبل أن يغادروا المسجد ليلبس كل شيخ قبعة، لنلزم وليلبس، نتخلى عن هموم العالم العربى والإسلامى كله، نعاديه ونحاربه وتكون إسرائيل ولينا الحميم وأمريكا إلهنا الذى فى الأرض، هل تريدون شيئا آخر يادعاة التفرنج والتحضر، هيا اسألوا شيطانكم، اللغة العربية مرتبطة بالتخلف، فلنغيرها ، لنعد إلى القبطية أو الهيروغليفية، وإليها نترجم القرآن وبها ينطلق الأذان من بقايا مآذننا، مالكم تترددون الآن فى إملاء مطالبكم الأخيرة، قولوا ياكلاب جهنم، الحج أيضاً عادة متخلفة علينا أن نوقفه، ليكن . لنعلق المشانق لمن يعترض ولنحكم بالإعدام على كل الإرهابيين .

انطقوا بباقى ماتريدون، أن نعدل الدستور لنلغى فيه المواد القائلة بأن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة و أن الشريعة من مصادر التشريع، أن نلغى القسم بالله أمام القضاء وعند تولى المناصب العليا لنكتفى بالقسم بشرفنا، ماذا تريدون أن نغير من مواد القانون أيضا، أن نحرم تعدد الزوجات تحريما باتا ونسلب الزوج حق الطلاق ونعدل قواعد الميراث حتى نسوى بين الولد والبنت و نبيح إباحة مطلقة الزواج بغض النظر عن اختلاف الدين، إباحة مطلقة للرجل كما للمرأة، أن نلغى تماما تدريس الدين فى المدارس، و أن نرغم الفتيات على مراقصة الشباب بأمر الرئيس نفسه وفى حضوره، و أن نقيم - خاصة فى نهار رمضان - مآدب تقدم

فيها الخمر .

هانحن أولاء ندعى أننا وافقناكم على كل ماتريدون، فبم تعدوننا، ماهو المستقبل الذى تدعوننا إليه، أهو مستقبل أفضل من مستقبل تركيا، ياكلاب جهنم لقد فعلت تركيا كل ذلك فهل ارتقت، هل تخلصت من التخلف، هل قبلوها حتى فى سوقهم المشتركة، أم رفضوها، ولِمَ رفضوها، لقد صرحوا هم بالحقيقة، لم يخشوا فلم نعد نخيف، ولم يخجلوا فلم نعد نخجل، وكيف يخافون أو يخجلون ولسنا - فى أعينهم - سوى قطعان من الهنود الحمر أو حتى من الجاموس الوحشى هم على وشك القضاء عليه .

لو فعلنا كل هذا الذى عرضناه عليكم وهو يفوق بكثير ماطالبتم به حتى الآن لكنه أقل مما تريدون فعلا، لكن، هل لو فعلناه يرضى الغرب عنا، يحترمنا، هل سينتهى تخلفنا بعد كل هذا، أم أنكم ياحمقى لا ترون أبعد من أنوفكم .

وبالرغم من ذلك كله يعتبر حسين أحمد أمين أتاتورك واحدا من المائة الأعظم فى تاريخ الإسلام، لم يفعل ذلك عن جهل كما فعلت فى بواكير صباى، و إنما عن علم كامل، بل إنه يسرد معظم ما أوردناه ثم يزيد عليه، ولنقرأ له " : وطن نفسه على أن يسير بدولته فى طريق الحضارة الأوروبية دون أدنى تحرج أو نفاق أو مداراه، ودون ان يلقى نظرة واحدة إلى ماضيها أو تقاليدها، ودون ان يعبأ بفقدان تركيا لمركزها الروحى فى العالم الإسلامى، وغير الحروف العربية التى كانت تكتب بها اللغة التركية إلى الحروف اللاتينية، وترجم القرآن إلى التركية ، وصار المؤذنون منذ ذلك الحين يؤذنون بالتركية للصلاة."

ويعقب حسين أحمد أمين قائلا :

"وتوفى أتاتورك بعد حكم دام خمسة عشر عاما وقد قطعت دولته فى مجال الحضارة مايعجز غيرها عن إنجازه فى قرن أو قرنين ."

بعد ستين عاما كانت الأهرام تكتب تأبينا لتورجوت أوزوال أنه أنقذ تركيا من فساد استمر أكثر من نصف قرن، و أنه أنقذها من التمزق والخراب، فهل تريدون منا وسائل أتاتورك كى نصل إلى غاياته، من أنتم ؟ أحمقى بلغت بهم الحماقة حد الخيانة أم خونة بلغت بهم الخيانة حد الحماقة، لكن عزاءنا فيكم أنكم غير مؤثرين، لا أحد يتأثر بكم .

أما الفيجارو - وليس الإرهابيون - فقد كانت تكتب تعليقا على عودة تركيا إلى التوجه الإسلامى: " وهكذا توصلت تركيا إلى عقد سلام نهائى مع نفسها حين توصلت إلى تحديد هويتها الحقيقية لتحقيق المجد القديم والقيادة السياسية، وأكثر من هذا وذاك تعيد خوف أوروبا منها فتعود لتعاملها بالاحترام والاهتمام الذى افتقدته فى السنوات الماضية، عندما أرادت ارتداء المعطف الأوروبى ".

هل هذا هو النموذج الذى تدعوننا إليه ؟، نموذج تركيا ؟.

يا إلهى، لكم حزنت فى صباى على ما تخيلته من تمزق مشاعر شعوب إيران وتركيا إزاء حكوماتهم بسبب انفصالهم عن العالم العربى والإسلامى وعلاقتهم بالغرب و إسرائيل، ولكم انفطر قلبى من أجل مستضعف هناك تداس بالنعال والدبابات أحلامه وأهدافه ومبادئه، وكنت لا أتخيل كيف يحتملون، كيف يعيشون، الآن هل هناك من لا أعرفه يحزن من أجلى ؟.

لطالما هاجمناهم و أدناهم واحتقرناهم لأنهم يمدون إسرائيل بالبترول ويقيمون معها علاقات دبلوماسية ويعادون دمشق وبغداد والقاهرة .

الآن . . . . . . نعيش يوم نحس مستمر .

ولم نزل ظلما مثل ظلم ينالنا..
يساء إلينا ثم نؤمر بالشكر

يـا أيتـها الأصنام المكدسة . . .لا المـقـدسـة . . .

الـمـطـوسة . . . .

الـمـدنـسـة . . . . .

يا صاحبة النصال المقوسة والرايات المنكسة . . .

الـمـدفـنـسـة . . . .

هل يمكن أن تستمعي منا إلى حديث عن الإرهاب دون أن نقدم القرابين رافعين أصوات النواح والصياح والنباح بلعن الإرهابيين الكفرة الخوارج الشيعة الشيوعيين عملاء إيران وسوريا والسودان وليبيا والعراق باختلاف الأزمنة ثم عملاء الولايات المتحدة أخيرا، فهل يمكن أن تستمعي منا إلى حديث عنهم دون أن نلبس مسوح المفتشين في محاكم التفتيش لنفتي بإهدار دمهم دون محاكمة . حتى محاكم التفتيش كانت تحاكم قبل القتل والحرق، لكن محمد عبد الحليم موسى لم يلزم نفسه بذلك، وصحفنا القومية دقت الطبول للقذافي حين أفتى بقتل الإرهابيين كالكلاب دون محاكمة، لكن المستور انكشف حين استقبل الإسرائيليون زائري المسجد الأقصى من المسلمين الليبيين * الذين لا تربطها ببلادهم علاقة وهي التي عجزت عن استقبال المسيحيين

يبدو أن ما حدث كان خدعة تورط الليبيون فيها، حين أوعز إليهم أن يفعلوا ذلك على وعد بحل أزمة لوكيربي، ويُحمد لهم أنهم لم يعودوا إلى مثلها.

المصريين التى تربطها ببلادهم كل علاقة . ورحت ألوك مرارة حسرة علقمية وأنا أذكر كيف رفضت من أعماقى تسليم مواطنين ليبيين إلى امريكا، كيف تكون مشاعرى وليبيا كلها تُسلّم . أبهذا تسلّم .

ليس الخلاف بيننا وبين الآخرين خلاف منطق ولا وجهات نظر ولا تباين رؤى . و لقد كان مفيدا دائما -وسيظل- أن تتصارع الآراء وتتقارع الحجج، و أن يتنافس المنطق والمنطق ومن شرارات الاحتكاك يتولد منطق أسمى وينبثق نور أشد، كل ذلك صحيح أجل، وشرطه الوحيد أن نواجه المنطق بالمنطق و ليس باللامنطق، ليس بالسفاهة والتفاهة والكذب، ليس بالقدرة الهائلة على كتابة مئات الصفحات بلا معنى وبلا حقيقة، أو على الأحرى اعتداء على المعنى وعلى الحقيقة، وليس أيضا بالقدرة المذهلة على الحديث الدائم المستمر دون أن يقولوا شيئا، لاشيء سوى لسان يتحرك وشفاه تنطبق وتنفرج وحنجرة تصوت وكير فى التجويف الصدرى ينفخ هواء . وليس هناك أحد منطقه صواب كله سوى الرسل، ولا يكاد يوجد منطق لا يمكن مواجهته، لكن المواجهة أمر والهزل أمر آخر، وقد نحترم اشد الاحترام منطق من نبغضهم أشد البغض، ومن منا لا يتمنى ان يكون منطق حكامنا معنا كمنطق شامير ورابين مع بنى إسرائيل، و أن يكون منطق كتابنا كمنطق كتابهم.

أجل . . . إن الذى أعز الإسرائليين بشامير والأمريكيين بكلينتون والإنجليز بميجور قد أذلنا بولاة امورنا .ولاة أمور لا منطق لهم ولا قلب، ليتنا نستطيع التفاهم والتواصل معهم، لكنهم أصنام مكدسة .فهل من المسموح أن نقف لا لنؤيد بل لنعترض ؟. وهل من المطروح لأى مفكر أن يأتى أمامك - أيتها الأصنام المسيسة - إلا ليتلو التراتيل التى يلقنها له ملقنوك، هل مسموح له بغير ذلك، أن يطرح مثلا وجهة نظر أخرى، لن نَبالغ فى التمنى حتى نقول وجهة نظر مناقضة، بل فقط، وجهة نظر موضوعية محايدة، تراعى حدود الله ومصالح الوطن، فهل

مسموح بشيء من ذلك، أم أنه لا مناص - إذا أردنا لكلامنا أن تسمعوه - من الابتداء بطلب ذبح إرهابي دون أي احتمال للموافقة على افتدائه ولو حتى بذبح عظيم. فإن كان أي مفكر يبدأ بذلك فما الحاجة لباقي حديثه، لقد حكم، والسلطة لم تنتظر حكمه - ولا هي في حاجة إليه - فقد نفذت الحكم قبل كتابة صحفيي أمن الدولة، وهي تحتاج فقط إلى التبرير، إلى ديوث يرى العار والدم فيغمض عينيه كي يقسم أنه لم ير، لم يسمع، لم يعلم، لم يقل له أحد وما اتصل به خبر. لم تنتظر السلطة الحكم بل لجأت إلى التصفية الجماعية. إن كل عملية تجري الآن - في عهد الوزير الجديد - للقبض على بعض أعضاء الجماعات ولا تنتهي بجعل أجسادهم مصافي بالرصاص، كل عملية من هذا النوع هي إدانة فادحة لما حدث في فترات مضت، كان يمكن إذن ألا تراق كل هذه الدماء التي أريقت، فقط لأن "حجاجا" ابتعد توقفت إراقة الدماء، فهل كان الحجاج هو الفاعل أم نائبا عنه، و إذا كان الناس في عهده قتلوا دون محاكمة، فلماذا لا نحاكم الآن المسئول عن قتلهم، لا توخيا للعدل فما توخيتموه قط، ولا رجوعا إلى الحق فما رجعتم إليه أبدا، و إنما لمجرد إسباغ مظاهر الحكم الديموقراطي على نظام حكمكم أمام العالم الخارجي، ثم لكي تقنعونا أيضا أنكم مازلتم تظنون أنكم بشر يخطيء ويصيب. إن كنتم أبرياء لم لا تفعلون ؟!. لكن البريء جريء والخائن خائف. ومنكم سنوصم بالجحود والنكران إن لم نعبر عن أقصى درجات الامتنان للوزير الجديد الذي لا يقتل الناس بالشبهات، الذي لا يجعل أجسادهم مصفاة بالرصاص، دون محاكمة، حتى ولو كانت عسكرية. فاشهدي يامصر واشهد ياعالم واشهد ياتاريخ أن حكومتنا تستحق الشكر والامتنان والإشادة لأن وزيرها الجديد لا يجعل أجساد الناس مصفاة بالرصاص دون محاكمة. لمجرد ذلك. وكأنما كان الجبرتي يصف مايحدث في عصرنا وهو يقارن بين محاكمة سليمان الحلبي على يد الفرنسيين بما حدث بعده من المصريين مع المصريين، فيصف كيف أن الفرنسيين حين قبضو على سليمان الحلبي الذي

قتل قائدهم الأعلى، ووجدوا الخنجر فى يده، وملابسه ملوثة بالدماء، ثم أنه اعترف، وأرشد عن شركائه، وبالرغم من ذلك كله لم يقتلوه على الفور بل رتبوا لهم محاكمة وأخذوا يكررون عليهم السؤال تلو السؤال، ثم يضيف قائلا والمرارة طافحة ": . . وهذا بخلاف مارأيناه بعد ذلك من أوباش العساكر الذين يدعون الإسلام وقتلهم الأنفس وتجارؤهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية"".

لله درك ياجبرتى .

أوباش عساكر يدعون الإسلام يقتلون الأنفس بمجرد شهواتهم الحيوانية .

لله درك .

هل كنت تصف المماليك والأتراك والجراكسة، أم كان لدى زمانكم أنتم أيضا مباحث أمن الدولة والأمن المركزى وفرق مكافحة الإرهاب .

لقد أجلت الحديث عن الإرهاب طيلة الفترة الماضية، وكنت أود الانتظار حتى يمكن الحديث بموضوعية، بعقل وبمنطق بعيدا عن سياط العذاب المنهالة علينا من وسائل الإعلام وأفواه المسئولين، كنت أود الانتظار، ليس مجرد اتقاء لاتهامى بأننى أنا الآخر إرهابى، أو ممن سموهم الجماعات المتطرفة، رغم أن الانتماء إليهم ليس تهمة تنكر، فليسوا سباكين ولا طبالين ولا صبيان عوالم -يا أبناء الأفاعى يا فحم جهنم- ولو كانوا ما شانهم، إنما يشينكم أن تكونوا وزراء وحكاما وقادة عبدة للشيطان والأمريكان والصهاينة ولوسى أرتين، و أن تبيعوا الدين والوطن بثمن بخس .

لكن البعض عندما تعامل مع الإرهاب تعامل بأسلوب مأساوى مضحك، لم يتطور مع الزمن ولم يتعلم، أسلوب مراد بيك وابراهيم بيك حينما راحا يواجهان مدافع نابليون و أحدث جيوش العالم تحت قيادته بالخيل والرماح . ولقد كانت قرارات السلطة وتصرفاتها هى السبب الرئيسى -لا أقول الوحيد-

للإرهاب،بحماقة ليس لها نظير كان كل قرار بؤرة وكانت كل سياسة مصيدة وكل اتجاه خيط جديد ينضم إلى آلاف الخيوط المتشابكة المعقدة التى حاصر النظام بها فى النهاية نفسه لا أعداءه . وبغض النظر عن الصحيح والخطأ، وعن الباطل والصواب، فقد كان إهمال تدريس الدين فى المدارس انسحابا من الدولة ترك فراغا كان من المحتم أن تملأه جهة أخرى، كما أن تحريم ممارسة العمل السياسى على الطلاب - وهم جذوة ضمير الوطن و أنقى من فيه - قد جعل هؤلاء الطلاب أنفسهم أقرب إلى جماعات تثق فيهم وتطلب عونهم من حكومة تشك فيهم وتتقى شرهم . يمكن أن نقيس على ذلك مئات التصرفات لكننا نكتفى بإيراد نماذج محدودة، علها كقطرة من مياه المحيط تجمع خواص جميع أمواهه . لقد أصدروا مثلا ضمن ثنايا قانون الإرهاب مادة تحاكم بهذا القانون الصارم كل حائز للأسلحة الآلية، وكان المقصود ردع من يسمونهم بالإرهابيين حتى لا يستعملوا هذه الأسلحة فى تعاملهم مع الشرطة، وكانت النتيجة عكس ذلك تماما، إذ أن حائزى هذه الأسلحة من غير الجماعات الدينية قد أحسوا بخطورة اقتنائها فبادروا ببيعها بأرخص الأسعار، وبادرت الجماعات إلى شرائها بـ: تراب الفلوس كما قالوا . بل لقد وصل الأمر بالفساد الذى ينخر فى السلطة إلى ماتردد عن وجود عصابات فى الشرطة والجيش تبيع السلاح . و كان سلامة احمد سلامة يقول " : . . . إن الانصراف إلى الأمن السياسى بحراسة الشخصيات والمنشآت قد أدى إلى إهمال أمن المواطن العادى إلى درجة سمحت بظهور نوعيات جديدة من جرائم الخطف والاغتصاب والسرقة . . ."

لكن إهمال أمن المواطن العادى أدى إلى نوع من السلبية والتسيب والتمرد تآكلت فى ظلالها هيبة الدولة، وكان هذا مناخا خصبا انتقل فيه البعض من عدم احترام للقانون الذى لا يطبق إلا بهوى، إلى تحد للقانون، إلى إصرار على المواجهة والتغيير . و لعل القارىء يسمح لى أن أتقمص شخصية ناصح للسلطة،ناصح موضوعى يبصرها بأخطائها، لا

يمتاز إلا بكونه عاقلا وليس مجرد مهرج يدق الطبول مؤيدا النظام عابدا سدنته مهيجا عسسه حتى يغرق مركبه فيكون أول القافزين منه إلى مركب الملك الجديد مدينا بكل مايملك من قوة ملكه السابق . ناصح أمين، وليس محرضا، يدفع نظام الحكم -الذى لا يهمه- لسحق المعارضة - التى لاتهمه - فى سبيل إعلاء كلمة الشيطان، مهما تنكر هذا الشيطان ومهما تعددت أسماؤه من حضارة الغرب إلى النظام العالمى الجديد إلى السوق الشرق أوسطية، إلى قداسة الحزب الحاكم . ناصح أمين لا يستغل الفارق بين قوة الدولة وقوة الناس العزل، الفارق الهائل الذى يغرى الدولة دائما بمزيد من الكبرياء والعنجهية والغرور . لا مجرد عدم فهم الآخرين كما يدعى أحيانا يدعى قادتهم ورؤساؤهم، ليس عدم الفهم لكن الإصرار على عدم التفاهم، لأن التفاهم يعنى اعترافك بإنسانية من أمامك، وإنسانيته تعنى إمكانية الحوار وإمكانية الحوار تعنى إمكانية العطاء والأخذ، وذلك كله قد يؤدى ولو على المدى البعيد إلى إمكانية انتقال السلطة إليه، وذلك بالضبط ما تتحاشاه الدولة . إنهم ليسوا " موش فاهمين" كما يدعون بل هم مصرون على عدم الفهم . وكان دليل الدولة فى خطاها كتّابٌ مماليكٌ أخر كالبوم وتبعتهم الدولة جاهلة أن من جعل البوم دليله كان مأواه الخراب . وكان لا بد أن يتقلص المجتمع كما دائما تقلص إزاء كل قوة قاهرة غاصبة ظالمة . وكان لا بد أن ترد الحكومات بعنف على بوادر الاعتراض . مايقرب من نصف قرن من التعذيب الحيوانى المجرم للمعتقلين السياسيين و لا أحد يتوقع رد فعل ذات يوم، سياسات خاطئة فى كل اتجاه ولا أحد يتوقع رد فعل، غباء وجهل فى استقراء الأحداث وفهم معطياتها وبحث دلالاتها وتحليل أصولها، ولا أحد يتوقع رد فعل، الكذب يسود والعطن يفوح والفهلوة تتولى ولا أحد يتوقع رد فعل . لم يفهموا حتى تغير الزمن، ففى عهد الاحتلال وحد الأمة مطلب الجلاء، وفى الحقبة الأولى من الثورة جرت محاولة - مجهضة - للبناء، فى العهد الثانى حاولوا ممارسة الدهاء أما فى العهد الثالث فقد سيطر على مجمل السلوك الغباء، إلا أنه

يتميز بالرغم من ذلك عن العهود السابقة بميزة تؤخر رد الفعل ضده، هذه الميزة : هى أن الوعى الجمعى للأمة قد أدرك أن كل عهد أسود من سابقه. مما يجعلنا ونحن نكابد ويلات هذا العهد نشفق على أنفسنا وعلى أبنائنا من عهد آت، يفضح كل موبقات هذا العهد، لا ليوقفها بل ليستر بكشفها ما يرتكبه هو من موبقات أشد. لكن هذا الوعى الجمعى كان يدرك بمرارة فشل الدولة فى كل شىء تقريبا، ومراهنة الحكام على ضعف ذاكرة الناس، كتأجل عام الرخاء الذى وعدونا به عام ٨٠ إلى أجل غير مسمى، وكنا نرى النهب فى البلاد يجرى والفساد طليق، ووعدونا كل عام بأن تتحسن الأحوال، كانت كل فترة فترة مصيرية حاسمة، وما دامت كذلك فمن الخيانة للوطن،لأمنا مصر، أن نطالب بمطالب ثانوية كتغيير الدستور ونزاهة الانتخابات ووقف التعذيب والقضاء على الفساد، ومر عام ٩٠ أسودا كما قبله وما بعده، لم يكن فيه جديد تنبهنا له، وظل قطاع عريض من الأمة يحاول إقناع نفسه بأن هذا العهد مهما كان افضل من عهد السادات، ظلوا رغم كل شىء يحاولون رغم الرموز والملامح والإشارات يحاولون، يلوون عنق الحقيقة ويحاولون، حتى أتت حرب الخليج فانهارت المحاولات وانكشفت السوءات. وراحت القلوب تنشد نازفة : رب يوم بكيت منه . . . فلما انقضى بكيت عليه. أيامها تشدقوا كثيرا بالمبادىء والمثل، وكان صعبا علينا أن نصدق أن الأخلاق تتجزأ. أن من يحمون الفساد فى الداخل يحاربونه فى الخارج، إلا أن التأكيد جاء تلو التأكيد أننا نحارب لا من أجل المال بل دفاعا عن المبادىء والمثل. وعندما أصبح هذا الدفاع لا يقنع، لأن الحقيقة انكشفت فى استمرار إذلال العراق، وتعرت فى فلسطين المحتلة، وركلتنا فى ليبيا، واغتصبتنا فى البوسنة، ولم يعد من اللائق بعد كل ذلك أن نتحدث عن المبادىء والمثل، فراح المسئولون يستعيدون عام ٩٠، يذكروننا بما لم يقولوه لنا فى حينه، أننا فى هذا العام كنا قد وصلنا إلى الإفلاس، ورفض الدائنون مزيدا من الإقراض حتى لشراء القمح.إذن : كان هذا هو سر اشتراكنا فى حرب الخليج ؟.! لكن

الحقيقة لم تنكشف لنا عندما كشفها لنا المسئول فقد كنا نعرفها قبل أن يقول. كنا نعارض بصوت عال، لكنهم أخذوا يسدون أبواب الاعتراض الشرعية ويروعون شباب الأمة ترويعا مذهلا، الشباب الذى أفرغوا مناهج تعليمه من الدين فأخذ يبحث عنها من كل منهل فأخطأ وأصاب فراحو يسومونهم العذاب لأنهم خوارج، وتجاهلوا وصف الإمام على للخوارج بأنهم قوم طلبوا الحق فأخطأوه، ووصفه لقوم معاوية - وهو قول مايزال يصلح للسلطة - أنهم قوم طلبوا الباطل فأصابوه . وكان التعذيب المجرم فى السجون مستمرا، واعتمدت سياسة التصفية الجسدية التى روعت الأمة كلها، والعالم غير العالم والدنا غير الدنا ووسائل الاتصال تغيرت وتطورت وعرف القاصى والدانى استيلاء الشرطة من القضاء وتكفلها بواجبه، وبدأت صابرا وشاتيلا تحدث فى مصر، ووضعت الشرطة بذور الحرب الأهلية بقتل الناس فى الشوارع . حتى لو ادعوا أن الجماعات المتطرفة هى التى بدأت، أنهم لم يعذبوا منهم فى السجون أحدا ولم يقتلوا فى الخفاء - قبل قتل العلن - أحدا، حتى لو كان كل ذلك صحيحا - رغم أنه بالقطع غير صحيح - فقد كان على الدولة أن تحاربهم على تطبيق القانون لا أن تنافسهم فى الخروج عليه . وتصرفت الدولة بسلطة مطلقة دون أن تدرك أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة .وقتلت الشرطة علاء محيى الدين* فى الشارع فكان الرد بالمحجوب .وبدأ النهر يتخم بالدم . وراحت السلطة بمنطق الوحش الهائج الهائل يطارد نحلة لسعته، راحت تضرب بقوة مطلقة وبطش مطلق غير مدركة أنها فى ذات اللحظة التى أهدرت فيها القانون قد أباحت لغيرها إهداره، و أنها تنازلت عن مقعد الحكم إلى مقعد الخصم . ووجد أعضاء الجماعات نقطة ضعف فى خصمهم العملاق الهائل، وهى نقطة ضعفه إزاء الخارج، تعهده للعالم بأن يحفظ الأمن والنظام لا داخل حدوده فقط بل وخارجها أيضا، نقطة الضعف

* أحد قيادات الجماعات الإسلامية، خطيب مفوه ومفكر راق، قيل أن قدرته على الإقناع كانت مزعجة للسلطة، أنذروه أنه إذا لم يعد إلى منزله فى الصعيد فإنهم سوف يقتلونه، ولم يعد، وقتلوه، رميا بالرصاص، وسط الشارع.

هى السياحة والسياح إذن، وترنح العملاق، ليصبح مثيرا للسخرية والرثاء . كم كان الغباء مضحكا حتى البكاء، والأغبياء الحمقى راحوا فى البداية كدأبهم يكذبون أو يبالغون ويهولون فى حجم الإرهاب استعداء للأمة ضد الأصوليين لا أعداء التقدم والحضارة فقط بل أعداء الدين الخوارج الكفرة، و أنهم هم رعاة الدين وحماته كفيلون بحماية الدين منهم، باستئصال شأفتهم جميعا، من أجل الدين، لكن تصريح السادة فى تل أبيب بأن إسرائيل تحمل على كاهلها قيادة الحملة ضد الخطر الذى تتعرض له الحضارة الغربية من الأصوليين الإسلاميين، وأن مصر والسعودية ضلعا مثلث هى رأسه، كشف هذا التصريح الإسرائيلى كل الدعاوى ومزق كل الحجب .كان الأمر مضحكا ومبكيا . وكان يجب التغطية على الحقيقة الفاجعة بمزيد من التهويل من خطرهم كى يبرروا للأمة كيف أنهم يتحالفون مع اليهود الصهاينة تحت إشراف الأمريكان للدفاع عن الإسلام، وصاحب ذلك جهل فاجع، حين راحوا يؤكدون أن معدلات السياحة فى ازدياد و أن السياح يتجدون الإرهاب، أسقطوا صفاتهم الشخصية من غباء وعناد على الاخرين، دون دراسة ودون تبصر، السياحة فى ازدياد، السياح يزدادون، هوب، لا سياح،أربعة مليارات دولار خسارة، كنا -لولاهم- على وشك عبور عنق الزجاجة وكانت السنوات العجاف يوشكن أن ينقضين، لكنهم جاءوا فدمروا كل خطط الحكومة الرشيدة، اضربوا إذن بمنتهى القسوة والعنف، اقتلوهم حيث ثقفتموهم، والمفتى يفتى، والمحجوب يجوب، ويتساقطون، جماعات وشرطة .
إن المجتمع يضج ويرفض والقطاع الغالب من الشرطة أيضا يضج مدركا أننا قد صدقنا حين قلنا منذ أعوام أن الشرطة تدفع إلى ثأر لا ناقة لها فيه ولا جمل، لا من أجل الوطن ولا من أجل الأغلبية ولا فى سبيل الله بل من أجل استقرار نظام فاسد. يجب أن يقول لهم أحد أن قتلاهم قد لايكونون شهداء، وأنهم إن لم يكونوا شهداء فقد يكونون فى النار، يخسرون الدنيا والآخرة، رغم كل دعاوى السلطة عن شجاعتهم، وهى دعاوى احتاجت إلى أكثر من مائة وخمسة وعشرين ألف جنيه

تدفعها الدولة لكل ضحية من الشرطة كى تدعم هذه الشجاعة، وقد أصبح هذا المبلغ نفسه مثار تناقضات وتعليقات صاخبة، عندما قارن الناس بينه وبين التعويضات التى حصل عليها ضحايا الزلازل، كما اهتزت علاقات أسرية كثيرة تحت وطأة الشكوك التى أثارها احتمال الطمع فى المبلغ الكبير ولو مقابل الحياة، وتناقلت المنتديات أخبارا، ربما بالغوا فيها، حول تجنب بعض رجال الشرطة للظهور بملابسهم الرسمية فى الشوارع، وحول تجنب البعض الآخر للظهور أصلا . وفى نفس الوقت انتشرت تحليلات عديدة تحاول تفسير استهانة أفراد الجماعات بحياتهم فيما فسره البعض بأنه رغبة فى الاستشهاد، وفسرته الحكومة بأنه من أجل خمسين جنيه . واستعاد البعض حكما مأثورة و أمثالا قديمة لتفسير ما يحدث مثل : عدا كلب صيد خلف غزال فقال الغزال لا تدركنى، قال لم، قال لأننى أعدو لنفسى و أنت تعدو لصاحبك ، ولكى نثبت وجهة نظرنا فى مسئولية الدولة عن الإرهاب فإننا نستعين بشاهد منهم : يقول أمين الحزب الوطنى فى أسيوط عن بداية الأحداث هناك بقيام الشرطة باحتجاز ٢٢ رهينة بعد أن حاصروا أحد مساجد الجمعيات الدينية، وطلبت الشرطة تسليم ستة من أعضاء الجماعة فوافقت الجماعة لكن بشرط الإفراج عن الرهائن، ورفضت الشرطة أى شروط وبدأت إطلاق النار فاستشهد - رغم الأنوف - أربعة، وبدأت المجزرة ".

اشهدى يامصر أن معظم فصائل اليسار فيك، اعتبرت طلب الإفراج عن الرهائن الأبرياء :"شروطا مسبقة"لايليق بالدولة قبولها أو الرضوخ لها .

ولم يكن هذا رأى أمين الحزب الوطنى الذى قال :

" : لماذا كنتم تريدون منى البقاء فى اسيوط بعد إطلاق النار،أكان هناك مجال بعدها للحوار ؟ ".

و قرر فهمى هويدى والأمة كلها - عدا روز اليوسف والأهالى - تصدقه،أن الجماعات لم يكن لها شروط سوى تطبيق القانون،أن يفرج عن الرهائن، وعن المعتقلين رغم أحكام

البراءة، و أن يتوقف التعذيب . لم تكن هذه شروطا و إنما وثائق إدانات للسلطة. ترى، هل أفلت منى الخيط ؟، هل خرجت على الموضوع، هل ثمة علاقة تربط مابين الإرهاب والجماعات وبين العراق وليبيا والسودان والصومال وإيران وصابرا وشاتيلا والبوسنة والهرسك هل هناك ثمة رابط، هل لمشاعر الذل والسعار والخيبة والخديعة والانهزام والانسحاق والتلاشى والاعتراض والاحتجاج والرفض ومحاولة المقاومة لهتك الأعراض وانتهاك الحرمات إزاء عجز حكامنا وولاة أمورنا وانصرافهم الكلى عن كافة أمورنا إلى خاصة أمورهم، هل هناك رابط بين ذلك كله وبين الإرهاب ؟.

كان هذا هو الإطار العام و التربة الخصبة التى شكلت مشاعر الناس جميعا لا الجماعات الإسلامية فقط، وتحت تلك الظلال ترعرع الرفض فزادت السلطة من جرعة العنف كى تقمع اتجاهات التمرد، وابتدأت الدائرة الخبيثة، وراحت السلطة تخرج على القانون وتتخذ رهائن، بدأ الأمر فى البداية سرا لكنه انتهى إلى اعتباره طبيعيا، لاغبار عليه ولا خجل منه، حتى لقد نشرت الأهرام فى ١٤ /٤ حول اغتيال اللواء الشيمى :" كما علم مندوب الأهرام بأن بعض الإجراءات قد اتخذت بالفعل ضد بعض اقارب المتهمين". وكان تصرفا غبيا آخر، وخروجا على شرائع السماء وقوانين الأرض، لكن سبحان الله إنهم يوحدون الأمة ضدهم، إذ أن إضافة الأقارب إلى الدائرة سوف توسع النطاق حتى تشمل الوطن كله . كانوا قد حوصروا، ظهرهم للجدار، أقصى درجات التعذيب والقتل والتصفية لردع الإرهابيين، لكن الإرهابيين لايخافون، بل إنهم يهاجمون سيارات الشرطة، وصرح مسئول من الحمقى " : السيارات سوف تسير مكشوفة للجميع، والذى سيقترب منها فى محاولة إلقاء عبوة سيضرب بالنار". و نشرت أخبار اليوم فى صفحة كاملة عن معركة الساعات العشر واختتمت المقال بالآتى : التاسعة صباحا : لم يعد هناك بد من الأمر،صدرت التعليمات باستخدام الآر . بى . جى للسيطرة على

الموقف، أمسك الملازم اول أحمد مبارك مدفع الآر . بى . جى وأطلق صاروخين أحدهما من اسفل المنزل لأعلى والآخر فى خط مستقيم نحو الطابق الأعلى حيث يتحصن الإرهابيان الآخران . . . انهار الطابق عليهما وسكتت الرصاصات تماما .

كان الوطن يغلي، والحمقى لا يفهمون أن تغييرا هائلا يحدث. ولم تفق كتابة معارض عنف ماقاله سلامة أحمد سلامة فى الأهرام : سياسات عاجزة تقوم على الضرب فى المليان أو توسيع دائرة الاشتباه، . . . .، سياسة خرقاء قد تلجأ إليها قوة الاحتلال الإسرائيلية فى الضفة أو فى غزة، ولكن يجب ألا تلجأ إليها قوات أمن وطنية . من المتيقن أن سلامة أحمد سلامة ليس من تابعى الشيخ عمر عبد الرحمن، ولم يقبض - فى حدود مانعلم - الخمسين جنيها التى أرسلها له رافسانجانى مع البشير، ذلك أكيد، حتى الآن على الأقل، فلا شىء على الداخلية ببعيد، وما هو بعيد عن سلامة أحمد سلامة،صديقه وزميله فى الأهرام : الدكتور محمد السيد سعيد، والذى اكتشفت أجهزة الداخلية قبل ذلك أنه خائن كبير يهدد أمن الوطن لصالح أعدائه، فتم أسره وتعذيبه حتى أقر بما لا نعرف، لكنهم فجأة أفرجوا عنه بعد ما أشيع من تقديم نقيب الصحفيين لاستقالته، لأن الحظ السىء وسوء التخطيط، جعل ميعاد زيارته الروتينية له يتوافق مع موعد تعذيبه . لكننى لست أدرى حتى الآن لماذا أفرجوا عنه، وقد كانوا فى تمام الثقة من خيانته . ولم يكتفوا بهذا، بل تركوه يكتب مرة أخرى فى الأهرام، فلعله - إذن - جند سلامة أحمد سلامة !!! .

يبدو الأمر فاجعا، لكنه كالكلاسيكيات العظيمة ليس مجرد مناحة، بل إن ما به من المفارقات ليفجر أعظم الضحكات عتوا و ألما . يكفى أنه انتهى باتهام الولايات المتحدة الأمريكية نفسها باحتضان هذا الإرهاب ممثلا فى الشيخ عمر عبد الرحمن، ووجه المفارقة أن القضاء على الأصوليين باسم محاربة الإرهاب، أو حتى مجرد محاربة الإرهاب، هى مقاولة من الباطن، ننفذها نحن تزلفا وقربى لأمريكا والغرب،

محاولين أن نثبت لهم أننا أقدر على القيام بهذه المقاولة من إسرائيل . لقد حاربنا الإسلامية فهدمناها، والقومية فأضعناها، والآن نطارد الأصوليين، ولم يكن كل ذلك لصالح العرب والمسلمين . ولقد بدأ ابراهيم سعدة بالهجوم على أمريكا، ثم نشرت الأخبار عن اتصال السفارة الأمريكية بالإرهابيين ثم صرح وزير الداخلية بأن الاتصالات المشبوهة التى تجريها بعض السفارات الأجنبية تحت السيطرة .

أمريكا تحت السيطرة .!! . . . .وسيطرتكم أنتم .!!!! . . . .و أنتم : تحت سيطرة من إذن، ولصالح من تعملون ؟؟.

ووجدتنى أنفجر ضاحكا متذكرا ما كتبه الكاتب الساخر الكبير أحمد بهجت منذ بضع سنوات حين تورط مسئول فى بعض التصرفات الغبية وأخذ يفتل بنفسه الحبال التى تلف حول رقبته، كان غبيا بذيئا وقحا، وتحت عنوان البغل فى الأبريق كتب أحمد بهجت يصف كيف حشر البغل نفسه فى الأبريق، مجهوده معه لكى يسمح له بإجراء حديث صحفى معه، محاولات البغل اليائسة للخروج من الأبريق، ودهشة أحمد بهجت للأمر كله . قد يبدو الأمر من الخارج مضحكا، لكنه بالنسبة للبغل لم يكن أبدا كذلك، ولعلنا هنا - كما يبتسم ثاكل بمجرد عضلات وجهه - نضيف طرفتين تحفظهما ذاكرتى، وكل عقد من الزمان تعيد طلاءهما بدلالات الحكمة والرمز . فذات مساء أكل ثرى نهم كمية كبيرة من " المحشى "،ومات فى الصباح، وخيم على المحيطين إحساس بأن أكل المحشى قبل النوم قاتل، ثم تجسد الإحساس ليصبح يقينا، تجاهلوا آلاف العوامل فى عشرات السنين المشحونة بالإهمال والجهل و أطنان السمن والماء الملوث والطعام المختلط بالمبيدات وانعدام الرياضة والتخمة، فضلا عما يمكن أن يكون موجودا من أمراض وراثية أو بيئية أو خلقية أو مهنية، أهملوا كل هذا ليكون المحشى هو السبب الوحيد، وما دام هو السبب الوحيد، فإن تجنب الكارثة يتم بمجرد البعد عنه، لا بعلاج آلاف العوامل الأخرى .

فى بلادنا يتصرف كبار المسئولين ورؤساء تحرير الصحف على منوال " المحشى" . فالإرهاب سببه خمسون جنيها دفعها البشير، و الأزمة الاقتصادية سببها النسل والشراهة وتحلية الشاى بأكثر مما ينبغى، وتصدينا لصدام فى الكويت لأنه كان سيغزو مصر، وسبب الأزمة السياسية عندنا أن أحزاب المعارضة -وليس الحزب الحاكم- تخون أمها مصر !! و ليست كأحزاب المعارضة فى الخارج تعمل من أجل صالح الأمة .

الطرفة الأخرى حدثت مع خبير مفرقعات، سمع وأصدقاؤه صوتا كإطلاق رصاص،وحدد هو نوع السلاح وجنسيته وعيار المقذوف وثمنه، وخالفه أحد الموجودين لاعن علم ومعرفة، و إنما قدر أن أحدا فى المنطقة المحيطة لا يمكن أن يطلق كل هذه الطلقات الغالية الثمن بكل هذا الانتظام والدأب والإسراف والإصرار، وبلغ التحدى بينهما منتهاه وخبير المفرقعات يصر والآخر يصر ودوى الرصاص مايزال، فانطلقوا جميعا ليحسموا الشك باليقين، فإذا بالصوت يصدر من سوط ريفى -يسمى فرقلة- فى يد فلاح يحث بها ثورا يدير ساقية .
أصبحت ألخص مايجرى فى ساحات بلادنا بهذه الطرف، أقرأ مانشيتات الصحف، أو مقدمة نشرات الأخبار فأجدنى أهمس لنفسى : البغل فى الأبريق، أسمع خطبة مسئول فأهمس لنفسى ":محشى"، و أقرأ تقريرا ضخما لمركز استراتيجى يحلل فيه مثلا نتائج انتخابات، فيسود مئات الصفحات بآلاف الكلمات ومئات الرسوم البيانية والعمليات الإحصائية على أحدث أجهزة الكمبيوتر مقارنا نسبة الحضور فى الريف والحضر، الرجل والمرأة، علاقة درجة التعليم، ويروح بجدية شديدة يناقش كل هذا فى ضوء أحدث النظريات السياسية والاجتماعية فى العالم، متجاهلا منذ الأساس أنه لم تكن هناك انتخابات بل تمثيلية انتخابات تم فيها تزوير كل شىء، لكننى أواصل قراءة مثل هذا التقرير ضاحكا رغم الغم قائلا : فرقلة .

فى قضية الإرهاب تداخلت الدوائر الثلاث، فأصبحت كل إجراءاتهم وبالا عليهم، و أصبح ما يحصلون عليه عكس ما يخططون له تماما، لقد استمرءوا الكذب على أمل أن يصدقهم الناس فما صدقوهم لكن صدقوا أنفسهم فازدادوا خبالا. لا أريد أن أخوض فى التفاصيل كثيرا لكننى أطرح كيف فكرت السلطة بطريقة " المحشى"حين راحت تستعدى الأمة والعالم ضد من سمتهم بالإرهابيين من أجل السياحة . كانت السلطة تحاول أن تبرر للداخل والخارج قسوتها الشديدة فى معاملة خصومها، عجزها عن أدائها لواجبها، ليس لمجرد قصور فكر او ضعف إمكانيات بل لأن القضية كلها خطأ، المنهج والفكرة والدور، ذلك أن وظيفة الشرطة حماية الأمن لا تهديده، طمأنة المروعين لا ترويع الآمنين، مطاردة اللصوص لا حمايتهم، المشاركة فى حماية النزاهة والعدل لاالقيام بالقتل والتزوير والتعذيب.

من سنن الله فى خلقه أن كل عمل يحمل فى طياته جزاءه . وعندما قام رجال الشرطة بعكس المنوط بهم كانوا كعطشان يريد أن يرتوى بماء البحر فلا يزيده إلا عطشا، كان منهم أيضا من ربتهم السلطة كى يكونوا وحوشا بشرية، كان تدريس الدين قد أهمل فيما أهمل، ولم تعد طاعة الله ماتحرك الجند بل طاعة الفرعون أو الصنم، و أمام ظلم السلطة كان على البعض أن يحتج، و لأنه لم يكن هناك للظلم منطق يصلح لخداع كل الناس كل الوقت فقد استبدلت الدولة إقناع المنطق ببطش السلطة، وزادالبطش من الظلم وزاد الظلم من الاحتجاج، ودخلت الأمة فى الدائرة الخبيثة المفرغة، كالمقامر، كى يمنع الخراب عليه أن يقامر أكثر، بكل مايملك، و إلا خسر كل مايملك .لقد كان السبب الأول فى انتشار الإرهاب هو انسداد جميع المنافذ الصحية والصحيحة لحوار حقيقى بين فئات الأمة، حوار صحى وصحيح، لا تلك الترهات الفارغة التى تديرها مسوخ شائهة تتسيد دون حق عروش الكلمة تحت رماح العسكر . مسوخ شائهة تبرر الظلم طالما كان موجها إلى الآخرين، الظلم بمعناه الواسع الشامل.

لو أنني ككاتب موضوعي -ليس بهلوانا للشرطة ولا مهرجا للسلطة- وضعت خطة للعلاج تتلخص فى إيقاف التعذيب على الفور، ومحاكمة من قاموا به، محاكمة حقيقية لا مجرد لعبة من ألعاب السيرك، ثم الافراج عن المعتقلين دون محاكمة، وقبلهم المعتقلين رغم أحكام القضاء لهم بالإفراج والبراءة، ثم وضعت خطة جامعة مانعة تمنع تزوير الانتخابات، وتكشف ماتم منها، وتحاسب عليه من قام به، ثم وضعت خطة أخرى كى تقوم الشرطة بواجباتها الأصلية التى أهملتها طويلا من حماية أمن الناس الاجتماعى والاقتصادى، من مطاردة اللصوص، أيا كان مركزهم، أيا كان مركزهم، أيا كان مركزهم، مثلما يحدثالآن فى أكثر من دولة من دول العالم الثالث، ليست شعوبها أرقى من شعوبنا ولا حضارتهم فى التاريخ أبعد، وبرغم ذلك وصل بهم الرقى إلى إمكانية توجيه الاتهام إلى رئيس الجمهورية بالسرقة وعزله ومحاكمته، ولم يجرؤ من رؤسائهم رئيس على إهانة شعبه بادعاء أنه سيعطيه الديموقراطية جرعة جرعة . فلو أننى وضعت خطة بذلك وقدمتها، هل سأجد منفذا، طريقا، ومحاورا يصبو معى إلى الحق، أم سأجد اتهاما ورصاصة تنتظرنى فى شارع الهرم أو الكوبرى العلوى فى شارع الجلاء أو فى منقباد. لو أن السذاجة قد بلغت بى كل مبلغ فوضعت -ضمن خطة علاجى للإرهاب- خطة بتوجيه نداءات من الأمة للرئيس أن الطريق الحقيقى للقضاء على الإرهاب يقتضى فعلا التغيير، ولقد قال هو نفسه ذلك، ووعد به، إلا أن ماوعد به قاصر تماما عما يراد به ويرام منه .الأمة تطالب بالتغيير فعلا . والتغيير حقا وصدقا سيخفض حرارة الحمى التى تجتاح الأمة، لا فى مصر فقط بل فى مصر والعالم العربى والإسلامى، وسيمنح الأمة وجوها جديدة لا تحمل ماتحمله الوجوه القديمة من آثام، ومحاولات لتغطية الآثام بمزيد من الآثام لتدفع الأمة ثمن كل ذلك .التغيير حقا مطلب الأمة .لكنه ليس تغيير حكومة .و إنما تغيير عهد.أن يأخذ الرئيس مبارك المبادرة ليعلن أنه لن يرشح نفسه مرة أخرى .أن يفعلها هو .لأنه ليس لدينا مجلس شعب يمكن أن يفعلها

.ولا نائب عام يستطيع إرغامه عليها -كما أرغم نيكسون- ولا أجهزة شعبية أو حكومية تستطيع ذلك، ولا رئيس تحرير صحيفة ولا . . . ولا . . .   لا أحد ولا جهاز ولا هيئة ولا حزب يستطيع أن يرغم الرئيس على عدم الترشيح، وذلك وحده دليل قاطع على فساد النظام السياسى بأكمله .لماذا كلما ازداد الرئيس - لدى حاشيته - قداسة ازدادت الأمة تعاسة .

يا أيتها الأجيال القادمة، ياكتاب التاريخ، عندما تكتبون عن هذا الزمن الذى نعيشه، الزمن الأسود والعهد الأغبر، لاتقعوا فى خطيئة الاعتذار والتبرير، على اعتبار أنكم تكتبون عن عصور مضت لم تكن قد اكتشفت ما اكتشفتم، ولم تكن الأمور قد اتضحت، ولا الخبايا قد انفضحت، لاتتخيلوا ذلك ولا تقولوه، ولا تتخيلو أيضا أننا طمسنا على أعيننا و أننا فقدنا الإدراك والتمييز، لاتتخيلوه ولا تقولوه، فما من مصيبة وقعت إلا وقد حذرنا منها،لا قبيل وقوعها، بل قبله بآماد، ورسمنا الطرق ووضعنا الخطط لتجنب الوقوع، لكن حكامنا قادونا -دوما- إلى الهلاك . لا لأنهم لم يكونوا يعرفون بل لأنهم قايضوا ما ظنوه نجاتهم بهلاكنا، حتى لقد راح الغبى ينوه عن إرهاب إيران بأنها هى الدولة الوحيدة التى حاولت مد البوسنة بالسلاح !! . إلى هذا الحد .

هل أصارحكم ؟.   أأقول لكم لا تقرءوا ما أكتب . لأننا جيل عاجز فاشل،أننا لم ننجح فى شىء ولم ننتصر فى شىء، وأننا غير قادرين على شىء، أننا جيل أفرز فى العراق صداما وفى السعودية فهدا وفى مصر مبارك ويوسف والى، وأننا كما نكون يولّ علينا، لأننا كناهم كانوا، هل أقول لكم لا تقرءوا قولى ولا تعتدوا بما فيه لأننى نتاج جيل غير قادر على إنتاج شىء شريف، أن الهزائم هن بناتنا الشرعيات اللائى يغتصبهن كل مغتصب، وأننا لم نعد نصلح لإنجاب سواها . لا تعتمدوا علينا، وإن فعلتم فسوف تهزمون كما انهزمنا، سوف يحدث لبناتكم ماحدث لبنات البوسنة، ولأبنائكم ما يحدث لأطفال الحجارة، وسوف تتسع رقعة معسكرات الأمن المركزى ومقار

مباحث أمن الدولة لتفرش مساحة الوطن كله .لقد فشلنا فى كل شىء وعجزنا عن كل شىء .هاهو ذا الوطن نسلمه لكم أشلاء دامية . وهانحن أولاء قد ضيعنا الكرامة وبعثرنا الثروة لنورثكم الدم والحقد والسفه، أجل ذلك هو ميراثكم منا وهو ميراث مفروض عليكم، لأننا نحن الجهلاء السفهاء الحمقى، نحن الخونة، لم نترك لكم مجالا حتى لاختيار رفض الإرث. نكبلكم .لا تسترشدوا بنا ولا تطيعونا.حكمتنا غباوة، وبلاغتنا طراوة، وتحضرنا عبودية، وتديننا مضبوط على برامج النظام العالمى الجديد .

يارب : إنك تتودد إلى من يؤذيك، فنسألك الرحمة فيمن يؤذى فيك .

سيادة الرئيس :

إننى أحاول أن أجعل صورة بطل أكتوبر ٧٣ هي البارزة أمامي.. تضمحل إزاءها أو تتلاشى كل صورك الأخرى ، فكأنما أقتنص من الزمن ما يجعلني أحبك و أثق فيك ، و أغمض عيني عما يجعلني أدينك . .

و لقد اكتشفت في أحوال كثيرة ، أنني بالرغم من موقفي المعارض معارضة جذرية لسياستك ، أكثر ثقة فيك من معظم من يقدمون القرابين كرامتهم و ألسنتهم ذبائح بين يديك . .

و لقد تجلي هذا في موقف أخير ، قبيل مؤتمر الدوحة *. . عندما جمعني بالبعض حوار هل سترضخ فتذهب أم ستعارض و تقاطع، و كنت الوحيد بينهم ، الذي أدرك أنك لن تذهب . .

و لقد سئلت بعد قرارك بالمقاطعة، كيف استطعت تقدير الحقيقة و لم أستطع يا سيادة الرئيس أن أجيب . . فما أنار السبيل أمامي لم يكن ومضة عقل بل خفقة قلب . . تنسمت منها أن الله سينظر من عليائه إلي أعمالك . . فيري موفقك في أكتوبر ٧٣ فيرأف بحالك ويشفق عليك فيسبغ عليك رحمته فيمضي قدره . . بأن تكون خير أعوامك خواتيمها.

هل يكفي هذا المفتتح يا سيادة الرئيس كي أستميل منك أذناً تصغي . . كي أهمس فيها . . بل أصرخ : أمتك ممزقة يا سيادة الرئيس فارتق مزقها . .

أمتك ممزقة . . و شعبك يتشوه يوماً بعد يوم . . أناشدك . .

---

* كانت إحدى المرات القليلة التى صمدت فيها السياسة المصرية إزاء الضغوط الأمريكية لمواصلة سياسة عقد مؤتمرات اقتصادية، كانت قد عقدت قبل ذلك فى المغرب ومصر والأردن، والهدف الرئيسى منها هى أن تحل الدول العربية مكان أمريكا فى تمويل إسرائيل.

أستصرخك . . فالنار المشتعلة في قلب الوطن لن يطفئها إلا أنت .. وليس إطفاء النار أو وقف نزيف الدم بعزل حسن الألفي و تولية غيره . . فليذهب مذمّماً . . لكننا درجنا علي قاعدة لا تكاد تخيب ، أنه ما من وزير يمضي إلا و تبعه من هو أسوأ منه . . و لو أن أي واحد منهم خاف الله أكثر مما يخافك لانصلح له أمر الدنيا وأمر الآخرة ولانصلح لك أنت أيضا حال البلاد. . . الأمر خطير ولن تنصلح الأمور لعزل وزير و تولية وزير . . وزير يأتى بشدة " الغربال " الجديد ليكون أعنف، بينما تصرخ الحقيقة، أن ماوصم بعض عمل جهاز الأمن فى الفترة الماضية، لم يكن قلة العنف والجبروت بل قلة العقل واختلال الضمير، وشيوع البلطجة وانعدام التفكير، و التهريج والفشل وسوء التدبير.

يا سيادة الرئيس إني أدعوك إلي ثورة علي نظام الحكم تقودها أنت . . فهذا هو الضمان ألا تكون طوفان دم . .

أجل يا سيادة الرئيس : الثورة أو الدم . . . سأحاول قدر جهدي أن أعرض عليك رؤية فاجعة للوطن و للأمة ، و سأحاول قدر جهدي أن أقول الحقيقة . . و أظنها ستغضب الكل مني ، المعارضة قبل الأتباع . . و التيارات الدينية قبل العلمانية ، ستغضب الشرطة والقضاء و أساتذة الجامعات و المفكرين و الجيش . . و ربما رجل الشارع أيضاً. . ، لكنها ما أحسبه كلمة حق لا خير فيّ إن لم أقلها ولا خير فيك إن لم تسمعها !!

يا سيادة الرئيس :

الثورة أو الدم . .

الثورة و التغيير أو الدم و الخراب و التدمير . .

و في هذا الصدد، سأتجنب الخوض في السياسة الخارجية – لأن ذلك سيدفعني إلي اجترار الماضي و خلافي معك فيه مرير – مركزاً علي الداخل.

الأمر خطير يا سيادة الرئيس، و لا يحله عزل وزير و تولية وزير.

الأمر يستلزم منك قراراً بإنهاء الدولة البوليسية التي دمرت بنيان الوطن و كرامة الأمة.

دولة بوليسية بشعة لن يصلح شئ طالما دامت، بل سينتهى بنا الأمر نهاية الجزائر - لا قدر الله - ما لم تقدم أنت على الثورة .....

و لنبدأ بحادث الأقصر الأخير، و لنجعل من ذلك الحادث المروع نقطة تحول ، و مركز انطلاق.

" تشويه لصورة الإسلام و المسلمين، نعم "

حادث إجرامي، نعم.

بشع، ضد الدين، نعم.

ضد مصالح الأمة، نعم.

لكن : حادث ارتكبه من قبض من الخارج، لا.

ذلك تسطيح مخل و ضار، و لو أقنعك به أحد فسوف يعني ذلك أن هذا الحادث سيتكرر و سيستمر طوفان الدم.

و الحقيقة يا سيادة الرئيس أنني اشتعلت غضباً بعد الحادث، ليس ممن ارتكبوه فقط، بل من مجموع البني السياسة و الاجتماعية و الاقتصادية التي أدت إليه، و القول بغير ذلك سذاجة و حماقة و قد تكون خيانة.

إنني غاضب أشد الغضب مما حدث يا سيادة الرئيس، لكن غضبى من التحليلات الخاطئة لأسبابه أشد.

* * *

لقد ساد الكذب و البهتان يا سيادة الرئيس حتى أن الإنسان ليعاني كثيراً كي يعثر علي كلمة صدق، كلمة لا يقصد قائلها بها سوي وجه الله، وجه الحق، ساد الكذب، في صورة فاجعة مروعة للوعي الجماعي للأمة بكل طوائفها، و لقد أدى ذلك إلى كارثة تشوه الوعي الجماعي ، وهى كارثة لم يكتب عنها أحد، رغم أن الناس في أحاديثهم الخاصة يكررون الحديث عنها و يرددونه كحقائق مسلم

بها، كبديهيات، ذلك الوعي الجمعي، يري أن السلطة و الحكومة، بلغت من الفساد حداً لا يمكن إصلاحه ، كما لا يمكن مقاومته، و أنه لا أمل، الكل يسرق و الكل يكذب و الكل يخون، و ما التوازن الناشئ في المجتمع إلا توازن لصوص، و أن مقاومة هذه العصابات له نتيجة واحدة محتومة : الخراب و الدمار و الإهانة و التشهير والتشويه و الموت، . فلا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة. !!!

تلك الفكرة يا سيادة الرئيس مسيطرة بأكثر مما تتصور، وبأكثر مما كنت أنا نفسي أظن، لواءات شرطة و لواءات جيش وكبار مثقفين و أساتذة جامعات و مفكرون و صحفيون ومستشارون و قضاة و رجال نيابة، لطالما جلست أحاورهم، وأقولها لك صادقاً يا سيادة الرئيس أنني لست علي ظنهم، بل إنني أخال أن هذا التصور و الوعي الزائف مقصود من أعداء الأمة أن ينتشر، و أن يسود، كي يقطع كل أمل، و يخيب كل رجاء، و يثبط كل عزيمة، و يرد كل محاولة للإصلاح.

علي أنني سأقع في نفس التسطيح المخل، المجرم، لو اقتصرت علي تفسير ما يحدث بالمؤامرة، متجاهلاً الأسباب الكامنة فينا وفي ممارساتنا.

ففي تلك الأسباب يا سيادة الرئيس تكمن كل مصائبنا وبلوانا، و يكمن فيها ضمن ما يكمن سبب حادث الأقصر الأخير، و الذي دفعك لأن تعلن علي العالم . أن ما حدث هناك كان عبارة عن " تهريج و فشل "، وبهذا التصريح يا سيادة الرئيس توجت نفسك زعيماً للمعارضة، و أبحت لي أن أناشدك الآن، بأن تقود الثورة ضد " التهريج و الفشل " .... فذلك التهريج و الفشل، ليس وصفاً لحادث الأقصر فقط، بل هو التوصيف الدقيق لمرض الأمة كلها، وهو السرطان المستشري في جسد الوطن، و ما حادث الأقصر سوى عرض جانبي من أعراضه، تهريج و فشل ... ذلك حكمك إذن يا سيادة الرئيس علي سياسة وزارة الداخلية .!!.

يا إلهي، إنه كلامنا نحن أيضاً، و لطالما حاولنا أن نقول ذلك فكيلت لنا الاتهامات جزافاً، لكنك تغرينا الآن بقولك، أن ندعو الله، أن يعزنا بك، و أن تقتنع معنا، بأن هذا التهريج و الفشل ليس

نتاج تقصير مدير أمن أو وزير، بل هو الابن الحرام للدولة البوليسية التي أنشبت مخالبها في كل ربوع الوطن، فأفسدتها.

لو استقصيت يا سيادة الرئيس لعلمت أن معمل التفريخ الأساسي للإرهاب في بلادنا هو معتقلات الشرطة و سجونها وطريقة أداء بعض ضباطها و جنودها، وهذا البعض قد يكون كثيرا أو قليلا، لكنه هو السائد والظاهر والمسيطر..

يمكنني أن أناور و أداور فأستعمل كلمة " قلة منحرفة " قبل " رجال الشرطة " كى تشفع لى أمام رئيس النيابة الذى قد يحقق معى فيما ورد فى هذا المقال، كان يمكننى أن أجد فى التقية رخصة، لكنني أمام الله - الذي سنلقاه قريبا، أنا و أنت يا سيادة الرئيس - أقول لك ما أظنه الصدق كله، و قد لا أكون علي صواب في كل ما أقول لكن حسبي أن أظنه كذلك،

لقد كان مجمل أداء قطاعات من الشرطة في الحقب الأخير مدمراً و مجرما.

كان أداؤها أسوأ فى نتائجه و أشرس فى تأثيره من إسرائيل ومن جنود الاحتلال، و كانت عواقبه علي الأمة أفدح، إن الاعتقالات العشوائية، و التقارير الكاذبة، و الأوامر الممهورة علي بياض، والتحريات الملفقة، و طريقة إعتقال الناس من منازلهم بعد تحطيمها، ثم تعذيبهم في أقسام الشرطة و معسكرات الأمن والسجون و استغلال المنصب و الثراء غير المشروع عن طريق التحالف مع لصوص المال العام و تجار المخدرات - و مرجعي في الأخيرة صحيفة الأهرام لا الشعب -، و البطش المتجبر بالناس ليس داخل أوكارهم فقط بل حتى في الشارع، عند التفتيش علي رخصة، أو أمام كمين، أو عند اعتراض سائق علي أن يسلم سيارته لأمين الشرطة، فيقتله، بل لقد بلغ الأمر يا سيادة الرئيس أن يتم اغتصاب النساء المحتجزات في التخشيبة - علي ذمة النيابة، ولقد نشرت إحدى هذه الوقائع ، حين قام حضرة الصول، بعد هجوع الصائمين، بعد صلاة الفجر في رمضان ، باغتصاب إحدى السجينات، في قسم من أقسام البوليس،.

كتبت ذلك فما رد أحد وما أنكر أحد و ما استنكر أحد ، حتى اللواء رؤوف المناوى ، الذى قيل أنه يشيع أنه هو وزير الثقافة القادم - الثقافة لا الداخلية -!! والذى لا يترك صغيرة إلا بعد أن يرد عليها ، حتى هو لم يرد ولم يعلق!!.

بيد أن الأمر لايقتصر علي ذلك فقط، فالتهريج و الفشل الذي عبرت عنهما يا سيادة الرئيس لم يكونا وصفا لشخص بل تشخيصاً لمرض، ولقد انتشر كالطاعون في جهاز من أخطر و أهم أجهزة الوطن، فأصبح المحامي هو الجلاد و الحارس هو اللص والمستأمن هو الخائن و المزور و الملفق و الكذاب، . ولقد كان لذلك كلهن تأثير مروع على نظرة الناس لرجل الأمن، حتى لقد وصل الأمر يا سيادة الرئيس، أن عبد الوهاب مطاوع نشر ذات مرة في بريد القراء في الأهرام رسالة دامية من ضابط كتب له أنه لم يجد أسرة تقبل مصاهرته لأنه ضابط شرطة، و هذا الحدث الصغير أعظم في دلالته من مئات الظواهر الكاذبة التي ستقدم إليك نافية ما أقول مستهجنة له، مع أن الواقع أفدح مما تشي به رسالة ذلك الضابط لبريد الأهرام، سيردون - مثلا - يا سيادة الرئيس عليّ بحديثهم عن تكالب الطلاب علي كلية الشرطة لكن ذلك تراث مصري قديم يعود إلي عهد الفراعنة يوجزه مثل الشعبي معناه: إن وجدت قوما يعبدون الثور فشاركهم فى تقديم الطعام له !!. وفي هذا الصدد - مثلاً - أناشدك يا سيادة الرئيس ، أن تفعل كما فعلت في الأقصر أن تباشر التحقيق بنفسك، استدع طلاب كلية الشرطة الذين التحقوا بها هذا العام، سلهم يا سيادة الرئيس: هل دفعوا ؟، و كم دفعوا ؟، و لم دفعوا ؟، أمنهم يا سيادة الرئيس، عدهم بأن من يعترف بالحق فلن يضار، وأن أجهزتك ستبحث، وستفصل أى طالب يخفى الحقيقة، افعل ذلك يا سيادة الرئيس، ورَ النتيجة بنفسك، وستكشف المزيد من التهريج والفشل.

إن توغل الدولة البوليسية وتغولها أديا إلى تزوير الانتخابات لكي يكون معظم أعضاء مجلس الشعب بلا شرعية، وهذا وضع يفقد النظام شرعيته ليكون خارجاً علي القانون، تماماً كأبناء الجماعات، و لقد ساهمت الدولة البوليسية في إفساد المحليات أيضاً، و في

إفساد معظم ما يتصل بها. ولقد ساهمت علي سبيل المثال لا الحصر في إفساد الجامعة حتى لقد قال أحد الأساتذة ساخراً : لماذا يصرون علي تعيين رئيس للجامعة لا يتصرف في شئ إلا بعد استئذان الضابط المسئول في مباحث أمن الدولة؟ ... لماذا لا يقومون بالعمل الصريح المباشر، لماذا لا يكون ضابط المباحث هو رئيس الجامعة المعلن.

تغوُّل الدولة البوليسية أدي - يا سيادة الرئيس - إلي ابتعاد رجال الأمن عن جوهر الأمن. .

لا، ليس مجرد ابتعاد بل تناقض.

و علي الجانب الآخر ابتعد شباب الجماعات عن الدين بل تناقضوا معه .

إنه الفعل ورد الفعل ....

تلك النقطة خطيرة جداً يا سيادة الرئيس و أرجوك ألا تهملها.

ابتعد رجل الأمن عن مفهوم الأمن، و لقد أدي ذلك إلي تشويه فظيع في وجدان الأمة، تماماً كما يشوه الحذاء الضيق قدماً ، لكن قدر التشويه الحاصل في المجتمع، لم يحظ بما يستحق من دراسة، بل دعني أقول لك الحق كله، لم يحظ بأي دراسة، لأن أي دراسة له ستمس النظام العام للدولة، و هذا ما يتجنبه الجميع، بعد أن شوهتهم الدولة، و لقد اهتممت بهذه الظاهرة منذ أمد طويل، يمكن أن أجرح الحقيقة لأقول أن جزءا من الجماعات الإسلامية أو الجهاد أو الإخوان المسلمين أو، أو، أو، قد تشوَّه، لكني أخشى أن تكون الظاهرة أعمق و أشمل مما أظن.

إننى أقصد التشوه الداخلى، لا ذلك الركام الهائل من الأكاذيب والافتراءات التى تكرس أجهزة الإعلام نفسها لها، التشوه الداخلى، الذى يغير فكر الإنسان وسلوكه، وهذا أخطر بما لا يقاس من عمليات التشويه الشائهة برسم صور كاريكاتيرية ممسوخة لخصوم الدولة.

عندما تهوي بمطرقة ضخمة علي رأس إنسان - يا سيادة

الرئيس- فمن الطبيعي أن تتحطم. .

لذلك فإنني أخشى أن أقول لك أن التشوه الحاصل لأي فرد في هذا البلد هو رد فعل منطقي لوضع غير منطقي، رد فعل فاجع ...

ثمة ظاهرتين أحاول رصدهما، و لست أدعي أنني أحطت بهما، إلا أنني أتناولهما بالرعب كله، ذلك أنني أتخيل أن فكرة سامة تسربت إلينا، تسربت إلينا من بني إسرائيل، و من تاريخ مضمخ بالدم معجون بالألم والقهر، هذه الفكرة تتناول ظاهرتى التقية والاستحلال.

التقية أن يظهر الإنسان عكس ما يبطن اتقاءً لشر الأقوياء.

و الاستحلال يتضمن أنه لأنهم فقط علي حق، فهم شعب الله المختار، و لما كان سواهم علي باطل، لذلك تحل لهم أموالهم وأعراضهم..

هل أنا علي حق ؟ !، . هل ظلمت ؟ ! .

هل شتت الخوف و التوجس عقلي فذهبت بعيدا ؟ !.

لكن، يا سيادة الرئيس لو صدق حدسي فإن هاتين الظاهرتين هما المعمل الرئيسي الذي يفرخ الإرهاب و يفجر الدم في الوطن.

التقية و الاستحلال.

إن أى جهد لاستئصال الإرهاب لن يكتب له النجاح مادامت هاتين الفكرتين تختلطان بنسيج الوعى و العقل والقلب عند من اصطلحنا على تسميتهم بالإرهابيين، قد تحكم عليهم الأمة كلها بأنهم مجرمون مارقون خوارج كفرة، وقد تشن عليهم وسائل الإعلام حربا تجعلهم كالشياطين أو أشد سوءاً، لكنهم من ناحية ياسيادة الرئيس لا يقرءون الصحف ولا يشاهدون التليفزيون فلا تأثير لما نقول عليهم ، ومن الناحية الأخرى فإن ما يدفعهم للعمليات الإرهابية أو يردهم عنها: ليس رأينا فيهم بل رأيهم فينا!!.

* * *

لكن، هل أصاب المرض الإرهابيين فقط ؟ أو حتى المنتمين إلي التيار الإسلامي فقط، أم أصاب الأمة كلها؟.

ألا يمارس بعض من رجال الشرطة التقية و الاستحلال ؟ ! البعض المؤثر، السائد، المهيمن، المتجبر، ألا يشعرون أنهم شعب السلطة المختار..؟!

ألا يدوسون القانون المناط بهم حمايته و تطبيقه ؟ ألا يروّعون الخلق، و يستحلون أموالهم و أعراضهم و دماءهم، ثم بعد أن يفعلوا هذا كله يمارسون التقية فيخفون جرائمهم بأدلة غاية في الإتقان والتزوير والبراعة.

دعني يا سيادة الرئيس أنقل لك واقعة واحدة مما يتناقلها الناس، قد تكون صدقاً و قد تكون كذباً، لكنني سمعتها من لواء شرطة كبير كان مرشحاً - فيما يقول الناس - لوزارة الداخلية ذات يوم، كان يحدثني عن بداية حمام الدم في محافظة المنيا، وكيف بدأ، حين تدخل أعضاء مجلس الشعب عند الشرطة و أسرة أحد أفراد الجماعات الهاربين، من الشرطة حصل علي وعد بحسن معاملة الهارب حين يسلم نفسه، و من أسرته حصل منهم علي وعد أن يسلم نفسه بعد أن نصحهم بأن هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ حياته، فلو أنه لو ظل هارباً سيزداد تورطه و ستقتله الشرطة ذات يوم، و اصطحبه عضو مجلس الشعب و سلمه بنفسه .

بعد ثلاثة أيام أصدرت الداخلية بياناً بمصرعه في مزارع القصب بعد اشتباك مع الشرطة، و كانت الأدلة كاملة و السلاح بجوار جثته، رفضت أسرته تقبل العزاء فيه، و أمسكت أمه بخصلة من شعرها و أقسمت - على طريقة أهل الصعيد - أن تثأر له بقتل عشرة من رجال الشرطة، و في الفجر اصطحبت أبناء عائلتها و قطعت الطريق، أوقفوا السيارات و أنزلوا ركابها : الشرطة يسارا و الأهالي يميناً، و قتلت أحد عشر شرطيا ! ! .

و انتقمت الشرطة انتقامها الجبار، و انهمل حمام الدم ! !

فلينفجر السؤال إذن كانفجار الدم من سياح الأقصر الأبرياء، فلينفجر : من هم الإرهابيون حقا ؟؟!!.

الأمر خطير يا سيادة الرئيس ، ولن يكفيه عزل وزير وتولية وزير..

كما لن يكفيه أن يقف الملايين الستون من أبناء مصر يستمطرون اللعنات على الإرهابيين ويستنكرون فعلتهم.

الأمر يتعلق بمنهج خطأ . .

وهو يستحق منك لا أن تتابعه فقط، بل أن توليه كل جهدك وعنايتك واهتمامك، ومع احترامنا للباقين جميعا إلا أنك أنت السياسي القادر على صياغة نظرة استراتيجية شاملة، تدرك منها كم الخطر وعمق الكارثة.

لقد كان ما وصفتموه بالفشل والتهريج أكثر من فشل ومن تهريج . .

وفوق كل ذلك وبعده كان غباءً أيضا . .

أحيانا أحاول أن أضع نفسي مكان بعض رجالك علّي أفهم لِمَ يفعلون ما يفعلون . . سأوافقهم على كلّ دعاواهم، المعارضة خائنة وطامعة في السلطة !! والجماعات الإسلامية تقوم بأعمالها الإرهابية لأنها تقبض من الخارج !! ليس خمسين جنيها ! بل خمسين مليون جنيه ! والنظام العام صالح بلا ذرة فساد! لو صدقتهم في كل ذلك يظل السؤال عن عسف رجال الأمن وعصفهم بالناس بلا جواب : لماذا إذن يسومون الشعب العذاب؟ المواطن العادي الذي ليس عضوا في أحزاب المعارضة ولا موظفا من قبَل جماعات الإرهاب؟ لماذا يهينونه ويمتهنونه و أحيانا يقتلونه. لماذا ينصرون مواطنا على آخر لمجرد قرابته لمسئول ؟ لماذا يعذبون الناس؟ سأفترض أنني موافق على تعذيب من في السجون، سأفترض أنهم جميعا مجرمون و أن الإسلام والنظام العالمي والدستور جميعا يبيحون تعذيب المجرمين، لماذا يفعلون ما يفعلون بالمواطن العادي؟ بسائق الميكروباس الذي رفض طلب أمين شرطة بتوصلة مجانية، فاعتذر، فأطلق الأمين النار على سويداء قلبه؟ لماذا قبضوا على أهل المقتول بعد ذلك ؟ ولماذا أقرتهم النيابة على هذا القبض؟ لماذا كل هذا العنف إزاء أى بادرة احتجاج؟ لماذا

حطموا سيارة وكيل النيابة لمجرد أنه سأل عن سبب تعطل المرور ؟ لماذا اعتقلوه و أوسعوه ضربا ؟ لماذا كل هذه العنجهية والجبروت وهم يعاملون الإنسان العادي ؟ لماذا كل هذا العنف وهم يعاملون طلاب الجامعة؟ أو العمال في المصانع ؟ أو الفلاحين في المزارع؟ لماذا كل هذا الفجور وهم يعاملون النساء؟ لماذا؟ لماذا وصلوا بالمواطن العادي إلى الرعب من دخول قسم من أقسام الشرطة، فلا يذهب إلا مجبرا و ببطاقة توصية إن استطاع؟ لماذا ؟ لقد كان الأمر في البداية يقتصر على بسطاء الناس، على المساكين الذي يحبهم الله، لكن تفاقم الأمور جعل لواء شرطة متقاعد يحمد الله لأنه أظهر بطاقته في قسم الشرطة في وقت مناسب و إلا حدث له ما لا تُحمد عقباه، ولقد تفاقم الأمر أكثر فقرأنا عن لواء شرطة متقاعد يُعذب في إحدى مديريات الأمن، فلنفترض أن السياسيين وصمة عار ، ولنفترض وجوب تعذيبهم، لكن هذا اللواء لم يُعذب في قضية سياسية!!.

لماذا لم يوجد جهاز الشرطة الآلية التى تقومُ مساره وتبتر الفاسدين فيه؟ ولماذا هذه التحالفات المشبوهة مع رؤوس الأموال الحرام؟ لقد وصل الأمر يا سيادة الرئيس أن قيل أن ضابطا كبيرا كان عشيقا لشقيقة رأسمالي كبير تحوم حوله الشبهات، وكانت الأمور تسير على ما يرام، والضابط يُسبغ الحماية على الثرى، حتى راقت في عينه الزوجة بعد الشقيقة، فطلبها من زوجها، فأبى، فنكل به واعتقله ولم يُفرِج عنه إلا بعد أن قبض مائة ألف جنيه!!.

سيادة الرئيس: إنني أستميحك عذرا أن أحدثك بهذا رغم مقامك العالي، لكن من أحدث إذا لم أحدثك أنت؟ ، قد تكون الواقعة صادقة وقد تكون كاذبة، وصدقني يا سيادة الرئيس أن ذلك لا يهم، فما يهم فعلا أن الناس، الوعى الجمعىّ للأمة على استعداد لتصديقها ولتصديق أضرابها، الوعى الجمعى الذي يحيل كل معلومة إلى مخزون خبراته وتجاربه ليحكم عليها إن كانت قابلة للحدوث أم غير قابلة، ولست أخفيك يا سيادة الرئيس أنني بنفسي، و أن كل من تُدُووِلَت الحكاية بينهم قد صدقوها!!.

لو كنت لا قدر الله مكان رجال الشرطة، لحرصت الحرص كله،

على اكتساب حب الناس حتى يعاونوني. فلماذا لم يفعلوا ذلك ؟ أهو غرور القوة أم فساد الطبع؟

كيف يصل الأمر إلى نسف منازل الناس ؟ كيف ؟ هل هم يهود ونحن مصريون؟ والعكس لا يصح، فلا يليق بمصري، وريث حضارة التاريخ أن يقترف هذه البشاعة.

لنفترض أنهم يحبونك يا سيادة الرئيس ويدافعون عنك، فهل مسلكهم هذا يجعل الناس توافقهم على ما يحبون، لماذا اضطروك حين أردت الإصلاح أن تغير القيادات كلها، لماذا تركوا الأمور حتى وصلت إلى هذا الحد، ولولا تدخلك أنت الشخصي يا سيادة الرئيس لاستمرت، لماذا لم يطهروا هم أنفسم يوما بيوم وعاما بعام، لماذا لم تكن لديهم الآلية التى تقول للوزير أنت أخطأت حين يخطئ، ولماذا لم يتسن للوزير أن يبعد المفسدين حين أفسدوا؟ وما هو الضمان كي لا يتكرر ما حدث؟!

تعلم يا سيادة الرئيس أنه إزاء كل هذا فقد انبرت أقلام أظنها على صواب تطالب بأن يكون وزير الداخلية مدنيا !!. ولعل في ذلك تذكرة لإخوتنا هناك كيلا يسمحوا بتكرار ما حدث.

يا سيادة الرئيس : إذا أهدرت الشرطة القانون فكل شيء مباح!!.

إذا داس رجال الشرطة القانون فإن السلطة تصبح سكيناً في يد مجنون . .

وبرغم كل ذلك يا سيادة الرئيس فلم نسمع عن واحد منهم اعترف بذنبه.

لم نسمع عن رئيس أو مرؤوس رفض قائلا : إنى أخاف الله ، أو حتى إنى أخاف القانون!!.

رغم انتشار التعذيب يا سيادة الرئيس . . هل اعترف شرطي أنه عذب معتقلا؟ .

هي التقية إذن . .

رغم انتشار التزوير يا سيادة الرئيس . . هل أعترف شرطى أنه زور صوتا ؟ . .

هي التقية إذن . .

هي التقية و الاستحلال . .

هو فساد الطباع عند القادة والجبن عند المرؤوسين ..

على أن تأثير ذلك لا يقتصر على جهاز الشرطة بل ينسحب على المجتمع كله ليعود به إلى حالة البداوة الأولى، الشرطة مشغولة عن الأمن الجنائى والاجتماعى والاقتصادى بالأمن السياسي ، لكنها أهدرتها جميعا !!.

حتى الطلاب يا سيادة الرئيس . . بعد أن عاث رجال الأمن فساداً في الجامعات . . كنت أجالسهم كي أفهم . . كي أتقصي . . كي أنقل لك الحقيقة كما أراها . . تشوه وجدانهم .. قال لي واحد منهم: أمهاتنا يطلبن منا أن نقسم علي القرآن ألا نتحدث في السياسة قط . . فكل أم من أمهاتنا يعرفن أسرة منكوبة بمعتقل . . يعلمون ما حدث له وما يمكن أن يحدث لنا ..! !

هل تريد منهم ألا يكونوا سلبيين بعد ذلك . . إن توغل الدولة البوليسية و تغولها تعطل الآلية لأي مجتمع سليم . . آلية التصحيح المستمر للمسار . . فلو سمح للطلبة مثلا بالحرية لكشفوا بعضا من الفساد داخل الجامعة . . و لكانوا بعد ذلك مواطنين و قادة صالحين . . و لو تربوا علي الحرية لأتوا هم إليك ليكشفوا لك عن كلية هنا أو هناك لا يتم دخولها إلا برشوة . . ولو.. و لو . . و لو. .

إن قصور الشرطة كجهاز من أهم و أخطر أجهزة البلاد يا سيادة الرئيس لا يقتصر في تأثيره على المحافظة على الأمن السياسي أو السياحى، بل إنه يتعداه إلى المجتمع كله، إنه يدمر المجتمع ليجعل منه وسطا ووسيطا لكل الحركات الشاذة ومنها الإرهاب .

يذكر الدكتور إمام عبد الفتاح إمام – فى كتابه : الطاغية – أن الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز كان أول من عارض أرسطو ،

وذهب إلي أن الإنسان لا هو حيوان سياسي بفطرته ولا هو يميل بطبعه إلي الجماعات المنظمة ، ولكن البيئة السياسية بمعناها الواسع هي التى تشكل شخصيته بحيث تصبح صالحة للحياة في المجتمع السياسي. ذلك لأن الحالة الطبيعية وهى فطرة الإنسان هي حالة من الفوضى يحاول كل فرد فيها المحافظة على حياته بقواه الخاصة، ولما كان يتساوى مع غيره في هذه القوى-جسدية كانت أو ذهنية- يصبح الصراع عنيفا، كل فرد يتربص بغيره ليفتك به قبل أن ينال الآخر منه، هكذا يخيم القلق والخوف على هذه الحياة التى تصبح فقيرة، عقيمة، كريهة، موحشة، قصيرة الأمد. . لا تستقيم مع حياة الجماعة السياسية، ولهذا فهي لا تنتج حضارة، ولا علما ولا فنا ولا ثقافة.*

يا سيادة الرئيس دعنى أصارحك أن هذه الحياة الفقيرة العقيمة الـ.الـ.. هى حياة شعبك وهى حياة لا تنشئ حضارة ولا علما ولا فنا ولا ثقافة ، وهى بسبب ذلك كله هى المفرخ الرئيسي للإرهاب.

يقول جون لوك في كتاب حكم المدني: يبدأ الطغيان عندما تنتهي سلطة القانون، أي عند انتهاك القانون، وإلحاق الأذى بالآخرين. كما يقول: الشرطي الذي يجاوز حدود سلطاته يتحول إلي لص أو قاطع طريق. كذلك كل من يتجاوز حدود السلطة المشروعة سواء كان موظفا رفيعا أم وضيعا، ملكا أم شرطيا. بل إن جرمه يكون أعظم إذا صدر عما عظمت الأمانة الذي عهد بها إليه.

كما يقول أفلاطون: إذا ذاق المرء قطعة من لحم الإنسان تحول إلي ذئب..! ومن يقتل الناس ظلما وعدوانا، ويذق بلسان وفم مدنسين دماء أهله ويشردهم ويقتلهم، فمن المحتم أن ينتهي به الأمر إلي أن يصبح طاغية ويتحول إلى ذئب.

ثم يصف أفلاطون سلوكيا هذا النمط الفاسد الشرير المتسلط فيبين كيف يندفع نحو الرغبات الهوجاء فيتولد في نفسه حب جارف يرعى الرغبات المتطرفة، وعندئذ تحتل هذه الرغبة الموقع

---

* الطاغية دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى، ا.د إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٤.

الرئيسي في النفس، وتتخذ من الجنون زعيما لحراستها، وتثور ثورة هوجاء. فإذا صادفت بعض الرغبات أو الأنظار كبح العقل الذي لا يزال فيه بقية من حياء، فإنها تقتله أو تطرده بقسوة، حتى تطهر النفس من كل اعتدال، وتدعو الجنون لكي يحل محلها! وهكذا يغدو أمر هذا النموذج حين يصبح، بالطبع أو بالتطبع، أو بهما معا، جامعا بين صفات السكير، والعاشق، والمجنون !!.

كما يصف أرسطو نموذج هذا النمط الفاشل المهرج مذكرا أن الغاية النهائية له، لكي يحتفظ بسلطاته، هي تدمير أرواح المواطنين، وزرع الشك وانعدام الثقة فيما بينهم، وجعلهم عاجزين عن عمل شيء أو فعل أي شيء! كذلك تعويد الناس الخسة والضعة، والعيش بلا كرامة، بحيث يسهل عليهم أن يعتادوا الذل والهوان.

ولهذا السبب أيضا نجد مثل هذا الفاسد يختار الفاسقين من البشر في المناصب العليا حوله ليكونوا له أصدقاء، فهم عبيد النفاق والتملق، و هو ، تسره المداهنة، وينتشي من النفاق، ويريد من يتملقه. ومن عاداته ألا يحب رجلا ذا كرامة، أو رجلا شريفا ذا روح عالية أو صاحب شخصية مستقلة. ويلخص أرسطو أساليب مثل هذا النمط في ثلاث غايات تضرب بجذورها في أعماق الشر:

الغاية الأولى: هي تدمير روح المواطن، لان مثل ذلك المسئول الفاشل المهرج الطاغية يعلم علم اليقين أن صاحب الروح الفقيرة-وهو الذليل الخانع -لن يتآمر عليه على الإطلاق..

الغاية الثانية: أن يكرس باستمرار ارتياب المواطنين بعضهم من بعض، إذ انه لا يمكن القضاء عليه إلا إذا اتحد أتباعه.

الغاية الثالثة هي: أن الطاغية يجاهد لكي يصبح المحيطون عاجزين عجزا تاما عن أي فعل، فعندها يكون السعي إلي التمرد عليه ضربا من المحال.

كأننا يا سيادة الرئيس بعد عشرات القرون لم نتقدم خطوة، فمازالت هذه النماذج تعيش بيننا، بنفس الصفات، وهي برغم ما يقبع في أعماقها من قذارة وخسة، ترى نفسها الأذكى، أنها قادرة على خداع الأعلى و الأدنى، الرئيس والمرؤوس، فتستعمل الكلمات

الطنانة الضخمة، لتخفى أخس الأعمال، و أبشع الصفات، التى لا يعرفها إلا فئة من أقرب المقربين تسند إليهم أرفع المناصب وأقربها، وهؤلاء بالضرورة، لابد أن يكونوا أشد خسة ونذالة، على أنهم بعد ذلك، يخفون بشاعتهم، خلف شعارات الدفاع عن الوطن المفدى، وعن الحاكم الذي يفتدونه بأرواحهم ودمائهم ، وفى حقيقة الأمر، أنهم لو أتيحت لهم الفرصة، لقتلوه !!.

هو مرض التقية إذن يا سيادة الرئيس ..

لكن هل أصاب هذا المرض رجال الشرطة و المنتمين للتيار الإسلامي فقط أم أصاب الجميع . . ؟

إخواننا من بعض فئات اليسار أو غلاة العلمانيين مثلاً . . الذين يضمرون هدم الدين كله . . تحت لواء الاستنارة و الهجوم علي الظلاميين . .

الصحفيون . . و رؤساء التحرير . . و الوزراء . . و القادة وأساتذة الجامعات . . و رجال الصناعة . . و . . و . . و . . حتى المواطن العادي نفسه . . ألا يمارس الجميع طقوس التقية والاستحلال ؟

تلك إذن يا سيادة الرئيس فيما أرى هى الكارثة التى تهددنا، إن المناخ السائد كله يشجع الإرهاب ، ولقد انفصل بضعة من أبنائنا ، عن ضمير الأمة والوطن، ولقد راهن كل وزراء الداخلية أنهم سيقضون عليهم، لكن كل وزير ينخلع من الوزارة والوضع أسوأ مما كان.

يا سيادة الرئيس: إن المريض عندما يجرب العلاج مرة ومرتين بلا فائدة يغير العلاج والطبيب، والطبيب العاقل عندما يؤدى علاجه إلى تفاقم حالة مريضه يراجع نفسه، يراجع تشخيصه وعلاجه، لماذا لا نصارح أنفسنا بأننا فشلنا في القضاء على الإرهاب، لماذا لا نعترف أن ذلك لا بد أن يدفعنا لمراجعة تشخيصنا وعلاجنا.

إننى أعلم أن كلابا كثيرة سوف تنبح مدعية عليّ مالم أقل،

وسوف تلوى أعناق الحقائق لتبتسر مما أقول ما لم أعن وما لم أقل، ولكى أكون واضحا، فإننى في منتهى الصرامة في نفسي ومع الآخرين أنه لا يحل قتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق، و أن هذا الحق لا يمكن أن يشمل سياحا أبرياء، ولا يمكن أن يشمل إلا محاربا في حرب، ولا يمكن أن يشمل حتى في الحرب طفلا أو امرأة أو شيخا، تلك بديهيات أنا معكم فيها، لكننى أحاول تجاوز الإدانة للفهم، و أصارحك القول يا سيادة الرئيس أنني كما حاولت أن أضع نفسي مكان رجل الأمن كي أفهم سر سلوكه، حاولت أيضا أن أضع نفسي مكان أولئك الذين يقومون بالأعمال الإرهابية.

أحاول أن أرصد الظاهرة بمنهج علمى، كما يرصد عالم الاجتماع ظاهرة وعالم الطب مرضا، ماهو مدى أعمار هؤلاء الإرهابيين وما متوسطه ؟ ما هو توزيع و أدوار الذكور والإناث؟ ما هو مستواهم الاقتصادى؟ ما هو توزيعهم الجغرافى؟ ما هو مستوى تعليمهم؟ وما هى مصادر ثقافتهم؟؟ماهو التاريخ المرضى لهم بتفاصيله؟؟ ما هى الأعراض؟؟ هل توجد أعراض مماثلة بين الأقرباء ؟؟ هل يوجد في الأسرة أسباب وراثية أو بيئية يمكن أن تؤدى إلى هذا المرض ؟؟ ما هو مستوى المعيشة؟؟ هل يوجد نقص في عنصر ما قد يكون هو السبب؟؟ هل سبق للمريض أن تلقى علاجا ؟؟ وما مدى نجاحه ؟ ماهى حالة جهاز المناعة في هذا الجسد ، وهل تحتمل أعضاء جسده الأخرى العلاج الجراحى مثلا ؟ أم أننا لو تدخلنا جراحيا لتفاقمت الحالة وربما مات المريض ... ما .ما . ما .... هل ... هل ... هل .... مئات الأسئلة والإحصائيات يا سيادة الرئيس كان علينا منذ زمان طويل أن نقوم بها فلم نقم، إن أى طبيب مبتدىء يلجأ إليها عندما يواجه مريضا فردا، فلماذا عجزنا عن فعلها و الأمة هى المريضة، هى المهددة بالجزأرة (من الجزائر) والهلاك ، اكتفينا بالإدانة، واكتفى الأمن بالنار والحديد والدم، كان مولعا دائما بنجاح العملية حتى و إن مات المريض !!!.

أحاول أن أفهم ، لكننى كما عجزت مع الشرطة أعجز معهم، كيف يستحلون لأنفسهم قتل نفس، أى نفس ، لنفترض أن كل مايقولونه صواب، وما هو بصواب، لنفترض أن الدولة كلها كافرة، ولنفترض

أنه يحق لهم إقامة الحد علينا جميعا، ألا توجد لنا عندهم شبهة تدرأ إقامة هذا الحد؟؟ ثم ما هذه الخيبة، إن كل دعاواهم ضد أمريكا و إسرائيل، وكل ضحاياهم من خارج أمريكا و إسرائيل،لقد افتقدوا ذكاء كذكاء محمود نور الدين* ففقدوا تعاطف الناس، لكن، يا سيادة الرئيس لا بد هنا أن نتساءل: هل هذه مجرد خيبة وغباء؟ أم أنها أصابع الموساد والـCIA؟!! و أن ما يحدث يهدف إلى شئ واحد، وهو دفع مصر إلى أن تكون جزائر!!.

هل ترى معى يا سيادة الرئيس خطورة الوضع الذي يدفعنا إليه غباء غير مفهوم ، وتطرف مذموم من الجهتين؟؟!!، وحول هذا كله مجتمع متحلل الأوصال، مجتمع يكذب حتى النخاع، وقد ترك الجميع إيمانهم بكل شئ، سوى التقية والاستحلال!!، وفى هذا الوسط، لن تضمن أبدا أن من يجاهر بالإدانة يضمرها، فلقد استقر في أذهان الجميع، أن الآخر أيا كان ، لا يقول الصدق، بل يقول مايريده الأقوى أن يقوله، ويمتنع عن قول مايورده موارد التهلكة، و إن التقية هنا خطيرة، كسرطان ينهش في الداخل، دون علامة أو شكوى، ويظل ينهش في صمت حتى ينهد الجسد فجأة، لقد جرمنا القول، وكان هذا خطأ فادحا ندفع الآن ثمنه، وليت نظامنا يا سيادة الرئيس قد اتسع لمن يقف في التليفزيون صائحا أنه يساند الإرهاب ويشجعه، فلو حدث ذلك ، لأمكننا أن نواجهه، أن نبطل حجته، أن نقنعه هو نفسه بخطأ ما ذهب إليه، أو على الأقل نمنع آخرين من اتباعه. لكن نظام الدولة البوليسية لدينا لا يسمح بذلك، و أظنك معي يا سيادة الرئيس ، أن الدولة البوليسية أوسع بكثير من مفهوم البوليس، وعلى سبيل المثال مثلا، فلا يمكن إلا في دولة بوليسية ، أن يظل واحد كالدكتور عبد العظيم رمضان، متبوئا مكانه في الأهرام و أكتوبر، رغم الرفض الشعبي والفكري له، ولو كنا في دولة غير بوليسية، تحترم الشعب ، للجأت الأهرام إلى قرائها في تقييم كتابها، حتى لا تبقى إلا من يريده القراء،

---

* قائد منظمة ثورة مصر، قام بعمليات متقنة ضد الإسرائيليين والأمريكيين ولم يصب فيها مصريا واحدا، ولقد بلغ من إتقانها أن ظنت جهات عديدة أن القائمين بها ليسوا مصريين، لم يكتشفوه، ولكن أخاه ، شقيقه خانه، وذهب إلى السفارة الأمريكية ووشى به، مقابل جنسية ودولارات أمريكية. ومازال البطل فى السجن المؤبد.

وليتك يا سيادة الرئيس كي تدرك حجم الرفض العام له أن تدفعه إلى الترشيح في أي انتخابات من أي نوع لترى رأى الناس فيه، على أنني لا أطالب بمنعه من الكتابة فليس ذلك حقي ولا حتى حقك أنت يا سيادة الرئيس، لكن ليصدر صحيفة لنفسه يقتنيها من يشاء، أما أن يُفرض على الأمة فرضا، فليس يقره إلا نظام دولة بوليسية .

يخيل إلى يا سيادة الرئيس أننا تناولنا ظاهرة الإرهاب بطريقة مشعوذ دجال رأى في الإرهاب روحا شريرة تلبست جسد الأمة وتقمصته، و أن هذا الدجال المشعوذ قد انهال على جسد الأمة تعذيبا كي يخرج الشيطان منه، وهو وضع يمكن أن ينتهى، بل غالبا ما انتهى، بموت الجسد ، دون أن يخرج الشيطان، لسبب بسيط، هو أنه لم يكن هناك شيطان أصلا، بل كان مرضا، استعنا عليه بالمشعوذ الدجال بدلا من الطبيب والعالم والخبير.

أما آن لنا أن نستبدل الإدانة ، أو على الأقل أن نستكملها بالفهم؟؟.

أما آن لنا أن نفهم أن تجفيف منابع الإرهاب ليست بالقضاء على أشخاص، كلما قضينا على واحد منهم فوجئنا باثنين مكانه؟؟. أما آن لنا أن نتوقف عن إصدار وثائق التجريم والكفر و الإدانة التى لم تغن عنا شيئا طوال الحقب الأخيرة، وكيف يمكن أن تغنى أمام من يظنون أنفسهم على صواب مطلق و أن الجنة مثواهم؟ إن الفعل جريمة ولا شك في ذلك، لكننا نظلم أنفسنا قبل أن نظلمهم عندما نرجع جرائمهم لسلوك إجرامي متأصل فيهم، أجل، جرائمهم ترجع لسلوك إجرامي، لكن معظم هذا السلوك الإجرامي فينا نحن، كمجتمع و أمة ، ونظام. تجفيف المنابع إذن لن يؤدى لقتلهم، لقد أثبتوا أنهم لا ينتهون، كما أثبتوا أنهم مستعدون للموت، مشتاقون له، وتجفيف المنابع لن يأتى بمحاصرة الدين في المدارس ووسائل الإعلام ولا بالخلط بين ماهو متطرف و إجرامي وما هو من صلب الدين. تجفيف المنابع يأتى بإيقاف المظالم، ألا يدخل تجار المخدرات مجلس الشعب من أوسع أبوابه، بإيقاف التعذيب، والبطش ، والقبض على الرهائن، تجفيف المنابع يأتى بألا تمارس

السلطة العناد ضد الأمة، تجفيف المنابع يأتى بمحاصرة اللصوص، تجفيف المنابع أتى بإيقاف التزوير و أن يكون هناك مجلس شعب يمثل الشعب، تجفيف المنابع يأتى بفصل السلطات حقا وصدقا، تجفيف المنابع يأتى عندا ينصر كل منا أخاه ظالما أو مظلوما و أن يرده عن ظلمه، تجفيف المنابع يأتى بنشر الثقافة الحقيقية الجادة والدين الوسط فى وسائا الإعلام بدلا مما يُذاع من تهريج.

لن أقول لك يا سيادة الرئيس أن تجفيف المنابع يأتى بتحكيم الدين وقيم الأخلاق، لن أقول ذلك رغم أنني أومن به.

أومن أيضا أننا عندما نريد أن ننزع التطرف من الأفئدة ، فإننا لن ننجح في ذلك إذا كنا سننزعـه لنضع مكانه قـهـر الدولة البوليسية وانحلالها، قد ننجح إذا وضعنا محله الدين الحقيقي بمنظومته الحضارية و الأخلاقية الشاملة، أجل ، إذا كنا نريد أن ندفع الناس للكفر باللاتي فإن ذلك لن يتم بقهرهم للإيمان بالعزى أو مناة كـبـديل .!!! بل يمكن فـقط أن يتم بدعـوتهم للإيمان بالله الواحد القهار. لن أستفيض في قول ذلك الآن . فقط ما أقوله، ما أطالب به ، أن يسود المنطق ، أي منطق!!!...

ولست بمدع يا سيادة الرئيس أنني أمتلك حلا، الكارثة أفدح من أن يجد أي فرد أو أي مؤسسة أو هيئة حلا لها ولن يأتى الحل إلا إذا تضافرت جهودنا جميعا .

انظر يا سـيـادة الرئيس إلى وجـوه الناس ترى الذل والقـهـر والخضوع والخنوع والخوف، فى أرقى الأماكن وفى أقلها شأنا، وما ذلك إلا لأن كابوس انعدام المنطقية يرزح على قلوب الناس يحميه حشد كثيف من رجال الأمن الذي درج رجل الشارع العادي على أنهم يهددون أمنه بدلا من الحفاظ عليه، ويحميه قلعة كثيفة الجدران من انعدام المنطق.

لكن . . هل يقتصر تأثير تغوُّل الدولة البوليسية وانعدام المنطق في المجتمع علي جهاز الأمن فقط ؟ أم أنه كما يشوه شخصيات الناس جميعاً يشوه أيضاً الأجهزة الأخرى . .

ما دور النيابة مثلاً في كبح جماح شطط الدولة البوليسية ؟ !

يا سـيـادة الرئيس . . الأمـر أخطر بكثـيـر من عـزل وزير وتوليـة وزير...

والفشل والتهريج الذى وصفت بهما مجمل أداء الأمن فى حادث الأقصر ليسا سمة وزارة دون وزارة أو قطاع دون قطاع، ان هذه الأوصاف أوصاف حكم وعهد، أعترف أنه لا يقتصر على العهد الحالى فقط. .

لشدما يجب أن نتكاشف و أن نتصارح يا سيادة الرئيس، ولشدما يجب عليك أن تأمر بسن القوانين التى تتيح لى أن أكتب دون خوف جهاز أمنك الباطش الجبار المهرج الفاشل، فذلك هو السبيل إلى إنقاذ الأمة وكشف الغمة، لكنكم يا سيادة الرئيس تفعلون العكس تماما تماما، فلتسمح لى إذن أن أهرب - بإذنك - إلى عهد آخر، لا تحاسبنى قوانينكم على مدى ما كان به من تهريج وفشل، لكن اعلم، أننى بذلك لا أنبش فى الماضى إلا لكى أكشف الحاضر

* * *

تهريج وفشل

في رائعته الفذة " مائة عام من العزلة" يصف جابريل جارثيا ماركيز مدى بداوة قرية ما كوندو ، حيث كان العالم جد وليد حتى أن أشياء كثيرة كان يُعوزها الاسم ، ولكى تُذكر ، كان ينبغى أن يستعمل الإصبع في الإشارة إليها ، كانت الأشياء موجودة لكن لم يكن لها أسماء ، فكانوا يتداولون ويتباحثون ويتشاجرون حتى يتم الاتفاق على اسم لها ، فلا يكون ثمة فهم حقيقي للشيء إلا بعد أن يسمى.(جملة اعتراضية عن إعجاز النص القرآني : وعلم آدم الأسماء كلها ، ولكن ذلك موضوع آخر).

وفى جملته الفذة "تهريج وفشل " استطاع حسنى مبارك أن يعطى اسما عبقريا لذلك الوضع الرهيب الذي نعيش فيه ولم نكن نعرف كيف نسميه. كنا نشير إليه بأصابعنا دون أن نملك القول

الجامع المانع الذى يصف ذلك الشىء الذي لا يقتصر على وزارة أو وزير ، كما لا يقتصر على جمهورية أو مملكة أو إمارة من عالمنا الإسلامي المترامي الأطراف، فلا يسد عين الشمس بل يسد عين الصواب والمنطق والعمل المنظم وكل المترادفات التي تعطى معنى ضد التهريج والفشل، لتكرس التهريج والفشل في كل بقعة، في كل بقعة أينما وليتم وجوهكم فثمة تهريج وفشل .

مر ذلك كله بخاطري و أنا أقرأ مضطرا كتاب بطرس غالى "طريق مصر إلى القدس : قصة الصراع من أجل السلام في الشرق الأوسط" و أقول مضطرا لأنني فوجئت بحجم الإشادة به في استفتاءات العام الجديد، و أعترف أنني واحد من الذين تحدث عنهم بطرس غالى في كتابه، بسخرية أو بمرارة لست أدرى، أولئك الذين ينظرون إليه على أنه يمثل الجيل الخائن الثالث من خونة أسرة غالى.

والحق أقول أنني فوجئت بأن الكتاب قيم فعلا، و أنه هز من الأعماق من يقيني السابق بكونه خائنا بالمفهوم المطلق الذي كنت أظنه، مفهوم العمالة، لا، لم يكن الأمر كذلك، فالرجل نفسه واجه ممدوح سالم معترضا على الاختيار العشوائي له كوزير حيث قال له بالحرف : "إن قوانينكم جعلتني عدوا للشعب . وليس من مصلحة مصر أن تعرض عليّ هذا المنصب" !!، ولم يخف الرجل أن ثقافته غربية، وكان من مبررات رفضه أنه أكاديمي جاد (هل يعنى أن الأكاديمي الجاد لا يصلح وزيرا، و أن التهريج والفشل هى مسوغات تعيين الوزير!!) ولقد كان مخلصا في حدود معتقداته وآرائه، والوزر يقع على من ولاه، بالرغم منه، لا عليه.

لا علينا من ذلك، أريد فقط أن أثبت أن بطرس غالى ليس مسلما بداية، فمن المنطقي ألا يكون إرهابيا، و لست أسخر منك أيها القارئ عندما أثبت البديهيات، بل أسجل بين يديك أن الأمر وصل بنا إلى الحاجة للتأكد والإثبات حتى لما تراه العين وتسمعه الأذن.

لا بطرس غالى ولا أحد من عائلته أيضا عرف عنهم أي ميل لمعارضة من يحكم، تلك أيضا في حكم البديهية التي يجب أن تسجل، ويعلم الله أنني لست من المتنطعين لكنني أرصد كل ما قد

يظنه القارئ هراء، لكي أثبت أنه ليس نحن، وليست باقي المعارضة وليس الإرهابيون هم الذين يرددون الآن التوصيف العبقري للرئيس مبارك، فحتى بطرس بطرس غالى في كتابه يؤكد ذلك، وعلى مستوى أعلى مما يستطيع غيره أن يلج فيه، فالتهريج والفشل هنا ليسا حصة وزير و إنما هما من نصيب الحكومة كلها . . . ورئيس الحكومة . . . بل ورئيس الجمهورية أيضا !! ، ولقد ساعده على ذلك منصبه العالى الذى وصل إليه مما قد يجعله أحد عشرة أشخاص في مصر لا تطالهم تقارير مباحث أمن الدولة أو ممارساتها، كما ساعده أيضا أنه يكتب عن رئيس جمهورية ميت!!.

فلنقرأ قول بطرس غالى مثلا فى ذكرياته عن المفاوضات التى سموها زورا مفاوضات السلام، وكيف كان الأداء المصرى فيها، لنقرأ ولنضع دائما نصب أعيننا السؤال : الآن هل يختلف الوضع ؟!:

" مر كل ذلك بخاطري وأنا في طائرة الهليكوبتر المتجهة إلى مطار ألماظة. كنا قد قضينا يومين في مفاوضات مرهقة جعلت من الواضح أن المفاوضات مع إسرائيل ستكون طويلة وشاقة وغير مؤكدة النتائج. وكان موقف المفاوض المصري ضعيفا، وأسلوبنا في التفاوض يزيد من هذا الضعف. وكان موقف إسرائيل في التفاوض قويا، والمفاوضون الإسرائيليون يتحركون وفقا لخطة مترابطة ومدروسة من أجل تحقيق أهداف واضحة تتعلق بكل من الأمد الطويل والقصير."

"في اليوم التالي، الأول من فبراير، قابلت وزير خارجية يوغوسلافيا ميلوس مينيك. قال لي إنه قرأ النص الحرفي للقائي بالرئيس تيتو. وانتقل ذهني على الفور إلى أن تسجيلات مقابلات الرئيس السادات تصل إلى الوزارة المعنية بعد أسبوع على الأقل أو عشرة أيام، هذا إذا وصلت أصلا. وأغضبني أن عدم كفاءة النظام المصري تجعلني في وضع أضعف من نظرائي."

أليس هذا تهريجا وفشلا ؟!

يقول بطرس غالى أيضا :

" في عصر يوم ٦ ديسمبر عقدت ثاني مؤتمراتي الصحفية. وكان الغرض أن أشرح أسباب اتخاذ مصر لقرار قطع العلاقات الدبلوماسية مع الجزائر وسوريا وليبيا واليمن الجنوبي. كان الرئيس السادات، دون التشاور مع أحد، قد قرر قطع علاقاتنا مع كل من عارضوا مبادرته. وكان على أن أقنع الصحفيين بأن قطع العلاقات الدبلوماسية، لا يعنى توقف كل العلاقات القنصلية والتجارية والاقتصادية، وأن العلاقات بين الشعوب لن تتأثر."

أليس هذا هو التهريج والفشل ؟!

يواصل بطرس غالى :

"في اليوم التالي اتصل بي رئيس الوزراء ممدوح سالم ليبلغني أنه قرر إغلاق قنصليات الاتحاد السوفيتي في بور سعيد وأسوان والإسكندرية، وكذلك قنصليات بولندا وتشيكوسلوفاكيا. وطلب منى إبلاغ تلك الحكومات بالقرار حتى تمتثل له بلا إبطاء. وبدأت أناقش مدى حكمة هذا القرار وما يترتب عليه من نتائج سياسية. لكن ممدوح سالم قاطعني :هذا القرار اتخذ، وهذه تعليمات الرئيس".

أليس هذا تهريجا وفشلا ؟!.

ولنواصل :

" في يوم السبت ١٠ ديسمبر توجهت في الصباح الباكر إلى فندق هيلتون النيل لأصحب سيروس فانس، وزير خارجية الولايات المتحدة، إلى القناطر الخيرية للقاء الرئيس. ركبنا سيارة مصفحة. وكان معنا هيرمان أيلتس الذي أطلع فانس أثناء الطريق على حجم المعارضة العربية للسادات، ولاسيما بين الشيوعيين والأصوليين الإسلاميين.

في القناطر الخيرية هناك فيلا مقامة وسط الحدائق التي أنشئت بالقرب من أقدم القناطر على النيل شمال القاهرة، وهناك اجتمع الرئيس السادات مع الوزير فانس وحدهما أولا، ثم دعينا

إلى الاشتراك معهما. من الجانب المصري كان هناك حسنى مبارك وممدوح سالم والفريق عبد الغنى الجمسى، وحسن كامل كبير الياوران وأنا. ومن الجانب الأمريكي كان هناك هيرمان إيلتس وروى آثرتون وهارولد سوندرز وفيليب حبيب. وبدا لى أن هذه الجلسة لا تعدو أن تكون استعراضا دبلوماسيا، أى " مناسبة لالتقاط الصور ". وفيها أكد فانس تأييد حكومته لمبادرة السادات، وأن حكومته ستشارك في مؤتمر القاهرة. وقال السادات إنه يؤكد أهمية الدور الأمريكي في جهود السلام في الشرق الأوسط وفى أية جهود تبذل للتوصل إلى حل. أما القضايا الحقيقية فكانت تناقش بين الرجلين وحدهما وجها لوجه. وأبلغ فانس بعد ذلك زملاءه بما قيل وراء الأبواب المغلقة. أما نحن فكنا كلما سألنا السادات يقول إنه لا يتذكر. ولم أعرف إلا فيما بعد أن الأمريكيين اعتبروا ذلك الاجتماع من الاجتماعات المهمة لأن السادات أقنعهم بأنه على استعداد للسير في طريقه ولو منفردا."

أليس هذا هو التهريج والفشل؟

يواصل بطرس غالى ، ومرة أخرى أؤكد للقارىء أنه ليس إرهابيا ولا معارضا وليس حتى مسلما:

" سألني ممدوح سالم عن تعيين سفير جديد لمصر في يوغسلافيا، إذ كان السفير السابق مراد غالب – وهو وزير سابق وطبيب قوى الشخصية – قد استقال احتجاجا على سياسة السادات الجديدة. قلت أنني اتصلت بكمال منصور سفيرنا في سوريا الذي عاد لتوه إلى القاهرة بسبب قطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وسوريا . وقد اتفقت معه على أن يسافر بعد موافقة الرئيس السادات إلى بلغراد دون إبطاء . و سألني ممدوح سالم :ألم يكن من الأفضل الانتظار لمعرفة رأى وزير الخارجية؟ لم افهم في البداية ما يعنيه ممدوح سالم. ثم أدركت مصدوما ما يريد رئيس الوزراء أن يبلغني إياه بطريق غير مباشر . و أزعجني هذا النبأ و أزعجتني أكثر الطريق التي بلغت بها. لماذا لم أبلغ من قبل طريقه صريحة ومباشرة ؟"

فلنقطع التسلسل لنرقب فى دهشة تعيين وزير دون رغبته أو

اقتناعه وعزله دون علمه!!.

أليس هذا هو التهريج والفشل ؟؟!!

ويواصل بطرس غالي:

"في عصر ذلك اليوم بعد عودتي إلى القاهرة حضرت اجتماع مجلس الوزراء. وأعلن رئيس الوزراء أن مؤتمر الإسماعيلية الذي سيعقد في اليوم التالي بين الرئيس السادات ورئيس الوزراء بيجن سيؤدى إلى اتفاق على أهم أسس معاهدة السلام . و وجدت من واجبى ، من باب الأمانة الفكرية والسياسية، أن أعلق على ذلك،فطلبت الكلمة و قلت أن مفاوضات السلام تستغرق وقتا طويلا، و أن الجهد المبذول لتحقيق السلام سيكون جهدا طويلا وشاقا و يمكن أن يستمر عدة شهور أو حتى سنوات. وضربت مثالا على ذلك محادثات السلام لإنهاء حرب كوريا وحرب فيتنام . وكانت تلك المحادثات مبنية على مبادئ مصالح الأطراف المختلفة ووضعت في خدمتها وأن محادثات الإسماعيلية ستقوض مبدأ الوحدة العربية وتضحى بمصالح الفلسطينيين

لم يلق ما قلته قبولا لدى رئيس الوزراء ممدوح سالم. وظهر استياؤه على وجهه. وقال إن هناك فارقا كبيرا بين محادثات الإسماعيلية ومحادثات كوريا وفيتنام . و كنت على وشك طلب الكلمة مرة أخرى عندما شعرت بمن يزغدنى ويهمس لي بأنه لا داعي لإثارة غضب رئيس الوزراء، والتفت لأجد انه النبوي إسماعيل يقدم لهذه النصيحة الأخوية: لم أقل شيئا وانفض الاجتماع .(...) دارت محادثات مكثفة في الإسماعيلية لمدة يومين، بدأت بجلسة مغلقة بين السادات وبيجن(...) بعد نصف ساعة خرج بيجن والسادات لكي ينضما إلينا. وبدا رئيس الوزراء الإسرائيلي سعيدا ومستريحا،وتساءلت عما يمكن أن يكون مصدرا لسروره(...!!!)

وعندما كنت في طائره الهليكوبتر التي حملتنا من الإسماعيلية إلى مطار ألماظة ،بدا لي انه ليس ثمة شك في أن اجتماع الإسماعيلية قد فشل . فقد اتسم بالارتجال وبعدم تنظيم

المفاوضات . وكنا أعددنا دراسات ومذكرات وملخصات وأبحاثا، لكنها لم تقرأ و لم تستخدم ."

أليس هذا هو التهريج والفشل ؟؟؟

بل لقد وصل الأمر أن بطرس غالى اكتشف أن السادات الذى كان يصر على إجراء بعض المباحثات باللغة الفرنسية دون مترجم مدعيا أنه يتقنها، كان في الواقع لا يتقن سوى فهم مجمل الأمور والرد ردودا عامة .

على أن هناك واقعة فادحة صارخة هزتنى بأكثر مما هزنى الكتاب كله، وتلك الواقعة هى كيف تصرف رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء بمنتهى التهريج حتى كان الفشل الشهير والفضيحة الداوية في لارناكا، لقد كان تهريجا وفشلا يطال أداء رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والدولة كلها، وما نكشفه الآن إلا لكى نثبت أن رئيس الجمهورية ليس معصوما من الخطأ، ولا من التهريج والفشل.

إن القارئ الذكى لابد أن يفهم أننى أعود إلى الماضى لأننى غير قادر على مواجهة الحاضر، على مواجهة التهريج والفشل الذى لا يكاد يفلت حكومة عربية أو إسلامية، ذلك التهريج والفشل، المتمثلة نتائجه الكبرى فى نكبات ثلاث كبرى: ألا وهى احتلال فلسطين عام١٩٤٨ وهزيمة ٦٧ وحرب الخليج .

* * *

كل يوم، بعد صلاة الصبح ، تمتد يدي في وجل إلى المذياع وكأن مفاتيحه من نار ، وتتأهب أذني لانسكاب اللحن الموسيقى المميز لهيئة الإذاعة البريطانية وكأنه سم زعاف، و تتساقط علىّ الأخبار قطعا من الحديد المنصهر، وفى كل صباح منذ أعوام ستة ، ترتد الذكرى بعنف وقوة أربع قنابل نووية (مجموع ما قصف به العراق من قنابل)، إلى ذلك اليوم الحزين، الدموي، حين في صبح أسود، راحت تلك الإذاعة تبث أخبارها بنشوة تغذيها شماتة وحقد ألف عام لتزف إلى العالم أنباء تدمير العراق ، وانهيار كل دفاعاته ومراكزه الحيوية حتى بات دولة تنتمي إلى العصور الوسطى، وما

كان الألم المروع من أجل العراق - و لو كان فليس فيه ما يشين - لكنه كان من أجل الأمة العربية و الإسلامية، فقد أحسست يومها، أن الأمة، تتفكك أوصالها، ويتحلل وجودها، وكان الخزى والعار، أن قوات عربية و إسلامية شاركت، دون أن تعي أنها بدأت الفصل الأول، من مسلسل معدة حلقاته، و أن الحلقة الأخيرة فيه تنتهي بإسرائيل تمتد من النيل إلى الفرات، ومن آرات إلى الحبشة، كنا نخرب بيوتنا بأيدينا، وبحت أصواتنا من الصراخ ونحن نحذر: ليس من أجل العراق بل من أجلنا و أجلكم و أجل الكويت، لكنهم لم يصدقونا، فاندفعوا، نحو الانتحار، وكان الصهاينة والأمريكان، يدركون ويتوقعون ، أنه من الصعب على من تورط معهم في المرة الأولى، أن يتراجع في الثانية، فقد كان ما حدث - على وجه ما - أشبه بهتك غشاء البكارة، لا يهم بعده ما يحدث، ولا يؤذى، فإن كان ثمة اعتراض على التوابع ممن رضى بالاغتصاب أول مرة، فسوف يواجه بالعنف كله ، و بأولبرايت إذا قاوم في المرات التالية، آلاف المرات التالية..

كان ذلك قمة التهريج والفشل للأمة الإسلامية في كل تاريخها، وما زال، لأن قيادة هذه الأمة في لحظة حاسمة من تاريخها فقدت وعيها و أسلمته لعدوها، لحظة فارقة ، وكان ثمة حلول كثيرة - لا أقول سهلة - لكن أى حل منها بلا استثناء كان أفضل مما اختاروه ، وبمعنى آخر ، فقد اختاروا الشيء الوحيد الذى كان عليهم تجنبه، وثلموا في أمتهم ما لن يلتئم لقرون.

و الآن ، بعد كل هذا الزمن، فإن الأهرام تقرر أن الخطة كانت مرتبة منذ عام ٨٣.

كان تهريجا وفشلا جليلا يليق بمقامات ووظائف مرتكبيه، وكانت نتائجه لا ما نشهده من مذلة ومهانة اليوم وغدا بل ربما لعشرات السنين . تهريج في السياسة، في الحرب، في التاريخ، في الجغرافيا، في الدين، وكانت الحرب الوحيدة طيلة القرون الأخيرة التى كان انتصارنا فيها ساحقا ، لكنها للمأساة كانت حربا ضدنا.

الحقيقة أننى أريد أن أواصل ، لكن القارىء الذكى سيفهم لماذا أوجز ولا أطنب ، فأحيانا ، أود لو استطعت محاكمة كل حاكم نادى

ذات يوم بإمكانية الصلح والسلام والآن يصرخ أن ذلك مستحيل، أود أن أحاكمهم، على الأقل لأوقف التهريج والفشل، ولكننى فى أحيان أخرى، أتصور ،و إن كان ضد ما أومن به ، أن يكون ترقيع غشاء البكارة هو المخرج الوحيد إلى توبة قد تكون – و إن كنت لا أظن – صادقة .

لنترك إذن كل ذلك ولنرجع إلى نماذج أصغر للتهريج والفشل، نماذج أصغر، لكنها " كالماكيت " الذي يتيح لك أن ترى المشروع كله، قبل أن يتم.

إلا أنني إذ أتحدث عن التهريج والفشل في مصر، أجد لزاما على أن أقرر بضمير مستريح ، أن نصيبنا من التهريج والفشل، مهما بلغت ضخامته، هو الأقل بين بلاد العالم الإسلامي التي تسد عين الشمس!!

وثمة مثل من الأمثلة الجامعة المانعة على التهريج والفشل أورده بطرس غالى، وفى هذا النموذج المذهل، نكتشف كيف تلحق حماقة القادة والرؤساء ورؤساء الوزارات العار والخذلان بأممهم و مؤسساتهم وجنودهم .

كان ذلك في عام ٧٨ ، وكانت لإسرائيل تتباهى أيامها أمام العالم بعمليتها الناجحة في عنتيبى، حيث حررت رهائن طائرتها المختطفة هناك وقتلت الخاطفين، وكانت مصر، بعد أن تاهت في بحور الغواية تحاول منافسة إسرائيل في مكانتها عند الغرب، غير مدركة أنها ابتلعت الطعم، فإن إسرائيل هي الغرب، لكن لنترك بطرس غالى، الذي ليس إرهابيا ولا معارضا ليروى لنا الحكاية :

" في يوم السبت ١٨ فبراير تلقيت مكالمة تليفونية من نيقوسيا. كان على الخط خرستوفيدس وزير خارجية قبرص يقدم لي التعزية، فقد قتل يوسف السباعي في نيقوسيا على يد إرهابيين فلسطينيين (...) كان صديقا مقربا إلى الرئيس السادات، وربما كان ذلك هو السبب في اغتياله....(...) وكان رد فعل الرئيس السادات عاطفيا وشديدا عندما علم بنبأ موت صديقه. وعقد العزم

على القبض على الفلسطينيين الذين اغتالوا يوسف السباعي ومعاقبتهم.

اتصلت بممدوح سالم رئيس الوزراء الذي طلب مني أن أتوجه على الفور إلى مكتبه(...) فقد زادت الأمور تعقيدا، إذ أن الفلسطينيين الذين اغتالوا يوسف السباعي اختطفوا طائرة واحتجزوا إثنى عشرة رهينة، من المصريين وغير المصريين. (...) وعند ذلك طلب من مجموعة الصاعقة أن تتوجه إلى قبرص.

سألت: هل وافقت حكومة قبرص على قيام الصاعقة المصرية بهذه العملية؟

"وأجابني رئيس الوزراء: لقد اتصلت بالسلطات القبرصية وشرحت لها كل شئ!. وسألته مرة أخرى " هل وافقوا؟! وقلت إنه بمقتضى القانون الدولي فإن قيامنا بهذه العملية بدون موافقة حكومة قبرص يعتبر... لكن ممدوح سالم قاطعني قائلا لقد قلت لك من قبل يا دكتور إنه ليس للقانون الدولي أدنى صلة بالعلاقات الدولية!. ثم طلب مني أن أبحث انعكاسات قطع العلاقات الدبلوماسية مع قبرص."

أنظروا إلى رئيس الوزراء الهمام، الذى يعده الكثيرون أفضل وأنزه رجال الشرطة فى مصر، انظروا إليه وقد لحقه التشويه الذى لحق بالأمة كلها، فليس العالم عنده بأبعد من أرنبة أنفه، و إن كان يستطيع انتهاك القانون فى الداخل بكل السهولة واليسر فلماذا لا يستطيع ذلك فى الخارج أيضا. إن أحدا لم يردعه فى الداخل فلماذا يشق على نفسه يتصور أن أحدا يمكن أن يردعه فى الخارج، فلنواصل مع بطرس غالى :

تناولت عشائي في البيت. وحوالي الساعة العاشرة دق جرس التليفون. كانت دعوة عاجلة من ممدوح سالم. (...)

قال رئيس الوزراء: " لقد حدثت كارثة. لقد قتل عدد كبير من رجال فريق الصاعقة المصري وأصيب غيرهم على يد القوات القبرصية. ويجب أن تذهب إلى قبرص علي الفور. وقد أغلق مطار لارناكا بسبب المذبحة، والمطار الوحيد المتاح الآن هو قاعدة سلاح

الطيران الملكي البريطاني في اكروتيري. وعليك أن تتصل بصديقك السير البريطاني حتى يحصل لك على تصريح بالهبوط هناك!.

(...)كانت شبكة التليفونات في مصر عديمة الجدوى تقريبا. وعلى الفور اتصل ممدوح سالم بإدارة التليفونات الدولية وأعطى تعليمات بان تحظى مكالمة السفير البريطاني مع لندن بالأولوية العليا.

وفى الرابعة صباحا تلقيت المكالمة آلتي كنت انتظرها من موريس. وافقت السلطات العسكرية البريطانية على هبوط طائرتي في قاعدة أكروتيرى الجوية.

(...) توجهت إلى المطار الحربي في غربي القاهرة. (...)حاولت أن أتصل بويلى موريس لإبلاغه بأن موافقة حكومته لم تصل بعد إلى أكروتيرى، و لكن بلا جدوى، فخطوط التليفون في القاعدة العسكرية المصرية كانت معطلة! واضطررت للعودة إلى مكتبي في ميدان التحرير، على بعد ساعة كاملة، لأتصل بالسفير البريطاني من هناك. أكد لي أنهم حصلوا على الموافقة على هبوطي. وعدت أقطع الطريق إلى مطار القاهرة. وهناك وجدت سفير قبرص لدى مصر (...). وركبت الطائرة، وكانت من طراز هيركيوليس ا سى-١٠٣١، قادرة على حمل سيارات ومعدات ثقيلة وعدد كبير من الجنود. وكان من دواعي دهشتي أن أجد في داخل الطائرة مجموعة من الضباط والجنود المسلحين. ترى هل يستعدون لإجراء هجوم آخر تحت ستار مهمتي؟ وطلبت من قائد المجموعة أن يبلغني عن الغرض من وجودهم. قال: ربما يكونون هنا لحمايتك!. قلت لقائدهم إن وجود هؤلاء الرجال بأسلحتهم قد يوحي للسلطات القبرصية بأنهم قادمون لتنفيذ هجوم مسلح آخر، وإننا يجب أن نتركهم في القاهرة. ولكن الضابط أجاب " إن لدى أوامري، ولا أستطيع أن أناقشها".

وبعد نحو ساعتين هبطنا في أكروتيرى حيث استقبلني ضابط بريطاني. أدى التحية العسكرية وأبلغني أن هناك طائرة هليكوبتر بها أربعة مقاعد مستعدة لنقلى إلى لارناكا. لم يغادر

الضباط والجنود المصريون الطائرة المصرية هيركيوليس " سي-٣١٠ !. وحملتنا طائرة الهليكوبتر إلى مقر رئيس جمهورية قبرص. كانت الساعة حوالي ٢,٣٠ بعد الظهر قابلت الرئيس القبرصي سبيروس كبريانو ووزير خارجيته ووزير الداخلية وعددا من كبار الشخصيات.

قبل أن نناقش أي شئ طلب مني الرئيس كبريانو بأدب أن أطلب من السفير حسن شلش سفير مصر في نيقوسيا أن يخرج من الغرفة. قال إن السفير كذب عليه وأنه لا يستطيع أن يثق به بعد ذلك. كان الجو متوترا وكبريانو يبدو مهتزا. وطلبت من السفير حسن شلش أن ينتظرني في الخارج، مبتلعا هذه الإهانة السافرة حتى أتمكن من أداء مهمتي (...). وكان الغرض من مهمتي واضحا: أن أقنع السلطات القبرصية بالإفراج عن الضباط والجنود المصريين من مجموعة الصاعقة، وأن أطمئن إلى أن قتلة يوسف السباعي قد تم القبض عليهم. ولكن وسائل تحقيق هاتين الغايتين لم تكن واضحة على الإطلاق. (...) وقلت إني أود أن ينضم إلينا مدير مكتبي السفير علاء خيرت إذا كان القبارصة لا يريدون أن ينضم إلينا السفير حسن شلش. واستجابوا لطلبي.

بدأنا المفاوضات حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر واستمرت حتى غروب الشمس . بدأ الرئيس كبريانو يسرد الأحداث من وجهة نظره: قال إنه في الساعة ٥,٣٠ من صباح الأحد ١٩فبراير هبطت طائرة الإرهابيين الفلسطينيين في مطار لارناكا، ووقفت على بعد حوالي مائة ياردة من المبنى الرئيسي للمطار. وبعد١٥ دقيقة هبطت طائرة مصرية.

قال كبريانو إن ممدوح سالم رئيس الوزراء المصري كان قد أبلغه أن وزير الإعلام المصري سيصل إلى نيقوسيا على متن طائرة مصرية خاصة لمواصلة التفاوض مع الإرهابيين. وأن ممدوح سالم لم يذكر شيئا عن وجود مجموعة من رجال الصاعقة المصريين على نفس الطائرة.

وعندما وجد المسئولون القبارصة مجموعة من الصاعقة المصريين ومعهم أسلحتهم ومعداتهم وسيارات على ظهر الطائرة

بدلا من وزير الإعلام، بادروا بالاتصال بالسفير المصري وأوضحوا له أن رجال الصاعقة المصريين لن يسمح لهم بمغادرة الطائرة أو القيام بأية عملية فوق تراب قبرص. وأبلغوه أنه إذا حاول الصاعقة المصريون الاقتراب من طائرة الإرهابيين الفلسطينيين فإن القوات القبرصية ستطلق عليهم النار.

وأكد السفير المصري حسن شاش لوزير الخارجية أن مصر لن تقوم بأي عمل عسكري. وظل على اتصال مستمر بالقاهرة. وكان المصريون يعرفون جيدا أن المفاوضات جارية بين القبارصة والفلسطينيين. وأثناء تلك المفاوضات لم يحاول السفير المصري ولا الملحق العسكري أن يشيرا بشيء عن كيفية تسوية الأزمة. وكرر كبريانو القول بأن كلا من السفير المصري والملحق العسكري أكدا له أن رجال الصاعقة المصريين لا يعتزمون محاولة القبض على الإرهابيين.

ولكن في الساعة ٨,٣٠ فتحت أبواب الطائرة المصرية، وخرجت سيارة جيب مسرعة متجهة إلى طائرة الإرهابيين، وبدأ هجوم من جانب الصاعقة المصرية. فتحت القوات القبرصية النار، وقتلت خمسة عشر من أعضاء الصاعقة وجرحت ستة عشر. وأصيب ستة من رجال الحرس الوطني والشرطة القبرصية. وعند انتهاء القتال، سلم الإرهابيون الفلسطينيون أنفسهم للسلطات القبرصية وأفرج عن الرهائن الاثنى عشر. قال كبريانو: هذا بالضبط ما حدث. وإني على استعداد لأن أقسم على الإنجيل أن ما ذكرته هو الحقيقة.

جملة اعتراضية: إننى أحاول أن أتمالك غضبى، غاضب من أن كلمة تهريج وفشل هى كلمة مهذبة جدا لاتوازى ما أمامها من أوزار ومصائب، كما أننى غاضب من اللغة نفسها، فقد على الكلمات أن تكون : لا كالرصاص، بل رصاص فعلا يقتل من يصيبه وينطبق عليه، و . انتهت الجملة الاعتراضية ولنعد إلى بطرس غالى:

(...) وبدا الرئيس كبريانو منزعجا، وكان وزير الخارجية خرستوفيلس يرتجف غضبا. وتكهرب الجو. وواصلت الكلام، متعمدا إبداء المرونة والنية الطيبة. قلت إنه مهما يكن من خطورة

الأحداث ألتي نناقشها، ومهما اختلفنا بشأن الجهة ألتي يلقى عليها اللوم، فإننا يجب أن نتفق على ضرورة تسوية الأزمة سلميا وبلا إبطاء. وقلت إن مهمتي ليست الإفراج عن أعضاء القوة المصرية بقدر ما هي المحافظة على العلاقات الطيبة بين مصر وقبرص. وأن الحكومة المصرية أرسلت وزير الدولة وليس وزير الحرب. وأن اختياري، وأنا رجل دبلوماسي، بدلا من اختيار أحد القادة العسكريين، دليل على أن مصر تريد المحافظة على العلاقات الطيبة مع قبرص. ثم انتقلت إلي المطلبين المصريين: الأول، أنه يجب تسليم الإرهابيين الفلسطينيين إلينا لمحاكمتهم في مصر على اغتيال يوسف السباعي، والثاني ضرورة إعادة رجال الصاعقة مع أسلحتهم ومعداتهم العسكرية فورا.

وتحدث وزير الداخلية القبرصي قائلا: " سيدي الدكتور، أنت رجل معروف بخبرتك الواسعة بالقانون. ولابد أنك تعرف أن الفلسطينيين لا يمكن تسليمهم للسلطات المصرية. فقد ارتكبت الجريمة على أراضى قبرص وبالتالي يجب محاكمتهم أمام محاكم قبرص!."

قلت إني لا اعترض على هذا التفسير القانوني، لكن ما اقترحه باسم الحكومة المصرية هو اتفاق خاص بين مصر وقبرص في هذه المسألة المحددة، حتى يمكن أن نحاكم الإرهابيين في القاهرة.

وبعد ذلك تحدث الرئيس كبريانو طويلا عن موقف حكومته. وبينما كنت استمع إليه رحت أستعيد مناقشة دارت مؤخرا مع ممدوح سالم، ذكرت له فيها أن المطالبة المصرية بتسليم المتهمين لمحاكمتهم أمام المحاكم المصرية أمر مستحيل من وجهة النظر القانونية. وكان رد رئيس الوزراء المصري هو أن سخر مني ومن القانون الدولي.

قال كبريانو إنه مستعد لبحث إمكانية الوصول إلى اتفاق خاص مع مصر، ولكن ذلك يحتاج إلى وقت، كما يتطلب موافقة برلمان قبرص. وان هناك احتمالا كبيرا بأن يرفض البرلمان الموافقة على اتفاق كهذا لأنه لا يتفق مع الدستور.

قلت: إذن فلندع مؤقتا مسألة الإرهابيين ونناقش عودة رجال الصاعقة بكل معداتهم العسكرية إلى مصر.

تكلم كبريانو بانفعال عن العدوان المصري على سيادة قبرص. وقال إن محاولة القيام بعمل عسكري على تراب دولة أخرى بدون إذنها أمر غير مقبول. وقرر أنه لا يعارض في عودة الجنود المصريين لكنهم يجب أن يتركوا أسلحتهم في قبرص.

كنت أعرف الفرق بين عودة الرجل العسكري ومعه سلاحه، وعودته وقد ترك سلاحه وراءه، مما يعنى الاستسلام والإذلال.

(...) وقلت: إن الضابط المصري رفض اقتراح قبرص رفضا قاطعا. وأكد لي أنه لن يغادر قبرص بدون أسلحته. وقلت أنني أتفق تماما مع وجهة نظره. وإذا أردنا أن نصل إلى حل سلمى لهذه الأزمة والحفاظ على العلاقات الدبلوماسية بين بلدينا، فعلينا أن نأخذ موقف الضباط والجنود المصريين في الاعتبار وأن نحترم تقاليد الشرف العسكري. وبغير ذلك فإني سأعود إلى القاهرة على الفور لأبلغ رؤسائي أنى فشلت في مهمتي.

عند ذلك أبدى القبارصة عددا من الحجج وقدموا العديد من السوابق العسكرية والقانونية والتاريخية. ورفضت التراجع. وفي مواجهة إصراري وافقوا من ناحية المبدأ على عودة فريق الصاعقة ومعه كل أسلحته.

جملة اعتراضية أخرى: ما سيقرأه القارىء على الفور عملية رتق لغشاء البكارة يبدو أن الكثيرين جدا قد أدمنوها . .

فلنعد إلى بطرس غالى :

.. واتفقنا كحل وسط على ترتيب مؤداه وضع الأسلحة في صناديق مغلقة بإحكام، ونقلها في نفس المركبات التي ستنقل الرجال من نيقوسيا إلى القاعدة الجوية البريطانية في أكروتيرى. وعند ذلك ظهرت عقبة جديدة. فبعد أن حصلت على موافقة القبارصة على هذا الحل الوسط أشار أحدهم إلى أن القاعدة العسكرية البريطانية لا تقبل دخول أسلحة إليها، وأن القوات

الأجنبية لا يسمح بدخولها محملة بالأسلحة والمعدات.

غادرت غرفة العمليات لأتصل بالقائد البريطاني هاتفيا. فأكد لي أن هناك حظرا قاطعا على دخول أسلحة إلى القاعدة. وشرحت له الموقف وقلت: " نحن نطلب السماح لفريق الصاعقة المصري بدخول القاعدة بأسلحته في طريقه إلى القاهرة . وطلبت منه أن يعطيني رقم تليفون وزير الدفاع البريطاني في لندن حتى أتمكن من مخاطبته مباشرة. قال الضابط البريطاني إنه سيقوم بإبلاغ طلبي إلى لندن ويسعى للحصول على رد إيجابي، وإنه إذا لم ينجح فسيكون في وسعى الاتصال المباشر بالوزير. شكرته وقلت إن كل المطلوب هو استثناء لمدة نصف ساعة سيصل خلالها رجالنا إلى الطائرة ثم تقلع عائدة إلى مصر.

وفى طريق عودتي إلى غرفة الاجتماع، طرأ لي أن هناك بلا شك مئات من رجال الصحافة والمصورين ينتظرون نتيجة المفاوضات، وأن صور الضباط والجنود المصريين وهم في طريقهم إلى أكروتيرى بدون أسلحتهم يمكن أن تفسد كل جهودي. وقررت أن يكون نقل رجال الصاعقة بعد حلول الظلام وفى وقت غير معلن لتجنب وجود المصورين. ثم ناقشنا المركبات التي سيستقلها أعضاء الصاعقة في طريقهم إلى أكروتيرى. وبعد كثير من الأخذ والرد اتفقنا على أن يقوم بقيادة المركبات سائقون قبارصة ويجلس إلى جانب كل منهم ضابط مصري.

ودخل إلى الغرفة موظف مدني قبرص. وقال إن قائد القاعدة البريطانية يريد أن يتحدث معي. أبلغني الضابط البريطاني بموافقة رؤسائه على طلبي بشرط ألا تفتح الصناديق التي تحوى الأسلحة إلا بعد تحميلها في الطائرة المصرية، وأن يتولى سائقون بريطانيون قيادة المركبات عند وصولها إلى أرض القاعدة. وافقت، واتصلت بضابط الصاعقة المصري لأوضح له ما تم الاتفاق عليه. رحب بالترتيبات ورأى أنها تحافظ على شرف رجاله. وعدت بعد ذلك إلى الغرفة لنبدأ المناقشات حول التحفظ على الإرهابيين الفلسطينيين. وتمسك القبارصة بموقفهم، وعلى ذلك لم أتمكن من تحقيق أي تقدم. وأقول الحق، إني كنت أخشى أن يكون هناك قرار

قـد اتـخـذ في الـقـاهـرة بـالـفـعل بقطع الـعـلاقـات الدبلـومـاسـيـة مع قـبـرص. وأحـسـست بدقـة مـوقـفي، إذ أن منـاقـشاتَـيَ مع الـقـبـارصـة كانت تقوم على أساس ضرورة المحافظة على العلاقـات الدولية بـين البلدين.

أبدى الرئيس كبريانو رغبتـه في إبلاغ الصحف بما اتفقنا عليه. قلت له إني أفضل عدم الإدلاء ببيانات صحفية، إنى أشعر بأني لم أنجح تمامـا فـي إنجـاز مـهـمـتي. ولذا اقـتـصـر اللقـاء مع مندوبي الصحف على بيان موجز من جانب كبريانو عن الاتفاق على إطلاق سـراح رجال الصـاعـقـة المصريين. وقـال أيضـا إنه تم الاتـفـاق على ألا تؤثر الأزمـة الحـاليـة على الـعـلاقـات بين البلدين. والـتـزمت أنا الصمت.

صافحت الرئيس كبريانو وشكرته وانطلقت بطائرة الهليوكبتر إلى القاعدة البريطانية. (...) ومن أكروتيرى اتصلت بممدوح سالم لأبلغـه بأن قـافلة المركبـات الـتي تنقل رجـال الصـاعـقـة والقـتلى والجرحى في طريقها إلى أكروتيرى. ورحب ممدوح سـالم بالخبـر وقال إن مجلس الوزراء المصري بكامل هيئته سيحضر إلى مطار القـاهـرة للتـرحـيب بـعـودة القـوات المصـريـة عـودة الأبطال!!!. واندهشت لذلك أشد الدهشة، ولكنى لم أشأ أن أناقش ممدوح سالم في ذلك. (...)

وصلت القـافلة الـتي تحـمل القـوة المصـريـة. وفـضلت ألا أغـادر الغرفـة حتـى لا أرى حـالة الجرحى وجثث الموتى خوفا من أن أفـقد سيطرتي على نفسي. لم يمض وقت طويل حتى أبلغوني بأن جميع الرجال قد صعدوا إلى الطائرة. وأن المعدات والسيارات والأسلحة قد تم تحميلها أيضا، وأن الطائرة على استعداد للإقلاع. وصعدت إلى الطائرة، وجلست في كابينة القيادة. وكان معي سفير قبرص في مصر الذي صحبني منذ بداية الرحلة من القاهرة.

حلقت الطائرة، وقدم لي أحد قادتها كوبا من الشاي وهو يقول لي بعطف ويبتسم: (نحن نعتذر يا دكتور عن إزعاجك)،. وشعرت بكل المعاني الـتي قـصدها الرجل بعبـارته البسيطة. ولو لم يكن السفير القبرصي موجودا معنا لبكيت. وشعرت كما لو كنت أحد

أفراد الصاعقة آلتي قامت بالمهمة.

وصلنا إلى مطار القاهرة الدولي الساعة ١.٣٠ صباحا، ووجدنا ممدوح سالم ومجلس الوزراء بكامله هناك لاستقبالنا. وهتف أبناء الصاعقة بشعارهم : التضحية، الإخلاص، النصر!! وألقى الفريق الجمصي كلمة، ولكن بين الجمع الكبير والأصوات المختلطة لم أستطع أن أسمع ما قال. وأخذ الجميع يهتفون : تحيا مصر! تحيا مصر!. ثم دخلت استراحة كبار الزوار. وقبل أن يسألنى ممدوح سالم عن تفاصيل مهمتي عاتبنى بقوله: لماذا تأخرتم إلى هذا الحد؟ لقد كنا في انتظاركم منذ ساعات!!.

وعلمت أن مجلس الوزراء اتخذ قرارا في اجتماع طارئ استمر حتى منتصف الليل باستدعاء البعثة الدبلوماسية المصرية من قبرص، ومطالبة حكومة قبرص باستدعاء بعثتها الدبلوماسية من القاهرة.

صدمني النبأ كما لو كان ضربة صاعقة. وكدت انفجر. ألم يكن في وسع المجلس أن ينتظر قليلا حتى يعود الوزير المكلف رسميا بمحاولة تسوية الأزمة مع قبرص؟ ترى هل فكر مجلس الوزراء في النتائج التي كان يمكن أن تترتب على معرفة رئيس قبرص بهذا القرار قبل مغادرة رجال الصاعقة للأراضي القبرصية ؟ أكان من المحتمل أن ترفض السلطات القبرصية إعادتهم. وكان يمكن أن تعتقلهم، بل وأن تحاكمهم، ولكنى تمالكت أعصابي، محاولا أن أتعامل مع أخطاء حكومتي وتناقضاتها بصبر وهدوء.

بعد ذلك يطرح الدكتور بطرس غالى تساؤلات دامية، يمكن أن تطرح في هذه الواقعة بالذات كما يمكن أن تطرح أسئلة مثلها عن حرب الخليج الثانية ، وما قبلها ، وما بعدها .

يقول الدكتور بطرس غالى :

.. كانت هناك أسئلة عديدة لا تزال تحتاج إلى إجابة. كيف اتُّخذ القرار بعملية الصاعقة؟ كيف تصور المسئول عن العملية أنه يمكن إتمامها بدون موافقة حكومة قبرص؟ كان من الواضح أن عملية كهذه لا يمكن أن تنجح بدون موافقة ومساعدة السلطات المحلية.

وبدون ذلك كان على المكلفين بالعملية أن يواجهوا جبهتين: الإرهابيين من ناحية، والسلطات المحلية من ناحية أخرى. هل كان قادة مجموعة الصاعقة على اتصال بالقاهرة عن طريق السفير المصري أو عن طريق الملحق العسكري؟ هل وافقت القاهرة على الإجراء الذي اتخذ؟ ألم يدرك قادة الصاعقة ما كانت القوات القبرصية تعنيه بمحاصرتها للمطار؟ هل تصورت أن القبارصة يهددون بالكلام فقط وأنهم لن يهاجموا القوة المصرية؟ وإذا كانت قيادة الصاعقة قد عزمت على الهجوم فلماذا انتظرت ساعتين على الممر. وأضاعت عنصر المفاجأة؟ قيل لي إن المقدم نبيل شكري قائد العملية لم يكن إلا منفذا لتعليمات تلقاها من القاهرة.لماذا لم تغير القاهرة تلك التعليمات والأوامر تبعا لتغير الظروف والتطورات الجديدة؟ (...) استخلصت أن هذه لم تكن مؤامرة مدبرة بل نتيجة للغباء والارتجال بلا تدبر. (...). وكانت الصحف الدولية تقارن بين فشل الصاعقة المصرية ونجاح العملية الإسرائيلية في إنقاذ الركاب الذين اختطفت طائرتهم في عنتيبي.

وفي يوم الأربعاء٢٢ فبراير اشتركت في الجنازة الرسمية لرجال الصاعقة الذين قتلوا في قبرص. وحضرها السادات وكل أعضاء مجلس الوزراء. وفي وسط الحزن كان هناك جو من العداء تجاه قبرص. وأعلن الرئيس السادات أن مصر سحبت اعترافها بقبرص وبالرئيس كبريانو كرئيس لقبرص. وحاولت أن أقنع ممدوح سالم أن مثل هذا التصريح ليست له سابقة في العمل الدبلوماسي والحياة الدولية. وقال لي: إذن فافعل شيئا، فلمثل هذه الأمور توجد وزارة الخارجية أ!.

هل يحتاج القارىء إلى تعليق ؟

لا أظن .

لكنني فقط أقرر أنني شخصيا عندما قرأت توصيف بطرس غالي لمجمل أداء الحكومة المصرية في الأزمة "بالارتجال والغباء"، وجدتني – و إن كنت أوافقه عليه – أميل أكثر إلى التعبير الشامل الجامع المانع للرئيس مبارك :" تهريج وفشل "!!.

ياسيادة الرئيس ..يامصر.. يا شعب ..يا أمة لاإله إلا الله محمد رسول الله: هل رأيتم كيف يحول نظام الدولة البوليسية كل من فيه إلى دمًى، وكيف يحولون الشعوب إلى عبيد.

* * *

الدولة البوليسية تحول شعبها إلى عبيد

أحيانا، أفكر أننا معشر المثقفين، نشبه كثيرا فقراء الوطن ومساكينه، الذين أصبحوا هم الغالبية فيه، تطحنهم الحياة، فينطلقون في مناكب الأرض باحثين عن الرزق، في عقد عمل في الخليج، أو ليبيا، كي يحصلوا على أموال يدفعون بها عن أسرهم خطرا داهما، هو خطر الجوع والعرى والتشرد بلا مأوى، ويقضون العام تلو العام، ظانين أنهم بغيابهم هناك بعيدا إنما يؤمّنون أسرهم، ويحمونها من الانهيار، لكنهم حين يعودون، لينالوا ثمرة مايظنون أنه كفاح بطولي، يجدون الزوجة ليست زوجة والأبناء ليسوا أبناء والبيت بيت لكنه ليس بيتهم، وثمة روائح عن خيانات أهونها خيانة الجسد.

نحن المثقفين نشبههم، لقد سافرنا في متاهات النظريات والخلافات ووقف كل منا على ثغر يظن أنه فيه يحمي الوطن من اقتحام العدو، التزمنا الأطراف والحدود وتركنا القلب، الرأسمالية أم الاشتراكية أم الإسلام؟ العروبة أم الفرعونية ؟ القومية أم الوطنية؟ الدينية أم العلمانية؟ السنة أم الشيعة؟ وكأنما يطاردنا نحس مرصود كلما قطعنا - بمرور الزمن - رأس فتنة نبتت مكانها رأسان، واستحر القتل والتقاتل بيننا، وارتفعت نيران الخلاف، ونحن نحسب أننا بمواقفنا تلك نحمي ثغور الوطن ونرد غائلة المعتدين، جاهلين، في مأساوية فادحة، كمأساوية ذلك المغترب الذي يعود من اغترابه ليجد امرأته قد أسلمت نفسها لبلطجي اقتحم في غيبته بيته، وغير من نواميسه وقوانينه، وأن ابنه ليس ابنه، أن العدو - البلطجي - تركنا نحمي ماظننا أنه الثغور، وتسلل بعفنه إلى القلب والنخاع، ليصبح مدعما ليس بالسلطة

فقط، بل بقسط غير يسير من الأمة أيضا، مستشريا فى الدهاليز منتشرا تحت الجلد، ساريا فى الدم، مختلطا بالعظام، بعد أن اجتاح الثوابت، وسخر من البديهيات، و أنكر المسلمات، فإذا بمن ندافع عنهم خوف الجوع والعرى والتشرد بلا وطن وبلا هوية ولا أرض ولا ماضى ولا مستقبل، من ندفع عنهم خطر الاندثار والتلاشى، قد أسلموا قيادهم إليه، وعطلت فيهم آلية المناعة ضده، ونحن ما زلنا سادرين فيما كنا سادرين فيه.

هذا الموقف المأساوى، يجعلنى أفكر أحيانا، أننا نحن المثقفين عن خطأ فى الحساب أحيانا، وعن انحراف فى السلوك يبلغ حد الخيانة فى أحوال أخرى، خلف كل ما يلحق بالوطن من بلايا ورزايا، على امتداد كل العصور وعبر كل أجهزة الحكم، فلم يكن لحكم أيا كان بطشه، ولا لجبروت مهما وصل طغيانه أن يصل بالأمة إلى ما وصلت إليه، دون خيانة المثقفين، أو ابتعادهم المأساوى الواهم أنهم هناك - بعيدا - فى المكان الصحيح.

فى المرة الوحيدة التى اتحدت فيها كلمة المثقفين، ضد القانون ٩٣، نجحوا رغم كل البطش أن يسقطوه، ترى، لو اتحدت كلمتهم دائما كما اتحدت حين مسهم الضر، هل كان يمكن أن يحدث ما يحدث؟.

إننى أركز اتهامى للمثقفين، باعتبارهم ضمير الأمة، عينها التى ترى، و أذنها التى تسمع، وقلبها الذى يخفق، وذاكرتها التى لا تضيع، و أحلامها فى المستقبل.

لا أدين النخبة الحاكمة فى دول العالم الثالث كلها، لأنها بحكم تكوين أغلبها، عدوة لشعبها، حليفة لأعداء أمتها، لأن بقاءها فى الحكم مرهون برضا أعداء البلاد عنهم، مرهون بقدرتهم على كبح شعوبهم، وقمع كل قدرات أممهم، فيوفرون بفعلهم ذلك الخسيس على العدو مخاطر قد لا تكون محسوبة، وينقلون الصراع بعيدا عن أرض العدو، ليكون بين أهليهم، رحماء بالكفار أشداء على مواطنيهم.

من أجل ذلك لا أدين النخبة الحاكمة، و أدين المثقفين.

كنت دائما أحاول دفع الاتهام عن الأمة.

يتصدى الآن لاتهام الأمة مؤلف معاصر مجهول الهوية فى كتاب "تراث العبيد فى حكم مصر المعاصرة " الذى ينتشر هذه الأيام بين المثقفين، ربما لأن مؤلفه يخفى اسمه - خوفا من ردود الفعل أو مجرد تشويق وتسويق له !! -، مستعيضا عنه بالحرفين (ع.ع) : أستاذ جامعى، والحقيقة أننى لا أعرف شيئا عن مؤلف هذا الكتاب ولا أتقبل قوله على عواهنه، ثم أن الكتاب لا يتبع الحد الأدنى لمنهج الدراسة العلمية، إلا أن ذلك لا ينفى أنه يحتوى على بدايات صحيحة، و نهايات خطأ، وبرغم ذلك فإن هذا الكتاب وإن كان عجز عن التأطير والتأصيل والتشخيص والعلاج، إلاأنه رصد وسجل واستقصى وسأل ونقل الشكوى والعيوب والأوصاب، ولا ريب أن هذا يُحمد له.

إن الكاتب يقول أن كتابه هذا هو الجزء الأول من ثلاثة أجزاء تتقصى أسباب السلوكيات المرضية التى تسود المجتمع المصرى حكاما ومحكومين : "الكل يقول : الحكومة سيئة، ولكن الكل لاينتبه إلى أن الشعب فى الحقيقة أسوأ، نقاسى من الطغاة ونحن نصنعهم، ونرمى الآخرين بالفساد والانحلال ولا نتوقف أمام فسادنا، أمة تنصاع للقانون ولا تفوت فرصة لاختراقه، ونهتف لطغاتنا فى حاضرهم ونلعنهم بمجرد الرحيل فلا يبقى بيننا مثل ولا قدوة (...) وهذا كله من بعض تراث العبيد.

يرى ع.ع. أن بداية حكم المماليك العبيد البيض لمصر بدأ منذ ماقبل عهد أحمد بن طولون(٢٥٤هـ-٨٦٨م)، و أنه بصورة ما مازال مستمرا حتى اليوم، لقد استعبد الغرب العبيد لكن العبيد استعبدونا، وليست المشكلة مشكلة عنصرية، لكن المشكلة أن للعبد المملوك أسلوبا فى الحكم والإدارة لا يستطيع أن يتخلى عنه، إنه يقوم بشراء أتباعه وحراسه و إن اختلف الثمن من عصر إلى عصر.ثم إنه يتفنن بعد ذلك فى الإيقاع بينهم لإحداث التوازن الاستراتيجى بين القوات. وهذا المسلك فى ظل الحاكم العبد يعد بمثابة مسلك عام يصبغ روح الحكم كله، وينتج عن ذلك تبلور مفاهيم "المهموز"و"الدبوس"والزنب"والتدبيس "والتلبيس "و "...".

ولقد أدى شعور الخوف وانهيار القانون هذا إلى أن أصبحنا شعبا "يخاف وميختشيش". إن التعامل بين الشعب وحكامه وبين الحكام أنفسهم يتم بعلاقات يحكمها الخوف، والضرورة، رغم غطاء المجاملات السميك سماكة الخوف الكامنة. وفى هذا الجو المريض، يتساقط معنى الكلمات الحقيقى، ليكسوها العامة معانى أخرى، فالنزاهة لا تعنى معناها المعجمى بل تعنى الغنى والبطر بالنعمة، والشهامة والجدعنة تعنى القدرة على الخروج على القانون.

ولقد كان المماليك القدامى، عندما تنتصر منهم فئة على الأخرى، وعلى سبيل النكاية والإذلال والتشفى، تقوم باللواط بالمهزومين، واغتصاب نسائهم، وهذا النوع من تراث العبيد مايزال يمارس فى الدولة العصرية، ضد أعداء الدولة من المعتقلين السياسيين و آلهم. بيد أنه لا يقتصر على ذلك،لأن تراث العبيد الذين حكمونا بمشاعر الخوف والتربص كان يشمل دائما إهانة ابن البلد، وبعد الاندثار الظاهرى للمماليك فقد حلت السلطة محلهم لتحمل ذات الاحتقار الذى كان يحمله المماليك للشعب وتنفصل نفس الانفصال عنه، يقول "ريتشارد بيرتون "وهو رحالة زار مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر: "إن المصرى إذا تعامل مع ضابط الشرطة أو دخل مركزالشرطة فلابد أن يضربه الضابط على قفاه: UPON HIS KAFA حتى قبل أن تثبت عليه التهمة" يقول بيرتون "إنك تمر مع المتهمين الآخرين ليأخذ كلا منهم "قفا" فإذا جاء دورك أخذت الذى أخذوا، والقفا خاص بالمصرى دون سواه، فإذا كنت أجنبيا تحرزوا فى إعطائك القفا و أحالوك إلى قنصلية بلادك."

وفى تراث العبيد، تجد الشرطى يمسح حذاءه مجانا (من باب الواجب) ويأتيه أثناء عمله شايه وقهوته مجانا من المقهى الذى يحدده هو (من باب الواجب)، وإذا كان ذا رتبة عالية أتاه طعام الغداء لأسرته من مطعم يحدده هو،و أحيانا يقسم هو هذا الواجب، فطعام الإفطار يأتيه فى بكور الصباح من مطعم كذا، والغداء من مطعم كيت، والعشاء من ذاك، وهكذا، ولا يدفع ابن الباشا أجرا للدرس الخصوصى، وبنت الباشا تحيك ثيابها مجانا من باب

(الاحترام والواجب)، وهكذا، فالباشا (حكومة) وأصحاب المطاعم وماسحو الأحذية والمدرسون . . . . إلخ(أهالى)، وهكذا كان تراث المماليك فاعلا ومؤثرا رغم نقل النظم الإدارية الغربية، لا جدوى إذن من التشريعات والقوانين مادام الذين يطبقونها مماليك عبيد، ولا جدوى لمقرعة الدكتور فتحي سرور على المنصة، لأن الأمور تحتاج لما هو أبعد و أهم من التشريعات والقوانين، وتحتاج إلى إعادة هيكلة النظام والمجتمع كله.

يواصل الدكتور ع.ع. أنه ترتب على سلوك العبيد الكامن فينا أن الجهاز الإدارى للدولة لم يعد حساسا إزاء أوامر الإدارة العليا، إن عم عوضين فى مركز الشرطة أو الجمارك أو غير ذلك ينفذ ما يشاء هو لا ما تريده الإدارة العليا، بطريقته الخاصة ودون مخالفة واضحة أو صدام مع السلطة، ثم إن قلة رواتب و أجور هؤلاء ساعدت على إفراز السلوك المملوكى: "على قد فلوسهم"و "دول واكلينها"و "وسع مخك"و (ألفاظ شديدة البذاءة والسوقية أوردها المؤلف لايمكننا تكرارها) فالأصل أن المملوك لا يعمل إلا لحساب نفسه، وهو مضطر للعمل لحساب الآخرين اضطرارا.

من سمات المجتمع المملوكى أيضا أنه مجتمع يخلو من الانضباط والقواعد، لا أصول للحكم ولا حدود للبطش، وعلى المستوى الدينى لا التزام بالشريعة و إنما وصول مباشر إلى الله سبحانه و تعالى، لا قواعد للطبيعة إنما كرامات تخرق هذه القواعد.

يضرب المؤلف مثلا على ما يقول(مستشهدا بشهادة نائب رئيس المخابرات المصرية عبد الفتاح أبو الفضل) عن حسن التهامى، الذى تورط فى التجسس على عبد الناصر نفسه، كما تجسس على الجيش السوفيتى لحساب الولايات المتحدة الأمريكية، ولم يجاز حسن التهامى على فعلته، بل اكتُفى بنقله للعمل فى ديوان رئاسة الجمهورية، وفى هذه الفترة تظاهر بالتدين الشديد وأطلق لحيته فأحضر له عبد الناصر الحلاق و أرغمه على حلقها، وبداية من هذا التاريخ بدأ فى الهلوسة وخلط الواقع بالغيبيات، سواء أكان عن عمد أو تماديا فى شىء لا يعلمه إلا الله والعالمون ببواطن الأمور. وبرغم ما عرف عن عدم اتزانه فقد كان من المقربين

للرئيس السادات أيضا.

بعد حسن التهامى يضرب المؤلف مثلا آخر بالدكتور فتحى سرور دليلا على تراث العبيد الذى يتحكم فينا فيقول : "يقف الدكتور فتحى سرور أمام ألوف قد يصلون للعشرات ليلقى محاضراته فى القانون وخلفه حرس مدجج بالسلاح، لماذا ؟ ألقلة فى أساتذة القانون؟ أم أن الرجل لديه متسع من الوقت والقاصى والدانى يعرف أن مهامه تنوء الجبال بحملها، و أعداد الطلبة فى أعرق الجامعات العالمية و أمام أكثر الأساتذة علما لا يمكن أن تصل إلى عشر أعداد الطلبة الجالسة أو الواقفة للاستماع إلى الدكتور سرور فى كلية الحقوق جامعة القاهرة، وما يقال عن الدكتور سرور يقال عن غيره، قد يقال أن أعداد الطلبة عندنا غفير وهذا غير صحيح إذا قيس بدول أوروبية عديدة، وقد يقال أن الأساتذة عندنا عملة نادرة، وهذا كذب يحتاج إلى تنفس بصوت مسموع (...) والشخير صوت مملوكى أصيل ارتبط بالممارسة الجنسية و كان المملوك يصدر هذا الصوت وكأنه يريد أن يقول لمحدثه هل تريد أن تمارس معى هذا الفعل كنوع من العقاب".

يواصل الكاتب بعد ذلك حديثه عن أن مجتمعنا المتسم بأخلاق العبيد ذلك لا يمكن أن تنشأ فيه تجارة حرة أو صناعة حقيقية رغم توافر القوانين والشكل، فالمماليك يتحكمون فى كل شىء لتصبح قيمة الشىء ليست قيمته الحقيقية بل قيمة من يبيعه أو يشتريه أو يفرض الإتاوة عليه، إن متر الأرض الذى يباع بآلاف الجنيهات يمكن أن يمنح (بالملايين) مجانا لمسئول أو ابن مسئول. وفى المزادات حتى الحكومى منها، من المحال أن يشترى الشخص العادى قطعة أرض أو سيارة بالسعر المعلن عنه ومن المنبع مباشرة، إنه يكون المشترى الثانى، فالمشترى الأول مملوك يشترى عشرات القطع ثم يقوم ببيعها بأضعاف ثمنها، إن التراث المملوكى الذى جعل من العبيد ملوكا ومن الأحرار عبيدا كفيل بإفساد أى قانون أو تنظيم.

ويواصل المؤلف المجهول تشريح معظم فئات المجتمع تشريحا قاسيا يعج بالألفاظ الفظة البذيئة الصريحة - كما نسمعها فى

الشارع –، و يكتفى بإشارات خاطفة إلى القضاء والشرطة، و إلى عصر الرئيس مبارك لأسباب لا تخفى على القارىء، لبيبا كان أم غير لبيب . إنه يدين الكل مقدما صورة شديدة البشاعة للجميع، وأعترف : أننى فى القراءة الأولى أدنت الكتاب والمؤلف بعنف، ورفضت ما ذهب إليه رفضا شاملا مطلقا، كنت مغتاظا أيضا، وقد تملكنى جيشان رومانسى لشعب أحبه و أمة أعشقها، أراها أعظم الأمم و أفضل الشعوب وخير الأوطان، وبالفعل، عندما بدأت كتابة هذا الفصل من الكتاب معتمدا على القراءة الأولى وضعت عنوان المقال : "كتاب حقير "، ولكننى فى القراءة الثانية – أثناء كتابة المقال –، كنت على شاطىء البحر، فى الصباح، وانفجر الوجود فجأة بنواح حزين فاجع ردد الكون أصداءه والفتاة تنوح : آه ياخويا، فقد غرق شاب أمام أهله ولم يمر على خوضه البحر دقائق، كان البحر لامباليا يرمى الشاطىء بالزبد، وكان المصطافون زبدا واصلوا استمتاعهم وصراخهم بعد برهة ترقب غذاها الفضول، وكان الإحساس الرومانسى الجياش بعظمة أمتنا يغرق فى كتاب الدكتور ع.ع.، ولم أعد أبدا على ثقة من أن الكتاب حقير، ولا أن مافيه خطأ.

ورحت أنوح فى صمت : آه يامصر !!.

*   *   *

متخلف، تخلف، يتخلف، سيتخلف فهو متخلف وهما متخلفان وهم متخلفون وهن متخلفات وقد كتب على الجميع التخلف ما لم يغيروا ما بأنفسهم، أولئك هم مجتمع الرقيق الأبيض المماليك والعبيد والسماسرة، وذلك هو نوع المجتمع الذى يخلقه ويحميه ويكرسه ويبقى عليه طغيان وجبروت الدولة البوليسية، ذلك أن الدولة البوليسية ليست هى الشرطى ومضاعفاته، بل هى نمط كامل من الحياة والفكر، لذلك فإن تأثيرها لا يقتصر على التعذيب أو تزوير الانتخابات، بل إن هذا التأثير يتعدى إلى كافة مناشط الحياة، لا بيع ولا شراء ولا اقتصاد ولا أمن ولا أمان ولا عدل ولا تعليم ولا ازدهار ولا جيش ولا شرطة ولا طب ولا حتى سياحة حقيقية فى ظل مثل هذا المجتمع بمثل تلك القيم، لا تجارة حقيقية

فى ظل المتاجرة بالنفوذ، تناول أى موضوع كبر أم صغر، وحاول أن تناقشه، أن تحلله إلى عناصره الأولى، من هضبة الأهرام إلى التأميم إلى الخصخصة إلى فرض الحراسات إلى رفع الحراسات إلى الحرب إلى السلم إلى الصحافة إلى التغييرات الوزارية إلى التعيين فى مجالس الأتباع والمطايا إلى الانتخابات إلى لجان البحث والفحص إلى التصدير إلى الاستيراد إلى الجمارك إلى توشكى إلى أصغر الأمور و أكبرها إلى - حتى - بيع سيارتك الصغيرة.

يقول الدكتور ع.ع. فى كتابه "تراث العبيد فى حكم مصر المعاصرة ": الوضع الطبيعى أن عملية بيع سيارتك الخاصة مسألة سهلة مباشرة، فمن الطبيعى أن يحكم سعرها : مدى صلاحيتها (حالتها الراهنة)، والموديل وسنة الإنتاج، وتمام أوراقها الرسمية من فحص وتجديد رخصة التسيير، ويكفى فى الوضع الطبيعى أن تحدد سعرها(القابل للتفاوض إلى حد ما) وتعلن عن بيعها بوضع ملصق عليها أو فى الجراج أو فى الصحف، أو بمجرد الحديث إلى المعارف،ثم يأتى المشترى وتتسلم المال وتصطحب المشترى لإنهاء إجراءات نقل الملكية، هكذا ببساطة أو أن تكلف معرضا من معارض السيارات بالقيام بكل ذلك مقابل مبلغ محدد متفق عليه(٥٠٠ جنيه مثلا). لكن هذه العملية التجارية الصحية والصحيحة لا يمكن أن تتم بهذا الشكل فى مجتمع المماليك، و إنما لابد من تدخلات وتداخلات تفسد المبدأ لاقتصادى المتعلق بالعرض والطلب،ليدفع المشترى فى النهاية لمن لا يملك بالقدر نفسه الذى يدفع لمن يملك، فكيف يتم هذا ؟!.

يواصل الدكتور ع.ع. : فى حالة السيارة سيتدخل مماليك كثيرون لإفساد قانون العرض والطلب، قد يكون المملوك الأول الذى سيتدخل هو عامل الجراج، فمع أنه مملوك (زعلوك: لا قيمة له ولا يجيد عملا) إلا أنه يستطيع أن يبخس سيارتك ثمنها إذا لم تكن قد اتفقت معه، وفى حال الاتفاق ربما استطاع أن يجعلك تبيع سيارتك بأكثر من قيمتها، كما يمكنه بالاشتراك مع آخرين منع وصول المشترين. أنت إذن محتاج إلى (التربيط) و (الاحتياط)

و(التكتيك) وتحتاج إلى أن (تجعل عينيك فى وسط رأسك) حتى يصل إليك المشترى. وبطبيعة الحال فأنت ستحتاج لدهان سيارتك و إصلاح مابها و إظهارها بمظهر جيد قبل عرضها للبيع، وسيتشمم صاحب ورشة الدهان (الدوكو) إن كنت ستجهز سيارتك للحصول على ترخيص أم لعرضها للبيع، فإن اتضح أنك سوف تعرضها للبيع فلابد أن يتدخل، فهو سيجعل السيارة لك (عروسة)، وبالتالى فإن حساب دهان السيارة لنفسك غير حسابها إن كنت تود دهانها لعرضها للبيع، فالسعر الذى سيحصل عليه لا علاقة له (بقيمة) العمل أو (الجهد) المبذول أو الخامة المستعملة، و إنما له علاقة بمكسبك أنت عندما تعرض السيارة للبيع، وهكذا تتحول العملية الاقتصادية الصحية(مال مقابل عمل ومادة خام) إلى مال مقابل مال، والعملية الأولى اقتصادية، والعملية الثانية مالية والفرق بينهما كبير، لم يتعود المملوك أن يحصل على مال مقابل (إنتاج)، و إنما هو يحصل على ريع إنتاج الآخرين، ولم يتعود المملوك أن يتاجر تجارة داخلية حرة، و إنما هو يسعر البضاعة وفقا لنفوذه هو، وارتبطت التجارة لديه بالنفوذ، ومن هنا فإن سيارة (الباشا) أعلى بالتأكيد من سيارة (غير الباشا)، مع أن السيارتين متماثلتان (......الخ). . . إن الاقتصاد الحر فى ظل مثل تلك القيم لا يمكن أن يكون حرا، والمشكلة لم تكن أبدا فى نوع لاقتصاد بقدر ما هى فى (البيئة) وا(لتربة) و (الجو العام)، الذى يسوده تراث التشرذم المملوكى الذى غطى أكثر من ألف سنة من تاريخنا.

يستطرد الدكتور ع.ع. ليذكر أن إحدى الأدوات الرئيسية للسلطة لتطويع المجتمع كانت السيطرة على الاقتصاد والتجويع، فتحدث الاضطرابات وينضم لهم الناس ضد المجموعة الأخرى المناوئة، وكانت عمليات التجويع تتم بقسوة، لأن المماليك (مماليك) والأهالى (أهالى). لا يتحرك شعور المملوك قيد أنملة إذا تلوى واحد من الأهالى جوعا أمامه، فالمملوك هو (السلطة)، هو السلطة الوافدة وهو السلطة المختلفة عرْقاً عن سائر الناس، ولقد ظل هذا الفكر نفسه إلى عهد قريب، وربما إلى الآن، فالشخص حتى إذا لم يكن مملوكى الأصل، فإنه بمجرد انتقاله إلى مجموعة (السلطة) نظر إلى الناس على أنهم أهالى من فئة أخرى.

إن المتجول فى الشارع المصرى يظن أنه حر لا تحكمه إلا قوانين المؤسسات كالبلدية والمحافظة، لكن الواقع أن هناك حكومة أخرى خفية (مملوكية) لا يراها إلا المتمعن، حكومة يعيش أفرادها على (الفردة) و (الرشوة)، لا يقلون أهمية عن الحكومة الحقيقية وربما زادوا، بيد أن الموظف اللص أو المرتشى لا يكون فى بعض الأحيان هو اللص الحقيقى أو المرتشى الحقيقى، إنما هو واجهة ليلبس التهمة عند اللزوم، وهكذا فإن التراث المملوكى يقوم بتفريغ الشكل الأوروبى من مضمونه تماما كما يتم تفريغ الانتخابات، من المعنى الديموقراطى، ونظام الإدارة من معنى التنمية، فاستخدام القوانين الأوروبية ونقل مفردات الحضارة الغربية: أمر يحتاج إلى إصلاح التربة لاستقبال البذور الجديدة.

لا يعدو الدكتور ع.ع. ماذهب إليه الكثيرون غيره من أن ثمة حكومة خفية غير الحكومة الظاهرة هى التى تسير الأمور، إلا أنه يختلف عمن سواه فى إرجاع أسس هذه الحكومة الخفية لتراث العبيد فينا. هذه الحكومة هى التى تضع المعايير لاختيار الحكام والمسئولين، ومن هذه المعايير أن يكون الحاكم أو المسئول تافها ولا خطر منه ويسهل عزله، ولا دخل لكفاءته الشخصية، إن الحاكم اللاحق يعيش فى ظل سابقه وكل خبرته أن يكون خادما بوظيفة "جاشنكير"، والجاشنكير وظيفة تعنى أن يقوم صاحبها بتذوق المأكولات والمشروبات التى تقدم للسلطان قبل أن يتناولها حتى إذا كان فيها سم مات الجاشنكير أو أصيب ونجا السلطان.

يواصل الدكتور ع.ع. منهجه فى إدانة الأمة التى استعبدها العبيد فاستكانت، و أمسك مقودها الأفاقون فاستنامت.

من المؤلم والمؤسف أن هذا المنهج ليس كله خطأ. بل إننا لو طبقناه على نواحى عديدة فى مجتمعنا لاستطعنا أن نزيد كثيرا على ما كتبه المؤلف، أنظروا إلى الصحافة مثلا، جيدها وسيئها، الحكومية والمعارضة، سوف تجدون فى كل صحيفة جاشنكير، لا للأمة بل للسلطان الذى قد يكون رئيس مجلس إدارة أو وزير داخلية أو ثقافة أو ملكا أو حتى رجل أعمال، ولن تجدوا صحيفة واحدة - إلا على سبيل الاستثناء- تنشر الحق المجرد لأنه حق مجَرد،

وتعطى كامل الحرية لكتابها كى يعبروا عما يعتقدون بصوابه (تذكروا منع مقالات أحمد بهاء الدين عن الشيخ الفاسى، وتذكروا حملات الأخبار المكثفة على البنوك الإسلامية، وتذكروا حملات الوفد انتصارا لآل فايد) ، لن أقول أنظروا إلى الصفحات السياسية حيث دعارة الكلمات، بل أقول انظروا إلى صفحات الثقافة التى يحولها الجاشنكير - نصف الموهوب أو غير الموهوب على الإطلاق- إلى مراتع الأقارب والأصهار، و إلى بورصة لعملائه من النقاد و الناشرين يزيد بها دخله وانتشاره، و إلى صفحات الأدب النسائى التى تتحول على أيدى البعض إلى أوكار للغواية، أنظروا إلى كتاب "المبتسرون "الذى كتبته أروى صالح قبل انتحارها الفاجع، أنظروا إلى الجامعة، إلى الوزارات والهيئات والمؤسسات، أنظروا إلى محاولات التدليس على القضاء لتوريطه فيما يسىء إليه، أنظروا إلى الجيش ومحاولة توريطه فى مواجهة الأمة أو فى محاكمة بنيها، أنظروا إلى بيع البترول وشراء السلاح، أنظروا إلى التخصيص وكيفية بيع القطاع العام، انظروا وانظروا وانظروا لتجدوا مادة هائلة كان يمكن للدكتور ع.ع. أن يضيفها إلى كتابه لكنه لم يضفها، ولعله سيستدرك ذلك فى الجزءين الآخرين من الكتاب اللذين لم يصدرا بعد.

انظروا إلى ذلك كله و أنتم تقرأون كتاب الدكتور ع.ع.، ولعلكم ستكرهونه كما كرهته، لكن هل تجرؤون على نفى كل ما فيه؟!

انظروا إلى هذا كله وتذكروا ذلك الكاريكاتير الفاجع الذى ابتدعه أحد رسامى الكاريكاتير فى السبعينيات(أظنه الفنان بهجت) عن شرطى يعدو مذعورا بأقصى ما يملك من سرعة يطارده لص، كانت مأساة أجاد الفنان التعبير عنها، لكن، ربما أنه لم يتخيل أن الواقع سيسبق خياله و أن اللص سيدرك الشرطى ليتحالف معه، وليكتب محمد السيد سعيد بعد ذلك عن خصخصة الشرطة، بمعنى تحويلها من هيئة تخدم وتحمى مصالح الدولة إلى حماية مصلحة الأفراد على حساب الدولة، أو على الأحرى حماية سرقاتهم من الدولة، وفى هذا الإطار تتحول الدولة إلى بلطجى. وتبدو المحاولات الهزلية لمكافحة البلطجة، غير مدركة حقيقة

جـوهـريـة هـى أنـه : لن تـخـضـع بـلطـجـة الـشـارع للـقـانـون مـادامـت بـلطجة الدولـة فـوقـه!!.

أجل ...

فى الـدولـة الـبـولـيـسـيـة الـتى يـتـحـول فـيـهـا رجـل الـشـرطـة إلى المـمـتـهـن الأكـبـر للـقـانـون، لايمكن تـخـيـل أن تـسـلم الأجـهـزة أو المؤسـسـات الأخـرى، وعـنـدمـا يـصـرح الحكام والـسـاسـة فى مـثـل تـلك الـبـلاد عن قـرارات حـازمـة للـقـضـاء على الـفـسـاد والـبـلـطـجـة، فـإننـا لا نـأخـذ تـصـريـحـاتـهـم مـأخـذ الجـد، فـقـد قـرأنـا ووعـيـنـا -للأسـف- مـاقـالـه ديـجـول : "لما كـان الـسـيـاسـى لا يـعـتـقـد بـمـا يـقـول، فـإنـه يـدهـش كـثـيـرا عـنـدمـا يـصـدقـه الآخـرون."

لا تـنـدهـشـوا مـنـا إذن، فـنـحـن لا نـصـدق مـا تـقـولـون، ولا نـصـدق مـا يـدبـجـه كـتـاب كـثـر من مـديـح فـيـكـم، اسـتـجـابـة لـلـمـثـل الـروسـى الـذى يـقـول: "لا تحكم على الـسـيـد بـثـنـاء الخـدم عـلـيـه."كـمـا أنـنـا فى نـفـس الـوقـت نـفـهـم سـر كـبـريـاء سـاسـتـنـا عـلـيـنـا، و إعـراضـهـم عـنـا، وتجـاهـلـهـم لـصـراخـنـا، وازورارهـم عن طـريـقـنـا، نـفـهـم سـر رزانـتـهـم، واطـمـئـنـانـهـم لـسـلـوكـهـم مـهـمـا اعـوج واشـتـد خـطـره، و إصـرارهـم على طـريـقـهـم مـهـمـا أدى بـنـا إلى الـهـاويـة، نـفـهـم سـر ذلك كـلـه مـن قـول مـونـتـين : هـل هـنـاك مـا هـو أكـثـر رزانـة واطـمـئـنـانـا فى سـلـوكـه واسـتـقـامـة فى طـريـقـه من الحمار!!.

يـقـول المـثـل الـروسـى أيـضـا : لـو أعـطـيـت الأحـمـق خـنـجـرا . . أصـبـحـت قـاتـلا . . !!. ونـحـن نـظـن، ولـيـس كـل الـظـن إثـم أن الـدولـة فى بـلاد أمـة مـحـمـد صـلى الله عـلـيـه وسـلم هى الـتى بـدأت بـالـبـلـطـجـة، مـمـارسـة، وفـكـرا واقـتـصـادا وسـيـاسـة وانـتـخـابـات وتـوزيـعـا لـلـخـنـاجـر والأسـلـحـة الآلـيـة و الأقـلام على الحـمـقى، فـهـى الـقـاتـلـة إذن..

أجل، الـبـلـطـجـة أن أمـسـك بـبـلـطـة أذبح بـهـا الـقـانـون ثـم أنـطـلق بـعـد أن فـقـدت الحـيـاء أصـنـع مـا شـئـت، الـبـلـطـجـة كـذلك، لـكـنـهـا لـيـسـت كـذلك فـقـط، بـل لـعـل هـذه الـصـورة تـكـون أكـثـر أنـمـاطـهـا فـجـاجـة و أسـهـلـهـا عـلاجـا.

الـبـلـطـجـة مـثـلا أن يـسـتـولى الجـيـش على الحـكـم بـعـد انـتـخـابـات حـرة

بحجة حماية البلد من الإرهاب فيسقط بعد حكمه مئات الآلاف قتلى، فيستمر السواد الأعظم من رجال السلطة فى كل بلاد الأمة فى تأييد مثل هذا الجيش.

والبلطجة أن تستعين الدولة بالبلطجية فى الانتخابات حتى تضمن فوز أنصارها، فيدخل مجالس الأمة تجار مخدرات، ومغتصبى أراض، ولصوص بنوك، وخونة، يدخلون من أوسع الأبواب، يدخلون ويقتحمون، لا يتسللون !!

البلطجة أن تزور الانتخابات حتى ليضحك منا العالم ازدراء فيخرج علينا البعض ليقول أنها أنزه انتخابات فى تاريخنا.

البلطجة ليست فى الشارع فقط، بل فى المجالس والجامعات والوزارات والنقابات والصحف، وبلطجة الشارع أهون مانرى . . .

البلطجة أن يقع اقتصاد البلد بين براثن اللصوص فى أكبر عملية منظمة لنهب البلاد، فيخرج علينا وزير اقتصاد البلاد مقسما بشرف أمه أننا بخير.

البلطجة أن أضع على رأس المثقفين ثورا ذا قرون، و أن أفرض على الصحافة رؤساء تحرير لم يجرؤوا يوما على مواجهة جمعياتهم العمومية فى مناقشة أمر أو فى انتخابات غير مزورة.

البلطجة أن يتحدد حجم المثقف - والمواطن عموما- بمدى اقترابه من السلطة أو ابتعاده عنها.

البلطجة هى سحق القانون بالنعال ومحاولة تلويث رجاله حتى يكونوا طوع بنان الدولة فى صراعها مع الأمة. وهى إغماض الأعين عن اختراق الكبار- وما هم بكبار - للقانون واستعماله طالما استطاعوا كسر أعناق الحقائق وتطويعه ببنوده ونيابته وقضائه لمصالحهم وتحطيمهم له إذا ما وقف عقبة فى سبيل هذه المصالح، وهم بامتهانهم ذاك للقانون يحولون علم البلاد إلى خرقة يمسحون بها أحذيتهم، أو على الأحرى عوراتهم بعد قيامهم باغتصاب البلاد والعباد.

البلطجة أن تُهمل تقارير منظمات حقوق الإنسان، و أن تصدر

أوامر الاعتقال على بياض، و أن يعذب المعتقلون فى السجون حتى الموت، و أن يكبل الأخيار ويطلق الأشرار فلا تكتفى الدولة بقوتها الأسطورية فى تكريس هذا الوضع، بل تتواضع أو تتضع لتقوم هى نفسها عبر مؤسساتها الرسمية به.

البلطجة أن تطارد الشرطة اللصوص وتطارد الشرفاء والأبطال.

البلطجة أن تباع ثروات البلاد التى حصّلتها بالدم بلا ثمن لأعداء الأمة دون أى قدر من الشفافية والمصارحة بينما تتوجه أصابع الاتهام الخرساء إلى أعلى.

البلطجة أن يعتبر واحد كالحباك -نال من الدولة الأوسمة- مجرد نبت شيطانى لا جذور له ولا فروع، و أن يُغض الطرف عن مجرد احتمال أنه مجرد نبتة فى غابة كلها أو حتى جلها أو حتى بعضها من نفس الفصيلة والنوع.

البلطجة أن يُمارس الكذب على الأمة، لا لأن الكذاب يصدق نفسه، ولا لأنه يأمل أن يصدقه الناس، بل لأنه واثق أن الناس تحت وطأة الخوف من ترسانة مدججة بالسلاح والجند والاعتقال والتعذيب والتعليق والصعق بالكهرباء لن يجرؤوا أبدا على مواجهة الكاذب بأنه كذاب.

البلطجة أن تُحرم البلاد - الحرة التى لا يحتلها اليهود - من مجلس تشريعى يفعل مثلما فعل المجلس التشريعى فى فلسطين المحتلة تحت سنابك الصهاينة، حين سحب الثقة من الوزارة ليسقطها، وليأمر بعدم عودة وزير إليها إلا بعد التيقن من عدم فساده.

البلطجة أن تواجه الدولة خنوع الأمة بالبلطجة وبلطجة إسرائيل بالخنوع . .

البلطجة أن . . . و أن . . . و أن . . .

البلطجة أن لا ندرك ما أدركه كسرى منذ ألفى عام حين قال : لا ملك إلا بالرجال، ولا رجال إلا بالمال، ولا مال إلا بالبلاد، ولا بلاد إلا

بالرعية ولا رعية إلا بالعدل . .

ولعلنا نضيف إليه أنه لا عدل إلا بالحرية، الحرية !!، حرية الأمة لا حرية البغاء والشذوذ والنهب، حرية بسيطة كتلك التى يقول عنها جورج أورويل : "الحرية أن تستطيع أن تقول تقول ٢+٢=٤، وغير ذلك يأتى فيما بعد !!. "

هل تستطيع أيها القارىء بل هل تجرؤ أن تزعم أننا فى بلادنا بعد حقب النضال والانتصارات والانكسارات والنكسات والنكبات والهزائم نستطيع أن نقول أن ٢+٢=٤، أم أنك تعى أن ناتج العملية يعتمد على وضع القائم بها، فإن كان من المقربين كانت النتيجة مليونا أو مليارا طبقا لقربه أو بعده، و إن كان من عامة الأمة فالناتج دائما صفر، دائما صفر، دائما صفر!!.

البلطجة ألا يستطيع أحد فى أمة لا إله إلا الله على اتساع رقعتها الشاسعة، أن يفعل مثلما فعلوا هناك فى أمة لا إله إلا الذهب، حين استُقبل الرئيس الأمريكى فى مسقط رأسه بلافتة مكتوب عليها : نحن فلاحى ولاية جورجيا، نعتذر لكل فلاحى الولايات المتحدة الأمريكية، لأننا قدمنا إلى البيت الأبيض رجلا مثل جيمى كارتر.

البلطجة أن يُعطى القط مفتاح الكرار، و أن يُعهد بمحاربة البلطجة إلى بلطجى، و أن يُتجاهل رأى علماء الاجتماع والإجرام والسياسة الذين اتفقوا منذ زمن طال أن كل الجرائم تنبت فى رحم المجتمع من نطف حرام تقذفها السلطة فيه حين تغتصب الأمة، بل لقد قال بعضهم فى وضوح أن علاج الجرائم عندما تستشرى فى مجتمع ليس بالقبض على المجرمين، بل بالقبض على الحكام !!.

إن البلطجة فى بلاد السمع والطاعة ليست إلا رد فعل المجتمع المقهور على بلطجة قاهريه بصور متعددة من العنف .

تلك هى المشكلة إذن، أما بلطجة الأفراد التى تزلزل ضمير المجتمع فليست سوى بثور قيح على السطح، كلما مسحت منها واحدة تفجرت عشرا، وستواصل التفجر مادمت قد أغفلت و أهملت وتجاهلت أنها دليل سرطان استشرى فى جسد الوطن.

يقول محمد حسنين هيكل: "ليس من حقك أن تفصل العنف عن دوافعه، وليس من حقك أن تفصله عن مجرى التطور العام السياسى والاجتماعى فى البلد، وليس من حقك أن تقول أنه ضد طبيعتنا، ولا شعب فى الدنيا يستكين مهما كان صبورا إلى مالانهاية، حتى مجتمع القطط لابد أن يحتج فى النهاية، لا يجدى أن تنسب العنف إلى غير أسبابه."

ليقل من يقول إذن أنه سيسن مزيدا من القوانين و سيطبق الطوارىء لحرب البلطجة بعد أن يخلط الكذب بالصدق ذرا للرماد فى العيون .

فليقولوا ما يشاؤون، أما نحن، فنقول مثلما قال شيشيرون : الكذاب لا يصدق أبدا، حتى و إن نطق صدقا !!.

البلطجة أن يجد الأسوياء من الناس أنفسهم محاصرين، فلا هم يستسيغون العنف فضلا عن استطاعته، ولا هم قادرون بالمنطق على الإقناع فضلا عن التغيير، وليس من ثمت سبيل أمامهم، سوى الاستسلام التام أو الموت الزؤام !!.

* * *

الاستسلام التام . . . أو الموت الزؤام !!

البيروسترويكا على الطريقة المصرية . .

عندما كنت أجالس ذلك المسئول الكبير، غبت عما يقول، وغرقت – كما أفعل كثيرا تحت وطآت كتل مرارة علقمية ينوء بحملها كاهلى فتنكسر فى داخلى أشياء وتنفصم عرى – بعيدا عما يقول، فأصبح مشهده مشهدا من سينما ميلودرامية، تتحرك شفتاه ولا أسمع صوته، بل أسمع و أستعيد رائعة سعد الله ونوس : طقوس الإشارات والتحولات. والتى تتناول فى بانوراما شاملة هائلة نبل الإنسان وبؤسه وشجاعته وجبنه ورفعته وخسته، وموقف الشرطة التابع دائما للشيطان. وفى صراع على السلطة يندفع

صاحب الشرطة الغبى أو يدفع لتحطيم طرف من الأطراف فيلقى القبض عليه مع عشيقته شبه عاريين فى غوطته بدمشق، و"يجرسه" فى شوارع المدينة، وتنتشر الفضيحة كالحريق فيجتمع باقى أعمدة السلطة ليقرروا أن معيار الفضيحة زاد و أنه والحال ذلك يهدد السلطة كلها إزاء مجتمع متنمر ساخط ينتظر أى فرصة تضعف فيها السلطة لينقض عليها. و أن فضيحة الشيخ الكبير ستنعكس عليهم عندما -فى المحاكمة - تنتشر فضائحهم جميعا انتشار روائح الجيف، ويقرر المجتمعون إنقاذ فارسهم الذى كبا، فيذهبون إلى الزوجة " ألماسة" ويدبرون معها أمرا، فيذهبون بها إلى سجن النساء ويخرجون الراقصة العشيقة، وتنفجر الفضيحة لصاحب الشرطة هذه المرة عندما يتبين أنه قبض على الشيخ الفاضل وهو يمارس ما أحل الله، فيحاول صاحب الشرطة الغبى الذى لا يفهم قواعد اللعبة الاستشهاد بضباطه وجنوده الذين شاركوا فى القبض، لكنهم جميعا ينكرون العشيقة ويشهدون أن المرأة التى كانت مع الشيخ الجليل هى زوجته.

يُجن صاحب الشرطة، وتمس الشيخ الزانى لفحة حب إلهى فيغرق فى بحور التصوف، أما ألماسة، فتقرر فى لحظة انصهار مجنونة أن مجتمع السادة كله مجتمع داعر، و أنها لكى تكون صادقة مع نفسها فلابد أن تتحول إلى داعرة.

" جملة اعتراضية : هل هناك ما يدعو الآن أن يقتحم المشير أبو غزالة خواطرى بلا استئذان..!! انتهت الجملة!!".

أثناء العرض كنت واثقا أننى سأكتب عنه مرة أخرى، بعد ماكتبته عن نفس المسرحية التى أخرجتها نضال الأشقر وعرضها المسرح القومى، على الأقل لأقارن بين الإخراج اللبنانى والإخراج المصرى للمسرحية، لكننى إذ خبا الانفعال خجلت من تكرار الكتابة عن عمل أحببته من أعماقى، وربما كان خجلا مثله هو الذى منع عملاقا النقد : على الراعى وفاروق عبد القادر من ذكر مثالب إخراج نص سعد الله ونوس على الطريقة المصرية، فإزاء الروعة المتوهجة الخارقة للنص و إبداع الممثلين ذاب كل انتقاد، كما لوكنت أمام مائدة حافلة بأشهى طعام، ومن مئات الأصناف لم

يعجبك صنف أو صنفان، لكنك إزاء التعدد والثراء حتى التخمة كنت غير محتاج إليهما.

كنت واثقا أننى سأكتب عن الصنفين اللذين مججتهما فى المائدة الحافلة، عن فجاجة الرقابة الذاتية - فى رؤية المخرج - المطفئة للتوهج بإهمال دور الحاكم فى عرض الهناجر مقابل إبرازه فى عرض المسرح القومى ففى الأخير، اللبنانى الإخراج،كان نفس الممثل يلعب دور الحاكم فى مشهد ثم يلعب دور الطبال فى جوقة الفساد والدعارة فى مشهد يليه، وكان دوره كدور المفجر فى القنبلة، إذ لا يمكن تداعى طقوس الإشارات والتحولات بدونه كما لا يمكن أن تنفجر القنبلة دون مفجر، ولقد كان هذا الإهمال مثلا صارخا على جناية السياسة على الفن، كما كان أيضا إهانة للسياسة، لكن الحديث فى هذا يطول وليس الآن مجاله.

الصنف الآخر الذى مججته ركوب المخرج لموجة السلطة عندما أوحى أن إرهابيا -مماحكة السلطة ونفاقها -استجاب لفتوى قاضى القضاة - رمز التطرف الدينى-ليغتال ألماسة : سيدة البغايا والعاهرات، بينما تناول عرض القومى هذه النقطة ببراعة ملحمية تجاوزت الحكاية إلى مطلق يغطى التاريخ ويشمله، فقد ماتت ألماسة بخنجر فى يد أخيها، لكنها هى التى انطعنت بالخنجر فيما يشبه الانتحار فى مواجة الذهول الفاجع للشقيق.

قلت لنفسى أن مخرج العرض قد وقع فى نفس الخطأ الذى وقعت فيه صافي ناز كاظم وصدق أن ألماسة داعرة فعلا ... و أن ... لكن عذرا : أنا لا أنوى التحدث عن العمل !!. لكننى فقط أورد هذا المثل لأقول، لأكرر ما قلت أن الدولة البوليسية لا تترك طاهرا إلا دنسته، ولا أدبا إلا مسخته.

قلت أن شفتا المسئول الكبير كانتا تتحركان، وكنت لا أسمعه، هاجتنى شجون وطفحت فجأة تلك الرغبة فى البكاء، كما طفحت أثناء عرض مسرح الهناجر، طفحت، فرحت أجاهد نفسى ألا تنفجر. الآن، وشفتا المسئول تتحركان دون صوت أفهم سر انفجار دمعى، كنت قد بررته لنفسى حينها بالانفعال بروعة النص والأداء، بالحزن على فقد سعد الله ونوس، بالحزن الفاجع على إساءة فهمه

كما فعل الإخراج المصرى وكما فعل بعض مثقفينا، الآن أدرك أننى لم أبك ذلك كله، إنما بكيت تسلل جوهر النص وروحه إلى كيانى مترجما فى دقة مذهلة أحداث واقع نعيشه دون ألفاظ تصفه كما يتسلل الحب إلى قلب العاشق دون مبررات تبرره، أو حيثيات تؤكد ضرورة وجوده، ذلك التسلل، الأشبه بانتقال الكهرباء فى سلك ميت لايفهم قوانين الطاقة ولا معادلات الفيزياء التى تتحدث عن طريقة انتقال الكهرباء.

وشفتا المسئول الصامت تتحركان يتصل المفجر بالقنبلة فينفجر الفهم، أى حزن فاجع ذلك الذى احتملته وتحتملونه يا مثقفين ويا مفكرين وياسياسيين ويا مواطنين، أى حزن قاتل ذلك الذى يفجر طقوس الإشارات والتحولات فينا، تبدأ الحكاية بفساد مسئول، تنفصم رؤاه عن رؤى أمته، فتتوالى الهزائم، وتنسحق الأرواح والنفوس وتطأطىء الضمائر ويمتزج التاريخ والجغرافيا وعلوم السياسة والاجتماع فى مستنقع شيطانى لا تزدهر فيه إلا الثعابين والعقارب والوحوش، لحظتها ننكسر، تكر داخل النفس كل الآمال وتفر كل الرؤى العظيمة، وتتضاءل الاختيارات، بل لا يبقى سوى واحد : الاستسلام التام أو الموت الزؤام . . . !!!

تنزاح غشاوة فأرى أكثر ماخلف الشفتين المتحركتين الصامتتين . . .

ماذا كان ذلك المسئول يقول قبل أن أغرق بعيدا عنه وأغوص؟ ؟!!

آه . . .

الآن أذكر . . . !!

كان يحدثنى عن سيكلوجية بعض كبار المسئولين والحكام . . .

كنت أدرك أنه هو نفسه أحدهم، لكنه فى نوبة صحوة، أو فى لعبة مناورة، أو فى لحضة ضَعُفَ فيها الشيطان فيه، قرر أن يكشف لى عن طقس من طقوس التحولات وكيف تأتى إشاراته !!.

ولم يكن حديثه حديث عالم سياسة أو اجتماع أو إقتصاد، لم يغرق فى البحوث النظرية، لم يبرهن ولم يدلل ولم يدع الصواب،

و أيضا : لم يعترف بالخطأ. لم يكن حديثه أيضا حديث العارف بالأمر، بل حديث الممارس له، بكل تفاصيل وخبايا و أصول الممارسة .

قال : اسمع، أنا أعرف الله خيرا منك، أعرفه بينى وبين نفسى، وفى بيتى وفى مكة والمدينة، أما فى غير ذلك من الأماكن فلا علاقة لله به.

اسمع : البلطجية هم الذين يحكمون هذا البلد، و إذا بنيت حساباتك على غير ذلك فأنت واهم.فالبلطجية هم الذين يقفلون الانتخابات لمجلس الشعب، والعضو أسير لبلطجيته وليسوا هم أسراه، هو الحامى لهم من الدولة وهم الذين يحمونه من الدولة والناس، وحصانته إذن تندرج عليهم، والدولة تحميهم.

اسمع: أنت كاتب، لا تكن إذن بسذاجة من يرون البلطجة فى وجه مشروم تملؤه الندب وفى يد تحمل سنجة ومطواة وسيفا، هؤلاء موجودون ومؤثرون ويحكمون لا أنكر، لكنهم رعاع البلطجية، وهم مثلا الذين يكتبون معظم تقارير ضباط المباحث وهم الذين يلفقون التهم، وعلى أكتافهم يترقى الضباط، بل إنهم هم السبب فعلا فى إماطة اللثام عن غموض كثير من الجرائم، لكنهم إذ يفعلون ذلك لا يفعلونه من أجل تطبيق القانون ولا مكافحة الجريمة، بل هم يفعلونه لمحاربة الجريمة العشوائية الخارجة عن نطاق سيطرتهم. ثم أن ضابط المباحث ضابط فى مكان عمله فقط، لكن له زوجة و أبناء و أهلا، وهو يعرف كم هم ضائعون هؤلاء البلطجية وماذا يمكن أن يحدث لو واجههم، ومن الناحية الأخرى فإنه بحكم عمله يعرف كمّ الجرائم التى ترتكب دون عقاب، بل إنه هو نفسه يكون أحيانا أداة لطمس معالم هذه الجرائم والتستر عليها، وهو يعرف أيضا كم الفساد المنتشر أعلاه، فلا يقع أبدا فريسة لسذاجة القيم المجردة، وليس لديه دافع على الإطلاق لأن يحق حقا أو يبطل باطلا أو أن يبطل حقا أو يحق باطلا إلا طبقا لعملية معقدة تتشابك فيها مصالحه الخاصة.

اسمع: لعلك تفهم من ذلك أن البلطجية هم الذين يحكمون الشارع فى مرتبته الدنيا فقط، سوف تخطىء مرة أخرى، ولن تفهم

إذن أبدا، قلت لك أن التقارير التى يكتبونها هى التى يترقى الضباط على أساسها، من هذه التقارير تتشكل خرائط الأمن فى الوطن كله، إن خلاصتها هى التقرير النهائى الذى يوضع على مكتب وزير الداخلية أو حتى رئيس الوزراء، والذى بمقتضاه يخطط ويسوس.

انفجر المسئول الكبير ضاحكا وهو يقول : اسمع : لشدما تضحكنى تقارير مراكز الدراسات والجامعات و إحصائياتهم عن عدد الذين حضروا الانتخابات وعدد الذين تغيبوا وعدد الذين بطلت أصواتهم، واختلاف النسب بين الحضر والريف وبين الرجال والنساء، لشدما يضحكنى ذلك، لأننى أعرف أنهم لا يحللون نتائج حقيقية بل نتائج البلطجة المنظمة المدعومة من الدولة.

اسمع : كل ماقلته لك حتى الآن هو الصور المباشرة للبلطجة، البلطجة الحقيقية التى تحدد كل شىء فى هذه البلاد لاتدور فى الشوارع المزدحمة ولا فى الحوارى الضيقة، وإنما تدور فى فنادق النجوم الخمس وفى قاعات الاجتماعات الضخمة وفى عواصم العالم المعمور.

ساد صمت. .

ساد صمت كنت أسمع فيه خرير الحزن، و أرى دماء بلا لون تنساب من كيانات بلا جرم، فتتساقط الكرامة والعزة والنبل والأمل والحق والخير والجمال صرعى، وكان المسئول الكبير لما يزل يواصل حديثه متشحا بيقين لا يملك صنوه سوى الملائكة والشياطين الذين حددوا موقفهم النهائى بشكل نهائى لن يتغير بعده أبدا. لن يطرأ مايغيره أو يحوله إلى نقيضه أو يبدله إلى غيره.

واصل الحديث قائلا : اسمع : تقولون أن الله هو الرازق، أنا لا أقول لا، لكننى أيضا لست من السذاجة كى أقول أن ملايين الأمتار التى وزعها محافظ أو وزير من أملاك الدولة على السواحل وفى المناطق الصناعية على أنصاره من البلطجية، أو مقابل رشوة صريحة هى رزق من عند الله، أو أن تلك المليارات، المليارات التى أعطاها وزير بالأمر المباشر لشركة معينة ففاضت عليه منها

الملايين ونبتت له منها القصور رزق من عند الله . أسمع : ألستم تقولون أن الله طيب لا يحب إلا طيبا، كيف يرزق إذن بهذه الطريقة؟ . ليس رزقا إذن وليست مهمتى أن أحدد ماذا يكون.

وواصل الرجل قائلا: هل تريد أن أحدثك عن البلطجة فى عالم التصدير والاستيراد، عن القوانين التى تدبج وتفصل، وعن البلايين التى تهدر وتهرب. هل تريد أن أحدثك عن الصناعة؟ عن الرشاوى والعمولات؟. هل تريد أن أحدثك عن الزراعة؟ عن السياسات العليا خلفها؟ ستكون ساذجا مرة أخرى وستفهم بالسياسات العليا مفهوما محددا تربطه بأسماء معينة، بوزير أو نائب رئيس وزراء أو . . . أو . . .، لا، الأمر أعقد بكثير مما تظن وتتوهم، إنه متصل بالعولمة وصناعة السياسات على مستوى العالم.

هل تريد أن أحدثك عن تفاصيل أى مشروع كبير تُقترض البلايين باسمه دون أى تأكد أو دراسة جادة له، دعك من كل ما قرأت وسمعت، يتم ذلك لأغراض فتح منافذ جديدة لتبادل المنافع التى يسميها أمثالكم فسادا، ليست فسادا و إنما الدنيا كلها كذلك، وقد يأتى من هذا المشروع خير للوطن وقد لا يجىء فليس ذلك هو الهدف من إنشائه، إن فوائده بالنسبة لمنشئيه فوائد فورية، وذلك هو المهم، أما ماذا سيحدث بعد عشرة أعوام أو عشرين عاما فلا يهم، ماذا يمكن أن يحدث، ستتزايد الديون بصورة صاروخية؟! وماذا فى ذلك؟! ستفرض أمريكا الوصاية على البلد ضمانا لتحصيل الديون؟؟ لكن : هل تظن أن البلد الآن خارج نطاق وصايتها؟؟!! اسمع : لا الدولة كدولة ولا الأفراد كأفراد يقدرون على المقاومة، حُسِمَ الأمرُ وحُكِمَ فى القضية، والنظام العالمى كنظام الحكم شاحنة ضخمة تسحق كل من يقف فى طريقها، لم يعد أمامنا كدولة، ولا أمامكم كمعارضة سوى اختيارين يتيمين لطيمين : الاستسلام التام أو الموت الزؤام، هل تتخيل أنكم كمعارضة قادرون حقا على ما هو أكثر من المعارضة الهزلية والهزيلة، هل تعلم ما يمكن أن يصيب أى واحد منكم لو حاول أن يعارض معارضة حقيقية، معارضة كمعارضة مجدى حسين مثلا، لقد أدركتِ منذ أعوام أن

مآله السجن، وعندما بدأ حربه للفساد في وزارة الداخلية تعدى يقينى السجن إلى ماهو أكثر، هل تعتقد أن مجدى حسين يمكن أن ينتصر؟؟!!

كان الرجل يتحدث ولا ينتظر منى إجابة، كان يقرر واقعا لايرى سواه ولا احتمالا لوجود غيره، لكننى أجبته:

- نتيجة المعركة محسومة منذ اللحظة الأولى، لقد انتصر مجدى حسين لأنه على حق، لأنه كبطل، وكمسلم لم يقصر حساباته على مكاسب الدنيا وخساراتها، بل مدها إلى الآخرة، إنه عمل صالح وذرية بعضها من بعض، هو كذلك، وكذلك كان أبوه، إن السجن وحتى الاستشهاد ليسا ما يقعدانه عن كلمة حق، و الأكثر من ذلك أنهما يشكلان بالنسبة له الانتصار لا الهزيمة، إنه باختصار شخص لا يمكنكم الانتصار عليه.

رمقنى الرجل بملل ثم قاطعنى قائلا: اسمع : تلك كلمات تملأون بها صفحات الكتب والصحف لكنها على الأرض لا تنقل حبة رمل من مكانها، اسمع : كل ماتكتبه صحافة المعارضة عن الفساد مجرد قطرة في بحر، أنتم فعلا لا تعرفون إلا القشور، بل قشور القشور، و الأمر أفدح بكثير جدا مما تعرفون بل مما تتخيلون، لكن :هل تحسب أن الرئيس مبارك سيكرر خطأه الكبير مرة أخرى بإقالة وزير للداخلية مهما بلغ فساده تحت تأثير مقالات فى الشعب؟!.

وقاطعته أنا هذه المرة: لم يكن خطأ، بل كان وسام فخر زين به صدر نظامه أمام التاريخ، و أمام الله يوم القيامة، تلك هى الحقيقة.

وابتسم الرجل ابتسامة ساخرة واجه بها ما اعتبره سذاجتى، فانداحت إلى مخيلتى ولولة صاحب الشرطة فى رائعة سعد الله ونوس وهو يبحث عن الحقيقة . . . الحقيقة الخالصة المجردة المشربة بالدم، لكنه إذ يفعل ذلك لا يفعله كى يعلنها بل ليطمسها ولينكرها !!. . .

والرجل يتكلم، فى الفضاء والمطلق، فلا أسمعه، لكننى ألتقط المعانى منه دونما حاجة لملفوظ كلماته رحت أرصد، وكأنما أفهم

للمرة الأولى طقوس الإشارات والتحولات فينا، رحت أتذكر ذلك الصحفى الشهير الذى كانت إشارات طقوس التحول فى حياته قرار إبعاده عن الصحافة عام ٧٢، قبلها كان ملتزما وجادا ومهموما بالوطن، لما حدث ما حدث، قال الرجل مغيظا : أنه لم يترك النفاق عن عجز بل عن ترفع، ثم أقسم لينافقنّ حتى لا يكون لقلب الحكام من هو أقرب منه، ولقد برّ بقسمه ليظل -طيلة ربع قرن ولما يزل- من أقرب المقربين للحكام.

تتحرك شفتا المسئول، تختلط الأمور وتتكثف الأحزان، اسمع : أنت تظن أننا فى السلطة مثلكم، لا، هل سافرت إلى أمريكا؟ لو سافرت لأدركت معنى كلمة العولمة، إنك هناك لا تفكر فى الله أو الوطن، هناك : اللذة هى الحقيقة الوحيدة، القوة نوع من أنواع اللذة، كذلك الانتصار والمال والنساء والقدرة على الظلم، ما تفكرون أنتم فيه لا يخطر ببالهم، لا يهمهم، كل قيمكم عن العدالة والخير والحق بالنسبة لهم صفر كبير، ووهم مايزال الحمقى يتعلقون به، لست أقصد انفلات الأمور هناك، بل هى منضبطة انضباط الكمبيوتر، إصنع ما شئت، لكنك لو وقعت تحت طائلة القانون فلا رحمة، اسرق بشرط ألا تُضبط، واكذب بشرط ألا تُكتشف، ليست الأمور مقصورة على ذلك بالطبع، فهناك، عندهم، مؤسسات استراتيجية عملاقة تضبط إيقاع المجتمع وتحدد أهداف الأمة. عندنا : لم ننقل النظام كاملا، نقلناه دون مؤسساته، لكننا حتى حين فعلنا ذلك فعلناه بركاكة وفجاجة، بصورة مضحكة كما دائما نفعل، فلا مؤسسات تضبط حركة المجتمع وتحدد أهدافه، وفى نفس الوقت فإن القانون أعجز من أن يعاقب من يكتشف من اللصوص، ولقد كان منطقيا والوضع كذلك أن تكمم الصحافة، وأن تزور الانتخابات و أن يعامل بمنتهى العنف كل من يحاول كشف عصابة السلطة، لكن ذلك يتناقض مع شروط العولمة، ولقد أسفر ذلك عن وضع غريب، لم نتقدم لنلحق بحضارة الغرب بل تخلفنا لنرجع إلى عصر المماليك، بيروسترويكا على الطريقة العربية، اسرق كما شئت واكذب كما شئت وزور كما شئت ومارس من أعمال البلطجة ماشئت، وسواء اكتشفك القانون أم لم يكتشفك، وسواء أماطت الصحافة اللثام عن جرائمك أم لم تمط فأنت فى

مكانك طالما فهمت لعبة السلطة وموازين القوى، وطالما كنت تمسك في يديك من فضائح زملائك ورؤسائك ومرؤوسيك ما تهددهم به، اسمع : ليس بين الناس مشاعر، الحب مات من زمن، لا وفاء أيضا ولا إيمان بشيء إلا بمتعة الجسد والنجاح المادي.

قلت لنفسي أن الله قد وضع في الدنيا سننها، و أنه قد أعطى الدنيا لمن يعمل عملها سواء كان مؤمنا أو كافرا، و أعطى الآخرة لمن يعمل لها من المؤمنين، لكنه حرم المنافقين من الدنيا والآخرة، وقلت لنفسي : جلنا من المنافقين.

لقد قال الرجل : هل تستطيع أن تفهم الآن سلوك الساسة والمسئولين، لا أحد حريص على البلد، سوى المهزومين الذين لم يجدوا مكانا في ركاب السلطة، وبعض المعارضة، وبعض من أشرفوا على الموت، بعضهم لا كلهم . الآخرون في واد آخر، في عالم آخر،أنتم تفكرون في أشياء لا تهمهم على الإطلاق، لا يفهمونها كما لا تفهمون أنتم فكرهم، مقابل العولمة حدث تفتيت رهيب وانشطارات للذات، فما دمت قد فصلت الله كمؤثر كان من المنطقي أن تفصل ماعداه. لذلك فهم يتكلمون لغة مختلفة، لن تفهموهم أبدا ولن يفهموكم، والقوى هو الذي سيبقى، وهم الأقوى، غيروا شعاركم القديم إذن واكتبوا على راياتكم : الاستسلام التام أو الموت الزؤام . اسمع، إياك أن تحدثني عن الخلود والتاريخ، لأننا نموت حين نموت، التاريخ عزاء من لايملكون يومهم، لكن كيف يملك غده من لا يملك يومه، وحتى لو ملكتم الغد لن نكون جميعا أحياء لنرى أو نكافأ أو نُعاقب، فلينبشوا قبورنا إذا شاؤوا، فإذا حدثتني عن الآخرة لن أقول لك أننا لا نؤمن بها، لكننا فقط لا نفكر فيها، إنني لا أكلمك عنا في مصر فقط، بل في العالم الثالث كله، وفي الثاني أيضا، فضلا عن الأول طبعا .

لم أكن أريد أن أصدق ولا أن أفهم. لكنني فقط، كنت أنظر إلى بنيان الرجل القوى، إلى يديه الجبارتين، إلى شفتيه، وكيف تنطقان الكلمات صارمة لا كحد السيف بل كشعاع الليزر الذي يتلاشى كل ما يقف في طريقه، وخطر ببالي للحظة، أنه عندما كان في السلطة، كان يأكل لحوم البشر.

يا وقور يا عجوز . . لا يجوز..*

تساءلت فى دهشة وحسرة وأنا أتصفح حديث السيد وزير الداخلية المنشور بالأهرام – والأهرام أهرام !!– الوقور فطفقت أردد قول ابن جبير:

خلعت العذار بشيب العذار . . . فما يقبل اليوم منك اعتذار

وقالوا المشيب وقار الفتى . . . وهذا المشيب فأين الوقار!!

أراك صحبت حياة الغرور . . . وتسحب جهلا ذيول اغترار . .

ونحن لا ننكر على الوزير أن يتحدث بل على العكس أنكرنا وننكر وسننكر أنه لم يتحدث طوال العامين الماضيين، وعندما يتحدث الآن فإنه يتحدث غالبا خارج الموضوع، فإذا تحدث فى الموضوع فحديثه غير مقنع. كما أننا لا ننكر على الأهرام أن تنشر، فالأهرام، سيدة الصحف العربية – أكاد أقول بلا منازع – و أكثرها دسامة وتنوعا ووقارا مطالبة بما هو أكثر من النشر بكثير، مطالبة بأن تنشر موضوعات تهز الحكومات والدول، ونحن لا ننسى أن نيكسون، رئيس أكبر دولة فى الدنيا قد عزلته صحيفة.

لقد كانت الشعب فى حملتها الصحفية عاتية جبارة ناجحة قوية مقنعة شجاعة دؤوبة مخلصة صادقة فى حملة يصفها كثير من المراقبين بأنها أقوى و أهم حملة صحفية على الفساد طوال الحقب الأخيرة، وكنا نريد لمن يناظرها أن يكون على نفس المستوى، لكن الأمر انتقل من الجد الموجع إلى الهزل المفجع، فكنا كمن دُعىَ لكى يشاهد مباراة القرن فى الملاكمة، فذهب مشوقا وقد أغراه أن الطرف الأول هو محمد على كلاى . . لكنه على الحلبة يفاجىء أن الطرف الآخر هو . . . اسماعيل يسن !!.**

---

* تعليق على حديث صحفى أجراه الأهرام مع اللواء حسن الألفى قبيل إقالته.

** من المحزن أن أداء حزب العمل كان كأداء السادات بعد نصر أكتوبر، نفس المأساة، فلقد خذلوا أنفسهم وأنصارهم والأمة، وخذلوا مجدى حسين نفسه، بالسعى إلى الصلح مع الألفى(لمزيد من التفاصيل راجع الخاتمة).

إننى عزوف عن مناقشة تفاصيل القضية، شغوف بمناقشة كيف يمكن أن تفلت آلة الأهرام الصحفية الجبارة هذا التحقيق الصحفى الهزيل المثير للرثاء.

وقبل أن نقرأ معا أطرافا من هذا التحقيق المهزلة، دعونى أذكركم بأن قواعد البروتوكول، و أهم منها مقاييس الأمم تضع رئيس التحرير، والصحفى الناجح فى درجة رئيس الوزراء، ولعلنا لا نذهب بعيدا حين نقول أن وضع واحد كمحمد حسنين هيكل على سبيل المثال، عند الأمة والعالم، يسبق بكثير وضع أى رئيس وزارة فى عالمنا العربى، بل ويسبق كثيرا من الحكام أيضا!!

فلنطالع إذن فقرات من التحقيق المهزلة حين يصف الصحفى الهمام، المطالب بكشف الحقيقة السيد وزير الداخلية بقوله : "فى حق مصر لم يخطىء الألفى، فأنا أعرف أنه يبدأ عمله فى الصباح الباكر ويغادر مكتبه فى الصباح التالى ليلتمس قليلا من الراحة، وللأسف لم تترك له صحيفة الشعب منذ أسابيع سبيلا إلى سويعات الراحة القليلة التى يلتمسها يوميا وسط أسرته".**

دعنا من ركاكة الصياغة المضحكة، لنلاحظ أن الصحفى الذى أجرى الحديث نفسه، يعرب عن عدم تصديقه للوزير الذى صرح فى ذات الحوار الصحفى أن حملة الشعب لم تهزه على الإطلاق!!، دعنا من ذلك لنقرأ المقدمة العاطفية للموضوع : "الجرح غائر و عميق، وجرح وزير الداخلية يستحق هذا الوصف لأن الرجل مؤمن بأنه برىء، ولأنه مؤمن بأن كارهين لأمن مصر واستقرارها تصيدوا بعض الأوراق والأقوال والحكايات من هنا وهناك وراحوا يكيلون له أشد الاتهامات و أفظعها". .

هذه المقدمة الصحفية ترشح كاتبها أن يكون "عسكرى مراسلة "أو على الأكثر أمين شرطة، ولنتابع على الفور موقف السيد الوزير والسيد الصحفى من تسرب المستندات التى اعتمدت

---

* بعد أسابيع فقط كان الألفى يُقال إقالة مهينة حين وصف الرئيس أداءه بأنه تهريج وفشل، كان ذلك أمام التليفزيون ووكالات الأنباء فى سابقة لم تحدث من قبل، وكانت الأهرام فى مقدمة الصحف التى نشرت ذلك وفصّلت فى مثالب الرزير.

عليها الشعب فى حملتها من وزارة الداخلية نفسها، حين يسأل السيد الصحفى السيد الوزير- و أتخيله لحظة السؤال راكعا يبكى فى وَلَهٍ صائحا - :

- كيف تحمى أسرار الوزارة.

ولقد غفل السيد الصحفى عن أن سؤاله وحده يتضمن وثيقة اتهام، فهو اعتراف بأن المستندات التى اعتمدت عليها الشعب فى حملتها الصحفية هى من ضمن أسرار وزارة الداخلية. ولكن لندع تلك السقطة من السيد الصحفى إلى الإجابة الكارثة من السيد الوزير، الذى نعترف له بأنه امتلك من الشجاعة الأدبية قدرا لم يتح له أن يقول مثلا أن مستندات الشعب مزورة، إنه يعترف بهذه المستندات، ويعترف أنها صادرة من وزارته فيقول :"هناك نظام أمنى صارم يحمى أسرار الوزارة ومستنداتها، وما يقال عن مستندات تخص الوزارة فكلها متعلقة بحركة التنقلات، وهناك بعض الضباط عند إحالتهم للمعاش يحاولون الحصول على الأوراق التى تفيدهم لإقامة الدعاوى ضد الوزارة، و أمانة العمل تمنعهم من أخذ هذه الأوراق، لذلك شكلت لجنة لدراسة كل الثغرات الموجودة فى قانون الشرطة، و أهم ما نسعى إليه إجراء تعديل تشريعى وتجريم الحصول على المستندات أو استخدامها بعد الخروج من الخدمة، وتصبح جريمة يعاقب عليها القانون بالحبس."!

يا للهول . . .

هل يمكن أن يوجد مسئول يفكر بهذه الطريقة، و أن يستمر فى منصبه. . وقد يجيب البعض أنه ممكن ويحدث، ولكن الأهم والأخطر، أن حصافة السيد الوزير لم تسعفه، ولم تذكره أن هذه المستندات بالذات- كما يعتقد هو - هى التى استخدمتها صحيفة الشعب فى الاتهامات التى وجهتها إليه، و أن سيادته عندما يستصدر تشريعا يجرم ذلك، فإنه لا يعتدى على حق الأمة فى المعرفة فقط، ولا على حق القضاء، بل إنه على عكس ماذهب إليه السيد الصحفى فى مقدمته العاطفية الحزينة، هو- لا أعداءه - الذى يهدد أمن مصر و استقرارها!!. لأننا عندما نراجع اتهامات الشعب، سنكتشف أن ما سيسعى السيد الوزير إلى استصداره من قوانين

سيجرم كشف الاعتداء على المال العام، وتجارة المخدرات والاستيلاء بالنصب والاحتيال والبلطجة على المال الخاص!!.

وفى هذه القضية، كما فى قضية العميد حمدى البطران، فإننا نخرج من مسارح السياسة والاجتماع الفن والأدب لندخل كهفا عبثيا لا يصله ضوء من الدين ولا من العقل ولا من التقاليد ولا من التجارب،ولا من أى شىء آخر.

نحن إزاء وضع غريب، لذلك لا أستطيع أن أطلق عليه اسما، فكل بلد فى العالم، وكل هيئة وكل مؤسسة وكل شركة بل وحتى كل أسرة تضع من القوانين واللوائح والنظم ما يكفل منع ارتكاب الجريمة قبل أن ترتكب واكتشافها إذا ارتكبت ومعاقبة الجناة عليها، ويحرص الجميع على تشديد العقاب إذا ما كان مرتكب الجريمة قد ارتكبها مستعينا بوظيفته، ذلك هو الوضع الطبيعى، وهو الذى كان يحدث دائما فى تلك الفترة من عمر البشرية التى نقلها إلينا التاريخ المكتوب، و أحسب أنهم حتى فى عصور ما قبل التاريخ كانوا يفعلون ذلك.لأنه جزء من النظام العام الذى لا يقوم بدونه مجتمع ولا تنشأ دولة.

فلننظر إذن إلى ما يحدث فى بلادنا.

لقد سكتت الدولة عن ارتكاب الجرائم، ونقول - سكتت تأدبا - أما إذا راعينا الحقيقة فسنقول أن الدولة نفسها هى التى ترتكب هذه الجرائم، وفى جو القهر والتزوير والتعذيب تعجز الأمة عن تغيير ذلك وعقاب الآثمين، فيتصدى للأمر قلة من الصحفيين نضوا لباس الصحافة وارتدوا لباس الشهداء بعد أن ضج ضميرهم من فداحة ما يحدث، لكن الدولة ذات الباع الطويل تسن من القوانين ما يجعل سجن الصحفى وجوبيا لمدد تصل إلى خمسة عشر عاما بالإضافة إلى غرامات باهظة تتكفل بإغلاق الصحف وخراب البيوت، ولكن لأن الخير لا ينقطع من أمتنا فإن فدائيين ينطلقون من داخل الأجهزة الآثمة، ينطلقون ليكشفوا الجرائم التى لا تهدد الأمة فقط، بل والدولة أيضا، فإذا بالدولة تتصدى لهم...!!

ولا حول ولا قوة إلا بالله...

لاتــرشــح نـــفـــســك مـــرة أخـــرى

لقد كانت عافية أمتنا فى أولها، و إن مايصيبنا الآن من بلاء تجىء فيه الفتن، فيرقق بعضها بعضا، تجىء الفتنة فأقول هذه مهلكتى، ثم تنكشف وتجىء فتنة أخرى فأصرخ هذه هذه .

عفوك يا قارئى، حين أعبر عنك بصوتى، صارخا فى البرية، مناشدا الرئيس ألا يرشح نفسه مرة أخرى، وهى مناشدة أعلم أنه لن يسمعها،فإذا سمعها لن يستجيب لها، و أنه حتى على افتراض المستحيل، والمعجزة، واللامعقول، لو فكر فى الاستجابة فلن يُسمح له بها، لا من الأمة، بل من الآخرين .

عفوك، فهم لم يعودوا يسمعون ترددات أصواتنا، ولا ذبذبات أرواحنا، وكيف يسمعونها وهوائيات أفئدتهم ليست موجهة إلينا فعفوك ياقارئى ألتمسه وعذرك أستميحه وقد أصبحت الكتابة إليك قبضا بأصابع اليد العارية على جمر ملتهب، ذلك أننى بالرغم منى، مهما حاولت،ومهما جهدت، مرغم على تغطية حديثى إليك بنوع من الكياسة يأبى ضميرى إلا أن يسميها باسمها الحقيقى : كذبا، وبنوع من المجاملة ليست إلا نفاقا، ومداورة هى فى حقيقة الأمر مهادنة، وتبرير يعفينى من عار الاعتراف بالجبن، مرغم مثلا على التحدث عن العصابات وكأنها مؤسسات، على المسوخ وكأنهم شيوخ، وعن

---

* نُشرت هذه المقالات قبل الاستفتاء الماضى بعام، وكان من آثارها انفجار موجة عاتية من المبايعة فى جميع الصحف القومية ووسائل الإعلام استمرت حتى الاستفتاء، و الآن نؤكد أن السماح بنشر هذه المقالات يُحسب للرئيس مبارك وفى نفس الوقت، فإن هذه المقالات مازالت [illegible]

القراصنة وكأنهم أصحاب السيادة وعن اللصوص كأنهم العسس، عن المماليك بألقاب السيادة والفخامة والجلالة، و أن استجدى الجلاد أن يرحم لا لشيء إلا لأنه رحيم - وليس لأن ضحاياه يستحقون الرحمة -، والمهرب أن يحرس - لأنه الحارس - والمفرط أن يصون - فهو الأمين - والإرهابيين الحقيقيين أن يقضوا على الإرهاب والمغتصب أن يستر العرض والخائن أن يحفظ الأرض .

أن أشكو الجلاد لنفسه واللص لنفسه والخائن لنفسه والمزور لنفسه .

مرغم على ذلك، أو على الأقل للتظاهر به، درءا لاتهامي بالإرهاب، لاتهامي بسرقة ماسرقوه، لاتهامي أنا بالخيانة، وللتشهير بي، لمصادرة صحيفة و إغلاق حزب، وتجميد نقابة، حين يرسلون من يلقى القبض عليّ، وينفذ الحكم في ذات الوقت، حيث يجعلون من جسدي مصفاة بالرصاص، وعندما يصيب رصاصهم الطائش الأرعن بعض رجالهم يضعون في يدي الميتة العزلاء المهشمة برصاصهم مسدسا أو مدفعا يدعون أنني أطلقته على رجالهم، وأن زوجتي وابني وابنتي التي لم يجاوز عمرها الغض عاما حين ماتوا بالرصاص معي لم يموتوا إلا لأنني جبان خسيس تدرعت بهم، جعلتهم بيني وبين رجالهم الشرفاء ثم رحت أطلق الرصاص، بعد ذلك ينشرون في الصحف اعترافاتي على نفسي، شذوذي وخيانتي، دون أن يعتبروا بقصاص السماء، فاللواء الذي اتهم فتاة العتبة بالدعارة أبعد عن عمله في قضية دعارة، والآخر الذي نسي ربنا -في حادث بلطجي مصر الجديدة - من أجل ربه، لم يمر العام عليه دون فضيحة داوية، ومهابة ذاوية*.

وبالرغم من ذلك كله فإن زملاءهم على استعداد لأن يقرروا بعد قتلي، أنني حين فعلت كل مافعلت، إنما فعلته من أجل

* الفاجعة الغامضة لاغتيال اللواء محمد إمام وابنه، والقضية الثانية هي قضية لوسي أرتين.

خمسين جنيها، خصصها لي رافسانجاني، ثم أرسلها لي مع البشير، وبعد اعترافاتي ينشرون تبرؤ أهلي مني، وإنكار قومي لي، وذهاب أقراني للتوبة النصوح، لا لله بل لمباحث أمن الدولة، بعد فتوى المفتي بكفري، وعزم الشيوخ على مطاردة الخوارج مثلي، لقطع دابرهم، و إلحاق أولهم بآخرهم، وتصريح القائد أنه لن يرحم، رغم علمه أن من لا يَرحم لا يُرحم، و أنه سيفرم، وتدق الطبول للضابط الشهيد، مودعا بالحماسة والدموع والورود ومانشيتات صحف لا يشك من محرريها أحد أن الشهيد ذاهب مباشرة إلى جنة الخلد في ذات اللحظة التي أهوى أنا فيها إلى قرار الجحيم، وكأنما الجنة والنار من بنود السياسة والسيادة، و أن الدخول في أيهما يتم بمرسوم ملكي، أو قرار جمهوري، أو بقرار من مجلس الشعب يقدم مشروعه بعيد العصر لتتم الموافقة عليه قبل الدفن، ليصدر قرارا هو سيده، لا رجعة فيه ولا نقض له، ولا محكمة إدارية عليا تستطيع تعديله، ولا دستورية تقضي بعدم ولايتهم على الجنة والنار، فمن يدعي ذلك ليس إلا مارقا آبقا لا جزاء له سوى النار، وسوف يجدون العون في ذلك كله بفتوى ممن يفتي، لا على المذاهب الأربعة، بل على مذهب النظام العالمي الجديد، الذي تعدد شيوخه في عشرات من الندوات، تذيعها أجهزة عالية الصوت، معدومة التأثير .

لذلك كله ياقارئي أهرب من مواجهتك، فلقد أثبت دائما انك أذكى مني، كما أنك اذكى من كتاب هذا البلد أجمعين، وأكثر عمقا وقدرة على الفهم مع ادعاء عدم الفهم، على المواجهةالتي تخفى حتى على من تواجههم، حين تلتحف بالصمت لكنك لا تتوقف عن التعبير في نظرة عين أو بسمة شفة أو حركة ملمح أو نصف كلمة لا تتم، ولقد حاولت بيني وبينك، بعيدا عن السلطة، وبعيدا عن استفتاءاتها وافتئاتاتها، أن أسألك، سؤالا واضحا صريحا مباشرا، ولم أكن أنشد - والله - إلا الحقيقة التي خشيت أن تكون قد غميت عليّ. فسألت عشرات وعشرات منك يا شعبنا وكان السؤال :

هل بايعت أو توافق على مبايعة الرئيس لمدة ثالثة ؟.

لعل قارئا أجنبيا يتوقع إجابة محددة بالنفى أو الإيجاب. و أنا نفسى كنت أمهد نفسى لرأى - ولو قليل - يخالفنى، ذلك أننى أدرك من زمان طويل أن الحمقى وحدهم هم الذين يظنون أنهم على صواب مطلق، وبالرغم من ذلك، فقد كانت مفاجأتى - يابنى وطنى - أن أحدا قط منكم لم يرد بكلمة، بل التحفتم يا إخوتى بالصمت لكنكم لم تتوقفوا عن التعبير فى نظرة عين أو بسمة شفة أو حركة ملمح أو نصف كلمة لا تتم، وكان مأساويا إلى أبعد الحدود بالنسبة لى أن احدا لم يأخذ السؤال مأخذ الجد، لا من طرفهم فقط، بل ومن جهتى أيضا، و كلما حاولت إقناعهم أننى غير هازل ولا مازح ازداد يقينهم من هزلى ومزاحى، ولم يكن ذلك هزلا ولا مزاحا منهم وإنما موقف عبقرى عبر بالصمت عما لا يمكن لأى حديث أن يعبر عنه، موقف عبقرى زاد من إحساسى - يا قارئى - بأن الكتابة إليك جمر يكوى، ونار تشوى، عندما تكون الحقائق واضحة أمام الكل، القريب والبعيد، عندما تقرأ لنا لا لنشرح لك بل لتحكم علينا، حين تترامى ظلالك واصلة التاريخ بما قبل التاريخ بما بعده ناظرا فى أسى وربما ازدراء إلى ضعفنا ونفاقنا وخيانتنا مدركا باشمئزاز كم أنه لم يكن -أبدا- لكل هذا الخوف والنفاق والتلاشى مبرر، مهما كان الثمن الذى طمع فيه كل خائن أو العاقبة التى حذر منها كل خائف .

لكن - على الرغم من ذلك - فإن قلة نادرة هى التى تستطيع أن تسمى الأشياء بمسمياتها الحقيقية ومسدس الآخر موجه إلى رأسها وهو يسألها عن رأيها فيه .

فعفوك ياقارئى لعجزى عن القيام بواجبى تجاهك، ففى البلاد الأخرى، حيث الحكام حكام حقيقيون والكتاب كتاب حقيقيون تكون وظيفة الكاتب أن يستشف من الماضى مالم يستشفه الغابرون، و أن يستشرف من المستقبل مالم يستشرفه اللاحقون،أما فى مثل بلادنا فأقصى مايطمح إليه أى كاتب، أقصى مايجرؤ عليه و أبعد مايصل إليه، هو أن

ينقل الواقع دون تزييف كثير جدا، دون تمويه، دون قلب كامل للحقائق، أقصى مايستطيع الكاتب أن يخاطر بنفسه في سبيله هو أن ينقل رأى رجل الشارع العادى، رأى طالب المدرسة وعامل المصنع وسائق التاكسى .

فما قيمة كتابتى إذا كان كل ما أستطيعه أن أكون مترجم صوت إلى حرف، أن أجاهر بما يحسه كل واحد من الأمة، بما يحدث به الصاحب صاحبه والرفيق رفيقه، لا في مراكز الدراسات ولا في أروقة الجامعات ولا في صالات اجتماع أحزاب، بل داخل المنازل وفي الشوارع وعلى المقاهى، لا عن ألفة بالغة، ولا عن حكمة سابغة، بل هو العادى والمعروف والدارج، ليس كله، فقد علمتنا عهود القهر والذل والخوف، أنه لا يكفى أن تكون الأشياء حقيقية كى تقال، ولا معروفة لكى تنشر، لا لمجرد العرف والمناسبة، بل لأن متاريس القوانين والسلطة، قد جرى عليها ماجرى، فانقلبت، لتقف مع الذئب ضد الشاة، ومع القاتل لا المقتول، مع اللص والمزور والمهرب، مع سارقى مال النبى ومال الله، ليكون قدرنا ونحن نكتب مجرد ماعلى ألسنة الناس لا ما في قلوبهم أن نواجه كل هذا، ليكبلنا، وذلك ما يجعل لسانى عييا وبيانى أبيا ويراعى قصيا، فماذا يمكن أن أضيف إذن ؟.

ماذا يمكن أن أقول والشاعر يقول :

إذا كان الطباع طباع سوء . . . فليس بنافع أدب الأديب .

و ذلك ياقارئى ما يحجبنى عنك .

يحجبنى أيضا خشيتى أن أصدمك بما قادتنى إليه الأمور وما أمسيت أرجو أن تصير إليه بعد أن أبهظنا استقرار الحال، و أعيانا السعى خلف المحال، لندرك أن آفتهم -خفف الله كلامنا عليهم، وأعشى أعينهم عنا وعنكم- سوء السيرة وخبث السريرة . وشيمتهم شدة الطمع وقلة الورع، و لأن من كثُر ظلمه واعتداؤه قرُب هلاكه وفناؤه، فإننى أعترف بأننى واحد ممن يتحمسون للموافقة على مواقف الحكومة في

الآونة الأخيرة وعلى موقف مجلس الشعب وعلى موقف الوزارة ، على ضربنا بالرصاص، و على الاعتقالات الهوجاء، والسياسات العرجاء،والمواجهات الشوهاء، على صفحات الصحف الحافلة بالمبايعة، على أعمال القنص الجماعى التى لم يحو تاريخنا مثلها منذ عهد المماليك، وعلى إطلاق النار وقنابل الدخان على المساجد وهو مالم يحدث إلا تحت سلطة احتلال، و على إطلاق قذائف الآر.بى.جى على المنازل وهو مالم يحدث حتى تحت سلطة الاحتلال، فمن أجل هذا أوافق، كما وافقت حتى على موقف الوزير السابق الذى تتصدر جبهته علامة الصلاة الضخمة، حين نوى فى شهر رمضان، تقربا لله وزلفى، ألا يوقع على أمر اعتقال واحد، وأن يتم اعتقال الناس بلا أوامر منه، دون أن يدرك، أن الكلب حينما بال على الجدار، كان ذاك الجدار هو الذى بيننا وبينه، و أن الجدار حين ينقض عليه لن يقيمه رئيس ولا مرؤوس، أوافق أيضا على قراراتهم بمحاصرة أحزاب المعارضة والنقابات المهنية .

وأوافق على المبايعة .

وأوافق على بيع الشركات والمصانع دون أى قيود حتى قيود النصب والاحتيال .

و أوافق على السيطرة البوليسية الكاملة على النقابات والجوامع دون أى قيود حتى على أساسيات الدين من أقوال وأفعال .

وحتى الشيخ الغزالى و الشيخ شعراوى وشيخ الأزهر لا مناص من اتهامهم أحيانا بالإرهاب والانحراف عن جادة الصواب والدين إذا ماخالف رأيهم رأى فضيلة أى ضابط بمباحث الأمن، المدربين على إطلاق كلاب الصيد المدربة، لا على نهش اللحم البشرى وانتهاك العرض الإنسانى فقط، بل وأيضا على الكتابة بأبناط ضخمة، فى صحائف ضخمة، فى أبواق ضخمة وعلى شاشات ضخمة .

أجل، حتى الشيخ الغزالى والشيخ شعراوى وشيخ الأزهر

هوجموا، اتهموا بالإرهاب حين لم يتلوا خلفهم : قل هو الرئيس أحد الرئيس الصمد، أما الإخوان المسلمون فما هم بمعتدلين بل إرهابيين مستترين . وما صحف المعارضة سوى الإرهاب خالصا أما المنادين بحكم تقوم أسسه على الإسلام فلا مناص من وأده، فإنه مايزال يجرؤ على الكفر بما يتنزل من المخابرات الأمريكية .

بيد أنى أوافق على كل هذا. داعيا الله أن يفشلوا فى كل مسعى يصبون إليه، و ان ترد أمريكا وإسرائيل على أياديهم الممدودة بصفعات مشهودة، أن تغرقهم بطوفان من الذل والمهانة لايجدى لإخفائها أى رداء مصطنع*. أوافق على المبايعة .

تستعيد الذاكرة نهاية مسرحية رومولوس العظيم، حين يترك الإمبراطور أعداء روما يقتربون وهو مشغول بتربية الديكة، والحاشية فى غاية الدهشة لموقفه، ويحاصر الأعداء روما وهو مشغول بالديكة، ويقتحمون المدينة وهو مشغول بالديكة، ويصلون إلى القصر، وقبيل وصولهم إليه يوجه حديثه إلى الباقين من حاشيته، ناعيا عليهم غفلتهم، فلم يكن مشغولا حقا بتربية الديكة، و إنما فكر فوجد أن روما قد فقدت قيمها الأخلاقية، فقدت الصدق والجد والمنطق، و أنه لهذا تركها تموت فقد كانت تستحق الموت .

ربما من هذا المنطلق أوافق على المبايعة، فثمة ماينبئنى أن مدة مبارك الثالثة ستحمل فى طياتها نهاية النظام، ولعل الجفوة مع الأمريكيين سببها إدراكهم أن استمرار مبارك ضد مصالحهم، ليس لأنه سيحاربها، بل لأن الناس لم يعودوا يطيقون .

لقد قالت مراسلة التليفزيون الأمريكية دوريس كاى عن السادات :

لم يكن من الممكن أن يستمر ذلك، فقد كان الفارق بين

---

* لقد استجاب الله للدعاء بمجيء نتنياهو، الذى كانت ممارساته، هى العامل الأساسى فى حد أدنى من العمل العربى المشترك.!!

التماسه رضا امريكا و إسرائيل، وجبروته وطغيانه المستبد بأبناء وطنه من الاتساع بحيث لم يعد أحد يحتمله .

الآن هل اختلف الوضع ؟، وهل يختلف ؟.

لذلك أوافق على كل ذلك، و أوافق أيضا على ما فوق ذلك وما دونه، إذ ليتهم يطبقون ذات القوانين التى فرضوها على النقابات على مجلسىْ الشعب والشورى، كى تقوم هيئة ما، بعد افتقاد النصاب، بتعيين أعضائهما، كى تنزع الأمة القناع عن وجه الشيطان الماكر والفقيه الفاجر والحاكم الجائر، ولكى تنزع عن اليد الآثمة التى تغرس الخنجر فى قلوبنا قفازا يحمل بصمات مزورة لنا .

ليتهم يفعلون ذلك كى ندرك من أين يفوح العطن، ومن أين يأتى النتن، وكيف تنبت الخيانة .

وليتهم يطبقون ذات القانون على انتخابات الرئاسة، حتى تبطل النتائج، كى يقوم النظام الجديد بمعرفته بتعيين رئيس لنا، تعيينا مباشرا صريحا دون التفاف والتواء وتأويل وتغطية وادعاء باستفتاء، إذ أن ذلك سيعنى انتهاء الاختلاف وانتفاء الالتباس، كى يلتئم قلب الأمة المصدوع، منهيا حقبة من الانخداع الطويل، لم تكن كلها دون إرادة، فقد كان الانخداع هو الوضع المريح الذى يجنبنا عواقب الفهم والإدراك، أن النظام الجديد - القديم - هو الحاكم وأن الحاكم عدو . أن ندرك حقيقة وضعنا، و أن القضية الوطنية قد عادت إلى الوراء مائة عام أو يزيد، أن علينا أن نبدأ من جديد، دون فسحة من الوقت حتى لنبكى شهداء أهدرت دماؤهم حين بِيع ما استُشهدوا من أجله، وأضِيع ماذهبوا لكيلا يضيع .

علينا أن نبدأ من جديد، مستودعين عند الله ماضاع منا، محتسبين الدم والولد والمال وعمرا من الألم، كى نبدأ مرة أخرى، من جديد، كأن لم نبدأ بعد، فلكى نستعيد حطين وعين جالوت علينا أن ننتصر فى مرج دابق ونافارين والتل الكبير، وعلينا إذن أن نسدد ديوننا التى لم يسقط الزمن منها

دينا، أن نعود لنطالب بالاستقلال التام أو الموت الزؤام، بالجلاء، برفع وصاية الخديوى عن مجلس الشورى وبعودة الدستور، أن نفضح ماحدث فى دنشواى، وما يحدث فى منقباد، وفى لاظوغلى، و أن نحارب تحول العلاقة مع أمريكا إلى زواج كاثولوكى، أن نبحث عن أمين عثمان الآخر، أن نسأل عنه يوسف والى، وأن نكافح حصار الدبابات الأجنبية حول قصر عابدين كى ننقذ مليكنا المفدى من فرض الوصاية عليه، فلعلهم انفردوا به، ففرضوا عليه كل مايحدث وأرغموه عليه، دون أن نعرف ودون أن نحس،فلقد ملكوا المداخل والمخارج، وعزلوه عنا وعزلونا عنه، حيث لا يصحبه ناصح ولا ينصحه صاحب، ومن أجل هذا فإن علينا أن نحارب،لا حروبنا القادمة فقط، بل الماضية أيضا، أن ننبش الجراح، نكشطها، نخرج الصديد والقذى، أن نحارب حرب ٤٨، لا فى القدس ويافا وعكا والنقب، بل فى القاهرة والفيوم ووزارة الزراعة والصالحية والسنطة . أن نحارب حرب ٤٨، لا فى مصر فقط، بل فى السعودية أيضا، والخليج، والـ . . كويت .

يا إلهى، لشدما غضبت والطغاة البغاة يهاجمون حكام الكويت، لأنهم بصقوا فى وجوهنا، وطردونا، حين تدخل النخاسون والسماسرة، ليبيعوا ما لايباع، وليستبدلوا دم الضحايا -لا الشهداء- بأموال مسربة، و أرصدة مهربة،ففقدوا الصيت والغنى، عندما بدا عتابهم للكويت، لا على مبدأ، فما كان هناك فى الأمر كله مبدأ، وبدا الأمر الكريه البشع، وبانت السوءة وانكشفت العورة وتمخض الأمر عن شجار بلطجى وراقصة و صاحب ملهى رفض أن يدفع لحراسه . وكنا نعرف من البداية أن هذا سوف يحدث، وعندما غضبنا ماغضبنا على إعلان دمشق، بل على القاهرة ودمشق والعروبة والإسلام جميعا، غضبت، لا من الإهانة، فأنا أتوقعها من قديم، فضلا عن أنها ليست موجهة لى، بل للطغاة البغاة الذين يدعون اليوم أنه لو أجرى استفتاء فى مصر لرأى المصريون عدم ذهاب جيش مصرى إلى الكويت مرة أخرى،

أخرى ياولاد الـــ ..، وماذا عن الأولى، هل وافق المصريون عليها أم أنتم، لست غاضبا من الكويتيين بل من الطغاة البغاة الخطاة مستحلى دم الحسين ومحرمى دم البراغيث، من الزناة الذين يقربون الصلاة وهم سكارى دون أن يتوبوا و أن يتطهروا، كأن لم يحدث شيء، كأن لم تغشنا غاشية ولم تقرعنا قارعة، كأن لم نُهزم، كأن لم تُطأ أوطاننا وتُستبح بلادنا وتُسْبَ أمهاتنا وبناتنا وأخواتنا وزوجاتنا، وكأن لم تُنهب أموالنا، كأن لم تضع علينا آخر فرصة فى هذا القرن، لا للمواجهة، بل لمنع المزيد من التدهور، من كبح عجلة الانهيار .

كأن لم يحدث شيء، قتلونا بأيديهم وبعقل أعدائنا، وزنوا بألسنتهم، وامتلأت أرصدتهم ثم يهرولون كى يدركوا الصلاة معنا . . فكيف، أإله مع الله،آللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، أم أمريكا وبريطانيا و إسرائيل هى الأخرى، أم الواحد القهار . لا وربى، ليس قبل أن تتوبوا، وليس قبل أن تقروا بالخطأ والجهل والخيانة، لا فى كارثة الخليج فقط ولا فى البوسنة والهرسك فقط، ولا فى الكذب والتزوير والسرقة فقط، ولا الآن فقط، بل فى كل كبيرة وصغيرة وعبر أزمان وأجيال، ليس خطأ تصرف ولكن خطأ منهج، ليست فلسفة ثبت فسادها ولا منطقا بدا خطؤه، و إنما انعدام أى فلسفة وكل منطق .

ليس الخطأ خطأ الحاكم فقط ولا المشكلة فيه وحده . ولشدما استغرقنى البحث والتفكير والتساؤل لأصل إلى سر المعادلة التى تكشف عن نسب التداخل فى عناصر المشكلة و أوجه المسألة، إلى أى حد نحن مسئولون عن إفساد حكامنا، لأنه كما نكون يولّ علينا، وإلى أى مدى تصلح الرعية إذا صلح الراعى، و إلى أى حد تفسد السمكة من رأسها . أيها السادة، ياصفوة المجتمع ونخبته، قبحكم الله، وقطعكم، بأعدائنا عز أعداؤنا وبكم ذللنا .

يعز علىّ أحيانا تصديق مايحدث، يصعب، يعجز المنطق فألجأ إلى الخيال، لا تفسيرا بل عزاء . وبالخيال للعزاء ربطت مابين مبادرة السادات ومبارك بعده وبيروسترويكا جورباتشوف

ويلستين بعده فصورت - وتصورت - بعين الخيال أنهم اكتشفوا فجأة اكتشافا مفاجئا صاعقا كاسحا مطلقا أبلج من الصبح، و أوضح من الشمس وأوثق من ثقتهم بوجودهم أنهم إن لم ينقلبوا فجأة على ماضيهم، إن لم يعكسوا المسار تماما تماما فثمة خطر ماحق ساحق لايتهدد ذواتهم فقط بالموت فقط بل يتهدد أممهم وماضيهم وأجيالهم وملتهم بالإبادة التامة والفناء الكامل، وأنه لم تتح لهم للتفكير ولا لمراجعة أممهم فرصة، كان عليهم والإنذار على رقابهم لاسيفا مصلتا، ولا قنبلة ذرية ولا حتى نووية بل أخطر من هذا كله بما لا يقاس و أنه كان عليهم - للبؤس الفاجع - أن يقرروا فى ثوان معدودات،ولقد قرروا، لمجرد إنقاذ البقاء ومحض الوجود، ولم يكن يوجد فى الدنيا مبرر لما حدث من انقلابات فى الرؤى سوى صواب هذا الخيال المطلق .

لا أستطيع تفسير مايحدث دون هذا الخيال المريض .

لا أستطيع أن أفهم إهدار إمكانياتنا وثرواتنا ومعاملة شعوبنا بهذه الطريقة، لا أستطيع أن أفهم عشرات آلاف التفاصيل التى أدت بنا إلى ماصرنا إليه ولا مايحدث الآن دون هذا الخيال، لا أفهم كل هذا الخنوع والذل أمام مندوب صندوق النقد الدولى أو بيع القطاع العام مثلا، ولا حتى فى ظل فضيحة كفضيحة لوسى آرتين، ولا فى ضوء تخيل أنه وهو يجتمع بالمسئول الكبير يوجه إلى رأسه مسدسا محشوا بالرصاص مهددا بأنه سيطلقه إن لم يسلم للمندوب بما يريد، بل أتخيل أن المسئول يظن فى ذلك المندوب ماكان يظنه الوثنيون القدامى فى أربابهم، من قوة مطلقة، وأنهم يخشون أنهم إن لم يرضخوا لكل مطالب المندوب فإن أربابه قادرة على أن تقول للشىء كن فلا يملك إلا أن يكون، وأنها لن تكتفى إزاء أى رفض أو تمرد بمجرد مسح أسماء أوطاننا من على الخرائط بل من على وجه البسيطة . من أجل هذا يوافقون على كل شىء وعلى أى شىء، ودون تفكير أو تردد، وفى هذا الإطار فقط يمكن أن نفهم اتهاماتهم تجاهنا وعدم فهمهم لنا .

ونستطيع أن نفهم أيضا كيف تم - تحت قيادة مثل أولئك - اختلال الميزان بيننا وبين أعدائنا. لا بمجرد قوتهم بل بمحض ضعفنا، ولا لذكائهم بل لغبائنا، ولا لتنبههم بل لغفلتنا .

وفى ظل هذا الخيال المريض أفهم - لكنى لا أقبل أبدا - كيف يوافقون على أن نصالح قتلة آبائنا و إخوتنا وأبنائنا، قتلة الأنبياء، خائنى رسولنا، و كيف يقبلون الدنية تحت وطأة النظام الجديد، لا أستطيع أن افهم لماذا لا يرحلون،لماذا يفرضون علينا أن ننهزم من داخلنا كما انهزموا هم داخل ذواتهم، مفهوم فى إطار فهم الطبيعة البشرية استئثارهم بالسلطة، إصرارهم عليها، لكن غير مفهوم، أن يصل هذا الاستئثار إلى درجة سياد برى وموبوتو، الخراب الكامل وضياع الأوطان الكامل، ولقد قطعوا بنا الطريق حتى بلغنا منتصفه فى كامب ديفيد ومدريد والخليج، الآن مايزالون كالكوابيس يرزحون على قلوبنا، يكملون النصف الآخر من طريق الخراب بالسماح لهم بما يفعلونه فى ليبيا ونحن صامتون و فى العراق ونحن صامتون وفى البوسنة والهرسك ونحن صامتون، و .. و ..

بيد أنى سرعان ما أفقد فهمى للأمور حين أدرك كم أوغلت فى خيالى .

ولأننى عاجز عن فهم مايحدث عجزى عن تحقيق ما أفهم فإننى أوافق على مايحدث، كى يبلغ السيل الزبى وتصل الأمور غايتها والقلوب الحناجر، أوافق، لاتمنيا للقاء العدو،فإنما نسأل الله العافية، بيد أننا فى ذات الوقت لا نهرب من اللقاء، وقلوبنا تلهج بدعاء منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب أن يهزمهم وينصرنا عليهم . مدركين أن الله تعالى قد جعل كل أمرنا خيرا لنا، فإن أصابتنا سراء شكرنا، و إن أصابتنا ضراء صبرنا فكان خيرا لنا .

أوافق كى نرتق الصدع فى وعى الأمة، حتى تنكشف الغمة .

أوافق، حزينا، لاكراهية للنخبة والصفوة، فمهما فعلت فينا، فليست سوى عضو مريض من أعضاء الجسد نتداعى له

بالسهر والحمى، عضو مريض علينا ان نبذل قصارى جهدنا فى محاولة علاجه قبل أن نسلم التسليم الأخير بوجوب بتره، لا كراهية له، ولا حقدا عليه، وإنما إدراكا مأساويا فاجعا أنه وهو القريب، هو العضو فى جسدنا، قد استفحل فيه المرض، وتمكن منه البوار، و أهلكه الدمار، حتى فقد كل فائدة وعجز عن أى وظيفة، وتحول من عضو يساهم فى قوة الجسد إلى حية رقطاء تنفث السم فيه، وفى بقائه موت الجسد .

مانحن بإرهابيين ولا ناقمين ولا حاقدين، وإنما مثلنا مثل بيت ربه بالدف يضرب، وبمستقبل أسرته يقامر، ليس حتى فى سبيل نفسه على حساب آل بيته، لأنه فور استنفاد أغراضه وانتهاء مدة صلاحيته سيكون من الخاسرين، كالشاه والنميرى والسادات وموبوتو ، مانحن بإرهابيين ولا ناقمين ولا حاقدين، وما فرحة فى الدنيا عندنا تعدل أن يفهم كبارنا، أن يؤوبوا و أن يتوبوا، ولم لا، بل وكيف لا،وقد عهد الله إليهم ألا يعبدوا الشيطان فعبدوه، حولوه من عدو مبين إلى ولى حميم، فانحرفوا عن الصراط، وأوشكوا أن يعمنا الله معهم بعذاب أليم، أن نبتلى بفتنة لا تصيبهم خاصة، من أجل هذا لا تعدل فرحة فى الدنيا فرحتنا برجوعهم إلى الحق، فنحن حتى الآن برغم كل ماحدث وبرغم كل ماهو حادث، لا نكف عن الدعاء أن ينجينا الله وينجيهم، أن يعصمنا ويعصمهم بحبله لا بحبل بوش ولا كلينتون،أن يكونوا من أهلنا وألا يكونوا عملا غير صالح .

فى كتابه ": انتهزوا الفرصة ، للرئيس الكذاب -بشهادة أهله- ريتشارد نيكسون، الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية، -الدولة المجرمة - قبل أن يتشنج العبيد المروضون فالتعبير لنيكسون عن بعض الدول العربية-، وفى هذا الكتاب، كتاب العدو، تتجلى الحكمة السيارة، أن العدو العاقل مهما كان فاجرا خير من الصديق الجاهل .

يقر نيكسون بأن " أكثر مايهمنا فى الشرق الأوسط هو البترول وإسرائيل "، حتى نيكسون الكذاب لم يصل به

الكذب إلى حد أن يخدع أمته أو يكذب عليها مدعيا أن ما يهمهم فى الشرق هو المبادىء والمثل، إلا أن ذلك لم يمنعه من الإقرار بأن " العالم الإسلامى عالم ثورى بطبيعته "، ويستطرد فى حديثه عن الأصوليين الإسلاميين قائلا بالنص فى ص ١٤٠ من الطبعة المنشورة عن دار الهلال :

" إنهم مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضى، ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وينادون بأن الإسلام دين ودولة، وبالرغم من أنهم ينظرون إلى الماضى فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين ولكنهم ثوار "

ثوار يريدون إعادة مجدهم، هكذا يقول نيكسون، أما سفهاؤنا فالأصوليون لديهم زعيمهم طبال أو صبى عالمة أو سباك .

يواصل نيكسون :" لما كانت ذكريات الاستعمار لاتزال ماثلة فى أذهان العالم الإسلامى، فيجب ألا تصل العلاقة بين أمريكا والدول الشريكة إلى حد الوصاية، يجب ألا نتعامل مع زعمائهم كأنهم مراسلون بيننا وبين شعوبهم، بل علينا أن نعاملهم كشركاء متساويين، لأن أسرع طريقة ندفنهم بها هى معاملتهم كأنهم أبواق للدعاية للغرب ".

يا إلهى .

يا للألم .

مراسلون بيننا وبينهم .

أبواق للدعاية للغرب .

أذلك ما حرصوا على كتمانه .

وذلك ما ستدركه الصفوة المثقفة جيلا بعد جيل، وقد تمر قرون قبل أن يشمل الوعى الأمة، ليكتمل وعيها بالحقيقة الفادحة، أن بعضا منها أصابه البوار ليصبح خطرا على الجسد كله إن لم يبتر .

وليس ثمة خيار، إما أن يبتر السليم الفاسد أو يدمر الفاسد السليم .

لقد حاول الغرب إفناءنا بالمواجهة فعجز، فحاول احتواءنا بالالتفاف فبتر من أطرافنا الهند والأندلس لكن الجزء الأكبر ظل حيا ويقاوم، وتطور الالتفاف حول الأطراف إلى اختراق القلب بالتبشير والاستعمار لكن المقاومة كانت صلبة والنضال كان عنيفا، فلقد حطموا هياكل الأوطان والإمبراطوريات لكن وجدان الأفراد ظل منيعا، كالسم يغزو الجسد لكنه يعجز عن اختراق الخلية فيظل كل وجود له مهما طال قصير، ومهما عمق سطحى، ويبدو أنهم بعد أكثر من ألف عام من المواجهة قد أدركوا حتمية الفشل فى المواجهة المباشرة، أو حتى غير المباشرة، و أنهم قد قرروا العودة إلى الحيلة القديمة : حصان طروادة، والحصان من الخارج ليس إلا حكامنا، ومن الداخل ليس سوى فكر حضارتهم، أجل، إنهم يحاولون الآن التسلل إلينا لتدميرنا عبر حكامنا، عبر الصفوة التى تركوها خلفهم تهيمن علينا، عبر " زعمائهم الذين هم مراسلون بيننا وبين شعوبهم "، هنا الخطر أفدح والمصيبة أكبر، ذلك أن جسد الأمة لا يستنفره إلا غاصب غريب، وأهل البيت يتوخون الحذر من العدو البعيد لامن الصاحب القريب، فمنذا الذى يظن أن كوب الماء الذى يقدمه له أبوه ليرتوى إنما هو كوب سم، ومنذا الذى يحسب أن الخنجر فى يد أخيه لن ينغرس فى قلب العدو بل فى قلبه . منذا الذى يحتمل أن رجال الأمن فى بلاده لا يحمون أمنه بل يهددونه، وأن جيش بلاده لا يدعم الصديق ولا يرد كيد العدو بل يحطم الصديق بأمر من العدو .

هنا الغاشية، هنا القارعة، هنا الكارثة .

لأول مرة يحاول أعداؤنا تلك الطريقة .

دول حرة ونخبة أحرار، لن يتطرق لشعوبهم شك فى نواياهم وطواياهم وخباياهم، لكن هؤلاء منهم لامنا، لايهم هنا أن يكون الأمر خيانة أو استسلاما كاملا لغزو حضارى أفقدهم هويتهم، جعلهم غير متكيفين مع أنفسهم ومع شعوبهم ومع

العالم، جعلهم قاصرى العقل كأطفال فقدوا براءتهم، أغبياء وحمقى، على أعلى المستويات وفى أدناها، غير فاهمين لما يحدث حولهم ولما يحدث لهم،عميان الأعين والبصائر، ضائعى المصائر، كل الأمور بالنسبة لهم قدر لا يمكن الفكاك منه إن جاءت من أمريكا أو إسرائيل أو من أى طرف أقوى منهم، لا قدرا إلهيا يسعون إلى الفرار منه إلى قدر ألطف، بل قدرا وثنيا، جوبيتر الذى وضع الصخرة على أكتاف شعوبهم، ما أن يصعدوا حتى تنحدر الصخرة إلى السفح لتعود الشعوب لتحملها إلى قمة الجبل من جديد، أما هم، الصفوة، النخبة، مندوبوهم إلينا، فلا همّ لهم إلا أن يسوطونا كى نتسلق أسرع، فى ذهول كذهول الصعقة، وتسارع كتسارع نبض قلب فى جسد أصابته حمى قاتلة، يسوطوننا، فى إيمان وثنى بالغرب، بحتمية كل مايفعله بنا، بعدالته، بجرمنا إن اعترضنا، وكفرنا إن رفضنا، بسوء أدبنا إن - حتى - تساءلنا حتام الابتلاء، وفيم، كالمحتسب اللص، الذى تقل قيمته عند السلطان الظالم إن نفد إلى علمه أن أحد رعايا المحتسب يعترض ويرفض، فما اعترض إلا لضعف وما رفض إلا لتهاون، ولو تكرر الأمر لاستبدل السلطان مندوبه، لَغَيّره، من هنا يأتى العنف والقسوة والبطش والجبروت على كل من هو أضعف منهم مقابل اللين والاسترحام وادعاء التحضر والتوسل والخضوع والخنوع إزاء كل من هو أقوى منهم، كل ماجاء من عند القوى منطق وكل ماجاء من عند الضعيف باطل، كل ماجاء من عند القوى جليل ومحترم وخطير وكل ماجاء من عند الضعيف وضيع وسافل وحقير .

انظر مافعلته السعودية فى قطر واليمن و موقفها أمام أمريكا.

وانظر موقف مصر من ٢٠٠ قنبلة نووية فى إسرائيل واحتمال وجود صاروخ واحد فى السودان .

يا إلهى، أكاد أنفجر، وأكاد أفقد كل تحكم فى نفسى وفى قلمى، بل أكاد اتقدم إليهم راضيا راغبا فى تنفيذ قانون عقوباتهم علىّ مادمت لا أملك سوى ذلك .

انظروا أيضا إلى ماكدنا نفعله بالسودان فى أزمة حلايب وما أزمة حلايب كانت .لكنها الأوامر صدرت والوكلاء ينفذون.

ثم يأتون اليوم قائلين أن كل ماحدث كان سحابة صيف ومعاكسات متبادلة .

فياإلهى رحمتك .

كل هذا الألم والعناء ثم تقولون سحابة صيف !!

لقد خشينا ذات يوم - وما زلنا - أن تفعلوا فى السودان مافعلتموه فى العراق ثم تقولون سحابة صيف .

الألم العارم والخوف العارم والغضب العارم و..و..و..و..و.. ثم تقولون سحابة صيف .

والصواريخ المنصوبة لقصف السد العالى، لهدمه و إغراق مصر .

ومعسكرات الإرهابيين المنتشرة فى ربوع السودان، وتخرصات يوسف والى .

والخمسين جنيها التى أعطاها رافسانجانى للبشير كى يعطيها لإرهابى .

وفتنة حلايب النائمة منذ قرن، من أيقظها ؟ لعن الله من ايقظها .

سحابة صيف ؟؟.

فكيف إذن تكون غيوم الشتاء، وكيف تكون الصواعق والشهب.

سحابة صيف ؟ .

فهل تمطر السحاب دما دما ؟.

أم تقذف السماء الأشلاء والجماجما ؟ .

سحابة صيف ؟

أم أنها كسحابة الخليج التى صيرتنا شراذما شراذما .

يامن داءمتم علينا الهزائما .

إن كانت هكذا سحابة صيفكم فما أشد رعبنا من غيوم شتائكم .

ياسيادة الرئيس : انظر إلى حال أمتك اليوم ويوم عرسك . . فى رمضان .

واحسب الفارق . . . وكفى .

لقد قال فتحى رضوان عن عصر السادات أنه أسوأ العهود طيلةخمسة آلاف عام، ترى لو امتد به العمر، ترى هل كان سيصر الآن على رأيه .

فلا ترشح نفسك مرة أخرى .

* * *

لا ترشح نفسك مرة أخرى

* * *

سحابة صيف .

أم ظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج .

سحابة صيف .

أم ظلمات بعضها فوق بعض .

سحابة صيف .

أم جبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب .

سحابة صيف .

أم غيوم الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب وما كان ربك

مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .

وكأنك ياجبرتي ما زلت بين ظهرانينا حيا تصف وتكتب وترصد .

سحابة صيف، معاكسات .

كيف استطعت أن تقولها ياسيادة الرئيس ؟

لقد اتهمتمونا بالخيانة بسببها، فإن يكن مابينك وبين البشير سحابة صيف فليس ذلك مابيننا وبينك .

لقد حوكم بعض الشباب و أعدم و ربما شملت حيثيات الأحكام عليهم عمالتهم للبشير وتدربهم على الخيانة فى معسكراته .

ربما كما حدث مع العراق نفاجأ بمن يهاجمنا غدا أننا ضد وحدة وادى النيل وضد عودة العلاقات بين الأشقاء إلى طبيعتها، وما كذلك كنا وما كذلك بعون الله نكون، لكننا سئمنا تردى العلاقات حتى استعداء الأمريكان وحتى التهديد بالحرب لمجرد الخلاف بين حاكم وحاكم .

إن لدينا أقوالا وتصريحات لمسئولين كبار - أحدهم مثلا يوسف والى وعبد الحليم موسى - حين وجهوا إلى السودان اتهامات محددة بمعسكرات محددة بأسلحة محددة باعترافات محددة .

فإن كان كل هذا صدقا فكيف نتصالح مع البشير بعد ذلك معرضين الأمن القومى للوطن للخطر ممن ثبت بالأدلة القاطعة تآمره عليه، إن كان البشير قد قبض الثمن لتقويض أمن مصر، فإن الأمة، الأمة التى مازالت تكافح كى تثبت مقولة أحمد عرابى أنها لم تعد عقارا يُشترى ويورث، هذه الأمة ترفض اتفاق مبارك والبشير على المصالحة، مادام فى السودان معسكرات وصواريخ وأموال وجيش إيرانى - لا إسرائيلى - يهدد أمن مصر، و الأمة لا تكتفى برفض المصالحة فقط، بل إنها تطالب مؤسساتها -إن كان لها مؤسسات- أن تحاول

الوصول إلى الحقيقة كاملة، أن تفعل إذا لزم الأمر بالمسئول : بالرئيس مبارك أو بالرئيس البشير مافعلته المؤسسات الأمريكية بالرئيس الأمريكى السابق ريتشارد نيكسون حين اكتشفت كذبه على الأمة .

فإن كانت كل تصريحات المسئولين السابقة عن السودان، والصواريخ، والسد العالى، وجيش إيران - لا إسرائيل، وأموال العراق و . . . . . .، . . . . و . . . إن كان كل هذا كذبا فإننا نطالب بمحاكمة كل من تورط فيه، متيقنين، أو متوجسين، أو حتى مفترضين على الأقل، أن المسئول الذى صرح بذلك، إما أن يكون قد ادعاه وهو يظن صدقه، فتحق عليه الإقالة بتهمة الغفلة والحماقة وعدم الصلاحية، و إما أن يكون ادعاه وهو يعلم كذبه، ويكون هو الذى عرض الأمن القومى للوطن للخطر، ويحق إذن للأمة،الأمة التى يجب ألا تكون عقارا يُباع ويُشترى ويُورث، يحق لها أن تطالب بمحاكمتهم بتهمة الخيانة العظمى وتعريض الأمن القومى للخطر، ويحق لنا أن نتيقن أو نتوجس أو حتى نفترض، أن من فعل ذلك لم يفعله مجرد عداوة تاريخية للسودان أو لمصر، ولا كراهية شخصية للبشير أو لمبارك، و إنما فعله تنفيذا لتخطيط أمريكى إسرائيلى لتفتيت الأمة .

أجل . أنا واحد من الناس لا أوافق بعد كل ماحدث على المصالحة بين مبارك والبشير .

لا أوافق على التئام الجرح على خبث لا يُطرد وغسِّين لا يُفصد .

عندما تفجرت قضايا حلايب والجزر كان قلبى يصرخ حذار، فقد كنت أشعر أن الذى دفع العراق لغزو الكويت ودفعنا لسحق العراق يدفعنا لنفس الدائرة الحمقاء مرة أخرى، كنت أصرخ تلك فتن نائمة فدعوها نائمة لعن الله من أيقظها . أمة محمد فى خطر وعلينا أن نكف ان نكون لعبة، ولقد شفى نفسى و أبرأ سقمها تصريح مسئول بأننا لن نهاجم السودان قط، لكن اطمئنانى شُرِخ حين أردف المسئول أن ذلك لو حدث لكان فضيحة، فلقد ارتكبنا صنو هذه الفضيحة عام

٧٩ مع ليبيا، ثم ارتكبنا ماهو أسوأ حين ساهمنا فى تحطيم العراق و إضاعة الكويت، حيث سيدفع أبناؤنا الثمن مضاعفا أضعافا كثيرة لا لاستعادة فلسطين فقط بل لاستعادة الكويت أيضا .

ومعلوماتى القاصرة تقول أن مشكلة حلايب هى إحدى الألغام التى تركتها لنا إحدى حقب الحروب الصليبية بين كل البلاد العربية والإسلامية، و أن الصليبيين الجدد لا يفتؤون كل حين و آخر ينشطون فتنة هنا ويهيؤون أخرى طبقا للمآرب والأهواء .

إننى لن أتكلم عن قضية حلايب كقضية مصرية سودانية، لكننى أتكلم عنها كجزء من إشكالية عربية إسلامية . ولكى أحمى أذنى من نباح كلاب جهنم فإننى أبادر بالإقرار بأننى لو خيرت بين أن تكون حلايب مصرية أو سودانية لرددت على الفور هتافا قديما مشحونا باليأس والعجز وخيبة الآمال المتعاقبة حين كان آباؤنا يهتفون " : مصر والسودان لنا،وانجلترا إن أمكنا".

أختار أن تكون حلايب مصرية كما أختار أن أن تكون الخرطوم أيضا،ولو كنت سودانيا لاخترت أن تكون حلايب سودانية، والقاهرة أيضا والإسكندرية، لكن الأمر ليس أمر اختيارات مطروحة بل هو أمر أمة مذبوحة، من حقها ومن صالحها ألا تكون الخرطوم سودانية ولا القاهرة مصرية ولا بغداد عراقية ولا طهران إيرانية، أمة مجروحة، لا يُرتق جرحها إلا بالتخلى عن تشرذمها، حين لا يكون لنا سوى الإسلام وطن، وما يمنع ذلك ليس ضراوة للأعداء لا تُنكر ولا ألف دليل كاذب يسوقونها عن اختلافات بين الشعوب تعوق الوحدة، حكامنا هم الذين صرحوا بذلك فأعطوا المبرر لأعدائنا لمزيد من تقسيمنا، فإن كانت الفروق بين شعوبنا لا تسمح بالوحدة فإن التناقضات الموجودة بين أفراد الشعب الواحد جديرة بتقسيمه إذن، وحق للسودان أن تكون دولتين ومصر ثلاثا والعراق خمسا، فيالحماقة حكام لا تكاد تُصدق .

لكننا نترك هذا كله لنهدد أمن الأمة بالصراع على الحدود .

إننى بمركز للمعلومات لا يتجاوز رأسى،ومصادر لها لا تتجاوز مكتبتى، أدرك أن ماحدث فى غاشية الخليج كان مجرد تنشيط للغم الحدود بين الكويت والعراق، و أن هذا اللغم حين انفجر كان كارثة القرن التى مزقت الأمة إربا وحملتها شططا، وقضية الحدود بين العراق والكويت هى الأخرى قضية قديمة تعود لقرن أو حتى قرون .

نفس الشىء فى قضية الجزر العربية وإيران، وليبيا وتشاد، ومصر والسودان، و . . . . ، و . . . . . ، والعرائس المشدودة بالخيوط تتحرك، والشفاه أيضا تتحرك، لكن الصوت ليس صوتنا والمراسلون بيننا وبينهم زعماء وحكام، وبين ظهرانينا من يعمل كيره فى الضريم كلما كاد يخبو أواره ومن هنا كان رعبى

ألم نفهم بعد عواقب كارثة الخليج،أننا نحن الأغبياء الحمقى، نحن الخونة قد ابتلعنا الطعم و أن عدونا قد نال منا كل مأرب، فلماذا نحن الأغبياء الحمقى الخونة نكرر نفس الخطأ وذات الكارثة، هل هذا هو وقت التناحر على الحدود والكويت ضاعت والخليج ضاع والسعودية مأسورة بالهوى ومصر مأسورة بالقهر، ولبنان يحاول تعلم الخطو من جديد، وسوريا تنتظر القنص والعراق على الصليب وقد يموت وقد تبتر أشلاؤه وليبيا على صليب آخر أما الصومال فقد خان والله من سلمها ومن ترك من سلمها لتكون متكأ للقفز على السودان بعد ذلك والحمقى الأغبياء الخونة يرددون أقوال سادتهم عن تماثل مايحدث فى جنوب السودان مع ماكان يحدث فى الصومال، عن القهر والتعذيب وكأنهم لا يتم عندهم قهر ولا تعذيب، نردد الأقوال، تكتبها صحفنا وترددها وسائل إعلامنا فى عملية غسيل للأخبار القذرة،كعمليات غسيل الأموال القذرة الناتجة عن المخدرات والدعارة والسرقة، إن صحفا كثيرة تتحدث عن السودان كأسوأ دولة فى العالم فى حقوق الإنسان، والأمريكيين مايزالون فى الصومال،هل

يقدمون المبرر للدخول فى السودان أيضا، أيمهدون، أم يطلقون بالونات اختبار لجس النبض، نفس ماحدث مع العراق، حين راحو يمهدون شهورا وشهورا .

لقد صدر العدد السابع للتقرير الاستراتيجى العربى عن مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام، وهو يغطى أحداث عام ١٩٩١، بأسلوب رصين موضوعى بارد لكنه لم يستطع أن يخفى خلف سطحه أنه فى حقيقته تأبين للنظام العربى وإدانة لغوغائية حكامه .

و يذكر التقرير غاشية الخليج " : انقسم النظام العربى خلال أزمة الخليج إلى معسكرين ركز أحدهما على تحرير الكويت بأى ثمن وركز الآخر على تجنب تدمير العراق ".

لم تكن هناك دول إذن أيدت احتلال الكويت .

برغم جعجعات الإعلام وتصريحات الرؤساء والملوك لم تكن هناك دول أيدت احتلال الكويت .

من حقنا إذن أن نتهم كل من ادعى ذلك أيا كان موقعه بالخيانة أو الغباء والغفلة، ومن حقنا أن نتصور - وذلك أكثر ما يؤلم - أنهم عندما ادعوا ذلك لم يكونوا مخدوعين، لم يكن الأمر سوء فهم ولا التباس، كما لم يكن خبرا مكذوبا دسه عليهم واحد من الخونة - الذين حطّوهم فانحطوا مسئولين ووزراء وقادة ورؤساء تحرير - فغشى عليهم . لم يكن الأمر أيا من ذلك، بل ارتكبوا جريمتهم بوعى كامل وترصد كامل وبإصرار . ولقد فعلوا ذلك أيها السيد فى البيت الأبيض قربانا لك، وتقربا إليك، وكنا نحن الذبيحة،وليتهم أيها السيد فى العلن يعبدونك، إذن للفظناهم كما يلفظ الجسد الصديد، لكنهم يستخفون فى عبادتك، ولكى يستخفوا يكذبون علينا .

و فى الأهرام كان ابراهيم نافع يقول : " إن الموقف الأوروبى والأمريكى يشكل صدمة كبيرة لمن تخيلوا أن الغرب قد تحرك فى أزمة الخليج التزاما بالمبادىء المعلنة فى ظل النظام

العالمى الجديد،وقد أفاق هؤلاء على الحقيقة التى لم تكن خافية على كثيرين وهى أنهم تحركوا فى أزمة الكويت بدافع المصلحة المباشرة . "

ووجدتنى أعود إلى أوراقى لأقرأ فى تصريحات صحفية للرئيس حسنى مبارك:

" الرئيس بوش لم يطلب منى أبدا إرسال قوات مصرية إلى الخليج ."ـ. " لولا وجود قواتنا فى الخليج ما أمكن للرئيس الأمريكى بوش أن يصدر قرارا بتحرير الكويت ." هذا الكلام قاله لى وفد من الكونجرس الأمريكى كان قد جاء إلى القاهرة،وقالوا لى بالتحديد : لولا أن مصر أرسلت قوات مصرية ماكان الرئيس بوش أرسل قوات أمريكية ."..." قواتنا فى حفر الباطن كان محددا لها أصعب اتجاه ."

لماذا تقول ذلك يا سيادة الرئيس .

ليتك لم تقلها .

ليتك سترتنا ولم تقلها .

لا لإخفاء حقيقة، بل لأنك تحمل نفسك وتحملنا معك أمام الوطن والتاريخ ما لا نحتمل، وتصريحات وفد الكونجرس الأمريكى ليست قرآنا لا يأتيه الباطل، ولقد استدرجت مصر فعلا، لكنها لم تكن الممر الوحيد لتنفيذ خطة أمريكا و أطماعها .

فليتك لم تقلها .

ويصبح ثمة احتمالات ثلاثة :

إما أن الرئيس مبارك قد انخدع كما انخدع رؤساء تحرير الصحف، أو انه كان يعرف الحقيقة منذ البداية كمعظم الأمة، أو أنه مايزال يعتقد حتى الآن أنه لم يُخدع، والافتراض الرابع الذى أنزه الرئيس عنه لكننى أورده لإكمال القائمة أن الرئيس كان يعرف الحقيقة منذ البداية لكنه منذ البداية كان فى الصف الآخر .

و أى احتمال من هذه الاحتمالات كان كفيلا - من وجهة نظرى - أن لا يرشح مجلس الشعب الرئيس مرة أخرى .

والآن.. بعد كل ذلك ندعى أننا ضد تقسيم العراق . . . . .

ويصرح المسئولون عنا تصريحات باهتة كالحة بعد كل اعتداء أمريكى مجرم .

ولو كانت هذه التصريحات تصدر احتجاجا على مايحدث للسلفادور أو بلاد الواق واق لا العراق لانتقدنا فتورها .

كما لو لم يكن الدم النازف دمنا، واللحم المسحوق لحمنا، والكرامة المهدرة كرامتنا،والأمن المستباح أمننا .

أى خيبــة . . . .

أنتم ضد تقسيم العراق وضد الغارات عليه .

فكيف تكونون ضد تقسيمه وأنتم تتهمونه بأنه السبب فيما يحدث له لأنه لا ينصاع لقرارات الأمم المتحدة، دون أن تخزيكم حقيقة يقررها العالم وتكررها جميع وسائل إعلامه عدا وسائلكم أن مناطق الحظر لم تقررها الأمم المتحدة وإنما حماقة القوة وبطش الإجرام الغربى الذى علينا أن نتحد لردعه ومواجهته وهزيمته .

لكنكم ضد التقسيم . . .

مرحى لكم .

كيف تكونون ضده ثم تؤيدون مقدماته المؤدية حتما إليه ؟.

أم أن أمريكا وبريطانيا وفرنسا يفرضون الحظر الجوى لصيد العصافير .

لماذا يفرضون الحظر إذن، ولماذا لا تجرؤون على مواجهتهم بأن هذا الحظر ليس من أجل الكويت ولا بسبب حب مفاجىء للشيعة - فهم لا يخفون عداوتهم لإيران - ولا للأكراد - فتركيا تقصفهم بالطائرات ولا عتاب - ولا من أجل حقوق الإنسان -

وإلا ماتركوا البوسنة والهرسك - ولا من أجل الأمم المتحدة التى لم تصدر أصلا قرارا بالحظر، وإنما أصدرت قرارا آخر بعودة المبعدين لكنهم لم يعودوا .

لكنكم تطالبون العراق بالانصياع .

الانصياع لماذا ؟.

لماذا لا تواجهون شعوبكم بأنكم بعد تصرفكم الأرعن الطائش فى حرب الخليج قد فقدتم كل قدرة، ولقد ظننتم أن العراق محاصر مأسور فإذا بكم أنتم المحاصرون المأسورون .

وما كانت أمريكا تريد فقط تدمير العراق بل تدمير الأمة، من منكم الآن فى وضع أفضل من وضع صدام، من منكم يجرؤ على تقوية جيشه ؟ من منكم يجرؤ على إصلاح اقتصاد بلاده ؟

من منكم يجرؤ على أن يقول لأمريكا لا فى أى كبيرة وصغيرة وكل كبيرة وصغيرة ؟ من منكم أكثر من صدام كرامة أو أقل منه مذلة ماذا سنفعل لو جاؤونا فى الصعيد غدا ليفرضوا علينا منطقة حظر ؟

ماذا سنفعل لو فرضوها على الظهران أو الأحساء أو الجزائر أو فرضوا الحصار على أى بلد عربى آخر بعد ليبيا .

من سيجرؤ على الاعتراض .

السوابق موجودة حين صمتم صمت القبور عن كلمة حق .

وليتكم صمتم عن الباطل صمتكم عن الحق، بل رحتم تدينون إخوتكم وتحملونهم مسئولية ما يحدث .

حرام عليكم .

من تخدعون ؟.

أنفسكم أم العالم أم أمريكا أم شعوبكم .

أى معنى رهيب يقبع خلف أكاذيبكم ؟.

حتى بطرسهم الغالى خجل والأمم المتحدة خجلت أما أنتم فلا .

ماكان صدام سوى رأس الذئب الطائر، والقطة المذبوحة فى عرس دام، لشدما وعيتموه . و ليست فرق تفتيش الأمم المتحدة فى العراق سوى فرق جواسيس تحدد بمنتهى الدقة لأمريكا ما ينبغى عليها ضربه لتكسيح العراق، لإفقاده كل أمل فى مواصلة تقدمه الحضارى .

لسنا نحن الذين نريد أن نعود بكم إلى عصور الظلام والتخلف بل أمريكا .

الأمر ليس أمر استمرار صدام بل أمر حق أمريكا فى التدخل فى ذلك .

ماذا فعلت ياسيادة الرئيس، يا رئيس أكبر دولة عربية وأهم دولة عربية لحماية دولة عربية .

أم رأيت فى شعبك فى العراق رؤوسا أينعت وحان قطافها، أكنت صاحبها، وكأنك تنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى .

أأردت أن تكون العراق "دير الجماجم" الأخرى .

ماذا فعلت وماذا فعل رفاقك .

يا إلهى : إن السعودية تمنح رئيس الأركان الأمريكى كولن باول وسام الملك عبد العزيز وهو أعلى وسام فيها .

السعودية، التى لم ترفع مرة، طول تاريخ الأسرة السعودية، ولا مرة واحدة، رفعت سيفا إلا على مسلم موحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وما رفعته على إسرائيلى ولا بريطانى ولا فرنسى ولا حتى صربى.

كولن باول، مجرم الحرب الذى سفك بيديه دماء ربع مليون مسلم فى العراق والكويت، والذى عارض بشدة أى تدخل فى البوسنة والهرسك .

إذا كان أعلى وسام فى البلاد يُمنح لرئيس الأركان، فماذا يمكن

أن يمنح لشوارتسيكوف ؟ .

المصحف !!!!.

وماذا يمكن أن يمنح لكلينتون .

الحرمين ؟.

يا سيادة الرئيس لا ترشح نفسك مرة أخرى فهؤلاء هم رفاقك وصحابك، نهجهم تنهج وسيرهم تسير .

يا سيادة الرئيس : بعيدا عن أى اتهام، فما أريد أن أقوله لك أن ، منهجكم لم يعد يصلح، لا، ليس لم يعد يصلح فقط، بل هو كفيل بتدمير الأمة إن استمر.

ليس العالم الأول حرا، بل انتقل من استعباد الأفراد إلى استعباد المجتمعات، ومن اغتصاب الجوارى إلى اغتصاب الأمم، من الرق الفردى إلى الرق الجماعى .

ما من فرصة تتركها صحافتكم دون أن تحاول هدم أى محاولة لوحدة الأمة، للتقارب بين الشعوب،للإساءة لإخوتنا و أشقائنا، لاحتقارهم والتنديد بهم والتهوين من أمرهم، لتسفيههم، للسخرية من ملبسهم، وعاداتهم، وحتى طريقتهم فى نطق الحروف يسخرون منها، الحروف التى يقرأ بها إخوتنا القرآن وبها يصلون تسخر منها صحافتنا، ولو وجدوا - ثكلتهم أمهاتهم - على عهد الرسول لسخروا منه و لشاركوا فى إلقاء الروث على رأسه الشريفة الطاهرة وهو ساجد .

وإيران التى طالما هاجموها، والخليج الذى كانوا مستعدين لملئه بدمائنا ودماء إخوتنا كى يكون عربيا لا فارسيا فلما أصبح أميركيا لم يجرؤ على النباح منهم كلب، ولطالما سخروا من رؤساء اشقائنا، فلما ضرب العراق الشاذ صديق الشواذ لم يجرؤ الخصيان على مجرد عتاب .

كل هذا حدث فى عهدك فلا ترشح نفسك مرة أخرى .

والألم يعتصر قلبى، يهتصره، يسحقه، والكبرياء يمنع دمعا أو

لعله فى المآقى تحجر، و أراقب المبعدين فى مرج الزهور، أتوق للبكاء، لادمعا صامتا يسيل، بل انصهارا وتفتتا وتلاشيا، لا دمعا صامتا يسيل، بل نواحا وعويلا وصراخا ألطم به كل محكوم وكل حاكم حتى لو حكموا عليّ بالموت فليس الموت أقسى مافى الوجود، أموت شوقا إلى آخرة أرى فيها من الله وعده وانتقامه وجبروته، فى الشارع والسيارة والقطار والمكتب وبين الناس تطاردنى دمعة تحجرت فلا هى تهطل ولا هى تجف، لأنها مكنونة فى القلب، فى أعمق أعماق سويداء القلب .

تستدعى الأحداث ذكريات وتشعل الذكريات ألما والألم حريق أو أشد، أعزى نفسى بوعد الله حتى لو طال الانتظار، ألتمس العزاء فيما حدث لسمية وياسر وبلال، و ألتمسه فى كتب التاريخ فأنتقل من الجبرتى إلى ابن كثير ومن ابن إياس إلى ابن الأثير، وتتأرجح الدمعة العصية أمام الفيديو وهو يعرض دريد لحام فى كأسك يا وطن ثم ينفجر الطوفان مع ناجى العلى، لو لم يمثل نور الشريف سواه لكفاه فخرا ولو لم يهاجم إبراهيم سعده غيره لكفاه عارا، ماالأندلس سوى البوسنة والهرسك سوى فلسطين سوى لبنان سوى مصر سوى السودان سوى أفغانستان سوى الهند . . . . . .نفس الرواية، يتغير الممثلون فى نفس الرواية لكن المشاهد واحدة والمأساة واحدة والغباء واحد والعماء واحد والخيانة واحدة وكوهين اليهودى مسئول أمريكى يصرح بأن الولايات المتحدة الأمريكية تفكر فى إقامة مناطق حظر جوى كما فى العراق، لا على البوسنة والهرسك و إنما على السودان، وبعض صحفنا لا تكف يوما عن نشر أخبار عن حقوق الإنسان المهدرة فى السودان وكأنها فى مصر محترمه، لكننا متنا، وما تفعله بعثات الصندوق الدولى فينا إلا تنويعة لنفس اللحن الذى تفعله بعثات الأمم المتحدة فى العراق، قطعت الألسن وتبت الأيدى، أمريكا تريد اصطياد إيران والسودان وكل نظام يجرؤ أن يقول لها لا، لن نكون عبيدا للغرب، لدينا نظام آخر غير نظامكم الجديد، نظام لا يبلى، لكن أمريكا تحتاج مخلب قط كما احتاجته فى العراق، تحتاج طعما، لكن الوكيل موجود وسيمهد و سينشر كل

يوم ما يستدعى فى النهاية التدخل الأمريكى، لا لإنقاذ الجياع، بل لقتلهم كما يحدث فى الصومال الآن . وسمير رجب هو إحدى عينات رؤساء التحرير المعبرين عن نظامك يا سيادة الرئيس، وإننى أدعو الله أن يمد فى عمرك حتى ترى ماسيكتبونه عنك حين تبتعد عن السلطة أو تبتعد السلطة عنك .

هؤلاء هم رجالك .

فادى حبشى وحلمى الفقى أيضا وزكى بدر كانوا رجال نظامك .

فبحق جلال الله والوطن والتاريخ والحق والصدق والأمة ونفسك وأسرتك ، لاترشح نفسك مرة أخرى .

الرسالة الثالثة:

جلالة الملك ..

فخامة الرئيس ..

سنختار لهم رؤساء ممن لهم ميول العبيد

بروتوكولات حكماء صهيون

جلالة الملك.. فخامة الرئيس:

هذه البلاد كانت أمة واحدة، تسلمتموها مشرذمة، وزدتم من تشرذمها، فأعيدوها إلى حالتها الأولى، ليس الآن بل بعد مائة عام، مائة عام، مائة عام: أشبعوا فيها أنتم ونسلكم شهوتكم إلى السلطة الحرام، لكن أتيحوا و أبيحوا لبعض منا أن ينقذ من بين براثنكم بعضا من المستقبل بعد أن ضيعتم الحاضر.

جلالة الملك.. فخامة الرئيس.. "١"

لا سلام منكم ولا سلام لكم بل عناقيد الغضب علينا وعليكم

{١}

سِـــــفَــــاح

لم يبق للكاتب في زماننا إن لم يمت بالقهر أو الصلب سوى دور المهرج...

*لذلك.. دعوني - ياسادتي - أسرّي عنكم .. ولا تصروا - أتوسل إليكم - على أن أتقن الدور تماما، فلست على أى حال مهرجا محترفا، سامحوني إذن، إن لم أضع كثيرا من الأصباغ والمساحيق على وجهي، يكفي دم فلسطيني متخثر، وشلو لبناني من ضحايا مجزرة قانا * يتدلى من أنفي، وقطعة من اللحم المهترئ والعظام المسحوقة المختلطة بالأسفلت في لبنان تعلق في ذراعي، وفتات مخ بشري فوق رأسي، يكفي أيضا، أنني لكي أسري ياسادتي عنكم، و أبعد السأم قتله الله عن نفوسكم الرقيقة الحساسة، سأجعل خلجاتي تتشكل كي تحمل ملامح بوسنية قد اغتصبت، أوطفل عراقي يبحث في القمامة عن كسرة خبز، أو فتاة سودانية يعلوها الرعب مما يحاك لبلادها ، أو مصري... أو*

* إزاء القصف الهمجي المجنون هرع اللبنانيون العزل إلى مقر للأمم المتحدة كي يستجيروا به، لكن الإسرائيليين قصفوهم، واستشهد أكثر من مائة رجل وطفل وامرأة .

سعودى... أو كويتى.. أو جزائرى... أو خليجى... أو... أو....

أعلم ياسادتى أننى قد أطلت مقدمة حكايتى، وأنتم تعلمون أن ديدن المهرجين الشرثرة، فربما فى صورة، أو حركة، أو ملمح، أو خلجة، ينجحون فى إضحاك سادتهم... على أى حال اسمعوا منى الحكاية، واشهدوا معى:

منذ عام.. ربما ، منذ عشرة أعوام.. محتمل.. منذ عشرين عاما.. يجوز..، منذ خمسين عاما.. لا أستطيع أن أنفى –سامحونى فقد أصابنى الوباء الذى ألم بالأمة، ففقدت الذاكر ة–، لايهم، فلنقل: ذات يوم جاءتنى فتاة ملهوفة مستغيثة مذهولة عاجزة تنشد العون بعد أن خامرها الشك أنها قد حملت سفاحا... (تعلمون يا سادتى – من مباحثكم – أننى بالإضافة إلى عمل المهرج: طبيب)، وأكد الفحص شكها..، وتحت وطأة انهيار الفتاة تمزق قلبى، فالحكومة الرشيدة لم توفر لها عملا تقتات منه، ولا أملا تأتنس بانتظاره، ولا سكنا تتزوج فيه، ولم توفر لها جهاز إعلام يحض على الفضيلة، ثم أن الشيوخ، لم يوجهوا وعظهم وتحذيرهم للحكام الكبار ولا للّصوص الكبار ولاللشواذ الكبار قط، بل ركزوا كل وعظهم عليها وتحذيرهم لها، فجعلوها تفقد الأمل فى الآخرة بعد أن فقدته فى الدنيا، فحدث ما حدث، وقلت لنفسى أننا لو كنا فى عهد عمر بن الخطاب، الذى هدد ذات يوم – ربما منذ عشرة آلاف عام، وربما فى عصور ماقبل التاريخ، لا أدرى تماما، فقد فقدت الذاكرة، كما فقدها من حولى، فلا يوجد من أسأله – هدد بأن يقيم الحد على المسروق لا على السارق إذا ثبت أن الأول لم يعط للثانى حقه، قلت لنفسى أننى لو حكمته فى مثل قضية الفتاة، لربما حكم بإقامة الحد على الحاكم، أو رئيس التليفزيون، أو الشيخ، وربما أعفى الفتاة، وقلت

لنفسى أنه على أى حال فالشرع لا يطبق و أن القانون لن يزيل الضرّ ولن يمنع الفضيحة، و اقتنعت الفتاة بوجهة نظرى وبأنه لامناص من زواج فورى بمن غشيها، و أرشدتنى إليه، فاستدعيته وهددته، رغم أننى لم أكن أملك ما أهدده به، كما كنت أدرك عجز القانون وقصوره عن مواجهة تيك الأحداث، إلا أنه تحت وقع المفاجأة أقر بذنبه و أبدى استعداده للزواج الفورى، فاستدعيت أسرة الفتاة، وبعد إغماءات وتشنجات وتصريحات وشجب وتهديد بالقتل ثمنا لشرف لا يغسله إلا الدم، صرخت شقيقة الفتاة الكبرى فى وجهى، وكانت آنسة تشغل وظيفة مرموقة، تجاوزت الخمسين تكفلت – بمجرد مرتبها – بتربية إخوتها على كفاف لا يمكن تخيل ضآلته بعد موت الأبوين، كفاف أغلق كل باب لأى أمل فى الإفلات منه، فلا أمل فى أى شيء، لا أمل إلا فى تجنب الانهيار جوعا وعريا، صرخت فى وجهى غاضبة محتجة وكأنما تدفع عارا لا يمكنها احتماله:

–يا للمصيبة والفضيحة.. كيف نواجه الناس .. ماذا يقولون عنا.. كيف تتزوج قبل أختها الكبرى.. ؟؟!!

أسقط فى يدى–ياسادتى–، ذهلت للعجز الفادح عن فهم الواقع وتوابعه ومستلزماته، وللخطأ الفاضح فى تحديد الأولويات، ومع ذهولى وعجزى و إصرارهم صرفتهم، و أصداء ما حدث تنهال على رأسى عناقيد غضب تفجر شرارات فكر، فرحت أقول لنفسى:

–ألسنا فى عالمنا العربى والإسلامى نعانى نفس الخطأ فى فهم الواقع ونعجز نفس العجز عن تحديد الأولويات، نفس الخطأ ونفس العجز، ملوك وحكام وفخامات ومثقفون ومفكرون و أحزاب حكومة و أحزاب معارضة واتجاهات ومؤسسات، نعانى نفس العجز ونخطىء ذات الخطأ.

استميح عذركم ياسادتى، لست مهرجا محترفا بعد، لكن مالدى من علم بالتهريج، وهو العلم السائد فى عصوركم والذى نتدرب عليه على أيدى رؤساء للتحرير ومؤرخين و مفكرين و أساتذة جامعة و أحزاب بل ووزراء وملوك، يجعلنى أدرك أن أسوأ ما يمكن أن يفعله المهرج، أن يترك حكاية ناقصة، و أن يتدخل بذاته فى الأحداث ليشرح أو يفسر أو يعلق، فذلك فى علم التهريج – أروج العلوم – خطأ جسيم أتعهد أمام جلالاتكم وفخاماتكم أن أحاول التخلص منه، لذلك اسمحوا لى أن أكمل لكم مالم أكم. انصرف الجميع من مكتبى، و أسرة الفتاة وكلهن نساء لا يرون عن الشرف الرفيع الذى يراق على جوانبه الدم مناصا، وطالت المناقشات والاجتماعات واللقاءات، فانفثأت الانفعالات، وتراجع سفك الدم إلى مفاوضات عن تعويض ضخم ووعد بالزواج مستقبلا بعد عملية الإجهاض وزواج الأختين الكبريين، وأخذ التعويض يتقلص من عشرات كثيرة للآلاف إلى آلاف قليلة، والرجل يتنصل بعد اختلاف الأخوات، فتتضاءل الآلاف، والشرف فى المزاد، وتمخضت الحكاية كلها عن تكاليف عملية الإجهاض، مائة وخمسون جنيها، دفعها الرجل، وتنصل من خمسمائة أخرى طالبوه بها ثمن عملية لترقيع غشاء البكارة..!!

كنت أتابع الحكاية من بعيد ياسادتى وقد امتزجت السخرية بالألم...

لماذا لا تضحكون ياسادتى ؟؟

لماذا عجز المهرج الذى حاولت أن أكونه عن التسرية عنكم ؟

أم أنكم فهمتم مثلى رمز الحكاية..

دعونى إذن أنضو عن نفسى ملابس المهرج...

و أصارحكم بخبيئة نفسى، بما فكرت فيه بعد هذه

الحكاية المحزنة...

عن إسقاطاتها وظلالها وذلك التماثل المذهل بين جرائم الأفراد وجرائم المجتمعات والحكام والساسة..

دعوني أصرخ... حتى لو لم تسمعوني أو تقرأوا لي دعوني أصرخ:

-ليس السلام مع إسرائيل سوى حمل سفاح، وليست معونات العالم الغربي سوى ثمن لإجهاض الأمة الإسلامية، مع تنصل في ذات الوقت من تكاليف ترقيع غشاء البكارة.

ودعوني أيضا أصرخ، أنني في حمل السفاح الأول قد رفضت الدم..

لكنني في حمل السفاح الثاني لا أرى عنه بديلا... ولو بعد ألف عام....

{ب}

جلالة الملك.. فخامة الرئيس:

لماذا أكتب... ؟؟

لمن تصرّ الأقلام وتُسوّد الصحف ؟

لماذا، وقد أصبح حتى خداع النفس ترفا لايتاح لنا أعباؤه، وما عدنا نستطيع الدعاء:"اللهم اغفر لحكامنا فإنهم لا يعلمون"، فقد استقر بنا اليقين أنهم يعلمون، كانوا دائما يعلمون، لكن الدين والأمة والوطن قد اختزلت عند أغلبهم في مقعد حكم، تحت ظل شجرة زقوم ترتوي من دماء رعاياهم، وكلما ساعدوا أعداء أمتهم في إهدار إمكانيات بلادهم علت مكانتهم.

لمن أكتب.. ؟؟

ألإلى عدو ملك أمرى..

أم إلى ولىّ تحالف مع عدوى..

أم إلى أمة عجزت-ملامة أو غير ملامة-أن تواجه ليس مجرد تحدى الحضارة فقط بل تحدي الفناء، أمة استخف بها طواغيتها وأعداؤها فأطاعتهم فحق عليها القول.

لمن أشكو إذا شكوت، أو أشدو إذا شدوت، أو أبكى إذا بكيت، أو أنصح إذا نصحت.

كيف أكتب ؟

هل مازالت الكلمات حية ؟

هل مازالت عنصر اتصال بين الناس ؟

أو أنها ماتت، أو على الأقل تشوهت، فأصبحت الكلمة تعنى عكس معناها و أصبحت الكلمات إلى جوار الكلمات مجرد فسيفساء تملأ فراغا لابد أن يمتلىء لكى يواصل الحكام الحكم والعدو القهر، أما ما تعنيه هذه الفسيفساء فلا يهم.

لماذا أكتب ولمن أكتب وكيف أكتب ؟

ألأحدثكم عن السلم مثلا وهو سلم فشلنا فيه فشلنا فى الحرب والسياسة والاقتصاد والزراعة والصناعة والاجتماع و حتى فى البترول الذى وجدناه هبة من الله تحت أقدامنا فجعلناه بالحماقة نقمة علينا.

هل أشكو إلى الله ؟

وهو أعلم بحالى من سؤالى.

ثم أن الحياء يستبد بى إن أردت إليه شكوى..

جعلنا خير أمة أخرجت للناس..

أعطانا قلب العالم، حدودا تمتد من أول آسيا حتى آخر أفريقيا،

وجعل أفئدة من الناس تهوى إلينا، و أعطانا الثروة و أسباب القوة جميعًا فإذا بنا نبدد كل شيء في حماقة لا يفوق ضروبها سوى دروب شقائنا وهواننا على الدنيا.

ثم أنّى لي الكتابة و أنا ميت....

فقد كنت – يا جلالة الملك ويافخامة الرئيس –حسبتني قد مت، إثر إصابتي بنزيف في الكرامة، لكن قصف عناقيد الغضب في لبنان، والمجزرة في قانا كشفت لي أنه مايزال في جعبتي من الألم ما أعانيه، و أن جسدي مايزال يكتوي بالنار والصواعق والشهب المنهالة عليّ و على جسد وطني الممزق، المهان، و أنه مايزال يحس.

رحت أرقب على شاشة التلفاز الأشلاء المتناثرة فأرى في كل شلو منها وجه حاكم خان الله وررسوله والمؤمنين، فراح يزين لنا الاستسلام المموه بالسلام كما يزين القواد الزنا لبغي...

وفي عرى الملابس المحترقة على الأجداث المتفحمة بالنابالم رأيت عرينا وعورات ولاة أمورنا...

رحت أسمع كلمات الشيخ سعد الدين بلهاس: "في ثانية واحدة فقدت كل شيء.. لقد فقدت ١٤ من أبنائي و أحفادي وزوجتي في ثانية واحدة.. لا أرغب في الحياة.. أبلغوا الأطباء بأن يتركوني أموت".. كان الشيخ قد لجأ إلى قواعد قوات دولية، ربما كان بعض أفرادها قد خدم في البوسنة فشارك في اغتصاب نسائنا هناك وفي دفن ضحايانا في المقابر الجماعية، ذهب الشيخ بلهاس إلى هناك هو وعائلته هربا من قصف أبناء الشيطان فتعرضوا لمذبحة جماعية فاق ضحاياها المائة، و أثناء قيام المصورين بتصويره أصابت صدره شظية فصرخ فيهم:

–كفى.. اذهبوا إلى مقر القوات الدولية والتقطوا الصور لأشلاء الضحايا التي التصقت بالجدران.

ويقول محمد شوقي:"عندما سقطت القذيفة الأولى انهار الجدار علينا وطارت رأس سيدة كانت تقف إلى جواري، كما تحول رجل كان يقف إلى جواري إلى كومة أشلاء، لقد شاهدت أمي و إخوتي

الستة يُقتلون"..

وتقول فاطمة اسماعيل:"كنت أجرى كالمجنونة لكى أبحث عن طفلى فى حين كانت قدماى منغمستين فى برك للدماء تصل إلى ما فوق كاحلى"..

ويقول فادى جابر وهو يبكى:"سقطت سيدة بجوارى مغشيا عليها فمددت يدى لكى أسند رأسها، فسقط مخها بين يدى"..

ويقول حسين شوقى:"لقد كان بين ذراعىّ طفل مات بسبب اندفاع شظية فى جسده.. كنا نسير على أيادى و أرجل ورؤوس متطايرة ومتناثرة فى كل مكان فى موقع القوة الدولية.."

أصرخ أم أصمت أم ألطم كالنساء وجهى.... أم أموت...

ترى ... لو صرخت - أو نطق شلو من هذه الأشلاء -: وا إسلاماه كم جنديا من جنود الحرس الوطنى أو الجمهورى أو الملكى أو الأميرى أو السلطانى أو من مباحث أمن الدولة والأمن المركزى يهرعون إلىّ لا لنجدتى بل لاعتقالى واتهامى بالإرهاب ثم تعذيبى وقتلى.

ياله من عار عندما رد وزير إسرائلى إبان ثورة أطفال الحجارة على احتجاج بتساؤله عن كيف يعامل حكام العرب رعاياهم، ياله من عار.

نتعذب بكم، ونتعذب بسببكم، ويعذبنا الأعداء، وحجتهم أن معاملتهم لنا ليست أسوأ من معاملتكم لنا.

ياصناع سلام شرم الشيخ...

لماذا لم تنبهونا أنكم صناع سلام الموت والقبور..

ياتاركى لبنان تقصف، يامروجى كامب ديفيد ومدريد وأوسلو.. وأيها المتحضرون المستنيرون الساعون لتنويرنا نحن الظلاميين شاهت وجوهكم وخسئتم.. شاهت الوجوه..

يافضيلة شيخ الأزهر شكر الله سعيك، فقد مننت على ضحايا لبنان بشرف الاستشهاد حتى من يفجر نفسه فى عدوه قبل أن

يفجره عدوه، أما من يفعل ذلك من حماس فليس إلا منتحرا، والمنتحر مآله النار. لماذا يامن رجونا إجارته، فكنت غالبا مع الصف الآخر حتى صرخ الدكتور عبد المنعم البرى بعد حدث أحدث فى عهودكم"...نرى أن ما يحدث هو تعليمات للموساد والصليبية....".

يا جلالة الملك يافخامة الرئيس..

ياشيخ الحرم وياشيخ الأزهر..

وياصناع السلام الذى رأينا فى لبنان بشائره...

لن أتلو عليكم من كلام الظلاميين سفرا، لن أقرأ عليكم مما كتبه الشيخ عمر عبد الرحمن، أو الترابى أو الغنوشى، أو الخمينى، أو عادل حسين أو الليث شبيلات، بل سأقرأ عليكم كلمات من لا يمكن أن يكون ظلاميا، لأنه أجنبى.. !!

أقرأ عليكم من كتاب"وليم كار"الشهير: اليهود وراء كل جريمة، وهو كتاب صدر منذ أكثر من عشرين عاما.

يقول وليم كار:"ليس التلمود (وهى توراة اليهود لا توراة موسى) سوى قصة العهد الذى أصبح فيه الشيطان سيد العالم (...) وهكذا تأسس كنيس الشيطان على الأرض وشرع من أول يوم فى التآمر لمحاربة الدستور الإلهى.. (...) وفضح المسيح عليه السلام كنيس الشيطان وهاجم أتباعه مسميا إياهم أبناء الشيطان، وحدد بصراحة معلنا على رؤوس الأشهاد أنهم هم الذين يسمون أنفسهم يهودا فى حين أنهم حادوا عن شريعة موسى عليه السلام، وقال عنهم أيضا أنهم كذابون ولا يدينون بأى دين سماوى.."

يا جلالة الملك يافخامة الرئيس..

ياشيخ الحرم وياشيخ الأزهر..

وياصناع سلام الموت ...

دعكم من ذلك الآن، ولنقرأ من ذلك الكتاب المنشور منذ أكثر من عشرين عاما جزءا آخر:"... وقد أنهى وايز هاويت مهمته هذه خلال

عـام ١٧٧٦(أى منذ أكـثـر من مـائتى عـام) بإعـداد المخطط الدمـوى الوحشى الذى رسمـه (مراجعة بروتوكولات حكماء صهيون القديمة و إعادة تنظيمها على أسس حديثـة الغاية منها وضع خطة للكنيس الشيطانى ليسيطر على العالم) والذى ضمنه النقاط التاليـة:

١- تدمـيـر جميع الحكومات الشرعية وتقويض الأديان السماوية كافة.

٢- تقـسـيم الجـوييم (غـيـر اليـهـود) إلى مـعـسكرات مـتـنـابذة تتصارع فيما بينها بشكل دائم حول عدد من المشاكل التى تتولى المؤامرة توليدها و إثارتها باستمرار ملبسة إياها ثوبا اقتصاديا تارة و أخرى اجتـمـاعـيـا وثالثـة سـيـاسـيا ورابعة عنصريا و إلى آخره..

٣- تسليح هذه المعسكرات بعد خلقها ثم تدبير حادث فى كل مرة يكون من نتـيـجـتـه أن ينقض كل مـعـسكر على الآخر حـتـى يفنى بعضها بعضا.

٤- بث سمـوم الشقاق والنزاع داخل البلد الواحد وتمزيقه إلى فئات مـتـنـاحرة و إشاعة الحقد والبـغضاء بين أبناء البلد الواحد حتى تتقوض جميع مقومات المجتمع الدينية والأخلاقية والمادية.

يا جلالة الملك يافخامة الرئيس..

ياشيخ الحرم وياشيخ الأزهر..

ويا صناع السلام ...

لنتـرك ذلك الآن أيضـا، ولننتـقل إلى جزء آخر من ذلك الكتـاب، حين يتـحدث عن الجنرال ألبـرت بايك والذى ضمـه الصـهاينة إلى صفوفـهم عـام ١٨٤٠ فـبـدأ مـرحلة جديدة من التـخطيط والتنسيق العسكرى، وقد تضمـن مـخطط بايك:

١- تـؤمـن الحـرب الـعـالمـيـة الأولى الإطاحـة بالحكم الملكى فى روسيا...

٢- تؤمن الحرب العالمية الثانية اجتياح روسيا لنصف العالم..

٣- يأتى أخيرا دور الحرب العالمية الثالثة و الأخيرة، وينص المخطط لهذه الحرب على تصدى الصهيونية للزعماء المسلمين فى العالم الإسلامى وشن حرب ساحقة على الإسلام باعتباره القوة الأخيرة التى ستقف تجاه قوى الشر.

يا جلالة الملك يافخامة الرئيس..

ياشيخ الحرم وياشيخ الأزهر..

وياصناع السلام الذى ر أينا فى لبنان بشائره...

أصرخ أم أصمت أم ألطم كالنساء وجهى.... أم أموت...

أهذا هو السلام الذى تدعوننا إليه...

أنحن الظلاميون حقا و أنتم المستنيرون....

فلتأتوا بشهدائكم إذن...

أما أنا فإنى آتيكم بشهدائنا:

١- فلسطين: ٢٦١٠٠٠ شهيد و ١٨٦٠٠٠ جريح و ١٦١٠٠٠ معوق وهجرة مليونين تحولوا إلى خمسة ملايين لاجىء.

٢-لبنان : ٩٠٠٠٠ شهيد و ١١٥٠٠٠ جريح و ٩٦٢٧ معوق.

٣-مصر ٣٩٠٠٠ شهيد و ٧٣٠٠٠ جريح و ٦١٠٠٠ معوق.

والأرقام الباقية غير دقيقة أو غير متاحة لكنها تشير إلى ثلاثين ألف شهيد سورى وخمسة آلاف أردنى، ويحصر أنتونى كرودسمان إجمالى الخسائر البشرية المباشرة فى الحرب العربية الإسرائيلية-متجاهلا الشهداء الفلسطينيين-فيبلغ عددهم ١٨٤٢٤٩ شهيدا منهم ٧٤٥٣٣ من العسكريين و ١٠٩٥١٦ من المدنيين.

١٠٩٦١٦ شهيد مدنى يا صناع السلام لكنكم تكأكأتم مهرولين من أجل ستين إسرائيليا جاؤوا من أقصى الدنيا كى يغتصبوا ديارنا.

حتى كرودسمان لم يكن من حقه أن يتجاهل دماء ٢٦١٠٠٠ شهيدا فلسطينيا فكيف هان عليك يا شيخ الأزهر أن تضن بالشهادة على

من انتقم لهم بقتل ستين إسرائليا ليسوا مدنيين بالقطع لأن اللص الذى ينهب ديارنا ليس مدنيا، أم نسيت ياسيدنا ومولانا كيف أذلت حتى نساؤهم أكبر الرجال فينا، ابتداء بجولدا مائير حتى أصغر مجندة اسرائيلية.

ولم يكن من حق كرودسمان أيضا أن يتجاهل ضحايا الصراعات التى أذكاها زرع إسرائيل فى ظهورنا والتى تتجاوز خمسة ملايين قتيل.

و أظن – واغفر لى يامولانا تجاوزى إن أسأت الأدب – أنه لم يكن من حقك ولا من حق الجلالات والفخامات وصناع السلام أن يتجاوزوا ما أورده أوما تجاوزه كرودسمان.

ولو أن هذا التجاوز قد حدث عن ضعف حقيقى لغفرنا والتمسنا أسباب القوة، ولو أنه حدث عن تقصير من الأمة فى تقديم التضحيات لألهبناها تقريعا، ولو أن الله –معاذ الله– أهملنا وحرمنا بقضائه وقدره من العدد والعتاد والمال والرجال لألقينا بعبء جريمتنا على القضاء والقدر.

لكن إحصائيات المستنيرين فى الغرب تكذب حكامنا المستنيرين وتنصفنا نحن الظلاميين.

إن بعض تقارير المخابرات الأمريكية تقدر ثمن السلاح الذى استوردته شبه الجزيرة العربية فقط منذ بداية الصراع العربى الإسرائيلى بألف مليار دولار بينما لا يتجاوز ما استوردته إسرائيل خلال نفس المدة ثلاثين مليارا وهو رقم يقل عما استوردته سوريا و مصر والعراق كل على حدة، و أن حجم الإنفاق العسكرى السنوى فى الخليج وحده يقارب ثلاثة أضعاف حجم الإنفاق العسكرى فى إسرائيل طوال حياتها. وفى عقد الثمانينات استهلكت الدول الرئيسية فى الشرق الأوسط ٤٠٪ من مبيعات السلاح فى العالم مقابل ١٠٪ لحلف الناتو و ١١٪ لحلف وارسو (طبقا لإحصائيات وكالة مراقبة التسلح ونزع السلاح:ACDA !!.

إن لدى العرب ١٧٠١٦ دبابة مقابل ٦٦٠٠دبابة لدى إسرائيل، ولديهم ٢٠٧٧١ مدرعة مقابل ١٢٠٠٠ لدى إسرائيل ولديهم ٧٠٤٦

قطعة مدفعية ميدان مقابل ١٥٠٠ لدى إسرائيل ولديهم ١٠٨٢٣ صاروخا مضادا للدبابات، ولديهم ٣٠٠ صاروخ أرض-أرض مقابل ١٠٠ قاذف لإسرائيل ولديهم ٢٩٣٧ طائرة مقاتلة مقابل ٨٧٩ لإسرائيل، ولديهم ٤٠٠ هليوكبتر هجومية مسلحة مقابل ٧٥ لإسرائيل، ولديهم ٢٩٧ سفينة قتال رئيسية مقابل ٥٨ لإسرائيل ولديهم ٧٩٢٣ هاون مقابل ١٢٠٠ لإسرائيل.

أما تعداد الجيوش العربية فيبلغ فى أقل تقديراته : ٢٦٨٧٠٠٠ مقابل ٧٨٦٠٠٠ لإسرائيل، وتعداد الأمة العربية أكثر من أربعين ضعف إسرائيل.

الباكستان، التى لا تملك عشر معشار مانملك، أقسمت لتأكلن العشب كى تستطيع الاستجابة للتهديد الهندى، ولم تترك لها مضمار السلاح التقليدى ولا السلاح النووى فاستجابت كما ينبغى أن يستجيب بشر يعى ويحس.

والهند، التى كانت أقصى أمانيها - كما قال نهرو لعبد الناصر فى بداية الستينات مدللا على حجم الصعوبات التى يواجهونها هناك - كانت أقصى أمانيها أن تصل بعد خطط للتنمية تستمر عشرين عاما إلى مستوى مصر آنذاك، والهند أيضا لا تملك معشار ما نملك ولكنها استجابت - ولو بالباطل - لما رأته تحديا.

لا ثروتهم أكثر ولا علماؤهم أمهر ولا تقدمهم الحضارى أكثر ولا شعوبهم أرقى. وكل مقارنة بيننا وبينهم تميل فيه كفة الميزان ناحيتنا إلا أنتم.

يا جلالة الملك يافخامة الرئيس..

ياشيخ الحرم وياشيخ الأزهر..

وياصناع السلام الذى ر أينا فى لبنان بشائره...

أصرخ أم أصمت أم ألطم كالنساء وجهى.... أم أموت...

ماذا كان الفارق أيضا بيننا وبين إسرائيل سوى الفارق بين حكامنا وحكامهم.

منذ مائتى عام هل كان الألفا يهودى الموجودين فى فلسطين أكثر تحضرا منا ؟

ألم نهزمهم فى عام ٧٣، أنتم الذين تقولون ذلك وتوشكون أن تقطعوا رقاب من ينكره منا، فما الذى حدث بعد حرب ٧٣ لتقفوا بنا هذا الموقف المهين والمشين، لماذا أصبحت مجرد المواجهة الآن -لاالانتصار - حماقة يتضاءل أمامها الكفر و إرهابا لا يعالجه سوى الاستئصال. ويتصدى الحكماء منكم، محذرين، فإسرائيل تملك السلاح النووى الذى لا نملكه، وينبرى الحكماء منكم محذرين أن نستدرج إلى معركة لم نحدد مكانها وزمانها، أى مكان و أى زمان وأى حكمة ؟ ؟!! إذا كانت هذه هى الحكمة فما هو الجنون إذن ؟ ؟ و إن كان هذا هو العقل و الأمانة فماذا يكون الحمق والخيانة.

لقد كانت جماهير الأمة العاجزة ترد عليكم فى مظاهراتها الجنائزية الحزينة احتجاجا على استشهاد سليمان خاطر فى سجن من سجونكم، كانت ترد عليكم حين ادعيتم أنه جن فانتحر بهتافها" متقولوش عليه مجنون ... قولوا عليه ما قدرش يخون ، لا الجندى البسيط استطاع أن يخون ولا الأمة خانت، فمن الذى خان إذن ؟من ..ياجلالة الملك ويا فخامة الرئيس من؟!.

لقد كان انتصارنا الوحيد واليتيم قبل أن تدفعوا دم الأمة فى معظم هذا السلاح، أكان ثمن سلاح أم إتاوة بلطجى كى يسبغ على الجوارى حمايته.

فيم كان السلاح الذى استوردتموه إذن، فيم كان إهدار الاقتصاد والسياسة والاجتماع من أجل القوة، ولماذا وصلنا بفيض حكمتكم ياولاة أمورنا إلى كل هذا العجز.

ليس عجز القوة ولا عجز الأمة بل عجز الحكام.

لقد قال قائلكم ذات يوم : "لست على استعداد لمحاربة أمريكا" فطأطأنا الرؤوس مسلمين فى ذلة.

ثم نطق لسان عملكم بالعجز الكامل عن مواجهة إسرائيل. ولم يكن أمامنا يا جلالة الملك ويا فخامة الرئيس إلا أن ندينكم ولم يكن

منكم إلا أن سلطتم علينا عسسكم يسومـوننا سوء العذاب و أجهزة إعلامكم لتشوهنا.

لكنكم يا متلفعين بعباءات الحكمة ومنقبين بدشداشات الحضارة لم تعجزوا رغم قواتكم الهائلة عن مواجهة إسرائيل فقط بل عجزتم حتى عن مواجهة أريتريا.!!

إنه الجبن المطلق ... الحماقة المطلقة ... إنه الجهل الأشد سوءا من الخيانة أو أنها الخيانة.

إنه العجز المطلق والهزيمة العربية الشاملة الكاملة كما وصفها بن جوريون عام ١٩٤٨، وما زالت منذ ذاك تخيم علينا.

الأمر إذن بين العجز والخيانة...

وعلينا الآن أن نتناول القضية من جذورها، منذ البداية، وعلى الذين فشلوا فى كل شىء أن يرحلوا، عليهم أن يذهبوا، ألا تشعرون بالخجل من المواصلة بعد كل هذا العجز والخجل، إذهبوا، إن الأمة مستعدة لأن تضمن لكم العفو عن جرائمكم فى حق الله والدين والوطن إذا ذهبتم.

إن المطلوب من الأمة - نفس ماتطلبونه أنتم من شعب العراق - أن تزيل الطغاة الطواغيت الذين أوردوها موارد التهلكة.

أما إسرائيل فإن من فاوضها لم يكن نحن...

لم نصدقكم أبدا، لكننا صمتنا حين بالحديد والنار أخرستمونا..

جلسنا على طوار خارج التاريخ ننتظر، لا تحقيق وعودكم، فنحن نعرف تراوح حديثكم بين الجهل والكذب، والخيانة

جلسنا ننتظر، فلا قضية فلسطين حلت، ولا نحن بدأنا فى السباق الحضارى الذى سيحسم فى النهاية الصراع، ولا الرخاء عم.

جلسنا ننتظر حتى انهالت علينا وانفجرت منا عناقيد الغضب.. نقىء تصريحاتهم ووعودهم طوال الحقب الأخيرة ونلفظها كما يلفظ الجسد الصديد..

تعود الأمور كما كانت.. إسرائيل خطر علينا وعلى العالم، سرطان أنشب فى قلب العرب والإسلام مخالبه وسوف بعون الله نستأصله، بعد مائة عام أو بعد ألف عام سوف نستأصله .

هل تعرفون ياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات لون علم إسرائيل ؟ خطان أزرقان تتوسطهما نجمة داوود، فهل تعرفون معنى الخطين الأزرقين ؟، إنهما من النيل للفرات.

هل يعرف منكم أحد لماذا اختارت إسرائيل لسفارتها فى القاهرة أن تكون فى الجيزة رغم كل دواعى الأمن والمواجهة مع مئات آلاف الطلاب فى جامعة القاهرة، لم أكن أجد تفسيرا يقنعنى لكن قارئا عاديا قالها لى ذات مرة فى بساطة: إذا كان ملكهم من النيل إلى الفرات فكيف تكون سفارتهم داخل حدود دولتهم، لذلك كان لابد أن تكون غرب النيل.. ثم أردف الرجل ساخرا: لقد حددوا حدودهم الغربية، لكنهم لم يتحدثوا عن الجنوبية، و أظنها منابع النيل.

أثقلت عليكم ياسادتى، والحديث مايزال فى بدايته، فدعونى أسرى عنكم بقصة مهرج آخر غير المهرج الذى بدأت به.

فى مصر، بلد العجائب والغرائب، بلد الثورة حين يظن الكل أنها ماتت والموات حين يتوقع الكل أنها يجب أن تثور، كان كما فى معظم الأحيان مايكون، ثمة حاكم طاغية جبار، فى القرن الثالث الميلادى، راح يطارد الجماعات المسيحية الفارة من تشويه قيصر للدين، تقربا لسادته فى روما وزلفى، على حساب أمته، وفى الاحتفال السنوى، أتت ما يماثل الآن وزارة الإعلام بمهرج المدينة وكان اسمه"فليمون"، وطلبوا منه أن يلبس ملابس الجماعات المسيحية الهاربة من طغيان قيصر وكفره، و أن يصعد إلى المسرح، وهو ما يماثل الآن التليفزيون، كى يتوب كمؤمن بالله عن إيمانه، – انظروا نفس التقليد بعد ألفى عام ومباحث أمن الدولة تستتيب والتليفزيون يعرض –، طلبوا من المهرج أن يمثل دور إرهابى بطريقة هزلية تثير السخرية بالجماعات، وأن يكفر عن خطيئته بتقديم القرابين إلى الآلهة، ووافق المهرج فليمون على هذا الدور ووجد فيه فكاهة تلذ له – كما يقول الدكتور على الراعى فى كتابه هموم المسرح –، وصعد فليمون إلى المسرح بين الجموع الحاشدة

المحتشدة، غير أنه حينما وقف فى مجلس الحاكم الطاغية، ورأسه منكس مغطى بقلنسوة، شملته الهيبة، ووجد نفسه عوضا عن أن يقدم القربان يقول فى رباطة جأش: "أنا مسيحى، ولن أقدم للآلهة قربانا"، وضج الحاضرون بالضحك بعد أن ظنوا أن مايحدث ليس إلا مبالغة فى إتقان الدور من مهرج اعتاد أن ينتزع الضحك انتزاعا من آلاف المعجبين، لكن فليمون واصل :"أنا مسيحى ولن أقدم قربانا فى هذا المكان"، ونظر الطاغية فى عينى المهرج فراعه أن يجدهما تلتمعان التماعا هادئا ومتصلا، فأحس من فوره أن من يقف أمامه لم يعد ذلك المهرج الذى طالما أحبه و أحبته المدينة. وانفجر الطاغية بالغضب وهو يخاطب المتجمهرين:"يا قوم: ماذا نفعل بهذا الرجل ؟ أنقتله من فورنا أم نسلمه إلى العذاب البطىء على الصليب"، وصاح الناس:"لا.. لا تجعلوا بهجة حياتنا يموت بهذه الطريقة، فإنا نوشك من شدة الحب أن نعبده"، ثم أخذ الكل يبكون من فرط الرثاء والخوف، فالتفت الحاكم إلى المهرج قائلا:"حقا إن لك قلبا من حجر إذ تسمع وترى مشهد الحب هذا ولا يلين فؤادك، قدم القربان أتوسل إليك و أعد للناس فرحتهم"، غير أن فليمون لم يتزحزح و إنما أعاد ما قاله فى هدوء ووثوق، و أمر الحاكم بأن يبدأ تعذيب فليمون، ومن ثم أخذ ثلاثة من الأتباع يلهبون ظهره بالسياط، وصاح الناس:"لا تقتلوا حبيبنا، لا تقتلوه"، ومرة رابعة راح الطاغية يرجو فليمون قائلا:"أنقذ نفسك وقدم القربان، انظر كيف يحزن الناس لمجرد أن موتك يخطر ببالهم، فما أعظم حزنهم من بعد، حين يرونك على الصليب بالفعل". ولم تجد مع فليمون أية محاولة.

وظلوا على إلحاحهم وظل على يقينه حتى لقى الموت وهو سعيد.

يا حسرتا...

يا حسرتا...

أعجزتم يا فقهاء ويا شيوخ ويا مثقفين ويا كتاب ويا مفكرين ويا مطلقين للفتاوى ويا أحزاب ويا هيئات ويا وزراء ويا أمراء ويا نواب رؤساء و يا أولياء عهد أن تكونوا مثل هذا المهرج، أن يكون واحد فقط منكم فى مثل سمو هذا المهرج ليقف أمام الطغاة،

ليصرخ أن السلام المعروض ليس مجرد استسلام فقط بل هو مشروع كامل لإبادة أمة.

لماذا لم يقف واحد منكم فى اجتماع قمتكم فى شرم الشيخ ليصرخ أن ضمان أمن إسرائيل خيانة. لماذا؟!.

فى إذاعة لندن العربية، والتى تعتبررغم مافيها من سم، أصدق من كل إذاعات العرب و أكثر جدارة بالاحترام من أى منها ، فيها كنت أسمع من يصرخ:

- إنها شرم العار..

وودت أن أهتف فيه:

- بل هو عصر العار.. لم يهزمنا أعداؤنا.. بل هزمنا حكامنا..

فى عام ١٩٤٨ دعا الملك عبد الله شيخا ضريرا كى يعظ الجيش الأردنى المتأهب لتحرير فلسطين تحت قيادة جلوب !! ووقف الشيخ الضرير بجوار الملك لايرى شيئا ولكنه يحس بكل شىء، صمت لحظات و أنظار الكل و آذانهم معلقة به، ثم صاح مناديا:

-أيها الجيش.. ليتك لنا..

بعد خمسين عاما من الهوان والمذلة، أجدنى وقد ابيضت عيناى من الحزن أهتف:

-أيها الحكام.. ليتكم لنا..

جلالة الملك..فخامة الرئيس.."٢"

الأرض بتتكلم عبرى..!

{أ}

محمد أصبح ميشيل

كان جوهر دودايف قد مات، فتذكرت"أحد"و"ثنيتي"الرسول-صلى الله عليه وسلم-المكسورتين ودماءه الشريفة النازفة، واندلعت على مخيلتي صفوف من الشهداء تمتد من الأرض إلى السماء، وخيانات حكام أسقطت من الشهداء أكثر مما أسقط الأعداء، وكانت عناقيد الغضب ماتزال تنهال على لبنان، وكان العجز العربي ينفجر، وكان ولاة أمورنا صامتين، عاجزين، مشلولين، وكنت أسأل نفسي: هل ما يحدث يحدث حقا ؟ أم أنه كابوس؟؟

في ذلك الصباح، الذي كان لون الدم يحيط بشمسه ودخان عناقيد الغضب يخنق نوره، جاءني صوتها عبر التليفون كما تعودت أن يجيئني منذ سنوات ثلاث أو أربع دون أن أراها، معلقة على مقالة، مجاملة، باكية، مستحثة، مستنجدة، وكنت قد ألممت بطرف من حياة أسرتها، وحياة ابنها المتدين الحالم، وكيف اعتقل منذ عامين، وعذب، فخرج من مباحث أمن الدولة وقد انفرطت حبات روحه، وعزف عن كل شيء

حتى عن الصلاة، وكمحاولة من الأسرة لرفع حالته المعنوية اقتطعوا من لحمهم الحي كي يطبعوا له ديوانا يتضمن أشعاره.

وفي ذلك الصباح المختنقة بالدخان والدم شمسه راحت تعاتبني لأنني لم أكتب قط عن محاولات الغرب والصهاينة لتدمير الخلية الأساسية في المجتمع الإسلامي عن طريق جماعات التبشير، وقلت لها أنني قرأت شيئا من ذلك أو سمعت عنه، و إن كنت دائما أعتقد أن الدخان فيه أكثر من النار، و أن الشائعات أكثر من الحقيقة، لكنها راحت تلح أنها تعرف كنائس محددة تقوم بالتنصير و أنها تعرف أسماء محددة، وقلت لها أنني لا أستطيع الكتابة في هذا الموضوع لأسباب شتى، أهمها أنني غير مقتنع به، ثم أنني أدرك مدى قوة العقيدة في قلب أي مسلم، و أنني في هذا الصدد لا أستشعر خطرا على الإطلاق، لكنني بالرغم من ذلك أستطيع مساعدتها في الوصول إلى المسئولين ليتولوه، وراحت تبرهن لي على خطورة الأمر وعن نجاحهم في بلاد أخرى حيث نجحوا في أندونيسيا في تنصير اثنى عشر مليونا - لا أظن الرقم صحيحا وليت شيخ الأزهر يصححه - ثم عن قيامها باستكشاف الأمر بنفسها في بعض الكنائس، وبحواراتها مع بعض من تنصروا بالفعل، وفجأة قالت: لكن.. لو كتبت الصحف ولو كتبت أنت، فماذا سيحدث، ماذا حدث عندما كتبتم عن التعذيب والتزوير والفساد وعشرات الموضوعات الأخرى ؟ لم يبق إلا سبيل العنف والقصاص المباشر، وسأقوم به بنفسي، سأحرق كنيسة أو سأقتل قسيسا، وقلت لها غاضبا أن الإسلام ليس ذلك، و أنها بذلك تسيء إلى قضيتها، وتؤذي رسول الله - عليه الصلاة والسلام - و أن السبيل مهما طال هو دفع بالتي هي أحسن، فتساءلت: إذا نشرت الصحف، هل سيصيب أولئك الذين تنصروا أذى؟، وطمأنتها، فليس مهما على

الإطلاق أن تذكر أى أسماء، وراحت تبدى التردد والخوف على ما يمكن أن يصيبهم، فقلت لها أنهم لا يستحقون كل هذا القدر من التعاطف والقلق، فإذا بها تصرخ باكية:

-هل تعرف عمن أحادثك..

قلت:

-لا.. وليس مهما أن أعرف..

فإذا بها تواصل منتحبة:

-إنه ابنى.........

انطلقت منى الصرخة المفزوعة من قلب مصدوع بخيانة من لا يتوقع منه خيانة:

-لا... المتدين الحالم الشاعر... لا........

لم تنطلق الصرخة من حلقى ولا من لسانى، وما اهتزت أحبال صوتى بأكثر مما تهتز فى لغو الحديث، لكن كل خلية فى جسدى تزلزلت، وصرخت صرختها الخاصة بفزعها الخاص:

-لا.. المتدين الحالم الشاعر... لا........

فواصلت:

-نعم.. هو ابنى، ولقد غيروا اسمه من محمد إلى ميشيل.

لم تعرف المرأة ما حدث لى فى هذه اللحظات و أنا أردد فى ذهول و ألم لا حد له:"لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم"، فأفاجأ أن صوتى ليس صوتى و أن العالم ليس العالم ولا التاريخ هو التاريخ و أن ما ظننته كابوسا لم يكن إلا محض وهم جميل إزاء ما سيليه، أصابنى الدوار، وراحت المرأة تحكى باكية عن طعن ابنها فى القرآن والحديث، وفى الإسلام: دين الإرهاب،

وأنهم فى الغرب هناك على دين الحقيقة والسلام، ورحت أغوص فى بحار من الألم ليس لها قرار، إننى أتوقع الغزو الغربى والإسرائيلى بعد خمسين أو مائة عام،لم أتوقعه قبل ذلك، الآن، كأن هناك من يصرخ فىّ: الدبابات الأمريكية فى ميدان التحرير أما الإسرائيلية ففى صحن الأزهر، ينادى فى عالمى من داخلى مناد: يحاصر القاهرة الآن الهكسوس والمغول والصليبيون ونابليون وموشى ديان فى نفس الوقت،لا اختيار، الاستسلام الكامل أو الكفر أو الموت، تجسدت الرؤى والمخاوف، المسيخ الدجال، بروتوكولات حكماء صهيون، ذلك ما كنت عنه تحيد، لقد كنت فى غفلة، ياشيخ الأزهر: النار فى دارك، وقلت لنفسى أن هذا سيكون عنوان مقالى القادم، امتلأت بالحقد والغيظ على مباحث أمن الدولة، هذه ثمار غرسكم، حطمتم الإسلام والمسلمين، كفرتموهم، مهما كانت اعتراضاتى على الرئيس مبارك واختلافاتى معه و إدانتى لسياساته فإنه لا ريب سيذهل مثلى عندما أكتب له هذه الحكاية، وأن الأمور قد تدهورت إلى هذا الحد، وقد تلومه نفسه، قد يدرك أنه كالأب القاسى الذى لم يقدر مدى فظاعة قسوته، و أنها تحطم أبناءه، تدفعهم إلى الانتحار موتا أو كفرا أو انحلالا، و أن من زايدوا وسوغوا له إرهاب الدولة قد أصابوا الإسلام لا الإرهاب، وقلت لنفسى أنه ربما يفعل مثلما فعلت حين راحت الدموع تنهمل من عينىّ و أنا أجاهد ألا تكتشف المرأة على الهاتف أننى أبكى، أكرر المرة تلو المرة: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، احضرى فورا أو أرسلى أباه، أرسلى معه كل مايمكن أن أكتبه عنه.

كنت أظن النهاية بعيدة، و أن أعمارنا أقصر من بداياتها، تراءى لى ملايين وملايين فى الأندلس يصلبون ويحرقون حتى يتركوا الإسلام، وقد فعلوا، هاهى ذى محاكم التفتيش ومباحث التفتيش و إذاعة التفتيش

وتليفزيون التفتيش وصحف التجهيل وهاهم أولئك صفوف من المسلمين خلف صفوف، ملايين خلف ملايين يبدلون تحت وطأة النار ووسائل الإعلام والقهر دينهم...

عندما جاء الرجل يحمل دواوين شعر ابنه كنت أجاهد كي أخرج من ذلك الزخم الوجداني العنيف الذي انتابني.

لكن....

ما رواه الرجل كان أقسى من كل ماسمعت...

كان أقسى.. كان أقسى.. كان أقسى...

لم يكن الأمر كما روته لي زوجته طيلة أعوام ثلاثة، الأمر مختلف تماما. وقد بدأ بعيد حرب الخليج، إذ كان ابنه المتدين يتابع إذاعة مونت كارلو، وبدأ في مراسلتهم،وبدأوا بعد أن اطمأنوا له في إرسال الهدايا والنقود إليه، واتفق الابن مع أبيه -إزاء اعتراض صامت من الأم- على انتهاز الفرصة واستغلالهم بإيهامهم أنه يوشك أن يقتنع بآرائهم، و أرسلوا له صلبانا ذهبية -باعها- و فتاة هولندية قضت معه في القاهرة أياما، وفي هذه الأثناء اعتقلته مباحث أمن الدولة، ليس لأنه من الجماعات الإسلامية كما كانت أمه قد أوهمتني، و أنهم هناك أتوا له بعلماء دين كي يثنوه عن ردته. قال الرجل باكيا أنه لم يدرك إلا منذ أسابيع قليلة أن محمدا قد ارتد فعلا وغير اسمه إلى ميشيل بعد عمليات مكثفة استمرت سنوات ثلاث في إحدى الكنائس.

كنت أسمع مذهولا، غير مصدق، فهاتفت امرأته كي أستوثق مما يقول، فأكدته، وانفجرت فيهما معا، أنهما أسرة عاصية ضالة، ويا ويلتهم على ما فرطوا في جنب الله، و أنهما بكل الانتهازية دخلا لعبة أكبر منهما

خسرا فيها الدنيا والآخرة، طلبت منهما ألا يتصلا مرة أخرى.

كان الذهول مايزال يستبد بى وقلت لنفسى أن الوضع فى صورته الأخيرة أسوأ بما لا يقاس منه فى صورته الأولى.

" فهلوة "أحمق ظن أنه سيخدعهم فخدعوه.

لم تعد الخيانة مجرد ثمرة حرام للقهر أو التلوث الإعلامى وغسيل المخ، ولا لتعذيب مباحث أمن الدولة، لم تعد استسلاما وانهيارا بل أصبحت تطوعا واختيارا و إصرارا. الخلايا الأولية فى الأمة تتصدع وتنهار والقلاع تستسلم دون قتال، والحصون تفتح أبوابها بالغواية دونما مقاومة، هنيئا لكم ياوزراء الثقافة والإعلام فى العالم العربى جهودكم، و هنيئا لكم يا وزراء الداخلية قهركم وبطشكم، وهنيئا لكم تطوير للتعليم.

ورحت أردد لنفسى: لم يرغم أحد محمدا أن يتحول إلى ميشيل، لم يرغمه أحد، و إن كانت سياسات حكامه و أداء أمته غطاءً لما فعل... و أنهم هناك، فى تل أبيب وواشنجتن ولندن وبون، قد خططوا منذ زمن، لاستعمال حكامنا، لا لاختراق حدودنا، بل للتسلل إلى خلايانا... لتدميرها... أليس هذا حال نخبة حكامنا؟، ذهبوا إليهم كى يدافعوا عنا، وظنوا أنهم"بالفهلوة" مخادعوهم، فانخدعوا بهم،تبنوا وجهات نظرهم فينا، وانضموا إليهم علينا.. دون قهر، دون قسر ودون مبرر..

ترى هل غيروا هم الآخرين أسماءهم ... ترى أى مسبحة تخفى خلفها ميشيل... و أى دشداشة تستر بيريز ورابين... و أى عباءة تضم كلينتون وكيسنجر.. و أى أصباغ للشعر وللوجه تنكرت فيها ملامح الصليبيين واليهود خلف ملامحنا...

*ملحوظة: ديوان محمد (ميشيل) معى، إذا عنّ لشيخ الأزهر أن يراه.**

{ب}

جلالة الملك.. فخامة الرئيس:

لماذا يافخامة الجلالات وياجلالة الفخامات فعلتم ذلك بأمتكم...

لماذا خذلتمونا.. فرضتم علينا السمع والطاعة وحد السيف، ورضيت جموعنا بما ارتضاه فقهاؤكم فرددنا خلفهم: "حاكم غشوم خير من فتنة تدوم"، ارتضيناه رغم أن ديننا يحضنا ألا طاعة لكم فى معصية الخالق، ارتضيناه كى لا تتشرذم أمة محمد فيذل الإسلام والمسلمون. لماذا إذن بعد أن ارتضيناه تشرذمت أمة محمد وذل الإسلام والمسلمون وتداعى علينا رعاع الأرض .

لماذا...

لماذا فعلتم ذلك بنا..

ولماذا كل هذه الهرولة إلى عدو الله وعدونا كانت..

أليس عدوكم ؟!

لماذا ؟؟

---

* لم يطلب فضيلة الشيخ الكبير الديوان ولا سأل عنه، فقد كان مشغولا جدا، بمقابلة حاخام إسرائيلى، وسفير أمريكى، قيل أنهما حدثاه فى تغيير مناهج الأزهر لكن فضيلته أنكر، ولكن ما حدث بعد ذلك أنه غيرها فعلا.

فى بطن التاريخ أم فى أضابير كتب السياسة والاجتماع أم فى موسوعات الأمراض النفسية والعقلية أم فى ملفات مخابرات العدو أجد الإجابة..

عفوا يا سادتى..

يامشرذمى أمة محمد ويامذلى الإسلام والمسلمين..

يا مهرولين...

عفوا يا جلالة الفخامات ويافخامة الجلالات أن أخرجتنى النوازل الهائلة والهوائل النازلة عما ينبغى أن يلزمه عبد من عبيدكم من أدب فى الحديث إليكم.

ولعلى خوفا أو أدبا أو تقية لا ألجأ إلى بطن التاريخ أو إلى أضابير الكتب أو إلى موسوعات الأمراض أو إلى ملفات المخابرات كى أعرف الإجابة..

فهل تسمحون جلالاتكم وفخاماتكم لعبدكم الخاضع - رغم أنفه - والذليل بحكمكم أن يلجأ إليكم أنتم كى يعرف لماذا حاق به كل هذا الذل وكل هذا الهوان ولماذا منى بكل هذه الهزائم.

هل تسمحون لى أن ألجأ إلى مقالة كل منكم فى صاحبه وأخيه...أن أترفع عن قول الرعاع والظلاميين-مثلى-فلا أعتمد فى الحديث عن ملك أو رئيس إلا قول ملك أو رئيس..

فياله من هول حين أفعل ذلك...

إن الخوف والتقية والجبن والجهل بما يجرى من نصيبنا نحن الظلاميين الرعاع، أما فخاماتكم وجلالاتكم فلديكم - علينا وعلى بعضكم لا على أعدائنا و أعدائكم - كل الشجاعة والعلم.

فإذا سمحتم لى أن أفعل ذلك، فهل تعطوننى الأمان أن ناقل الكفر ليس بكافر، لو كتبت كتابا أقتصر فيه على رأى كل منكم فى أخيه وما قاله عنه، أأنتم تاركىّ.

يا إلـــــهى..

لوأنني فعلت ذلك فليس ثمة نقيصة في الوجود لم تلصقها جلالة بفخامة أو فخامة بجلالة أو جلالة بجلالة أو فخامة بفخامة... لا نقيصة في الوجود... وليس ابتداء بالكفر ولا انتهاء باللصوصية والعمالة....

فماذا أفعل إذن، وعبد خاضع ظلامي مثلي لا يملك من الجرأة أوالشجاعة قدرا يمكنه من رد قول جلالة أو فخامة...

لا أستطيع أن أدمغ بالكذب أي واحد منهم... فليس ذلك إلا سمت الإرهابيين والخوارج... لا أملك... وحتى لو بلغ الأمر بنفسي الأمارة بالسوء أن تجرؤ فتكذب جمعهم أو بعضهم فما ذلك إلا سر أطوى عليه حشاي.

أأصدقهم جميعا إذن...

أفي تصديقي لهم جميعا أجد الإجابة عما يبهظني من تساؤل...

وهل فيه أجد تفسيرا لما عجز إزاءه فكري، و أفهم- مثلا -لماذا كان هذا الانصراف المخزي عما يحدث في فلسطين والشيشان والبوسنة وفي لبنان..

يرتد بي الزمان فأعود إلى الوراء نيفا و أربعين عاما، ولم تكن آلاف المليارات قد أنفقها الأشاوس على تسليح الجيوش، وكان العدا قد جاؤوا بجيوش الإمبراطوريات الجرارة لقهر مصر، وبالإضافة إلى عشرات من فرق المشاة والفرق المدرعة ولواءات المظلات والكوماندوز والمغاوير دخل القتاة خمس من حاملات الطائرات و١٧ مدمرة و أربعة طرادات و ١٤ فرقاطة و ٨ غواصات وسفينة قيادة و ٦٠٠ طائرة، وبهذه القوة الجبارة بدؤوا غزو مصر فإذا بالعالم العربي والإسلامي يشتعل معها، ونجحوا في قصف إذاعة القاهرة، فتوقف الصوت الحبيب "هنا القاهرة"، لينطلق بعد دقائق من عشرات الإذاعات في العالم العربي حين راحت إذاعات دمشق و عمان و صنعاء تعلن:"هنا القاهرة". وإزاء كثافة الهجوم نجحوا في أسر قائد المقاومة في بورسعيد بعد نفاد كل ذخائره، وطلبوا منه أن يصدر أوامر إلى قواته بالاستسلام لكنه صرخ في وجه جنرالات الغزو: ستوكويل وبوفر وبارنيت:"تستطيعون أسر

مصر كلها ولكنكم لن تجبروها على الاستسلام".

لماذا إذن حدث ماحدث، لم يأسرونا ولم يجبرونا على الاستسلام لكننا استسلمنا طواعية واختيارا.

لماذا يقول المذيع - الآن - من القاهرة: هنا القاهرة، فلا أصدقه ؟!.

لماذا ؟

ولا من الرياض ولا من الكويت ولا من صنعاء ولا من عمان....

ربما لو قال هنا تل أبيب أو نيويورك أو لندن أو باريس أو بون لصدقته.

ماذا فعلتم يافخامة الجلالات ويا جلالة الفخامات بجيوشكم و بشعوبكم، حتى تركتم إسرائيل المجرمة - كانت مجرمة وهى مجرمة وستظل إلى أبد الأوابد مجرمة- تنحر في لبنان أشقاءكم ورعاياكم حتى اللائذين منهم بمقار نظامكم العالمى الجديد، ولا رد منكم سوى صمت القبور.

الآن... حاملة طائرات أمريكية واحدة كافية لربط العالم العربى من أدناه إلى أقصاه ربط السائمة، يعود بى الزمان قرونا خلف قرون، وكانت الأمة قد وصلت إلى حال من الهوان كذلك الذى وصلت إليه الآن بعد أن عاث حكامها فيها فسادا، فإذا بالمغولى يقول للعربى: قف مكانك، إياك أن تغادره، فسأقضى بعض شأنى ثم أعود لأقتلك، ويعود المغولى ليجد العربى لم يبرح مكانه فيقتله، الآن نفس الشىء، ذبحوا فلسطين، والعراق يوشك أن يتفتت، وليبيا والسودان تحت نصل القصاب، وليس ينتظر أحدا من الباقين مصير أفضل.

يافخامة الجلالات وياجلالة الفخامات وياشيوخ نحن نعرف، ونعرف أنكم تعرفون، أن كل ما يحاك وما ينفذ من ضغط وحصار وقهر ومحق لم يكن أبدا من أجل الكويت السليبة - فأين حنيش - ولا من أجل محاولة اغتيال الرئيس مبارك - ولو فتح الرئيس مبارك قلبه وعقله لنا لأدرك أنه لو تمت محاولة لاغتياله فسوف تكون من إسرائيل أو أمريكا، خاصة بعد مواقفه القليلة النادرة،

والتى يبدو فيها أنه يوشك أن يدرك مراميهم – ولا من أجل... ولا من أجل... بل كل ذلك من أجل هدف واحد بدأ من ألف عام ولم يتوقفوا عنه. هذا الهدف يجليه محمد حسنين هيكل فى كتابه الأخير:"المفاوضات السرية" حين أرجع المحاولات الأولى لإنشاء إسرائيل إلى نابليون بونابرت، ولكم عتبت على الكاتب الكبير أن نظرته البانورامية الهائلة اقتطعت جزءا من الصورة، حتى أننى تساءلت: هل فعل ذلك متعمدا كى يتجنب الاعتراف بأن الأمر كله ليس إلا صراعا مستمرا بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية الوثنية فى جوهرها والمغطاة بقشرة زائفة من تعاليم السيد المسيح عليه الصلاة والسلام. ذلك أن فكرة إنشاء وطن لليهود فى فلسطين ترجع إلى لويس الرابع عشر، ثم أن ذلك وطيد الصلة ببدايات الحروب الصليبية الأولى، والتى كان هدفها ولم يزل زرع سرطان فى قلب العالم العربى والإسلامى يستنزف قواه ويقضى على إرهاصات تقدمه لريادة العالم، ولم يكن خفيا على محمد حسنين هيكل بالطبع أن نابليون بونابارت، وهو فى طريقه لغزو مصر، عرج على مالطة ليقضى على آخر فلول الحملات الصليبية: فرسان القديس يوحنا عام ١٧٩٨ .

الأمر متصل إذن والهدف واحد ومستمر.. وسحق العراق وحصار ليبيا والسودان وإيران والتحرش بسوريا ولبنان كل ذلك من أجل تكريس وجود إسرائيل، ولو اعترفت العراق بإسرائيل غدا لانتهى الحصار على الفور، ولو عاد الشاه ليحكم إيران كى تتحالف مع إسرائيل كما تتحالف تركيا معها الآن لاستأنفت أمريكا جهودها كى يكون جيش إيران رعبا للعرب.

يالها من مأساة ياحكامنا أنكم تعرفون، وتعرفون أننا نعرف، ثم لا تتورعون أن تكونوا مخلب القط الذى ينفذ منه الغرب إلى مبتغاه..

يالها من مأساة بل ياله من عار..

لقد حولتم أمتكم إلى أمم من الدجاج الأبيض، فما من دجاجة تحتج على ذبح دجاجة، أو تحاول التمرد من أجل الحفاظ على نفسها، ولو بالصياح.

لماذا فعلتم ذلك بأمتكم...

و إن كنت قد جننت فى تساؤلاتى تيك فهل جن أيضا لطفى الخولى وهو يكتب على صفحات الأهرام مذهولا مفجوعا عن تدمير لروح التضامن فى العالم العربى، والتى كانت تحت نير الاستعمار أفضل حالا، لم يجرؤ لطفى الخولى أن يوجه الاتهام مباشرة لكنه رصد الجريمة مكتفيا بذكاء القارىء، وبأن المعنى ليس فى بطن الشاعر، بل فى قلبه: نصلا داميا.

ياجلالة يافخامة.. لقد فعلتم لأعداء الأمة كل مايشتهونه، وما عجزوا بالاحتلال المباشر عنه. فعلتم ذلك باسم التحضر تارة وباسم الديموقراطية تارة وباسم النظام العالمى الجديد الذى لاتستطيعون التمرد على أوامره تارة أخرى. و لكى تصلوا بنا إلى مايريده أعداؤنا لنا سحقتم الأمة.. .

هل كانت الخطيئة فى الحاكم أم فى حاشيته ؟!.

يقول الدكتور على الوردى فى كتابه: وعاظ السلاطين:"إن الحاشية التى تحيط بالحاكم تستطيع أن تجعل الأبيض فى عينه أسودا، فإذا جاءه متظلم يشكو قالت عنه أنه زنديق يريد أن يهدم دين الإسلام. ويعم البلاء حين يحيط بالحاكم مرتزقة من رجال الدين. فهؤلاء يجعلونه ظل الله فى أرضه، ويأتون بالملائكة والأنبياء ليؤيدوه فى حكمه الخبيث، وبهذا يصبح الحاكم ذئبا فى صورة حمل وديع". إن على الوردى يكتب هذا الكلام منذ أربعين عاما، فيكاد يلمس قلب الداء، أما لطفى الخولى، وبعد أربعين عاما، لا يملك جرأة على الوردى ولا شجاعته، فيمس فى مقالاته الحكام مسا رقيقا، لتصبح مقالاته نفسها دليلا على صحة مايقول، إذ يعجز هو نفسه عن مخاطبة الحكام باللهجة التى كان يمكن للكاتب أن يخاطبهم بها منذ أربعين عاما.

وبرغم جرأة على الوردى إلا أنه لم يصل بإدانته إلى المحطة الأخيرة فقد توقف عند الحاشية، ولعلى أوافقه، لكن لأصرخ بعده: ما من حاكم خير يصطفى حاشية سوء وما من حاكم ذئب يصطفى حاشية خير، الحاشية صنيعة الملك، و أصرخ أيضا، أن السبب

الرئيسى– و لا أقول الوحيد – فى نكبات العالم العربى والإسلامى وتدهوره وانحطاطه ليس ضراوة الأعداء، بل أنتم ياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات.

أنتم... جميعا... بلا استثناء...

فلماذا كان كل ما فعلتموه...

يخيل إلىّ أحيانا أن بعض الناس يعبد الشيطان و أنه توعدهم بعذاب الهون إن عملوا خيرا و بجزيل العطاء إن لم يحيدوا عن صراط السوء.

فلماذا..

لماذا – أيها المهرولون – كانت كل هذه الهرولة إلى شرم الشيخ..

ولماذا كان دفن الرؤوس فى الرمال كالنعام إزاء ما حدث فى لبنان..

لماذا حين أطلق كلينتون صفارته هرعتم طائعين..

ولماذا حين فرقع بيريز بسوطه فررتم خائفين.... فرار إبل شاردة..

هل صدق العلوج إذن حين قالوا: لا تأبهوا للعرب، فهم قوم يجمعهم صوت ويفرقهم سوط...

فى حرب الخليج كان القلب ينفطر أسى، يتفتت إزاء انشطار العالم الإسلامى وانضمام دوله الكبرى إلى أعداء الأمة لقصف عاصمة الخلافة طيلة قرون... بغداد ...

عام ٤٨ قلنا أن العرب لن تصيبهم مصيبة أكبر لكن ٦٧ جاءت فخاب ظننا...

وفى ٦٧ قلنا أننا سنعى الدرس حتى لا يصيبنا بعده قرح لكن حرب الخليج جاءت فقلنا ليس بعد هذا الهول هول...

الآن... ما يحدث هول لا يدانيه هول....

كان انشطار الأمة إلى دول هولا..

وكان انشطار الدول وتصارعها هولا..

لكن الهول الذى نعانيه الآن أشد و أفدح..

كنا نحارب العدو معا... فتشرذمنا... لكن بقيت الدول ولو رياء على العهد... الآن... ننشطر من الداخل...

يا شيخ الحرم يا شيخ الأزهر... يا علماء..

كنت دائما أردد أننا خير أمة أخرجت للناس...

لكننى إزاء ما يحدث أوشك - إن صدقت فتاواكم ودعاواكم - أن أشك أنكم ترون أن خير أمة أخرجت للناس هم أمريكا وبنو إسرائيل.

لماذا لا تتكلمون يا وعاظ السلاطين.. لماذا لاتمنعون ما يحدث ولو بألسنتكم .. لماذا تركتموهم يصلون بالأمة إلى كل هذا الانهيار... لماذا لا تحاربون معنا بعد أن أصبح المطروح الآن لا العروبة ولا الإسلام بل الشرق أوسطية...

لا يمكن أن يتفقا يا لطفى الخولى وياعصابة كوبنهاجن ، و إننى أعلم - بل وأتعاطف معك فى مأساتك - أن يهزك من الأعماق بعد انتمائك للشيوعية خمسين عاما أن تدرك أنك كنت تدافع عن قضية كلها خطأ، فلا تستبدل الخطأ بخطأ، فالشرق أوسطية بديلة للعروبة والإسلام، بديلة، كما كانت الأمة الأمريكية بديلة للهنود الحمر وكما كان الاستراليون إزاء سكان البلاد الأصليين.. البدل بالإفناء والمحو... وفى بحار الشرق أوسطية سوف تتفتت العروبة والإسلام لتنتثر هباء تذروه الرياح...

وفى الشرق أوسطية يمكن لمبارك أن يتحالف مع بيريز، ليس ضد صدام حسين فقط.. بل ضد القذافى والبشير وضدى أنا أيضا...

وفيها يمكن لجلالة الملك حسين أن يتحالف مع باراك، لا ضد الأسد فقط بل ضد ليث الشبيلات أيضا...

تنقسم الأمة، تنشطر...

لقد كنا بالكاد نأمل فى حربنا مع أعدائنا بعد أن ضعضعنا حكامنا أن نمنع الانهيار...

كنا نحن الجزء الضعيف، وكان حكامنا -وقد جيشوا الجيوش لحرب أعدائنا- هم الأمل فى أن نستطيع بالتضامن أن نصمد... مجرد أن نصمد...

ويثور الغبار فى الخليج ومدريد و أوسلو ثم ينقشع فإذا بحكامنا ينحازون بقواتنا إلى أعدائنا لنصبح نحن العدو المشترك.. .

وإذا بنا إرهابيون و إذا بهم صناع سلام ودعاته...

يا لطفى الخولى ويا عصابة كوبنهاجن :فى الشرق أوسطية: الأرض بتتكلم عبرى..

ياحكام.. يا شيخ الحرم يا شيخ الأزهر.. إن كل يوم أشد علينا من سابقه، لا يزداد الأمر إلا شدة والدنيا إلا إدبارا، ويمر الرجل منا بقبر الرجل فيقول ياليتنى كنت مكانه.

يا شيخ الحرم ويا شيخ الأزهر أين أنتما...

أين مكانكما من هذا كله...

لا كهنوت فى الإسلام، أعلم، ولا رجال دين كما فهمته الديانات الأخرى.

لكن الحرم و الأزهر مؤسستان من مؤسسات الدولة، عليهما أن يتقدما لحماية الإسلام والمسلمين حين تدلهم الخطوب وتسلم الشياه رعاتها، لم يعد ثمة أحد آخر، انكفأ الكل على ذواتهم فى كهوف اليأس التى يحرس مخارجها قوات الأمن ووزراء الثقافة والإعلام، ولقد سبقتمونا بالانكفاء، لكنكم والأمر قد صار إلى ماصار إليه يجب أن تكونوا أول من ينهض.

يا شيخ الحرم ويا شيخ الأزهر أمتكما مهزومة مخذولة، هزمها أعداؤها وخذلها حكماؤها، غشها الاشتراكيون وخدعها الشيوعيون وغرر بها الديموقراطيون -حين كونوا الأحزاب بمنهج الأعراب-

وسحقها العسكريون، وتحصن قضاتها فى حصون القانون غير مدركين أنها نقبت واخترقت، و قهرها الشرط، وتخلى المثقفون عن ريادتها، فلم يبق إلا أنتم، فأين أنتم ؟؟

أين أنتم فى زمان صار فيه المغنم دولا والأمانة مغنما والزكاة مغرما وزعيم القوم أرذلهم، ولا يكرم الرجل إلا مخافة شره.

أين أنتم والفتن تقع علينا كوقع القطر، فى زمان لم يعد يأتى بعده إلا زمان أشر منه.

أين أنتم و إمرة السفهاء وكثرة الشرط وبيع الحكم واستخفاف الدم.

أين أنتم وقد تركنا الائتمار بالمعروف والنهى عن المنكر وفشت الفاحشة فى كبارنا وامتلك العلم رذالنا والملك صغارنا.

أين أنتم وسفهاء الأمة يقهرون حلماءها.

أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أنتم الصادقون حين تحلون بفتاواكم للحكام شططهم.

ألم يدع عليه السلام لنا - نحن أمته - ألا يسلط علينا عدو سوى أنفسنا يستبيح بيضتنا، ثم أضاف: لكننى أخاف على أمتى الأئمة المضلين.

يا شيخ الحرم يا شيخ الأزهر ماذا تقولون يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا..

يا شيخ الحرم ويا شيخ الأزهر: إذا لم يكن هذا أوانكم فأى أوان وإذا لم يكن زمانكم فأى زمان و إذا لم يكن دوركم فأى دور..

يا شيخ الحرم ويا شيخ الأزهر اذهبا إلى الفراعنة فإنهم طغوا...

احقنوا دماء أمتكم....

افعلوا أى شىء لرأب صدع الأمة.... أى شىء... أى شىء...

ليس منا من بات شبعان وجاره جائع، تنطبق على الأفراد كما تنطبق على الدول، وشعب العراق جائع فلا تتركونا نطرد و إياكم

من معية الرسول عليه السلام.

ياشيخ الحرم وياشيخ الأزهر إن الناس قد دخلوا فى دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا... فالغوث الغوث..

ترى...

أمن أجل هذا تحول محمد إلى ميشيل...

لأن من ولاة أمورنا من فعلها قبله، أضمرها قلبه ولم يعلنها لسانه.. لأن منهم من مهد له الطريق ويسر السبل...

قولا لهم قولا لينا... قولا لهم أن الشيشان - بالإيمان والإرادة وبلا سلاح تقريبا- قد صمدوا أمام ثانى قوة جبارة فى العالم، و أن سناء محيدلى وحدها أرغمت أعتى قوة فى العالم على الانسحاب، و أن حزب الله وحده من أمة محمد كلها قد أذل إسرائيل.

عظوهم كى تذهبوا من قلوبهم الوهن، فإن لم يتعظوا أعلنوا ذلك على الأمة كى ترى فيهم رأيها.

أفتونا: إذا كان تفرق المسلمين إلى دول يؤدى إلى ما نحن فيه الآن أهو حلال أم حرام.

أفتونا: تلك الحدود التى فرق بها أعداؤنا بين بلادنا، حين راحوا حول كل بئر بترول يقيمون دولة، حرام هى أم حلال.

أن يكون تعداد العرب خمسين ضعف إسرائيل وتعداد المسلمين خمسة أضعاف العرب، وميزانيتنا فى التسليح أربعون ضعفا وجيوشنا وسلاحنا أربعة أمثال ثم نذل كل هذا الذل أمامهم حرام أم حلال.

أن نترك لهم فلسطين - فى حدود ما قبل ٦٧ أو ما بعدها - حرام أم حلال.

لقد كان سيدنا وسيدكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده إزاء مشركى مكة، وكانوا يسخرون منه، فيتساءلون: بماذا جئتنا اليوم يا محمد، فإذا به يجيبهم إجابته الصاعقة: جئتكم بالذبح، ويصدقه الله فإذا بالذبح مصير القوم.

لماذا لم يقلها أحد منكم لذلك العلج المختال باراك، أوذلك الفتوة الجهول كلينتون، تقوّون بها قلوب أمتكم وتشفون صدور قوم مؤمنين..

ألم يستثر حميتكم سباب رسولنا وكتابتهم على الصواريخ التى سحقت إخوتنا: إذا كان إلهكم لا يستجيب لكم فنادوا المسيح.. فى حرب الخليج التى كان اسمها العسكرى: المجد للعذراء.

عبروا عما تكاد تنشق عنه صدورنا إذن..

واصرخوا فى الحكام: المجد لله..

المجد للحق..

المجد للعدل..

المجد للعدل..

المجد للمعز..

المجد للمذل..

المجد للخافض..

المجد للرافع..

اصرخوا...

فالمجد -الآن- للشـــــيطان...

جلالة الملك . . فخامة الرئيس "٣"

نفايات مكدسة و أصنام مقدسة

{١}

من الاستعمار إلى الاستحمار . .

لا تستطيع أمريكا إلا أن تقف فى الصف المعادى للإسلام،أى إلى جانب العالم الغربى والدولة الصهيونية ، إن هدف العالم الغربى فى الشرق الأوسط هو تدمير الحضارة الإسلامية، و إن قيام إسرائيل جزء من هذا المخطط، وليس إلا استمرارا للحرب الصليبية .

يوجين روستو .

مستشار جونسون ورئيس قسم التخطيط بالخارجية الأمريكية .

إننى أمثل أمريكا التى تمثل بدورها الحضارة اليهودية والمسيحية التى تقود عالم اليوم بلا منافس .

جورج بوش

إن أخطر ثلاث حركات فى القرن العشرين هى النازية والشيوعية والحركة الإسلامية.

دان كويل : نائب رئيس سابق .

لا يمكن حدوث مصالحة بين العالم المتمدن والإسلام، لأنه دين ثورى وعدوانى وعنيف ومتشدد، مثل البلشفية والفاشستية والنازية .

عاموس بيرلمارتر : كاتب وصحفى أمريكى .

إن الإسلام يمثل تهديدا كبيرا للنظام العالمى .

ريتشارد شيفتر : مساعد وزير الخارجية
الأمريكى .

إن القوات الصربية التى تذبح المسلمين وتبيدهم تؤدى دور فرسان الصليب الذين ذهبوا لتخليص بيت المقدس من المسلمين إبان الحروب الصليبية .

وزير صربى

إن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة، ومع التزايد السكانى والإمكانات المتاحة سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدوانى للعالم الإسلامى، ومما يرجح هذا الأمر أن الإسلام والغرب متضادان، وعلى الغرب أن يتحد ليواجه الخطر الإسلامى الداهم .

ريتشارد نيكسون

ماتزال مهمة حلف الأطلنطى قائمة بل وضرورية، فإذا كان الخطر الشيوعى قد انتهى، و إذا كان حلف وارسو قد ذهب، فإن الخطر الإسلامى باق ولم يذهب .

وزير خارجية إيطاليا

إن أمريكا تنظر إلى العالم الإسلامى بوصفه إمبراطورية الشر الجديدة .

المعلق الروسى فاسيليف

إننى مندهش من روح العداء الصليبى التى تنتشر فى الغرب الآن.

محمد حسنين هيكل .

إن روحا صليبية واضحة تحرك السلوك الغربى نحو العرب .

لطفى الخولى

إن الحملة على الجزائر هى حرب صليبية هيأتها العناية الإلهية لينفذها الملك الفرنسى الذى اختاره الله ليثأر من أعداء المسيحية .

الجنرال كليمونت تونير: وزير الحربية الفرنسية(١٨٣٠)

باءت الحروب الصليبية بالفشل، لكن حادثا خطيرا وقع بعد ذلك،حينما بعثت انجلترا بحملتها الصليبية الثامنة،ففازت هذه المرة، إن حملة اللنبى على القدس هى الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة .

باترون سميث

الآن انتهت الحروب الصليبية ..

الجنرال اللنبى: القدس،٩ ديسمبر ١٩١٧

هاقد عدنا ياصلاح الدين .

الجنرال غورو : دمشق ٢١ يونيو ١٩٢٠

حطوا المشمش عالتفاح ...

دين محمد ولى وراح.

محمد مات مات ...

بعد ما خلف بنات .

الجنود الإسرائيليون أمام حائط المبكى: ١٩٦٧

لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء، إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود، إن القدس قد خرجت من أيدى المسلمين، ولن تعود إليهم فى أى مفاوضات مقبلة .

راندولف تشرشل

إن شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى خوفا من الإسلام، لهذا الخوف أسباب منها أن الإسلام منذ ظهر فى مكة لم يضعف عدديا، بل إن أتباعه يزدادون باستمرار .

أشعيا بومان

من يدرى ؟! ربما يعود اليوم الذى يصبح فيه الغرب مهددا بالمسلمين . . . لست متنبئا، لكن الإمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة، ولن تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها .

البير مشادور .

يجب محاربة الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب.

مور بيرجر

رغم انتصارنا على أمة الإسلام وقهرها فإن الخطر لا يزال موجودا فى انتفاضة المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التى ألحقناها بهم، لكن همتهم لم تخمد بعد.

هانوتو : وزير خارجية فرنسى سابق .

إن الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ القدس إنها كانت لتدمير الإسلام.

جارنر .

أماه . . أتمى صلاتك . . لا تبكى . . بل اضحكى وتأملى . . فرحا مسرورا . . سأبذل دمى فى سبيل سحق

الأمة الملعونة . . سأحارب الديانة الإسلامية . . سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن.

أغنية الجنود الإيطاليين أثناء غزو ليبيا:

عن مجلة الطليعة ديسمبر ١٩٦٦

إن الإسلام هو الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى.

لورنس براون

مادام القرآن موجودا فى أيدى المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق.

رئيس وزراء بريطانى سابق

إن القوة الكامنة فى الإسلام هى التى تخيف أوروبا.

جاردنر

من الواجب إبادة خمس المسلمين والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع قبر محمد وجثته فى متحف اللوفر .

المستشرق الفرنسى كيمون .

يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب، بل هى خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية

ايوجين روستو .

إن مهمة التبشير التى ندبتكم دول المسيحية للقيام بها فى البلاد المحمدية ليست فى إدخال المسلمين فى المسيحية، فإن فى هذا هداية لهم وتكريما، إن مهمتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله، وبهذا تكونون قد أخرجتم المسلم من

الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية، ويأتى النشء الإسلامى مطابقا لما يراه الاستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور ويسعى للحصول على الشهوات بأى أسلوب . . .

صموئيل زويمر : مؤتمر القدس للمبشرين(١٩٣٥)

إن الوحدة الإسلامية نائمة، لكن يجب أن نضع فى حسابنا أن النائم قد يستيقظ.

أرنولد توينبى

إذا أعطى المسلمون الحرية فى العالم الإسلامى وعاشوا فى ظل أنظمة ديموقراطية، فإن الإسلام ينتصر فى هذه البلاد، وبالديكتاتوريات فقط يمكن الحيلولة بين الشعوب الإسلامية ودينها.

و .ك .سميث .

الفرق بين الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهود والشعوب الأخرى، والأمم الخارجة عن الشريعة اليهودية هى أمم أشبه بالحمير.

من تعاليم التلمود

إن إسرائيل واحة من الحضارة وسط أحراش تحكمها جلابيب.

باراك : وزير خارجية فلسطين المحتلة

العرب . . ما العرب . . إنهم نفايات . .

ضابط إسرائيلى من المشتركين فى مذبحة قانا

إن العالم الإسلامى يشكل واحدا من أكبر التحديات لسياسة الولايات المتحدة الخارجية فى القرن الحادى والعشرين.

ريتشارد نيكسون، *الفرصة السانحة*

إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بصورة مذهلة، فهى تنفجر انفجارا مفاجئا قبل أن يتبين المراقبون من إماراتها ما يدعوهم إلى الاستراية فى أمرها، ولا ينقصها إلا وجود الزعامة . . . . . إن نجاحنا يتوقف إلى حد بعيد على القادة والزعماء فى العالم الإسلامى.

جب

إن أخشى ما أخشاه أن يظهر فى العالم العربى محمد جديد .

بن جوريون

{ب}

جلالة الملك . . فخامة الرئيس ..

أجدنى - ياجلالة الملك ويافخامة الرئيس ويا شيوخنا - عاجزا إزاء عبثية لا تكاد تصدق، تختلط فيها الحدود فلا يتميز الحقيقى من الخيالى، ويزداد اضطرام قوى العقل حتى الدوار، فأغوص فى التاريخ وفى عالم مجهول، كى أحاذى عالمنا المعاش، أوازيه، أخفف علقم مرارته، لكن الأمور تختلط علىّ فكيف نفرق بين العالم العبثى والعالم الحقيقى وكلاهما معاش، كيف إذا كانت الكوابيس تدهمنا حين نفتح عيوننا والواقع يحطمنا ونحن غارقون فى السبات، هل بالعقل المصدوم العاجز المقموعَ المغيب، أم بالمخيلة حين تتقمص حالتها الوحشية، المضطربة، غير المتلاحمة، الحمقاء، الشنيعة، لكى تستطيع بالكاد أن تجارى وحشية الواقع واضطرابه وعدم تلاحمه وحماقته وشناعته . أم أن المخيلة نفسها تقصر وتعجز، كما عجز العقل قبلها .

لقد فصمتم ياجلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات العلاقة بين الأسباب والنتائج، ولا تملك شعوبكم أن تحاسبكم، لأن كشف حساباتكم لا يقدم إلى الأمة بل إلى أعداء الأمة، حتى أنني و الطوفان يكاد يغرق أمتنا، يتزلزل يقيني بما استقر قبل عليه، بت أشك مثلا، هل كان نضال شعوبنا وقوافل الشهداء و أنهار الدماء هو ما أرغم الاستعمار أن يحمل عصيه على كواهله ويرحل، أم أننا انخدعنا بذلك ولم يكن سوى سراب حطت عليه قوافلنا المتعبة، وحيلة جرعها لنا عدونا، هل كان النضال هو الذى هزم الاستعمار ؟ أم أن الأمر أعقد من ذلك والمصيبة أفدح، لقد ظللنا رغم كل ما أصابنا أقوى أمة - ودولة - فى العالم طيلة ألف عام، تناوشتنا المخاطر من كل جانب وتفاوتت قوتنا لكننا ظللنا القوة العظمى التى تستطيع الاستجابة للتحدى فى الوقت الصحيح، ولقد عانى الغرب أثناء ذلك طويلا، وكان مما عاناه ما يرده الآن إلينا، خوفه من التلاشى والذوبان إزاء قوة جبارة وحضارة غلابة، استطاعت منذ خمسة قرون أن تقتحم القسطنطينية وتقضى على الحضارة البيزنطية بعد ألف عام من تنازع السيادة على العالم، و أن تهدد العالم الغربى كله فكنا نقتحم منذ أقل من قرنين كبريات عواصمهم، ثم بدأ انهيارنا الكبير ومحاولاتنا المجهضة للنهوض من كبوتنا، لكننا بالرغم من هذا الانهيار استطعنا أن نحتفظ بدولة هنا أو هناك تمثل النواة الصلبة التى تعاود الأمة الالتفاف حولها من جديد أو على الأقل ترد عن الأمة مخاطر التهديد بالإفناء، لكنهم واصلوا الضغط علينا حتى اقتحموا ديارنا بعد غفلتنا وغفلة حكامنا، وناضلنا واستشهد الملايين، ورحل الاستعمار، لكن السؤال ينفجر الآن هل رحل حقا لأننا أرغمناه على ذلك؟ أم أنه جاء لمهمة محددة منذ البداية أو تبلورت أثناء الاحتلال، لقد جاؤوا لإنهاءالإسلام ومحو الحضارة وطمس الهوية، وقد أدركوا فى ظروف متباينة صلابة عقيدة تلك الأمم المقهورة التى استعمروها، و أن وجودهم ذاته قد ساهم فى استنفار الأمة كما تستنفر الجراثيم الأجسام المضادة فى جسد عليل، أن وجودهم يزيد من تدين الأمة ومن اتحادها ومن إحساسها بهويتها، و لذلك كله فقد قرروا هم بأنفسهم الجلاء، بعد أن تركوا فينا بذورا سامة و ألغاما متفجرة،

تركزت فى النخبة، وانتشرت فى القاعدة، ذلك أن ما يعجز عنه كيمون قد يستطيع عبد العظيم رمضان أن يفعله، وما لا يستطيع بومان أن يقنع الناس به قد يستطيعه العشماوى، و أن ما يعجز عنه الجنرال الأجنبى قد يستطيعه الجنرال والشيخ المحلى . كانوا يدركون أن وكلاءهم أولئك - والتسمية ليست من عندى، بل من ريتشارد نيكسون - هم القادرون على تحطيم الأمة، واندفع الوكلاء مابين همم فاترة وخيانات سافرة وعقول خائرة لتنفيذ خطة العدو بلا كلل، بمنتهى العنجهية بلا كلل، بمنتهى الغباء ولا كلل .

النخبة، التى كان مفروضا عليها أن تكشف الغمة وتحذر الأمة انزلقت بالجهل أو بالغواية إلى الخيانة، و الأمة التى فرض عليها الجهل والتخلف والازدواجية،باسم الدين أحيانا وباسم الحضارة تارة أخرى سادها الارتباك والفوضى، فمن يحكمونها مشايخ بعمائم ضخمة أو جنرالات من أبناء جلدتهم، ليسوا فرنجة ولا مماليك، لكنهم يفعلون بها أسوأ مما فعله بها الفرنجة والمماليك .

يا إلهى، لقد عاملونا كحيوانات التجارب، خدعوا جهاز مناعتنا، لقد كنا ننتظر الخطر دائما من العدو الأجنبى فنحصن قلاعنا ونسهر على ثغورنا .

يا إلهى، نجحوا، و الخطر الآن كل الخطر يأتينا من داخلنا، من نخب حكامنا وشيوخنا ومثقفينا، تنقسم الأمة وتنقسم الأقسام وتتشرذم التجمعات فلا ندرك أننا نموت إلا لحظة الموت . تجاهلت النخبة - من أجل مكاسبها وسلامتها - أن الصراع صراع حضارة وأنه حتم محتوم، مفروض علينا و لا اختيار لنا فيه، و أنه صراع سيستمر، إلا أنه يستمر الآن بصورة يستحيل فيها الانتصار بعد أن انحازت النخبة إلى العدو ضد الأمة و إن ادعوا غير ذلك .

- تلك الحقيقة البديهية يجهلها الآن جل المفكرين، ومن يدركها منهم يتخبط تخبطا مأساويا فى تلمس دروب الخلاص، ذلك أن ثمة خلط هائل فى المعلومات، والجسد يأكل بعضه، وما تبنيه يد تهدمه الأخرى وما تراه عين تقسم الأخرى أنها لا تراه، وفيض المعلومات ليس إلا فيض كذب، ولقد كان إحساسى مأساويا و أنا أتابع كتابات الدكتور محمد السيد سعيد، فقليل من النار يكوى، ربما لأنه واحد

من أفضل خبراء الدراسات السياسية والاستراتيجية لا في مصر فقط بل في العالم العربي كله، فضلا عن أنه اقتحم المخاطر حتى اقترب من أنياب التنين و لفحته أنفاس الغول ودفع الضريبة من دمه ولحمه وروحه، لا يستطيع أحد إذن أن يزايد عليه، لكنه برغم ذلك كله يصدق غوايات السلطة و أكاذيبها، ويتبنى بعض رؤاها، انظروا إليه مثلا وهو يقول : "كل من يدفع بمصر إلى هذا الفخ -الحرب الآنية مع إسرائيل – هو في حقيقة الأمر يسهم بالزج بها إلى كارثة، وهو ما تفعله بالفعل بعض صحف المعارضة ". إننا نتفق تماما مع محمد السيد سعيد في النصف الأول، لكن النصف الثاني بيان لوزير الداخلية أو مقال لثروت أباظة!! . من من المعارضة قال ذلك، و أي صحيفة؟؟، ولماذا هذا الخلط بين الغث والثمين رغم أننا نتشارك في دفع نفس ضريبة الدم والألم، ولماذا هذا الميل لتسطيح وجهة نظر الآخرين، كأننا لا نريد ولا نتخيل أن تكون للآخرين نظرة شاملة موسوعية تفهم الحاضر في إطار شامل للتاريخ والاجتماع والحضارة و أن الصواب يمكن أن يكون معهم . على أن محمد السيد سعيد لا يكتفي بالانزلاق إلى هذا الخطأ بل يتعداه إلى خطأ أشد، إنه يندفع بالإخلاص كله إلى رسم سبيل للخلاص بتكوين قوة ردع تؤدي إلى التوازن، وينبه ألا تكون هذه القوة مجرد استثمار عسكري محض بل قفزة جبارة إلى الأمام في مقاييس الأداء الاقتصادي والتكنولوجي والصناعي، ويواصل محمد السيد سعيد أحلامه حتى لنكاد نصدق، وهو بالفعل صادق لكنه تجاهل النقطة الرئيسية التي يمكن أن تجعل من أحلامه واقعا، ذلك أن جميع ما يقوله يحتاج إلى وسائل تساعدنا في الوصول إليه ونخبة تقودنا نحوه، إن ما يقوله يجسد وجها آخر لمأساة الأمة التي تعجز النماذج الشحيحة النظيفة والمخلصة في نخبتها عن الاتصال بالواقع، ذلك أن ما يقوله بعض أفراد هذه النخبة أشبه بقول ماري أنطوانيت : ولماذا لا يأكلون الجاتوه، والجاتوه فعلا أفضل، لكن هل يوجد، أحلام الناس أقل مما ينادي به مفكر كبير كمحمد السيد سعيد، لكن كيف يمكن الوصول إليها، عبر أنظمة حكم كهذه؟، عبر الفساد والتزوير والنهب المنظم والتعذيب، وافتقاد أي نظرة أو إحساس بالتاريخ والوطن ؟ عبر إهدار الصناعة والزراعة

والاقتصاد والبترول والقوات المسلحة؟ عبر تكريس الانفصال لابين الدول بل بين طوائف الشعوب ؟ عبر سحق النقابات وتفريق التجمعات وتشويه الأحزاب و إضعافها ؟ عبر إثارة النعرات واستعداء كل على أخيه؟ عبر الحروب بين أجزاء الأمة أهلية كانت أو بين الدول ؟ إننى أتمنى يا سيدى أن نبدأ بداية أكثر تواضعا مما تقول بكثير، أن نبدأ مثلا ببحث نقاط الصواب والخطأ فى وجهة نظر أعدائنا فينا، فى قول ذلك الجندى الإسرائيلى : إنهم عرب . . إنهم نفايات، وفى قول باراك عن حكامنا : إنهم جلابيب، وفى قول بروتوكولات حكماء صهيون : سنختار لهم رؤساء ممن لهم صفات العبيد . لقد قلت لنا يامحمد السيد سعيد ببراعة فائقة ماذا نفعل، لكنك عجزت عجزا فادحا عن أن تقول لنا كيف نفعله !! .

على أن بصيص ضوء يسود الآن بعد تقدم الإنسان العادى ليدرك بنفسه ما عجزت نخبته المثقفة وكبار مفكريه – و إن حسنت نواياهم – عن إدراكه، وثمة وعى يتزايد الآن بأن النخب الحاكمة والمثقفة فى العالم العربى والإسلامى قد أساءت إلى أمتها بأكثر مما أساء إليها الاحتلال، وهى الموكول إليها إتمام المهمة التى لم يقدر عليها : هدم الأمة و إنهاء الحضارة والدين ، ثم الذوبان فى الحضارة الغربية، ليس كأنداد، بل كعبيد.

كان صديقى أستاذ المسالك البولية الشهير بإحدى الجامعات يقول فى مرارة : من الاستعمار إلى الاستحمار !! لقد استعمرونا ونهبوا ثرواتنا لكنهم كانوا يدفعون الثمن دما، فقرروا الانتقال من طور الاستعمار إلى طور الاستحمار، حيث ينهبون ثرواتنا لكنهم أوكلوا أمرنا إلى بعضنا فرحنا نحن ندفع الثمن مرات ومرات . مرة من الثروة المنهوبة، ومرة من ضحايا الاعتراض، ومرات من المستقبل، لقد كانوا يستعمروننا . . . و الآن يستحمروننا !!! .

وواصل الصديق مرارته وحكايته : "كنت أعالج مريضا من ضحاياهم، ذات يوم لم يضربوه، فعلوا به ما هو أقسى، أعطوه أقراص اللازيكس المدرة للبول، و أثناء التحقيق بالغوا فى إكرامه

بالمشروبات، لكنهم فجأة، وبعد مدة معينة ربطوا مجرى بوله، ومدر البول يعمل، ومثانة الضحية تمتلء حتى الانفجار، وهو يصرخ، وهم يصرخون به أن يعترف".

وأكمل الصديق قائلا : "فعلها به أخوه في الدين والوطن، وإذا قرر هذا المسكين الانتقام فسوف ينتقم من أخيه في الدين والوطن، والقاتل والمقتول في النار". في ظل الاستعمار كان العنف استشهادا يوحد الوطن، وفي ظل الاستحمار فإن العنف سرطان ينخر في عظام الوطن .

لقد كفوا عن الاستعمار كي يمارسوا الاستحمار، ويصرخ أحمد مطر تحت عنوان :إهانة:

رأت الدول الكبرى تبديل الأدوار.

فأقرت إعفاء الوالي واقترحت تعيين حمار.

ولدى توقيع الإقرار، نهقت كل حمير الدنيا باستنكار:

نحن حمير الدنيا لا نرفض أن نُتعب..

أو أن نُركب ، أو أن نضرب ، أو حتى نُصلب ..

لكن نرفض في إصرار

أن نغدو خدما للإستعمار .

إن حموريتنا تأبى أن يلحقنا هذا العار !.

كيف جهلتم يا نخب الأمة مايلحق بنا من عار

وكيف جهل جلالة الفخامات وفخامة الجلالات أنهم أبناء حضارة كانت تسود العالم و أن المنوط بهم استعادة هذا المجد فما من حضارة أخرى تستطيع أن تواجه حضارة الغرب و أن تحل محلها . فالحضارة الغربية كما وصفها إرنولد توينبي هي أكثر الحضارات إجراما في التاريخ . تلك الحضارة التي من مآثر سيادتها موت خمسين مليون جائع سنويا، وقتل مائة مليون من الهنود الحمر، واسترقاق مابين مائة ومائتي مليون أفريقي آخر

ومصرع سبعين مليون فى حروبها العالمية فى هذا القرن فقط.

حضارة أنانية مادية عنصرية خسيسة، حضارة ليس الإنسان فيها سوى حيوان مفصلا على طراز دارون، حيوان، أما الكون فمفصل على طراز نيوتن، حضارة تتجاهل معنى الحياة الأسمى و أسرارها الخالدة وقبس الله فيها، حضارة لا تستطيع أن تفهم أن لغز الحياة يظل كاملا، و أن نقص معلوماتنا يجعل كل تفسير للحياة أقل وضوحا من معرفتنا الغريزية بها كما يقول بير لابان، حضارة لا تدرك أن جميع المعجزات طبيعية و أن الطبيعة كلها معجزة كما يقول الإمام الغزالى . حضارة خاطئة فجة، تمارس ماكانت محاكم التفتيش تفعله بشكل آخر، لقد كانوا فى محاكم التفتيش يحرقون الجسد بادعاء أن ذلك ينقذ الروح، الآن يفعلون العكس، يحرقون الروح بدلا من الجسد. يقول أندريه مارلو "إنها أوروبا التى دمرت الحضارة ولطختها بالدماء، هى التى دمرت الإنسان ولطخته بالدماء وهى تظن أنها تخلقه ".

يقول الدكتور محمد مورو فى كتابه القيم "المواجهة " أن الذين يدعون إلى سيادة الحضارة الغربية على العالم يدعون فى الحقيقة إلى سيادة حضارة غير عالمية على العالم، وهذا منتهى التناقض والمغالطة، فالحضارة العالمية يجب أن تكون غير عنصرية، أما الحضارة الغربية فعنصرية، والحضارة العالمية يجب أن تكون غير مزدوجة المعايير، والحضارة الغربية مزدوجة المعايير، والحضارة العالمية يجب أن تكون لإسعاد كل البشر وليس الإسرائيليين والأوروبيين والأمريكيين فقط، والحضارة الغربية ليست عالمية بهذا المعيار لأنها تعتمد فى رفاهيتها على نهب ثروات الشعوب الأخرى والتلاعب فى الأسعار وتصوغ النظام الاقتصادى العالمى بصورة تحقق أقصى نهب ممكن لدول العالم الثالث، والحضارة العالمية يجب أن تكون أمينة على البيئة والحضارة الغربية حضارة غير أمينة إلا على بيئات شعوبها، تدفن نفاياتها السامة المشعة فى أراضينا، وتخل بالتوازن البيولوجى والكيميائي والطبيعى وتخرق حتى غلاف الأرض بثقب الأوزون.

ويستطرد الدكتور مورو باحثا فى المنظومات الحضارية عن

حضارة تصلح لصفة العالمية ليجد أن الحضارات التى عرفها العالم إما اندثر بعضها و إما أنها لا تحمل رسالة ثقافية عالمية، و أنه لا يوجد غير الحضارة الإسلامية، فهى التى تحمل صفات ومعايير العالمية.

إن الإسلام هو البديل كما يقول السفير الألمانى مراد هوفمان ، وهذا بالضبط هو السر فى توجس الحضارة الغربية منا، ذلك أن حضارات الشرق الأقصى بمضمونها شديدة المحلية مهما ازداد عدد أتباعها، و إلا هل يمكن مثلا للعالم أن يتقدم ليحمل راية البوذية أو الكونفشيوسية؟ أما عن الشيوعية والنازية والفاشستية وما يشابهها فليست سوى أورام تنتمى لصميم الحضارة الغربية، الحضارة الوثنية التى تتستر خلف غلالة مزيفة من المسيحية أو اليهودية، والدين - أى دين - منها براء.

الحضارة الإسلامية هى البديل لذلك كان على الحضارة الغربية أن تواصل عبر القرون سعيها الدؤوب لتحطيمها. إننا البديل الأنقى والأرقى، غير أن ذلك ليس هو السبب الوحيد فى محاولات الغرب المتكررة لسحقنا، إنها حرب حضارية شاملة لا تستطيع حتى أن تلخص أسبابها فى عشرة أسباب أو فى مائة سبب، حرب حضارية شاملة نستطيع فقط أن نشير إلى بعض الظواهر فيها، ومن هذه الظواهر أن الغرب عدوانى بطبعه، و أن غزو العالم واستعباده كان هدفه وديدنه منذ فجر التاريخ، غزو العالم كله، وكان يرفع لكل مقام مقال، ففى العصور القديمة، العصور الوثنية لم يكن يحتاج إلى مبررات سوى الفكر الخاطىء والفلسفة المنحرفة التى جعلتهم يمايزون بين الأجناس وينظرون إلى أنفسهم كجنس أرقى، وبعد المسيحية لبسوا قميص المسيح وهتكوا أمن العالم بدافع تحويل الوثنيين إلى مؤمنين، وكان الدافع تغطية وخداعا، وانظر مثلا كل الحروب الصليبية واستعمار العالم القديم كله ثم حرب الأفيون مع الصين. بعد ذلك، وبعد أن انفصمت العرى بين الدولة والكنيسة، ولم يعد الدين يصلح غطاء بعد أن كفروا هم أنفسهم به نبتت مقولة الحضارة، إنهم يستعمرون الأجناس الهمجية ليحضروها، ثم أعقبت ذلك مقولات وأوهام الديموقراطية

والحرية، لقد استعمرونا ليحضرونا وكان ذلك منة وفضلا، ثم أخذوا بعد أن نصبوا علينا وكلاءهم يجلون عنا وكان الجلاء أيضا منة وفضلا !! ولم يقف أحد منا ليتساءل كيف تسرى ذات الصفة على الشيء وضده ، لكنهم إبان الاستعمار كانوا قد دمروا البنى وزرعوا نخبة كاملة مُغرّبة مخربة كافرة بشعوبها وبحضارتها وربما بالله، هى الوحيدة المرشحة للقيادة، وراحوا يرسون فى بلادهم مبادئ الديموقراطية والعالم الحر بينما يشجعون فى بلادنا أكثر نظم الحكم دموية وفسادا، ولقد استمر هذا الدافع الأخير حتى انهيار القطبية فى العالم بسقوط الاتحاد السوفيتى، حين أسفر الذئب عن أنيابه، ليكون العراق أول ضحاياه، ولقد كفوا حتى عن اتباع وصية نيكسون بألا يحرجوا أتباعهم ووكلاءهم الذين يحكمون العالم الثالث.

وفى النظام العالمى الجديد بدت الرؤى واضحة، وفى سحق العراق كان الدرس العملى والعبرة: إنها مصالحنا وسنسحق من يهددها، يقول إبراهيم سعدة – وهو واحد ممن روجوا كثيرا للغرب – : "ولم يكتف آل جور بذلك وإنما أصر على أن يخرج لسانه للعرب من المحيط إلي الخليج عندما أكد أن أكبر و أقوى و أغنى قوة فى العالم –أمريكا – ملتزمة بشكل مطلق بالحفاظ على التفوق الإسرائيلى فيما يتعلق بالقوة العسكرية. وياليت الأمر توقف عند هذا الحد، لقد فوجئت بآل جور يكشف الستار لأول مرة عن أسباب ومبررات سعى و إصرار بلاده على فرض عقوبات على دول مثل ليبيا و إيران والعراق، فقال بالحرف الواحد : إن هذا السعى كان من أجل تأمين إسرائيل ، وحماية المصلحة القومية الأمريكية لأن هذه الدول كان يمكن أن تجرؤ على توفير ملاذ آمن للإرهاب ."

هى مصالحهم إذن، ومصالحهم ممتدة بامتداد العالم، وبما يحيط به من فضاء. ولم تكن مصالحهم طوال هذه الفترات والقرون وعبر كل هذه التبريرات سوى حقهم فى أن يسرقوا العالم ويستنزفوا موارده من أجل رفاهية شعوبهم.

نستطيع أن نجيب نصف سؤال إذن، أن الغرب ليس ضدنا لأننا

ضده، بل هو ضدنا لأننا موجودون على سطح البسيطة بجواره، حيث لن يسمح أبدا بأن نكون على قدم المساواة معه، و إلا فكيف يجد التبرير لاستنزافنا. هو ضدنا إذن، ليس بسبب أننا نتحرش به أو نوغر صدره بل لمجرد أننا نكافح كي يكون لنا مكان تحت الشمس، وهو ليس ضدنا فقط، بل ضد العالم، ضد أفريقيا و آسيا وأمريكا اللاتينية، وعندما امتلك القوة المطلقة واستطاع، فقد كانت علاقته بالآخر هى الإبادة والمحو كما حدث مع الهنود الحمر، والقيم الأخلاقية التى فعلت ذلك لن تتورع عن فعله مرة أخرى إذا ما أتيحت لها الفرصة.

بالنسبة للعالم الإسلامى، فلقد ذكرنا السبب الآخر الذى يذكى عداوة الغرب له، وهو سبب ليس اختلاف الدين أساسه، فالغرب عموما ليس متدينا، لكن هذا السبب يكمن فى إدراكهم أن المسلمين هم القوة الحضارية الوحيدة القادرة على التصدى لهم ووقف أطماعهم ، لا بالنسبة لمقاومتهم فى حدود بلادنا فقط بل على مستوى العالم، إنه يدرك أن رسالة الإسلام وحضارته عالمية..

هم إذن يدركون من قيمتنا وخطرنا عليهم ما يعجز حكامنا عن إدراكه .

يدركونه، بنظرة شاملة تمتد عبر الزمن لا يحيدون عنها، إنهم يرون الحكاية من البداية للنهاية، يرونها بوضوح، لذلك تنجح خططهم ضدنا وخداعهم لنا ونفشل نحن، لأننا ننظر إلى الأمور نظرة جزئية مكنتهم عبر حقب طويلة فى التاريخ أن يخدعونا، ولقد ساهم فى ذلك خيبة نخبنا وحكامنا، الذين انبهروا بالغرب، وليت الأمر قد اقتصر على ذلك، بل لقد تعداه حتى اقتنع معظمنا بمجمل آرائهم فينا،و أصبحنا نقرأ تاريخنا على لسان المستشرقين، ورحنا بين كل حين و آخر، ننبهر بهم، ونردد أقوالهم، رغم أن هذه الأقوال ماقيلت فى الأغلب الأعم إلا لتحطيمنا وتضليلنا، ولكى ندرك فداحة ذلك، وبغض النظر عن الصواب والخطأ، فلنتخيل أننا نكون آراءنا فى الملك فاروق عن طريق السماع لآراء وصيفه وقواده " بوللى"، أو أن نحكم على جمال عبد الناصر من خلال كتابات ثروت أباظة، أو أن نقيم الحكم السعودى

من خلال آراء جهيمان العتيبى، أو أن نترك الحكم على إسرائيل لعلى سالم أو أنيس منصور، وعلى الأزهر من كتابات رفعت السعيد !!.

تلك كانت محاولة على الإجابة على نصف سؤال أثبتنا فيها أن الغرب كان سيحاربنا ولو لم نحاربه ، أما النصف الآخر، النصف المبهظ الثقيل، فهو افتراض يبدو لنا بحكم الواقع أننا لا نملك ترفه، لكنه مفروض علينا وقدر مقدور، رغم أن طرحه من خلال ضعفنا الراهن يبدو مثيرا للسخرية، ولكننا أمانة مع الحقيقة والتاريخ نورده، فحتى لو لم يكن الغرب بكل هذه العدوانية والشراسة ولو لم تكن حضارته بكل هذا الإجرام، حتى لو لم يكن كل ذلك، فإننا أبناء حضارة كُلِّفنا بأن ننشر نورها على العالم، ولو لم يأتوا هم إلينا ليغزوا بلادنا وليستعبدوا شعوبنا وليسرقوا ثرواتنا، لو لم يفعلوا ذلك لكان علينا نحن أن نذهب إليهم، لا بالسيف ولا بالقنابل النووية بل بقيم حضارتنا ندعوهم إليها.

وبالإجابة على السؤال بنصفيه، يبدو الصراع قدرا محتوما.

وهم يدركون ذلك تماما لكننا لا ندركه.

فكيف نقنع النخب الحاكمة و المثقفة بكل هذا، كيف ؟! وما السبيل ؟؟ . كيف وليس ماذا يا محمد السيد سعيد..

كيف نقنعهم بأن الغرب الذى هم وكلاؤه يسرقنا إذا كانوا هم أيضا يسرقوننا؟!

وكيف نقنعهم بأن الغرب الذى هم وكلاؤه يستهين بنا إذا كانوا هم أيضا يستهينون بنا؟!

و كيف نقنعهم بأن الغرب الذى هم وكلاؤه يستبيح كل حقوقنا لأنه لا يعتبرنا بشرا نساويه إذا كانوا هم أيضا يستبيحون كل حقوقنا ولا يعتبروننا بشرا نساويهم؟!

لقد أدى هذا العماء بنا إلى مواقف لكبارنا ما كانت تليق بصغارنا، وبحكامنا ما كانت تتوقع إلا من أعدائنا، فلقد صمتنا بأوامر أمريكية عن الترسانة النووية الإسرائيلية، و اندفعنا فى

نفس الوقت نندد ونحذر خلفهم من خطر امتلاك إيران لأسلحة نووية!! رغم أن الهدف المعلن لا الخفى فقط، يقول أن قنابل إسرائيل موجهة لتدميرنا وقنابل إيران موجهة لمن يريد تدميرنا. فإننا حتى لو صدقنا تلك الدعاوى المجرمة التى يغذوها الغرب باستمرار، والتى تزرع الضغينة والبغضاء بين مختلف دول وفرق المسلمين، لا نستطيع أن ننكر عداوة إيران للغرب ولإسرائيل، و أن سلاحها النووى تهديد لهم، ومحاولة لتعديل التوازن أو لتحجيم انفلاته، حتى لو لم تكن إيران مسلمة تشهد مثلما نشهد أن لاإله إلا الله و أن محمدا رسول الله، فإن سلاحها النووى فى صفنا وليس علينا، تماما كما أن سلاح الصين النووى، وتهديده للغرب، يصب فى صالحنا مهما انعدمت قدرتنا على استخدامه.

ياللألم ويا لضيعة الجهد أن نبذل الجهد الجهيد فى إثبات البديهيات، لكننا ندرك أنه ليس هناك أكثر عمىً من أولئك الذين يصرون ألا يبصروا.

ولقد أدى بنا العماء، إلى التغاضى عن مناقشة قضايا مصيرية لا يجوز ولا يحق لنا التجاوز عنها حين دفنا كالنعام رؤوسنا فى الرمال عند ظهور الخطر، مثل ضرورة تحقيق التفوق لا مجرد التوازن النووى مع إسرائيل و إلى الاندفاع فى الوقت نفسه فى مناقشة قضايا ماكان ينبغى أبدا أن تناقش، وعلى سبيل المثال فقد غرقت مصر شهورا إثر شهور فى مناقشة قضية الاحتفال بمرور قرنين من الزمان على حملة التنوير التى أخرجتنا من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ربقة العبودية إلى جنان الحرية ومن أسر التخلف إلى آفاق التقدم، ولولا بقايا من الخجل، لأضافوا: ومن الوثنية إلى الإيمان. والحقيقة أن مصر لم تغرق فى ذلك السفه باختيارها، لكن جزءا من المؤسسات الرسمية دعا إليه و أصر عليه وانبرت الأمة تواجهه، لكنه بالازدراء والتعالى، بقوة الدولة والقرار تصدى للضمير والأفكار ليثبت الحكمة التى تقول: إذا احتل الأحمق مكانا ساميا اعتراه الغرور و أصبح كمن يعتلى قمة جبل شاهق، فبدا كل شيء بنظره صغيرا حقيرا. ولقد تبنوا وجهة

نظر الغرب، متجاهلين أن تلك الحملة قتلت مئات الآلاف من المصريين، ودمرت مئات القرى، وحرقت القاهرة مرتين، واقتحمت الأزهر لأول مرة فى التاريخ، ومُزِّق المصحف و أهين وديس، وربطت الخيل بالأعمدة التى كان يجلس إليها علماء أناروا العالم بإسهاماتهم فى إذكاء مشاعل حضارته. ومتجاهلين أن الحملة الفرنسية هى التى أطفأت و أجهضت إمكانيات التقدم الحقيقى، تماما كما كان استنفاد طاقات الأمة الإسلامية، التى شحذتها لآخرها، لمواجهة خطر الصليبيين والمغول هو النزيف الذى أهدر قوى الأمة و أوقف اندفاعها الحضارى، نفس الشيء حدث مع الحملة الفرنسية، فمن بين مئات الآلاف الذين استشهدوا، كانت فئات النخبة القادرة على التغيير والتقدم، والتى كانت كما يقول لنا التاريخ قادرة قبل الحملة على عزل الباشا الذى يوليه السلطان الأعظم فى لمحة حضارة افتقدناها منذ حملة التنوير، بل لقد وصل الأمر ذات مرة، أن حاصر المتمردون القلعة ومنعوا المياه عنها والوالى بداخلها، فلم يستطع أن يأمر جيشه بمواجهتهم إلا بعد الحصول على موافقة العلماء وإقرارهم أنهم فعلا بغاة يعيثون فى الأرض فسادا و أن قتالهم جائز، ففى ذلك الوقت البعيد، المتخلف الجاهل، لم يكن من حق الأمير ولا مباحث أمن الأمير أن توجه الاتهامات للناس وتحاكمهم وتحكم عليهم وتقتلهم دون حساب، قتلت الحملة الفرنسية، حملة التنوير التى ربطتنا بالحضارة، وقبس الضوء الذى أخرجنا من الحياة إلى النور، ثلاثمائة ألف مصرى، وتصل بعض المراجع بهذا العدد إلى ضعفه، وعندما نذكر، أن تعداد السكان فى ذلك الوقت كان فى حدود المليونين، فإننا ندرك على الفور أن هذا العدد يوازى الآن بالنسبة لتعداد السكان خمسة ملايين قتيل، ولقد كان من أولئك الذين استشهدوا، معظم الذين رفضوا وقاوموا، وكانوا هم القادرون بعد ذلك على إحداث التغيير واللحاق بركب الحضارة.

فى كتابه " المقالات اليابانية " يتحدث محمد حسنين هيكل عما يحدث فى الجزائر، عن سياسة تجفيف المنابع، عن الجذور التى أنبتت الثمار المرة التى نتجرع الآن علقمها فيقول: " ومن ناحية أخرى ركز الجيش السرى الفرنسى على الكوادر الجزائرية المهيأة

حاليا أو مستقبلا لمواصلة الثورة أو لإنشاء دولة متقدمة فى الجزائر، وهكذا فإن عمليات الاغتيال التى قام بها الجيش السرى الفرنسى ركزت بالدرجة الأولى على القيادات السياسية والفكرية و أساتذة الجامعات، وعناصر الخدمة الوطنية والإدارة، والمعلمين والمهندسين والأطباء والصحفيين والكتاب والفنانين بل والرياضيين، وباختصار كل العناصر التى يمكن أن يكون لها دور فى صنع مستقبل جزائرى مقبل. و أضاف الجيش السرى الفرنسى إلى هذا الهدف الرئيسى هدفا آخر جانبيا، وهو معاقبة عائلات أو قرى الرجال البارزين فى صفوف الثورة الجزائرية، وكان ذلك نوعا من أخذ هذه العائلات أو القرى رهائن للضغط على رجالها الذين ذهبوا إلى صفوف الثورة أو تسللوا من وطنهم لمواصلة الثورة فى الخارج، وبالتالى معاقبة هؤلاء الرجال إذا اقتضى الأمر فى أشخاص زوجاتهم و أبنائهم وأقربائهم وحتى جيرانهم".

ويستطرد هيكل : " ...المحزن أن فكرة التجربة القديمة فى اغتيال إمكانيات المستقبل تحولت إلى نموذج يسترجع كل مفرداته ويستعيد نفسه بسرعة عندما وقعت أزمة التسعينيات ...(...) أى أن القتل تركز بالدرجة الأولى على أفضل العناصر المهيأة للمستقبل ...".

كان مثل هذا إذن ما حدث فى حملة التنوير التى يحتفلون بها، وهو ما يحدث الآن فى كافة بقاع و أصقاع العالم العربى والإسلامى وما سياسة تجفيف المنابع إلا عزفا مأساويا على ذات اللحن.

لقد فعلوا بنا ذلك وهم أعداؤنا، والآن يفعله بنا حكامنا، فى دأب و إصرار واستمرار لا يعرف الكلل، لايكاد يستثنى من الحكام حاكما، وما من واحد منهم يؤيده - أو على الأحرى يستحمره - الغرب إلا إذا كان طاغية جبارا فى كل الأحوال وخائنا فى معظم الأحيان، انظروا إلى البطل المناضل ياسر عرفات، وكيف ظل بطلا مناضلا حتى انضوى تحت راياتهم وتبنى مقولاتهم فإذا به حاكم جبار طاغية يسوم شعبه سوء العذاب وينتشر فى حكومته الفساد ويموت العشرات فى سجونه من التعذيب ويجفف المنابع بأسر أو قتل أفضل بنى وطنه، الفئة القادرة فعلا على التغيير.

المرض قديم، والطغيان الذى حاولوا أن يلصقوه بنا كسمة من سماتنا هو صناعتهم التى صدروها لنا فلم نعد بضاعتهم إليهم إنما أخذ حكامنا بمساعدتهم يمارسونها علينا بعد أن صدقوا دعاواهم.

إن الحرب النفسية وغسيل المخ وسائل تضرب بقدمها فى أطناب التاريخ ولكنها ماتزال تمارس بنفس العنف والجبروت، وما لم يذكره محمد حسنين هيكل أو دعاة التنوير، أنه بمصاحبة وفى أعقاب تجفيف المنابع بمحاصرة وقتل وترويع الفئة القادرة على التغيير، فإن الحمقى و السفلة والخونة والقتلة السفاحين هم الذين ينجون من القتل ليشكلوا نخبة المجتمع وصفوة القادة، هم الذين يبقون، لأنهم سلموا شرفهم ومبادئهم . يقول أمل دنقل :

معلق أنا على مشانق الرياح..

وجبهتى بالموت محنية...

لأنى لم أحنها حية...

الذين حنوا جباههم وطأطأوا رءوسهم هم الذين يبقون أحياء يحكمون ويسوسون بلادهم بأفكار زرعها الأعداء فيهم. و أن هؤلاء إذ يحكمون بأيد ملوثة، وبلاضمير لا يتورعون من فعل أى شيء ببلادهم وبمواطنيهم ابتداء باستنزاف الثروات والقتل وانتهاء ببيع الأوطان، إما عن خيانة سافرة و إما عن يقين مطلق باستحالة المقاومة واتباعا لذلك المثل العربى القديم:" دارهم ما دمت فى دارهم، وجارهم ما دمت فى جوارهم، و أرضهم ما دمت فى أرضهم." والكارثة أنهم لا يطبقون المثل كما قيل لأننا فى ديارنا لا ديارهم، وهم بذلك يشبهون ذلك الأحمق المجنون، الذى امتلأ يقينا بأنه تحول من إنسان إلى فأر ينهار رعبا كلما رأى قطا خيفة أن يلتهمه، وذهب به آله إلى الطبيب الذى اجتهد فى معالجته أياما وأسابيع حتى أقر المريض فى النهاية أنه شُفى بحمد الله، و أقام أهله الأفراح ابتهاجا بشفائه، و أثناء الوليمة الكبرى تسلل قط إلى المائدة العامرة فإذا بالمريض يبادر بالهرب فزعا، فيحاولون إدراكه بلا جدوى، وهو يصيح بهم، لقد اقتنعت أننى إنسان وليس فأرا، لكنى أخشى أن تكون القطط غير مقتنعة بذلك!!.

ترى هل من حقى أن أزعم أن معظم النخبة القائدة فى العالم العربى والإسلامى على شاكلة ذلك المجنون الأحمق؟! و أن أفضل من فيهم، الذين لم ينكروا بعد على الحضارة الإسلامية كل ميزة، يعتبرون عدم إنكارهم هذا فضلا كبيرا منهم واتساعا فى أفقهم، إنهم يؤمنون بأننا بشر، رغم الشك فى أن الغرب مقتنع بذلك!!.

ولقد ترتب على ذلك، أننا فى أصعب و أشرس المواجهات عبر التاريخ، نلقى أعداءنا و أعداء حضارتنا و أعداء البشرية والإنسانية بمعانيها المجردة، نلقاهم تحت قيادة أسوأ من فينا وأشدهم خيانة، تحت قيادة طغمة فاسدة دانت بمقولات العدو والمستشرقين فينا، وكان لابد والوضع ذاك أن نهزم من داخلنا قبل أن نهزم من أعدائنا قبل بداية المعركة، وما أصدق الشاعر إذ يقول:

لن تبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه.

ياله من ألم أن تكون الحقائق واضحة كل هذا الوضوح ثم لانراها.

وياله من عار أن الحمقى الذين يحكون، مازالوا على يقين أنهم فئران لو واجهوا الغرب أو عارضوه فإنه سيلتهمهم.

لقد ركنا بالغباء والعماء إلى نظرات جزئية جعلتنا لا نرى الحقائق أبدا لأننا ننظر إلى أنفسنا بعويناتهم.

أغوص فى واقعنا المرير لأقارن عماءنا بنظرتهم الشاملة الكاملة، أقرأ فى الأهرام أن ثمانى دول تورطت فى إرسال أسلحة إلى المسلمين فى البوسنة، منها ست دول إسلامية، ليس بينها دولة عربية واحدة، فأصيح من الألم : ياله من عار.

أقرأ تصريح الرئيس القذافى، أن الشخص الوحيد فى العالم الذى يستطيع الدعوة إلى مؤتمر قمة عربى، فلا ترد له دعوة ولا يعصى له أمر ولا يهمل له طلب هو الرئيس بيل كلينتون. أقرأ ذلك فأود أن أكذبه، أن أرفضه، أن أتملص من مرارته ومهانته، لكننى أعلم أنه -يا جلالة الفخامات ويافخامة الجلالات -صحيح، فأصيح ياله من عار.

أتابع على قنوات التليفزيون ردود الأفعال بعد التفجير النووى الهندى فإذا المذيع يسأل الخبير الاستراتيجى عن العجز المطبق الذى واجهوا به الهند وقد فجرت فعلا قنابل نووية والجبروت المطلق الذى يواجهون به العراق إزاء مجرد احتمال أنه مازال يخفى بعضا من برنامج سحقته جيوشهم، فإذا بالخبير الاستراتيجى يبرر ذلك قائلا أن العراق قد وقع على اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية أما الهند فإنها قد رفضت التوقيع، أسمع ذلك فأقول لنفسى : إذا كان هذا هو جزاء من استسلم لضغوطهم ووقع وتلك مكافأة من لم يوقع، إذن فمن وقعوا على هذه الاتفاقية ليسوا فئرانا فقط بل حميرا أيضا، ثم أواصل قائلا لنفسى: وخبيرنا الاستراتيجى أيضا حمار، ثم أهتف ياله من عار.

وعندما فجرت الباكستان قنبلتها النووية وهاج الغرب وماج لم تستطع صحافتنا مواجهة الفرحة العارمة فى صدور الناس فلم تجهر بالفحش لكن صحيفة الأخبار مثلا نشرت تصريحا لنواز شريف بأن امتلاك بلاده للأسلحة النووية هو حماية للأمن القومى الباكستانى، ووضعت الأخبار بعد التصريح علامات تعجب، وهذه العلامات مستوردة من الغرب، ولصالحه، ومجاملة لأولى الأمر فى بلادنا والذين عجزوا - بنظرية الفئران- عن مواجة الخطر النووى الإسرائيلى، وقلت لنفسى ليت الأخبار تبتكر علامات جديدة من علامات الترقيم فى اللغة العربية فتضيف إلى علامة التعجب وعلامة الاستفهام علامة أخرى تسميها علامة استسلام !!، ثم هتفت : ياله من عار.

أقرأ أنهم لم يجدوا كتابا يدرسونه لطلاب الأزهر عن تاريخ الأزهر سوى كتاب لعبد العظيم رمضان يسفه فيه الأزهر، ولم يجدوا كتابا يدرسونه لطلاب الجامعة الأمريكية عن نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه - وهم حكام المستقبل - سوى كتاب مكسيم رودنسون الذى يصفه به بأبشع و أحط الصفات ، فأصيح ياله من عار.

جامعة الدول العربية ككل الدول الإسلامية تعجز عن رفع رأسها ومواجهة الولايات المتحدة التى تلبس قميص الأمم المتحدة، لكن

الدول الأفريقية، الدول الأفريقية الفقيرة التى لا يوجد بها آبار بترول ولا مناجم ذهب، ولا مليارات من الأرصدة فى الخارج، تنتصر للحق ، وتنذر الأمم المتحدة أنها إن لم ترفع الحصار عن ليبيا خلال أسابيع فسوف تخرق القرار وترفع المقاطعة، بل ويقدم بعض رؤسائهم على خرق الحصار قبل انتهاء المهلة فيطيرون إلى طرابلس أما أمين جامعة الدول العربية فيستأذن استئذان المؤدب المطيع الخاضع فلا يؤذن له فيتجرع الإهانة ليقطع آلاف الكيلومترات - لماذا لا نقول الفراسخ - بسيارته، فياله من عار.

إن خطورة الهزيمة الداخلية عندما تتبنى النخب الحاكمة آراء أعدائنا فينا على مستوى الأمة كخطورة اعتقاد الأحمق المجنون أنه فأر، وذلك لايسفر عن مجرد هزيمتنا الحضارية أو هزائمنا العسكرية فقط، بل إنها الهزيمة الكاملة الشاملة حيث ينهزم كل فرد منا داخل نفسه، ومع الهزيمة تسقط الأخلاق والمثل والقيم العليا ويسقط المستقبل كله، إذ يتحول الحاكم إلى ذئب والقائد إلى خائن ورجل الاقتصاد إلى نصاب ورجل الشرطة إلى قاطع طريق، أما القاضى . . . القاضى فإنه يتحول إلى لص.

فى العدد٣٥٤٤ من مجلة روز اليوسف حيث كان مانشيت الغلاف الصارخ :٣٢ مليون جنيه فى صفقة واحدة : ثروة المدعى الاشتراكى أمام النائب العام . وجاء فى صدر المقال : لم يعد الموقف يحتمل الصمت بشأن التجاوزات الكثيرة المنسوبة للمستشار جمال شومان، المدعى الاشتراكى السابق . (. . .) آخر تلك التصرفات المعروضة للتحقيق فيها ما ورد فى شكوى طارق أبو حسين صاحب شركة الهدى مصر، ويقول : "إن اتحاد العمالقة بين المدعى الاشتراكى السابق ونواب القروض بمجلس الشعب أضاعوا ٣٢ مليون جنيه من أموال الهدى مصر، وسمسار الصفقة وزير سابق وعضو حالى بمجلس الشعب، ولمجرد أننى اعترضت على هذه الصفقة احتجزونى داخل جميع أقسام الشرطة بمحافظات الجيزة والقاهرة والإسكندرية لمدة خمسين يوما وتم تعذيبى بطرق شتى من الضرب بالكرباج حتى الـ"... "

ويستطرد الموضوع بعد ذلك ليذكر كيف أهدر المستشار الكبير

مئات الملايين بصورة لا يكاد يتخيلها عقل.

أغلق المجلة صائحا : ياله من عار . .

المفكر الاقتصادى والسياسى المعارض عادل حسين يضرب الأمثال كثيرا كى يوضح أبعاد الكارثة التى نعيشها، وقد لجأ مرة إلى تشبيه نظم الحكم المستبدة بالأب السفيه الذى يبدد ممتلكات أسرته، ويعرض شرف بناته للبيع في سبيل ملذاته وترفه، كان عادل حسين يدلل على سفاهة مثل هذا الأب وخطئه، كأنه كان يريد إقناعه بالرجوع عن هذا الخطأ، لكن، هل الأب أب فعلا أم صنم يريد أن يعبد ويقدس، لا يرى فينا سوى نفايات، أم أنه زوج أم، أم أن عقد الزواج مزور والنكاح باطل، وهل يمكن فى ظل هذه الافتراضات أن يكون المثل أقرب للواقع والتشبيه أدق ؟! . أتذكر صرختة أن قيمة القطاع العام الحقيقية أكثر من خمسين ضعف ما يعرض به، فأتساءل هل المستشار جمال شومان فرد أم نموذج، وأهتف : ياله من عار .

أستنقذ من براثن النسيان حوارا مع مستشارين جليلين منذ أعوام، وكنت أبثهما رعبى من تسلل الفساد إلى جهات ما ينبغى لها أن تفسد، لأنها صمام أمان الأمة، ومن ضرورة تصدى الكتلة الأساسية الجليلة الشامخة من القضاة لتحارب طاعون الفساد الذى يتفشى فى الأمة، لأنه والوضع ذاك سينتقل المرض إليهم، وكان ردهما أنهما يريان العكس تماما، و أنهما يدركان حجم الفساد، لكن على القضاة أن يتجنبوا الدخول إلى هذه المعمعة، فذات يوم سيستدير الزمان، وينهزم الفساد والطغيان، و أنه حين يحدث ذلك، من الخير للأمة أن تجد قضاءها سليما حيث اعتزل.

أصيح بهما - فى خيالى - هل استدار الزمان؟ هل انتهى الفساد؟ هل سلم القضاء؟ وما هو الضمان ألا يكون أى منصب جليل فى وزارة العدل وفى القضاء والنيابة قد شغل بمن تثور حوله من الشبهات مثلما يثور حول المستشار جمال شومان.

لم يحقق أحد فى كل ذلك، وما حقق أحد مع ابراهيم نافع حين وزعت الأهرام ذلك الكتاب السفيه لعلاء حامد حين حكموا على

موزع آخر لنفس الكتاب بالسجن سنوات ثمان، وما حقق أحد مع ابراهيم سعده حين هاجم قرينة رئيسه وولى نعمته بأبشع ما يمكن أن تهاجم به امرأة، أى امرأة ولو كانت زوجة رئيس .

لم يحقق أحد مع المسئول فى النيابة العامة، ولا مع سيادة النائب العام شخصيا باعتبار مسئوليه الافتراضية عن تصرفات وكلائه فى واقعة من أغرب وقائع النيابة فى التاريخ فضحتها مجلة المصور(الحكومية) فى العدد٣٨٤٣، ففى غمار الحملة المكارثية المسعورة لمطاردة الصحفيين حولت النيابة العامة أربعة عشر صحفيا إلى المحاكمة بتهمة سب وقذف الفنانة يسرا، فى القضية الشهيرة التى حوكم فيها(ولم يُفصل من عمله) ضابط شرطة اقتحم منزل الفنانة الشهيرة فى ملابسات داعرة لا تشين الفنانة بل تشين الضابط والجهاز الذى لم يفصله، ولقد حاول زملاء الضابط وأسرته ذات الاتصالات والحظوة حمايته بتغيير الأقوال وادعاءات عن وجود علاقات آثمة بينه وبين الفنانة، التى رفعت عليهم قضية سب وقذف، لكن النيابة ضمت إلى التحقيق كل الصحفيين الذين نشروا عن الواقعة، والكارثة أنه - كما يصرح المستشار محمد القشيرى رئيس محكمة جنايات أمن الدولة العليا - فإن النيابة قد حولت الصحفيين إلى المحاكمة على غير سند من القانون، فالقانون لا يجيز للنيابة فى قضايا القذف أن ترفع الدعوى دون بلاغ من المجنى عليه، ولقد صرحت الفنانة يسرا ومحاميها أنها لم ترفع للنيابة بلاغا ضد الصحفيين، لقد رفعت البلاغ ضد الضابط وآله فقط. و لأن شر البلية لم يعد يضحك فليس من حق الفنانة أن تتنازل عن دعوى لم ترفعها، كما أنه ليس من حق الأفراد التنازل عن دعوى رفعتها النيابة، ثم أنه لو كسر عنق القانون، وفضلت الفنانة يسرا التنازل - دون سند - عن القضية التى رفعتها النيابة - دون سند - على الصحفيين، لو فعلت الفنانة ذلك حرصا على علاقات المودة مع الصحافة وهى العلاقة التى لا غنى للفنان عنها، فإن هذا التنازل يسرى أيضا على الضابط المتهم بحكم القانون!!.

إن مجلة المصور الحكومية تنهى الموضوع قائلة: " وحاولنا أن

نحصل على رد من النيابة العامة لكن الإجابة كانت : عدم الكلام فى هذا الموضوع".

ولقد نشرت المجلة فى أسابيع تالية إصرار النائب العام على أن دفاع الفنانة يسرا قد ضم الصحفيين إلى الشكوى، فرد محاميها يؤكد نفيه مرة أخرى، ويصرح أنه سيضطر إزاء موقف النيابة غير المفهوم إلى أن يسجل فى المحكمة أنه لم يشك الصحفيين، ولا هو طلب ضمهم إلى الدعوى............

إن القارىء لا بد يفهم أننا فى الحديث عن النيابة والقضاء بالذات لا نقول كل ما يجب أن يقال.

قبل ذلك بأسابيع، نشرت مجلة شبه حكومية أن رئيس الوزراء شخصيا قد اضطر لتعنيف ضباط الآداب الذين لفقوا قضية دعارة فى فضيحة كبرى لفنانات كبيرات، وقد تم تدبيج تلك القضية لمجرد تشتيت الانتباه عن حملة صحفية كبرى ضد فساد وزارة الداخلية وعلى رأسها وزيرها السابق. وحدث أن الوزير أقيل، فانفجرت فضيحة تلفيق القضية، أما مجدى حسين - رئس تحرير الشعب - الذى تصدى لقضية فساد الوزير، فى حملة صحفية وصفتها المراجع الصحفية بأنها من أخطر حملات الفساد ضد الفساد فى تاريخ الصحافة، فإن النيابة لم تأخذ بدفاعاته، ولم تحقق بلاغاته، ولا قبضت على من اعتدوا عليه بالضرب المبرح على مقربة من وزارة الداخلية، بل حولته إلى المحكمة التى سجنته (علامة استسلام!!).

لم يحقق أحد مع اللصوص والخونة، فقط يطارد الشرفاء ويعذبون ويشوهون ويسجنون.

لطالما جهدوا فى الكذب علي الذين يعارضون استسلامهم واستحمارهم محاولين تشويههم والنيل منهم، لكننى أتذكر قول الشعبى لولده: ". . . أنظر إلى على و أولاده، وما يقوله فيه خطباء بنى أمية من ذمه وعيبه وغيبته، والله لكأنما يأخذون بناصيته إلى السماء . ألا تراهم كيف يندبون موتاهم ويرثيهم شعراؤهم، والله لكأنما يندبون جيف الحمير.

هل قلت فى هذا المقال أن لا أحد يستطيع عقد مؤتمر للقمة سوى بيل كلينتون .

هل أنا مخطىء؟ . . . ربما . . .

فمظفر النواب يرى أن مؤتمر القمة يمكن أن ينعقد لحضور محاكمة بطل من أبطال الأمة الحقيقيين الذين يدافعون عن هويتها:

يحضر مؤتمر القمة للتحقيق . .

وتنزع أكفانك . . تُنبش . .

ما اسمك . . . ؟

لم تنبس

ما اسمك . . . ها . .

لم تنبس

عمرك . . ؟

لم تنبس

وتبسمت

فليس هنالك عمر للشهداء

من أى بلاد أنت . . ؟

تشير إلى الصرة . .

تلك بلادى . .

لنشهد أنك منها . .

لنشهد أنك منها . .

نحن الشعب . .

ونشهد أنك منها وتغذيت من البارود . .

نقسم أن نسترجع كل فلسطين أو التدمير . .
السهم يشير إلى الآبار . .
السهم يشير إلى الدول الكبرى . .
السهم يشير إلى مكة . .
السهم يشير إلى . .
إذ ذاك يغص التحقيق . .
ويسقط ريش الحكام جميعا . .
ويُصوّتُ أن تدفن فورا . .
تدفن فورا . .
وتقوم وتدفن ثانية . .
وتقوم وفى يدك الصرة ثالثة . .
تدفن رابعة تذهب ألفا . .
تدفن ألفا . .
تذهب آخرة وفراقا . .
وتحاسب هذى الدنيا . .
حتى تشهد أنك منها . .

* * *

دقوا كفى بمسمارين من الصدأ البارد . .
فارتج صليبى . .
وانهاروا من ألمى . .
سألوا قدمى الغفران . .
وساح الماكياج على أوجههم والشرف . .

أينك يا مولاى . . .

سكوتك أوجع من صلبى . .

* * *

يافخامة الجلالات ويا جلالة الفخامات . .

يا شيخ الحرم ويا شيخ الأزهر . .

أينكمو . .

سكوتكم أوجع من سجننا وقتلنا . .

جلالة الملك..فخامة الرئيس .."٤"

تســــــــاؤلات

{١}

النقاد مجوس هذه الأمة !!

وكما فعل ميكل أنجلو فى لوحته الشهيرة : القيامة، عندما قسم الجحيم إلى درجات ووضع بعض فئات المجتمع ممن يدينهم فى قاعها، فإننا لا على سبيل الدعابة المرة فقط، نستطيع أن نستعير الفكرة منه، لنضع المثقفين عموما، وبعض الشيوخ، والنقاد على وجه الخصوص فى قاع جهنم فلقد شاركوا الجلادين فى انتهاك شرف الأمة، وتوقفوا عن أن يكونوا قضاة الضمير وموازين العدل، ليسيروا فى ذيل الركب مبررين مصفقين، والنماذج النادرة التى ارتفع صوتها بالاعتراض، أسدل عليها النقاد ستائر ظلام كثيفة، بعد أن قصروا جهودهم على تدليك السلاطين، وخدم السلاطين، أما الفاضلون والأخيار منهم، الذين لم تطاوعهم ضمائرهم على الدنس، فقد اكتفوا بأن يقصروا جهودهم فى تثقيف المجتمع وتنويره، على نماذج من الأدب لا تعارض نظم الحكم، ولا تخدش مشاعر المتربعين على العروش .

من الشعراء الذين تجاهلهم النقاد الشاعر أحمد

مطر، الذى ننتقى له هذه المقتطفات من ديوان : العشاء الأخير لصاحب الجلالة إبليس الأول .

على أننا قبل أن ندخل فى عالم الشاعر المنفى عن عالمه العربى، والمنفية كتاباته، حيث يمنعها الحكام ويدفنها النقاد المجوس خلف دخان نار غير مقدسة، لابد أن نعترف -والحق ما شهدنا به كمعارضين - بنوع من الفضل لمصر، أنها، و إن شارك مجوسها فى التعتيم، فإنها من بلاد قليلة فى العالم العربى تسمح أصلا بنشر أعماله فيها.

يقول أحمد مطر :

أنا ضد أمريكا إلى أن تنقضى هذى الحياة ويوضع الميزان .

هى جذر دوح الموبقات، وكل مافى الأرض من شر هو الأغصان .

مَنْ غيرها زرع الطغاة بأرضنا؟ وبمن سواها أثمر الطغيان .

حبكت فصول المسرحية حبكة، يعيا بها المتمرس الفنان. .

هذا يكرّ، وذا يفرّ،وذا بهذا يستجير، ويبدأ الغليان. .

حتى إذا انقشع الدخان، مضى لنا، جرحٌ، وحل محله سرطان. .

و إذا ذئاب الغرب راعية لنا، و إذا جميع رعاتنا خرفان . .

* * *

هى فتنة عصفت بكيدك كله،فانفذ بجلدك أيها الشيطان. .

ماذا لديك؟غوايةٌ؟ صُنْها، فقد أغوى الغواية نفسها السلطان .

قرنان؟، ويلك، عندنا عشرونَ شيطانا، وفوق قرونهم تيجانٌ .

يا أيها الشيطان إنك لم تزل، غرًا وليس لمثلك الميدان . .

أنْبِيكَ أنا أمّـةُ أمَـةٌ، تباع وتشترى ونصيبها الحرمان . .

أنْبِيكَ أنا أمة أسيادها خدم وخير فحولهم خصيان . .

أسْدٌ ولكن يُحْدثون بثوبهم، لو حركت أذنابها الفئران . .
متعففون، وصبحهم سطو على قوت العباد، وليلهم غلمان . .
متدينون ودينهم بدنانهم، ومسهدون، وسكرهم سكران . .
عرب، ولكن لو نزعت قشورهم،لوجدت أن اللب أمريكان . .

* * *

تُخصى لنا الأسماع منذ مجيئنا، شرعا، ويُعمل للشفاة ختِان
ونسير مقلوبين حتى لاترى،مقلوبة بعيوننا البلدان . .
والدرب متضح لنا فوراءنا متعقب، وأمامناسجان. .
لوقيل للحيوان : كن بشرا هنا، لبكى، و أعلن رفضه الحيوان

* * *

كم باسمنا نشب النزاع، ولم يكن رأى لنا بنشوبه أوشان . .
صحنا فلم يشفق علينا عقرب، نحنا ولم يرفق بنا ثعبان . .
ومن المجير وقد جرت أقدارنا، فى أن يجور الأهل والجيران .
قلنا، ومطرقة العذاب تدقنا، سيجىء دورك أيها السندان . .
حتى إذا ما سكرة راحت، وجاءت فكرة، وتثاءب النعسان . .
لكننا فى الحالتين سفينة غرقت، فقام يلومها الربان . .
أمن العدالة أن نُشكّ ونُشتكى، أو أن نباع وجلدنا الأثمان . .
فى لحظة. . لعنت مصانعها الدمى، وتبرأت من نفسها الأدران.
وانساب سيرك المعجزات فهاهنا، قدم فم، وفصاحة هذيان . .
يلقى بها الإعلام فوق رؤوسنا صحفا يقىء لعهرها الغثيان . .
فزبالة واستبدلت بزبالة أخرى، ولم تستبدل الجرذان . .
وهنا مليك مغرم بتراثه، يحسو الخمور وكأسه فنجان. .!

وهناك ثوريٌ يؤسس دولة، فى كرشه، فتصفق الثيران . .
وهنا مليك، ليس يملك نفسه، فمه صدىً، وضميره دكان . .
ومفكر متخصص بعلوم فرك الخصيتين، ففكره سيلان . .
وشواعر، كى لا أسمى واحدا، يتسترون، وسترهم عريان . . !
يَزِنُون بالقَبّان أبياتا لهم، فيميل من أوزاره القبان . .
فى كفةٍ تسبيلةٌ ودراهمٌ، وبكفةٍ تفعيلةٌ وبيان . .
متفاعلن متفاعلن علانة، متفاعلن متفاعلن علان . .
وتقرقع الأوزان دون مبادىء، لمبادىء ليست لها أوزان . .
فالحاكم المُغتال طفل وادع، والمودَعون بسجنه غيلان . . !
وابن الشوارع فارس فى ساعة، وبساعة هو غادر وجبان. . !
هل ينثنى الجزار عن جرم؟ وهل ترتد عن أخلاقها الفرسان.؟!
كلا، ولكن « الأنا » ورم، و إن زادت فكل زيادة نقصان . .
يبدو التناقض عندها متناسقا، و اللون فى صفحاتها ألوان .
هو فارس مادام يفترس الورى، فإذا قرصتَ فإنه قرصان . .
يا آية الله الجديد، ومن لقى آياته الحشرات والديدان . .
آمنت أنك آية، فبحدك اتحد الهوى وتفرق الفرقان. .
وكأن خارطة الجهاد أعدها « ميخا » و أكد رسمها « المعدان

* * *

لا. بل قضى شرع الأهلة أن تخوض جهادها وسيوفها الصلبان.
كرم الضيافة دائما يقضى بأن تطوى الجفون، وتفتح السيقان.
معنى الجهاد بعصرنا إجهادنا، أو عصرنا، وثوابنا خسران .
عثمان يُقتل كل يوم باسمنا، وتُخاط من أطمارنا القمصان . .

***

ماذا على شجر إذا طرد الخريف هزارَها لتغرد الغربان . .

فى الكُحل لا تجد الأذى إلا إذا عملت على تكحيلك العميان .

* * *

علِمت أن الدارعين تدرعوا، بطنينهم، وسلاحهم أطنان. . !

وبدوا فهودا عند منسكب الندى، و إذا بهم، عند الردى، حملان..

صمتوا لديك لتلفظى النفس الأخير،وبعدها عزفت لك الألحان.

ولطالما وعدوا بنصرك فى الوغى،وعدوا و أبلغُ نصرهِم خذلان.

لم يُمتشق سيفٌ، ولم تُسرج لهم خيلٌ، ولم تُقطع لهم أرسان .

فجميعهم قد كذّبوا،، وجميعهم قد مثّلوا، وجميعهم قد خانوا .

* * *

قالت لى المأساة أن وليّها، ظلم الولاة و أمها الإذعان ..

قالت:ويحمل جثتى الطاوى،ويهرب من حفيف ثيابى الشبعان

قالت : ويقدح نارى الجبناء، لكن يكتوى بحريقى الشجعان !

و أقول : كل بلادنا محتلة، لا فرق إن رحل العدا أو رانوا .

ماذا نفيد إن استقلت أرضنا، واحتُلّت الأرواح والأبدان. . ؟!

ستعود أوطانى إلى أوطانها،إن عاد إنسانا بها الإنسان . .

* * *

ترى ماذا يقول القارىء الذى لم يسمع عن أحمد مطر قبل ذلك ولم يقرأ عنه؟، وما رأيه فى النقاد الذين تجاهلوه؟، تراه يرى ما رأيت : أنه إذا كان الطواغيت أصنام مقدسة لنفايات مكدسة، فالنقاد مجوس هذه

الأمة . . !!

{ب}

جلالة الملك . . فخامة الرئيس:

يخيل إلى - يا جلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات - أن الله وحده هو القادر على غفران خطاياكم، ليس لأنها قابلة للغفران، بل لأن مغفرته وسعت كل شيء، أما نحن، الأمة المقهورة المغلوبة المنكوبة، وكذا التاريخ، فلن نغفر قط.

لن نغفر، ولن يغفر التاريخ ما فعلتموه بالأمة،وبالدولة، وبالإنسان.

لن نغفر ماوصلت الأمة إليه - بفضل حكمكم وعجزكم عن مواجهة التحديات - من هزيمة فادحة وانهيار يوشك أن يكون شاملا.

ولن نغفر لكم وجيف قلب الأمة وهو يردد وجيف قلوبكم هلعا وفزعا من فوز نتن ياهو بدلا من صديقكم الفاح بيريز.

لقد انذبح القلب منذ نيف وعشرين عاما والفلسطينيون محاصرون يصرخون ملء الحناجر والصدور : (يا وَحْدَنَا)، الآن نصرخها نحن، مامن بلد إلا وهو وحده، وما من فئة أو هيئة أو نقابة أو حزب أو مؤسسة داخل أى بلد وما من رعية من رعاياكم ياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات إلا وهو يصرخ ملء حنجرته وصدره : (ياوَحْدِى) . فلعلكم لاتنكرون إذن فداحة الهزيمة واكتمال الانهيار . .

برروا كما شئتم، لكن أتوسل إليكم ألا تنكروا . .

ليكن من شاء منكم عنترة، وليرِ منكم من يشاء أنه نبى، و أن البرية لم تر مثله، وأنه لولاه لكانت الهزيمة أشمل والانهيار أكمل،

و أن حكمتـه هى التى أوقـفت الانهـيار أو أبطأت تسارعـه، و أن العيب فى الآخرين، فى النفايات المكدسة لا فى الأصنام المقدسة، أو فى العالم، وما يجرى فيه من تغيرات أخلفت الوعد وخيبت الأمل..

بررروا كما شئتم ولكن لا تنكروا . .

امكروا كما شئتم لكن أفلحوا مرة . .

لقد حسبتم أنكم تمكرون، نسيتم مكر الله بكم وهو خير الماكرين، فما راهنتم على شىء إلا بطشت بكم يد الواحد القهار الجبار الأحد، فخاب رهانكم، لننتقل من خيبة إلى خيبة، وقد انعدم الحدس والتوفيق بعد أن غاب العقل والمنطق والتحليل .

شر البلايا مايضحك، ولست أخفى انفجارى ضاحكا عندما تبين فوز نتن ياهو على بيريز، وتداعى على ذاكرتى كيف تكأكأت نخبنا وكيف هرولوا وكم راهنوا على بيريز بصورة فجة، غير ناضجة، وغير حصيفة أيضا، صورة لا تليق بجلال المناصب، صورة لا تليق بإمام عادل أو حتى غير عادل و إنما هى جديرة بالكاد بعادل إمام، أو بنجيب الريحانى، الذى تراءى لعينى وسط تدفقات ضحكتى البائسة، وهو يقف أمام تابوت رابين يذرف الدموع، فتثير دموعه الرثاء والضحك، وتخيلته يلعب دور جلالة ملك أو فخامة رئيس، فينسى جلال منصبه، ويركع أمام بيريز الذى أخلف الوعد و الأمانى، لكن نتن ياهو هو الذى يفوز، وهو(نتنٌ) فعلا على رأى الساخر الكبير محمود السعدنى، وراح الخَيالَ يتجسد أمام ناظرى، ورحت أرقب ملامح الذهول والخيبة على وجه نجيب الريحانى أوعادل إمام بعد فوز نتن ياهو، فيزداد ضحكى الحزين، ذلك الأشد من البكاء مرارة .

من حقنا إذن، أو على الأحرى من واجبنا يا جلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات، والأمور كذلك، أن نفتح أبواب التساؤلات على مصاريعها لكى نفهم لِمَ قدتم الأمة إلى مصارعها، من حقنا أن نتساءل مهما كان التساؤل فظا، أو فجا، أو يندرج تحت قانون العقوبات، ومهما كانت المخاطر التى تحيط به وتكتنفه.

علينا أن نتساءل : لماذا كان فشلنا بكل هذا الشمول، لماذا لم

تصح لنا فكرة، ولم يصدق توقع، ولم تتحقق نبوءة، ولم يوف بوعد، ولم تكتمل خطة، ولم ينضج عقل، ولم تتحقق حكمة، وما تم حتى الاستفادة من خطأ.

لماذا كانت الهزيمة بكل هذه الضخامة؟.

ألأنها هزيمة تروى جذورها ألف سنة أو يزيد من عبث السلاطين وعجز الأمة عن ردهم عن غيهم؟

علينا ألا نترك احتمالا دون أن نناقشه . . .

* هل الأمة المتخلفة تفرز حكاما متخلفين، أم أن الحكام المتخلفون هم الذين يعوقون نمو أمتهم؟

* هل نظم الحكم هى السبب ؟.

* هل هو التخلف التكنولوجي للأمة ؟.

* هل هو افتقادنا لوسائل إقناع العالم الغربى بعدالة قضايانا؟.

* هل هى مزايدات رعناء، تؤدى باستمرار إلى إجهاض قوانا قبل اكتمال نموها ؟

* هل الأمة هى المسئولة؟

* هل الأحزاب هى المسئولة؟

* هل مجالس الأمة والشعب والشورى هى المسئولة؟

* هل الصحافة هى المسئولة ؟.

* هل النخبة المثقفة هى المسئولة؟.

* هل المعارضة هى المسئولة ؟.

* هل قواتنا المسلحة وجيوشنا هى المسئولة ؟.

* هل الانفتاح هو المسئول ؟.

* هل الانغلاق هو المسئول ؟.

* هل يوجد عيب عنصرى فى جنسنا هو المسئول ؟

* هل المسلمون أمة ؟

* هل العرب أمة ؟

* هل العرب جرب ؟

* هل مصر عربية ؟

* هل السودان عربية ؟

* هل خانت مصر العرب عندما خرجت من معادلة الصراع ؟

* أم أن العرب هم الذين خانوا مصر فدفعوها إلى الاستسلام ؟

* هل خانت الكويت قضية الإسلام ؟ أم خانها صدام ؟ أم أن الكل خان؟

* هل القضية قضية خيانات أم قضية خيبات وحماقات ؟

* هل هي صدفة أن الدولة الوحيدة في العالم التي تختزل كل ما فيها من مقدسات وأمم وتاريخ إلى اسم شخص تتسمى به هي دولة عربية إسلامية ؟

* ثم ما هو دور نواتنا الصلبة التي كان مأمولا أن تظل دائما ميناءنا الأخير حين تلم بنا الأنواء والعواصف الهوجاء و الأعاصير، ما هو دور المملكة العربية السعودية في تحقيق أمن العرب والمسلمين ؟ هل كانت سلبا أم إيجابا؟ هل كانت عونا أم هونا؟ هل كانت سيفا في أيدينا أم في ظهورنا؟

* ما هو دور المغرب العربي وما هو دور المشرق؟

* وما هو دور الدول الإسلامية غير العربية ؟

* هل الإسلام كما هو مطبق في أي بلد من بلاد المسلمين ؟ والسؤال قاطع جامع مانع بلا استثناء .

* وهل الإسلام كما هو مطبق دين يستحق معتنقوه الانتصار؟

* أم ثمة قصور جوهري في ديننا هو الذي يجرعنا الهزائم تلو الهزائم؟.

* هل إلهنا هو إله الصهاينه ؟

* وهل أمريكا هى الله ؟

* وما معنى الإيمان والكفر ؟

* هل يصح إيماننا إذا آمنا بالله كرب للآخرة وبجلالة الفخامات وفخامة الجلالات كأرباب للدنيا؟!

* هل يمكن التعايش فعلا بيننا وبين الصهاينة أم أن كلا منا نفى للآخر.

* هل يمكن أن ننسى أن الأرض أرضنا و أنها مغتصبه؟، و أن التاريخ تاريخنا و أنه يُزوّر؟

تلك مروج من القتاد ياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات لابد أن نسير عليها كى نوقف الانهيار، لابد أن نسير عليها بأقدام عارية ليخز الشوك لا أقدامنا بل قلوبنا وأرواحنا، وليس يجوز لكم ياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات أن تمتطوا طائراتكم الهليوكبتر أو قصوركم الطائرة كى تتجاوزوها.

كان يمكننى ويمكن للأمة ياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات أن أوافق على سلامكم مع إسرائيل وعلى تعاونكم معها، وكان يمكننى أن أذرف الدموع معكم أمام توابيتهم، وكان يمكن أن أنبهر معكم بتقدمهم و أشيد بعبقريتهم، كان يمكننى أن أفعل كل هذا و أكثر منه، لو أن إسرائيل لم تقم على أرض فلسطين، فالملايين من الشهداء يواجهوننى صارخين : هل متنا غلطً .

إلا أننى أستدرك، لأقرر أنها لو قامت فى أى بقعة من بقاع الأرض بعيدا عن بلادنا، وفعلت بأهليها - الأجانب - ما فعلته وما تفعله بنا لاتخذت منها نفس الموقف الذى أتخذه الآن مدركا أن خطرهم كما حذرنا القرآن والحديث وكما يحذرنا العقل والمنطق خطر يصيب العالم .

وبعد حدائق الشوك تلك ياجلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات توجد حدائق شوك أخرى، لاتنزعجوا، ليس لأنه لا يوجد ما يزعج، بل لأنه لامفر منه ولا مهرب، فبعدد هزائمنا وهزائمكم توجد

حدائق شوك، تشملها حدائق الشيطان الذى يوشك أن يعبد من دون الله.

فلنواجه إذن الأسئلة الأخرى:

* هل أنتم الذين هُزمتم، أم نحن، أم أنتم ونحن؟!

* هل هزمت الأمة أم طبقة وقواد.

* هل هزمت شعوب أم نظريات وخطوط سياسية؟.

* هل هزم العرب أم انتصر عرب وهزم عرب آخرون ؟.

* هل هزمت سلبيات العرب أم إيجابياتهم؟

* هل ينبغى بعد الهزيمة أن نتخلص من سلبياتنا كى نثأر وننتصر ؟ أم ينبغى أن نكفر بكل إيجابياتنا ؟

*هل خسرنا معركة أم خسرنا حربا؟.

* هل خسرنا الحاضر أم ضيعنا الحاضر والمستقبل؟.

* هل الإسلام آخرة فقط؟أم آخرة ودنيا، وهل هو دين فقط أم دين ودولة؟

* هل خسرنا الدنيا أم الآخرة والدنيا؟

* هل أنتم الحكماء ونحن الجهلة ؟، أم أنتم الشرفاء ونحن السفلة؟

* هل الإرهابيون إرهابيون حقا؟

* وهل المعارضون خونة وثلتكم الأوفياء؟

* هل وسائل إعلامكم يا جلالة الفخامات ويافخامة الجلالات صادقة ؟

يقول على عزت بيجوفيتش : "إن وسائل الإعلام الجماهيرية للثقافة عندما تحتكرها الحكومة تستخدمها وسائل لتضليل الجماهير كأسوأ مايكون التضليل . فلم يعد هناك حاجة للقوة الغاشمة لحمل الشعب على عمل شىء ضد إرادته. حيث يمكن

الوصول إلى ذلك اليوم بطريقة مشروعة، وذلك بشل إرادة الشعب عن طريق تغذيته بحقائق مغلوطة جاهزة ومكررة، ومنع الناس من التفكير أو الوصول بأنفسهم إلى أحكامهم الخاصة عن الناس والأحداث ." فهل تحقق توقعك ياعلى عزت؟ وهل اكتفوا بالتضليل أم استلزم الأمر ترسانات قوانين وغياهب سجون واختراق قضاء؟

* هل القانون يطبق ؟ أى قانون حتى لو كان قانون حامورابى؟.

* هل تتقدم الصناعة والزراعة وهل يزدهر الإنتاج ؟ هل تتقدم الأطر والبنى التى تنظم توافق المجتمع ؟

* هل الجيش يقوى، هل نستطيع الآن - حتى بلا كرامة - أن نواجه نتن ياهو، وشارون وباراك . و أين ذهبت مئات المليارات وآلافها . .

* هل الحكام رعاة الدين؟ أم ذئابه؟ هل يشجعون على التدين؟

* هل الإسلام استسلام لله أم للعدو؟

* ولماذا عجزت الأمة عن الثورة إزاء كل هذا ؟ هل لأن المجتمع العاجز عن التدين هو مجتمع عاجز أيضا عن الثورة؟ .

* لماذا عجزنا عن الوحدة ؟

* هل نصدق بكتاب الله عندما أمرنا وحذرنا ونبهنا و أرشدنا أن نقاتل أعداءنا كافة كما يقاتلوننا كافة؟

* هل الله هو الذى رسم الحدود بين بلاد الإسلام، أم النبى أم الأئمة، أم ضابط بريطانى؟

* و إن كانت الأخيرة فلماذا كل هذه القداسة إذن؟ ولم أهريقت وتهراق كل هذه الدماء على الحدود؟.

* لماذا خربتم مصر وإيران والعراق والجزائر والسودان وليبيا..و.و .

* لماذا نفشل فى كل شيء، فلا ينمو فى بلادنا شيء إلا الكروش

وقوات القمع والقهر؟

* هل نجحنا في التحديث أم فشلنا ؟ ولماذا فشلت محاولاتنا ؟ و لماذا أخفقت عملية التأقلم والتكيف الجماعي مع الحضارة الحديثة؟ لماذا عجزنا عن التقدم إلى الأمام وعجزنا في ذات الوقت عن التمسك بمواقعنا ؟ كالصين مثلا، لم يكن همُّ التحديث نزوة، بل ضرورة وجود، لكن حدوثه استلزم استحداث تغييرات في هيكل النظام القديم متضمنا الأمة ونظم حكمها ؟ فمن الذي وضع العقبات الكئود أمام التغيير إذن؟ الأمة أم حكامها ؟هل بسبب الحكام وبممارساتهم تحولت محاولات التحديث، فبدلا من أن تدفع الأمة إلى التطور والنمو والقوة طفقت تحطم قواها وتجبرها على التراجع والتقهقر والتبعية المستمرة ثم التمزق وربما التشتت والزوال.

* هل الطريق الوحيد المطروح أمامنا هو طريق اللحاق بالحضارة الغربية ؟.

* هل الحضارة الغربية هي الحضارة الأسمى ؟

يرى على عزت بيجوفيتش أن هناك خلطا غريبا بين فكرة الثقافة وفكرة الحضارة، فالثقافة تبدأ "بالتمهيد السماوي"بما اشتمل عليه من فن ودين و أخلاق وفلسفة، حيث تظل الثقافة تعنى بعلاقة الإنسان بالسماء التي هبط منها، فكل شيء في إطار تلك الثقافة إما تأكيد أو رفض أو شك أو تأمل في ذكريات ذلك الأصل السماوي للإنسان، تتميز الثقافة بذلك اللغز، وتستمر هكذا خلال الزمن في نضال مستمر لحل هذا اللغز، أما الحضارة فهي استمرار للحياة الحيوانية ذات البعد الواحد، التبادل المادي بين الإنسان والطبيعة، وهذا الجانب يختلف عن الحيوان فقط في الدرجة والمستوى والتنظيم، وليس الإنسان فيه إلا عضوا غفلا وظيفته أن يتعامل مع سلع الطبيعة ويغير العالم وفقا لاحتياجاته، الثقافة هي الخلق المستمر للذات أما الحضارة فهي التغيير المستمر للعالم، الثقافة هي صعود الجبل المقدس الذي تظل قمته بعيدة المنال سيرا في الظلام بواسطة شمعة مضيئة يحملها الإنسان، أما الحضارة فهي استمرار للتقدم التقني لا الروحي، فالتطور الداروني هو

استـمـرار للتقـدم البيـولوجى لا للتقـدم الإنسـانى، والحضـارة فى خلقها الدائم لضرورات جديدة وقدرتها على فرض الحاجة على من لا حاجة له تعزز التبادل المادى بين الإنسان وبين الطبيعة وتغرى الإنسان بالحياة البرّانية على حساب حياته الجوّانية : أنتج لتربح، واربح لتبدد، أطلق رغبات جديدة دائما وأبدا،هذه سمات فى جبلة الحضارة الغربية . الحضارة الإسلامية ليست كذلك، لأنها الحضارة الوسط، لا تهمل فى الإنسان رغباته وطبيعته، لكنها فى نفس الوقت لا تسمح له أن يكون حيوانا .

الدكتور برهان غليون يلاحظ - فضلا عن ذلك - استحالة اللحاق بالحضارة الغربية، التى اختزلت فى النموذج الأمريكى، فذلك أمل مستحيل إزاء تزايد الفارق بيننا وبينهم باستمرار، حتى أننا بعد قرنين من المحاولة المستحيلة للحاق بهم نجد أن الفارق الآن أبعد مما كان : "نحن نعتقد أن ما يجب أن نأخذه من الغرب هو ما سمح للغرب بالتطور والنمو . . . لكن ظروف التطور هنا مختلفة كليا، إذ نهض الغرب فى جو علاقات دولية تميزت بالانهيار المسبق لكل النماذج التقليدية ولكل الإمبراطوريات الكبرى التى كانت تملى على المجتمعات نموذجها الحضارى كنموذج نهائى مثالى، و آخرها الحضارة العربية الإسلامية ذاتها".

لقد اتهمتمونا ياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات بأننا نحن الجهلة والسفلة دعاة الجمود و أنكم دعاة التحديث ورعاته لكننا سقطنا من سماوات وهم التحديث إلى مستنقعات التحلل، ثم وجد من يركز سهام نقده على الدين باعتباره رمزا للخرافة ومصدرا للتعصب الروحى والفكرى وفقدان القدرة على البحث، والتخلف عن الركب العلمى. فهل تحاربون الإرهابيين أم المسلمين والإرهاب أم الإسلام ؟ وهل تعتنقون وجهة نظر خاصة بكم، أم وجهة نظر أمريكا و إسرائيل، فإن كانت الأخيرة فإن أكبر إرهابى فى أمة محمد هو محمد نفسه صلى الله عليه وسلم، و من الواجب إبادة خمس المسلمين والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع قبر محمد وجثته فى متحف اللوفر!. و إن كانت الأولى أليس الصهاينة والصرب وعلوج الغرب هم الإرهابيون حقا ؟!

يرى بعض المفكرين أنه محتوم على النخب الحاكمة أن تحارب الإسلام في قلوب المسلمين، لسبب بديهي، هو أن الإسلام لو طبق حقا لسلبهم جميعا شرعية حكمهم.

* يا جلالة الفخامات ويافخامة الجلالات أين الصواب و أين الخطأ؟.

و لماذا وعدتمونا بأنكم سوف تخوضون بنا - إن صبرنا على مكاره حكمكم - اليرموك والقادسية وذات الصوارى وحطين وعين جالوت من جديد، وخضنا الحروب، ليس بكم، لأنكم وسط المعمعة، والنصال لا تتكسر على النصال بل على رقابنا، تخليتم عنا، هرولتم إلى أعدائنا بعد أن اكتشفتم أنهم أصدقاؤكم الأعزاء، وصرنا نحن أعداءكم، فرجعنا بخيبات سيناء والضفة الغربية والجولان وصابرا وشاتيلا والمفاعلات النووية وكل الانهيار على كل الأصعدة، أما أنتم فبخفى حنين ونتن ياهو قد ظفرتم.

* لماذا؟

لقد كان نابليون يقول : "إن جنديا مملوكيا واحدا، يستطيع إلحاق الهزيمة بثلاثة جنود فرنسيين، لكن كتيبة فرنسية واحدة تستطيع إلحاق الهزيمة بالجيش المملوكي كله". .

* الآن يا جلالة الفخامات ويافخامة الجلالات هل استطعنا حتى أن نحتفظ بهذا المديح المهين ؟!.

لطالما نقمنا عليكم أنكم تحاربون بعضكم البعض وتحاربون عدوكم في الوقت نفسه، فلماذا كانت استجابتكم بالضد، ليتكم واصلتم ضلالكم القديم، بدلا من أن تواصلوا حرب بعضكم البعض، ولا تكتفوا بإيقاف الحرب مع عدوكم بل وتتصالحوا معه، وتستعينوا به على إخوتكم.

لماذا ؟

* ألم يجد أحد منكم الإجابة في تشكيل لجنة لقاتل رابين في السجن كي يدلي فيها برأيه في الانتخابات !!.

* تراكم ماذا كنتم تفعلون بمثله؟. . بل بمن تهمتهم أقل بكثير

منه، و أيضا بمن لا تهمة لهم !.

* ألم يجده فى متابعة الانتخابات الأخيرة فى إسرائيل والعالم على قدم وساق يرقب الفارق بين المرشحين، وهو يتحرك بالكسور العشرية، يا ذوى الـ٩٩٪ أو الإجماع؟.

* ترى، هل لو حدث فى مصر - على سبيل المثال فقط - ما حدث فى إسرائيل بعد مصرع رابين، لو أنهم بعد مصرع السادات أجروا انتخابات هزم فيها حسنى مبارك بكسور عشرية من الواحد فى المائة، ترى هل كانت الأمور تسير هذا المسار.

* ترى لو حدث فى بقية العالم العربى والإسلامى ما يحدث فى إسرائيل من انتخابات حرة، ترى هل كانت الأمور تسير هذا المسار.

* ألم يطرأ بذهن أحد منكم أنهم هناك قد كرسوا كل جهودهم لاستقرار الدولة والأمة وما القادة إلا خدم لأهدافهاالعليا، فاستقروا وسادوا، و أنكم ياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات قد جعلتم الهدف الأسمى والوحيد استمرار أشخاصكم و آلكم فى الحكم، فما من عرش حكم تحت أحدكم إلا ويهتز لولا السند الأجنبى، و أنه لذلك بالضبط انهارت أمتكم أو تكاد..

* هل تصدقون حقا ياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات أن مركبا يجمعكم بالنتن ياهو أو حتى ببيريز وكلينتون هو مركب سيصل بكم إلى شواطىء الأمان، لا لنا، بل حتى لكم ؟!.

ياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات ما أشد شماتتى بكم وبما سيفعله نتن ياهو فيكم، وشارون والآخرون . . . ما أشد شماتتى، فلطالما حذرناكم، وبصرناكم كزرقاء اليمامة بالخطر لكنكم سملتم عيوننا.

إلا أننى فى الوقت نفسه أفصح عن حقيقة رأيى لأعلن أننى أوافق النتن ياهو تماما على لاءاته الثلاث : لارجوع عن السلام ولا تقسيم للقدس ولا دولتين، أوافقه تماما تماما، و إن كنا قد عجزنا أن نفرض سلامنا و أن نسترد قدسنا و أن تعود فلسطين ولاية فى

الأمة الإسلامية المتحدة – ولا مكان لدولة غريبة – فسوف يقدر أحفادنا.

أناشدك يانتن ياهو ألا تأخذك بنا رحمة، أيقظ بقسوتك وبإذلالك الموتى، اقتحم ماشئت من عواصمنا، اهزم جيوش من قنعوا بأنه لا حرب أخرى، إدفن أسرانا أحياء ومثل بجثث موتانا وبع أعضاء الآخرين فى سوق نخاسة عمليات زراعة الأعضاء، واجعل من يقولون أنه لابديل عن السلام يعرفون أن من لا يقدر على أعباء الحرب لا يقدر على تبعات السلام، نقطة أخرى، يانتن، أنت تعلم كغيرك وربما أكثر أنه مامن حاكم – تقريبا – فى العالم الإسلامى قد اختاره شعبه، ولا شرعية لأحد، و أن من فاوضوكم لم يكونوا ممثلين لنا، فوقعوا معهم ما تشاؤون، فأنا لا أعترف بكل ذلك، أنا الوارث، أنا الذى لا أمثل حكومة ولا معارضة ولا هيئة ولا حزبا، اسمعها يانتن ياهو، فأنا الدين، أنا الأمة، أنا التاريخ، أنا الجذوة السرية السارية من جيل لجيل، أنا القلوب والأرواح والضمائر، أنا من سينفذ وعد الله على يدى نسله، لا مهرب لكم، ولقد جئتم من فجاج الأرض واجتمعتم لحتفكم، بل إننى ربما أفهم قبسا من حكمة الله فى إذلالكم لنا، فى حيوانيتكم، فيما فعلتموه بنا، بجيوشنا وشعوبنا وأسرانا، واستعدائكم لحكامنا وللعالم علينا، فلعل كل ذلك تمهيد لوعد الله، حتى لا تأخذنا بكم – حين يمكننا الله منكم – رحمة، وحين يكشف الكمبيوتر عنكم و أنتم هاربون فى الجحور، فيهتف : يامسلم خلفى يهودى فاقتله.

سيذكر التاريخ لك يا نتنياهو أنك نجحت فيما لم ننجح جميعا فيه، أنك كنت من جمع قلوب العرب والمسلمين على قلب رجل واحد، و أنك بالطريق المسدود الذى وضعت حكامنا أمامه قد فتحت لنا الطريق لنزيلهم، لا إزالة الأفراد بل إزالة النخب المنحرفة والمناهج الفاسدة.

سيحدث يا نتن ياهو، سيحدث، فافعل ماشئت، واسحق من شئت، فالانتقام آت والقصاص عدل وحياة، و إن غدا لناظره قريب.

أما أنتم يا جلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات، هل أناشدكم كى تعقدوا مؤتمر قمة لبحث الظرف المصيرى الخطير، وما من ظرف

لكم إلا وهو مصيرى وخطير، ولطالما اجتمعتم فما اختلف المصير وما ابتعد الخطر، ربما يكون أعظم ما تقررونه فى مؤتمركم إذن، إذا ما اتفقتم وعقدتموه، أن تصحوا ضمائركم فتراجعوا أنفسكم، فيثقل على ضمائركم ما ستقابلون الله به، فتقررون جماعة أن تخلوا بين الأمة وبين مستقبلها، و أن تتركوا الحكم!.

. . أتساءل أحيانا يا جلالة الفخامات ويافخامة الجلالات : لقد نجح الموساد وال.C.I.Aأن يجعلوكم تبغضوننا، تراهم يحاولون أيضا أن يبغضوكم إلى قلوبنا ؟

* هل أنتم غير مانظن بكم؟

لا أملك إلا أن أقتبس من مريد البرغوثى لأقول لكم :

إذا الأهل أنتم سأبكى طويلا . .

و إن خدعتنى عيونى وكنتم سواكم . .

وكنتم بعيدين عن كل هذا . .

تعالوا . . !!

جلالة الملك..فخامة الرئيس .."٥"

هل نصمت صوتنا للعرض !!

{١}

أحمد مطر

أحمد مطر منفى، غريب، أنكره أهله، وخاصم النقاد المجوس شعره، نفاقا للسلطة أو الحاكم أو لمن يحبهم الحاكم أو يسير تحت لوائهم، ولما كانت قبلة جل الحكام واشنطن، وكعبتهم البيت الأبيض، والإسلاميون مجاهدون عندما ترضى أمريكا عنهم، إرهابيون عندما تغضب عليهم، وليس على الحكام إلا أن يرددوا خلفها فى صوت خاشع تقى ممدود : (آمـــــــين)، ربما من أجل ذلك يصرخ أحمد مطر :

إذا كانت أمريكا هى الله . . . فإنى ملحد . .

بل إن ضميره يؤنبه إذ لم يزل حيا والجلادون القتلة أحياء مثله :

كل صباح تغمر المرآة وجهي . .

بضباب الأسئلة : . . .

مازلت حيا ؟ عجبا ! . . .

أمات إحساسك . . . أم مات جميع القتلة ؟ ! . . .

ويقول فى مرارة :

في مقلب القمامة .. . .

رأيت جثة هامدة لها ملامح الأعراب. .

تجمعت من حولها « النسور » والذياب » . .

وفوقها علامة . . . تقول : هذي جيفة . . .

كانت تسمى سابقا . . كرامة . .

ويواصل :

لقد شيعت فاتنة . .

. تسمى في بلاد العرب تخريبا، وإرهابا . .

وطعنا في القوانين الإلهية . .

ولكن اسمها . . . والله . .

لكن اسمها في الأصل حرية..

ويمرض الشاعر قهرا فيذهب إلى الطبيب، لكن الطبيب ليس كأطبائنا ولا المرض كأمراضنا :

قال لي الطبيب . . . خذْ نفسا . .

فكدت من فرط اختناقي – بالأسى والقهر – أستجيب . .

لكنني خشيت أن يلمحني الرقيب .

وقال : مم تشتكي ؟..

أردت أن أجيب .

لكني خشيت أن يسمعني الرقيب . .

وعندما حيرته بصمتي الرهيب . .

وجه ضوءا باهرا لمقلتي . .

حاول رفع هامتي . . . لكنني خفضتها . . ولذت بالنحيب .

قلت له : معذرة ياسيدي الطبيب .

أود أن أرفع رأسي عاليا . . .

لكنني . . . أخاف أن . . . يحذفه الرقيب .

ثم يقوم الطبيب بفحصه :

جس الطبيب خافقي . . . وقال لي : هل ها هنا الألم ؟ . .

قلت له نعم . . . فشق بالمشرط جيب معطفي . . . وأخرج القلم. .

هز الطبيب رأسه . . . ومال وابتسم. .

وقال لي : ليس سوى قلم..

فقلت : لا ياسيدي . هذا يد وفم . . رصاصة ودم . .

وتهمة سافرة . . تمشي بلا قدم .

إلا أن الشاعر لا يملك إلا الاستسلام لقلمه فيكتب :

ذات يوم . . . رقص الشعب وغنى. .

واحتسي بهجته حتى الثمالة ..

إذ رأى أول حالة . .

تنعم البلدة فيها بالعدالة :

زعموا أن فتى سبَّ نعاله . . . . فأحالوه إلى القاضي. .

ولم يعدم . . . بدعوى شتم أصحاب الجلالة !

ومرة أخرى يكتب مقالا يقدمه إلى صاحبة الجهالة :

مرة، فكرت في نشر مقال . . . عن مآسي الاحتلال . .

عن دفاع الحجر الأعزل . . . عن مدفع أرباب النضال !. .

وعن الطفل الذي يُحرق في الثورة . . .

كي يَغرق في الثروة، أشباه الرجال !. . قلّب المسئول أوراقي، وقال:

اجتنب أي عبارات تثير الإنفعال . . .

مثلا : خفف (مآسي) ..

لم لا تكتب (ماسي) ؟ . .أو (مواسي) ؟. .أو (أماسي) ؟. .

شكلها الحاضر إحراج لأصحاب الكراسي ! .

إحذف (الأعزل) . .

فالأعزل تحريض على عزل السلاطين . . . وتعريض بخط الإنعزال !. .

إحذف (المدفع) . . كي تدفع عنك الاعتقال .

نحن في مرحلة السلم . . . وقد حرم في السلم القتال ..

احذف (الأرباب) . . لا رب سوى الله العظيم المتعال !. .

احذف (الطفل) . . . فلا يحسن خلط الجد في لعب العيال ! . .

احذف (الثورة) . . . فالأوطان في أفضل حال !..

احذف (الثروة) و (الأشباه) .. ما كل الذي يعرف، ياهذا، يقال..

قلت : إني لست إبليس في هذا المجال ..

قال لي : كان هنا . . . لكنه لم يتأقلم . . . فاستقال !

ثم ينفجر الشاعر قائلا :

أنا سلطان السلاطين وأنتم خدم للخدم ..

فاطلبوا من قدمي الصفح . .

وبوسوا قدمي يا سلاطين البلاد الضيقة . .

ويكتب تحت عنوان إرادة الحياه :-

إذا الشعب يوما أراد الحياة . . . فلابد أن يبتلى بالمرينز . .

ولابد أن يهدموا ما بناه . . . ولابد أن يخلفوا الإنجليز . .

ومن يتطوع لشتم الغزاه . . . يُطوّع بأولاد عبد الـ(. . . ز). .

فكيف سيمكن رفع الجباه . . وأكبر رأس لدى العرب(طِـ ـ) !

ويكتب تحت عنوان السيدة والكلب :-

ياسيدتي . . .هذا ظلم ! . .
كلب يتمتع باللحم . . . وشعوب لا تجد العظم!. .
كلب يتحمم بالشامبو. . . . وشعوب تسبح في الدم ! . .
كلب في حضنك يرتاح .
يمتص عصير التفاح .
وينال القبلة بالفم !. .
وشعوب مثل الأشباح .
تقتات بقايا الأرواح .
وتنام بأثناء النوم ! . .
Who are they ? –
– قومي .
Do not mention them –
قومك هم أولى بالدم . .
وبِحَمْل الذُّلة والضيم . .
– هذا ظلم ياسيدتي .
– أين الظلم ؟ . .
ومن المتلبس بالجرم ؟!. .
أنا دللت الكلب، ولكن هم ..
أعطوه مقاليد الحكم !

و بعنوان وقفة تاريخية يقول :

يحدق التاريخ في تاريخنا . . . بمنتهى الذهول ..
يقول : ماذا ياترى . . . عساي أن أقول ؟!. .
يجمعنا في كومة . . . يبعد عنا خطوة . .

يشد بنطلونه. . . وفوقنا يبول !

وبوجدان مجروح يكتب (لفت نظر) :-

السلطان لا يمكن أن يفهم طوعا . .

أنك مجروح الوجدان .

بل لا يفهم ما الوجدان ..

السلطان مصاب دوما . . بالنسيان وبالنسوان ..

مشغول حتى فخذيه . لا فرصة للفهم لديه . .

ولكى يفهم . .

لابد ببعض الأحيان . . . أن نسعفه بالتبيان

أن تقرصه من أذنيه. . وتعلقه من رجليه ..

وتمد أصابعك العشرة في عينيه . . .

وتقول له :

حان الآن . . أن تفهم أني إنسان . . . .

ياحيوان . . . .

* * *

{ب}

جلالـة الملك . . فـخـامـة الـرئـيـس :

الحقيقة يا جلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات أنكم لا تقولون الحقيقة أبدا.

الأعداء أيضا لا يقولون الحقيقة، فما وسائل الإعلام ووكالات الأنباء سوى أدوات لطمس الحقائق وتزويرها.

وفى مثل هذا الوضع لا يجد الكاتب سوى قريحته كى يتلمس منها بصيص ضوء يرى فيه بعضا من الحقيقة بعيدا عن تشويشكم وشوشرة الأعداء.

لقد قلت أن نظرتنا للأمور جزئية و أن نظرتهم شاملة. ليس الأمر متعلقا بفروق عرقية فى الذكاء والإحساس لكنه متعلق بمنهج فى الحياة ونمط فى التفكير.

ترى هل هم على حق حين يقولون أن العقل العربى عقل أحادى لا يفكر إلا فى سبب واحد للنتيجة الواحدة كى يتخذ - أو لا يتخذ - على أساسها قراره الواحد. وأن هذا القرار يكون عادة انفعاليا غبيا غير مدروس. على عكس العقل الغربى التحليلي المركب يفكر فى عشرات أو مئات الأسباب للنتيجة الواحدة ثم يتناول بالتحليل العلاقة بين هذه الأسباب بكل أبعادها : إيغالا فى التاريخ، وتعمقا فى العلم و...و...و...ثم يصلون بعد ذلك فى سبيلهم إلى اتخاذ قرار فى مناقشة مئات البدائل ومزايا وعيوب كل بديل، ثم أن الدراسة الفاحصة لكل ذلك تضاف دائما إلى مخزون معارفهم، فعندما يبدءون فى قضية أخرى فإنهم يجدون آلاف البدائل والاحتمالات التى سبق لهم بالفعل دراستها فى حالات سابقة ولا يحتاجون إلا لمراجعة سريعة لها، وربما نستطيع أن نفهم من هذا التصور، لماذا ترسخت فكرة المؤامرة فى أذهان البعض منا، ولست بالطبع أنكرها، لكنها لا تتم بذلك التصور البسيط الأحادى الذى يتخيله

البعض منا، إنهم لا يترقبوننا ولا يجلسون فى انتظار اقتناصنا، لكنهم قد حددوا أهدافهم منذ مئات أو آلاف السنين، وهم فى تحديد أهدافهم يختلفون عنا، إنهم يحددون أهدافهم مرة واحدة لتستمر مئات السنين، وهم طيلة هذه السنين يغيرون وسائل تحقيق هذه الأهداف باستمرار، أما نحن فإننا نغير أهدافنا باستمرار ولكننا لا نغير الوسائل أبدا. و لقد كان من أهدافهم ألا يسمحوا للحضارة الإسلامية بفرص متكافئة فى النمو والمنافسة لأسباب طرحناها بالفعل، ومن خلال هذا الهدف الكلى يمارسون العلاقات معنا، نحن ذوى العقل الأحادى الذى لا يستفيد من تجاربه مثلما تتيح لهم طريقتهم فى التفكير. فعندما نقدم على تصرف لم نفكر إلا فى سبب واحد ونتيجة واحدة له، يكون لديهم عشرات ومئات الوسائل للرد عليه.

إن الأمر يبدو شبيها بلعبة الشطرنج، فاللاعب الغبى، الأحادى النظرة، المطلق التفكير، يفكر فى سبب واحد ونتيجة واحدة للنقلة الواحدة، بينما اللاعب الذكى يفكر بعقله التحليلى النسبى المركب فى عشرات الاحتمالات وعشرات النتائج، وفى وضع كهذا لا يمكن تفسير انتصار اللاعب الذكى بنظرية المؤامرة ، بل بتحديد الهدف الثابت والوسائل المتغيرة والمنهج التحليلى والمخزون الهائل للتجارب الماضية، وعندما يواجه هذا اللاعب لاعبا لم يحدد هدفه، أو يغيره طيلة اللعب باستمرار، ثم أنه يهدر - بل ويسفه - كل مخزونه من التجارب ليلعب كل مباراة لا لكى ينتصر فى المرة الحالية بل فى المرة السابقة فيحاول أن يتلافى أخطاءه فيها غير مدرك أن غريمه قد غير هذه المرة من خطة لعبه التى لا يكررها مرتين، و أنه يحارب حربا سابقة، و لذلك فإنه محكوم عليه بالهزيمة باستمرار. ومرة أخرى فإننا لا ننكر فكر المؤامرة، وفى حدود المثال السابق، فإن اللاعب الذكى لا يتورع عن تشتيت فكر صاحبه، ومده بمعلومات خاطئة، ثم أنه لا يتورع عن الغش فى اللعب إذا ما بدرت بادرة انتصار لخصمه.

لذلك كله، فإننا إذا تناولنا حرب الخليج كنموذج فادح على الحماقة والتخلف والأسباب الخاطئة والنتائج الخاطئة والقرارات الخاطئة، فإن التساؤل يقتصر عندنا على تاريخ بدء الحرب

العسكرية، ومن المعتدى، إذن على الجميع أن يقف معه ومن لا يقف معه خائن خارج على الإجماع فهو كافر!!. وفى نفس الوقت يكون لدى الغرب آلاف المعطيات بعضها وضعه هو منذ عشرات أو مئات السنين، كفخ تاريخى نقع فيه عند منحنى من منحنيات التاريخ.

إن علينا فى محاولتنا تكوين تصورنا الخاص عن أبعاد الكارثة أن نوجز الإيجاز كله وإلا احتجنا إلى كتاب آخر فى مثل حجم هذا الكتاب، و إن لنا نتساءل مثلا عن تاريخ الحدود الحالية للعراق والكويت كدول؟ بل متى نشأت هذه الدول، ومن الذى رسم تلك الحدود، و الإجابة أن الذى رسم الحدود بين العراق والكويت هو "شاويش " انجليزى أرسله الحاكم الإنجليزى للهند، نستطيع أن نتخيل أن هذا الشاويش لم يرسم الحدود اعتباطا و إنما تصرف بناء على أهداف عامة صيغت فى لندن، فجعل من الحدود لغما يمكن تفجيره ذات يوم، ولو بعد ألف عام.

لقد كان رد الفعل الذكى والصحيح والتحليلى أن نرفض هذه الحدود لأن من وضعها عدو لنا. فلم نفعل.

نقفز للأمام عشرات السنين لنسأل كيف ولماذا قرر صدام حسين أن يغزو الكويت، عن عشرات ومئات الفتن التى دسها الأعداء، خطوة فخطوة وقطرة فقطرة كى يشتعل الصراع فى النهاية. وبالتلويحات والتلميحات والضغوط الاقتصادية نتحول نحن إلى دمى وهم الذين يمسكون الخيوط التى تحركها.

إننى لا أتخيل بالرغم من كل شىء أن صدام حسين قد أقدم على الغزو دون ما اعتبره هو موافقة أمريكية صريحة، ربما لم تعطه أمريكا هذه الموافقة الصريحة، ولا هى وقعت له على صك يدينها يستطيع أن يبرزه عند اللزوم أمام العالم، إنما هو التوجيه بمجرد التلميحات التى يستطيع مصدرها التنصل منها أو ادعاء أنها تقصد عكسها تماما، إنها تواجه عقلية تسمع ما تريد، وتصم آذانها عما لا تريد سماعه (لنتذكر فى تداعيات الفواجع ماسمعه عبد الناصر على لسان شمس بدران فظنه تأييدا كاملا من الاتحاد السوفيتى قبيل كارثة ٦٧).

من نوع قنبلة هيروشيما، وما يساوى مجموع ما ألقاه الحلفاء على ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية كلها. مائة وعشرون ألف غارة ألقت ما حمولته عشرات الألوف من الأطنان بحيث طالت الجسور والمحطات والمنشآت الاقتصادية والملاجىء المدنية وسكك الحديد وأجهزة الصرف الصحى والمياه والكهرباء . . . . .

حدث ذلك وحكامنا الأشاوس، حماة حمانا، درعنا، يشاركون بشد الفخذين لكنهم -نبلا وشرفا وكرامة وحياء - يغمضون أعينهم ويديرون وجوههم عن عملية الاغتصاب.

يقول حمدان حمدان فى كتابه : الخليج بيننا : قطرة نفط بقطرة دم : أن استمرار سيطرة الحكام الذين هرعوا للتحالف فى عاصفة الصحراء أمر مرفوض من الناحيتين الأخلاقية والفكرية .

إن أمين هويدى فى كتابه زلزال عاصفة الصحراء وتوابعه يورد حجم القوات البرية المشتركة فى قوات الحلفاء :

أفغانستان ..٣٠٠ مجاهدون.

البحرين . . ٣٥٠ فر د.

بنجلاديش ٢٠٠٠ فر د.

تشيكوسلوفاكيا ٣٥٠ فردا من الخدمات الطبية ومن وحدات الحرب الكيماوية.

مصر . . . , ٤٠٠٠ + ٤٠٠ دبابة.

فرنسا . . . , ٢٠٠٠ + ٣٥٠ د بابة.

أ لكويت ٧٠٠٠ + ٣٥ طائرة.

المغر ب . . . ٣٠٠٠ فرد.

عمان . . . , ٢٥٠٠ فرد + ٧٥ دبابة + ٥٠ طائرة.

باكستان . . . , ١٠٠٠ فرد.

قطر . . . ٧٠٠٠ فرد + ٤٣ د بابة.

السعودية . . . ٤٩٠٠٠ فرد + ٥٥٠ دبابة + ١٨٠ طائرة.

المهم أن الغزو حدث فى النهاية، وعندما بدأ الغرب يكشر عن أنيابه، فإن صدام حسين قد وضع نقطين فارقتين حكما تصرفاته: أن الغرب لن يضربه بسبب ما ظنه - غباء أو خديعة - موافقة أمريكية، وأن العرب لن يجرؤوا على الهجوم عليه، فمن ناحية لن يتفق لهم - كعادتهم - رأى، وحتى إذا اتفق رأيهم فإنهم أعجز من مواجهة جيشه. وهكذا، سبب واحد للنتيجة واحتمال واحد للقرار، ومن يرفض هذا النموذج الغبى فى التفكير خائن يحل قتله بمسدس الزعيم فى اجتماع مجلس الوزراء!!.

ألم يخطر بباله أبدا أن أمريكا قد خدعته؟ أنها ورطته وستخونه؟ أم أن إحساسه بأنهما وهما الشريكان فى مؤامرة لن يفشى أحدهما سر الآخر؟. أم أن هناك سر لا نعرفه؟.

ثم أنه وقد ارتكب الكبيرة وغزا الكويت، لماذا- حتى بمنطق الطغاة والجبارين - لم يقوِ موقفه بغزو المزيد للمساومة به؟ لمذا لم يلتهم الإمارات أو شرق السعودية؟ لماذا ولو حتى للتغطية لم يحتل الأردن والكويت فى نفس الوقت ويبدأ حربا مع إسرائيل؟ إننى أعرف أن عددا كبيرا من القراء سوف يعترض على هذا التخيل الذى ربما يصفه البعض بالجنون لكننى أتساءل هل كان يمكن أن يكون الدمار والحصار والخراب التى حدثت للعراق بمثل العنف الذى حدث به فعلا لو أنه قد أقدم على ذلك كى يورط معه العالم العربى والإسلامى ، ويحرج أمريكا والغرب.؟ هل كان يمكن لإسرائيل أن تحشد له قوة كالقوة التى حُشدت له فعلا بعد ذلك؟

لم يتهاطل المطر من غيمة عابرة، ولم تكن سحابة صيف.

ولقد تجاوزت الوحشية فى تدمير و إبادة العراق كل الحدود المتناسبة مع تحرير الكويت أو حتى هزيمة العراق، و إنما كان المقصود أن تكون عبرة، فما بُذل من مجهود وما أُطلق من نيران وما سُفك من دم وما سُفح من كرامة لم يكن يكفى لهزيمة العراق فقط بل لهزيمة الأمة العربية كلها، كانت حربا عالمية ثالثة، نسخة من الأولى وتختلف عن الثانية فقط فى أنها غير ذرية، خمسة و أربعون يوما من القصف المتواصل انهمر فيها على العراق ما انهمر على فيتنام فى سنوات تسع، ما يعادل أربع قنابل نووية

الإمارات . . . . ٤ فرد + . . ٢ دبابة + . ٨ طائرة.

المملكة المتحدة . . . , ٢٤ فرد + . ٥ ٣ دبابة + ٨ ٥ طائرة.

الولايات المتحدة . . . , ٥٢٣ فرد + ٢٠٠٠ دبابة + ٨١٠طائرة.

سوريا . . . , ٩١ فرد + . . ٣ د بابة .

إن لنا أن نتساءل، لو أن صدام حسين استولى على السعودية كلها ودول الخليج كلها والأردن كلها وهاجم إسرائيل هل كان يمكن لهذه الدول جميعا أن تحشد له ما تم بالفعل حشده بعد ذلك.

ثم لماذا لم ينتظر حتى تكتمل خططه فى التسلح النووى؟.

إننى هنا أؤكد على أننى لا أوافق على أى من هذه الاختيارات، لكننى أدرسها كاحتمالات كان يجب على القيادة فى العراق أن تدرسها لتختار منها الأفضل، لا بالنسبة للعالم، ولا بالنسبة للمسلمين، ولا بالنسبة للعرب، ولا حتى بالنسبة للعراق بل بالنسبة لصدام حسين نفسه، كما أؤكد أننى طيلة الوقت، قبل وبعد غزو الكويت أرفض نموذج صدام و أدينه أشد الإدانة، لكننى فى ذلك لا أنجرف خلف دعاية الغرب ولا غوغائية حكامنا و أجهزة إعلامنا، إننى أدينه و أرفضه، و أثق تماما أن الحاكم الذى لا يحترم حقوق شعبه و آدميته لا يمكن أن يكون أمينا على مستقبل أمته وأمانيها، لكننى أدرك فى الوقت نفسه، أنه لا يكاد أن يكون هناك من حكامنا من هو أفضل منه، أو على الأحرى أقل سوءاً. إنهم جميعا نفس النمط، كخنجر مسموم، ينغرس فى القلب مرة، ومرة أخرى يمنعه درع، إن الفارق ليس فى نوعياتهم بل فى نوعيات شعوبهم والظروف المحيطة بهم والتى تتيح لواحد منهم أن يمارس طغيانه حتى أقصاه ولا تمكن الآخر إلا من ممارسة جزء من طغيانه أما الطغيان فواحد.

لماذا لم يفعل صدام أيا من ذلك، ولماذا مادام لن يفعله لم يبادر بالانسحاب حتى لا يترك المبرر للحشود كى تحتشد له؟. ولماذا مادام لم ينسحب لم يبادر بالهجوم على تلك القوات وهى فى طور الاحتشاد؟ هل لو فعل ذلك كان تدمير العراق وحصاره سيكونان أشد؟. لماذا لم ينتهز الفرص السانحة أسابيع طويلة كى يحسن

موقفه ويحمى دولته وشعبه وجيشه.

نعود إلى موقف العرب: لماذا لم ير الحمقى خيوط المؤامرة وهى تُحاك؟ لماذا لم يتم حصار الحريق قبل أن يشتعل فى مؤتمر الرياض حيث كانوا يناقشون الأزمة بين العراق والكويت ومطالب العراق وقد فشل هذا المؤتمر قبل الغزو بساعات قليلة؟ لماذا لم يكن من بين الاحتمالات التى درسها العرب، ومصر والسعودية والكويت بالذات، احتمال أن يقوم صدام بغزو الكويت و أطماع العراق فى الكويت قديمة ؟ لماذا لم يدركها العرب و أدركها الغرب وسعى إليها وحرك الخيوط بيديه فتحركت الدمى؟.ماذا كان صدام يريد، عشرة مليارات؟ عشرين مليارا؟ مائة مليار؟كم تكلفت الحرب؟ كم دفع العرب؟ إن التكاليف المباشرة والخسائر المباشرة التى دفعها العرب فى الحرب تقترب من ألف مليار. إننى هنا لا أتحدث بالمبادىء والمثل. هَبُوا صدام حسين قاطع طريق يطلب منكم إتاوة اضطررتم لدفع أضعاف أضعافها بعد ذلك للغرب فلماذا لم تدفعوها له؟ كان يمكننى أن أفهم أنكم بالنخوة والكبرياء والشرف قد رفضتم أن تدفعوا إتاوة، لكن إذا كنتم تدفعونها ودفعتموها وستدفعونها لأعدائنا فلماذا لم تدفعوها له.

من بين كل البلاد العربية فإن السعودية فقط تملك من المبررات ما يخفف وزرها، لقد كان صدام على حدودها يمكن أن يستولى عليها فى ساعات، وفى وطأة ظرف عصيب كهذا فنحن لا ننتظر من العقل أن يحكم بل الهلع، ولا ننتظر لمصالح الأمة أن تغلب بل مصالح الأسرة الحاكمة، من هنا يمكن تبرير لكن لا يمكن أبدا الموافقة على استدعاء السعودية لجيش أمريكى لحمايتها.

هناك مبرر للسعودية إذن، سنغلق آذاننا وعقولنا و أعيننا قليلا ولن نتساءل عن المليارات التى أنفقتها السعودية على سلاح لم يحم أمنها القومى، سلاح أُنفق عليه أكثر مما أنفقت إسرائيل على سلاحها و أكثر مما أنفقت العراق أو سوريا أو مصر، وللقارىء أن يرجع للإحصائيات فى جزء آخر من هذا الكتاب. سنغلق أبواب التساؤلات كى نعطى السعودية مبررا، لكن ما هو المبرر للدول العربية الأخرى؟ ما هو المبرر لمصر بالذات؟ لماذا لم تكتشف

رؤوسها المفكرة حجم المؤامرة؟. لماذا لم يستعيدوا التجربة المرة المخجلة عبر التاريخ عندما حاولت مصر السادات نفس ما فعله عراق صدام وحاولت بمشورة إسرائيلية غزو جزء من ليبيا، حيث بدأت الغزو فعلا لولا إنذار أمريكى. لماذا لم تحاول إفشال المؤامرة الأمريكية ومخزون تجاربها يتيح لها أن ترى أكثر مما يرى غيرها و أن تفهم أكثر مما يفهم؟. ثم لماذا كذبت مصر؟ لماذا ادعت على معارضى الحل الأمريكى فى الداخل والخارج أنهم يؤيدون غزو العراق للكويت؟ لماذا ادعت ذلك وهى تعلم أنه كذب؟ ثم أنها وقد كذبت: فلمصلحة من كذبت؟ هل لصالح مصر؟ هل لصالح الكويت؟ هل الاحتلال الأمريكى للكويت أقل سوءاً من الاحتلال العراقى؟ ثم بمقاييس المصالح المجردة: هل يمكن لمصر أن تنسلخ عن الأمَن العربى والإسلامى؟ ولست أقصد التخلى عن شرف رسالة بل أقصد التخلى عن ضرورات وجود. لماذا فعلت مصر ذلك؟ هل تلقت وعدا جازما درست كل تفاصيله بتحجيم إسرائيل بعد تدمير العراق وخصم قوته من رصيد الأمة العربية؟. هل تلقت تهديدا مباشرا بحصار مصر أو ضربها أو غزوها إن لم تمتثل للرغبة الأمريكية باستدعاء الجيوش الأمريكية؟ هل تلقت تهديدا باغتيال زعمائها؟ وهل كان ذلك التهديد يساوى أن تخون مصر قضيتها ودورها؟ لماذا رضيت مصر أن تلعب هذا الدور المخزى الذى لن يغفره لها التاريخ، والذى لا يقلل مرارته فى حلوقنا سوى ذلك الموقف المأساوى الحزين الذى اتخذه قائد الجيش المصرى فى حفر الباطن حين استقال لأن ضميره لم يطاوعه على تحطيم الأمن القومى العربى الذى عاش حياته كلها لإرسائه.

إن إدانتى لمصر عنيفة، لكن إدانتى لسوريا أشد عنفا، فمجمل الأحداث فى العقود الأخيرة تظهر أن سوريا كانت أكثر وعيا بمخططات الغرب و أكثر التزاما بمقتضيات الأمن القومى.

لماذا فعلنا ذلك؟ ولماذا حين فعلناه لم نصر على أن تقتصر العملية العسكرية على تحرير الكويت دون تدمير العراق وتجريده من سلاحه؟

هل الأسلحة الجرثومية والكيماوية وحتى النووية أخطر فى يد

صدام منها فى يد نتنياهو؟

لماذا وافقنا على مخطط تركيع العراق وتكسيحه؟ لماذا اكتفينا بتلمس ذلك الاعتذار المخزى بأن الجيوش العربية لن تغزو العراق، أهذا يخلى مسئوليتكم ويبرئ ضمائركم إلا كما برر الشقيان فى حادث فتاة العتبة الشهير موقفهما بأنهما لم يرتكبا جريمة الاغتصاب نفسها و إن كانا قد شاركا فى شل ساقى الفتاة فى وضع منفرج؟.

قد يتساءل سائل بتلك الطريقة الغبية المتخلفة الحمقاء الأحادية: وماذا كنا نفعل إذن؟ هل كان يجب علينا أن نترك الكويت سليبة؟

والإجابة أننا كان يجب علينا مثلما فعلت دول كثيرة منها إيران وروسيا، وقد كان بين العراق و إيران حرب ضروس ولكنهم كانوا هناك أكثر وعيا بخطورة التواجد الغربى فى المنطقة وهو خطر إن جاء لن يذهب، و أنه إذا خُيرنا بين خطر العراق وخطر الحشد الغربى فخطر العراق أهون بكثير. كان يجب علينا أن نلجأ إلى حلول غير عسكرية للأزمة، ولم تكن العراق لتحتمل شهورا قليلة من الحصار.

لقد كان أهون علينا و أفضل لنا أن يُستدرج صدام حسين إلى اجتماع فى بلد عربى ليعتقل فيه أو كان حتى يمكن تدبير مؤامرة لاغتياله . ومرة أخرى أذكر القارئ أننى لا أذكر ما أوافق عليه أو ما أرفضه لكننى أذكر الاحتمالات.

قد يقول قائل : كان يمكن للعراق - وقد أثبت بالفعل - أن يحتمل الحصار سنوات وليس شهورا. و الإجابة أن الوضع يختلف، ثم من قال أن العراق قد احتمل الحصار طيلة هذه السنين، إنه يموت ويذوى ويتحلل، ولو كانوا قد اكتفوا بالحصار فى البداية لما احتمل أكثر من شهور. ومع ذلك، افترضوا أن العراق كان قد استمر يحتمل الحصار عشرة أعوام، لماذا كان علينا إذن أن نحتمل استلاب فلسطين خمسين عاما؟. ثم أن هناك إجابة أخرى مفحمة. لقد وافق العراق قبل هجوم قوات التحالف على الانسحاب دون قيد ولا شرط لكن أمريكا التى كانت تسد كل الثغرات أمامه

رفضت إلا انصياعه للتجريد من سلاحه، فلماذا لم نقبل انسحابه.

من المضحك المبكى أن شرطا من شروط أمريكا كان ألا يحتفظ العراق بصواريخ يتعدى مداها مائة وخمسون كيلومترا، وهو المدى الذى يمكن أن يهدد إسرائيل!! أما الصواريخ التى تقع فى نطاق ما يُسمح له به فقد كانت تهدد الكويت كلها!!.

لم يكن تحرير الكويت إذن بل تفكيك العالم العربى لنزع مصادر خطورته على إسرائيل.

إننى الآن أسأل نفسى: لماذا بذلت هذا المجهود كله لأثبت أن حرب الخليج كانت كلها لصالح إسرائيل والغرب إذا كان أصحاب الشأن أنفسهم يقرون به ويعترفون ؟!.

على أننى أواصل التساؤل هل كان موقف الحكام العرب عن خيانة سافرة أم خيبة غامرة؟؟.

ثم أن جميع ما قلته، وما اتهمنا عليه حينها بأبشع الاتهامات، هو الآن من بديهيات السياسة التى لم يعد أحد يجرؤ على إنكارها.

لقد نشرت الهيرالد تريبيون للرئيس الأمريكى السابق نيكسون قوله:٩١/٢/٧:" إنه من الرياء الإيحاء بأننا نأمل بهذا الأمر إقامة الديموقراطية فى الكويت، كذلك كون صدام قائدا مستبدا لا يبرر تدخلنا. إن الولايات المتحدة تجىء إلى الخليج لسببين رئيسيين : الأول أن لصدام أطماعا غير محدودة فى السيطرة على أهم المناطق الاستراتيجية فى العالم، و إذا كان السيناتور بول قد قال بأن النفط هو سبب مجيئنا إلى الخليج ، واعتبر بيكر - وزير الخارجية - أننا فى الخليج لأداء واجبنا، و إذا كان قد جرى انتقادهما لتبريرهما تصرفاتنا على أسس أنانية، فإننى أقول أنه ليس علينا أبدا الاعتذار لدفاعنا عن مصالحنا الاقتصادية والحيوية. إننا لا يمكن أن نسمح لصدام حسين أن يبتزنا ليكرهنا على القبول بغاياته وتركه يمسك بالصمام الحيوى لنفطنا.

إن تراجع الولايات المتحدة اقتصاديا أمام أوروبا واليابان جعلها تدرك أن أملها الوحيد أن تمسك صنبور النفط الذى تعتمد عليه أوروبا واليابان من المنبع ".

كما يقول البروفيسير روبرت تاكر مستشار الإدارة الأمريكية لمجلة كومونترى: " إذا تهدد إمدادات البترول خطر فيجب أن يكون العمل العسكرى جاهزا لمنع أمريكا من النزف حتى الموت."

ويقول ابراهيم سعدة فى أخبار اليوم ٩٧/٤/١٢ تحت عنوان: حتى أنت ياجور: " ...... لا أعرف ماذا يمكن لنائب الرئيس الأمريكي أن يقوله حبا وهياما فى إسرائيل أكثر مما قاله وأسرف القول فيه أمام اللجنة الأمريكية اليهودية يوم الأحد الماضى ، ولكن الذى أعرفه جيدا من واقع خطابه فى هذا الاجتماع أن آل جور لم ينس مع تدفق كلمات عشقه وهيامه بالإسرائيليين أن يسخر من أصدقائه العرب فيقول : إن إسرائيل لم تطلب أبدا جنودا أمريكيين للدفاع عنها أو حمايتها - فى إشارة واضحة من نائب الرئيس الأمريكى إلى أن العرب الخليجيين هم الذين طلبوا أن ترسل لهم أمريكا جنودها للدفاع عنهم وتوفير الحماية لهم-!. ولم يكتف آل جور بذلك وإنما أصر على أن يخرج لسانه للعرب من المحيط إلي الخليج عندما أكد أن أكبر و أقوى و أغنى قوة فى العالم - أمريكا - ملتزمة بشكل مطلق بالحفاظ على التفوق الإسرائيلى فيما يتعلق بالقوة العسكرية. وياليت الأمر توقف عند هذا الحد، لقد فوجئت بآل جور يكشف الستار لأول مرة عن أسباب ومبررات سعى و إصرار بلاده على فرض عقوبات على دول مثل ليبيا و إيران والعراق، فقال بالحرف الواحد : إن هذا السعى كان من أجل تأمين إسرائيل ، وحماية المصلحة القومية الأمريكية لأن هذه الدول كان يمكن أن تجرؤ على توفير ملاذ آمن للإرهاب".

ليتك يا سعدة لم تنزع الستار.

ليتك لم تهتك الأسرار.

لماذا لم تدع غلالة من الزيف والباطل تغطى هذا الواقع الهمجى المجرم المجنون الخائن، لماذا لم تدعها وقد كانت تحمى عيوننا من الأذى وتقى قلوبنا من النزيف، كانت كتلك الأستار المبرقشة الملونة التى يخفون بها عند مرور مسئول كبير مناطق الخرابات ، ولم تكن الأستار تقضى على الخرابات، ولا كانت تمنع ما يتصاعد منها من روائح الخراء والجيف ، ولكنها كانت تعطى الفرصة

لضعف فى نفوس بعضنا – ممن لا يريدون المواجهة – أن يفترض فيما تمثلونه، بعضا من الخير والاعتذار بالجهل .

ثم إن آل جور لا يكتفى بذلك بل يتجاوزه إلى التعريض بحسنى مبارك شخصيا عندما يقرظ دموع الملك حسين واصفا تصرفه بأنه : نوعية الزعامة التى نريدها من جيران إسرائيل.

حتى ابراهيم سعدة و أخبار اليوم قد فهموا أخيرا فيالها من مأساة تثير الذهول أن يتفق الجميع على تشخيص الداء ، ويتفق الجميع على الدواء لكننا نظل فى اختلاف على طريقة استعمال الدواء حتى نموت !!.

أجل، أظنكم يا جلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات لاتجرؤون على إنكار ما وصلت إليه حال الأمة فى عهودكم، و إن أنكر كل منكم دوره الشخصى فيها ليتهم به قرينه أو الأمة، ولعلكم لا تختلفون مع أمين هويدى حين يقول :

"أظن أن هناك اتفاقا بيننا جميعا على أن بلادنا العربية تسير على غير هدى وفى تخبط واضح تكاد لا تتفق على اتجاه واحد تضبط عليه بوصلة تحركها ، فالكل يسير فى خطوات متقاطعة أو متوازية لا تصل أبدا إلى نقطة لقاء . وأصبح هناك شبه يقين من أننا لا نعرف ماذا نريد ، وبالتالى فإننا لا نتفق على ماذا نريد بل يكاد المتأمل فى أعماق الأحداث يجزم بأننا لا نتفق على من هو العدو؟ ومن هو الصديق ؟ ولا تكاد نتفق على تحديد الأسبقية بين التهديدات الخارجية والتحديات الداخلية ، بمعنى هل الخطر الماحق الذى يتهددنا هو من أمراضنا الذاتية أم إنه من الرياح العاصفة التى تهب علينا من كل اتجاه من الخارج ؟".

ويواصل أمين هويدى:

"والكثيرون يعيشون ثم يموتون دون أن يعرفوا ماذا يريدون على وجه اليقين . وإن كان هذا جائزا بين الأفراد فإنه لا يجوز بين الدول أو بين أصحاب القرار من الدول إن أردنا الدقة ، خاصة فى بلادنا العربية إذ يتولى الأمور فيها مركز قوة واحد تتجمع عنده الخيوط وتنطلق منه القرارات."

يالها من حماقة، إننا نشبه مريضا ذهب إلى الطبيب يشكو سرطانا فأطلق الطبيب على السرطان الرصاص، أو آخر فوجىء بخراج فى ذراعه فعالجه بالبتر. المنهج الطبى الصحيح فى مثل هذه الحالات هو العلاج بالجراحة إذا كانت الجراحة ممكنة، وقبل تقرير الجراحة يلزم إجراء مئات التحاليل والفحوصات الإشعاعية ودراسة حالة المريض كلها ومقارنة ما يمكن أن يجنيه المريض من الجراحة بالمضاعفات المحتملة عنها، ولا تباح الجراحة إلا مع التيقن من أن احتمالات نجاحها تفوق بكثير احتمالات فشلها، فإذا كان هناك من الأسباب ما يمنع إجراء الجراحة، فإن على المنهج الطبى السليم أن يبحث عن وسائل أخرى للعلاج، و أن يفكر بذات الطريقة إزاء كل وسيلة، فمن العلاج ما قتل، ثم أن الطبيب عندما تعجز كل وسائله وتنفد كل حيله، عليه أن يواصل ما لم ينس البدء فيه منذ البداية، ألا وهو استنفار أجهزة مقاومة المريض وتحسين مناعته وتقوية أجهزته، ثم الانتظار لما يحدث بعد ذلك، فقد تصبح الجراحة التى كانت كفيلة بقتل المريض قبل ذلك ممكنة بعد تقوية الجسد ككل.

لماذا عجزتم عن التفكير بهذا المنهج يا جلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات.....

إبان اجتماع مؤتمر قمتكم قبيل حرب الخليج، ذبحتنى أيامها قرارات قمتكم، حين رأيت رأى العين، ما سيحدث بعدها لنا ولكم، ورويته لكم، لكنكم لم تصدقونى، فكان ماكان . لتجدوا أنفسكم بعدها بأعوام تجتمعون لمحاولة يكتنفها اليأس كله فى علاج الكوارث التى أسفرت عنها قرارات مؤتمركم السابق.

أحيانا ياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات أغرق فى صمت لا يجد فى الحديث جدوى فأنتم لا تقرءون ولا تسمعون ولا تعتبرون. لكننى فى أحيان أخرى أقول لنفسى تكلم واكتب فليس كل الصمت ذهبا، إذ أحيانا ما يكون الصمت خيانة لأمانة، كالساكت عن الحق، ثم أننى طفقت أردع نفسى بالتساؤل :هل من حقى أن أصمت ؟.

هل يصمت صونا للعرض أب مكلوم، مجروح الوجدان، قتل

الطبيب عمه، و أصاب خاله بعجز كامل، ولم يفلح أبدا فى علاج حالة فى البلدة، كان الصحيح يذهب إليه فيسقم، والمستقيم فينحرف، والقوى فيوهن، ثم إنه قبل ذلك، فى الماضى، تسبب فى موت أبيه أثناء إجراء عملية جراحية، و أخيه بعقار خطأ، وابن أخيه لأنه كان مشغولا عنه وهو يحتاج إليه، ولم يكن مشغولا مع مريض آخر، أو فى مشكلة كبرى، بل قيل أنه كان مشغولا مع غانية لعوب، وقيل ماهو أكثر، حين تهامس الخاصة أنه - حين يستبد به السكر - يهتك أعراض مريضاته، و أحيانا مرضاه، و أنه فى أحيان أخرى - حين يُفيق من السكر - يسرق أعضاء المرضى،الذين ائتمنوه على إجراء الجراحات لهم، ليبيعها، كى يسدد خساراته الفادحة من القمار. أب مكلوم يعرف عن هذا هذا الطبيب كل ذلك، ولا يجد غيره ليتصدى لعلاج ابنته، أو أمه، قرة عينه وفلذة كبده وروح حياته، ويعلم علم اليقين، أو حتى يشك أنه فى اللحظة التى ينفرد بها، ليكشف عليها، ورغم بؤسها، و إشرافها على الموت، لن يكون أمينا على عرضها،فإذا صرخت سيغضب، وسيأمرها أن تصمت صونا للعرض، فإذا واصلت الصراخ فإنه لن يتورع عن قتلها،فإذا احتج أبوها، أو أهلوها، فأمير البلدة ربيبه، أو على الأحرى ربه، ثم أن الأمير يعرف عن الطبيب جرائم لا تعد ولا تحصى، لكنه يتستر عليه، ومقابل ذلك، يسمح له الطبيب بمشاركته فى ماله، المكتسب من حرام، وفى جرائمه وعرض مريضاته، و يشيعون أن الأمير ممتن لذلك، مستمتع به ، و أن أوامر الاعتقال والحصار جاهزة على بياض، للإرهابيين الذين يستنكرون فيرهب استنكارهم ذلك الطبيب.

هل يغفر لذلك الطبيب خطاياه أن يكون من ذوى القربى أم يزيدها وطأة ؟!

من حق مثل هذا الأب ومن حقنا ومن حق الأمة كلها ياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات أن تسائلكم و أن تحاسبكم، ولقد كان ذلك من حقها دائما لكنها انخرست عندما استخففتم بها و أرهبتموها وقهرتموها وناشدتموها أن تصمت صونا للعرض، وقطعتم فى بعض الأحيان لسانها، من حقها أن تسائلكم، و أن تنظر بكل الريبة إلى أى مؤتمر للقمة ينعقد بعد، من حقها أن تستبد بها

الهواجس ونفس الوجوه تتصدى بنفس المنهج لمرحلة جديدة، مرحلة النتن ياهو.

إن الذى يبنى بيتا من ستة أدوار، والذى ينشىء قنطرة صغيرة على جدول، والذى يجرى عملية الزائدة الدودية، والذى يبحث عمن يصلح له ساعته المتوقفة أو تليفزيونه المعطوب، لا يأتمن من سيقوم له بالعمل إلا إذا سأل عن سابقة أعماله، فهل سوابق أعمالكم ياجلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات تتيح لكم، بل تبيح لكم، أن تتصدوا لأى مرحلة مصيرية وخطيرة دون تغييرات جوهرية فى نظم الحكم، ودون إدراك أن منهجكم كله خطأ؟!.

فيما عدا حزب الله وحافظ الأسد و حسنى مبارك من منكم انتصر فى حرب؟ من منكم نجح فى سلم؟ ومن منكم نجح فى تنمية اقتصادية حقيقية؟.

يورد الدكتور لطفى عبد العظيم هذه الأقام التى تدل ياجلالة الجلالات ويا فخامة الفخامات على منتهى جهودكم:

" في عام ١٩٦٧ بلغ مجموع صادرات الشرق الأوسط ٩,٢٩٩ مليار دولار أمريكي ، والمصطلح الإحصائي للشرق الأوسط ، طبقا لتصنيفات صندوق النقد الدولي ، يضم إسرائيل وإيران وكل الدول العربية ، فيما عدا تونس والمغرب والجزائر وموريتانيا والصومال ، وحقق ذلك الإجمالي قفزات متتابعة ليصل في عام ١٩٩٥ " أحدث إحصاءات متوافرة " إلى ١٥٦,٦١ مليار دولار ، أي بمعدل نمو سنوي قدره ٥٤,٦٪ ، وفي سنة الأساس كانت صادرات إسرائيل ٥٥٥ مليون دولار بنسبة حوالي ٦٪ من إجمالي المنطقة ، وكانت الصادرات المصرية في السنة المشار إليها ٥٦٦ مليون دولار بنسبة ٦٪ من المنطقة ، أما سورية فكانت صادراتها ١٥٥ مليون دولار (١,٧ ٪) وفي عام ١٩٩٥ بلغت الصادرات الإسرائيلية ١٩,٠٤٦ مليار دولار ، بنسبة ١٢,٢ ٪ من كل المنطقة وبمعدل نمو سنوي متوسط قدره ٢٠,٦ ٪ وزادت الصادرات السورية إلى ٣٥٦٣ مليونا ، ،بمعدل نمو سنوي متوسط ٧٨,٩٪ ولتزداد حصتها من صادرات المنطقة إلى ٢,٣ ٪ ولا أود أن أرهق القارىء بالمزيد من الأرقام ، ولكن من الواضح أن القوى الاقتصادية لإسرائيل تتنامى

بسرعة رهيبة ، في حين أن الثقل الاقتصادي للأطراف الرئيسية في الصراع أخذ في التراجع .

نقطة أخرى تتعلق بالواردات التي ماهي إلا مؤشر رئيسي على الوزن الاقتصادي ، ومن ثم السياسي لأي دولة بالنسبة للدول المصدرة . كانت واردات المنطقة ٦٢٧٥ مليون دولار ، وكانت حصة كل من مصر وسورية وإسرائيل : ١٢,٦ ، ٤,٢ ، ١٢,٣ ٪ على الترتيب . أما في عام ١٩٩٦ " بياناته متوافرة على العكس من الصادرات " ، فقد استوردت المنطقة ما قيمته ١٣٥,٧٥ مليار دولار، وبلغت حصة مصر منها ٨,٥٪ ، وسورية ٣,٥٪ أما إسرائيل فكانت حصتها ٢٠,٦ ٪ أي مايقرب من مثلي حصة مصر وسورية مجتمعين !! .

لقد كتب فهمي هويدى مقالات مستفيضة فى الأهرام، كان أخطرها مقال بعنوان " بلاغ إلى من يهمه الأمر " يوضح فيه ما يفعلونه فى إسرائيل وما نفعله نحن، ويقارن بين مستوانا ومستواهم، وهذا المقال وحدة كان كافيا لسحب الثقة من كل الأنظمة العربية والإسلامية.

* * *

فهل أنتم ياجلالة الجلالات ويافخامة الفخامات الذين ستتصدون للمرحلة الجديدة دون تغيير جذرى فى منهج الفكر و أُطُر الحكم، وهل يغير الله ما يُفعل بكم دون أن تُغيروا ما بأنفسكم. .

يشتط بى الخيال أحيانا فأحلم أن مؤتمر القمة بعد ما ساد فى العالم من ازدراء بالعرب، واستخفاف بشأنهم، وسخرية بهم، وبعد أن قرأ ما نشرته صحيفة الأهرام، أكبر صحيفة عربية، وواحدة من الكبريات فى العالم، من أنهم يجتمعون لمواجهة تدهور عربى لم يسبق له مثيل، يقرأ المؤتمرون ذلك، فيشتد بهم لوم أنفسهم على ما فرطوا فى جنب الله وفى حق الوطن والأمة، مدركين أنهم السبب فيما حاق، وما سيحيق، ويتداولون فى الأمر فيستقر قرارهم النهائي والوحيد على تنح جماعى عن الحكم، يختارون حكيما من كل بلد حدوده مصنوعة، مزورة، خطها عدونا، فيقولون لمجلس

الحكماء : هذه البلاد كانت أمة واحدة، تسلمناها مشرذمة، وزدنا من تشرذمها، وهاكم هى أعيدوها إلى حالتها الأولى.

لا، ليس من حقى والأمر على ماهو عليه أن آمل فى كل هذا، ذلك أننى أعلم أن قول لينين يصدق فى معظمكم، و أنكم من أجل الاستقرار والاستمرار فى السلطة مستعدون لأن تجعلوا من بطون أمهاتكم طبولا، و من رؤوس شعوبكم أهرامات من الجماجم. لا تتخلوا عن السلطة إذن، لكن أقدموا على الشق الآخر، اختاروا حكيما من كل بلد حدوده مصنوعة، مزورة، خطها عدونا، وقولوا لهم : هذه البلاد كانت أمة واحدة، تسلمناها مشرذمة، وزدنا من تشرذمها، وهاكم هى أعيدوها إلى حالتها الأولى ، ليس الآن بل بعد مائة عام، مائة عام ياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات، مائة عام أشبعوا فيها أنتم ونسلكم شهوتكم إلى السلطة الحرام، لكن أتيحوا و أبيحوا لبعض منا أن ينقذ من بين براثنكم بعضا من المستقبل بعد أن ضيعتم الحاضر ولوثتم الماضى.

يتسرب الخيال من خواطرى تسرب الماء الزلال من بين أصابع تائه فى هجير الصحراوات يتشقق بالعطش حلقه، ويصيبنى الذعر، بل يلحق بى العار، حينما أتخيل العالم، يرقبنا ساخرا، متوقعا أن يكون أقصى نجاحات مؤتمر القمة، بل نجاحه الوحيد، و إنجازه المفرد : أن ينعقد، مجرد أن ينعقد، لاشىء سوى أن ينعقد، ولا شىء بعد أن ينعقد، لن يجتمعوا على حل ولن يتفقوا على خطة، ولن يرفعوا حصارا، ولن يغيروا منهجا، فياله من عذاب.

يارب . . ماذا نفعل ونحن غير قادرين على أن نفعل شيئا . .

أليس فى الأمة تقى يدعو الله فيُستجاب له . . يدعوه حتى أن يغير ما بنا دون أن نغير ما بأنفسنا، فنحن قد حاولنا قدر جهدنا لكننا غير قادرين على أن نغير أي شىء، والقهر أكثر من قدرتنا، والحكام غير راغبين، والدنيا غارقة فى دياجير مدلهمة وقد كثف الليل و أطبق اليأس وامّحى الأمل .

الأهرام – وليست صحف المعارضة – تقول أن ما وصلنا إليه بعد حرب الخليج من تدهور لم يسبق له مثيل، أما هاخان فإنه يقول :

" وجـود الدولـة الصـهـيـونـيـة ليس المصـدر الوحـيـد لحـالة عـدم الاسـتـقـرار فـى الشـرق الأوسـط، وهـى الحالة التى تعـتـمـد عليـهـا هـى والولايات المتـحدة، فـثـمـة عدو لدود للعالم العربى لا يقل ضـراوة عن تلك الدولـتين، نجـده فى العـدو العـربى الذى يكمن بـين العـرب، فـلو لم يكن هنـاك خونة وعملاء مـثل : (جملة محذوفة لأنها ربما تخضع للقـانون) لكان العـالم الإسـلامى فى مـركـز أشـد قـوة، بـحـيـث يستعصى على الهزيمة، مـالم يكن بمقدوره تقويض أعدائه تقويضا مبرما ".

ويسـتـطـرد هـاخـان قـائلا : "يجب على العـرب على الأقل - بغض النظر عن العالم الإسلامى - فـى العقد المقبل، أن يركزوا على تدمير العـمـلاء العـرب، الذين يعـمـلون لحـسـاب الإمـبـرياليـة الأمـريكيـة والصهيونية".

أقـرأ ابن خلدون كـمـا أقـرأ تـاريخ المـمـاليك و الأنـدلس و أقـرأ مـصطفى حـجـازى وبرهـان غليـون ومـالك بن نبي كى أجـد حـلا، تفسيرا، تبريرا أو نبوءة، أقرأ مصطفى سويف وهـو يوجز أسباب تخلف المجـتـمـع - التى أدت إلى الهزيمة الشـاملة - إلى عـوامل منهـا "الآثار المترتبة على أساليب قياداتنا فى أدائها أدوارها القيادية". أقـرأ ذلك فـأقـول لنفسي هذا هـو العـامل الأول والأخيـر، أراه الكل، وأرى أنـه إذا صلح الراعى صلحت الرعـيـة، و أرى جـمـيـع عـيـوبنـا وأوصابنا وهزائمنا وتخلفنا تعـود جـمـيـعـا إلى سـبـب واحـد، هـو العلاقة الآثمـة، العلاقة الحرام، علاقة الاغتصاب بين السلطة والأمة، ياجلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات .

لقـد سـبق فـى الجـزء الثـانـى من هذا الكتـاب أن أدنت بذاءة الدكتور (ع.ع.) فى كتابه : "تراث العبيد فى حكم مصر المعاصرة " والذى يتـعـدى عنوانـه المكتـوب ليـتـنـاول الدول العـربيـة أيضـا - ويتـحـدث عن شـذوذ العـلاقـة بين الحـاكم والمحكوم، فنحن ياجـلالة الفخامات ويافـخـامـة الجلالات شعوب محافظة، ولقد علمنا القرآن العظيم والحديث الشـريف كيف نتـجـنب السـوقـيـة والبـذاءة فى التـعـبـيـر، لكنهـمـا علمـانـا فى نفس الوقت ألا نغـمض أعـيـنـنـا عن الحقائق مهما بلغت بشاعتها. ومن هذا المنطلق، فإننى رغم إدانتى

للسوقية أيا كان الدافع إليها و أنى كان مصدرها، أجدنى أقول لنفسى، أن الشخص السوى يستطيع احتمال قدر معين من التوتر، فإذا تجاوز هذا القدر طاقته على الاحتمال، فلن يجد من الألفاظ ما يعبر به عن الواقع، وتنفصم الكوابح داخل ذاته، فتجد الشاعر والكاتب والمواطن العادى ينطقون بأشد الألفاظ سوقية وبذاءة.. هل يمكن أن تواجه كلبا مسعورا بنبل وكبرياء وهدوء؟ هل يمكن أن تواجه أسدا يتلمظ كى ينهشك برقة؟ وهل يمكن أن تقتنع ذئبا بالمنطق والدعوة بالتى هى أحسن ألا يغدر بك؟ وهل يمكن أن تقف رابط الجأش أمام فهد شواربه ملوثة بدماء إخوتك منتظرا أن يرده النظام العالمى الجديد عن سوقيته.

ألم تتساءلوا قط قبل أن تتهموا معارضيكم أو تقتلونهم كيف يمكن أن يعبروا بألفاظ مهذبة ورقيقة عما يحدث، كيف يمكن أن يعبروا بكلمات شاعرية عن فساد يستشرى فلا يترك قمما إلا نالها ولا وهادا إلا أغرقها، كيف يعبرون عن عمولات السلاح التى حولت معظم الجيوش إلى هياكل جيوش و آلاف المليارات من قوت الأمة ينفق عليها، كيف يعبرون عن العهر والفجور بألفاظ تقطر شرفا، وكيف يعبرون عن انعدام الديموقراطية أو ذبحها بألفاظ ديموقراطية، نحن بهذا كمن يقيم الحجة على كافر بآية من آيات القرآن بينما هو لا يؤمن بالقرآن أصلا، كيف نعبر عن القانون وأساطنته ينتهكونه، وكيف نعبر عن الحرية والقهر يحكم، وكيف نعبر عن الشفافية والتعتيم قائم، كيف نتناول حرية الصحافة مثلا ومعظم القائمين على المناصب الكبرى فيها هم فى الحقيقة ألد أعداء الصحافة، وهم فى الواقع رغم نبو لفظ الشاعر أحمد مطر خدم أصحاب الجهالة : الحكام ، لا صاحبة الجلالة : الصحافة.

كيف يمكن أن نتناول – دون إيغال فى السوقية والبذاءة – ذلك التنظيم الإرهابى الذى اعتقل أعضاؤه فى مدينة الإسكندرية– و إن كان لا يهم أين ولا متى فالكل سواء – والذى اقتصر أبرز نشاط أعضائه كما نشرت الصحف على اقتناص الجنود واللواط بهم . أهذا فعل أم رد فعل . وكتب منظمات حقوق الإنسان تؤكد انتهاك الأعراض فى السجون ، وحبس النساء من الرهائن عرايا كما ولدتهن أمهاتهن مع أغراب فى زنازين منفصلة ، وصديقى أستاذ

المسالك البولية يقول والألم يعتصره: لقد توصل الشياطين إلى استعمال الوسائل الطبية فى التعذيب، فهم يحقنون المعتقلين بجرعات هائلة من المنشطات الجنسية حقنا مباشرا يتسبب فى آلام مروعة تنتهى عادة بالعجز الكامل، كيف يمكن أن أبرر بطريقة مهذبة ماحدث لذلك المواطن الذى يحمل شهادة عليا ويشغل وظيفة محترمة وهو يقول : اعتقلت فى قضية سياسية ملفقة، واقتنعت النيابة نفسها بذلك، لم أعان فى السجن أكثر مما توقعت، لكنهم بعد أن أفرجوا عنا، بعد أن حكموا ببراءتنا وانعدام التهم المنسوبة إلينا، اعتقلتنا مباحث أمن الدولة، وهناك عذبنا عذابا مروعا . صمت الرجل، وصمت، أو على الأحرى انخرست، لكننى كنت كلّى أصرخ عدا حنجرتى ولسانى، فكيف يمكن أن أعبر عن كل ذلك بأسلوب نبيل .

السؤال الذى انفجر داخلى إزاء السوقية التى انفجرت فى المجتمع وتساوت فيها الحثالة مع النخبة ، هو : هل نواجه سوقية النخبة بالسوقية ، فمع افتراض أعذار - هى فى الواقع غير مقبولة - لنخبة الحكام بأنها فى الغالب نخب جاهلة، غير مثقفة، توقفت ثقافة الصفوة فيهم والحكماء منهم والعظماء والجهابذة والأبطال والملهمون عند مستوى تلميذ تحت المتوسط فى المرحلة الثانوية،حتى لو قايضوا البترول بالدكتوراه ، وهم لا يعرفون ما المنهج، وما التاريخ، وما الفلسفة، فضلا عن علوم الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد ، ويفتقدون أي نظرة شاملة للأمور، ولقد كان رد فعل معظم المثقفين فاجعا، إذ بدلا من أن يعتبروا السوقية انحرافا يجب أن يقوم، والجهل مرضا كان يجب أن يعالج، وافتقاد النظرة الشاملة كارثة يجب أن تتدارك، بدلا من ذلك كله اندفعوا لينافسوا النخب فى سوقيتها ، وثمة مثقفين وكتاب كبار رأوا الفاحشة رأى العين لكنهم انقلبوا إلى مهرجين فى سيرك الملك ، وقوادين فى حاشيته.فهل يحق لنا بعد ذلك أن نتساءل لماذا كل هذا الازدراء والاحتقار والبذاءة؟ من أنفسنا لأنفسنا ، ومن العالم لنا . بل إن مشاهير الكتاب والمعلقين الأجانب، لم يتمالكوا أنفسهم، فاندفعوا فى تشبيهات مفعمة بالفظاظة والبذاءة والاحتقار لحكامنا، ولشعوبنا، ولعلنا نذكر منها تعليق الصحفى البريطانى

روبرت فيسك على أحد أكبر القواد العسكريين للعرب فى العصر الحديث , وذلك لدوره فى حرب الخليج :"لم تكن اتصالاته مع العسكريين تتعدى اللعب بالجنود الدمى والدبابات الدمى فى حضانته وطفولته وصباه . . . . إنه لا يعرف الفارق بين العازل الذكرى والكلاشينكوف"!!.

حرب الخليج . .

مؤتمر القمة . .

الكلاشينكوف . .

العازل الذكرى . .

يابركانا من الألم ينفجر و ياطوفانا من الذكريات يفيض . .

يادموعا لم تغض لأنها وقد جفت المآقى استقرت فى سويداء القلوب . .

مؤتمر القمة الأخير ١٩٩٠، والقلب ينصدع ونحن نصرخ فيكم، نتوسل إليكم، نحذركم من الكارثة، قلنا لكم أن المقصود ليس صدام حسين وليس العراق ولكن المقصود هو الأمة العربية والإسلامية كلها، والمقصود هو أنتم، حذرناكم من الفتن وتقسيم الدول ونهب الثروات وسيادة إسرائيل، قلنا فما سمعتنا أذن وصرخنا فما رق لنا قلب وسقنا الحجج فما انفتح لنا عقل، بل انفتحت علينا أبواب جهنمكم بأدلة كنا نعرف - وأخبرناكم - أنها صيغت فى واشنطن وتل أبيب، لكنكم لم تكفوا ولم تكف اتهاماتكم : أنتم تؤيدون صدام، أنتم مع احتلال الكويت، سنحل مشكلة فلسطين فور تحرير الكويت، صدام طاغية و أنتم عملاؤه، يا مرتزقة ياخونة ياكفرة، صدام سيهدم السد العالى، صدام سيقصف مصر بالصواريخ ياعديمى الوطنية، وكنا نصرخ : يا قومنا، يا أهلنا، يا آلنا، نحن المقصودون لا صدام، والله ما معه نحن ولا ضد الكويت لكننا نخاف على دين شرفنا به فى قلوبنا و أمة نحمل أمانتها فى أعناقنا و أجيال تأتى بعدنا لا نريد لهم أن يكونوا عبيدا لأعدائنا، يازعماءنا يا ملوكنا يا رؤساءنا، والله ما أحببنا صدام قط، وما أيدناه قط، و أقوالنا منشورة و آراؤنا معروفة فقد كان قلبنا ينفطر دائما على

حماقات تهدر قوى الأمة، فأدنا صدام أشد الإدانة عندما بدأ حربه الظالمة الغشوم ضد إيران مهدرا قوى الإسلام والمسلمين، و أدناكم أنتم أيضا عندما ساعدتموه على باطله بالمليارات والسلاح، ولم تمنعنا إدانتنا له من إدانة الإمام الخميني أيضا عندما رفض في مرحلة من مراحل الحرب وقف القتال، لم نكن إذن نؤيده، أنتم الذين أيدتموه، ولم نؤيده في غزو الكويت، لكننا رفضنا شطر العالم العربي وتمزيقه وتسليم مقدراتنا و إرادتنا لمن يصف قائدا من أكبر قوادنا - وهو للفاجعة قائد حربكم في الخليج - بأنه لا يعرف الفارق بين الكلاشينكوف والواقي الذكري، لم نكن نحن، كنا فقط نخاف على رايات يجب علينا ألا نسلمها لأجيال تأتي بعدنا مدنسة منكسة، كنا نخاف أن يتدهور حال عالمنا العربي والإسلامي إلى مستوى لم يسبق له مثيل، كما هو الآن حادث.

صرخنا بكم فصرختم فينا، وادعيتم أمام العالم أننا مجرد شراذم لا رأي لها ولا قيمة وأن الأمة كلها خلفكم على قلب رجل واحد، رغم أنهم في الخارج يفهمون أن الأمة لا يمكن أن تجتمع على رأي رجل واحد إلا إذا كان هذا الرجل طاغية جبارا باطشا سفاحا يطيح برقاب من يخالفونه الرأي، و أن مثل هذا الرجل الذي يجمع أمته على رأي قلبه لا يمكن أن يكون له قلب، ولا عقل أيضا.

كنا نرى الحشود التي يعدونها لنا، بأموالنا، على أرضنا، بمساعدة جيوشنا وحكامنا، وكنا نراها كما أثبتت الأحداث بعد ذلك جيوش الغرب لفرض الهزيمة النهائية على العرب.

لقد اشتركت الدول العربية بحوالي ٢٠٠,٠٠٠ فرد + ١٥٠٠ دبابة في هذه العملية .

يا إلهي.

لو جيش العرب هذا الجيش فقط إزاء إهانات نتنياهو لهم هل كان لهذه الإهانات أن تستمر.

آآآآآه . . . .

آآه.

لقد قلنا لكم النتائج قبل أن تحدث، الآن تقولها الأهرام فى صفحتها الأولى، لكن بعد أن حدثت ولم يعد إلى تجنبها سبيل . . . . يالها من مأساة ويالها من كارثة . .

إن جميع ما نحذركم منه يحدث ولكنكم لا تتعلمون الدرس أبدا..

أبدا . . . . نتشتت بددا . . . ولا تعون الدرس أبدا . . على جميع المستويات وفى كافة الاتجاهات يصدق ما نحذركم منه، لكنكم لا تقتنعون ولا تفهمون إلا بعد ستة أعوام أو عشرة أو عشرين عاما، فتتدافعون بالمناكب مهرولين كى تتداركوا ما فاتكم، ما سبق أن نصحناكم به، بعد أن سبق السيف العذل .

هل نسيتم أيامها كم ناشدناكم أن تكون قرارات مؤتمر قمتكم درعا للعرب والمسلمين لا ثغرة يتسلل منها أعداء الإسلام والمسلمين، فيمتطوا ظهورنا ويحاصروا بلادنا، وينهكونا، حتى تكون النتيجة الطبيعية لقرارات مؤتمر قمتكم الفائت أن يصفكم باراك بأسوأ الصفات وأن يأتى فى النهاية نتن ياهو، أجل يا جلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات : بقرارات مؤتمر قمتكم الماضى أنتم الذين انتخبتم نتن ياهو، ترى : لو شارك هو بنفسه فى صياغة مشروع قرارات ذلك المؤتمر هل كان يمكن أن تكون أسوأ، وهل كانت تداعياتها وكوارثها ستكون أفدح.

فى كتابه عن حرب الخليج يقول محمد حسنين هيكل: "... وكان تعليق أحد كبار مستشارى الملك حسين على المشروع قوله أنه يشعر أنه ترجمة إلى اللغة العربية وليس كتابة أصلية باللغة العربية . . . . كانت هناك وجهة نظر تقول أن النص الوارد فى المادة (٣) وهو الخاص بإدانة العدوان العراقى على الكويت ورفض نتائجه- يطلب من العراق فى آخره سحب قواته من الكويت فورا، و إعادتها إلى مواقعها السابقة على تاريخ ١/٨/١٩٩٠. وليس هذا هو التاريخ الذى وقع فيه الغزو العراقى بتوقيت المنطقة العربية. فالغزو وقع فجر ٢ أغسطس، وبالتالى فمن المنطقى أن تطالب المادة بعودة القوات العراقية إلى مواقعها السابقة على تاريخ ٢وليس ١ أغسطس ١٩٩٠ . وفى وجهة النظر هذه فإن تاريخ

١أغسطس هو التاريخ الذى وقع فيه الغزو طبقا لتوقيت الولايات المتحدة."

كريستوفر يصرح – علانية لا خفية – بأنه سيتصل بالزعماء العرب قبل القمة . . وكتابهم يصفون أكبر قواد العرب فى العصر الحديث بأنه لا يعرف الفارق بين . . . وبين . . . .، يا إلهى، لو كان محمد حسنين هيكل قد صدق، وكانت قرارات مؤتمر قمتكم البائد قد صيغت فى واشنطن ففى أى وكر ملعون من أوكار الشيطان ستصاغ قرارات مؤتمراتكم القادمة، ومن سيصوغها، باراك أم كيسينجر أم كلينتون أم نتن ياهو.

آآآآه

من الحلق مرة ومن القلب إلى أبد الأوابد.

يا جلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات : تراكم لاحظتم كيف تحولت معاملة أمريكا و إسرائيل لنا ولكم بعد أن شقت صفوفنا وقادت نصفنا ليسحق نصفنا، وياجلالة الفخامات ويافخامة الجلالات هل تدركون أن هذا التدهور الذى لم يسبق له مثيل – كما تصفه الأهرام – هو النتيجة المنطقية لقرارات مؤتمركم قبيل الحرب العالمية الثالثة التى لم يكن سوانا وقودها ولظاها، النتيجة المنطقية التى حذرنا منها، وياجلالة الفخامات وفخامة الجلالات هل تدركون أن التدهور السابق على ذلك كان هو الآخر بسبب سياساتكم وممارساتكم . ألم تتساءلوا قط : لماذا كل هذا التدهور المذل و لماذا كل هذا التوتر المخيم فى سماوات شمسها غائبة مغيبة وهواؤها مسموم، هل هو بسبب العدو أم بسببكم، بسبب لا معقولية الممارسة السياسية فى عالمنا العربى والإسلامى، عبث الحكم وفساد الحاشية، إهدار المنطق وافتقاد المنهج و هدر الإمكانيات .

هل يمكن فى هذا الإطار يا جلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات أن نستنكر صرخة الذبيح إذ يذبح، أو أن ندين رد الفعل الجامح لبعض المبدعين ؟ هل يمكن أن نترفع مشمئنطين من عنف أحمد مطر أو أن نستنكر بازدراء شعر مظفر النواب بما فيه من ألفاظ

فظة، لكن كيف كان يمكن أن يعبر بأسلوب آخر و أفعالكم على ما هى عليه، كيف يمكن أن نعتب عليه، بل كيف يمكن أن نرفضه إذ يقول :

القدس عروس عروبتكم . .

فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها . .

ووقفتم تسترقون السمع وراء الأبواب . .

لصرخات بكارتها . .

وسحبتم كل خناجركم . .

وتنافختم شرفا . .

وصرختم فيها أن تسكت صونا للعرض . .

فما أشرفكم . .

أولاد القحبة هل تسكت مغتصبة . .

أولاد القحبة . .

* * *

يا جلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات :

أعترف بين أيدى جلالاتكم وفخاماتكم- وهو أفضل على أى حال من الاعتراف معلقا مكهربا مجلودا بين أيدى جلاديكم - بأننى كمظفر النواب مبتذل وبذىء وحزين.

منذ خمسين عاما كان نصف القدس فقط عروس عروبتنا . .

منذ ثلاثين عاما - بعد عشرين عاما من ممارساتكم - انضم إليها النصف الآخر أيضا . .

الآن لا تكاد توجد عاصمة عربية إلا وهى عروس عروبتكم، تسترقون السمع وراء الأبواب لصرخات بكارتها . .

بغداد وطرابلس والخرطوم . .

القاهرة والرياض وعمان . .

بيروت والكويت والخليج كله . .

كلها عروس عروبتكم . .

العواصم تصرخ، والمدائن تصرخ، والحناجر والقلوب تصرخ، وثأر الله يستصرخنا ألا نصمت، لكن أنظمتكم تقتلع ألسنتنا وتشق حناجرنا وتكمم أفواهنا، وتكبل بالقوانين صحفنا، ثم تغيبوننا في السجون أو في القبور بقوانين ما أنزلها الله أو بلا قوانين على الإطلاق.

الكل يصرخ :

اجتمعوا في مؤتمر قمة لتدارك مأساة أمتكم. .

ومؤتمر قمة لا يخطو ولو بضع خطوة نحو الوحدة وتنسيق الخطى ليته ما انعقد.

ومؤتمر قمة لا يجمد قرارات التطبيع - حتى نتمالك قوانا فننتقل من التجميد إلى ما سواه - ليته ما انعقد .

ومؤتمر قمة لا يواجه صلف مجلس الهلاك والعدوان والفجر - لا مجلس الأمن - ويرفع الحصار عن إخوتنا في العراق وليبيا والسودان ليته ما انعقد.

ومؤتمر قمة لا يثأر ولا يرد على فجر دول وعهر أنظمة استمرأت بالمعايير المزدوجة أن تذل كبرياءنا، فيصل بهم الأمر إلى تجاهل حقائق دامغة عن ترسانة نووية في نحورنا ، واختلاق مجرم عن سلاح كيماوي هنا و صاروخ هناك، ليته ما انعقد.

لن نكف عن الصراخ بكم ياولاة أمورنا.

لن نكف .

* * *

فهل يمكن ياجلالة الفخامات ويا فخامة الجلالات أن توقفوا دخول زناة الأرض إلى عروبتنا و إسلامنا ؟

وهل نواصل الصراخ . . .

أم نصمت صوتنا للعرض ؟!...

جلالة الملك فخامة الرئيس .."٦"

بغداد عروس عروبتكم

{١}

نداء إلى الكويت

لا أعرف لمن أوجه هذا النداء في الكويت، لكنني أوجهه لمن يعيه، ولمن يحرص على الكويت ، شعبا وحكومة، أو شعبا دون حكومة، أو بعضا من الشعب وبعضا من الحكومة.

إن ما يحدث الآن مع العراق، من أمريكا ومنكم ومن العالم، لن يمر بلا عواقب.

ذلك أنه بغض النظر عن العقل والمنطق لا يصيب العراق فقط بل يصيب الأمة كلها ، فأحمق و أعمى من يظن أمريكا تذل العراق من أجل الكويت، بل من أجل مصالحها ومصالح إسرائيل تفعل، تلك كانت بداية الحكاية، وذلك وسطها وستكون تلك نهايتها، لذلك فإن كل من يساعد أمريكا اليوم على حصار العراق - أو أي بلد عربي أو إسلامي آخر- إنما يساعد إسرائيل على محق الأمة كلها. أولئك القردة والخنازير الذين يعتذرون للخنازير إذ شبهت عاهرة منهن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام بها.

أنا واحد من الناس - أعتقد أن معظم رجالات الأمة يشعرون كما أشعر- لم أحب أبدا صدام حسين كما لم أحب أيضا أى حاكم عربى تقريبا، وبالرغم من ذلك فإن نتنياهو أبغض إلىّ منهم جميعا.

وأنا واحد من الناس - أعتقد أن معظم رجالات الأمة يشعرون كما أشعر- أدنت بكل القوة والعنف غزو العراق لكم، لكننى أدنت أكثر بكثير استيلاء اليهود بنى إسرائيل على فلسطين.

وأنا واحد من الناس - أعتقد أن معظم رجالات الأمة يشعرون كما أشعر- كان يمكن أن أقبل أن تقوم الأمم المتحدة أو حتى أمريكا بعقاب حكام العراق وحتى شعبها، لكن إذا لحق عقاب أشد بما لا يقاس بحكام إسرائيل وشعبها. لأن جرائمهم أكبر و أفدح بما لايقاس.

آن لكم أن تفهموا- وكونكم لم تفهموا حتى الآن كارثة - أن أمريكا هى إسرائيل و إسرائيل هى أمريكا، وكليهما لا يرون فى أفضل و أشرف و أعظم من فينا سوى خنزير يكتب القرآن، ألا إنهم هم الخنازير .

إن الأمور تتفاقم وتستفحل وتتدنى حتى تصل إلى ما حدث فى حادثة غرق الطفل الكويتى فى بانيو حمام جناح أسرته فى أحد فنادق شارع الهرم، والذى لم تجد أمه ما تدافع به عن إهمالها لمتابعته ، وخوفا من الطلاق إلا أن تتهم به العراق، بعد أن وصل بها الأمر إلى مالا يكاد يصدق، عندما - لكى تحبك روايتها ، وهى أمه - ألحقت بجثته بعض الإصابات بيديها وبقصافة الأظافر، وبررت ذلك حين اكتشافه بأنه الحرص والخوف، تماما كما تبررون بالحرص والخوف طعناتكم فى جسد أمتكم الكبرى بموضوع الأسرى. ولعل لكم الحق فى عودة أسراكم، لكن ليس على جثة أمتكم.

يقول الحديث النبوى الشريف أن الأحمق من يشترى

دنياه بآخرته، لكن الأحمق منه يشترى دنيا غيره بآخرته.

و لعلى أرى يامعشر الكويتيين أنكم - و اعذرونى - قد تجاوزتم الحماقتين، لأنكم بما يحدث الآن لا تخسرون الآخرة فقط، ولا تعينون غيركم على أن يكسب دنياه فقط، بل إنكم تتجاوزون ذلك إلى خسارة دنياكم وآخرتكم فى سبيل أن يحصل عدونا وعدوكم على دنياه كما يرغبها.

لن أدخل معكم فى كثير من التفاصيل التى أكل عليها الدهر وشرب وبال وغاط.

لن نتحدث عن أن العراق والكويت جزء من أمة واحدة، و أن فى الأمور التباسات كثيرة.

لن نتحدث عن شرعية وجود الدويلات والدول والخرائط فكلها حدود صنعها أعداؤنا كى يفعلوا بنا ما يفعلونه الآن تماما تماما.

ولن نتحدث عن ملاحم الفتنة التى قادتها أمريكا وحركتها ودفعتها وحاكتها موظفة كل دول العالم العربى والإسلامى فى أدوار الكومبارس المعاونة، ولقد كانت أدوارا خسيسة وحقيرة ومشينة وربما خائنة.

لن نتحدث عن أنه مامن دولة عربية أيدت غزو العراق لكم ولكنكم وغيركم وقد أملى عليكم المخرج الأمريكى الحوار والسيناريو رحتم تشقون الأمة لتقسموها إلى مؤيدين لصدام يجب مقاطعتهم ومؤيدين للكويت، وحتى هؤلاء خذلتموهم عندما أملى عليكم المخرج الأمريكى أن تخذلوهم.

يا معشر الكويتيين : لقد كشف الدكتور عصام الطاهر فى كتابه القيم : الكويت ... الحقيقة "دار الشروق عمان" فضيحة ما أدرى لماذا لم تردد أصداءها

الآفاق، ربما لأن هناك من مازال يحرص أن تبقى خفية، حين كشف أنه في عام ١٩٦٢ قرر عبد الكريم قاسم ضم الكويت، وتحركت القوات الكويتية الرمزية - أو على الأحرى الهزلية - لترابط على حدود الكويت ، وهناك كان ثمة ضابط - مجازا - في نقطة القيشعانية أبلغ عن تحرك القوات العراقية تجاه الكويت، ولم يكن ما رآه كما اكتشف الكويتيون أنفسهم سوى أضواء سيارتي الدورية المعتادتين ، لكن الأمير الصباح كان قد استدعى - في نفس الليلة-القوات البريطانية التي وصلت -في نفس الليلة!-، ليكتشف الدكتور عصام الطاهر أن هذه القوات، قد بدأت التحرك نحو الكويت قبل عشرة أيام، أي قبل أن يعلن العراق تهديده بأسبوع!! يقول عصام الطاهر :" كما دل على ذلك كلام كابتن هنسلي ، حين أفاد بان القوات البريطانية كان قد مضى عليها عشرة أيام في الطريق قبل وصولها الى شواطىء الكويت . . فكيف اتفق ذلك مع ما ادعاه آمر موقع "القشمانية من أنه رأى تحركات عراقية اتخذت كمبرر للاعلان الرسمي للأمير عند طلبه للقوات البريطانية لحماية الكويت . وهي القوات التي كانت قد وصلت شواطىء الكويت ونزلت أرضها فعلا قبل هذا الاعلان الرسمي لدعوتها. ."

يا معشر الكويتيين قد نمكث أربعين عاما أخرى قبل أن نعرف تفاصيل ما حدث أيامها وكيف استدرج العراق - بحماقة - وقد نلبث مائة عام حتى نعرف ماحدث حين استدرج في المرة الثانية - بمنتهى الحماقة- ، لكننا على أي حال ندرك منذ الآن أن الحفاظ على الحدود التي وضعها المستعمرون لبلادنا، والإبقاء على الدويلات التي زرعوها في ربوعنا يجعل الجغرافيا في عالمنا الإسلامي والعربي تحارب التاريخ وتعرقل مساره ومصيره.

لن نتحدث عن صدام، وما كانت أمريكا بعاجزة عن قتله، وما كانت أيضا عاجزة عن قتل أى عربى حاكما كان أم محكوما، لكنها تبقى من تشاء ليقوم بالدور الذى تشاء، وترقى من تشاء وتبعد من تشاء وقد انحدر بنا الأمر أقل حتى من مستوى الكومبارس لنصبح مجرد قطع جامدة على لوحة شطرنج.

إن أخطاءنا جميعا فى حق الله أخطاء فادحة . .

وذلك أمر قد لا يهم الكثيرين منا . .

و أخطاءنا فى حق التاريخ والجغرافيا والحضارة والمنطق أيضا أخطاء فادحة . .

وذلك أمر لا يكاد يأبه له أحد . .

و أخطاءنا فى حق شعوبنا جرائم . . .

لكنها جرائم ينال مرتكبوها المناصب والأوسمة والدعم . .

لن أحدثكم إذن فى أى شيء من ذلك . .

أحدثكم ببساطة فى المصالح المباشرة . . .

إن من يقتل اليوم ويمتهن ويذل شعب العراق لا صدام، وسوف يبقى شعب العراق وسوف تبقون وسوف يبقى ثأر. ولن تكون أمريكا بأحرص عليكم من حرصها على أهل فلسطين أو أهل البوسنة والهرسك ، فما أنتم بالنسبة لها سوى حراس بترولها ومصالحها فإذا نضبت آباركم أو خفت حاجتها إليه تركتكم لثأر لن يطول انتظاره، لن ينتظر حتى لأجيال أبنائكم بل سيلحقكم أنتم. مامن شيء فى هذا الوجود يضيع، وكل ذل وكل جوع وكل عرى وكل تخلف وكل تهديد للوجود يلحق بشعب العراق اليوم ستدفعون ثمنه : ذلا وجوعا وعريا وتخلفا وتهديدا للوجود، بغض النظر عن صواب ذلك أو خطئه، و أنا واحد من الناس أقول منذ الآن بخطئه،

بنفس الدرجة التى أقول بها أن ما يحدث للعراق خطأ.

على أن خطورة الأمر بالنسبة لكم يامعشر الكويتيين لا تقتصر على ذلك . .

فثمة شعور مقموع يترسخ فى أذهان الأمة يوما بعد يوم، لا يكاد يتناوله من الباحثين تحت ظلال سيوف النظام العالمى الجديد أحد. ويطرح هذا الشعور المقموع أسئلة عديدة أحدها : ما هو موقف الأمة تجاه إحدى دويلاتها أو حتى دولها تشكل بالنسبة للأمة حصان طروادة الذى ينفذ منه الأعداء ليدمروا الأمة كلها؟ . . ما هو الموقف عندما يشكل وجود دولة أو دويلة تهديدا لوجود محيطها الأكبر و أمتها و دولتها المفترضة الكبرى؟ . ماهى شرعية وجود واستمرار تلك الدولة أو الدويلة؟ .

لن تظل أمتنا مغيبة عن الوعى إلى الأبد، سوف تنهض و إن طال الانتظار، وسوف يتصدى لتلك الأسئلة من يجيب عليها، وسوف يكون مما يجيب عليه قولا وفعلا ذلك السؤال.

يامعشر الكويتيين : ليس ثمة إجابة لهذا السؤال سوى إجابة واحدة ، فأدركوا أنفسكم وبلدكم و أبناءكم وشرعية وجودكم قبل أن يتصدى للإجابة على السؤال أحد.

{ب}

بغداد عروس عروبتكم

سبحانك ......!!

عندما تضع لنا الرموز مسطورة في كتاب الوجود لكن قلوبنا العمياء لا ترى ..

يخيل لنا أحيانا أن الأمور تتغير، و أن العميان يمكن أن يبصروا ، والأغبياء يمكن أن يفهموا والجهلة يمكن أن يتعلموا، و الخونة يمكن أن يتوبوا، و أن قصار النظر يمكن ذات يوم أن يروا أبعد من أرنبة أنفهم.

إن الكثيرين، الكثيرين جدا قد استرخوا بعد اتفاق بغداد وكأن المؤامرة انتهت، وخطة المجزرة ألغيت، ويبدو أنه عيب متأصل فينا.

في الأسابيع الماضية، طوال الأسابيع الماضية *، أتجنب الكتابة عن العراق ما استطعت، كانت الهواجس تنتابنى أحيانا ، فيكذب عقلى قلبى، وكان قلبى يمور بمراجل من الغضب، لست أدرى كيف تترجمها الكلمات.وطول الوقت، تلح علىّ تلك الحادثة ، التى نشرت في الصحف واهتزت لها أفئدة الناس حينئذ بالفجيعة والأسى، حينما قيد أب معصمى طفله وشد الوثاق ، عقابا ، تحجر قلب وقسوة نفس وذهاب عقل، وطال شد الوثاق الذي ضاعفه الأب الأحمق بأن علّق طفله من يديه، كما يفعلون في أقسام الشرطة وأوكار مباحث أمن الدولة، انقطع سريان الدم عن يدى الطفل ، وتغير لونها، فهرعت به أمه إلى المستشفى، لكن الوقت كان قد

* أثناء الحشد الأمريكى الأخير الذى أجهض عدوانه على العراق اتفاق كوفى عنان .

فات، ولم يكن ثمة مفر بعد المحاولات اليائسة، من بتر يدى الطفل المسكين، وغــرق الأب في ذهوله، وعندمــا ذهب ليــرى طفله في المستشفى، طفله البرىء المسكين، اعتذر له ابنه ، وأخذ يقسم أيمانا مغلظة أنه لن يعصاه بعد ذلك أبدا ، ثم راح يتوسل إليه في براءة دامية، أنه وقد اعترف بالخطأ ، وقسمه أنه لن يعود إليه أو إلى عصيان أبيه بأى صورة، فقد آن إذن لأبيه أن يعيد له يديه المبتورتين.

لم يطق الأب، ذهب إلى منزله، وقضى ليلة لا يعلم إلا الله فيما فكر فيها، وفى الصباح، قفز من شرفة بيته، فمات .

سبحانك .. لا باقى إلا أنت ...

ياولاة أمورنا – و أريد أن أناديكم بأسمائكم فردا فردا ، فخامة فخامة وجلالة جلالة و أميرا أميرا لكن الرقيب داخلى، يردعنى – يا ولاة أمورنا أعيدوا إلى الأمة التى طالما شددتم عليها الوثاق أيديها المبتورة ... أعيدوها . أو اذهبوا فموتوا .

أعيدوا إلينا أيدينا المبتورة، قوتنا المهدرة، عقولنا المخدرة، ووعينا المفقود.

أعيدوا للإنسان كرامته، أوقفوا التعذيب......

أعيدوا للإنسان حريته، أوقفوا تزوير الانتخابات......

أعيدو للمنهوبين ثروتهم، توقفوا عن تكديس أموالنا فى أرصدتكم...

افعلوا ذلك أو لا أمل إلا فى أن يتم التغيير على أجداثكم لا على أيديكم....

طوال الأسابيع الماضية تقصف الأنباء حول العراق رأسى ، أمور بالمشاعر ، أكاد أنفجر، أتطاير شظايا و أتفتت تفتت أشلاء شهداء مخبأ العامرية، أترقب انفجار الكون حولى، و أنا عاجز بلا حول ولا قوة، لا ولى أمرمن ولاة الأمور أصرخ في وجهه : وإسلاماه فيعصمنى ، ولا أمة تملك من العقل والكرامة حدا أدنى يجعلها تلملم مزقها وتستر عرضها فتؤازرنى وحتى الله لا يستجيب دعائى .

نفسي، عجولا فزعا، فلقد علمت أن السيد كلينتون ، الذى يتبعه عبدة الشيطان، سيوجه خطابا إلى العالم العربى، فمالى لا أهرع إذن، فبرغم كل التحليلات التى تتحدث عن إرهاص هنا وتمرد هناك فإن الواقع المرئى يشى بأن ناصيتنا بيده ،ومصير بلادنا مرهون بقراره، بعد أن سلمه حكامنا الأوراق كلها، وراحوا يطيعونه كما لم يطيعوا أبدا الله أو خليفة للمسلمين، حدود بلادنا بل ووجودنا معلقة بكلمة تصدر من فيه، و بإشارة من إصبعه سوف يشتعل الهواء ويجف الماء ويحترق الشجر ... وتتناثر أشلاء البشر والأوطان.

كنت أستعيد مقطوعة من الشعر العربى القديم تقول:

وحكام رجوناهم دروعا . ˚. فكانوها ولكن للأعادى

وخلتهموا سهاما صائبات . ˚. فكانوها ولكن فى فؤادى

وقالوا صفت منا قلوب . ˚. لقد صدقوا ولكن عن ودادى

وقالوا قد سعينا كل سعى . ˚. لقد صدقوا ولكن فى فسادى

ومقطوعة أخرى ينزف فيها الشاعر:

جعلتكم درعا حصينا لتمنعوا . ˚. سهام العدا عنى فكنتم نصالها

وكنت أرجو عند كل ملمة . ˚. تخص يمينى أن تكونوا شمالها

دعوا قصة الأعداء عنى بمعزل . ˚. وخلوا العدى ترمى إلى نبالها

إذا لم تقو نفسى أن تخلص نفسها. ˚. فكونوا سكوتا لا عليها ولا لها

* * *

كان عقلى ينبئنى - قبل الاتفاق و أيضا بعد الاتفاق - أن الضربة آتية لاريب فيها، قد تأتى اليوم أو بعد أسبوع أو بعد شهر أو بعد عام أو بعد عشرة أعوام، فما دام حكامنا لايفهمون الدرس أبدا فلابد أن ننتظر الضربة القاصمة، ترى هل تأتى الضربة غدا أم بعد غد أم يقرر مولانا كلينتون تأجيلها، ها نحن ننتظره

انتظار الخراف لسكين الجزار، فيحاول قلبي أن يحافظ على توازني فيهتف لي بل ستحدث معجزة توقف الضربة، فأجل صراخك، كما تؤجل صراخها أم تنتظر إلى ابنها في فراش الموت تنتظر المعجزة التي تعيده إلى الحياة، معجزة لا يصدقها عقلها، لكنها تكبح الصراخ والنواح كي لا يكونا نذير شؤم، متوعدة العالم في الوقت نفسه، أنه عندما يموت، فسوف تنتقم من هذا العالم، بأن تصدع بصراخها أركانه.

كانت بعض التحليلات تقول أن الغرب متورط بعد أن كشف من أوراق عنصريته أكثر مما ينبغي، و أنهم - ربما - سيخشون رد فعل العالم، وكنت أقول لنفسي أنهم ربما يخشون أيضا رد فعل العرب، الذين لم يموتوا تماما بعد، فالعرب أشبه بأسد جريح، يبدو وكأنه يعالج سكرات الموت لكنه لم يمت بعد، و أنهم قد يخشون ألا تكون ضربتهم قاتلة فينهض الأسد ليواجههم ويلحق بهم الضرر، كان هذا التحليل يقدم نوعا من الطمأنينة أن الضربة لن تحدث، ولم أكن أنا نفسي مقتنعا بما أقول، لكنني خجلت أن أعترف أنني أظن أن الضربة ليست قدرا مطلقا، و أنها يمكن فعلا ألا تحدث، بل إنها أغلب الظن لن تحدث، ولكن لأسباب أخرى غير المنطق، ذلك أنني فكرت، بمنتهى الضعف والذلة والمسكنة، فقدرت أننا لن نهون على الله!! .فسقنا وعصينا وكذبنا وسرقنا وقتلنا أنفسنا وعذبنا وزورنا وعزرنا ظلما و أعدمنا وحبسنا وسفكنا الدماء وولينا علينا شرارنا ورجمنا خيارنا وما اتبعنا شرعه، لكننا لن نهون على الله، لأنني أخشى يارب، أن نكون كما نخشى نعاني سكرات الموت فعلا ، وليس كما يظن أعداؤنا، مايزال فينا رمق يخيف، أخشى يارب أن نكون قد وصلنا إلى حال لا يحتمل ضربة أخرى، ضربة واحدة أخرى ونموت، نذوب ، نتلاشى كما تلاشى الهنود الحمر، سيستبقون عشرة أو عشرين منا ، يحافظون عليهم كما يحافظون على الحيوانات النادرة، يارب ، أنت تعلم الجهر وما يخفى، ترى قلة حيلتنا وهواننا على العالم، وترى أننا نحاول، من المؤكد أننا لم نحاول كما تجب المحاولة، و أننا لم نحرص على الموت كي تهب لنا الحياه، و أننا نستحق كل ما يحيق بنا، لكن رحمتك أوسع لنا، رحمتك أوسع لنا،رحمتك أوسع لنا .

و أنا أصعد درجات السلم وثبا كنت أترنم بمقطوعة الشاعر أحمد مطر:

اثنان في أوطاننا

يرتعدان خيفة

من يقظة النائم:

اللص . والحاكم !!

أردت أن أضيف على شعر أحمد مطر : و أيضا أمريكا وإسرائيل.

تذكرت و أنا أتجه نحو المصعد ولاة أمورنا، أولئك الذين كانوا يجب فى الملمات أن أستجير بهم، فإذا بى أستجير منهم :

الناس ثلاثة أموات في أوطانى.

والميت معناه قتيل .

قسم يقتله " أصحاب الفيل".

والثانى تقتله " إسرائيل".

والثالث تقتله " عربائيل "

وهى بلاد تمتد من الكعبة حتى النيل .

والله اشتقنا للموت بلا تنكيل !!.

والله اشتقنا واشتقنا ثم اشتقنا .

أنقذنا يا عزرائيل .

رحت بينى وبين نفسى أتخيل كم الألم والعذاب الذي يحمله لنا كل يوم فطفقت أردد : أنقذنا ياعزرائيل ..

أمام المصعد كنت أفكر فى اكتمال الفساد واستحالة الإصلاح والأمل دون منهج متكامل. فالاعوجاج في الأصل، وهو اعوجاج لا يمكن تقويمه إلا بكسره. لكن كيف يمكننا كسره دون أن نكسر الأمة،

كيف يمكن أن نلفظ حكامنا وولاة أمورنا دون حمامات دم يذبحنا فيها المجرمون كما يذبحون الدجاج، أو في حرب أهلية لا تبقي ولا تذر، كيف ، كيف كيف ؟؟، تلك هي المعضلة.

في المصعد، قلت لنفسي ، أننا مررنا بمراحل من العمر والحزن تشبه طوابق المبنى، كلما وصلنا إلى طابق ظننا أنه الأخير، أنه لا طوابق بعده، لم نكن نتخيل ألما أفدح من سقوط فلسطين عام ٤٨، ألقينا باللائمة على الاستعمار والتخلف، ومنينا أنفسنا باكتساح العدو فور تقلد أمورنا بأيدينا، ٥٦ هُزمنا عسكريا لكن حلاوة النصر السياسي الاستراتيجي أنستنا الهزيمة، في ٦٧ انفطر القلب وانشطر الكبد وانسحقت الروح وزاغت الأبصار، أذكر أيامها كيف تحجرت دموعي، صعيدي يرفض أن يذرف دمعه قبل أن يأخذ ثأره، لم أستطع البكاء إلا بعدها بعامين، عام ٧٣ والنصر المهيض الذي أهدرناه بالحماقة والتهريج، زيارة القدس، كامب ديفيد، حرب الخليج الأولى وغضبي على صدام ثم غضبي من الإمام الخميني أيضا، كان صدام قد أخطأ بالعدوان و أخطأ الخميني بالإصرار على الاستمرار وقلبي ينزف وثمة من يدافع عن البطل الأشوس صدام حسين الذي يحرس بوابتنا الشرقية ضد خطر الفرس المجوس ، وفي دخان الحرب تغزو إسرائيل لبنان، فلا يتحرك من أشاوس العرب أشوس، الذل اليومي في علاقتنا بإسرائيل، تعضيد أمريكا و إسرائيل لأي فساد في العالم العربي على أي مستوى ، من قادة الدول إلى قواد المومسات، و جلستي في القطار ذات يوم لأفاجأ بأن جاري الأجنبي إسرائيلي فأسأل نفسي ترى من قتلت من أهلي ثم أسأل نفسي هل يمكن أن يتحول الكاتب إلى قاتل، ثم حرب الخليج الثانية وصراخنا على مايمكن أن يحدث لنا، ولو أن ما حدث قد حدث لجهل أو لضعف أو لغفلة لما كان الخطب هائلا هكذا ، لو أن أحدا منا لم يتدارك أو يفهم أو يحذر لما كانت المصيبة فادحة هكذا، لكنهم وقعوا في الفخ، والذين كانوا يشعلون أصابعهم- وضمائرهم- قناديل بين يدي صدام حسين انقلبوا عليه، وراحوا يتنابحون ناسين أن المهزوم هم نحن والمقتولون هم نحن، لا كناية ولا استعارة ولا تشبيها ولا مجازا بل أوطانا وشعوبا وقبائل، ويصرخ نزار قباني:

ولم أر إلا جرائد تخلع أثوابها الداخلية..

لأى رئيس من الغيب يأتى .

و أى مراب يكدس في راحتيه الذهب .

أنا منذ خمسين عاما أراقب حال العرب.

وهم يرعدون ولا يمطرون.

وهم يدخلون الحروب ولا يخرجون.

* * *

خدعونا، شاركوا معنا في ضرب العراق وسنحل لكم مشكلة فلسطين ، فانخدعنا أو قبضنا الثمن ، وانفضح الخبىء عندما أعاد خالد محمد خالد كيسا من الذهب أُهدى عليه، كان قد ارتكب خطيئة عمره - غفر الله له - فكتب أدركنا بها يابوش، والضمير يعود على الحرب ، وهاجمته بضراوة أيامها، أما الآخرون، الذين لم يعيدوا أكياس الذهب، فقد واصلوا توسيع كل ثغرة تنال من الأمة، كنا نصرخ أن أساس بيت العرب والمسلمين يُقتلع من جذوره، وأن الدور آت على الجميع لكن هل يرى الأعمى؟، ورحنا نحذر ونشرح خطة الغرب لحصارنا وتصفيتنا، و أننا نمارس حكمة "الدجاج الأبيض" راقدين في أقفاصنا لا نفعل أى شئ إلا انتظار الذبح دون أى مقاومة ، ياليتنا أخطأنا وأصابوا، لكن الأيام تمر فنذل في مدريد ونغتصب في أوسلو ولم يعد لنا حول ولا قوة.

يكمل المصعد صعوده إلى الطابق الذي لا طابق بعده، أدس المفتاح في الباب على عجل كى أدرك فى نشرة أخبار الثانية عشرة رسالة كلينتون إلى العرب، فتحت التلفاز لكن الوقت كان قد مضى، يبدو أن الخطاب قد أذيع وانتهى ، كانوا يذيعون أقوال الصحف، وكلينتون وتابعه بلير يهددان بالمحرقة، هل كان خطابا أم إنذارا بالحرب؟ ، ربما كشف حتى عن موعد الحرب، ربما هتف مثل ذلك المغولى القديم : يا عرب: الزموا أماكنكم حتى أذهب إلى بعض شئونى ثم أعود لأقتلكم، فنمكث ثابتين بلا حراك حتى يعود فيقتلنا، أجل، بلغ بنا الهوان أنه ربما لا يخفى عنا ميعاد ضربته،

ترى كم خائنا من حكامنا يعرف مسبقا بموعد الضربة بعد أن أيدها خفية و أنكرها جهرا، يارب، هل أدعوك بأن تقصمهم؟ وهل نحن نستحق تلك المعجزة ؟ أم أدعو بأن تبث شيئا من الرحمة في قلوب الوحوش الكاسرة التى ستلتهم العراق غدا ونحن جميعا بعد غد، بعض رحمة، فليقتلوا عشرة آلاف بدلا من عشرين ألفا، أو مائة ألف بدلا من مائتى ألف؟ يارب ..يارب ..يارب .

وفجأة هتفت غاضبا : مالذى أوصلنا إلى هذا الحال؟

وارتدت الذاكرة فلاح لمخيلتى صفوف جنود المصريين عائدة في سيناء في صيف ٦٧ ، يقتلهم الحر والجوع والعطش حفاة عراة، لم نكتشف يا إخوتنا الراحلين إلا بعد ثلاثين عاما أنهم دفنوكم أحياء وقتلوا الأسرى مقيدين، ظننت أيامها أنه ما من مصيبة ستصيبنا أعظم، الآن ذق، غدا يفعلون في جيش العراق وشعبه ما هو أكثر.....

أخذت الهموم تتكاثر كقطع الليل المبهم، ومانشيتات الصحف تقرع رأسي، وصحفيون يبيعون أنفسهم ويبيعون أوطانهم يتصدرون القوائم ، وفجأة وجدتنى أجهش في بكاء مرير، آآآآه، يا أحبابنا الراحلين يا شهداءنا ياقضايانا يا أوطاننا يادينا ياقوميتنا يا هويتنا يا تاريخنا يا أرضنا السليبة يا هزائمنا يا أبطالنا يا أعمارا تنقضى دون بصيص أمل يا وحدنا يا لضيعتنا ... ..ينكمش الوطن العربى فيصبح في حجم مخبأ العامرية، أو يتمدد مخبأ العامرية فيفرش مساحة الوطن وينطلق صاروخ أمريكى من أرض عربية فنتناثر أشلاء، شلو منها يتشكل على هيئة مظفر النواب فأراه يهتف :"بغداد عروس عروبتكم"، والمذيع في التليفزيون مايزال يقرأ أقوال الصحف، فيتبارى كتابنا في حث العراق للانصياع لقرارات الأمم المتحدة فيصرخ مظفر النواب "أبناء القحبة هل تسكت مغتصبة"، فأسائله : كانت القدس هى العروس، فتدفقت الكلمات من فيه دما ، القدس بالأمس واليوم

---

* والكتاب على وشك الطبع بعد ساعات قليلة، تذبحنا الأنباء، فإن الطاغية الجبار الجزار كلينتون، قرر أن يغسل بقع منيّه على ملابس مونيكا بدمائنا، وهاهو الجزار يقصف السودان وأفغانستان، فى غارات وحشية، والكارثة أنه ما من بلد عربى يجرؤ على الاعتراض والإدانة ، بل إن عناوين نشرات الأخبار والصحف، خاصة صحيفتى الأخبار =

بغداد، وغدا دمشق والقاهرة وطرابلس والخرطوم وطهران .

أبناء (...) أعيدوا إلى الأمة أيديها المبتورة.

عذرا يا قارئي، فما أنا والله ببذيء، لكنني أعترف بين يديك، المبتورتين، أن أفحش كلمات السباب و أشدها بذاءة ، تتلبد تلبد الغيوم داخلي، و أريد أن ألهب بها بصوت الرعد ، أولئك الذين أوصلونا إلى ماصرنا إليه.

أصرخ مع مظفر النواب :

هل عرب انتم.

واراكم تمتهنون الليل

على أرصفة الطرقات الموبوءة أيام ا لشده

قتلتنا الردة..

قتلتنا الردة..

قتلتنا الردة..

قتلتنا أن الواحد منا يحمل في الداخل ضده

و أبكي معه :

يا ملك الثوار..

أنا ابكي بالقلب لأن الثورة يزنى فيها

والقلب تموت أمانيه

و أصرخ :

السجن به قفص تلتف عليه أغاريد ميتة

= والمساء، بدت كما لو أن القوات الأمريكية على وشك احتلال القاهرة، و أنها تقدم السمع والطاعة والتأييد حتى لا تصادَرَ بعد تمام الاحتلال. تماما كما فعل الخونة مع أحمد عرابى. مالم نواجه فالدور آت على الجميع،مايحدث الآن هو اختلاف الترتيب فقط، كتب علينا القتال وهو كره لنا، وليس أمامنا سوى المواجهة أو السحق، فمتى نفهم.

ويضم بقية عصفور

مات قبيل ثلاث قرون

تلكم روحي

منذ قرون دفنت روحي

منذ قرون وئدت روحي

منذ قرون كان بكائي

و أنوح:

من باع فلسطين سوى أعدائك يا وطني

من باع فلسطين وأثرى بالله

سوى قائمة الشحاذين علي عتبات الحكام

ومائدة الدول الكبرى؟

فإذا اجن الليل

تطق الأبواب بان القدس عروس عروبتنا

أهلا أهلا

أقول لنفسى إرفع اسم فلسطين وضع اسم أى بلد عربى ، ولن يختلف الأمر..

أواصل التفتت مع الشاعر :

بغداد عروس عروبتكم

فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلي حجرتها

ووقفتم تسترقون السمع وراء الأبواب

لصرخات بكارتها

وسحبتم كل خناجركم

وتنافختم شرفا

وصرختم فيها أن تسكت صونا للعرض
فما أشرفكم
أولاد القحبة هل تسكت مغتصبة
أولاد القحبة
لست خجولا حين أصارحكم بحقيقتكم
إن حظيرة خنزير اطهر من أطهركم
تتحرك دكة غسل الموتى أما انتم
لا تهتز لكم قصبة
الآن أعريكم
في كل عواصم هذا الوطن العربي قتلتم فرحي
في كل زقاق أجد الازلام أمامي
أصبحت أحاذر حتى الهاتف
حتى الحيطان وحتى الأطفال
وإحدى صحف الإمبريالية
قد نشرت عرض سفير عربي
يتصرف كالمومس في أحضان الجنرالات
ولمن لا يعرف أن الشركات النفطية
في الثكنات هناك يراجع قدرته العقلية
ماذا يدعى هذا
ماذا تدعى تبرئة الملك المرتكب السفلس
في التاريخ العربي
ولا يشرب إلا بجماجم أطفال البقعة

أقيء لهذا الأسلوب الفج
تعالوا نتحاكم قدام الصحراء العربية كي تحكم فينا
اعترف الآن أمام الصحراء
باني مبتذل وبذيء وحزين
كهزيمتكم يا شرفاء مهزومين
ويا حكاما مهزومين
ويا جمهورا مهزوما
ما أوسخنا ما أوسخنا ما أوسخنا ونكابر
ما أوسخنا
لا أستثني أحدا
يا جمهورا في الليل يداوم في قبو مؤسسة الحزن
سنصبح نحن يهود التاريخ
ونعوي في الصحراء بلا مأوى
هل وطن تحكمه الأفخاذ الملكية
هذا وطن أم مبغي
هل ارض هذى الكرة الأرضية أم وكر ذئاب
ماذا يدعى استمناء الوضع العربي أمام مشاريع السلم
اصرخ فيكم
اصرخ أين شهامتكم
إن كنتم عربا.. بشرا.. حيوانات
فالذئبة حتى الذئبة تحرس نطفتها
والكلبة تحرس نطفتها

والنملة تعتز بثقب الأرض
وأما انتم بغداد عروس عروبتكم
أهلا..
بغداد عروس عروبتكم
فلماذا أدخلتم كل السيلانات ألي حجرتها
ووقفتم تسترقون السمع وراء الأبواب
لصرخات بكارتها
وسحبتم كل خناجركم
وتنافختم شرفا
وصرختم فيها أن تسكت صونا للعرض
فأي قرون انتم
أولاد قراد الخيل كفاكم صخبا
خلوها دامية في الشمس بلا قابلة
ستشد ضفائرها وتقيء الحمل عليكم
ستقيئ الحمل على عزتكم
ستقيئ الحمل على أصوات إذاعتكم
ستقيء الحمل عليكم بيتا بيتا
وستغرز اصبعها في أعينكم
انتم مغتصبي
حملتم أسلحة تطلق للخلف
وثرثرتم ورقصتم كالدببة
كوني عاقر يا أم الشهداء من الآن

فهذا الحمل من الأعداء

دميم ومخيف

لن تتلقح تلك الأرض بغير اللغة العربية

يا أمراء الغزو فموتوا

سيكون خرابا.. سيكون خرابا

سيكون خرابا

هذي الأمة لا بد لها أن تأخذ درسا في التخريب.

* * *

انقشعي ياغيوم وتوقف يارعد وانحبسي يا دموع ودعوني أفكر.

ألج لجة الآلام ، يتناثر الزمن ويتبعثر تبعر أشلاء شهداء مخبأ العامرية، و أشلاء أولئك الشهداء الذين لم يعرفوا بعد أنهم سيستشهدون فأرى في ركن من أركان ملجأ العامرية طرفا من بركة الذهب التى حاول المستعصم أن يفتدى بها نفسه والدولة العباسية، كانت بغداد أم الدنيا، مدينة السلام كانت، والمدينة المدورة، يقطنها أكثر من مليون ونصف وبها ثلاثمائة ألف مسجد وخمسة وستون ألف حمام، وكان الصليبيون قد يئسوا من هدم الإسلام وغزو بلاد المسلمين بعد هزيمتهم في مواقع متعددة على رأسها حطين ، فاتصلوا بالتتار و أغروهم باقتسام بلاد المسلمين، وكان المستعصم هو الخليفة وقد اتخذ الخائنين نصيرا فضللوه وأوردوه موارد التهلكة، و أقنعوه بأن ينشد السلام مع التتار على أن يتركوه خليفة، وكان كولاة أمورنا لا يعرف الفارق بين السلام والاستسلام ، وغرته الأمانى فلم يتوقع ما حدث فعلا - وما سيحدث - حين نقض هولاكو عهدا لم يكن إلا حيلة ككامب ديفيد وأوسلو. غفل عنها الخليفة أمير المؤمنين كما يغفل عن أوطاننا حكامنا، فضاعت الخلافة وانهدمت الدولة، كما نخشى أن نضيع وأن تضيع بغداد مرة أخرى ، حين جيء بالمستعصم ذليلا أسيرا، فأهانه هولاكو وطلب منه الذهب والجواهر فأحضر له جميع مافى قصوره،

فأخذه منه قائلا : " هذا لعبيدنا فأين ماهو لنا " فاصطحبهم الخليفة ودلهم على بركة هائلة ممتلئة بالذهب، كان يستطيع بها أن يجند مئات الألولوف لينقذ بها شعبه ويحتفظ بالكرامة بملكه، فلما ذهبوا بالذهب إلى هولاكو أمر بأبناء الخليفة فذبحوا وببناته فسبوا ، وبالخليفة نفسه فوضعوه في جوال وقتلوه رفسا.

ستقتلون رفسا ياولاة أمورنا، سيقتلكم هولاكو الأمريكى، بعد أن تسلموا الذهب لإسرائيل وتكشفوا أرصدتكم الخبيئة .

وتسلموها له، سيقتلكم رفسا، كى لا تنسكب دماؤكم على أرض تنبت من يثأر لكم.

ستقتلون رفسا وفرسانكم الذين يستطيعون الدفاع عنكم محاصرين داخل السجون أو خارجها، بعد أن حولتم الوطن إلى سجن كبير.

ستقتلون رفسا

* * *

و أنتم ياذوى الأيدى المقطوعة ، لاتصدقوا الأحمق الذي يقول لكم أن التاريخ لا يكرر نفسه، و اعلموا أنه في ذلك الزمن القديم ، وقبل سقوط بغداد بعام واحد كانت هناك فتنة عظيمة بين الشيعة والسنة، أما في الغزو نفسه فقد كان هناك مسلمون وعرب يساعدون هولاكو على تدمير الدولة العباسية وخراب بغداد، فحين دخلها هولاكو القديم، ظل يقتل في أهلها أربعين يوما (أقل من هولاكو الجديد بثلاثة أيام) فقتل من أهلها أكثر من مليون ألقى بجثثهم في نهر دجلة الذي أغرق فيه أيضا ملايين الكتب فاصطبغت مياه النهر بالدم والحبر، وفى ذلك أيضا تفوق هولاكو الجديد، فقد قدروا من مات بصورة مباشرة أو غير مباشرة،إثر حرب الخليج الثانية بمليونى عراقى .

كان الوزير ابن العلقمى هو الذي خان الخليفة وضلله فنال من السفاح مكافأته فتولى الحكم لكن الله لم يهمله ولم يمهله فمات في عامه فتولى ابنه بعده فمات في نفس العام.

ياولاة أمورنا : وزراؤكم ومستشاروكم من نسل ابن العلقمي، وإن كان كل هذا التفريط كي تحتفظوا بإماراتكم وعروشكم ، فسوف ينالها أبناء العلقمي وسوف تقتلون رفسا ..

ستقتلون رفسا...

رفسا...

رفسا ...

جلالـة الملك .. فـخـامـة الـرئـيـس.."٧"

يا أيـها الإنسان : ما غرك بـربك الكريم ؟!

{١}

رد العرب على كلينتون

حماقة أمريكا فى العراق كحماقة بريطانيا فى السويس..وستهبط بها إلى دولة من الدرجة الثانية

السيد بيل كلينتون

إننى أرجو أن تعذرنى حين لا أبدأ ردى على خطابك الذى وجهته إلى أمتنا العربية، بتحيتنا التقليدية التى نتبادلها فى هذه المنطقة من العالم، فأول كلمة فى تحيتنا تلك تتحدث عن السلام الذى ازداد افتقادنا -وافتقاد العالم- له منذ تولت إدارتك تسيير شئون العالم، لذلك أجدنى رغم مجافاة ذلك للذوق مضطرا لأن أبدأ معك، بعكس تحيتنا تماما، لأقول لك :

لا سلام عليك ولا رحمة من الله ولا بركة.

أما بعد:

هل تستطيع أيها السيد القوى أن تخبرنى كيف كان يمكن أن يكون العالم أسوأ لو أن الرابض على مقعدك العالى كان هتلر أو موسولينى أو حتى عيدى أمين ؟! وهل كان البطش والطغيان والمحارق البشرية والمجازر

الدموية ، هل كان ذلك جميعا سيكون أقل؟!

إن رجل الشارع العربى الذى وجهت إليه رسالتك لا يكف عن إلقاء هذا السؤال ، و معظمهم يستطيع أن يقدم إليك نفسه قائلا : " أنا العرب" بنفس المفهوم الذى دفع شارل ديجول ذات يوم ليقول " أنا فرنسا " ، قالها بعد أن انهزمت حكومته واستسلمت للأعداء، فتوقفت رغم أنها كانت تملك السلطة فى أيديها،وتحت قدميها عن تمثيل الوطن، لم تكن إلا قشرة خارجية خائنة مهزومة اصطنعها الأعداء للقضاء على الوطن.

ترى: هل كان ريتشارد نيكسون يعنى شيئا مثل ذلك عندما وصف بعض حكامنا بأنهم وكلاؤكم فى حكم شعوبنا؟.

إننا أيها السيد نشكرك من الأعماق، لأنك نجحت في توحيد الأمة العربية كلها ضد إدارة بلادك، وهو ما فشلنا فيه طيلة هذا القرن، حين كنا نحاول إقناعهم بأن الشعارات الإنسانية والحضارية التى تطلقها إداراتكم المتعاقبة محض زيف وتزوير وكذب تخفى خلفها عنصرية ووحشية الطغاة والسفاحين و أكلة لحوم البشر، من نيرون إلى جنكيزخان إلى نابليون إلى هتلر . وصولا إليك، نحن فشلنا و أنت نجحت، فى أن تثبت ليس أمامنا نحن العرب فقط، بل أمام العالم والتاريخ ، أن قيمكم الحضارية والإنسانية تتلخص فى أن بلادك - أيها الجزار - هى البلد الأولى فى العالم التى تصنع وتصدر أجهزة التعذيب وتصدرها إلى العالم، كما تتلخص فى ذلك المثل التطبيقى المخيف الذى ضربتموه، عندما أعطيتم - أنتم بأنفسكم ولا أحد غيركم - لصدام حسين أدوات الحرب الكيماوية والجرثومية على أمل استعمالها ضد شعبه و إخوته، فلما استدارت الدنيا وجدت أمور وبان احتمال أن تستعمل هذه الأسلحة فى ردع الترسانة النووية والجرثومية

والكيماوية والتقليدية الهائلة التى تمتلكها إسرائيل والتى دفع ثمنها دافع الضرائب الأمريكى ، عندما ظهر مجرد احتمال لاستعمال القوة العراقية كجزء من القوة العربية فى الردع وليس فى الرد ولا فى التهديد باستعمال حقيقى، عندما ظهر مثل هذا الاحتمال، بادرت الإدارة الأمريكية بتحطيم شعبنا فى العراق وحصاره، ومنع - حتى - لبن الأطفال عنه، لأنه يمكن أن يستخدم كوسيط غذائى فى الحرب الجرثومية، ويبدو أنك اكتشفت يا سيد كلينتون أن الماء والهواء أيضا ضروريان فى الحرب الكيماوية والبيولوجية، ولذلك قررت أن تحرق الهواء و أن تجفف الماء على شعبنا فى العراق.

إن الأمة العربية التى وجهت إليها رسالتك قد تتسامح معك حتى فى القتل النووى، لكنها لن تغفر لك ولإدارتك أبدا امتهان ذكائها، وظنك أنه يوجد منا واحد-مجرد واحد - يمكن أن يصدق ماجاء فى رسالتك، أو ما يجىء فى ادعاءاتك الساذجة المكشوفة كمبررات لضرب العراق، ربما لأنك لم تكن ممثلا قديما مثل رونالد ريجان ، فإنك تمثل بصورة رديئة ، ولعلك أكثر واحد في هذا العالم يعرف كم كانت حكاية العراق كلها عملية قذرة من أعمال المخابرات الأمريكية حركتمونا فيها كما يحركون الدّمى في مسرح العرائس، كانت تمثيلية رديئة وكنت أنت الممثل الأسوأ فيها فلقد قضيت تماما على حاجز الوهم ، الذي يخيل للمشاهدين أن ما يحدث أمامهم حقيقة، والعالم كله ينظر الآن إليك ، وقد بانت سوأتك ، يراها الناس جميعا إلا أنت . و أظن أن العالم كله يدرك معنا الآن، أنك أنت ومخابراتك رؤوس الإرهاب، والمصدر الرئيسى فى عدم استقرار العالم.

إننا نشعر بالخزى والعار من موقف معظم حكامنا وحكوماتنا تجاهك، تجاه التحدى الذى فرضته علينا،

وهو تحد سنستجيب له أيها السيد، وسنتوسل إلى حكوماتنا لكى تستجيب له، فإن لم تمتثل لتوسلنا سننشىء الآليات والتداعيات التى ترغمها على ذلك، كما أننا وقد وعينا الدرس لن نسمح ولن يسمح لك العالم أن تعربد فيه كما تشاء.

سوف نضغط على حكامنا أيضا بتفعيل اتفاقية الدفاع المشترك، لا لكى نحاربك أو لننتصر عليك، فما زلنا - بفضل مخططات بلادكم وحلفائكم - أضعف بكثير من ذلك، ولا لكى نشارك إخوتنا فى العراق مصيرهم، بل لكى ندافع عن أنفسنا، فنحن ندرك الآن - والفضل لك - أنها العراق اليوم و إيران غدا وسوريا والسعودية ومصر والسودان بعد غد. ولقد كشفت ممارساتك الحمقاء هذا السر الذى حرص الغرب دائما أن يبقيه طى الكتمان ومغطى بشعارات الحضارة المزيفة.

لقد كانت الأمم المتحدة التى ذات يوم أملا باهرا أمام الضعفاء و الأقوياء على حد سواء، لكن إداراتكم نجحت فى إقناع العالم أنكم حولتموها إلى مهزلة ومطية لأغراضكم غير المشروعة.

إننا فى العالم الثالث المتخلف أيها السيد ننظر بكثير من الدهشة إلى الشعب الأمريكى الذى نقدر إنجازاته وتحضره، كيف يمكن أن يترك إدارته تشوه وجهه أمام العالم بهذه الصورة، حتى ليصبح الوجه الأمريكى هو الوجه القبيح الذى يلخص فى قبحة كل طغاة التاريخ. كما نندهش كيف لا يدرك الشعب الأمريكى، أن حماقة القوة وغرورها قد ارتدت دائما عبر التاريخ إلى شعوب مرتكبيها لا بمجرد الكراهية والاحتقار بل بالخراب والدمار. إن التطور التكنولوجى المتسارع، سوف يجعل تركيب قنبلة نووية صغيرة أمرا متاحا أمام جماعات صغيرة فى غضون أعوام قليلة، أما أدوات الحرب الكيماوية والجرثومية فهى متاحة من

الآن، وأن الشعب الأمريكى هو الذى سيدفع ثمن حماقة إدارته وعربدتها على مستوى العالم، ستدفعها نيويورك وشيكاجو ولوس أنجلوس . و إذا كنا نحن فى العالم الثالث - والعراق منه - نجد صعوبات هائلة فى تغيير معظم حكامنا، بسبب رئيسى واحد هو دعم الغرب لهم كوكلاء له، إذا كان هذا هو عذرنا فما هو عذر الشعب الأمريكى فى عدم الضغط على إدارته بدرجة تمنعها من مواصلة عربدتها وخلق ثأر بين شعوب العالم والشعب الأمريكى؟ إن الإدارة الأمريكية تعاقب شعب العراق لأنه لم يغير صدام حسين، وسوف يكون منطقيا بنفس الدرجة أن تعاقب جماعات عديدة الشعب الأمريكى لأنه لم يغير توجهات إدارته. إن العالم كله - وليس نحن فقط - يرفض الغطرسة الأمريكية ،و إننا نظن أن الحماقة الكبرى التى سترتكبها الإدارة الأمريكية بموقفها مع العراق وليبيا والسودان و إيران سوف تكون تكرارا فاجعا لحماقة بريطانيا في حرب السويس، والتى هبطت بها من دولة عظمى إلى دولة من الدرجة الثانية.و أن نفس الشىء سيحدث لأمريكا.إننا ندرك تماما أن كل ماتفعله الإدارة الأمريكية مكرس من أجل إسرائيل، وحتى بهذا الصدد، فإن حماقة هذه الإدارة تصيب كل مشاريع السلام - حتى ولو كان مصطنعا - بمقتل لن تقوم بعده، وسوف تعود القضية كلها إلى المربع رقم واحد، فمع أول صاروخ يصل إلى العراق، سيفرض التساؤل نفسه بقوة على العالم العربى، وهذا التساؤل لن يكون عن مشاريع السلام مع إسرائيل، بل سيكون : هل يمكن أن تعيش هذه المنطقة من العالم في سلام مادامت إسرائيل فيه؟! سيطرح السؤال نفسه بقوة، وقد لاتكون الإجابة عنه قريبة، لكنها آتية لا ريب فيها، وقد يكون الانتظار فادحا و مؤلما إلا أننا واثقون من نهايته : لقد وُجدنا هنا قبل أن توجدوا، وسنظل بعد أن تزولوا .

ثمة نقطة أخيرة أقولها لك يا سيد كلينتون، أن الأمة العربية حينما طالعت ما طالب به بعض أعضاء حكومتك من محاكمة صدام حسين كمجرم حرب، قد أحست أن أشرس مجرم حرب عنصرى على وجه الأرض، هو أنت نفسك . يا مستر كلينتون .!!.

{ب}

يا أيها الإنسان : ما غرك بربك الكريم ؟!

جفت الأقلام . . . .

وجفت الدموع أيضا . . . .

و رفعت الصحف . . . .

و رفعت العقول أيضا . . . .

وما عاد هناك أمل فى الاستجارة بجلالة ملك أو فخامة رئيس أو سمو أمير أو معالى شيخ، أو فى توجيه النداء إليه. لكننى لم أفقد الأمل بعد، فإذا كان ولاة أمورنا لا يقرأوننى، فدعونى إذن أوجه الحديث إلى حاشيتهم وبطانتهم. على أن الحاشية هنا لا تقتصر على وزراء الحاكم وخدمه، بل على رؤساء تحرير ومديرى إذاعات وتليفزيون وكتاب ومفكرين و مثقفين ووزراء ورؤساء وزارات خانوا أمانتهم فتحولوا إلى مهرجين.

وهاهى ذى الهزيمة الشاملة الكاملة لاتترك ركنا من أركان الوطن الكبير إلا وصمته بعارها، ولا فئة من فئات الأمة إلا وسمتها بشنارها، ومع ذلك، فهى هزيمة يتيمة، لا يعترف أحد من الحكام، ولا من المفكرين والحاشية أنه أبوها، أو حتى يمت بصلة القرابة إليها، فهى إذن هزيمة ابنة سفاح، ثمرة الخطايا التى ارتكبناها فى حق وطننا و أمتنا، ثمن المتعة الحرام بالحكم، والعلاقة غير الشرعية بين الحاكم والمحكوم، والاغتصاب . . . !!

تعلمون يا معشر الحاشية، أن فقهاء علم الإجرام يقولون أن لكل مجتمع جرائمه التى يستحقها، ولعلكم ترون أن بعض هذه الجرائم، تولد من المجتمع، كما يبرز الرمز فى عمل أدبى عظيم، أكثر

شفافية وصدقا و إيحاء من الواقع، ومن هذا المنطلق، ارتجت نفسي، وزلزل قلبي، إزاء جريمة مصر الجديدة، والتي ظل فيها ذلك المضيف الجوي، ولمدة عشر سنوات، ذلك الديوث، يستمتع باصطياد الرجال ليرغم زوجته على إتيان الفاحشة معهم، و أمام عينيه .

كنت أحاور صديقي، محاولا ربط الرمز بالواقع، وتشبيه ما يفعله بعض حكامنا حين يستمتعون باستدعاء الأجانب للعبث بشئوننا بما فعله ذلك المضيف، وفجأة وجدته يقول : " لم يخل عصر من خيانة بعض النخبة والحاشية لأممهم، لكنهم كانوا دائما يخجلون من خياناتهم، يشعرون ببعض تأنيب الضمير، ويستترون، إلا في هذا الزمن، إنهم يمارسون الخيانة باستمتاع، ويفخرون بذلك ".

كففت عن خيالي، فطمتني عنه مرارة الصبار في الواقع، وتقت إلى طهر المكاشفة والاعتراف، ولكم وددت حينئذ أن يقف أحد الحكام ليعترف، واحد فقط، ليقول أنه مسئول، أنه أب للهزيمة، و أنه أخطأ، و أنه يتنحى،يقف ليواجه الأمة كلها لا شعبه فقط، وليسجل في التاريخ، نائبا عمن عداه، أنه قد عجز عن إكمال مابدأ، و أن أخلاق الفارس تمنعه من المضي لإنجاز عكسه.

وددت أيضا أن يقف أحد الوزراء أو القادة أو الكتاب، أو حتى الكتبة، ليقول أنه مسئول، أنه يمت للهزيمة بنسب، ورحت أتخيله، وقد وقف، وقد طهرته المأساة، ليعترف باكتساح الهزيمة الكاملة الشاملة، لعالم ظللنا نحلم به القرون تلو القرون، عالم يسود فيه الصدق لا الكذب، ويعلو العلم لا الجهل و الهمجية والغوغائية وعبادة الأوثان، وتسمق مكارم الأخلاق، لا الدنايا، عالم لا يعذب فيه الإنسان أخاه الإنسان ولا يزور صوته، و لا يتفشى فيه التلوث الأخلاقي كالوباء .

ذلك ما وددته، فما وجدته، أيتها الحاشية، الذين قد يُسمح لكم، وقد لا يُسمح، بنيل الحظوة بلقاء جلالة الملك أو فخامة الرئيس أو سمو أو معالي.... والتشرف بمعيته، وهو شرف لا يملك بعضكم سواه ، أكتب لكم، لأنني أخشى من إهدار فرصنا الأخيرة، لا في الانتصار، بل في منع الهزيمة الشاملة من أن تكون نهائية أيضا .

لذلك، أتوسل إليكم، بل أتسول منكم، أن تدركوا معى، و أن تفهموا أن مانعيشه من مذلة وترد وهوان ويأس وبؤس وخيبة وتداع للأمم علينا، كل ذلك كان لا يمكن أن يتم لو كنتم مخلصين للأوطان وللأمة حقا، لو استطعتم أن تتفقوا على الحد الأدنى الذى ينبغى على رجل الحاشية ألا ينزل دونه، لكن بعضكم قنع بأن يكون سوأة كل عهد ووصمته وعاره بدلا من أن يكون نياشين نظام الحكم وشارات فخاره، والتزم الباقون صمت القبور، بينما راح كل واحد من الآخرين يمارس الاستمتاع بالخيانة، وبسفح شرف الكلمة، أو يتركها تُسفح أمامه، و هو يسمع ويرى.

كان يمكن لتواجدكم حول حكامنا أن يكون فرصة للمثل العليا ومهرجانا للحق والعدل والخير والجمال، تجددون فيه الولاء للضمير الحر الشريف لا لنظام الحكم، وفرصة تنتهزون فيها اجتماعكم للبحث عن الحقيقة، لا لإخفائها، حين يقول جلكم ما لا يؤمن هو نفسه به، و تنفصم العرى بين الكلمات ومعانيها، فلا يفهمكم أحد ولا يأبه بكم أحد، ولا تسفر لقاءاتكم إلا عن زبد يذهب جفاء .

لكن هذا كان يستلزم من البداية أن تكون لكم الرؤية أولا، لا أن يتقدم الصفوف من لا رؤية له ليبرركل ما يحدث، ويصمت من يملك الحكمة والرأى معا، إما عن خوف من السلطة، أو عن يأس منها . كان يمكن لإحاطتكم بالحكام أن تكون منعرجا تعدل فيه الأمة مسارها، بكلمة حرة شجاعة، أو بموقف أبى شريف .

ترى هل خطر ببال أحدكم أن يرسل إلى حاكمه وولى أمره خطاب اعتذار عن الحضور ذات مرة، احتجاجا على استمرار التعذيب الحيوانى الهمجى البشع المجنون المجرم، وكلكم يعرف الحقيقة، وجلكم شيطان أخرس قرأ ماكتبه سواى وما كتبته، موثقا بحيثيات أحكام القضاء التى لم تجد وصفا لما يحدث سوى أنه إجرام فى إجرام، ولم يكن من أطلق هذا التعبير إرهابيا ولا معارضا للحكم، بل واحدا من سدنته وهو المستشار محمد سعيد العشماوى، وهو من تعرفون، وليس مؤيدا للنظام فقط بل وللتطبيع مع العدو الصهيونى أيضا. هل خطر ببال أحدكم أن

يواجه مليكه أو مولاه أو رئيسه أو أميره أو ولى نعمته، أو كل أولئك جميعا فى شخص واحد تعددت اسماؤه و إن توحدت سماته، أن يواجهه وهو مازال فى الحكم ليقول له رأيه الحقيقى فيه، رأيه الذى يضمره لا الذى يظهره، رأيه الذى يواجه به الله يوم القيامة، أم أنكم لا تقولونها إلا بأثر رجعى، بعد ألا يكون لقولها أى قيمة، فتفعلون مثلما فعل الكولونيل أوجين دى كوك الذى يحاكم الآن وتعد محاكمته محاكمة للنظام السابق كله وخاصة جهاز أمن الدولة خلال الـ ٣٠ عاما الأخيرة من حياة نظام الحكم البائد للأقلية العنصرية البيضاء فى دولة جنوب أفريقيا، والهدف من هذه المحاكمة – واعتبروا يا معشر الحاشية والمثقفين وضباط أمن الدولة أو المملكة أو الإمارة – هو كشف الفظائع الوحشية والإجرامية التى ارتكبها هذا النظام فى حق المواطنين السود، وكشف المسئولين عنها، ويجرى هذا كله لا بغرض الانتقام والتشفى، ولكن لمعاقبة المجرمين مهما كانوا، وبوسائل القانون العادى بعيدا عن أى إجراءات استثنائية ومن ابرز نتائج هذه المحاكمات انه ثبت أن كبار قادة الحكم العنصرى، بمن فيهم رئيس الجمهورية، قد تورطوا في هذه الجرائم .

ومن أهم وقائع تلك المحاكمات المواجهة التى حدثت بين الكولونيل الأبيض "أوجين دى كوك " المحكوم عليه بالحبس ٢١٢ سنة لارتكاب المئات من جرائم القتل لمعارضى النظام العنصرى، وبين بيتر بوتا آخر رئيس جمهورية متشدد والذى تولى مناصب وزير الدفاع، ثم رئيس الوزراء، فرئيس الجمهورية ولذلك فقد كان عضوا أساسيا فى مجلس أمن الدولة، ورئيسا له حتى تقاعد وكان دى كوك – ٤٩ سنة – طوال هذه السنوات من الضباط المشهود لهم بالكفاءة والولاء التام حتى أن رفاقه أطلقوا عليه اسم "أصل الشر" وتولى قيادة إحدى فرق القتل، ونتيجة لأدائه الفائق نال ميدالية الامتياز التى لم تكن تصدر إلا بمرسوم من الرئيس بوتا شخصيا، ولم يكن يحصل عليها إلا من فى مرتبة جنرال بالرغم من انه كان مجرد كولونيل .

أكد الرجل انه فى كل أعماله كان ينفذ أوامر مجلس أمن الدولة

بـ"تحـيـيـد " أو إزالـة و "تدمـيـر" الخـصـوم وانه كـان يفـهم هذه المصطلحـات علي أنهـا أوامـر بالقتل . لكن مـحـامى بوتا، قـال انه ليس هناك فى سجلات مجلس أمن الدولة ما يقطع بان هذه الألفاظ تعنى القتل ، عندها لم يتمالك الضابط نفسه من الغضب فقال انه يشعر بالدهشة من أن الرئيس بوتا "جبان إلى هذا الحد ، أضاف بأنه يشعر بالأسف لمصيره ، ولمصير الآلاف من رفاقه فى وحدات الأمن ، والقوات الخاصة، والجيش ، والشرطة لأن هذا السياسى الجبان ورفاقه الأنذال من قادة العهد البائد، قد ضحوا به وبزملائه بكل هدوء بزعم أنهم لم يأمروا، فى حين انه وإخوانه كانوا يتفانون فى تنفيذ الأوامر بدقة متناهية..

هل تقولون يامعشر المثقفين ويا طغمة الحاشية أن ذلك الذى حدث قد حدث فى غير بلادنا و أنه لا يمكن أن يحدث فى بلادنا، حتى لو قلتم ذلك فأنتم تكذبون، وتعرفون أنكم تكذبون، و تعرفون أننا نعرف أنكم تكذبون، وتأملون أن تنالوا من الأوسمة على كذبكم أوسمة كتلك التى نالها ذلك الضابط المجرم دى كوك من رئيسه النذل الجبان.

الأهرام، التى أوردت هذا الخبر، علقت قائلة:

" والمذهل فى الأمـر أن نوعـيـة دى كـوك القـاتل المحـتـرف باسم الدفاع عن النظام، وكذلك الرئيس بوتا الجبان، تتكرر كثيرا كل يوم، ولعله إذا استفاضت محاكمات الضابطين الإندونيسيين المتهمين بقتل المتظاهرين فى آخر 'أيام سوهارتو، أن يتضح انهما كانا ينفذان أوامر، وأن لنظام الأمن العنصرى نظائر فى نظم وطنية غيرعنصرية."

سوف يحدث فى معظم بلادنا ذات يوم قريب بإذن الله ماحدث هناك فهل خطر ببال أحد كم إذن أن يسجل موقفا و أن يرسل إلى حاكمه وولى أمره خطاب اعتذار عن الاستمرار معه احتجاجا على تزوير الانتخابات، التى زورت، وتعلم الأمة وتعلمون أنها زورت، حتى ولو أقسم من يقسم برب الكعبة أنها لم تزور، هل خطر ببالكم أن تصرخوا، أنكم تشعرون بالعار أمام العالم و أمام أمتكم، من تلك الانتخابات التى تسفر عن شبه إجماع .

و هل خطر ببال أحد رجال الحاشية أن يرسل إلى حاكمه وولى أمره برقية احتجاج على استمرار النهج البوليسى فى حكم شعوبنا، وعلى اقتصار منصب الحاكم فى نصف عالمنا العربى طيلة نصف قرن على العسكريين والشيوخ- لا مشايخ الدين بل مشايخ الخفراء- حراس آبار البترول التى أقاموا حولها دولا، كما تقتصر معظم المناصب الحكومية العليا على لواءات الجيش والشرطة ؟.

إننى أحمل للعسكريين كل مودة واحترام، بل أنظر إليهم نظرة حالمة يختلط فيها الإعجاب بالتبجيل لمن نذروا أنفسهم طوعا أو حتى كرها لحماية الوطن، إلا أننى يجب أن أقرر، فى زمن أصبحت فيه البديهيات تحتاج إلى إقرار، والمسلمات إلى برهان، أن المودة والاحترام ليست صفات مطلقة سرمدية، و إلا كانت عبادة أوثان، و أن واجب الجيش هو حماية الوطن و إعلاء شأنه والتفوق فى موازين القوى على أعدائه، كما أن واجبه أن ينأى بنفسه عن معترك السياسة، فهو جيش الأمة لا حرس الحاكم، و أن مدى الاحترام والإجلال يرتبط بنجاحه فى أداء مهامه، و أن ذلك لا يمنع أن يكون منه أفذاذ وعباقرة يستحقون أن يحكموا الوطن بعد تنافس حر مع فئات الأمة، لا كاحتكار، فهل فكر أحد منكم يا معشر المثقفين و الحاشية أن يعرض على حاكمه وولى أمره شيئا كهذا ؟!.

هل فكر منكم أحد أن يقول لحاكمه وولى أمره أننا لا نستطيع أن ندخل القرن الحادى والعشرين بانتخابات تزور، وحقوق للإنسان تهدر، و قرارات وقوانين تجمد كل إبداع خلاق للأمة، وتدفع كل شىء للانهيار، وتدفعنا لا لدخول القرن الحادى والعشرين بل للخروج من التاريخ بكل قرونه .

هل خطر ببال أحد منكم أن يقوم ليصرخ قائلا أن التطرف الحقيقى هو تزوير الانتخابات، و أن الإرهاب الحقيقى هو ما يحدث فى المعتقلات . و أن من يغامر بمستقبل الأمة، ويقامر به، هم الذين يسوّدون منطق الكذب والغوغائية والجهل .

هل خطر ببال أحدكم أن يستقيل خزيا وعارا بعد ذلك الخبر المخزى الذى نشرته الأهرام تحت عناوين فادحة فاضحة : " فى

امتحانات المذيعين الجدد: النيل يبدأ من دمياط.. ونجيب محفوظ مخرج .. وتوفيق الحكيم ممثل".

وتواصل الأهرام لتنشر فى تفاصيل الخبر: "هذه إجابات اغرب من الخيال . سر غرابتها ليس فى طَرافتها، وإنما فيما تكشف عنه من جهل فاضح لخريجى جامعات تقدموا لاختبارات المذيعين والمذيعات الجدد ، فرسبوا جميعا، وهذه الإجابات لا تعكس فقط ضحالة ثقافة بعض الشباب ، وإنما تؤكد أيضا أمية بعض المتعلمين. وجهلهم المطبق بالمعلومات العامة الأساسية، على حد تعبير عمر بطيشة رئيس شبكة البرنامج العام بالإذاعة، وأحد أعضاء لجنة الاختبارات .ويروى بطيشة لجمال نافع مندوب الأهرام القصة، فيقول . تقدم ما يقرب من ألفى خريج ، لاختيار عشرة ممتازين ما بين مذيع، وقارئ نشرة، ومترجم، ومعد، وإذا تجاوزنا – مؤقتا – عن التدنى فى مستوى اللغة العربية من أول النطق إلى الإملاء، وعن الإنجليزية التى تبدو لهم كالهيروغليفية، وتوقفنا عند المعلومات العامة سنشعر أن هؤلاء الشباب الذين تقدموا للامتحان يعيشون فى عصر آخر غير عصرنا، فقد قال أحدهم فى إجابته عن أسئلة الامتحان أن الأميرة الراحلة ديانا هى زوجة ريتشارد قلب الأسد الذى قاد إحدى الحملات الصليبية فى القرون الوسطى، وقال آخر أن إنجلترا هى عاصمة بريطانيا. بينما اكتشف أحدهم أن منابع نهر النيل تقع عند مدينتى رشيد ودمياط وأكد رابع أن السد العالى شيد بعد حرب أكتوبر١٩٧٣. وبالطبع فإن هؤلاء المتقدمين لم يسمعوا قط عن العملة الأوروبية الموحدة ولا يعرفون اسم النائب العام فى مصر، أو اسم زير العدل مثلا، وكل اهتمامهم منصب على كرة القدم والأغانى الشبابية. ويضرب الإذاعى الكبير احمد وهدان مثلا آخر عن خريج جامعى لا يعرف ما هى المحافظات التى يمر عليها القطار من القاهرة إلى الإسكندرية، ويعتقد أن تركيا دولة عربيه ، والأمم المتحدة هى الولايات المتحدة، ونجيب محفوظ مخرج من رواد الواقعية فى السينما و أن توفيق الحكيم صحفي، وقد يكون ممثلا ، أو روائيا اشهر رواياته شارع الحب .!... هذه هى الإجابات ،وهى بالتأكيد جرس إنذار ومؤشر خطير لمستوى التعليم والثقافة لدى شباب الخريجين ، ونحن على مشارف

القرن الحادى والعشرين."

هذه هى خلايا الأمة الأولية التى شوهتموها يا معشر الحاشية ...يا خدم السلطان...

أجل ... ليست الشرطة وحدها خدم السلطان بل أنتم جميعا... والأمة خدم السلطان!!.

كيف نأمل إذن أن نفلح فى أى شيء؟ فى الصناعة أو الزراعة أو الثقافة أو الحرب أو السياسة أو أى نمط من أنماط التقدم الحضارى؟.

فهل فكر أحد منكم يا رجال الحاشية الذين تتصدرون وتتسيدون كل الساحات أنه مسئول عن ذلك و أنه يجب أن يستقيل خزيا.

هل فكر وزير الثقافة أو التعليم أو الإعلام أو الديوان أن يستقيل؟!.

فى نفس الشهر كان ٤٥٠ يتقدمون لاختبارات وزارة الخارجية فلا ينجح منهم أحد.

كما أن برامج المنوعات فى التليفزيون تعرض جهلا فاضحا لعامة الناس، حتى أن مخرج برنامج رمضانى عرض علينا - على سبيل المثال - عشرات وممثات لا يعرفون الشهور العربية ولا يدركون فى أى عام هجرى نحن ا.

فهل فكر شيخ الأزهر - وهو من كبار رجال الحاشية - لا أن يستقيل بل مجرد أن يعود عن رأى كان قد رآه بتخفيض سنوات التعليم، وكانت نعمات أحمد فؤاد قد نشرت قبلها بأيام أن شيخ الأزهر فى لقائه بالحاخام الإسرائيلى قد تباحثا فى تطوير مناهج التعليم فى الأزهر، فرد شيخ الأزهر أن نعمات أحمد فؤاد تتكلم بطريقة الخادمات!!. لكن أياما قليلة لم تمر حتى كان قانون التطوير يعرض على بعض من الحاشية - اسمها مجلس الشعب-، وكان الشيخ الشعراوى - وهو رجل ابتعد عن الحاشية - يعترض فيذهبون إليه ويحصلون منه على موافقة يكتبها تحت وطأة المرض ثم يتهمهم بخداعه، ويواصل مجلس الحاشية نظر الموضوع بعد

اهتزاز تحت وطأة المعارضين، لكن السفير الأمريكى يزور الأزهر فيثبت قلوبهم !!....

كان يمكن لأى نازلة من هذه النوازل أن تكون مبررا كافيا لإقالة الحكومة كلها، ولمحاكمتها، فكيف بها مجتمعة.

إنه الفشل أينما كنتم ....

سكتّم عن الحق فتحولتم شراذم حاشية وبطانة سوء، يسكت بعضهم عن الحق، وينطق بعضهم بالباطل، و عجز الجل عن السعى لتكريس ثقافة جمعية تلم شمل الأمة بعد أن عجزتم أن تقولوا للحاكم لا . . و ثمة حكمة أثبتت صوابها فى كل مكان وزمان، وهى أن من لا يستطيع معارضة مثالب السلطان لا يستطيع مقاومة غواية الشيطان .

لقد انهزمتم فانهزمت الأمة . . .

جعلتم أمتكم قطيع إبل شاردة ...

لا ثقافة جمعية تتفق الأمة على رؤاها ....

ولا خلفية ثقافية تبنى الأمة عليها .....

فى رواية سلوى بكر ليل ونهار يعود البطل زاهر كريم من الخارج محملا بملايين كثيرة، يتصل بمجلة ليل ونهار لإجراء مسابقة جائزتها مليون جنيه لأفضل اقتراح عن فكرة مفيدة مبتكرة لصالح المجتمع أو بعض الناس فيه، على أن يتكفل هو بتنفيذ هذه الفكرة فى حدود مليون جنيه أخرى. بعد وصول آلاف الخطابات التى تساعده فى فرزها وتبويبها الصحفية المبتدئة يدور الحوار بين زاهر كريم وبين الصحفية، فيقول بمرارة :

– المسألة مخيفة. فظيعة جدا.

تساءلت :

– ما هو المخيف والفظيع؟!

رد مستنكرا سؤالى:

- ألم تلاحظى ما هو المخيف الفظيع؟! كل هذه الخطابات لا يوجد بينها خطابان متفقان على فكرة واحدة! ألا تدركين معنى ذلك؟! ألا يعكس هذا شيئا مخيفا فظيعا؟!.

لم أفهم مقصده على وجه التحديد، فقلت مدافعة عن غياب التشابه:

- الناس لديها أفكار كثيرة مختلفة ومتباينة، وهذه مسألة صحية ولا أجدها مخيفة أو فظيعة.

- هذا غير صحيح، الناس عادة تتفق، تخلق أشياء وعوالم مشتركة، وتنتج أفكارا متقاربة، إذا كانت تعيش حالة من التفاعل والتمازج، إن هذا هو الطبيعى بالنسبة لأى جماعة بشرية يربطها ماض مشترك وحاضر مشترك وتعيش على أرض واحدة. هل وجدت فكرة مشتركة بين جميع هذه الخطابات؟!

قلت بعد تفكير:

- إن فى معظمها أفكارا تعبر عن الصالح العام.

- الصالح العام؟ تساءل ثم واصل:

- إن هذه الخطابات لا تعكس بأى حال من الأحوال فكرة وجود هدف كبير مشترك على مستوى المجتمع ككل، لم تكن هناك فكرة تتعلق بمستقبل البلد،الوطن، المجتمع، بعبارة أخرى ليس هناك مشروع!(...) أين هؤلاء الملايين الذين ظلوا موجودين تحت دائرة الضوء يصنعون التاريخ، أين الذين كانوا فى الماضى يخرجون فى المظاهرات يتحدون البنادق والرصاص؟! أين أولئك الذين كانوا يؤثرون فى صنع القرار؟! يغيرون حكومات ووزراء ودول؟! هل ابتلعهم الطوفان؟! هل اختفوا فجأة من على خريطة الأحداث وكأنهم لم يكونوا أبدا(...) كنت دائما أحلم بأن أستكمل ما بدأه جدى و أبى، أن تكون لنا صناعة مستقلة قادرة على المنافسة، وصنع اقتصاد مستقل متين، لكننى كلما توغلت فى دنيا الأعمال أكثر، أشعر أن حلمى يبتعد، و أن قدمى تغوصان فى عالم تحكمه قوانين السمسرة والعمالة والارتباط بالغريب. لا..لا أعرف بصراحة إلى

أين يسير مشروعى فى النهاية.

ولا ترد الصحفية عليه و إنما تحدث نفسها " لا أعرف من أين أبدأ الرد على كلامه، هل أحدثه أولا عن الملايين، التى باتت الآن الأغلبية الصامتة؟! الأغلبية التى جرحت وسحقت لحد الانسحاق، بسبب فنون وشطارة السياسة الحديثة، و أساليب التهديد والوعيد بكل الأشكال والطرق؟! هل أقول له أن هذه الملايين يئست من كل إصلاح بعد أن ظلت تدفع الثمن طوال سنوات وسنوات من دمها، ولم يتبق لها إلا لعق الجراح؟! أنت يا زاهر كريم لا تعرف ما الذى حدث هنا، أنت لا تدرك مدى المأساة ومدى المهزلة."

* * *

هل تدركون أنتم يامعشر المثقفين والحاشية، أو يا معشر المثقفين الحاشية مدى المأساة ومدى المهزلة؟؟ المأساة والمهزلة التى تصنعونها وتضيفون إليها كل يوم بممارساتكم.

* * *

فى كتابها النهائي الذى انتحرت بعده تقول أروى صالح*: لم يعد هناك حلم مشترك، بل خوف مشترك من الخواء الذى يحل بعد ضياع الأحلام. من عدم الأمان الاقتصادى، ومن الوحدة التى تكتسح مجتمعا يبدو الجميع فيه منشغلا بنفسه وقد فقد "**الموضوع**" مع ذلك، ليس لديه ما يتبادله مع بعضه البعض سوى الشكوك أحيانا والمنافع طول الوقت،الأفكار فيه ترف غريب فاقد المعنى، شأن الواقع نفسه الذى لم يعد أحد يحلم بالخلاص من سطوته.

وتواصل أروى صالح:

فوسط الانهيار العظيم، أخذ الجميع يبحث عن أرض مضمونة يسند إليها قدميه اللتين اتضح أنهما كانتا معلقتين فى الهواء، وفى واقع انعدمت فيه كل أرضية مشتركة بين أفراد المجتمع بأسره، حيث الهم الوحيد الحقيقى هو أن يثؤمن كل فرد نفسه

---

* المُبتَسرُون،دفاتر واحدة من جيل الحركة الطلابية، دار النهر، ١٩٧٧.

مـاديا، أصبـحت الأسـرة - بعد الشـغل - هـى الحصن الـرئيـسى للفـرد الذى لم يعد ينتمى فى الواقع إلا لأسرته،الأرض الحقيقية الوحيدة تحت قـدمـيـه،(وهو مـا لم يمنعـهـا مـن أن تبلغ ذروة مـن التـحلل لم تعرفها بلادنا من قبل) ولم يكن الثوريون السابقون استثناءً من هذا البحث عن جزيرة صغيرة خاصة يقف عليها المرء وسط هذا الطوفان، بل لعل حاجتهم كانت أشد ضراوة.

* * *

لقد كانت إدانة أروى صالح لكم يا معشر المثقفين إدانة هائلة لم يكلف أحدكم نفسه عناء الرد عليها أو أنكم خشيتم مواجهة من تعلمون أنها صادقة فأحطتم كتابها بالصمت حتى انفجر ذلك الصمت بانتحارها.

* * *

يا معشر المثقفين والحاشية: لم نكن حتى نطالبكم بمشروع قومى، كنا فقط نرجوا أن تكفوا عن تكبيلنا بأساليبكم المجرمة.

فهل كنا على صواب فى هذا الأمل؟ أم أننا تجاهلنا أن الإنسان وحدة متسقة وكل لا يتجزأ، و أننا لا نستطيع أن نصوم بالنهار ونصلى لنزنى بالليل ونكذب، الإنسان وحدة متسقة، ولأنكم رضيتم أن تكونوا للسلطان خدما بكل ما تحويه كلمة الخدم من معان العبودية المطلقة الموغلة فى القدم فقد كان يستحيل عليكم فعل أى شيء آخر، فالإنسان إما أن يعبد الله و إما أن يعبد قيصر، ولقد اخترتم أن تعبدوا قيصر، وكان لابد مع اختياركم هذا أن تكونوا مسطحين مشوهين بلا مبادىء ولا قيم ولا مثل ولا ثقافة ولا وطنية ولا دين، وكان حتما مقضيا أن يكون جل المجتمع صورة منكم.

إن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق، واللاعب السيء هو الذى يفرض مستوى اللعب لا اللاعب الماهر، والمناقش الجاهل هو الذى يحدد مستوى الحوار، والممثل السيء فى مسرحية يهبط بمستوى الأداء حتى للعمالقة، ولقد كان من تأثير التلوث الثقافى والقيمى الذى نشرتموه فى الأمة أن أفقدتم الجميع الثقة بالجميع فجعلتم من الكل جناة ومن الكل مجنيا عليهم، لم يعد فى

المجتمع مثل أعلى، لا كفرد ولا كقيمة، فرضتم العزلة على الآراء الحرة والصحيحة، خنقتموها فازدهر النبت الشيطاني وترعرع، ومن أجل سيدكم ومولاكم يا خدم السلطان كان ديدنكم: فرق تسد، فرق يبق مولاك في أمان، اسخر من الكل وشوه الكل كي لا يملكوا فرصة الاجتماع، ففي اجتماعهم الخطر كل الخطر على مولاك.

كان صديقي مهندس الكمبيوتر يجابهني بابتسامة العارف المشفق على جهلي كلما أشدت بفهمي هويدي الذي رفع باقتدار وبراعة ومأساوية لواء الدفاع عن الثقافة الإسلامية، وصديقي هذا من الجماعات الإسلامية، كان قد قرأ لفهمي هويدي أقل القليل، وكان كل حين و آخر ينسب له ما لم يقل وما لم يكتب، ليردف محاولا إنقاذي من فداحة الخطأ الذي وقعت فيه أن فهمي هويدي قد باع نفسه منذ زمان طويل، و أنه خان القضية و أنه مدسوس على الإسلاميين، وكنت أشتعل لا بالغضب، بل بالخوف من انحراف التفكير إلى هذا الحد، انحراف يكرس التقسيم والتشويه والشك الذي تبذرونه في الأمة يا خدم السلطان يا عبدة الشيطان، انحراف يجهض أي تكامل أو تراكم قد يؤدي للتغيير. وحدث أن احتاج فهمي هويدي إلى معونة في الكمبيوتر، فرشحوا له ذلك الصديق فذهب إليه والتقاه للمرة الأولى، وعاد ليقول لقد غير فهمي هويدي كثيرا من آرائه وصار أقرب للصواب، فقلت له ولماذا لا تعترف أنك كنت مخطئا في الحكم عليه فقال: بل هو الذي تاب!!.

نفس هذا الصديق شغف قلبه حبا بجلال كشك، وذات يوم كنت أقول له أن جلال كشك هذا نموذج غريب، فبعض كتبه شديدة الأهمية والقيمة والبعض الآخر لايمكن فهمه أو تبريره إلا ببيع قلمه أو تأجيره، وكنت أستشهد بفقرات من كتابه "الجنازة حارة" والذي يدافع فيه عن موقف السعودية من استدعاء الأمريكيين في حرب الخليج، ويهاجمني فيه بضراوة لأنني كتبت ضد ذلك، كان أصل مقالتي عند الصديق لذلك وضح مدى تجني جلال كشك وادعائه عليّ مالم أقل ثم تسفيه هذا الذي لم أقله بعد نسبته إليّ. قلت للصديق ضاحكا أن غرابة جلال كشك وغموضه وقدرته المزدوجة على الصدق والاختلاق تذكرني بشخصية سياسية هي

شخصية حسن التهامى، كان جلال كشك قد بدأ كتابه بمهاجمتى وأنهاه بالهجوم على محمد حسنين هيكل، ولم يحاول الصديق الدفاع عنه فى الأولى، ربما مجاملة لى وعلى الأحرى لأن نص مقالتى أمامه وكان يتفق مع رأيى فى فحواها، لكنه انبرى يهاجم محمد حسنين هيكل مؤيدا لموقف جلال كشك منه، فقلت يائسا : إن الفرق بين كشك وهيكل كالفرق بين شيخ الأزهر والشيخ محمد الغزالى، فإذا بذلك الصديق يقول فى انفعال : لا فرق بينهما، لا فرق، فانحراف الشيخ الغزالى فى أعوامه الأخيرة لا ينكره منصف، ولا ينكر أيضا كم انهزم أمام حضارة الغرب ومقولاته، ونظرت إلى صديقى فى ذهول و أنا أتمتم: كأنك تهاجم بيل جيتس وتتهمه بالجهل.*

لعلك تدرك يا عزيزى القارئ أننى لا أطنب هذا الإطناب تسلية أو ثرثرة، و إنما فقط أردت أن أطرح تأثير التلوث الثقافى الذى نثره ونشره خدم السلطان علينا، فلقد كان من نتائج غرسهم، من نتائج مصادرة الصحف وسطحية وسائل الإعلام ومحاصرة الفكر، أن تكونت ثقافات سرية مجهولة المصادر، و أخطر مافيها أنها ثقافات سماعية لا تملك أن تطالب راويها بمرجع، و أن هذه الثقافات تنتشر بين أفراد جماعات همشتهم السلطة، ومنعت عنهم وسائل نشر فكرهم وحاصرتهم فكان الرد هو الانعزال والاعتماد على ثقافة أخرى لا يملك خدم السلطان مصادرتها، و لأنها ثقافة خفية، فقد كانت مرغوبة رغبة الممنوع، والمدرك أن هذا هو الرد الصحيح على افتراءات وكذب السلطة، وكان الإيمان بها يقينيا، والحفاظ على نصوصها كالحفاظ على حفظ آيات من القرآن خوفا عليها من الضياع، فربما لا تملك قط أن تعود إلى المصدر مرة أخرى، فهذا المصدر قد يغتال وقد يؤسر، ولأنها خفية وسماعية فقد استحال على الآخرين تصويبها أو تفنيدها أو تطويرها، وبمثل هذه الثقافة صدرت الفتوى بقتل نجيب محفوظ، وبالاتهامات الموجهة إلى الشيخ الغزالى وفهمى هويدى.

---

* أغنى ملياردير فى العالم، جمع ثروته من خبرته الفذة ببرمجيات الكمبيوتر.

هذه الثقافة السماعية لم تقتصر على المحاصَرين من أفراد الجماعات الإسلامية، بل حاصرت صفوة النخبة، ففى كتاب رجاء النقاش " نجيب محفوظ: صفحات من مذكراته و أضواء جديدة على أدبه وحياته"، يقع نجيب محفوظ، ويقع المثقفون معه فى أخطاء فادحة، ولست بصدد نقد الكتاب، و إنما أدلل به على خيانة المثقفين التى تبلغ حد الجريمة.

فى مجتمعنا المتخلف إما أن نؤله الآخر فنعبده من دون الله، أو أن نلبسه مسوح الشيطان لنرجمه من دونه. ولقد وضح ذلك بأشد مايكون مع الكتاب الأخير، فثمة مجموعة رأت أن نجيب محفوظ لا ينطق عن الهوى، وثمة مجموعة أخرى رأت أنه لم يحصل على نوبل إلا بسبب هجومه على الإسلام، مجموعة أخرى قالت أن الرجل كان تألقا حتى لحق به خرف الشيخوخة فلا تثريب عليه. وفى هذا الصدد فليس يهمنا على الإطلاق مع من كان نجيب محفوظ وضد من كان، لأن نجيب محفوظ روائي عظيم، وقد أدركنا نحن العته إن تطلبنا منه غير ذلك، كمن يتوقع من الطبيب البارع أن يكون أيضا عالم صواريخ بارع، و أن يكون بارعا فى كل شىء.

ما يهمنا بالنسبة لنجيب محفوظ ، أن نتخذه نموذجا لدراسة حالة، فالرجل منذ زمان طويل لايقرأ ولا يكتب، وكل معلوماته التى يبنى عليها آراءه مستقاة من الآخرين، وسوف نكتفى بنموذج واحد، ففى صفحة ٢٢٤ من الكتاب المذكور يقول نجيب محفوظ: " عندما دخل السادات المعركة كان يعرف إمكانياته بالتحديد، ويعرف أنه لو تجاوز خطا معينا، فستضربه الولايات المتحدة الأمريكية، وستضطر إسرائيل لاستخدام الرؤوس النووية. ومن ثم دخل المعركة وفى ذهنه المفاوضات، وكان يريد أن يجلس على طاولة التفاوض ويطالب بحقوق العرب من منطلق قوة. ولهذا السبب حدث الخلاف بينه وبين الفريق الشاذلى رئيس الأركان، فالأخير ينظر إلى الأمور نظرة عسكرية مجردة، وهى نظرة ترى أنه مادام الطريق مفتوحا أمامنا إلى حدود إسرائيل ولاشىء يعترض تقدم

قواتنا فلماذا نتوقف".

عند هذه الفقرة من الكتاب توقفت أنا ......

فالأمور عكس ما قاله نجيب محفوظ تماما، ومذكرات الشاذلى موجودة فى الأسواق بعد الإفراج عنها، والشاذلى نفسه موجود بعد الإفراج عنه(حبسوه من أجل هذه المذكرات، فتناسق ذلك مع تناقضاتنا التى تسحل الأبرار وتسجن الأبطال وتسيِّد الأشرار والخونة)... والحقيقة أن الفريق الشاذلى كان يرى ألا نتعدى عشرة كيلومترات، والحقيقة أنه كان مصرا على بقاء فرق مهمة من جيشنا غرب القناة كا احتياطى استراتيجى، والحقيقة أنه طلب سحب هذه القوات من الشرق بعد أن أمر السادات بعبورها فانتهزت إسرائيل الفرصة وعبرة إلى الثغرة من الدفرسوار، والحقيقة أنه كان ضد تطوير الهجوم الذى أمر به السادات فأسفر عن خسائر هائلة وفشل ذريع وتحول جزئى فى مجرى الحرب.

تلك هى الحقائق التى يعرفها أى مهتم بشئون الوطن، وليست حقائق هامشية حتى يمكننا نسيانها أو تجاهلها أو الخطأ فيها، وهى حقائق منشورة فى معظم المذكرات السياسية والعسكرية.

إننى أنبه القارىء، أننى الآن لا أبحث من كان على صواب ولا من كان على خطأ، الأمر الذى نتناوله لا يتعلق بالسادات ولا بالشاذلى ولا بنجيب محفوظ نفسه، و إنما يتعلق بالمثقفين التى تحيط نُخَبهم بنجيب محفوظ، ألم يراجع أحد الكتاب؟ ألم يتنبه رجاء النقاش نفسه فيبادر إلى إنقاذ الكاتب الكبير من هذا الخطأ الفادح؟ لقد ذكرنا أن نجيب محفوظ لا يقرأ الآن، فهل المثقفين الذين يحيطون به لا يقرؤون أيضا؟ هل هو الجهل أم الهوى؟. وهل تدنت حوارات النخب المثقفة إلى مستوى دردشة المقاهى فلا تأصيل و لا حقيقة.

لماذا نلوم رجل الشار ع العادى إذن؟

لماذا نلوم خريجى الجامعات أو أفراد الجماعات؟

وهل كان العيب عيب الجماعات المُحاصرة أم عيب المحاصِرين؟!.

عيب النخبة الخادمة التى كرست كل شىء فى الوطن من أجل إبقاء الحال على ماهو عليه، النخبة التى لم تدع مثلا أعلى أو قيمة مرجعية نرجع إليها عند الاختلاف.

لكننا لم نكن نريد من النخبة أن تساهم فى تكوين هوية متجانسة للأمة...

كان مطلبنا منكم أقل بكثير ...

لكنكم لم تستطيعوا شيئا ......

لم تستطيعوا رغم كل ضجيجكم وعجيجكم أن تتفقوا على نقطتين فقط : انتخابات حرة لديموقراطية حقيقية و إنسان لا يمتهن، مهما كانت الانتماءات أو الاتجاهات وتباين الرؤى، حتى ذلك الموقف النبيل الذى اتخذه الصحفيون فى مصر احتجاجا على مايراد بهم، كان أشبه باستنفار قبلىٌ، فلكم اغتصبت حقوق الأمة قبل ذلك، لكنهم لم يجتمعوا على قلب رجل واحد، إلا بعد أن مسهم الضر .

فلماذا عجزتم يا معشر المثقفين والحاشية (هل مايزال ثمة أى فارق بين المثقفين والحاشية ؟!) عن الانتصار للقيم المجردة التى تقاس الأمور عليها، عجزتم حتى أن تكونوا كبعض شيوخ الأزهر السابقين فى مواقفهم الصلبة لحماية الأمة من طغيان المماليك، فى ذلك الزمن، الذى تتخذونه مثلا وعبرة، للهمجية، والتخلف، والاستبداد . عجزتم، وبدلا من أن ترسم الثقافة للسياسة المعايير والقيم والمثل الأعلى، راحت السياسة، ويا ليتها سياسة سوية، ترسم للثقافة معاييرها ومثلها وقيمها الدنيا .

الحق أقول : أن الحاشية، فى مسيس الحاجة للدفاع لا عن فكرهم فقط، بل وعن شرفهم أيضا، فإننى، و أعتقد أننى لست وحدى، أنظر فى ذهول إلى تطورهم الفكرى، حتى بتٌ لا أملك فى وصفهم إلا ما أملكه فى وصف النخبة الحاكمة فى معظم أرجاء العالم الإسلامى، لا أملك إلا أن أستعير من مسرحية الاغتصاب لسعد الله ونوس قوله:" هل تظن أن هذه الفئات تمثلنا أو تشغلها قضية الصراع مع إسرائيل، لا، إن مشكلتنا مزدوجة، و إن للصهيونية

الآن امتدادها فى النظام العربى الراهن، الذين استسلموا والذين يستعدون للاستسلام، الذين يقمعون شعوبهم ويدوسونها، الذين يبددون ثروات بلادهم و ينهبونها، هؤلاء جميعا هم بعض امتداد الصهيونية فى الجسد العربى، إن الورطة عندنا معقدة، و إن الخروج منها يقتضى نضالا مركبا وصعبا " .

أجل، يا معشر الحاشية، بعضكم، كبعض النخب الحاكمة ليس سوى امتداد للصهيونية فى عالمنا العربى و الإسلامى، وياله من عار أن ينتقل بعض المثقفين من العداء المطلق لجبروت ووحشية الحضارة الغربية تحت لواء ماركس ولينين إلى العداء المطلق للحضارة الإسلامية تحت لواء كلينتون ورابين، تماما كالجوارى الذين ينقلون كل ولائهم ووفائهم من المغلوب إلى الغالب رافعين لواء العداوة المستعرة للاتجاه الإسلامى، دامغين كل فصائله بالإرهاب، ومنكرين أيضا حتى آراء المستنيرين حقا فى أن الإرهاب ليس إلا محصلة طبيعية للفساد السياسى والخلل الاجتماعى، وعجز السلطة، لا عن القمع، بل عن الفهم، إنهم يتجاهلون بل ويسفهون أى رأى يدافع عن مصالح الأمة وعقلها، ولطالما -على سبيل المثال - امتهنوا شيخ الأزهر كرمز للرجعية والتخلف والانغلاق، حتى إذا جاءوا بمن يرى رأيهم ويسعى سعيهم ويطلق الفتاوى تزلفا وقربى، فإذا جاءوا بمثل ذلك فهاجمه الغيورون على الأزهر والوطن والدين لبسوا هم مسوح الحريصين عن كرامة الأزهر وشيخه، نفس الشىء يحدث مع كل المفكرين، يحاربون كل مخلص ويرفعون كل خئون، لأنهم ينظرون إلى الأمة، بأعين أمريكا و إسرائيل، يشاركون فى هدم الوطن، وحصار قلاعه الشريفة التى مازالت صامدة للحصار رافعة لواء المقاومة. كما يتجاهلون حتى دراسات بعض كبارهم، والتى رأت أن النخبة الحاكمة فى العالم العربى كانت تعمل لصالحها، وضد مصالح أوطانها، طيلة القرون الخمسة الأخيرة على الأقل.

فترى، هل ما يلم بكم الآن يابطانة السلطان وحاشيته مجرد انهيار عارض، ستنهضون بعده لتواصلوا نضالكم، ولتعيدوا لفكركم القديم بعض شرفه، أم أنكم انهرتم إلى الأبد، وما شرف

فكركم القديم سوى أكذوبة ولت، انكشفت وانهارت كما انهار عالمكم . أنني على وجه من الوجوه أدرك مأساوية وضع بعضكم، لقد تخيلوا الأصنام آلهة، وفجأة ماتت آلهتهم، فلا هم بقادرين على مواصلة عبادتها ولا هم قادرون على الإيمان بإله جديد، ولعل دستويفسكى كان يصف أمثالهم حين قال : " إذا لم يكن الله موجودا . . . فكل شيء مباح . . . !!! ".

كل شيء مباح، تزوير الانتخابات مباح، التعذيب مباح، الاستسلام مباح، قتل روح الأمة وسلب هويتها مباح، مادام يصب فى اتجاه قمع الاتجاه الإسلامى، الصيغة الوحيدة الموجودة الآن فى العالم، التى و إن لم تكن قادرة الآن، فهى التى ستقدر ذات يوم حتما - بإذن الله - على مواجهة وحشية واستغلال حضارة الغرب.

ذات يوم اندفع صاحبى وهو يحاورنى ظانا أنه ألزمنى الحجة ، وكأنه يلقمنى الحجر الذى سأخر بعده صريعا فيقفز على صدرى صارخا صرخة النصر شاهرا سؤاله يقطر من دمى ، أو كأن سؤاله صاروخ كذلك الذى أصاب يحيى عياش أو جوهر دوداييف ، فلن أنطق بعده :

- ماذا تريد ؟ هل تريد أن نحارب إسرائيل .

فأجبته بعد صمت :

- لا . . .

فارتخت جوارحه مؤهبا ملامحه لنشوة الانتصار الحاسم . .

لكننى واصلت . . .

- ليس إسرائيل فقط ، بل إسرائيل و أمريكا و أوروبا وكل طواغيت الأرض ، وكل من يريد أن يطفىء نور الله. فليست مهمتنا أن نحارب الظلم والقهر والجبروت واستغلال الإنسان فى بلادنا فقط بل فى كل بقعة من بقاع الأرض.

ونظر الصديق نحوى ذاهلا فتماثلت لمخيلتى أحاسيس المسلمين المحاصرين بالأحزاب وقد ضاقت الدنيا بهم وبلغت القلوب الحناجر ويظنون بالله الظنونا، فيبشرهم الرسول الكريم صلوات الله عليه

وسلامه وهم تحت وطأة الحصار ذاك بالانتصار على كسرى وقيصر.
قلت للصديق الذاهل :

- وسننتصر ......!!!

فلماذا يارجال الحاشية استيأستم من نصر الله، ولماذا ظننتم أنه يخلف وعده؟. لماذا اندفعتم من عبادة الرحمن إلى عبادة السلطان، يامن كان المفروض أن تمثلوا ضمير الأمة، والحلقة التى تصل ما بين نبض الأمة ووعى الحاكم، لماذا انفصلتم عن الأمة انفصال النخب الحاكمة عنها، وهل لى أن آمل والوضع ذاك، أن أنتظر من أحدكم أن يقول لحاكمه وولى أمره أن أسوأ ما حدث فى الحقب الأخيرة ليس ضعضعة الوطن أمام أعدائه، ولا الاستسلام الرافع زورا راية السلام، ولا الاشتراك فى سحق العراق، ولا انهيار الاقتصاد، و إنما هو ذلك التلوث الأخلاقى المذهل الذى ألمّ بكم أول ما ألمّ، والذى ترتب عليه افتقاد المعايير والقيم، وغيبة الخجل مما يشين .

يا معشر الحاشية : هل خطر ببال أحدكم فى مصر مثلا - وباقى بلاد العالم العربى أولى وعلى وجه خاص الجزائر وتونس لكنى أتحدث عما أعرف - أن يصارح الرئيس بخطورة ما حدث فى الانتخابات الأخيرة، حين أيقظوا الوحش الكامن فى النفوس، ليستخرجوا من النفوس أبشع ما فيها و أشدها شراسة . هل خطر ببال أحدكم أن يقول للرئيس أن هذا هو الإرهاب، غرسه وبذورة، ومنها ستنمو وتترعرع أدغاله كى يسقط علينا حميمه . هل خطر ببال أحدكم أن يقول له أنه استمع إليه فى ليلة القدر، و أنه اندهش حين تحدث سيادته عن المتخلفين الذين تحجرت قلوبهم، و أنه تخيل لوهلة أنه سيستطرد للحديث عن المجرمين الذين تحجرت قلوبهم فزوروا الانتخابات، وعن المجرمين الذين تحجرت قلوبهم فراحوا يمارسون التعذيب دون وازع لا من سلطة ولا من ضمير ولا من دين، وعن المجرمين الذين تحجرت قلوبهم، فقتلوا الأبرياء وهم فى جوار الدولة فى السجون ، أو استبقوهم فيها، رغم أحكام القضاء .

حتى لو كان استمرار الرئيس فى الحكم هو المسألة فهل كان ذلك يستدعى أن نفعل بالأمة هذا؟؟!

لكن الأسى المذهل يصفعنا أن ما حدث لم يكن من أجل استواء الرئيس على الحكم، بل كان من أجل إسقاط قطع غالية من قلب الوطن، ومزق من أشلاء ضميره ، وتكريس عدم التغيير، بثبات الوجوه، أو ما تعبر عنه الوجوه، فيما يدفع بنا إلى الهاوية .

فى حوارى مع الأصدقاء، كانوا يقولون أن النظام أدار العملية الانتخابية بالحماقة كلها، و أنه، بدلا من أن يسعى إلى شق صفوف المعارضة، قد وحدها ضده، وكنت أحاورهم، فأزعم أن النظام ليس غبيا، و أنه يعرف ما يفعل، و أنه يدرك جيدا، أنه مقدم على قرارات لا تحتمل وجود أى معارضة، أو فضح للنوايا، وكشف للمخاطر، و أنه لذلك ضحى بما كان يمكن أن يحصل عليه من مكاسب، بشق صفوف المعارضة .

وكنت أسائل نفسى : لماذا كل هذا العنف والجبروت والظلم والتزوير والكذب، ولماذا كل هذا التأييد من الحاشية الذين يستكتبون فى الصحف ؟ . هل الأمر صراع داخلى على الحكم ؟ أم مقايضة مع النظام العالمى عليه ؟ مقايضة تقضى بتعهد نخبنا الحاكمة بأن تقوم هى بهدم وتدمير الأمة بدلا من العدو، ومقابل ذلك يؤمن حكمهم، ضد شعوبهم!.

عم تدافعون يا مؤيدى النظم الحاكمة فى العالم العربى والإسلامى ؟

عم تدافعون، حين يتنكر حرب بعضكم للدين خلف ستار مقاومة الإرهاب، وليت ذلك كان كما تدّعون لكى تسود الدولة المدنية ، لكنكم إذ تفعلون ما تفعلون، تفعلونه لصالح الدولة الفاشية، لصالح التزوير والكذب والتعذيب والتلوث الأخلاقى.

دعكم أيها الحاشية من أى اختلاف سياسى، تعالوا فقط إلى قيم مجردة، ولنطبقها بإخلاص حتى لوكانت ضد أهوائنا.

دعكم من نظام الحكم الذى نود أن نُحكم به، دعكم من الخلاف بين الدينية والدنيوية، لنفترض أننا سنوافقكم، سنتخلى تماما عن المطالبة بما تشتمّون منه للإسلام رائحة، و أننا نريد أن نكون كأوروبا أو أمريكا أو حتى إسرائيل، فهل يتم ذلك بتزوير

الانتخابات و إهدار حقوق الإنسان.

هبوا الجماعات الإسلامية خوارج، ولنتفق معكم أن نرفض الثيوقراطية، ولكن ما يسوغ لنا ولكم ذلك، ما يجعلنا منطقيين مع أنفسنا، أن يكون ذلك الرفض وتلك الحرب فى سبيل حماية الدولة العلمانية أو المدنية منهم، الدولة العلمانية وليست الدولة البوليسية الباطشة التى تزور الانتخابات وتفترس بنيها . دولة الحكم فيها لمن غلب، بغض النظر عن شرعية حكمه، عن وسائل تغلبه .

ثم إنكم تصرون على تجاهل أن الإسلام ليس طقوس عبادات، بل منهجا كاملا للحياة، وبطاقة هوية للحضارة، كما تتجاهلون الفروق الهائلة فى النظريات المختلفة للتيار الإسلامى، والتى تتسع لآفاق من الفكر لا أول لها ولا آخر، تعاملونه كما يعامله الصهاينة والغرب، ومع ذلك، فإن وسائل إعلام الصهاينة والغرب، أكثر إنصافا منكم، لأنها تتبع منهج العقل والتحليل، لا منهج القتل والتضليل . ثم أنكم فى نفاق الحكام، وعداء الإسلام، تنسون أن مصر ليست مبارك، والسودان ليس البشير، والعراق ليس صدام، والسعودية ليست آل سعود، والدولة الإسلامية لم تكن يزيد ولا السفاح ولا سليم الأول، والسادات عندما هرول إلى إسرائيل لم يكن يمثلنى ولم يكن يمثل الأمة وما مثل إلا نفسه وبضعة من الحاشية حوله، نفس الشيء ينطبق على من سبقوه، وحتى الصحابى معاوية لم يكن يمثل المسلمين فى عهده ولا الخليفة المجاهد هارون الرشيد الذى قرأنا تاريخه بعيون أعدائنا لم يكن هو الآخر يمثل المسلمين فى عهده، إنما كان كل واحد منهم مجرد واحد من الأمة لايملك أن يسم العهد بسماته إلا أمام تاريخ كذوب، تاريخ الملوك لا تاريخ الأمم ، ومع ذلك، ففرق بين وضع الحاكم كإنسان يمكن أن يُرفض كليا وبين وضعه كرمز لوحدة البلاد يجب - إن تهدد وحدتها الخطر - أن يُقبل، ومن هذا المنطلق، فنحن لسنا ضد استمرار مبارك،ولا ضد استمرار أنظمة الحكم فى باقى أرجاء العالم العربى والإسلامى، لكننا ضد التعذيب والتزوير والفساد، فهل يسيئكم هذا، إلى الحد الذى تندفعون فيه إلى حصارنا

حصارا كحصار الصحيفة، بدلا من تعضيدنا .

إنكم يامعشر الحاشية، يا دعاة التنوير تنظرون إلى الوحدة الأوروبية كمظهر حضارة ورقى، لكنكم ياذوى المعايير المزدوجة تنظرون إلى دعاة وحدة العالم الإسلامى أو حتى العربى كعلامة تخلف ومظهر إرهاب، ثم تهطل دراساتكم الخئون عن الاختلافات بين الشعوب، و عن أكذوبة أن العرب أمة، وهى دعاوى إن صحت -لا صحت - لا تسوغ عدم وحدة العالم الإسلامى فقط، بل تسوغ أيضا تقسيم دوله وشرذمة بلاده، فبنفس منطقهم الضال المضل، يجب تقسيم مصر لتستقل الصعيد والنوبة، لكن ذلك سيأتى بعد تقسيم السودان .

أحيانا أناقش بعضا من الحاشية عن موقفهم من انهيار الاتحاد السوفيتى وحزنهم عليه، أقول لماذا تحزنون هذا الحزن كله وقد تكشفت الأمور عن فساد لا يتصور، وعن غنى كغنى القياصرة وفساد كفساد الأباطرة وقتل وتعذيب وسحق، أقول لهم هذا فيردون قائلين أنهم ضد كل هذا طبعا، و أنهم كانوا يودون انهيار الحكم لا الدولة، لأن انهيار الدولة سيمنع فى المستقبل المنظور أى احتمال لنجاح تطبيق الفكر الاشتراكى مرة أخرى، أقول لهم : لكن الفرصة كانت أمامهم سبعين عاما فلم يغيروا ولا هم تغيروا، فيقولون : وما سبعون عاما فى تاريخ البشرية، إنها لمحة خاطفة، ثم أنه بالرغم من كل مااكتُشف فقد كان وجود الدولة برغم كل مافيها من فساد دعما لا يقدر لقوى التحرر والمستضعفين فى العالم الثالث، ومصدرا لا للإلهام والحلم فقط، بل وللسلاح أيضا، ثم يهزون رؤوسهم فى أسى قائلين: لقد أصاب اليتم حركات التحرر بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، كما أن الاستعمار الذى كان يحاول أن يستر وحشيته خوفا من رد فعل الاتحاد السوفيتى قد راح الآن يفترس الضعفاء فى شتى أنحاء العالم بمنتهى الوحشية، وفى محاولة أخيرة يقذفون بالحجة التى يعلمون مدى تأثيرها علىّ: هل تتصور أنه كان يمكن أن يحدث للعراق وليبيا والسودان والفلسطينيين ما حدث لهم لو أن الاتحاد السوفيتى كان ما يزال موجودا ؟

وفى هذه اللحظة فقط، أميط اللثام عن الفخ الذى نصبته لهم .

لأسألهم، ولماذا لا تعاملون فكرة الدولة الإسلامية الموحدة بنفس المنطق؟!.

لماذا كنتم عندها تخرسون.

لقد فقدتم القدرة على النظرة الشاملة، وغرقتم في اختلافات ضيقة، فيكفى أن تكونوا على عداء سياسي مع البشير أو رافسانجانى أو صدام مثلا، بغض النظر عن مدى نبل أو خسة دوافع هذا العداء، كى تسعوا بمنتهى الحماقة إلى هدم الوطن و إلى تقسيمه، ولعلكم تنكرون بالحناجر العالية ما أقول، لكنكم بتصرفاتكم و كتاباتكم تكرسونه .

لكم وددت من أعماقى أن تناشدوا الرئيس مبارك كى يأمر مندوب مصر فى الأمم المتحدة بأن يقف فى نبل وبعد نظر لكى يرفض حصار السودان حتى لوصحت اتهاماته فى الاشتراك فى المحاولة الآثمة لاغتيال مبارك، فذلك جرح فينا، نرتقه نحن، لأنه حتى لو صح الادعاء لكان كلمة حق يراد بها باطل، وتهمة مصنوعة فى دوائر استخبارات الغرب لضرب السودان وتقسيمه تمهيدا لضرب مصر، فالأمر ليس أمر مبارك ولا البشير و إنما هو المرحلة الأخيرة للهزيمة الكاملة الشاملة النهائية لحضارة أمة محمد.

إنكم يا معشر الحاشية لم تفقدوا النظرة الكلية و الشاملة فقط، بل فقدتم القدرة أيضا على إرساء معايير محترمة حتى لأبسط أموركم . ويالـه من عار يامعشر الحاشية ، أن جلكم، أو حتى بعضكم، قد أيد بمنتهى الحماسة، هدم النقابات، وإغلاق بعض الصحف، وتكميم بعض الأفواه، وسحق الديموقراطية فى مظهرها الأول وهو صندوق الانتخاب، وما ذلك إلا لأنكم عجزتم عن تبعات الديموقراطية، التى كانت تحتم عليكم، اللجوء إلى إذكاء الفكر، كى تستطيعوا عبر صندوق الانتخابات أن تصوغوا رؤاكم، و أن تحققوا أهدافكم، و أن تنتصروا لفكركم، ويالـه من عار، أن أعداءكم، الذين تتهمونهم بالإرهاب، هم الذين يطالبون بالديموقراطية وبالاحتكام إلى صندوق الانتخاب، و أنكم أنتم الذين تنادون بعكس ذلك . بل ولقد بلغ الشطط ببعضكم ، أن ادعى أن ضحايا التعذيب فى المعتقلات والسجون، هم الذين يلحقون الإصابات

بأنفسهم، رغم أننى وغيرى، قد كتبت لكم قائمة بالكثيرين الذين نالتهم يد البطش، وسحقتهم يد التعذيب، بعضكم أيها الحاشية يفعل ذلك، ويمهد له، وينادى به، مدركا أو غير مدرك، أنه يتخذ نفس موقف مضيف مصر الجديدة، موقف الديوث، وزواج المحلل، والزنا بالمحارم .

هل تستطيعون يارجال الحاشية، أن تصرخوا، صرخة غيلان الدمشقى، حتى لو اعتقلتم وصلبتم وعذبتم حتى الموت مثله، أن سبب انكسار العالم العربى و الإسلامى يقبع بالدرجة الأولى فى حكامه وفيكم. وهل تستطيعون أن تناشدوهم، أن تستثيروا عواطفهم و تؤثروا فى عقولهم، أن تقولوا لهم أنه لا يصح ولا يليق أن يكونوا هم بأشخاصهم، العقبة الكئود أمام تقدم شعوبهم، أن يكونوا هم بذواتهم، الامتداد المحطم للأعداء فينا . هل يمكن لكم أن تقولوا لهم أن الأمة وهى ما عليه الآن من ضعف وهوان لا تتمنى حتى استبدالهم، بل ترجو منهم أن يقتربوا منها قليلا قليلا، ألا ينعدم الظلم والبطش والجبروت والنهب والتزوير والتعذيب تماما، بل أن تكون الاستثناء لا القاعدة.

يارجال الحاشية : يعلم الله – وتشهد النفس الكسيرة – أننى يئست من جلكم، لكن الغريق يتشبث بثُمامة، ولولا ومضات خاطفة لكنها ساطعة تنطلق من بعضكم شارات فى ديجور الليل لانصرفت عنكم كما انصرفت عمن سواكم . فمن رحمة الله بنا أن ضمائركم لم تمت كلها، وقد بقيت فيكم نفوس حرة و إن قلّت، وأرواح أبيّة و إن كلّت، وقلوب مازالت تهفو رغم الصواعق والأعاصير والشهب إلى محاولة إنقاذ البلاد. و إلى هؤلاء أتوجه بندائى:

يامعشر الحاشية : هل أستطيع سؤالكم عن تصوركم للقيم الشاملة المجردة التى ينبغى أن ينبنى الوطن عليها؟

وهل تملكون تلك النظرة التى تتخلص من تخلف نفى الآخر .

هل تملكون أن تقدموا للأمة تصوركم عما يجب الاتفاق عليه وما يجوز الخلاف فيه .

وهل تملكون الشجاعة لكى تقولوا لحكامكم وأولياء أموركم ما تقولونه فى مجالسكم الخاصة .

بل هل تملكون الشجاعة لكى تعترفوا أن تخلفكم هو سر تخلف الأمة : حكاما ومحكومين، و أن عجزكم عن المواجهة والتضحية هو سبب انهزامها .

يامعشر الحاشية : أحيانا، أعزى نفسى بكلمة تعفنت، و هى أن جموع الحاشية بخير و أن السوء فيهم لا يعدو القشور، كالسمك الميت الذى يطفو على الماء فيظهر، لكن الواقع يردنى كسيفا، جموع الحاشية بخير، وجموع القضاة بخير وجموع الطلبة بخير وجموع الأمة بخير، فمن أين يأتى كل هذا الشر والخراب إذن . وهل يمكن، مهما كانت براءة الأفراد أن يكون الجزء سليما إذا كان الكل فاسدا.

فى ٦٧ قالوا لنا جموع الجيش بخير . .

وفى حرب الخليج قالوا لنا سنحل قضية فلسطين . .

وعند غزو الكويت ارتعدت فرائص وتشنجت ملامح و شاهت وجوه وعند غزو حنيش سيطر عليهم صمت القبور . فترى، هل صادفت حنيش نخوة نائمة، نخوة لم توقظها تعليمات أمريكية، ولماذا لا تتحرك بعض قطع الأسطول الرابضة فى الخليج لتهدد، ولماذا لم يذهب الجيش المصرى كما ذهب إلى حفر الباطن ؟، ولماذا لم يفرض النظام العالمى حصاره على أريتريا؟، لماذا ؟ أنا لا أفهم فهل تفهمون أنتم ؟، و إن كنتم لا تفهمون مثلى فهل تستطيعون سؤال حكامكم ؟ ؟!!.

يامعشر الحاشية : عار عليكم ألا تكون مصر برؤاكم قائدة العالم العربى وحاميته . يا معشر الحاشية : ماذا فعلتم بأمتكم ؟ ؟!!.

عندما كنت أقرأ كتاب محمد عودة : " فاروق بداية ونهاية "، كان كبدى يتفتت، وأنا أقارن بين عجز الملك العربيد، وجيوش امبراطورية لم تكن تغرب عنها الشمس، عن النيل من روح الأمة، وعن نجاح نظام الحكم الوطنى، فى السحق الكامل لهذه الروح، وكنت أتساءل تساؤل الذبيح، قبل أن تبلغ روحه الحلقوم، ماذا

فعلتم ، لتمنعوا ذلك، أو على الأحرى لتكرسوه .

لماذا لا تقترحون على الحكام مايخرجنا من القاع الذى صرنا إليه . بل لماذا لاتفرضون عليهم ذلك حتى لو تلقفتكم سجونهم ومشانقهم.

لماذا لا تطلبون منهم أن يتحدوا ليقاوموا فإن عجزوا فليذهبوا .

يا معشر الحاشية، عندما تتأهبون لنيل الشرف الذى لا يملك بعضكم سواه، وتستعدون للقاء جلالة الملك أو فخامة الرئيس أو سمو الأمير أو معالى الشيخ، فتنتقون أفخر ثيابكم، من حلل إنجليزية، و أربطة عنق ألمانية وساعات فرنسية و أحذية إيطالية و أطقم أزرار سويدية وملابس داخلية فرنسية - فلعل جهازا على باب صالة اللقاء يصور ماركات ملابسكم الداخلية -، ولعل أحدكم لا ينسينّ أن يضع فى أطراف جيبه منديلا إسرائيليا اجتلابا للحظوة والشهرة والمجد، و أنتم تمسكون قلما أمريكيا وعوينات دانماركية وتذهبون إلى اللقاء فى سيارات يابانية يقودها سائق فليبينى، الآن و أنتم تتأهبون لنيل الشرف الذى لا يملك بعضكم سواه، هل أعددتم فكرة، هل محصتم أمرا، وهل قرر أحدكم أن ينازل الشهداء منازلهم بقول كلمة حق ؟؟!!. بل هل يختلف شتات أفكاركم عن كرنفال ملابسكم .

لو كنتم بخير لكانت الأمة بخير .

كان يمكن - يا رجال الحاشية - أن تكونوا ضمير الوطن، الذى يعيد من ينحرف إلى الصراط المستقيم، و أن ينتصف من الظالم حتى ولو كان قيصر، و أن تضعوا المعايير والقيم، التى لا ينبغى حتى لكسرى أن يتجاوزها، و كان يمكن أن تكونوا ميزان العدل، وصمام الأمان الذى يحمى الأمة من الانفجار والوطن من التفتت، كان يمكنكم أن تقولوا لحكامكم :ليس بين الأمة وبينكم ما يستحق كل هذه الجفوة، كل هذا الترصد، كل هذه الدماء التى سالت والتى تسيل والتى لم يسل مثلها تحت ظل احتلال أجنبى .

يامعشر الحاشية : إن الإحن تجر المحن، و قد أصابنا ذباب أمركم، ولقد أسأتم سمعا فأسأتم إجابة، و أنا حذيركم وقد تطاير الشر أخولَ أخولَ فلا توبسوا الثرى بين الأمة وبينكم، فأمس الدابر لا يعود،

وما الدنيا إلا لماظة أيام، وقولوا الحق مرة، فمن الخواطىء سهم صائب !!. قولوه فلن يرحمكم التاريخ حين تُقرأ الأمور بعين صدق ليرى الأحفاد أن مجمل رؤاكم قد حولت بلادكم من الصخرة العتيدة التى تحطمت عليها جحافل الغزاة إلى حصان طروادة التى ينفذ منه الغزاة إلى العالم العربى والإسلامى . قولوه فيالها من مهانة أن تبلغ بنا الإهانة أن الغرب لم يعد يرى فينا سوى مخلب قط يستطيع به أن يحطم من يحطم و أن يهاجم من يهاجم و أن يحاصر من يحاصر . قولوه ففى خلال أعوام قليلة تم حصار بلدين عربيين وهاهم أولئك على وشك إكمال محاصرة الثالث، ولا يوجد فى كل بلاد الدنيا بلاد تُحاصر سوى بلاد العرب، ولا دم حلل النظام العالمى سفكه سوى دماء المسلمين، وعما قليل يحاصرون الجميع لكن أمراء . الطوائف وكتاب الطوائف قد أعماهم الحرص على منصب زائل، قولوه، بل واصرخوا هل يستحق استمرار حاكم فى الحكم كل هذا الخراب . . قولوه خاصة فى مصر وفى السعودية فقد كان يمكن أن نحتمل وكان يمكن للتاريخ أنْ يحتمل أن يقوم بهذا الدور غير مصر والسعودية فتعيدهما إلى جادة الصواب مصر والسعودية .

كفاكم صمتا، وكفاكم كذبا، وكفاكم تصديقا للكذب، حرام عليكم، أضعتمونا .

حرام عليكم ، بعتم أنفسكم، وتدعون أنكم على حق، إن نجحتم فى المكر بنا فما تفعلون حين يمكر الله بكم ، أدمت مناكبنا مناقبكم ، حرام عليكم ، فى خلافاتكم وتخلفكم ضعنا، حرام عليكم، بكم اغتربنا، عن الدين والوطن، عن المدن والقرى والشوارع، حتى عن أصحابنا وندمائنا، مزقتم هويتنا، وشوهتم عقولنا، معظم ماتقولونه كذب ، فإن قلتم حقا فما يراد به سوى باطل، ياعبدة النظام الجديد نحن نعبد الله، أما نظامكم فليس سوى طبعة جديدة من محاكم التفتيش، فهل ستنبهرون به إلى الأبد، فلنفترض أنهم فى الأمم المتحدة - بعد أن أكملوا حصار بلادنا بلدا وراء بلد - أصدروا قرارا بأن الإسلام دين إرهابى، ولقد رفعوا الاتهام بالعنصرية عن الصهيونية فماذا لو صوتوا غدا على الإسلام والمسلمين، لو قالوا لنا أنه لم يعد

يصلح، أنه لا يتوافق مع النظام الجديد، و أن على المستغربين أن يحاربوه فينا، فإن عجزوا فأن يخربوه.

ترى ، أهذا هو ماتفعلونه الآن ، حين تدعون أن الإسلام إسلامكم وأن الآخرين خوارج أو كفرة .

لماذا يامعشر الحاشية لا تجرؤون على قول كلمة صدق ؟ لماذا لا تقولون ماتعتقدون فى صوابه ولو كان خطأً ؟، ولماذا تعتقدون أن الولاء للنظام أن تكذبوا على أنفسكم وعليه ؟!

نحن نعرف الكذب ، سمعناه كثيرا وسمعنا عنه كثيرا ودرسناه كثيرا كى نفهم أكثر مايجرى حولنا، لكن مانراه ليس كذبا مما عرفناه وخبرناه ، فالكذاب يكذب كى يصدقه الناس كل الناس لكل الوقت ، أو كل الناس لبعض الوقت ، أو بعض الناس لكل الوقت ، أو بعض الناس لبعض الوقت ، أو حتى يظل يكذب على أمل أن يصدقه الناس فلا يصدقونه فيصدق هو نفسه ، تلك هى أنواع الكذب التى نقلها التاريخ إلينا، أما ان يكذب أحد وهو واثق أنه لا أحد قط، لا أحد حتى هو نفسه سيصدق مايقول، فذلك ليس كذبا، لعله فيروس جديد كفيروس الإيدز، فيروس لم نكتشف بعد علاجه، لا نستطيع إلا أن نشخصه ونرصده .

اصدقوا مع أنفسكم ومعنا يرحمكم ويرحمنا الله، اصدقوا ثم قولوا ما تشاؤون .

قولوا لنا حتى أن الإسلام لا يصلح، اجهروا بالسوء حتى وانطقوا كلمة الكفر.

إننى يمكن أن أتخيل صدقكم فى أى اتجاه تتخذونه وأى رأى تؤيدونه ، فمن الجائز أن يكون كلكم أو بعضكم مقتنعا فعلا بسلامة توجهاته و أنه – من وجهة نظركم – لابديل فعلا عن التخلى عن تراثنا واللهاث حتى السعار خلف الحضارة الغربية للحاق بها، يمكن أن أصدق أن هذه وجهة نظركم التى أوصلكم إليها اجتهاد خاطىء قد تستحقون عليه أجرا، وقد يتطلب هذا منا جهدا إضافيا كى نزيل العماء عن

أبصاركم وبصائـركم، كنا على استـعداد لكل هذا القدر من حسن الظـن لو أنكم ساعدتمونا عليه بالإصرار على انتخابات نزيهة وصحافة حرة و ديموقراطية حقيقية، لأننا والأمر كذلك لانملك إلا أن نحكم أن كل حكومة أيا كانت، تقوم بغيرذلك، بعكسه، ليست حكومة وإنما عصابة من القراصنة استولت على الحكم رغما عن الأمة وأن مقاومتها فرض على الجميع ، فرض، لا من فروض الدين فقط، بل بمنطوق حضارة الغرب أيضا !!.

لكنني بالرغم من ذلك كله يامعشر الحاشية سأبتعد عن كل ما يمكن أن يشكل بيننا وبين جلكم خلافا، لا نطالب بأن يكون الإسلام هو المصدر الرئيسي للتشريع الآن، ولا نطالب بعداء إسرائيل ولا أمريكا، ولا نطالب لأحد غير حكامنا وملوكنا بالحكم، فقط نطالب جمعكم أن يعد مرسوما موحدا تقدمونه إلى جلالة الجلالات وفخامة الفخامات بقرار تقدمونه إلى حكامكم وولاة أموركم كي يشرفوكم بتوقيعه فيحقنوا دم الأمة المهدر، وينقذ مستقبلها المهدد، و إن كان المرسوم الموحد سيستشكل عليكم فنحن لا نصر على ذلك، إكتبوا إذن إلى كل حاكم بما ترونه من صيغ يختلف فيها المقال باختلاف المقام، مرسوم يقول :

جلالة الملك:

رئيس الجمهورية :

مادة ١ – قرار رئاسى (مرسوم ملكى) بمنع التعذيب نهائيا، ويعاقب جميع من تورطوا فيه أو تستروا عليه ببنود القانون الموجودة فعلا دون استحداث قوانين جديدة، و أمام محاكم مدنية، مع إلغاء كافة المحاكم الاستثنائية، وضمان ألا يُحاكم إنسان إلا أمام قاضيه الطبيعي، ويحاكم كل القضاة الذين خانوا أمانتهم تزلفا للسلطان وقربى فطمسوا الحقائق وحكموا بالبراءة حين كانت تنبغى الإدانة والإدانة حين كانت تنبغى البراءة، وتلغى كل الأحكام التى صدرت بالمخالفة لذلك .

مادة ٢ – قرار رئاسى (مرسوم ملكى) بإلغاء نتائج كل

الانتخابات والاستفتاءات التى تمت بالتزوير، ومحاسبة من قاموا بها، و إعادتها تحت إشراف كامل من القضاء، ويندرج تحت ذلك إلغاء تعيين العمداء والعمد .

مـادة ٣ - قرار رئاسى (مرسوم ملكى) بإلغاء كافة قوانين الطوارىء وإطلاق حرية تكوين الأحزاب و إصدار الصحف، دون أى حظر على أى اتجاه مادام هناك من يعطيه فى صندوق الانتخابات صوته، وبمنح الحصانة للمفكرين مالم يخونوا، على ألا يترك تقدير الخيانة لفقهاء الحكام ولا لجندهم، ولا حتى للحاكم نفسه.

مادة ٤ - قرار رئاسى (مرسوم ملكى) باعتبار الكذب جريمة مخلة بالشرف تمنع مرتكبها من تولى المناصب العامة، خاصة وظائف الإعلام والصحافة .

مادة ٥ - قرار رئاسى (مرسوم ملكى) بإصدار اللائحة التنفيذية لقانون محاكمة الوزراء، و بأثر رجعىّ.

مادة ٦ - قرار رئاسى (مرسوم ملكى) بتكليف القوات المسلحة و هيئة الطاقة الذرية بالتعاون مع جميع الدول العربية والإسلامية بالبدء فورا فى تصنيع السلاح الذرى مادامت إسرائيل ترفض التنازل عنه .

مادة ٧ - قرار رئاسى (مرسوم ملكى) بزيادة عدد الجيش وقوته ليقوم بوظيفته فى الاستجابة للتحديات التى يواجهها والتصدى لواجباته فى حماية أمننا القومى، وفى منع مزيد من التقسيم لبلادنا، ويمتنع الملوك والرؤساء عن توريد السلاح لجيوشهم.

مادة ٨ - قرار رئاسى (مرسوم ملكى) بتطبيق قانون من أين لك هذا، على الحاكم والمحكوم، و أبنائهم .

مادة ٩ - قرار رئاسى (مرسوم ملكى) بإعادة الأخلاق إلى عرشها الذى أُطيح بها من عليه، و أن تكون هى النبراس الذى يشحذ عزيمة الأمة، ويقودها لدخول القرن الحادى والعشرين .

مادة ١٠- قرار رئاسى (مرسوم ملكى) بتشكيل لجنة من

حكماء الأمة تكون مهمتها تقليد إسرائيل، وتقوم هذه اللجنة بوضع خطة تفصيلية تدريجية شاملة لتوحيد العالم العربى والإسلامى بعد خمسين عاما أو حتى بعد مائة عام. و يتفق جميع الفخامات والجلالات أن توصيات هذه اللجنة ملزمة للجميع.

مادة ١١- قرار رئاسى (مرسوم ملكى) :دون انتظار لقرارات اللجنة السابقة، تعلن جميع الدول العربية والإسلامية إنهاء الحظر على العراق وليبيا و أى بلد عربى أو إسلامى.

مادة ١٢ - ينفذ هذا المرسوم بمسودته ودون انتظار لنشره فى الجريدة الرسمية .

يا معشر الحاشية : هل يمكن أن تقدموا مثل هذا المرسوم لحكامكم بعد أن تتفقوا على مضمونه ؟ هل يمكنكم ؟ بل هل تستطيعوا أن تحترموا أنفسكم و أن تناموا قريرى الأعين دون أن تقدموا مثله، وتصروا عليه ؟، حتى لو اتهمتم بعدها بأنكم متطرفون إرهابيون متحجرو القلب متخلفون.

يا معشر الحاشية :

يا له من عار أن تنجح منظمة الوحدة الأفريقية فى تحدى هيمنة الولايات المتحدة على الأمم المتحدة، فتصدر قرارا مستقلا بإنهاء الحصار على ليبيا، كانوا هم السابقون، لا الدول العربية ولا الإسلامية. فافعلوها، و قولوالحكامكم أنهم إن استجابوا فقد استبرءوا لدينهم و لأمتهم ولأهلهم ولسد الثغرة التى تمتد منها خناجر أعدائنا ومخالبهم، فإن هذه الثغرة، ليست فى جسد الأمة بل فى سدّة الحكم.

يامعشر الحاشية : كيف لا تفعلون ؟؟!!

أحيانا يامعشر الحاشية أشعر بالكراهية لكم ولنفسى، وبالإدانة، وأحيانا أخرى، ترق نفسى، وتجيش فىّ المشاعر، فأجدنى والدموع تغرورق فى عينى معبرة عن أشواق مبهمة مجهولة لقيم مجردة لا تتحقق، ونفس مثخنة بالجراح تحت وطأة تاريخ ثقيل، مضمخ بالدم، مستعيدا بؤس الإنسان، وحماقته التى لا تفوق

ضروبها سوى ضروب عذابه، أجدنى أتخيل المعجزة، أنكم تفعلونها و أن الحكام يستجيبون، و أنكم تستحضرون قدرة الله عليكم، إذ ولاكم، وأجدنى أسأل كل واحد منكم، و أسأل - من خلالكم - الحكام الذين لا يسمعوننى ولا يقرؤون لى :

يا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم . .

الذى خلقك فسواك فعدلك . .

فى أى صورة ماشاء ركبك . .

الخاتمة

لا يسعنى يا قارئى إذ أختتم هذا الكتاب بكل ما فيه من دموع ويأس وعذاب و ألم إلا أن أورد جزءاً من رائعة دستويفسكى: "الإخوة كرامازوف"، حينما راح وكيل النيابة ايبوليت كيريلوفيتش يلقى مرافعته متجاوزا قضية كرامازوف إلى قضية روسيا، قضية فساد المجتمع والدولة، فقال:

"قد تقولون عنى أننى متشائم تشاؤما مرضيا، و أشهر بالناس تشهيرا خبيثا، وأغالى فى وصف الشر الذى ألاحظه ملاحظة هاذية!. آه...كم أتمنى يارب السماء أن تكونوا محقين، إذن لكنت أول من يسعد، لكم ألا تصدقونى إذا شئتم، ولكم أن تعدوا قلقى هذا وخوفى هذا مرضا، ولكن تذكروا مع ذلك ما أقوله لكم اليوم: إذا لم يكن فى أقوالى إلا عشر أو عشر معشار من صدق، فذلك وحده رهيب!".

كنت أود أن أريح فخاماتكم وجلالاتكم، و أن أريحك أنت أيضا أيها القارئ، وأن أدعكم بعد انتهاء قراءتكم - إن كنتم تقرؤون - تعودون إلى الوراء على طنافس عروشكم باسمين لتهتفوا : "يا له من كاتب ذو خيال خصيب "، كنت أود ذلك، وكان سيريحنى أنا أيضا، لكن الحقيقة أن كل ما قلته وكل ما أقوله وكل ما سوف أقوله - إن شاء الله وإن سمحت أجهزتكم - قد وقع بالفعل، و أن ذلك الوقوع، الذى لا يكاد يصدق، هو علامة من أخطر العلامات والنذر على استفحال المرض، ووصوله إلى نخاع الأمة وخلاياها الأولية الأولى، ليس ذلك فقط، فالأمر أفدح والبلايا أعم، ولست أنسى ذات يوم جلستى مع قيادة عليا فى جهاز الرقابة الإدارية، استمع الرجل إلى طويلا، وأنا أبذل قصارى جهدى كى أقنعه بحجم الفساد الضارب فى أطناب المجتمع، بحجم الخيانة والخزى والعار، والرجل صامت لا يتكلم، فيخيل إلى أنه لا يصدقنى، أو أنه يظننى أبالغ، فأبذل المزيد من الجهد، و أقرع المزيد من الحجج، و إذا بالرجل يتخلى عن صمته ليتنهد تنهيدة تتمزق معها روحه ليقول: ومع كل

هذا أنتم لاتعرفون من الفساد إلا القشور!!.

ولقد تكرر نفس هذا الموقف مع مسئول كبير في وزارة الداخلية كما ورد في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

إننا لم نتحدث مثلا عن تفاصيل خيانات الحكام، فبعضها معروف، والجزء الأكبر منها لم يكشف النقاب عنه بعد، قد يعرف بعد ثلاثين أو خمسين عاما، ومع ذلك فنحن لا نستطيع تناول المعروف أو غير المعروف.

لم نتحدث أيضا عن عمولات السلاح حين تحول الحكام إلى سماسرة فتحولت الجيوش بالتالي إلى فرق مسرحية استعراضية، تستدعى للهو أو للزينة أو لقمع الشعوب، لكنها لا تستطيع أبدا مواجهة عدو أو غاز مغتصب، حتى لو كان أريتريا، والخونة يشعلون الخلافات بين المسلمين ويعرقلون أى تقارب مع إيران مثلا من أجل الجزر التى تحتلها، رغم الشكوك القانونية والجغرافية والتاريخية حول حقوق الملكية، ثم لاينبس واحد من هؤلاء الخونة ببنت شفة من أجل فلسطين أو حتى جزيرة حنيش رغم أن حقوق ملكيتها لا تشوبها شائبة.

لم نتحدث عن أبناء الملوك والرؤساء الذين يسرقون شعوبهم ويبيعون أوطانهم، فيجعلون السرقة حقا مشروعا لمن دونهم.

لم نتحدث عن الخلل العقلى الذى يصل إلى الجنون، والخلل المعرفى الذى يصل إلى الجهل عند نخبنا وحكامنا.

لم نتحدث عن ذلك، لأننا لو تحدثنا عنه لأعدم الكتاب وصاحبه، لذلك رضينا بالأقل لعله يصل، وقد اقتصرنا على الصرخة التى تطالب بمنع التعذيب ومنع تزوير الانتخابات، آملين أنه لو تضافرت جهود الأمة لتحقيق ذلك فسوف تنشأ أوضاع جديدة تتحرك فيها آليات جديدة تشحذ قوى الأمة وتفك عنها القيود لتنطلق وتكنس كنسا تلك النخبة الخائنة المخربة التى تهدر آمالها و إمكانياتها وطاقاتها وقدراتها منذ قرون.

إننى لا أستطيع أن أنادى بالثورة ففارق القوة بين الشعوب والحكام – وكلاء الأعداء– رهيب، ولن يسفر إلا عن مجزرة للشعوب.

لا أستطيع أيضا أن أنادى بمنطق العنف والإرهاب الذى لن يسفر إلا عن إهدار قوى الأمة فى حروب أهلية.

لكن ذلك لا يعنى الاستسلام ليأس مطبق أسود لايرى ثمة بصيص ضوء.

فبرغم كل هذه الكوارث والنوازل سننتصر.

وثمة طريق آخر تستطيع الأمة كلها أن تسير فيه، بل عليها أن تسير فيه، بل ليس أمامها إلا أن تسير فيه، إننى لا أدعى ولا أزعم أن جموع الأمة بخير، بل أعترف أن جميعها بشر، الحكام والمحكومون، النخبة والعامة، الجنسون والـ"بدون"، الصفوة والحثالة والقضاء والجيش والشرطة والاقتصاد والصناعة والزراعة، والأزهر والحرم والأقصى، ليس ثمة عندنا ما لم يلحق به البوار، و أن جهد الأمة الآن يجب أن يكرس لا لإصلاح شامل جذرى يستحيل حدوثه، بل لتحقيق توازن مبنى على قانون إلهى ربما يشبه قانون الكتلة الحرجة فى الفيزياء، وهو قانون لا يتحكم فيه الكمبيوتر ولا يجرى حساباته العقل بل القلب، قانون لا يخطىء، ويقضى بأننا لو استطعنا أن نربى أمام كل ألف خائن مخلص واحد لانتصرنا!!

أننى لا أملك تفاصيل حل. . . بل أملك منهجا . . .

لست أملك وصفة سحرية نتجرعها فى المساء فإذا بالصباح يأتى وقد انقشعت الغيوم ورحلت الهموم وانتهت الكوارث وتحولت الهزائم إلى انتصارات...

لا أملك ذلك الحل، لكن ما لا أملكه أنا قد يملكه ٦٥ مليون مصرى و أغلب الظن يملكه ٢٥٠ مليون عربى ويقينا يملكه ١٥٠٠ مليون مسلم.

الحل فى تبنى منهج الحضارة الإسلامية فى مواجهة قضايانا.

المنهج الشامل الكامل الذى هو أوسع من أى جماعة أو حزب لأنه يستوعب الجميع.

وربما فى هذا المنهج يقع الفارق بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

فنحن نملك منهجا يحتم علينا أن نكون شرفاء نبلاء متأملين صادقين حريصين فى جهادنا على الموت بغض النظر عن النتائج فالغاية عندنا لا تبرر الوسيلة.

يجب أن تكون كل وسائلنا أخلاقية وشريفة، مهما كانت النتائج، ذلك أن غايتنا الأخيرة هى الله.

أما هم، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة، مهما كان فيها من كذب ومن إجرام ومن قهر وبطش وظلم ونهب وتزوير.

ما أريد أن أركز عليه هنا أن أقول أن الإسلام الذى كرمنا برفع وطأة خطيئة آدم عليه السلام عنا، فليس لنا صليب نحمله ولا خطيئة لم نرتكبها نكفر عنها، الإسلام ذاك، يحملنا خطيئة الحاضر.

لقد كنت أرقب دائما بدهشة وذهول ذلك الحديث النبوى الشريف الذى يقرر: " إذا بات امرؤ جائعا فلا مال لأحد"

قولوا لى أى نظام فى الدنيا يصادر أموال الأمة كلها من أجل خطيئة الصمت عن جوع جائع.

نفس الشىء بالنسبة لتكريم الروح الإنسانية، فمن قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا. .

فهل نتجمد ياقراء، يا أمة، ياحكومة، يامشايخ، وياشيخ الأزهر، هل نتجمد عند الحروف فلا نتجاوزها أم أنها نبراس ومنهج، فيكون من زور صوتا فى الانتخابات فكأنما زور صوت الناس جميعا، و إذا بات امرؤ يعذب فلا أمن لأحد!!.

كلنا خطاؤون وما من برىء منا.

الحكام والأمة والشيوخ والعلماء والمفكرون.

ما من برىء..

لقد ذكرنا كيف أن الجميع فشلوا، الإسلاميون والعنصر الفاعل فيهم هم الإخوان المسلمون، والليبراليون والعنصر الفاعل فيهم حزب الوفد، والقوميون واليسار والجزء الفاعل فيهم هم الناصريون، والبعثيون، والمجهولون والمنسيون وهم يشكلون معظم شعوبنا ولا عناصر فاعلة لهم سوى مشيئة الملك الرئيس الأمير الخفير، و لقد أغفلنا عن عمد الماركسيين والشيوعيين حتى

لانتورط فى ذكر مساوىء الموتى.

الكل خاطىء لأنه لا يملك المنهج.

حتى أحزاب المعارضة، فما يثير الدهشة والذهول، أن هذه الأحزاب، التى تنادى بألا يكون منصب الرئاسة ملكا عضودا لا ينهيه إلا الموت، هذه الأحزاب، ما من رئيس من رؤسائها تخلى عن منصبه، وما من أحد منهم سيغيره إلا الموت!!.

ماذا نتوقع منهم إذن إذا وصلوا إلى الحكم.

تلك النقطة وحدها تشكك فى جدية الأحزاب جميعا، ولعلها تشى بأسباب عدم تواصلها مع الناس وقلة تأثيرها.

إن كثيرا من المعارضين لم يصبحوا معارضين إلا لأنهم لم يجدوا المكان المناسب فى أحزاب الحكومة.

وكثيرين منهم، عين من عينيهم على أحزابهم، أما العين الأخرى فرهن انتظار أول إشارة أو غواية من الحكومة. ويكفى أن تلوح لهم بمقعد فى مجلس حتى يسيل لعابه، لينكر حزبه وماضيه، ليذهبوا كالكلب الذليل الخاضع.

كما أن بعض الأحزاب، رغم سلامة منهجها، تخلط ما هو صالح بما هو طالح، فتفقد الآخرة ولا تكسب الدنيا.

وهناك مفكرون كبار، يتعرضون بالطيبة التى تصل إلى حد السذاجة أو بالحيلة والمكر والخداع من السلطة إلى مواقف تصبح كقنابل و ألغام تقوض وجود أحزابها.

كما أن أجهزة الدولة، الرسمية وغير الرسمية لا تكف عن دس العملاء فى الأحزاب كى تهدمها.

إن حزب العمل الإسرائيلى أقرب إلى قلب الحكومة وفكرها من حزب العمل المصرى، ثم أن الحكومة لا تجرؤ أن تعامل زعماءه كما تعامل أبناء جلدتها.

إن التيار الدينى المتطرف شاءت الدولة أم أبت يمثل تواجدا على الساحة، وليرجع القارىء إلى رواية العميد حمدى البطران، ليرى أن رجل الشارع العادى يعتبر قتلاه شهداء، ومن الطبيعى ألا يتخذ نفس الموقف من قتلى رجال السلطة.

نحن لا نتحدث الآن عن الصواب والخطأ لكننا نرصد أن النظام الذى يتعايش مع الأعداء الاستراتيجيين للأمة و يعجز عن لملمة مزق أمته هو نظام خائن.

نحن نعرف كمّ الضغوط الذى يمارسها العدو على النظام، ابتداء من التضليل والغواية وانتهاء بالحصار والحرب والتقسيم، كان ينبغى على النظم أن تقاوم،أن تحشد قوى كل فئات الأمة وتقاوم، لكنها لم تكتف بمجرد الهزيمة، بل أنها عندما انهزمت، راحت تسلط نفس الضغوط التى مارسها عليها العدو، راحت تمارسها على الأحزاب والنقابات والهيئات والمؤسسات. راحت تخربها كما خرب الأعداء بلادنا.

نخرب بيوتنا بأيدينا.

لا منهج يقودنا ولا نبراس يقود الطريق لنا.

ولو نظرنا إلى كل الفئات لوجدنا أن أكثر ما أساء ولوث بالعار كل فئة لم يكن الأعداء ولا الإخوة أو الأصدقاء، بل أبناء الفئة نفسها.

فمن أساء إلى هيبة الحكم هم الحكام أنفسهم...!!

ومن أساء إلى الدين رجال الدين ..!!

ومن أساء إلى الأزهر شيخ الأزهر . . !!

ومن أساء الجيش هم قياداته...!!

ومن أساء إلى الشرطة هم ضباطها ...

ومن أساء إلى القضاء قضاة ...

ومن أساء إلى رجال النيابة رجال نيابة ...

ومن أساء إلى المثقفين مثقفون، و إلى الصحفيين صحفيون، وإلى الكتاب كتاب، وإلى أحزاب الأغلبية أحزاب الأغلبية و إلى أحزاب المعارضة أحزاب معارضة وإلى الأمة سكوتها عن كل هذا.

لقد افتقدنا المنهج، فقدنا القدرة على بناء تراكمى يبلور ويجمع إمكانيات الأمة وانصرفنا كل منا إلى عبادة ذاته.

إننى أتساءل مثلا كيف يمكن أن يكون جهاز إعلام يقوده مهرج جهازا وقورا . .

وكيف يمكن لجهاز فنى يقوده قواد أن يراعى مشاعر وقيم الأمة..
ولجيش يقوده خائن أن ينتصر . .

إننى أتساءل، كيف يمكن على مستوى الساسة مثلا أن نصدق وعودهم بالإصلاح وهم الذين يزورون الانتخابات.

كيف يمكن أن نثق بأمانتهم، وهم السفاحون القتلة الذين يفعلو بخصومهم فى السجون ما حفل الجزء الأول من هذا الكتاب بنماذج منه.

ولكى نبسط المسألة، فلنصغر مقياس الرسم، ولنسأل: هل يمكن أن تثق فى أمانة جارك وقد رأيته يعذب كلبا - لا إنسانا - حتى الموت، هل تثق به وقد سرق خطك التليفونى كى يتكلم على حسابك؟

كيف يمكن إذن أن نثق فى حكامنا؟

كيف يمكن أن نصدق أن ما يحدث فى توشكا أو الظهران أو الكويت إعمار لا خراب، وعمل لا عمولة؟!

كيف يمكن أن نثق حتى بمقاييس الحضارة الغربية بالقط وقد تركناه يمسك مفتاح " الكرار"؟

لقد كانت طريقة إدارتنا لكل شئوننا تفتقد إلى منهج، لذلك كان الفشل هائلا والكوارث فادحة.

عندما فكرنا - على سبيل المثال - فى تطبيق الاشتراكية ولّينا ألد أعداء الاشتراكية، وحتى لو لم تكن بذور فشل الاشتراكية كامنة فيها لفشلت عندنا .

مثال آخر : منذ ربع قرن على الأقل يقوم نظامنا السياسى على الدعوة للنظام الرأسمالى، وعندما أقول يقوم فإننى لست أعنى أنه كما يجب أن يُفترض قد أُسند إلى رأسماليين لينفذوه، بل أقصد أن مزيجا مدهشا من العسكر والشرطة والنصابين والسماسرة قد تصدوا لإقامته، وتطوع بعض رجال الدين ليفتوا أن الإسلام رأسمالى، وفى نفس الوقت كان الرأسماليون الحقيقيون يصرخون مما يحدث من تخريب للوطن، لم يكن الأمر بالنسبة لهم أمر الوطن بل أمر صناعاتهم التى تنهار تحت وطأة تفريط الساسة

تحت الضغوط الأجنبية التى راحت تجتاح الجمارك والقوانين التى تحمى الصناعة الوطنية، كانت صناعاتهم تنهار لصالح الصناعة الأجنبية، ومن هذا كانوا يصرخون، لكن حيل بينهم وبين التصدى لحماية صناعاتهم، ويخيل إلى أن أجهزة الدولة لن تستنكف ولن تخجل من اتهامهم بالشيوعية أو الناصرية إذا ما احتدم الخلاف، وهو خلاف لا أظنه يحتدم، فرأس المال جبان، وسيتحول الرأسماليون الحقيقيون الذين ينتجون للوطن كى يرقصوا على أنغام السلطة فينهبوا الوطن وشعارهم :

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا

فشيمة أهل البت كلهمو الرقص!

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نتخيل أن أهم رأسمالى فى البلد ليس أبرعهم تصنيعا ولا أكثرهم علما بشئون الاقتصاد بل ضابطا بمباحث أمن الدولة أو موظفا بالرئاسة.

ونفس ما يحدث فى الصناعة يحدث فى جميع المجالات الأخرى ..

لنا أن نتوقع إذن أن يكون أهم شيوخ الأزهر ليس شيخ الأزهر أو عالما من كبار علمائه، بل أيضا ضابط بمباحث أمن الدولة أو موظفا بالرئاسة.

لقد وعت الدولة الدرس، واستوعبت التاريخ عندما كان شيخ العامود فى الأزهر يستطيع بفتوى أن يهز أركان الحكم.

غير مسموح بأن يُنبت الوطن شيخ عامود، لا فى الأزهر ولا فى أى مكان أو مجال آخر، غير مسموح بشيخ عامود فى الدين يرجع العلماء إليه، ولا الصناعة يرجع الصناع إليه، ولا فى الثقافة يرجع المثقفون إليه، ولا فى السياسة ولا فى الأحزاب ولا فى أى مجال آخر، فشيخ العامود لا يمكن إلا أن يكون ضابطا بمباحث أمن الدولة أو موظفا بمؤسسة الرئاسة أو البلاط الملكى.

عندما فاز أحمد زويل بالجائزة العالمية الكبرى نبهنى أحد الأصدقاء إلى ملاحظة أحسبها مهمة، وهى أن إشادة الإعلام لا تكون مطلقة إلا إذا كان المصرى يعيش فى الخارج، وراح يقارن بين الضجة الإعلامية التى يحظى بها زويل أو يعقوب- رغم أننى

شخصيا أعتقد أنهم يستحقون أكثر - وبين التعتيم الإعلامى الذى يُفرض على علمائنا فى الداخل، وضرب صديقى مثلا على ذلك بمعهد المنصورة للمسالك البولية الذى ارتفع به الدكتور محمد غنيم ليصبح أحد أهم مركزين على مستوى العالم. وواصل صديقى أن مزيدا من الإشادة بمحمد غنيم ستجعله منافسا لوزير الصحة وذلك غير مسموح به.

نظام عنصرى طائفى لا يعتمد على اللون أو الجنس أو الدين بل على الوظيفة !!.ثم رحت أتخيل ساخرا لو أن أحمد زويل قد فعلها ورشح نفسه لرئاسة الجمهورية!، أى نقيصة لم يكن إعلامنا سيلصقها به، و أى جريمة؟!!.

إن فخامة الرئيس أو جلالة الملك أو سمو الأمير أو معالى الشيخ لا بد أن يكون أذكى و أعلم و أكبر من رئيس وزرائه، ورئيس الوزراء لا بد أن يكون أذكى و أعلم وأكبر من كل وزرائه، والوزير لا بد أن يكون أذكى و أعلم و أكبر من جميع من يتبعون وزارته وهلم جرا، ومن هذا المنطلق نستطيع أن نفهم كيف أن وزير الثقافة- المرفوض من معظم المثقفين الحقيقيين - أكثر أهمية من نجيب محفوظ، ونستطيع أن نفهم، أن هذا المجتمع الطائفى الغريب يجعل الناس طبقات - كما فى الهند - ليس مسموحا لطبقة منها أن تمتزج أو أن تختلط بالأخرى، إن مثل هذا الاختلاط يشكل خطيئة دينية تقترب من الكفر، و أحسب أن المجتمع عندنا لا يختلف، وباع الدولة فى التكفير أبعد بكثير من باع أى فئة أخرى، ومجتمع مثل هذا لا يمكن أن ينتج إبداعا فى أى مجال ولا أن ينجح أبدا.

ما أشد غرابة ما يحدث فى الساحة.

إن أوصاب السلطة قد انتشرت -كأنما بالعدوى- إلى نخب ما كان يجب أن تصيبها العدوى، فهى كالطبيب المأمول منه علاج المرض، فماذا نفعل إن أصاب المرض الطبيب. وهكذا فإن عيوب السلطة التى ترهلت وشاخت فى مواقعها قد انتقلت بالكامل، بل وبصورة ممسوخة أحيانا إلى أحزاب المعارضة، وما الشيخ الصباحى إلا مثل على ذلك، لكنه ليس المثل الوحيد، لأننا لو

أتيحت لنا الفرصة وعرفنا كيف يتصرف ويفكر بعض أمراء -خفراء- آبار البترول التى زرعوا حولها دولا لأدركنا كم أن الصباحى عاقل وحكيم !!.

الكل يفشل، وكما فشلت كل النظم فشلت كل أحزاب المعارضة، ربما باستثناء وحيد هو حزب الله فى لبنان، لأنه امتلك المنهج.

ولشدما جزعت على سبيل المثال لموقف حزب العمل فى مصر - وهو واحد من أكثر أحزاب المعارضة نضجا واحتراما - من سجن مجدى حسين، رئيس تحرير صحيفته، كان خطأ فادحا فى الحسابات أعتقد أنه لا يقل فداحة عن ذلك الخطأ القديم حين وافق الحزب على كامب ديفيد بتحفظات، ولقد ظل الحزب عشرة أعوام بعدها يحاول أن يعالج خطيئته، الآن نفس الشيء، خضع الحزب للضغط واستسلم للغواية وانخدع بالحيلة، لم يكن الأمر أمر خلاف بين المواطن مجدى بن أحمد حسين والمواطن علاء بن حسن الألفى، بل كان مقاومة لفساد دولة، وهو بهذا التصور خلاف لا ينهيه عزل وزير ولا اعتذار متبادل وسحب للقضايا، وقد كان موقف الحزب من الاستعداد للمصالحة بل ولاعتذار كريم أباه الخصم عليه، والسعى لتخفيف شروط الاعتذار المهين برهانا أمام الأمة أن الحزب على استعداده للتعايش مع الفساد نفسه، لقد كانت صدمة المتعاطفين مع الحزب والمؤيدين له بلا حدود، وكانت خسارة الحزب لما ظل يبنيه عشرين عاما أيضا بلا حدود، و أحسب أنهم قد خضعوا لمقتضيات السياسة، ربما كان فى مخيلتهم تجربة أربكان أو المغرب، ولم يكن ما فى مخيلتهم سوى وهم دُفِعوا أو اندفعوا أو استدرجوا إليه. ولقد انفطر قلبى ألما عندما عَلِمت من مصادر ثقة أن مجدى حسين كان أول المعارضين للصلح، كان يفهم الأبعاد الحقيقية للصراع، و أن تجربة تركيا والمغرب ليست متاحة لنا، و إنما تجربة الحسين، المقاومة حتى الموت استشهادا فى سبيل الله، فذلك وحده الذى سيعطى الحزب وجهه النضالى الذى تأتمنه به الأمة على مستقبلها، بل لقد وصل الأمر، أن مجدى حسين أصدر بيانات عديدة يندد فيها بمحاولات الصلح، لكن الصحيفة التى مايزال هو رئيس تحريرها رفضت النشر!! ولم يكبح الاستمرار فى التهاوى نحو الصلح، سوى تهديد مجدى حسين بالاستقالة من الحزب.

والقضية هنا ليست قضية مجدى حسين رغم أهميتها، و إنما الخطورة، فى أن عقلا واحدا أو عقلين اثنين فى الحزب قد منحا نفسيهما وهم الصواب والحكمة وسلطة اتخاذ القرار، و أن آراء الآخرين منعت لأنها خالفت الرأى الملهم للزعيم، وكان من بين هذه الآراء رأى مجدى حسين نفسه.

ولقد انفطر قلبى لذلك، لأن منهج المصالحة طبقا للتوازنات وغض النظر عن القيم المجردة لابد أن يفضى فى النهاية إلى الصلح مع إسرائيل والاستسلام لأمريكا.

ومنطق السلطة الأبوية واحتكار القرار لابد أن تفضى للاستبداد ثم الفساد ثم كوارث كقطع الليل المظلم.

انفطر قلبى ومايزال ينفطر و أنا أقرأ عن مذابح الجزائر وقراصنة السلطة الذين انقلبوا على الشرعية فى بحور من الدم، وعن حصار العراق والسودان وليبيا و إيران، وعن محاولة اغتيال المحكمة الدستورية العليا، وعن محاكمة جارودى، عن أن ربع العرب لم يعد يستطيع أن يكمل بالحج مناسك دينه دون موافقة أمريكا التى يتحكم فيها اليهود الذين توجههم إسرائيل، عن مذبحة الأقصر، حيث ربط الأجانب - أما نحن فقد عجزنا عن الربط -بين هذه المذبحة وحصار العراق، وبينها وبين انتشار الفساد والتزوير والتعذيب والبطش، وافتقاد الهدف والمنطق والمنهج، وعن انهيار متوقع فى مصر والعالم العربى كانهيار جنوب شرق آسيا.

وينفطر قلبى و أنا أقرأ كتاب سعد الدين وهبة : النهب الثالث لمصر، حيث يتوقع الاقتصاديون الحقيقيون الذين لا تقبع رئاستهم فى مباحث أمن الدولة أو مؤسسة الرئاسة أو بلاط الملك أن يرتفع سعر الدولار إلى أرقام فلكية، ليصبح الجنيه المصرى كالجنيه السودانى، بعد أن يكملوا الحصار على العرب وبعد أن يتم خصخصة و بيع مصر، و أن الرواج الاقتصادى المصطنع الذى تشهده البلاد الآن أشبه برواج من يبيع داره و أرضه و أثاث بيته، فقد تجرى النقود فى يده عاما أو عامين، قبل الخراب والإفلاس .

انفطر قلبى و أنا أقرأ مقالا للدكتور جلال أمين وددت بعد أن قرأته أن أكون وزيرا للإعلام حتى أستغل قانون الطوارىء فى

شيء واحد مفيد فأوقف جميع برامج الراديو والتليفزيون على جميع الموجات والقنوات، حتى الفضائية منها، لأذيع على الأثير ما كتبه جلال أحمد أمين، عن :" حقيقة العولمة " " كل الكلام الذى يصور العولمة على أنها عملية تحرر من مختلف صور الاستعباد هو محض خرافة"" لكى يسيطر المنتج على المستهلكين فإنه يفكك الفرد من أسرته ومن أمته ومن دينه. . الأمر الذى ينطوى على عملية أشبه بالقتل" . . : " . . . ولكن فلنفترض أننا قررنا المقاومة: مقاومة العولمة والشرق أوسطية، فإن مايجدر بنا أن نحذر من الوقوع فيه، هو أن نعتمد فى هذه المقاومة على شيء تمت عولمته بالفعل، وأقصد بذلك الدولة. إن الداعين إلى الصمود أمام تيار العولمة وإلى مقاومة الشرق أوسطية، التى هى فى نظرى صورة من صورها صيغت خصيصا لمنطقتنا العربية، يقعون فى خطأ الاعتقاد بأن الذى يمكن أن يدعمهم فى هذا الصمود هو دولتهم، مع أن دولتهم قد تم استسلامها وجرت عولمتها منذ زمن. إن المعارضة العربية لاتجاهات العولمة والشرق أوسطية مازالت توجه الخطاب للدولة، فتستجديها مرة، وتنتقدها مرة، وتمتدح موقفا اتخذته بعض سمات الشجاعة مرة دون أن تريد أن ترى، أن دولنا قد أفصحت بأبلغ بيان ووضوح عن أنها قد انضمت بالفعل إلى معسكر العولمة، ألا تبدو مخاطبتنا لها إذن مضيعة للوقت؟!."

انفطر قلبى و أنا أقرأ ذلك رغم أننى أعلمه منذ زمان طويل.

ولقد انفطر قلبى أيضا و أنا أقرأ عن لقاء شيخ الأزهر بالحاخام فقيامه بعد ذلك بتغيير المناهج فى الأزهر... .

عندما تسربت أنباء اللقاء قبل أن تنشرها الصحف، لم أتورع عن الاستنكار والتكذيب بل والإدانة، قائلا أنى أملك الكثير مما أدين به الشيخ الجليل، لكننى لاأقبل أبدا تلويثه وتلويث الأزهر بمثل تلك الشائعة المشينة، كان رأيى أن ذلك اللقاء ليس خطيئة دينية فقط، و إنما هو فاحشة سياسية، وسقطة لا تغتفر، لأنه حتى لو صح أن الدولة اعتبرت شيخ الأزهر موظفا فيها، لا هاديا يهديها، فمن مصلحتها أن تعلى مكانته الدينية، ولو حتى بالادعاء والتزوير والماكياج، ليكون هو المرجع فى قضايا الدين، ولتلزم فتاواه الجميع، بمن فيهم المتطرفين، إلزام القلب لا إلزام الأمن، فإذا

حدث أن نسى شيخ الأزهر مكانته، فعلى الدولة أن تنبهه، لأنه إن حاول أن يؤازر الدولة بمقابلة الحاخام، فإنه يهشم الدرع الأخير فى مواجهة المتطرفين، ليس من أجل حدث جلل أو كارثة دهياء، بل من أجل ذبابة، و أن هذا العمل بالتأكيد ضد الدولة، وكانت حساباتى وتقديراتى، أن شيخ الأزهر لا يمكن أن يتورط فى هذا الفعل، و أنه لو خانه التقدير، فسيجد من عقلاء الدولة من ينبهه، أو حتى يردعه، و إنه إن لم يجد من رجال الدولة من يردعه فسوف يبرز من مشايخ الأزهر من يمنعه، فإذا لم يتصد له الساسة والمشايخ فسوف يتكفل طلاب الأزهر بالمهمة، لطالما بجلناهم ودعونا لهم بالرحمات حينما غلبوا على أمرهم فدخلت ساحة الأزهر - سابحة فى دمائهم - الخيل والبغال والحمير، اليوم لن نغفر لهم إن دنسته الخنازير، ولن يدخل الحاخام الأزهرإلا بعد استشهاد آخر أزهرى، فالعار لن يفلت من الأحياء منهم حيا، بل وسيقلق عظام الموتى، لم يحدث ذلك ولن يحدث، لأنه إن حدث فإن ألف عام من الزمان تتقوض، وظللت على يقينى، حتى أتى النبأ اليقين .

حتى أنت ياشيخ الأزهر؟!

يستبد بى الغضب أحيانا فأهتف: أين الناس؟؟ أين الأمة ؟؟ لماذا لحقهم التشويه ؟؟ لماذا انتشر فيهم الوباء؟؟ لماذا انهزموا؟؟ لماذا لم ينج منهم أحد؟؟.

هل أستسلم كالبعض - مع استحالة الانتصار على دولة تكرس الفساد والظلم واللامنطق واللامنهج - لأقتنع بأن الحل الوحيد المتاح الآن هو الاقتراب من السلطة، طمأنتها أن المعارضين لا يريدون بها شرا، ثم محاولة التأثير على مواقفها بعد ذلك، يقول بعض من أحترمهم أنهم لا يستطيعون أن يدينوا من يقول ذلك ولكننهم لا يستطيعون أن يؤيدوه أيضا، فمن ناحية إذا كنا نطالب الحكومات بالحوار مع معارضيها فكيف نرفض نحن الحوار معها، لكننى أرد عليهم بقولى : كيف أحاور الحكومة، وكيف أصف جلالة ملك أو فخامة رئيس أو سمو أمير أو معالى شيخ أو من سواهم بالكفاءة والنزاهة، وما زال التعذيب والاعتقال والتزوير وصمة عار تسلبهم كل شرف أو بعض شرف إن جاز للشرف أن يتجزأ، ليس بيننا وبينهم سوى التزوير والتعذيب، لن نتكلم حتى عن

الفساد فقد يأسنا من إمكانية مواجهته فى جيلنا، ثم أن الحوار مع خصم فقد شرفه سيكون دائما لصالحه، إننى لا أتحدث عن اختلافات مندوبة فى الرؤى والمواقف، بل أتحدث عن الأساسيات التى لا يصلح بدونها حوار، كما أنه لا يصح.

فى أحيان أخرى يغلبنى الإحباط فأهتف بمن حولى : "لو جاءكم مصطفى كامل لحاكمتموه أمام محكمة عسكرية ولقضت بإعدامه رميا بالرصاص." و " لو جاءكم صلاح الدين لطالبكم الإنجليز بتسليمه إليهم ولسلمتموه " . ثم أواصل فى مرارة : " أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه، عمر بن الخطاب لو جاءكم لاعتبرتموه زعيم الإرهابيين بلا منازع ".

فى الزمن الماضى، كان من الطبيعى أن يخون الحكام والأمراء، لم يكونوا منا، وكانت الأمة بخير، عندما بدأت الثورة، ثورة عرابى، لم يكن فى الخزانة العامة قرش واحد، وبعد أن انتهت الثورة بالهزيمة، بعد التعبئة العامة والحرب الضروس ضد الإنجليز وضد الخديو، كان الباقى فى الخزانة مليون جنيه، ما يساوى المليارات بعملتنا الآن، هل تعرف يا أيها القارىء من موّل هذه الحرب؟ الإجابة أنت !! الناس، بسطاء الناس.

لقد انفطر قلبى من كل ذلك فرحت أستعيد العبر من التاريخ منذ صفين والجمل وكربلاء حتى جماعة كوبنهاجن، عن شرفاء تدنوا، و أطهار تدنسوا، و أبطال خانوا، وأتقياء فسقوا و أسوياء انحرفوا، ومجاهدين بلغ بهم الانحراف بعد أن رفعوا لواء الثأر لآل بيت النبى صلى الله عليه وسلم أن ادعوا النبوة.

لماذا يفسد الكل ويتعفن؟! لماذا.

والإجابة واضحة وجلية : افتقاد المنهج.

وبهذا المنهج أيها القارىء أقول لك أننا برغم كل هذا الانهيار سننهض لننتصر!!.

بهذا المنهج أقرر أننا – أنا و أنت – نحن الأقل لكننا الأعز، و أننا نحن الضعفاء، المحاصرين، المعتقلين، المعذبين، الشهداء، نحن الذين ننتصر فى النهاية دائما رغم كل عناء، و أن التاريخ يلقى بالآخرين فى مزابله، و أن الله يفصل بيننا يوم القيامة.

من أسرار الإعجاز الإلهى فى خلقه تداول الأيام بين الناس، أنه ما من ثورة استمرت وما من ثروة استقرت وما من قوة ابتلعت ما سواها، و أننا حتى على المستوى الشخصى لا نستطيع أن نتنبأ واثقين بما ستكون عليه أحوالنا بعد أعوام خمس، أن هذا ينطبق على الأفراد وعلى الدول، انظر وا إلى عبرة التاريخ فى نابليون وهتلر والاتحاد السوفيتى، إن إحباطنا من الواقع وتشاؤمنا من المستقبل ربما كانا مبعث سخرية من ينظر إلينا بعد مائة عام.

ولقد فعلها ديف والتر مدير الجمعية العلمية للتاريخ الاجتماعى الأمريكى، حين رجع فى عام ١٩٩٣ إلى الصحافة الأمريكية قبلها بمائة عام أى عام ١٨٩٣، ليستعيد أحداث استقصاء فريد أجرته إحدى وكالات الأنباء فى شيكاغو حين سألت مشاهير المجتمع آنذاك عن تصوراتهم لما ستكون عليه الدنيا بعد مائة عام، ولكم كانت مضحكة وبلهاء تلك التصورات عندما أعاد ديف والتر نشرها بعد مائة عام (١٩٩٣)، إن تشالز فوستر وزير الخزانة الأمريكية فى ذلك الوقت قد توقع استمرار السكك الحديدية كأسرع وسيلة للمواصلات بعد مائة سنة !!، السيناتور جون انجالس توقع أنه سيكون بمقدور الناس أن يستدعوا منطادا لينقلهم من مكان إلى آخر بنفس السهولة التى يطلبون بها العربات التى تجرها الخيول، الجنرال جون واناميكار، مدير البريد قرر واثقا أن بريد ١٩٩٣ لن يجد أفضل ولا آمن من المركبات النظامية التى تجرها الجياد، آخرون استبعدوا تماما نجاح فكرة مترو الأنفاق، وتنبأ البعض الآخر أن يحل التنويم المغناطيسى محل التخدير فى العمليات الجراحية، وتعددت النبوءات، لكن مامن أحد توقع مثلا انتشار السيارات، رغم أنها كانت فى ذلك الوقت تجوب شوارع أوربا، و أن حفر أنفاق مترو باريس، قد بدأت فى العام التالى مباشرة(١٨٩٤).

إن المستقبل إذن غير كل تصوراتنا له، و الإعجاز الإلهى فى الخليقة يأبى إلا أن يكون معجزا.

إن منهج الحضارة الغربية يعتمد على المادى المجرب المحسوس، فهى أشبه بجسد بلا روح، أما جوهر الحضارة الإسلامية فإنه يعتمد على كل ذلك مضيفا إليه قوة ودعما لا نهائيا هو قوة الروح،

وهنا إذن يكمن جوهر نملكه لا يمكن أن يتمتع أعداؤنا بمثله، جوهر الإيمان بأن وعد الله حق، جوهر الإيمان، لا بالله فقط، بل بنواميس الله التى خلقها والتى تحتم دائما و أبدا انتصار الحق واندحار الشر مهما بعد المدى.

ومن هذا المنظور وبهذا المنهج يجب علينا أن نقرأ التاريخ وأن نتأمل عبرته، إن خيانة الحكام والنخبة ليست بحادث طارىء، فعبر التاريخ كله كان حكامنا يخونون قضية أمتهم، تاريخ الحكام هو تاريخ الخيانة و البطش والجبروت والتزوير والكذب، إننا نقع فى خطأ تفسير المستشرقين بما يكتنفه من نوايا السوء، حين نطالع تاريخ الحكام مفترضين أنه تاريخ الحقيقة، وليس إلا سلسلة من الأكاذيب لإخفاء الحقيقة، إن التاريخ بعد ألف عام قد يذكر أن مصر قد اعترفت بإسرائيل وصالحتها، وتترسخ الكذبة كأنها حقيقة، وربما ينسى معظم الناس أن مصر لم تصالح إسرائيل ولم تعترف بها، صالحها السادات وبها اعترف فقتلته مصر . نصفكم يا قراء عشتم هذه الفترة، فهل كان سلوك السادات وفكره يعبران عن الأمة، أم كان فكرنا نحن، وفكر رجل الشارع العادى، هو الذى يصوغ الأحداث ويحاصر جريمة الصلح والاعتراف، كنا نحن مصر، ولم يكنها السادات، فانظروا إلى تاريخنا بنفس الطريقة، كان الحكام يخونون، لكن الناس كانوا فى نفس الوقت يصوغون حضارة شاملة ورائعة فى كافة فروع العلم والدين و الأدب والمعرفة والحرب، تلك الحضارة هى التى بقيت لنا وللعالم، أما الحكام فقد ذهبوا فى مزابل التاريخ .

انظروا فى تاريخ البشرية منذ آدم، وتعلموا أنه يتوجب علينا ألا نرفض الشر، لأن الله هو الذى خلقه ليبلونا به، ليمتحننا، علينا إذن أن ندرك الحقيقة المعجزة فى بساطتها، فى بهائها، فى سطوعها الذى يعمى الأبصار عن رؤيتها، أن الله فاعل فى هذا الكون، لا تتجاهلوا أهم عنصر فى أى صراع فى هذه الدنيا، أن الله فاعل. . المادى المجرب المحسوس موجود وعلينا أن نتلمس به الأسباب لكن الله فاعل . . حسابات الحاسبات الضخمة موجودة ويجب أن تُحترم ولكن الله فاعل. الله فاعل فى هذا الكون، لقد خرج الحسين بفكرة مجردة يدافع عنها بغير سلاح إلا القلب المؤمن، و احتسب

وصدق الله، وتجرد و أخلص، وأنه فى اللحظة التى بدا فيه اختلال القوى يؤكد حتمية النتائج، وفى اللحظة التى استأصل فيها الأمويون شأفة أهل البيت، وظنوا أن الدنيا قد استوت لهم، كانت ثمة معادلة رهيبة راسخة قديمة قدم الأزل تتحقق، أن المؤمن ليس مطالبا بالقوة كلها بل بما يستطيع منها، و أنه حين يتجرد ويخلص، فثمة قانون أشبه بقانون الفيزياء الذى يتحكم بالكتلة الحرجة التى يتحقق بعدها الانفجار النووى، لقد طُبِّق القانون الذى يقضى بأنه حينما يكتمل قدر معين من التجرد والإخلاص، يأتى نصر الله الموعود ليقلب كل موازين القوى. انظروا إلى بدر، إنظروا إلى غزوة الخندق، إنظروا إلى الحروب الصليبية، إنظروا إلى الحرب العالمية فى حطين حين خرج صلاح الدين من مصر بجيش قوامه اثنا عشر ألفا ليواجه مئات الآلاف من جيوش الصليبيين، ولينتصر، أنظروا كيف غضب الله لخاتم رسله فمكنه من أرناط الذى سخر من الرسول صلى الله عليه وسلم، فمكن صلاح الدين منه فشقه بسيفه، انظروا، و أبشروا بالفرج فالله غاضب لنبيه مرة أخرى وقد تطاول عليه علوج الأمريكيين فى الخليج وخنازيرهم فى إسرائيل، وسيعمل ذلك القانون الإلهى الذى لاندرك كنهه، إنظروا إلى ما حدث أيامها عندما جند ملك الألمان جيشا جرارا من ثلاثمائة ألف مقاتل لينجد به الصليبيين وليقضى على المشكلة من جذورها باحتلال مكة والمدينة، وبدأ الجيش الجرار زحفه، تخيلوا لو أن هذا الجيش وصل إلى ساحة الحرب ماذا كان يمكن أن تكون النتيجة؟كيف كان يمكن أن يكون تأثيره على الجغرافيا والتاريخ ؟ هل تعرفون ماذا حدث لهذا الجيش؟ حدث أن الله فاعل، أن الله غالب على أمره، لقد نشبت الصراعات بين الجيش واستحر القتل، ثم غرق الإمبراطور وهو يستحم فى ترعة صغيرة فخلفه ابنه، ثم فشت الأوبئة فمات الابن أيضا، فهل تعلمون كم وصل من الجيش الجرار إلى ساحة الحرب فى فلسطين ؟ ألف !! ألف فقط !! منهكين متعبين مهزومين، الله فاعل، الله فاعل، انظروا إلى صراع الخير والشر منذ آدم، لو اتبعنا قواعد التفكير العلمى بمنطق أهل الأرض ، بالمادى المجرب المحسوس وبأدق و أضخم الحاسبات، لانتهى الخير بالهزيمة الماحقة بعد بضع

عشرات أو مئات من السنين من بداية البشرية، لكن الله فاعل، ألق البذرة فى الأرض كيفما شئت لكنها ستنبت فى اتجاه الشمس، اقلبها، سيستدير الساق نحو الشمس، الله فاعل، فى القرن الماضى كان تطور العلم خادعا حتى ظن أهل الأرض أنهم أوشكوا أن يكونوا قادرين عليها، وانتشر الإلحاد، فى قرننا هذا، عندما اتسعت مدارك العلم، اكتشفنا كم نحن عاجزين، جهلة، إحدى نظريات الفيزياء الآن، نظرية علمية فى علم تطبيقى اسمها نظرية انعدام اليقين : LAW OF UNCERTANITY، فبعد مرحلة ما يكتشف العلم أنه عاجز عن التقدم، من أدق أنواع الحساب فى تاريخ الكون حساب زمن نصف العمر للعناصر المشعة، وهو حساب تصل دقته إلى أجزاء من الثانية فى آلاف الأعوام، وفترة نصف العمر لعنصر كالراديوم مثلا هى الفترة التى تتحلل فيها نصف ذراته إلى غاز الرادون و عنصرالرصاص، لقد أدرك العلم ذلك وحسب حساباته بمنتهى الدقة، لكنه لم يدرك أبدا، ولم يجد وسيلة أبدا ليعرف أى من الذرات يتحلل و أيها يبقى، أدرك حتى علماء الفيزياء أن الله وحده هو الذى يعرف وهو الذى يحدد أى من الذرات يبقى و أيها يتحلل، الله فاعل، أنظروا إلى تلك النسبة المعجزة فى الإنسان والحيوان والنبات بين الذكور والإناث وملاءمة ذلك لكل جنس منها، وانظروا إلى زيادة نسبة المواليد الذكور بعد الحروب الكبرى حين يهلك كثير من الرجال، الله فاعل، وثمة قوة لاندريها ولا ندرك كنهها لكننا نؤمن بها هى التى تحدد النهايات والمصائر، الله فاعل، لكن خطيئتنا الكبرى أننا - خاصة بمفهوم الحضارة الغربية - نعطى العقل أكثر مما يستحق، وليس العقل إلا بعضا من الإنسان قدراته محدودة ومحكومة بوسائل الجسد فى تحصيل المعارف، لقد خلقنا الله ثم أعطانا من العقل ما نحتاج فعلا إليه، ما ندرك به النسبى لا المطلق، الناقص لا الكامل، والعقل يشبة حقيبة جراح تحوى من الآلات مايمكنه من إجراء عمليات محددة، لا يمكنه أداء سواها، وعدم استعماله فيما خلق من أجله حماقة واستعماله فيما لم يخلق من أجله جنون، تماما كما أن الله قد خلق لنا قدمين نسير عليهما، فإن من يتوقف عن استعمالهما أحمق ستدفع حماقته بقدميه إلى الضمور، أما من يحاول استعمالهما للسير بهما على

السحاب فهو مجنون ثم أنه لا محالة هالك، الله فاعل، والعقل البشرى محدود، فإذا كنا نؤمن بكل ذلك فلماذا نستبدل المنهج الأرضى بالمنهج الإلهى؟! وكيف بعد ذلك ننتظر الفلاح والنجاح؟!، الله فاعل، أنظروا إلى صراع الخير والشر من الأزل إلى الأبد، لقد كان المدافعون عن الخير دائما هم الأقلون، هم المستضعفون فى الأرض، كان عددهم فى كل بقعة من بقاع الأرض لا يتجاوز العشرات إزاء الآلاف، أو الآلاف إزاء الملايين، لكنهم هم الذين انتصروا دائما، لو أخضعتم التاريخ لمقاييس العقل الأرضى لما بقى فى الأرض خير، واحد فى الألف هم الذين رفعوا الراية دائما عبر التاريخ وسلموها من جيل إلى جيل، واحد فى الألف أظهر الله دائما على أيديهم وقلوبهم نوره، واحد فى الألف هم الذين أصروا دائما على ألا يستسلموا، ولقد كان الحكام دائما فى الجانب الآخر، عدا استثناءات نادرة سجلها التاريخ واحتفى بها أيما احتفاء، واحد فى الألف، هم الذين أدركوا أنهم جند الله فى الأرض و أنهم هم الوارثون، ليست خيانة الحكام والنخبة اكتشافا جديدا، انظروا إلى التاريخ الإسلامى، كم من الحكام بعد الخلفاء الراشدين كانوا من جنود الخير وكم منهم كان من جنود الشر، كم منهم حارب كى يعلى كلمة الله وكم منهم انتصر للشيطان، أنظروا إلى ما فعله حكام الأمويين والعباسيين والعثمانيين بنا، وانظر إلى ما يفعله حكامنا الآن، ومع ذلك، هم الذين يذهبون ملعونين - فى أغلب الأحوال - حتى نهاية الزمان ونحن الذين نبقى، نحن المستضعفين، ولست أدعى أننا كنا على الحق دائما، لكننا حاولنا طول الوقت فكنا الخطائين التوابين، نحن الذين بقينا، نحن الذين ذُبحنا وقتلنا وعذبنا وحرّقنا وصلبنا وسجنا وهزمنا وتُقوّلت علينا الأقاويل وزيف ضدنا التاريخ، هم ذهبوا ونحن بقينا، لأنهم أطفأوا نور الله فيهم فلم يبق فيهم إلا الوجود الحيوانى الذى لا يترك خلفه بعد الموت إلا نتن الجيف، نحن، نحن المستضعفين منّ الله علينا فأدركنا أننا حملة راية نور تنتقل من جيل إلى جيل، أدركنا أننا نحملها كأمانة تعهدنا بها قبل أن نولد بملايين السنين لنوصلها إلى بعد أن نموت بملايين السنين، كى نقف أمام الله يوم الحساب يباهى بنا نبينا عليه الصلاة والسلام الأمم، نقف منتصرين خالدين لا نموت، ليس

يضيرنا إذن أن يسقط منا فرد أو مليون فرد، فنحن نحارب من أجل قضية خلق ووجود وكون لا يحده زمن ولا وطن ولا جيل ولا فرد، قضيتنا مستمرة استمرار الوجود، ولأننا واثقون أن رايتنا هى التى تصل، فلا محل عندنا لليأس ولا انتظار للنصر، لأننا منتصرون ونحن محاصرون، منتصرون ونحن نُقصف بالصواريخ أو نعدم بالرصاص، منتصرون معلقين على المشانق، منتصرون مصلوبين، منتصرون لحظة اتخاذ الموقف لا لحظة النتيجة الأرضية، منتصرون حين انتصرنا فى الجهاد الأكبر على نفوسنا فتوقفت ذواتنا عن التضخم، توقف كل واحد منا عن اعتبار نفسه مركز الكون و أن موته هو نهاية الدنيا، توقفنا عن انتظار جنى ثمار جهادنا فى حياتنا، نحن نحارب اليوم كى ننتصر بعد ألف عام، تماما كما حارب الحسين كى ينفى الشرعية عمن اغتصب الحكم رغما عن المسلمين، ولو أنه استسلم لحل لكل غاصب غصيبته، قولوا لى من انتصر، يزيد أم الحسين، وانظروا إلى بلاد المسلمين اليوم كم منهم يتسمى باسم يزيد وكم يتسمى بالحسين، كم يتسمى باسم على وكم يتسمى باسم معاوية، انظروا، لتدركوا أن جهادنا نحن هو الذى يبقى فى قلوب الناس و أن كلامهم زبد يذهب فى الأرض جفاءً. نحن خسرنا الدنيا فلا نطيق أن نفقد من الآخرة شيئا وهم فقدوا الآخرة فلا يطيقون أن يخسروا من الدنيا شيئا، وما خسرنا الدنيا لقلة حيلة لكننا أدركنا أنها لهو ومتاع الغرور، أنها جيفة، ولولا هوانها على الله مارزق فيها كافر بشربة ماء، لذلك استعصت قلوبنا عليها، لا لزهدنا، بل لطمعنا فيما هو خير و أبقى. فإذا كانت الدنيا جيفة فما موقع التاريخ الكذوب من الجيفة وما قدر حكام خانوا فيها. أنظروا إلى سر الإعجاز الإلهى فى خلقه: إن الواحد فى الألف هو الذى يحدد مسار التاريخ، وهو برغم الأغلبية الكاسحة يتطور باستمرار إلى أمام، إنهم دائما يعرقلون التطور، يؤخرونه، لكن مشيئة الله هى التى تنفذ على أيدينا فى النهاية، هذا الواحد فى الألف لم يخبرنا به حساب ولا تجربة ولا جهاز كمبيوتر بل أنبأنا به الله حين أخبرنا أنه يأمر آدم يوم القيامة أن يأتيه بحصاد جهنم فيأتيه من كل ألف بتسعمائة وتسعة وتسعين، الواحد فى الألف إذن هى الكتلة الحرجة التى يحدث بعدها

الانتصار، فهل نعجز كأمة أن نربى من كل ألف واحدا و أن يثبت هذا الواحد وهو على يقين من نصر الله. إننا على مشارف الزمن الذى أخبرنا به الرسول صلى الله عليه وسلم، الزمن الذى يخرج فيه الناس من دين الله أفواجا، زمن العولمة، فهل تعجزين يا أمة الإسلام أن تعطى من كل ألف واحدا فقط ؟ أجل، فليثبت منا من كل ألف واحد، وسيكون لنا النصر.

أرأيت أيها القارىء كيف يمكن أن يغير المنهج من نظرتنا للأمر، لسنا مطالبين إذن بالمستحيل، ولا مطالبين بما قد يؤدى إلى مجازر الشعوب والحروب الأهلية، مطالبون فقط بما نقدر ونستطيع، فليكن فى الحاشية والجيش والشرطة والقضاة والنيابة والمجتمع كله صالح واحد بين ألف طالح، وسينتصر الواحد الصالح. لكن هذا الصالح عليه ألا يخشى إلا الله، أن يعبد الله حقا ويعرفه حقا ويجاهد فى سبيله حقا، ولكى أبرهن لك على رجاحة ما أقول يا قارئى فإننى أسألك: هل تعتقد أننا – على سبيل المثال– فى مصر قد وصلنا إلى هذه النسبة؟ و أنه يوجد بين الستين مليونا ستين ألف صالح؟ هل تعتقد أنه يوجد مثلا بين خمسة آلاف صحفى خمسة صالحون؟ ؟ ... ونفس الشىء فى الجيش والشرطة وجميع فئات المجتمع الأخرى.

إن الآخرين يعرفون عن قوانا الكامنة أكثر بكثير مما نعرف، لكن الجهل والخيانة يحاصراننا، وعلى سبيل المثال فما أكثر ما كتب عن كتاب "صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمى"، ما أكثر ما كتب عنه، لقد قدمه البعض للقارىء كما لو كان كتابا لا يأتيه باطل، ومع ذلك لم يذكر أحد أن رأي المؤلف : صمويل هنتنجتون فينا أفضل من رأينا فى أنفسنا، يقول الكاتب : " طالما أن الإسلام يظل (وسيظل) كما هو الإسلام، والغرب يظل (وهذا غير مؤكد) كما هو الغرب، فإن الصراع الكبير بين الحضارتين الكبيرتين و أساليب كل منهما فى الحياة سوف يستمر."

أجل ... مهما كانت كثافة الظلام فى الحاضر، ومهما كانت حسابات العقل متشائمة، فإنه لا ينبغى أن نيأس من المستقبل فثمة وجه آخر للأمر علينا ألا نغفله، ذلك أن التطور البشرى كله مبنى على اكتشاف خطأ ما ظنناه حقائق راسخة لا يتطرق الشك

إليـهـا، هل تذكـرون من أعـدمـوهـم لأنهم قـالـوا بكروية الأرض؟ ولم يحدث هذا فى العصـور المظلمـة فقط، ففى عـام ١٩١٣ حـوكم العـالم الأمـريكى لى دى فـورست بتـهـمـة النصب والاحـتيـال لأنه حـاول أن يبيع أنـبـوبـة إليكتـرونيـة، وكانت هذه الأنبـوبـة بعد ذلك هى أساس الراديو والتليفزيون والحاسبات الضخمة والصواريخ. لقد كان من حق لى دى فـورست أن يصـاب باليـأس، لكن لا يحق لنـا نـحن مـهمـا صادفنـا من إحبـاط أو نكران أو فـشل أن نيـأس، فنـحن لا نجاهـد من أجل قـضيـة شـخصيـة ولا مـن أجل مـجد أرضى، قـضيـتنا هى إعـلاء كلمـة الله، وهى قـضـيـة مـحسـومـة، نحن على الحق، من يسـقط منـا فـاز، ومن يسـتـمـر يفـوز والقضيـة فى كل الأحـوال مـسـتـمـرة. حـتى الأخطاء والهزائم، يوظفها الله لنا كى تكون جنودا لنا، أنظروا إلى هزيمة الحسين أمـام يزيد وكيف تحولت إلى انتـصـار لقضـيـة أبد الدهر، انظر إلى جبـروت الدولة العثـمـانية وظلمها، وكيف حـافظ هذا الظلم والجبروت على حد أدنى من تماسك الأمة، و أخر انهيـارها أمام فـورة عنفـوان الغرب واندفـاعـه نـحـو الأندلس والهند، وكـيف سـمحت هذه المهلة للأمـة أن تلتـقط أنفاسـهـا وتجـمع الحد الأدنى من قـواها لتحـافظ على هويتـهـا وتسـتـمـر فى اسـتـجـمـاعـهـا حـتى تبـدأ صحوتها من جديد لتواجه الغرب الآن، وانظروا فى عصـرنا الحديث إلى تصـرفات بعض دولنـا، لقد كان تصـرفهـا ضد مصلحـة الأمـة كى تثـور فى الضـمـائر الآن تسـاؤلات عن شـرعـيـة وجـودها، هذه التساؤلات المثارة اليوم سوف تنفجر غدا، وسـوف تغيـر الجغرافيـا والتـاريخ، انظروا مـثـلا إلى الأزهـر عنـدمـا نسى دوره ليـدعـم السلطان، عندما راح يقارن كامب ديفيد بالحديبيـة، لقد انصـرفت الأمـة عنـه، عزلتـه كى توقف تأثيره الضار على وجدانها، و حل محل الأزهر خطبـاء مـساجد نصف ما يقـولونه من أحاديث هى أحاديث مـوضـوعـة، وبرغم ذلك فبجهل الجهلاء لا بعلم العلمـاء احتفظت الأمـة بتـوجـهـهـا الصـحـيح، تمامـا كمـا يحـافظ الصدأ على تماسك هيكل معدنى ضخم لو أزلت منه الصدأ لانهار، فـانظروا فـيـوض الكرم حين ينصـرنا بضـعـفنا ويحـفظ عـقلنا بجـهلنا، انظروا أيضـا إلى البوسنـة، لقد كانت مـحاولة استـئـصـال شأفـة الإسلام هى نفسـهـا الطريق إلى انبثاق أول دولة إسلامية فى أوروبا الحديثة.

اقـرؤوا كـتـاب : الإسـلام يتـحـدى لوحيـد الدين خـان ، اقـرؤوه لتدركوا أن الله سوف يسبب لكم الأسباب.

انظروا و أيقنوا إذن بالنصر، واعلموا أن مأساة البشرية ليست فى الموت بل فى الخلد، وما الموت سوى عرض عابر، لقد كنا أحياء قبل أن نولد، وسنحيا بعد أن نموت ثم نُبعث ثم لا نموت أبدا، وإننا عندما نبدأ الطريق ندرك أن إخوة و أبناء لنا سوف يكملون ما بدأنا، مالراية ترفع مشيئة الله أن تسقط أبدا. لا تستيئسوا، بعون الله سوف ننجح، سنوقف التعذيب وسنمنع التزوير وسنقضى على الفساد وسنوحد الأمة وسنحارب إسرائيل كافة كما أمرنا الله فنزيلها من الوجود.

لو أن إنسانا شريفا وعدك وعدا فإن وعد الحر دين عليه.

ولو أن جلالة ملك أو فخامة رئيس أو سمو أمير أو معالى شيخ وعد وعدا فإن وعده أمر.

أما إذا وعدنا الله نفسه فإن وعده قضاء لا رد له. ومجرد الشك فى حدوثه معصية نبرأ إليه منها.

لقد فشلت الدول، وفشلت الأحزاب وفشلت التجمعات لكننا نحن كأفراد سننجح...

نحن شتلات الزمن الآتى، نحن الذين سنحافظ بإذن الله على اليقين فى قلوبنا كى نمنحه لمن يأتى بعدنا...

نحن جيش الله، وعلى كل فرد منا أن يدرك أنه يحارب وحده و أنه جيش وحده و أن وعد الله حق ونصره قريب...

علينا أن نحافظ على أنفسنا، على مبادئنا وقيمنا و أفكارنا كى لا يصيبنا البوار والعفن الذى أصاب الذين من حولنا.

علينا أن نناضل ونكافح و أن نستعد للاستشهاد فى كل لحظة، فما أقل عددنا وما أكثر أعداءنا.

علينا أن نفعل كل ذلك بحب وبثقة ويقين ...

فنحن جنود، أوصانا قائدنا بمهمة، وعلينا القيام بها، حتى لو متنا فى الطريق، فالقائد يعلم، وقد كان قادرا على أن ينفذ مهمته بقدرته دون تكليف لنا، لكن التكليف امتحان لنا، ليس من حقنا

نحن الجنود أن نسأل القائد لماذا يفعل ما يفعل، فكوننا لا نقرأ إلا صفحة من كتاب الوجود ثم نذهب يحتم علينا بعدم اكتمال المعرفة ألا نسأل أو نعجب أو نعترض، ثم أنه سبحانه ما ضنّ علينا بوعد النصر، إن الإيمان الأكمل كان يقتضي منا أن ننفذ ما كلفنا به حتى دون وعد، لكنه سبحانه رحم الضعفاء فينا، نحن لا نصل إلى الغايات بل نتبع الوسائل، وفي وسائلنا ينبغي أن نكون دائما كما أمرنا، ولا عذر لنا، تحت أي ظرف من الظروف، في أن نتخلى عن نبلنا وشرفنا، ولا أن ننسى أبدا أننا خير أمة أُخرجت للناس.

* * *

تم بحمد الله

للمؤلف

اغتيال أمة	طبعة أولى	١٩٨٧	سياسى	مكتبة مدبولى
اغتيال أمة	طبعة ثانية " مزيدة "	١٩٩١	سياسى	مكتبة مدبولى
الحاكم لصا		١٩٨٩	رواية	مكتبة مدبولى
مباحث أمن الوطن	مصادرة	١٩٩١	مجموعة قصصية	مكتبة مدبولى
قصر العينى		١٩٩٢	رواية	مكتبة مدبولى
من مواطن مصرى إلى الرئيس مبارك		١٩٩٣	سياسى	الشركة العربية للطباعة والنشر
إعلانات مبوبة		١٩٩٤	مجموعة قصصية	دار جهاد للنشر
مباحث أمن الوطن		١٩٩٧	رواية	مكتبة مدبولى الصغير
- إنى أرى الملك عاريا		١٩٩٩	سياسى	مكتبة مدبولى
الشاعر			مجموعة قصصية	تحت الطبع

كلمة الغلاف

هذا صنف من الكتب نزعم أنه غير مسبوق، فهو عمل يصعب تصنيفه، كما يستحيل تلخيصه وعرضه فى هذه المساحة، فإذا كان القارىء يبحث عن التاريخ السياسى والاجتماعى لمصر والعالم العربى فى هذه الفترة الحرجة من تاريخنا فهو كذلك، و إذا كان الباحث يسعى خلف معرفة ديناميكية صنع القرار من حيث الإرهاصات والمقدمات وجماعات الضغط ففى ثنايا هذا العمل كل مبتغاه، وإذا كان القارىء -أى قارىء- فى حيرة من أمره وعزّ عليه الفهم وتملكته الحيرة ووجد نفسه كل يوم وكل ساعة يقدح فكره ليضع يده على أسباب مانحن فيه فى بلدنا العزيز مصر بل وفى العالمين العربى والإسلامى، إذا كان هذا حاله ولم يجد البوصلة التى تهديه للإجابة عن أسباب مانحن فيه، وكيف يحدث فى بلادنا -دون بلاد المعمورة- أن التطور ليس سنة الحياة و أننا نتقهقر ونتمنى لو عاد بنا الزمان ألف سنة حتى نستطيع أن نبدأ فنضمن تقدما محسوسا على أساس من اليقين والثقة بالنفس وبالناس، إذا كان هذا هو حال القارىء، ولا نحسب أن أحدا ليس هذا حاله، فلا غنى له عن هذا الكتاب، فالكل يتساءل أين الحقيقة، والكل يفتش ويبحث عن أسباب القوة وأسباب الضعف والانهيار فى غياب الفكر والقدوة والأسلوب العلمى والصدق مع النفس.

وبعيدا عن القوالب التقليدية فى الكتابة والتأليف، وبمنهج يضع المجتمع بكل آلامه وآماله تحت المجهر مستعيرا كل أدوات البحث العلمى والتطبيقى، ولم لا، والكاتب طبيب، فلم يقطع أمرا قبل إجراء مايلزم من تحاليل وفحوصات وأشعات وما شابه، وفى كل ماذهب إليه لم يغب عنه أن الحرية والديموقراطية وحق الاختلاف هى العلاج مهما كانت مرارة الدواء، ومهما بلغت حالة المريض=(المجتمع) من سوء، من فرط ما تعرضوا له من إهمال وتخبط فى مراحل التشخيص وعشوائية وصف العلاج.

فى هذا الكتاب لم يدّع الكاتب أنه خرج بنظرة جديدة أو أنه يمارس نوعا من السحر، أو أنه توصل إلى منطق يقول للشيء كن فيكون، لا، ولكنه استدعى التاريخ والمخزون والموروث الثقافى لهذه الأمة وغيرها من الأمم، ولم يترك دراسة أو فكرا مع أو ضد إلا وأخذ منها مايخدم فكرة الكتاب، وستجد عزيزى القارىء أنه لم يترك طوبة ولا حجرا فى بناء هذا البلد إلا قلبه وحاوره واستنطقه و أشهده على ما يفعله الإنسان بأخيه، وعلى ماهو حاصل فعلا، وستجد نفسك عزيزى القارىء أنك مع الانتهاء من قراءة هذا العمل، كأنك كنت فى صحبة عدد من المفكرين السياسيين والاقتصاديين والشعراء والفلاسفة والقادة فى عصور مختلفة، هم كل بل أعز مانملك من الفكر البشرى.

ومن كل نقاط الاتفاق والالتقاء كان التشخيص والعلاج أملا فى إصلاح ما أفسده الإنسان ووصولا إلى بناء الفرد الحر الذى يقدم العقل على العاطفة، وتكون قيمة التضحية والأثرة عنده عقيدة من عقائد العمل اليومى فى مجتمع ديموقراطى حر.

إنه كتاب لا يمكن تجاهله..

والله من وراء القصد.

الناشر

